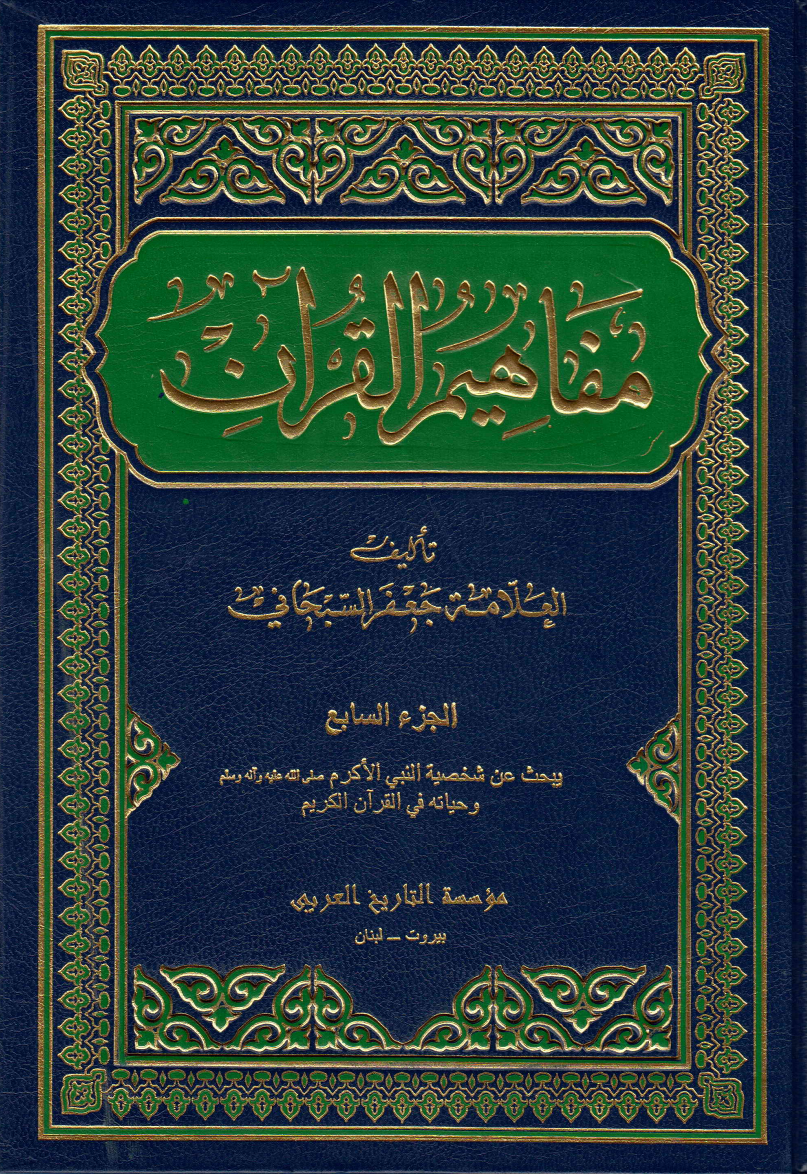


مفاهيم القرآن
تأليف
العلامة جعفر السبحاني
الجزء السابع
يبحث عن شخصية النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم
وحياته في القرآن الكريم
مؤسسة التاريخ العربي
بيروت — لبنان

مفاهيم القرآن

تأليف

العلامة جعفر السبحاني

الجزء السابع

يبحث عن شخصية النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم
وحياته في القرآن الكريم

مؤسسة التاريخ العربي

بيروت ــ لبنان

THE ARABIC HISTORY
Publishing & Distributing

مؤسسة التاريخ العربي
للطباعة والنشر والتوزيع

العنوان الجديد

بيروت - طريق المطار - خلف غولدن بلازا - هاتف ٥٤٠٠٠٠/٠١ - ٤٥٥٥٥٩/٠١ - فاكس ٨٥٠٧١٧ - ص.ب. ١١/٧٩٥٧

Beyrouth - Air port street - Golden plazza - Tel: 01/540000 - 01/455559 - Fax: 850717 - p.o.box 7957/11

بسم الله الرحمٰن الرحيم

عواطف ساخنة و مشاعر تقدير

من أرض الذكريات الإسلاميّة : الحبشة(أثيوبيا)

وصلنا كتاب من العالم الجليل الأُستاذ محمد كمال آدم المدرس في مدرسة أهل البيت يحمل في طيّاته عواطف ساخنة، حول «**سلسلة مفاهيم القرآن**» و ما فيها من بحوث في التوحيد و النبوّة، و قد وجد فيها صاحب الرسالة ما يعالج مشاكل العصر التي تثيره الأقلّيّات الدينية في تلك الديار و إليك بعض ما ورد في الكتاب :

حضرة العالم العلاّمة و الحجّة الفهّامة، الأُستاذ جعفر سبحاني أطال الله بقاءه ذخراً للاسلام و المسلمين.

السلام عليكم و رحمة الله و بركاته

يسرّني غاية السرور و مزيد الفرحة أن تصل رسالتي هذه إليكم، و أنتم في تمام الصحّة و العافية و أتمنّى لكم النجاح و التوفيق في كل أعمالكم.

سيدي العزيز أنا أخوكم المسلم الأثيوبي محمد كمال آدم المدرس في مدرسة أهل البيت و إنّي أحد المتولّعين بمطالعة مؤلّفاتكم الكثيرة المفيدة، و الرائعة، التي قمتم بتأليفها لمعالجة المسائل الإسلامية معالجة جديدة و الدفاع عن حوزة الدين الإسلامي، في جميع جهات المعركة الفكرية مع الأعداء، فأوّل ما ظفرت به من مؤلّفاتكم هو كتاب «**معالم التوحيد في القرآن الكريم**» فطالعته سطراً بعد سطر فأثلج صدري بالفرح و السرور، و الخطبة و الحبور، و ألفيته قد انطبق على مسمّاه اسمه، و تناسب تركيبه و رسمه.

حقّاً إنّ هـذا الكتـاب يُسحـر الألبـاب و يجـذب الأحبـاب، يحقّـقُ و يبيّـن الصواب، و يفحم المتقوّل الكذّاب، حيث يقوم بتـوضيح التوحيد الخالص، و يفنّد مزاعم مـن يشوّهون مفاهيـم الدين الإسلامـي و يقومون بتكفير اخـوانهم المسلمين. فقدجمع بيـن دفّتيه دراسات كثيـرة و مناقشات عديـدة، فيا بشراكـم انّكم من الـذين أدركوا حقيقة الدين الإسلامي، و حملتهم غيـرتهم على دينهم إلى أن يطلعوا الآخرين على ثمرات الحقائق فجزاكم الله خير الجزاء.

أُستاذي الحبيـب نحن في أثيـوبيا نفتخر بكم و بمـؤلّفاتكم القيّمـة و أستشعر شعوراً بأنّكم الحجّة و البـرهان للدفاع عن الدين الإسلامي فـي هذا الزمان، متّعنا الله بكم و وفّقنا لرؤيتكم.

و أخيراً نرجـوا أن تزوّدنا بمعلومات تكشف عـن عدد مؤلّفاتكم لنكـون قادرين على متـابعتها و جمعها، و نحـن واثقون بأنّكـم تحققون مطلبنـا هذا في أسـرع وقت ممكن، و الله يجزيكـم عن الإسلام و المسلمين خيـر الجزاء و دمتم في رعـاية الله و حفظه و تقبّلوا فائق تحيّاتنا.

أديس أبابا ـ أثيوبيا

محمد كمال آدم

٢٨/ ١٢/ ١٤١١هـ

الموافق ١٠/ ٧/ ١٩٩١م

تقدير و اكبار

تفضّل به الأُستاذ المجاهد و الكاتب القدير: الشيخ حسن الصفار من علماء المنطقة الشرقية في الجزيرة العربية(قطيف) حيّاه الله و بيّاه

سماحة العلاّمة الحجة الشيخ جعفر السبحاني ... حفظه الله

السلام عليكم و رحمة الله و بركاته ... و مما جاء فيه:

كما أنّ الجيش في ميدان القتال يحتاج إلى دعم و امداد بالمؤنة و العتاد«الوجستيك» كذلك الدعاة إلى الله و طلائع الحركة الإسلامية، هم في أمسّ الحاجة إلى من يرفدهم بالفكر العميق، و الدراسات العلمية و البحوث الهادفة عن قضايا العقيدة و مفاهيم الإسلام.

فالأُمّة الإسلامية تخوض اليوم صراعاً حضارياً، فكريّاً ضارياً حيث يخشى الإستكبار العالمي من أن تعود للأُمّة ثقتها بدينها، و تبني صرح الحضارة الإسلامية من جديد على أنقاض الحضارة الماديّة التي ذاق الإنسان ويلاتها، و اتّضح لديه فسادها و انحطاطها.

إنّ العدوان العسكري و الحرب المفروضة التي شنّت على الجمهوريّة الإسلاميّة و حملات الإرهاب، و القمع الشرسة التي يواجهها المؤمنون الرساليون في كل مكان، و أعاصير الإعلام المضلّل المناوئ للثورة و الحركة الإسلامية ... هذه كلّها مظاهر و وسائل للمعركة الرئيسية و الصراع الحقيقي بين الحضارة الإسلامية المرتقبة، و الحضارة المادية المنحرفة.

و إذا كانت القيادة الميدانيّة، و الإدارة اليومية لشؤون التحرّك و الصراع مع الأعداء تأخذ كل وقت و جهد العلماء و المفكّرين الإسلاميين الواعين، فإنّ ذلك سيترك فراغاً خطيراً في مجال الدراسات العلمية العقائدية و العطاء الفكري.

فلابدّ و أن تتوجّه ثلّة من العلماء و المفكّرين العارفين بأبعاد الصراع الحضاري، و المدركين لتطلّعات الأُمّة، ليقوموا بدور الإمداد و الدعم الفكري و العلمي، خلف جبهة الصراع العسكري و السياسي و الإعلامي.

و سماحتكم هو في طليعة من يطمأن و يعتمد عليه لملء هذا الفراغ الكبير و سدّ هذه الحاجة الماسّة.

إنّ اهتمامكم باصدار البحوث العقائدية و الفكرية الرائعة ليشكّل سنداً و دعماً ضرورياً لكل الرساليين المجاهدين لإعلاء كلمة الله و انقاذ العالم من حضيض الإنحطاط المادّي.

لقد قرأت العديد من أجزاء موسوعتكم (التفسير الموضوعي للقرآن) و بحثكم القيّم حول (التوحيد و الشرك) فوجدت فيها الضالّة المنشودة من حيث الفكر العميق، و الشموليّة الدقيقة و الطرح الهادئ الموضوعي فشكر الله سعيكم و أدام توفيقكم و نفع المسلمين بفيض علمكم.

أرجو أن تتابعوا كتاباتكم و بحوثكم في مجال التفسير الموضوعي للقرآن كما أرى ضرورة الإسراع في ترجمة هذه البحوث إلى اللغات العالمية الحية، و خاصّة اللغة الإنكليزية، فهناك الكثيرون من المسلمين ممّن لايجيدون اللغة العربية، يتطلّعون بفارغ الشوق إلى مثل هذه الدراسات العلمية، كما أنّ بعض مفكّري الغرب و الشرق يهمّهم الإطّلاع على مفاهيم الإسلام من بعد ما لفتت الثورة الإسلامية المباركة أنظارهم نحو الإسلام.

أسأل الله لكم دوام الصحّة و النشاط و لكلّ العاملين المؤمنين التوفيق و النجاح.

و السلام عليكم و رحمة الله و بركاته

حسن موسى الصفار

القطيف

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

شخصية النبي محمدﷺ و سيرته في القرآن الكريم

كانت حياة النبيّ الأكرم (صلّى الله عليه و آله و سلّم) منذ ولادته و نعومة أظفاره، و حتى ساعة رحلته، و لقائه ربّه، طافحة بالحوادث، زاخرة بالوقائع، و قد لفتت تلك الحوادث و الوقائع أنظار المفكّرين و الباحثين و دفعتهم إلى ضبط كلّ جليل و دقيق منها، و هم بين مؤمن بدينه و رسالته، و شريعته و كتابه، و منكر لصلته بالله سبحانه و بعثته من قبله و لكن مذعن بشخصيته الفذّة، و حياته المثالية، فلا تجد شخصية في التاريخ وقعت محطّاً للبحث و الدراسة، و لفتت نظر الباحثين كشخصية رسول الإسلام (صلّى الله عليه و آله و سلّم).

و لو أُتيح لإنسان أن يقوم باستقصاء ما أُلِّف حول حياته طيلة هذه القرون، أو ما جادت به القرائح من القصائد و الأراجيز، لعثر على مكتبة ضخمة حافلة بآلاف الكتب و الرسائل، و الدواوين، و لأذعن ـ عندئذٍ ـ كلّ قريب و بعيد، و كل صديق و مناوئ بأنّ رسول الله (صلّى الله عليه و آله و سلّم) نسيج وحده، لم تسمع أُذنُ الدنيا بأحدٍ مثله و لم تر عين الدهر نظيراً له.

و قدخدم المؤرخون الأمّة الاسلاميّة بل البشريّة جمعاء بتآليفهم و تصانيفهم حول حياته و شخصيّته و جهوده و مساعيه في سبيل إنقاذ البشريّة من أغلال الوثنيّة

و الجنوح إلى كلّ معبود سوى الله تعالى، غير أنَّ نظر كلّ مؤلّف كان إلى زاوية خاصّة من زوايا حياته، و إلى بعد واحد من أبعاد سيرته.

فمن باحث عن أخلاقه المثاليّة، و رأفته، و عبادته و تهجّده، و حسن سلوكه مع الناس، و أمانته التي أقرَّ بها العدو و الصديق.

إلى آخر يهتمّ ببيان كيفيّة نزول الوحي عليه، و قيامه ـ بمفرده ـ بنشر دعوته، و الإجهار برسالته، و الصمود في سبيل عقيدته، و تحمّل المشقّة كالجبل الراسخ لاتحرّكه العواصف.

إلى ثالث يُلقي الضوء على الجانب السياسي من حياته، فيجمع رسائله الموجّهة إلى الملوك و الساسة و رؤساء القبائل، كوثائق و كتب سياسية.

إلى رابع أعجبه ذكر مغازيه و بعثه للسرايا، و جهاده ضدّ المشركين و المنافقين و الخونة من أهل الكتاب.

إلى خامس ركّز اهتمامه على الجليل و الدقيق من حياته من دون أن يجنح لجانب دون جانب لكنّه جمع و حشّد من دون تحقيق و لاتنقيب، فكتب كلّ ما عثر عليه في هذه المجالات.

شكر الله مساعي الجميع حيث خدموا البشريّة ببحثهم عن هذه الفريدة و هذه الحلقة الأخيرة من سلسلة الأنبياء و المرسلين، الّتي خصّها الله سبحانه بكتابه الخاتم، و دينه الخالد، و شريعته الأبديّة.

و لقد استند هؤلاء في تصوير حياة النبيّ (صلّى الله عليه و آله و سلّم) و وصف ما جرى عليه قبل البعثة، و بعدها، أو ما واجهه من الأحداث و الوقائع، إلى الروايات المرويّة عن الصحابة و التابعين الذين شاهدوا نور الرسالة كما شاهدوا القضايا و الحوادث بأُمّ أعينهم.

و لكن هناك طريقاً آخر أمثل و أشرف من الطريق الأوّل لم يهتم به الباحثون اهتماماً كافياً و لازماً، و إنَ التفتوا إليه في بعض الأحيان، و هو الإستضاءة ــ في

تدوين معالم حياته ـ بكتاب الله الكريم، المنزّل على قلبه، ففيه تصريحات بمعالم حياته، و إشارات إلى خصوصيّاتها.

و القرآن الكريم و إن لم يكن كتاب تاريخ، بل هو كما وصف نفسه ﴿هُدىً للنّاس﴾ أي كتاب هدي لجميع الناس إلى أن تقوم الساعة، و لكنّه ربّما يتعرّض في بعض المناسبات لخصوصيّات حياته و أفعاله، و جهوده و مساعيه، و من خلال ذلك يستطيع الإنسان المتتبّع أن يستخرج صورة وضّاءة لحياته بالتدبّر في هذا القسم من الآيات و يقف على خلقه و سلوكه و سائر شؤونه، و بالتالي تتجلّى لناحياته من أوثق المصادر و أمتنها، فيرى القارئ صورته في مرآة القرآن كما ترى سيرته في ثنايا الكتب و السير، مع الفارق الكبير بين الصورتين، و المرآتين.

و هذا ما نقوم به في هذا الجزء من موسوعتنا القرآنية «مفاهيم القرآن» و نحن نعترف بأنّ هذاعبء لايقوم به إلاّ لجنة تفسيريّة تتناول الموضوع بصورة شاملة و موسّعة و معمّقة غير أنّ الميسور لايسقط بالمعسور، و ما نقوم به عمل فردي ليس له من المزايا ما للعمل الجماعي، و لكن «ما كلّ ما يتمنّى المرء يدركه». و توخّياً للتسهيل، خصّصنا لكلّ موضوع و ما يناسبه فصلاً.

و في الختام نتقدّم بالشكر الجزيل، إلى العالم الجليل و الكاتب القدير، الشيخ محسن آل عصور ـ حفظه الله ـ حيث ساعدنا في تأليف هذه الجزء و تحريره و ترصيفه و تقريره حتى خرج بهذه الصورة البهيّة. شكر الله مساعيه الجميلة.

نسأله سبحانه أن يوفّقنا في هذا السبيل و يصوننا عن الزلل و الخطأ في فهم كتابه إنّه مجيب الدعاء. و يكتب التوفيق لكلّ مجاهد في سبيل القرآن، و مخلص في خدمة الذكر الحكيم.

قم ـ مؤسسة الإمام الصادق(عليه السلام)

جعفر السبحاني

(١)
بشائره في الكتب السماويّة

لقد تعلّقت مشيئة الله الحكيمة ببعث رجال صالحين لإنقاذ البشرية من الجهالة و الضلالة، و سوقهم إلى مرافئ السعادة، و أنزل عليهم شرائع فيها أحكامه و تعاليمه، و هذه الشرائع و إن كانت تختلف بعضها عن البعض الآخر، لكنّها تتّحد جوهراً و حقيقة، و تفترق صورة و شكلاً كما يشير إليه قوله سبحانه: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلاَمُ﴾(آل عمران/ ١٩). و قوله: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَ لاَنَصْرَانِيّاً وَ لَكِنْ كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَ مَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾(آل عمران/ ٦٧)[1].

فالدين النازل من الله سبحانه إلى كافّة البشر في جميع الأجيال و القرون أمر واحد، و هو الإسلام، و قد أُمر بتبليغه جميع رسله و أنبيائه من غير فرق بين السالفين و اللاّحقين.

هذا و قديتفنّن القرآن الكريم في التعبير عن وحدة الشرائع من حيث الأُصول والمبادئ و اختلافها شكليّاً بتصوير الدين نهراً كبيراً يجري فيه ماء الحياة المعنويّة، و الأُمم كلّها قاطنة على ضفّة هذا النهر يردونه و يصدرون عنه، و ينهلون منه حسب حاجاتهم و اقتضاء ظروفهم، و كل ظرف يستدعي حكماً فرعيّاً خاصّاً.

قال سبحانه:

﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَ مِنْهَاجاً وَ لَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾(المائدة/ ٤٨).

فالحقيقة ماء عذب، و الاختلاف في المشرعة و المنهل، و الطريقة والمنهاج.

---

(١) لاحظ سورة البقرة/ ١٣٢ و الزخرف/ ٢٨.

إنّ وحدة الشرائع جوهراً، و اختلافها شكلاً و عَرَضا، لاتعني ما يلوكه بعض الملاحدة من جواز التديّن بكلّ شريعة نازلة من الله سبحانه إلى أُمّة من الأُمم في العصور السابقة حتى أنّه يسوّغ التديّن بشريعة إبراهيم في زمن بعثة الكليم، أو التمسّك بشريعة اليهود في عهد المسيح، أو التديّن بالشرائع السابقة في عهد بعثة النبي الخاتم(صلّى الله عليه و آله و سلّم)، بل المفروض على كلّ أُمّة أن تتمسّك بالشريعة التي جاء بها نبيّها، فلايجوز لليهود سوى تطبيق التوراة، و لاللنصارى سوى العمل بما جاء به المسيح، و لاللأُمّة المتأخّرة عنهما إلاّ العمل بالقرآن و السنّة النبويّة، و ذلك لأنّ للشكل و العَرَض سهماً وافراً في إسعاد الأُمّة و رقيّها، فلكلّ أُمّة قابليات و مواهب فلا تسعدها إلاّ الشريعة التي تناسبها و تتجاوب معها.

فربّ أُمّة متحضّرة تناسبها سنن و أنظمة خاصّة لاتناسب أُمّة أُخرى لم تبلغ شأنها في التكامل و التحضّر.

و هذا هو السبب في اختلاف الشرائع السماويّة في برامجها العباديّة و الإجتماعيّة و السياسيّة و الإقتصاديّة، فكانت كلّ شريعة كاملة بالنسبة إلى الأمّة التي نزلت لهدايتها و إسعادها، و لكنّها لاتتجاوب مع حاجات الأُمم المتأخّرة و لاتكفي لإحياء قابلياتها و ترشيد مواهبها، فكأنّ الأُمم التي خُصّت بالشرائع الالهيّة تلاميذ صفوف مدرسة واحدة، و كلّ شريعة برنامج لصفّ خاصّ، فما زالت البشريّة ترتقي من صفّ إلى صفّ، و تتلقّى شريعة بعد شريعة، حتّى تنتهي إلى الصفّ النهائي و الشريعة الأخيرة التي لاشريعة بعدها، و قدأوضحنا حقيقة ذلك الأمر عند البحث عن الخاتمية[1].

أخذ الميثاق من النبيين على الإيمان به و نصره

إنّ وحدة الشرائع في الجوهر و الحقيقة أدّت إلى أخذ الميثاق من النبيين بأنّه سبحانه مهما آتاهم الكتاب و الحكمة، و جاءهم رسول مصدّق لما معهم، يجب

(١) لاحظ مفاهيم القرآن ج٣ ص ١١٩ـ١٢٣.

عليهم الإيمان به و نصره، بل أخذ الإصر من أُممهم على ذلك، فكان من وظائف كل رسول تصديق النبي اللاحق و الإيمان به، و نصره، عن طريق التبشير به و أمر أُمّته بالتصديق به و مؤازرته ـ إذا أدركوه ـ فعلى ذلك أخذ سبحانه من إبراهيم الخليل ذلك العهد بالنسبة إلى الكليم، و من الكليم بالنسبة إلى المسيح، و منه على النبي الخاتم(صلى الله عليه و آله و سلم)، و من جهة أُخرى أخذ الميثاق من الجميع على الإيمان بنبوّة النبي الخاتم(صلى الله عليه و آله و سلم)، و نصره، و التبشير به، و دعوة أُممهم إلى تصديق دعوته و الإقرار بها.

و المعاصرون للأنبياء السابقين و إن لم يدركوا عصر النبي الأكرم غير أنّ ذلك الهتاف العالمي وصل إلى أخلافهم و أولادهم فوجب عليهم تلبية النبي الخاتم بوصيّة من أنبيائهم، و هذا هو المتبادر من قوله سبحانه:

﴿وَ اِذْ أَخَذَ اللهُ مِيْثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَ حِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَ لَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَ اَخَذْتُمْ عَلَى ذٰلِكُمْ اِصْرِى قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَ اَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾(آل عمران/ ٨١).

ظهور الآية فيما ذكرناه من أخذ الميثاق من كلّ متقدّم للمتأخّر، و من الجميع للأخير يتوقّف على تفسير الآية و تحليلها جملة بعد جملة:

١ ـ قوله: ﴿وَ إِذْ أَخَذَ اللهُ مِيْثَاقَ النَّبِيِّينَ﴾.

إنّ المراد من النبيين هم المأخوذ منهم الميثاق، و يدلّ على ذلك قوله: ﴿ءَ أَقْرَرْتُمْ وَ أَخَذْتُمْ عَلَى ذٰلِكُمْ اِصْرِى قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَ اَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾.

غير أنّ النبي الواقع في أوّل السلسلة يتمحّض في أنّهُ من أُخذ منه الميثاق كنوح(عليه السلام) فإنّه من بُدئَ به نزول الشريعة،و هداية الناس و تعريفهم بوظائفهم و تكاليفهم السماوية، كما أنّ النبي الواقع في آخر السلسلة يتمحّض في أنّه ممّن أُخذ له الميثاق لأنّ المفروض أنّه لانبيّ بعده.

و أمّا الأنبياء الواقعون في ثنايا السلسلة فهم من جهة أُخذ منهم الميثاق و من جهة أُخذ لهم الميثاق.

فالكليم مأخوذ منه الميثاق للمسيح و مأخوذ له الميثاق من الخليل و هكذا.

٢ ـ قوله سبحانه: ﴿لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَ حِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَ لَتَنْصُرُنَّهُ﴾.

إنّ «ما» في هذه الجملة أشبه بالشرطيّة من الموصولة لوجود «اللام» في جزائها و المعنى: مهما آتيتكم من كتاب و حكمة ثُمَّ جاءكم رسول مصدّق لما معكم لتؤمنّن به و لتنصرنّه.

والآية تهدف إلى أنّ الله سبحانه أخذ من الأنبياء الميثاق بأنّه لو جاء رسول إليهم مصدّق لدعوتهم إلى التوحيد ورفض الوثنيّة والإقرار بعبوديّة الكلّ لله تعالى،يلزم عليهم أمران:

الأوّل: الإيمان بهذا الرسول المُقْبِل.

الثاني: نصره.

فكأنّ إيتاء الكتاب والحكمة يلازم ـ عند تطابق الدعوتين ـ الإيمان بالداعي اللاحق ونصرته، و على ذلك فالضمير المجرور والمنصوب في قوله: ﴿لتؤمننّ به ولتنصرنّه﴾ عائدان إلى الرسول المُقبِل.

٣ ـ قوله سبحانه: ﴿ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي﴾.

يعرب هذا عن أنّه سبحانه لم يأخذ الميثاق من النبيّين وحدهم بل فرض عليهم أخذ الميثاق من أُممهم على ذلك، ولأجل ذلك يخاطبهم بقوله: ﴿ءأقررتم﴾ أنتم يا معشر النبيين، وهل أخذتم على ذلك عهدي؟ فأجابوا بالإقرار.

و إنّما اقتصر في الجواب بإقرار الأنبياء فقط، ولم يذكر أخذ الإصر من أُممهم للاكتفاء بقوله: ﴿فَاشْهَدُوا وَ أَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ لظهور الشهادة في أنّها على

الغير، فإذا كان الله سبحانه مع أنبيائه شهوداً فيجب أن يكون هناك مشهوداً عليهم وهو أُممهم.

فظهر أنّ الآية تهدف إلى أخذ العهد والإصر من الأنبياء، وأُممهم على الإيمان والنصرة.

فإذا راجعنا القرآن الكريم نرى أنّ المسيح قام بمسؤوليته الكبيرة حيث بشّر بالنبيّ وقال ـ كما حكى عنه سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ (الصف/ ٦).

وليس المسيح نسيج وحده في هذا المجال بل الأنبياء السابقون قاموا بنفس هذه الوظيفة، يقول سبحانه: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (البقرة / ١٤٦).

والضمير في «يعرفونه» يرجع إلى النبيّ الأكرم وهو المفهوم من سياق الآية بشهادة تشبيه عرفانهم إيّاه بعرفان أبنائهم.

وما زعمه بعض المفسّرين من أنّ الضمير راجع إلى الكتاب الوارد في الآية لايناسب هذا التشبيه، والآية بصدد بيان أنّهم يعرفون النبيّ بما في كتبهم من البشارة به، ومن نعوته وأوصافه وصفاته التي لا تنطبق على غيره، وبما ظهر من آياته وآثار هدايته، كما يعرفون أبناءهم الذين يتولّون تربيتهم وحياطتهم حتّى لا يفوتهم من أمرهم شيء، قال عبد الله بن سلام ـ وكان من علماء اليهود وأحبارهم ـ: أنا أعلم به منّي با بني[1].

فالمراد من أهل الكتاب هم اليهود والنصارى، وكانت الأغلبية في المدينة اليهود، والآية تعرب عن أنّ الكليم قام بنفس ما قام به المسيح من التعريف بالنبيّ الخاتم حتّى عرّفهم النبيّ الخاتم بعلائم واضحة عرفته به أُمّتهُ عرفانها بأبنائها.

---

(١) المنار ج٢ ص٢٠.

وعلى ضوء ذلك فالدّين السماوي ديـن موحّد ، والمبلّغون له رجال صالحون ، متلاحقون ، موحـّدون في الهدف والغاية ، مختلفون في الشـريعة والمنهل ، والجميع يبشّرون بالحلقات التالية بأمانة وصدق و إخلاص .

وهذه الآيـة و إن كانت تـركّز على أخـذ الميثاق من السـابقين على الـلاحقين ولكن الآيـة التالية تعـرب بفحوى الكلام على أنّ المتـأخّر أيضاً كـان مأموراً بتصـديق السابق ، و لأجل ذلك قال المسيح عند بعثته :

﴿مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾ (الصف/ ٦) .

وقد أمر النبيّ أُمّته بالإيمان بما أُنزل على من سبقه من الأنبياء ، وقال سبحانه :

﴿قُلْ آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران/ ٨٤) .

ثمّ إنّ القـرآن الكريم يـذكر ذلك الميثـاق في آيـة أُخرى على وجـه الاختصار ويقول : ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ[1] وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً﴾(الأحزاب/ ٧) .

---

(١) و قد ذكر سبحانه النبيين بلفظ عام يشمل الجميع ثـمّ سمّى خمسة منهم بأسمائهم بالعطف عليهم ، و لم يخصّهم بالـذكر إلاّ لعظمة شأنهم و رفعة مكانتهم ، فـإنّهم أصحاب الشرائع ، و قدعدّهم على ترتيب زمانهم لكن قدّم النبي و هو آخرهم زماناً لفضله و شرفه و تقدّمه على الجميع ، و سمّى هذا الميثاق بالميثاق الغليظ ، إذ به تستقر كلمة التوحيد و رفض الوثنية في المجتمع البشري ، فلو لم يؤمن نبي سابق باللاحق و لم ينصره ، كما أنّه لو لم يصدّق نبي لاحق النبي السـابق لفشلت الدعـوة الالهية من الانتشـار و سادت الفوضـى في الدين . و فـي الآية إحتمال آخـر ، و هي انّها ناظـرة إلى ميثاق آخر مـأخوذ من الأنبيـاء و هو أخذ الوحـي من الله و اداته إلى النـاس من دون تصـرّف ، و يشهد علـى ذلك قـول الإمام علـيّ(عليه السـلام) في حقّهم : «و اصطفى سبحانه من ولده أنبياءَ ، أخذ على الوحي ميثاقهم ، و على تبليغ الرسالة أمانتهم» . نهج البلاغة ، الخطبة/ ١ .

إنّ إضافـة الميثاق إلـى النبيين (ميثاقهـم) يعرب عن كـون المراد من الميثـاق هو الميثاق الخاص بهم، كما أنّ ذكرهم بوصف النبوّة مشعر بذلك فهناك ميثاقان:

ميثاق مأخوذ من عامّة البشر وهو الذي يشير إليه قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾(الأعراف/ ١٧٢).

وميثاق مأخوذ من النبيّين خاصّة بما أنّهـم أنبياء وهو الذي تدل عليه الآية وهي وإن كانت سـاكتة عن متعلّق الميثاق لكن تبيّنـه الآية السابقة، وهو أخـذ الميثاق من النبيّين عامـّة على أنّه إذا جاءهم رسـول مصدّق لما معهم، يفرض عليهـم الإيمان به والنصرة له.

هذا وإنّ الهدف الأسمـى من فرض الإيمان والنصـرة هو تأييد بعضهـم ببعض حتّى تستقرّ في ظل وحدة الكلمة، كلمة التـوحيد في المجتمع البشري ويكون الدّين كلّـه لله سبحـانـه كمـا قـال: ﴿إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ (الأنبياء/ ٩٢). وقال: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَ مَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاتَتَفَرَّقُوا فِيهِ...﴾(الشورى/ ١٣).

ولأجـل اتّفاق الأنبيـاء في الهـدف والغـرض يعدّ سبحـانـه قوم نـوح مكذّبيـن للمرسليـن، وقال: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلاَ تَتَّقُونَ﴾(الشعراء/ ١٠٥ و ١٠٦).

مع أنّهم لـم يكذّبوا إلاّ واحد منهـم وهو نوح (عليه السـلام)، وذلك لأجل أنّ دعوتهم واحدة وكلمتهـم متّفقة على التوحيد، فيكون المكذّب للواحـد منهم، مكذّباً للجميع، ولذا عدّ الله سبحانه الإيمان ببعـض رسله دون بعض، كفراً بالجميع، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلاً * أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ

حَقًّا﴾ (النساء/ ١٥٠ ـ ١٥١)[١].

وبما أنّ رسالة النبي الخاتم (صلّى الله عليه و آله و سلّم) رسالة عالميّة خاتمة لجميع الرسالات أُخذ من جميع الأنبياء الميثاق على الايمان به، ونصرته، والتبشير به ليسدَّ باب العذر على جميع الأُمم حتّى يتظلّل الكلّ تحت لواء رسالته ويسير البشر عامّة تحت قيادته إلى السعادة.

ويشهد على ما ذكرنا ما روي عن الإمام أمير المؤمنين(عليه السلام) قال: «إنّ الله أخَذَ الميثاق على الأنبياء قَبْلَ نبيّنا أن يخبروا أُممهم بمبعثه ورفعته ويبشّروهم به ويأمروهم بتصديقه»[٢].

وروى الطبري والسيوطي عن عليّ(عليه السلام) أنّه قال: «لم يبعث الله نبيّاً آدم فمن بعده إلاّ أخذ عليه العهد في محمّد، لئن بعث وهو حيّ ليؤمننّ به ولينصرنّه، و أمره بأن يأخذ العهد على قومه» ثمّ تلى هذه الآية: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ. .﴾[٣].

ويظهر من بعض الروايات أنّه أخذ الميثاق منهم على وصيّ النبيّ الخاتم.

روى المحدّث البحراني عن الصادق(عليه السلام) أنّه قال:
لم يبعث الله نبيّاً ولا رسولاً إلاّ وأخذ عليه الميثاق لمحمّد(صلّى الله عليه و آله وسلّم) بالنبوّة ولعليّ(عليه السلام) بالإمامة[٤].

وتخصيص ا لميثاق في هذه الروايات بالإيمان بالنبي الخاتم لا ينافي ما ذكرنا من عموميّة مفاد الآية، وأنّها تعمّ جميع الأنبياء فالمتقدّم منهم كان مفروضاً عليه التبشير بالمتأخّر عن طريق الإيمان به ودعوة اُمّته إلى نصرته، واقتفائه كائناً من كان،

---

(١) الميزان ج١٩ ص٣٢١.

(٢) مجمع البيان ج٢ ص ٤٦٨ (طبع صيدا).

(٣) تفسير الطبري ج٣ ص٢٣٧، و الدر المنثور ج٢ ص٢٧، و رواه الرازي في مفاتيح الغيب ج٢ ص٥٠٧(طبع مصر)، و الطبرسي في مجمعه ج٢ ص٤٦٨.

(٤) تفسير البرهان ج١ ص٢٩٤.

لكن وجه التخصيص في تلك الروايات بالنبي الخاتم، لأجل وقوعه آخر السلسلةوبه ختم باب وحي السماء إلى الأرض، فكأنّ الكلّ بعثوا للتبشير به والدعوة إلى الإيمان به ونصرته.

بشائر النبيّ الأكرم ﷺ في الكتب السماويّة

لا تجد إنساناً سالماً في نفسه وفكره يقبل دعاوي الآخرين بلا دليل يثبتها، وهذا أمر بديهي فطري جُبِل الإنسان عليه، يقول الشيخ الرئيس: «من قبل دعوى المدّعي بلا بيّنة وبرهان فقد خرج عن الفطرة الإسلامية»[1].

على هذا فيجب أن تقترن دعوى النبوّة بدليل يثبت صحّتها و إلاّ كانت دعوى فارغة غير قابلة للإذعان والقبول، لكن طرق التعرّف على صدق ا لدعوى ثلاث:

١ـ التحدّي بالأمر الخارق للعادة على الشرائط المقرّرة في محلّه (الإعجاز).

٢ ـ تصديق النبيّ ا لسابق بنبوّة النبيّ ا للاحق.

٣ ـ جمع القرائن والشواهد من حالات المدّعي، و المؤمنين به ومنهجه والأداة التي استعان بها في نشر رسالته، إلى غير ذلك من القرائن التي تفيد العلم بكيفيّة دعوى المدّعي صدقاً وكذباً.

وقد استدلّ القرآن على صدق النبي الخاتم بتنصيص أنبياء الأُمم على نبوّته، وقد عرفت تنصيص المسيح عليه بالاسم والتبشير به[2]كما عرفت انّ سماته الواردة في العهدين كانت في الكثرة والوفور إلى درجة كانت الأُمم تعرفه على وجه دقيق كما تعرف أبناءها[3].

وقد صرّح القرآن بأنّ أهل الكتاب يجدون اسم النبي الأكرم(صلّى الله عليه و آله

---

(١) نقله سيدنا الأُستاذ الإمام القائد الراحل في درسه و لم يذكر مصدره.

(٢) الصف/ ٦.

(٣) البقرة/ ٤٦.

وسلّم) مكتوباً في التوراة و الإنجيل، قال عزّ من قائل:

﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِى يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِى التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾(الأعراف/ ١٥٧).

و قد آمن كثير من اليهود و النصارى بنبوّة النبيّ الخاتم(صلّى الله عليه وآله وسلّم) في حياته و مماته لصراحة البشائر الواردة في التوراة و الإنجيل، بل لم يقتصر سبحانه على ذكر اسمه و سماته في العهدين، بل ذكر سمات أصحابه و قال:

﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَ الَّذِينَ مَعَهُ اَشِدَّاءُ عَلَى الكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَ رِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِمْ مِنْ اَثَرِ السُّجُودِ ذٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى التَّوْرَاةِ وَ مَثَلُهُمْ فِى الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ اَخْرَجَ شَطْئَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الكُفَّارَ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَ اَجْراً عَظِيماً﴾(الفتح/ ٢٩).

كما لم يقتصر على أخذ العهد من النبيين ببيان البشائر به، بل أخذ الميثاق من أهل الكتاب على تبيين بشائره للناس و عدم كتمانها، قال سبحانه:

﴿وَ إِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَ لَاتَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَ اشْتَرَوْا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾(آل عمران/ ١٨٧).

و هذه الآية تؤيّد ما استظهرناه من قوله سبحانه: ﴿وَ إِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَ حِكْمَةٍ... وَ أَخَذْتُمْ عَلَى ذٰلِكُمْ إِصْرِى...﴾ و إنّ أخذ الميثاق لم يكن مختصّاً بالأنبياء، بل أخذ سبحانه الميثاق من أممهم بواسطتهم، و ممّا أخذ منهم الميثاق عليه هو تبيين سمات الرسول الخاتم (صلّى الله عليه و آله و سلّم) وعدم كتمانها.

و قد كان ظهور النبي الأكرم (صلّى الله عليه و آله و سلّم) بين الأمّيين على وجه كان اليهود يستفتحون به على مشركي الأوس و الخزرج، و كانوا يقولون لمن ينابذهم: هذا نبيّ قد أطلّ زمانه ينصرنا عليكم، قال سبحانه:

﴿وَ لَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِاللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَ كَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَاعَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الكَافِرِينَ﴾(البقرة/ ٨٩).

روى الطبرسي عن معاذبن جبل، و بشربن البراء: انّهما خاطبا معشر اليهود و قالا لهم: اتّقوا الله وأسلموا فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد و نحن أهل الشرك، و تصفونه و تذكرون أنّه مبعوث، فقال سلام بن مسلم أخو بني النضير: ما جاءنا بشيء نعرفه، ما هو بالذي كنّا نذكر لكم، فنزلت هذه الآية[١].

و عن الإمام جعفر الصادق(عليه السلام) أنّه لما كثر الحيّان (الأوس والخزرج) بالمدينة، كانوا يتناولون أموال اليهود، فكانت اليهود تقول لهم: أمّا لو بعث محمد لنخرجنّكم من ديارنا و أموالنا، فلمّا بعث الله محمداً (صلّى الله عليه و آله و سلّم) آمنت به الأنصار، و كفرت به اليهود، و هو قوله تعالى:

﴿وَ كَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾[٢].

و بالرغم من أخذ الميثاق من الأمم، و بالرغم من تعرّف تلك الأُمم على النبي الخاتم، عمد أصحاب الأهواء منهم إلى كتمان البشائر به، و إخفاء علائمه، و سماته الواردة في كتبهم كما يقول سبحانه: ﴿اِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا اَنْزَلَ اللهُ مِنَ الكِتَابِ وَ يَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً اُولٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ اِلاَّ النَّارَ وَ لاَيُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَ لاَيُزَكِّيهِمْ وَ لَهُمْ عَذَابٌ اَلِيمٌ﴾(البقرة/ ١٧٤).

و قال سبحانه:

﴿اِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا اَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَ الْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الكِتَابِ اُولٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ وَ يَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ﴾(البقرة/ ١٥٩).

و المعنيّ بالآية نظراء كعب بن الأشرف و كعب بن أسد و ابن صوريا و غيرهم

---

(١) مجمع البيان ج١ ص١٥٨.

(٢) تفسير العياشي ج١ ص ٥٠.

من علماء اليهود و النصارى الذين كتموا أمر محمد (صلّى الله عليه و آله و سلّم) و نبوّته و هم يجدونه مكتوباً في التوراة و الإنجيل مثبّتاً فيهما[1].

قال العلاّمة الطباطبائي: المراد بالكتمان و هو الإخفاء أعمّ من كتمان أصل الآية و عدم إظهارها للناس، أو كتمان دلالتها بالتأويل، أو صرف الدلالة بالتوجيه كما كانت اليهود تصنع ببشارات النبوّة ذلك فما يجهله الناس لايظهرونه، و ما يعلم به الناس يؤوّلونه بصرفه عنه (صلّى الله عليه و آله و سلّم)[2].

و قال سبحانه:

﴿وَ إِذْ اَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ اُوتُوا الكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَ لاتَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَ اشْتَرَوْا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾.

و الضمير في «لتبيّننّه» إمّا عائد إلى النبي الخاتم (صلّى الله عليه و آله و سلّم) المفهوم من سياق الآية، أو إلى الكتاب المذكور قبله، و على كل تقدير يدخل في الآية، بيان أمر النبي لأنّه في الكتاب، و الظاهر أنّ الآية مطلقة تعمّ كل ما يكتمونه من بيان الدين و الأحكام و الفتاوى و الشهادات.

النبي الأكرم و دعاء الخليل

أمر سبحانه إبراهيم الخليل بتعمير بيته، و قدقام الخليل بما اُمر، و بمساهمة فعليّة من ابنه «إسماعيل» و قدحكى سبحانه دعاءه عند قيامه بهذا العمل و قال:

﴿ وَ إِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ القَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَ إِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ اَنْتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ * رَبَّنَا وَ اجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِنَا اُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَ أَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * رَبَّنَا وَ ابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ اَنْتَ الْعَزِيزُ

(١) مجمع البيان ج١ ص١٩٥.
(٢) الميزان ج١ ص٣٩٤.

الْحَكِيمُ﴾(البقرة/ ١٢٧ ـ ١٢٩).

فقد دعا إبراهيم لذرّيته من نسل إسماعيل القاطنين في مكّة و حواليها، ولم يبعث سبحانه من تتوفّر هذه الأوصاف الواردة في الآية من تلاوة الآيات و تعليم الكتاب و الحكمة و التزكية سوى النبي الأكرم محمد(صلّى الله عليه و آله و سلّم).

و الآية تدلّ على أنّ إبراهيم و إسماعيل دعيا لنبيّنا بجميع شرائط النبوّة لأنّ تحت التلاوة الأداء، و تحت التعليم البيان، و تحت الحكمة السنّة، و دعوا لأُمته باللطف الذي لأجله تمسّكوا بكتابه و شرعه فصاروا أزكياء، و بما أنّ المرافق و المشارك في الدعاء مع إبراهيم هو ابنه، فيجب أن يكون النبي من نسل إبراهيم من طريق ابنه، و لم يكن في ولد إسماعيل نبيّ غير نبيّنا (صلّى الله عليه و آله و سلّم) سيّدالأنبياء.

و قداستجاب الله سبحانه دعاء الخليل و ابنه إذ بعث في ذرّيته رسولاً و قال:

﴿لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ إِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ﴾(آل عمران/ ١٦٤).

و قال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ إِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ﴾(الجمعة/ ٢).

و لقد نقَّب علماء الإسلام في العهدين(التوراة و الإنجيل) و جمعوا البشارات الواردة فيهما على وجه التفصيل، و من أراد الوقوف عليها فليرجع إلى الكتب المعدّة لذلك[١]. و نحن نعرض عن نقل تلكم البشائر في هذه الصحائف لأنّ نقلها يوجب الاسهاب في الكلام و الخروج عن وضع المقال.

---

(١) مثل أنيس الأعلام في نصرة الإسلام لفخر الاسلام الشيخ محمد صادق، في ستة أجزاء واظهار الحق تأليف الشيخ رحمة الله الهندي و هو كتاب ممتع، و الهدى إلى دين المصطفى تأليف الشيخ العلاّمة محمد جواد البلاغي، و في كتاب بشارات العهدين غنى و كفاية.

(٢)

ثقافة قومه و حضارة بيئته

إنّ الإنسان مهمـا بلغ من الكمال لايستطيـع أن يجرّد نفسه و فكـره، و منهجه الإصلاحي عن معطيات بيئته، فهو يتأثّر عـن لاشعور بثقافة قومه، و حضارة موطنه، و لكن إذا راجعنـا تفكير إنسان و شخصيته فـوجدناهـا منقطعة عن تأثيـرات الظروف التي نشـأ فيها، و مبـاينة لمقتضيـاتها، بل كـانت علـى النقيض منهـا،نستكشفأنّ لما جـاء به من التشـريع و التقنيـن و لما قدّمـه إلى أُمّته مـن مبادئ الإصـلاح خلفيّة سماويّة غير خاضعة لثقافة قومه، و تقاليد قبيلته.

و هذا نجـده في ما حمله رسـول الإسلام إلى قومـه و إلى البشرية جمعـاء من عقائد و أخلاق و تشريعات.

و للوقوف على هذه الحقيقة نقدّم عرضاً خاطفاً عن حياة العرب في عصره قبل ميلاده و بعده، و مـن المعلوم أنّ الإسهاب في ذلك يتـوقّف على الغور فـي التاريخ و السيـرة و هو خـارج عن هـدفنا، بـل نقدّم مـوجزاً ممّـا يذكـره القرآن عـن حياتهـم المنحطّة البعيدة عن الحضارة، و ستقف أيّها القارئ الكريم من خلال ذلك على أنّ الذي جاء بـه رسول الإسلام الكريـم، من عقائد و أخلاق و سنـن، تضاد مقتضيات ظروفه، فهو بدل أن يؤكّد تفكير قومه و طقوس قبيلته و تقاليد وسطه الذي كان يعيش فيه، بدأ يكافحها و يفنّدها بالاسلوب المنطقي.

لقدنشأ رسول الله (صلّـى الله عليه و آله و سلّم) بين قومه و قـد كانوا منقطعين عن الأنبياء و برامجهم حيث لم يبعث فيهم نبيّ، قال سبحانه في هذا الصدد:

﴿ وَ لَكِـنْ رَحْمَةً مِـنْ رَبِّكَ لِتُنْـذِرَ قَـوْماً مَـا أَتَـاهُمْ مِـنْ نَذِيـرٍ مِـنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُـمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾(القصص/ ٤٦).

يقول تعالى:

﴿أَمْ يَقُـولُونَ افْتَـرَاهُ بَـلْ هُـوَ الْحَقُّ مِـنْ رَبِّكَ لِتُنْـذِرَ قَـوْماً مَـا أَتَـاهُمْ مِـنْ نَذِيـرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾(السجدة/ ٣).

و قال سبحانه:

﴿لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ﴾(يس/ ٦).

و هذه الآيـات تعرب عـن أنّ أُمّ القرى و ما حـولها لـم يبعث فيهـا أي بشير أو نذيـر، و الآيات تعني هذه المنـاطق و القاطنيـن فيها، و لاتعني العرب البـائدة التي بعث فيها أنبياء عظام كهود و صالح و شعيب، و لاعامّة المناطق في الجزيرة العربيّة و لاعامّة القبائل من القحطـانيين و العدنايين، و قدكان فيهم بشير و نـذير كخالدبن سنان العبسي و حنظلة على ما في بعض الروايات و الأخبار.

و من المعلوم أنّ الأُمّة البعيدة عن تعاليـم السماء خصوصاً في العصور البعيدة التي كـانت المـواصلات فيهـا ضعيفة بين الأُمـم، و كانـت عقلية البشـر في غـالب المناطق قاصرة عن تنظيم برنامج ناجح للحياة الإنسانية، فحياتهم لاتتعدّى عن حياة الحيوانات بل الوحـوش في الغابات، و لايكون لهم من الإنسانيـة شيء إلاّ صورتها، و لا من الحضارة إلاّ رسمها.

و هذا هو القـرآن يصفهم بأنّهم كـانوا على شفا حفـرة من النار، ولم يكـن بين سقوطهم واقتحافهم فيها إلاّ خطوات ودقائق بـل لحظات لولا أنّ النبيّ الأكرم أنقذهم من النار، قال تعالى:

﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعـاً وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُـمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْـنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِـهِ إِخْوَاناً وَكُنْتُمْ عَلَـى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَـأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾ (آل عمران/ ١٠٣).

وقد تضمّن قوله سبحانه: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ﴾ استعارة بليغة حيث صوّر قوم النبيّ كالساقطين في قعر هوّةٍ سحيقة لا يقدورن على الخروج، وفي يد النبيّ حبل ألقاه في قعر تلك الهوّة يدعوهم إلى التمسّك به حتّى يستنقذهم من الهلكة.

هذا ما يصف به القرآن الكريم بيئة النبيّ وعقلية عشيرته، على الوجه الكلّي، ولكنّه يصفهم في الآيات الأُخر بالإنحطاط والإنهيار بشكل مفصّل.

وإليك بيان ذلك في ضوء الآيات القرآنية.

١ ـ الشرك أو الدين السائد

كان الدين السائد في العرب في الجزيرة العربية عامّة، ومنطقة أُمّ القرى خاصّة، هو الشرك بالله سبحانه، فهمْ وإن كانوا موحّدين في مسألة الخالقيّة، وكان شعارهم هو أنّ الله هو الخالق للسماوات والأرض، ولكنّهم كانوا مشركين في المراحل الأُخرى للتوحيد.

أمّا كونهم موحّدين في مجال الخالقيّة فلقوله سبحانه: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمٰوٰاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾ (لقمان/ ٢٥)[١].

وأمّا كونهم مشركين في المراتب الأُخرى للتوحيد فيكفي في ذلك كونهم مشركين في أمر الربوبية (تدبير العالم) هو أنّ الوثنية دخلت مكّة وضواحيها، بهذا اللون من الشرك (الشرك في الربوبية).

روى ابن هشام عن بعض أهل العلم أنّه قال: «كان عمرو بن لُحَي أوّل من أدخل الوثنية إلى مكّة ونواحيها، فقد رأى في سفره إلى البلقاء من أراضي الشام أُناساً يعبدون الأوثان وعندما سألهم عمّا يفعلون، قالوا: هذه أصنام نعبدها فنستمطرها، فتمطرنا، ونستنصرها، فتنصرنا، فقال لهم: أفلا تعطونني منها فأسير بها إلى أرض

(١) و لهذا المضمون آيات أُخر لاحظ العنكبوت/ ٦١، الزمر/ ٣٨، و الزخرف/ ٩و٧٨.

العرب فيعبدوه، فاستصحب معه إلى مكّة صنماً باسم «هبل» ووضعه على سطح الكعبة المشرّفة ودعى الناس إلى عبادتها»[1].

وأمّا الشرك في العبادة: فقد كان يعمّهم قاطبة إلاّ أُناساً لا يتجاوز عددهم عن عدد الأصابع، فالأغلبيّة الساحقة كانوا يعبدون الأصنام مكان عبادته سبحانه زاعمين أنّ عبادتهم تقرّبهم إلى الله، قال سبحانه:

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِيمَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (الزمر/ ٣).

والقرآن شدّد النكير على فكرة الشرك أكثر من كل شيء، وفنّدها بأساليب علميّة وعقليّة، ولقد صوّر واقع الشرك ووضع المشرك ببعض التشبيهات البليغة التي تقع في النفوس بأحسن الوجوه، قال سبحانه:

﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (العنكبوت/ ٤١).

وقال تعالى:

﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ (الحجّ/ ٣١).

فالمعتمد على الحجر، والخشب الذي لا يبصر، ولا يسمع، ولا ينفع، ولايضرّ، كالمعتمد على بيت العنكبوت الذي تخرقه قطرة ماء، وتحرقه شعلة نار وتكسحه هبّة ريح.

٢ ـ إنكار الحياة بعد الموت

الإعتقاد بالحياة بعد الموت هو الرصيد الكامل للتديّن، وتطبيق العمل على الشريعة، ولكن العرب كانت تنزعج من نداء الدعوة إلى الإيمان بها، لأنّ الإيمان

(١) السيرة النبويّة لابن هشام ج١ ص٧٩.

بالحياة المستجدة، يستدعي كبح جماح الشهوات، ووضع السدود والعوائق دون المطامح و المطامع، وأين هذا من نزعة الأُمّة المتطرّفة التي لا تهمّها إلاّ غرائزها الطاغية ورغباتها الجامحة.

وبما أنّ ذكر الموت والحياة بعده يلازمان الحساب والجزاء، لهذا كان العرب يقابلون النبيّ بالسبّ والشتم واتّهامه بالجنون، لأجل إنبائه عن أمر غير مقبول، وحادث غير معقول، قال سبحانه:

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ * افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ﴾ (سبأ/ ٧ ـ ٨)

٣ ـ عقيدتهم في الملائكة والجنّ

ومن عقائدهم: إنّ الملائكة بنات الله سبحانه، وفي الوقت نفسه كانوا يكرهون البنات لأنفسهم، يقول سبحانه:

﴿ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ * أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثاً وَهُمْ شَاهِدُونَ * أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ * وَلَدَ اللهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ (الصافّات / ١٤٩ ـ ١٥٤).

والآية ترد عليهم وتفنّد عقيدتهم بوجوه:

١ ـ إنّ تصوير الملائكة بناتاً لله سبحانه يستلزم تفضيلهم عليه سبحانه ـ حسب عقيدتهم ـ لأنّهم يفضلّون البنين على البنات، ويشمئزون منهنّ، ويئدونهنّ، فكيف تجعلون البنات لله وإليه أشار بقوله سبحانه:

﴿أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ﴾؟.

٢ ـ إنّهم يقولون شيئاً لم يشاهدوه، فمتى شاهدوا الأُنثويّة للملائكة؟ وإليه

يشير بقوله: ﴿أَمْ خَلَقْنَا الْمَلائِكَةَ إِناثاً وَهُمْ شَاهِدُون﴾؟.

٣ ـ إنّ توصيف الملائكة بناتاً لله يستدعي أنّه سبحانه ولدهنّ وهو منزّه عن الإيلاد والاستيلاد، وإليه يشير قوله: ﴿لَيَقُولُونَ وَلَدَ اللهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

ثمّ إنّهم كانوا يتخيّلون وجود نسب بين الله والجنّ، والوحي يحكي ذلك على وجه الإجمال قوله سبحانه:

﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَباً وَلَقَدْ عَلِمَتْ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ (الصافات/ ١٥٨).

وقد ذكر المفسّرون وجوهاً مختلفة لتبيين ذلك النسب أظهرها بالاعتبار أنّهم قالوا: صاهر الله الجنّ فوجدت الملائكة تعالى الله عن قولهم[١].

٤ ـ سيادة الخرافات

إنّ الأمّة البعيدة عن تعاليم السماء، وهداية الأنبياء يعيشون غالباً في خِضمّ الخرافة، ويستسلمون في مجال العقيدة إلى الأساطير والقصص الخرافية، وكذلك كانت الأمّة العربية عصر نزول القرآن، فقد كانت غارقة في الخرافات والأساطير، وقد جمع «الآلوسي» تقاليدهم الإجتماعية، وطقوسهم الدينيّة في كتابه «بلوغ الارب في معرفة أحوال العرب» حيث يجد القارئ فيها تلاً من الأوهام والخرافات، وقد ذكر القرآن الكريم نماذج من عقائدهم، ونحن نشير إلى بعض ما وقفنا عليه في القرآن.

أ ـ كانت العرب في عصر حياة النبي قبل البعثة تحكم على بعض الأصناف من الأنعام بأحكام خاصّة تنشأ عن نيّة التكريم وقصد التحرير لها، غير أنّ تلك الأحكام كانت تؤدّي إلى الإضرار بالحيوان، وتلفه وموته عن جوع وعطش، وقد حكى سبحانه تلك الأحكام عنهم وقال: ﴿ مَا جَعَلَ اللهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حامٍ وَلَكِنَّ

---

(١) مجمع البيان ج٤ ص٤٦.

الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (المائدة/ ١٠٣).

والآية تعرب عن أنّهم كانوا ينسبون أحكامهم في هذه الحيوانات والأنعام الأربعة إلى الله سبحانه، ولأجل ذلك وصف سبحانه تلك النسبة بالإفتراء عليه، وثلاثة منها أعني «البحيرة» و«السائبة» و«الحامي» من الإبل، و الوصيلة من الشاة، وقد اختلف المفسّرون في تفسير هذه الكلمات، ولكن الجميع يشتركون في أنّ الأحكام المترتبة عليها كانت مبنية على تحريرها والعطف عليها، ونحن نذكر تفسيراً واحداً لهذه الكلمات، ومن أراد التبسّط والتوسّع فليرجع إلى كتب التفسير.

١ ـ **البحيرة**: هي الناقة إذا نتجت خمسة أبطن، وكان آخرها ذكراً، شقّوا أُذنها شقّاً واسعاً وامتنعوا من ركوبها ونحرها، ولا تطرد عن ماء، ولا تمنع عن مرعى، فإذا لقيها المعيي لم يركبها.

٢ ـ **السائبة**: وهي ما كانوا يسيبونه من الإبل، فإذا نذر الرجل للقدوم من السفر أو للبرء من علّة أو ما أشبه ذلك، قال: ناقتي سائبة، فكانت كالبحيرة في أن لا ينتفع بها، ولا تطرد عن ماء ولا تمنع عن مرعى.

٣ ـ **الحامي**: وهو الذكر من الإبل كانت العرب إذا أنتجت من صلب الفحل عشرة أبطن، قالوا: قد حمى ظهره، فلا يحمل عليه ولا يمنع من ماء ولا مرعى.

٤ ـ **الوصيلة**: وهي في الغنم، كانت الشاة إذا ولدت أُنثى فهي لهم، وإذا ولدت ذكراً جعلوه لآلهتهم، فإن ولدت ذكراً وأُنثى، قالوا: وصلت أخاها فلم يذبحوا الذكر لآلهتهم[1].

وقد أشار القرآن إلى أنّ الدافع لاتّباع هذه الأحكام حتّى بعد نزول الوحي هو تقليد الآباء، وقد أشار إليه بقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ

(١) مجمع البيان ج٢ ص٢٥٢، و لم نذكر سائر التفاسير لاشتراك الجميع في أنّ الأحكام كانت مبتنية على تسريحها و إظهار العطف لها.

قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ (المائدة/ ١٠٤).

ثمّ إنّ هذه الأحكام وإن كانت لغاية تسريحها وإظهار العطف عليها لكنّها كانت تؤدّي بالمآل إلى موتها وهلاكها عن جوع وعطش، لأنّ تسريحها في البوادي والصحاري من دون حماية راع ولا رائد كان ينقلب إلى هلاكها.

ب ـ إنّ القرآن الكريم يحكي عن العرب المعاصرين لنزول الوحي خرافة أُخرى في مجال الأطعمة إذ قال سبحانه:

﴿وَجَعَلُوا لِلّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَ الْأَنْعَامِ نَصِيباً فَقَالُوا هَذَا لِلّهِ بِزَعْمِهِمْ وَ هَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللهِ وَ مَا كَانَ لِلّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾(الأنعام/ ١٣٦).

و الآية تحكي عن أنّ المشركين كانوا يخرجون من الزرع و المواشي نصيباً لله ونصيباً للأوثان، فما كان للأصنام لايصل إلى الله، وما كان لله فهو يصل إلى الأصنام.

و قد اختلف المفسّرون في كيفيّة هذا التقسيم الجائر فنذكر تفسيراً واحداً.

قالوا: إنّهم كانوا يزرعون لله زرعاً، و للأصنام زرعاً، و كان إذا زكى الزرع الذي زرعوه لله، و لم يزك الزرع الذي زرعوه للأصنام، جعلوا بعضه للأصنام و صرفوه إليها، و يقولون: إنّ الله غني، و الأصنام أحوج، و إن زكى الزرع الذي جعلوه للأصنام، و لم يزك الزرع الذي زرعوه لله، لم يجعلوا منه شيئاً لله، و قالوا: هو غنيّ، و كانوا يقسّمون النعم فيجعلون بعضه لله، و بعضه للأصنام، فما كان لله أطعموه الضيفان، و ما كان للصنم أنفقوه على الصنم[1].

ج ـ و من تقاليدهم: إنّه إذا ولدت الأنعام حيّاً يجعلونه للذكور و يحرمون النساء منه، و إذا ما ولد ميّتاً أشركوا النساء و الرجال، و إليه يشير قوله سبحانه:

---

(١) مجمع البيان ج٢ ص٣٧٠.

﴿ وَ قَالُوا مَا فِي بُطُونِ هٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَ مُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَ إِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾(الأنعام/ ١٣٩).

و على ضوء الآية فأجنّة البحائر و السيب كانت مختصّة بالرجال إذا ولدت حيّة، و إذا ولدت ميّتةً أكله الرجال و النساء، فما وجه هذا التقسيم غير التفكير الخرافي؟

د ـ كانوا يقسّمون الأنعام إلى طوائف، فطائفة يجعلونها لآلهتهم و أوثانهم، و طائفة يحرّمون الركوب عليها، و هي السائبة و البحيرة و الحامي، و طائفة لايذكرون اسم الله عليها.

كل ذلك تقاليد باطلة ردّها الوحي الإلهي بقوله: ﴿ وَ قَالُوا هٰذِهِ أَنْعَامٌ وَ حَرْثٌ حِجْرٌ لَايَطْعَمُهَا إِلاَّ مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَ أَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَ أَنْعَامٌ لَايَذْكُرُونَ اسْمَ اللهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾(الأنعام/ ١٣٨).

و الحجر بمعنى الحرام و هو ما خصّوه بآلهتهم و لايطعمونه إلاّ من شاؤوا.

هذا بعض ما وقفنا عليه من تقاليد العرب الخرافية الباطلة قبل الإسلام و حين ظهوره ممّا جاء ذكره في القرآن الكريم.

* * *

٥ ـ ثقافة قومه

يصف القرآن الكريم قوم النبي (صلّى الله عليه و آله و سلّم) بل القاطنين في أُمّ القرى و من حولها بالأُمية و يقول:

﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَ يُزَكِّيهِمْ وَ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَ الْحِكْمَةَ﴾(الجمعة/ ٢).

و قال: ﴿ ... وَ قُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَ الْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا

﴿فَقَدِ اهْتَدَوْا...﴾ (آل عمران/ ٢٠).

و قدبلغت الأُميّة عند العرب إلى حد اشتهروا بذلك حتّى وصفهم أهل الكتاب بها كما يحكي عنه سبحانه بقوله:

﴿... وَ مِنْهُمْ مَنْ اِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَايُؤَدِّهِ إِلَيْكَ اِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِماً ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِى الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾ (آل عمران/ ٧٥).

و الأُميّون جمع الأمّي و هو المنسوب إلى الأم، قال الزجّاج: الأُمّي الذي هو على صفة أُمّة العرب، قال عليه الصلاة و السلام: إنّا أُمّة أُميّة لانكتب و لانحسب[١].

فالعرب أكثرهم ما كانوا يكتبون و لايقرأون و النبي (صلّى الله عليه و آله و سلّم) كان كذلك، فلهذا السبب وصفه بكونه أُمّياً[٢].

و قال البيضاوي: الأمّي من لايكتب و لايقرأ.

قال ابن فارس: الأُمّي في اللّغة، المنسوب إلى ما عليه جبلّة الناس لايكتب فهو في أنّه لايكتب على ما ولد عليه[٣].

و الزمخشري يفسّر قوله تعالى: ﴿وَ مِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَايَعْلَمُونَ الْكِتَابَ اِلاَّ أَمَانِيَّ وَاِنْ هُمْ اِلاَّ يَظُنُّونَ﴾ (البقرة/ ٧٨). بأنّهم لايحسنون الكتاب فيطالعوا التوراة و يتحقّقوا ما فيها.

هذا هو معنى الأمّي و قدأصفقت عليه أئمّة اللّغة في جميع الأعصار إلى أن جاء الدكتور عبد اللطيف الهندي فزعم للأمّي معان أُخرى لاتوافق ما اتّفقت عليه أئمّة اللّغة، و سنذكر أراءه الساقطة في معنى «الامّي» عند البحث عن أوصاف النبي، و منها أنّه «أمّي» فانتظر.

---

(١) ايعاز إلى ما رواه البخاري في صحيحه ج١ ص٣٢٧ عن النبي أنّه قال: إنّا أُمّة...

(٢) مفاتيح الغيب ج٤ ص٣٠٩.

(٣) مقاييس اللغة ج١ ص٢١٨.

و العرب في أُمّ القرى و ما حولها كانت أُمّيّة لاتقرأ و لاتكتب، و قدنشأ النبيّ بينهم، و يؤيّد ذٰلكَ ما ذكره الإمام البلاذري في «فتوح البلدان» حيث أتى بأسماء الذين كانوا عارفين بالقراءة و الكتابة فما تجاوز عن سبعة عشر رجلاً في مكّة، و عن أحد عشر نفراً في يثرب[1].

وعلى ضوء ذلك فالسائد على تلك المنطقة كانت هي الأُمّيّة المطلقة إلاّ من شذّ.

نعم، ما ذكرنا من سيادة الأُمّيّة على العرب لاينافي وجود الحضارة في عرب اليمن حيث كانوا على أحسن ما يكون من المدنيّة، فقد بنوا القصور المشهورة، و شيّدوا الحصون، و كانت لهم مدن عظيمة، قال تعالى في كتابه الكريم:

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَ شِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَ اشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَ رَبٌّ غَفُورٌ﴾(سبأ/ ١٥).

و كان لهم ملوك و اقيال دوّخوا البلاد، و استولوا على كثير من أقطار الأرض، و لكن تلك الحضارة زالت و بادت بسيل العرم، قال سبحانه:

﴿ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَ بَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَ أَثْلٍ وَ شَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ * ذٰلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَ هَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ﴾(سبأ/ ١٦و١٧).

و أمّا بنو عدنان و من جاورهم من عرب اليمن فقد اختلّ أمرهم و تغيّر حالهم بعد أن فرّقهم حادث سيل العرم، فمن ذلك اليوم فشى الجهل بينهم، و قلّ العلم فيهم، و أضاعوا صنائعهم و تشتّتوا في الأطراف و الأكناف، و وقع التنازع و التشاجر بين القبائل، و تكاثرت البغضاء بينهم، فلم يبق عندهم علم منزل، و لاشريعة موروثة من نبي، و لا العلوم كالحساب و الطب، و انحصر عملهم بما سمحت قرائحهم من الشعر و الخطب، أو ما حفظوه من أنسابهم و أيامهم، أو ما احتاجوا

---

(١) فتوح البلدان ص٤٥٧.

إليه في دنياهم من الأنواء و النجوم و صنع آلات الحرب و غير ذلك[1].

فالمثقّف عندهم من جادت قريحته بالشعر، أو قدر على إلقاء الخطب و الوصايا ارتجالاً، أو من عرف أنساب الناس، أو عرف أخبار الأُمم و بالأخص أيام العرب.

نعم كان عند بعض العرب علم الفراسة و الكهانة و العرافة، و يراد من الأوّل من يستدل بهيئة الإنسان و أشكاله و ألوانه و أقواله على أخلاقه و سجاياه و فضائله و رذائله، و لعلّه إليه يشير قوله سبحانه:

﴿تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾(البقرة/ ٢٧٣).

﴿وَ لَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ الْقَوْلِ﴾(محمد/ ٣٠).

و يراد من الثاني من يتنبّأ بما سيقع من الحوادث في الأرض.

و العرّافة هو قسم من الكهانة، لكنّها تختصّ بالأُمور الماضية و كأنّه يستدل ببعض الحوادث الغابرة على الحوادث القادمة.

هذا هو عرض خاطف عن ثقافة قوم النبي عصر نزول القرآن أتينا به ليكون دليلاً واضحاً على انقطاع شريعة النبي عن تعاليم بيئته وتقاليدها.

والقرآن الكريم يصف ذلك العصر في غير واحد من الآيات بالجاهليّة، يقول سبحانه: ﴿اَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ (المائدة/ ٥٠).

ويقول سبحانه: ﴿يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ (آل عمران/ ١٥٤).

ويقول سبحانه: ﴿ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ (الأحزاب / ٣٣).

ويقول تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِى قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ (الفتح/ ٢٦).

---

(١) بلوغ الارب ج٣ ص٨٠ـ٨١، و من أراد أن يقف على ثقافة العرب عامّة، قحطانيهم و عدنانيهم، فليرجع إلى ذلك الكتاب.

وأغلب المفسّرين يفسّرون الجاهليّة بفساد العقيدة في جانب الدين فقط ، ولكنّه تخصيص بلا جهة ؛ فكان القوم يفقدون العلم الناجع كما يفقدون الدين الصحيح .

٦ ـ الإنهيار الخلقي

طبيعة العيش في الصحراء تفرض على الإنسان نزاهة خاصّة في الخلق ، تصون نفسه عن الإنهيار الخلقي ، و لأجل ذلك نرى أنّ الفساد في المناطق المتحضّرة أكثر منها في البدو وسكّان الصحاري .

وقد كان من المترقّب من سكنة أُمّ القرى وما حولها النزاهة عن المجون والفساد ، غير أنّ في الآيات القرآنية أخباراً عن شيوع الفساد الخلقي بينهم .

فهذا القرآن الكريم يركّز على النهي عن الفحشاء ظاهره وباطنه ، والفحشاء وإن فسّر بما عظم قبحه من الأفعال والأقوال الذميمة ولكنها منصرفة إلى الزنا وكناية عنها ، قال سبحانه :

﴿إلاَّ أنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ﴾ (النساء/ ١٩) .

وقال سبحانه : ﴿وَاللاَّتِى يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ﴾ (النساء/ ١٥) .

وقال سبحانه : ﴿وَلاَ يَخْرُجْنَ إلاَّ أنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَة﴾ (الطلاق/ ١) .

وكل هذا يعرف عن شيوع هذا العمل الشنيع المنكر بينهم .

فإنّنا نرى أنّ الله سبحانه ينهي عن إتخاذ الخدن ويقول :

﴿ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدانٍ. . . ﴾ (النساء/ ٢٥) .

ويقرب منها قوله في سورة المائدة ، الآية ٥ .

و «الأخدان» جمع «خدن» وهو يطلق على الصاحب و الصاحبة بأن يكون

للمرأة صاحب أو خليل يزني بها سرّاً ، وهكذا في جانب ا لرجل ، فالخدن يطلق على الذكر والأنثى ، وكان الزنا في الجاهلية على قسمين : سرّ وعلانية ، عامّ وخاصّ .

فالخاص السري هو أن يكون للمرأة خدن يزني بها سرّاً ، ولا تبذل نفسها لكلّ أحد .

والعام الجهري هو المراد بالسفاح كما قال ابن عبّاس وهو البغاء .

وكان البغاء من الإماء وكنّ ينصبن الرايات الحمر لتعرف منازلهن وبيوتهن .

روى ابن عبّاس : إنّ أهل الجاهلية كانوا يحرّمون ما ظهر من الزنا ، ويقولون : إنّه لوم ، وييستحلّون ما خفي ويقولون : لا بأس به ، ولتحريم القسمين يشير قوله سبحانه :

﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ (الأنعام/ ١٥١)[1].

وممّا يعرب عن رسوخ الإنحلال الخلقي فيهم ما نقله «تميم بن جراشة» وهو ثقفي ، قال قدمت على النبي (صلّى الله عليه و آله و سلّم) في وفد ثقيف ، فأسلمنا وسألناه أن يكتب لنا كتاباً فيه شروط ، فقال : اكتبوا ما بدا لكم ، ثمّ ائتوني به ، فسألناه في كتابه أن يحلّ لنا الربا والزنا ، فأبى عليّ ـ رضي الله عنه ـ أن يكتب لنا ، فسألناه خالد بن سعيد بن العاص ، فقال له عليّ : تدري ما تكتب؟ قال : اكتب ما قالوا ورسول الله أولى بأمره ، فذهبنابالكتاب إلى رسول الله ، فقال للقارئ إقرأ ، فلمّا انتهى إلى الربا ، فقال : ضع يدي عليها في الكتاب ، فوضع يده ، فقال : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا . . .﴾ (البقرة/ ٢٧٨) . ثمّ محاها ، وألقيت عليها السكينة فما راجعناه ، فلمّا بلغ الزنا ، وضع يده عليها ، وقال :

---

(١) المنار ج٥ ص٢٢ ، و زاد في المصدر قوله : و هذان النوعان معروفان الآن في بلاد الافرنج و البلاد التي تقلّد الافرنج في شرور مدنيّتهم كمصر و والاستانة و بعض بلاد الهند ، و يسمّي المصريون الخدن الرفيق ، و من هؤلاء الافرنج و المتفرنجون من هم كأهل الجاهلية يستحسنون الزنا السرّي ، و يستقبحون الجهري .

﴿ وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً ﴾ (الاسراء/ ٣٢).

ثمّ محاها وأمر بكتابنا أن ينسخ لنا[1].

وممّا يدل على الإنحلال الخلقي في أمر النساء قوله سبحانه:

﴿ وَلاَ تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا... ﴾ (النور/ ٣٣).

فالآية تعرب عن الإنهيار الخلقي الذي كان يعاني منه بعضهم حتّى بعد هجرة النبي (صلّى الله عليه و آله و سلّم) إلى المدينة، وقد رووا: إنّ عبد الله بن أُبي كان له ستّ جوارٍ كان يكرههنّ على الكسب عن طريق الزنا، فلمّا نزل تحريم الزنا، أتين رسول الله (صلّى الله عليه و آله و سلّم) فشكين إليه، فنزلت الآية[2].

٧ ـ معاقرة الخمور و ارتياد نواديها

كان الاستهتار بمعاقرة الخمور رائجاً بين العرب منذ زمن بعيد، وقد بلغ شغفهم بها حتّى أنّهم جعلوها أحد الأطيبين مع أنّ النبي الأكرم كان قد حرّم الخمر حتّى قبل هجرته إلى المدينة، ولكنّه لم يتحقّق ما أمر به إلاّ بعد مضي سنوات من هجرته، ونزول آيات مختلفة الأُسلوب متنوّعة البيان و إليك بيان هذا التدرّج:

١ ـ قال سبحانه: ﴿ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (النحل/ ٦٧) والآية مكّية نزلت في ظروف قاسية لا تتحمّل إنذاراً أكثر وأشد من هذا، ولهذا اكتفى فيه بعد اتّخاذ السكر ضد الرزق الحسن.

---

(١) أُسد الغابة ج١ ص٢١٦ ترجمة تميم بن جراشة.

(٢) مجمع البيان ج٤ ص١٤١.

٢ ـ قال سبحانه: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُما أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ (البقرة/ ٢١٩).

فالآية تشير إلى أنّه لو كان هناك لذّة وطرب لشارب الخمر، أو مال للاعب الميسر حيث يفوز به من غير كدّ ولا مشقّة، ولكن إثمهما أكبر من نفعهما.

فلأجل ذلك يجب ترك النفع القليل في مقابل الضرر الكبير، والآية مدنيّة كافية في التحريم، وذلك لأنّها تصرّح بوجود الإثم في الخمر والميسر، وقد حرّم الوحي الإلهي الإثم على وجه القطع واليقين قبل هجرة النبي، قال سبحانه:

﴿إنّمَا حَرَّمَ ربيِّ الفواحِشَ ما ظَهرَ مِنْهَا وَما بَطنَ والإثْمَ وَالبَغْيَ﴾ (الأعراف/ ٣٣).

وأي بيان أوضح لتحريم الخمر إذا قرنت الآيتان: الواحدة إلى الأُخرى؟ فالآية الأُولى تحقّق الصغرى وهو أنّ الخمر إثم، والآية الثانية تصرّح بالكبرى، وهي أنّ الله سبحانه حرّم الإثم، فيستنتج منهما أنّه سبحانه حرّم الخمر.

والعجب انّ القوم (مع أنَّ الآية الثانية التي تحرّم الإثم على وجه الحتم والبت نزلت بمكّة)، لم يتنزّهوا من هذا العمل المزيل للعقل، والمضاد للكرامة الإنسانية، فكانوا يشربون الخمر في نواديهم حتّى وافاهم الوحي الإلهي بتحريم الصلاة وهم في حال السكر، إذ قال سبحانه:

﴿يا أيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنْتُمْ سُكارىٰ حَتّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ (النساء/ ٤٣).

وهذه الآيات الثلاث التي تعرّفت عليها تلقّاها بعض الصحابة بأنّها ليست بياناً وافياً، فظلّ يترصّد البيان الأوفى حتّى وافى الوحي الإلهي، وقال سبحانه:
﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾؟ (المائدة/ ٩٠ و٩١).

ولمّا أخبر النبي عن نزول الوحي وتلا الآيتين إرتفعت أصواتهم بقولهم: اتنهينا، اتنهينا.

وكلّ هذا يعرف عن رسوخ هذه العادة الشنيعة وهذا العمل القبيح في المجتمع العربي آنذاك إلى درجة انّ النبي(صلّى الله عليه و آله و سلّم) لم يستطع ــ تحت ضغط الظروف ـ أن يقطع مادة ا لفساد منذ هبوطه أرض المدينة دفعة واحدة، بل تدرّج في تحقيق التحريم، وترسيخه في أذهانهم ونفوسهم.

رووا أصحاب السنن والمسانيد أنّه لمّا نزل تحريم الخمر قال عمر: اللّهم بيّن لنا في الخمر بياناً شافياً، فنزلت الآية التي في البقرة: **﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾** قال فدعي عمر فقرئت عليه فقال: اللّهمّ بيّن لنا في الخمر بياناً شافياً، فنزلت الآية التي في سورة النساء: **﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ﴾** فكان منادي الرسول(صلّى الله عليه و آله و سلّم) إذا أُقيمت الصلاة ينادي ألا يقربنّ الصلاة سكران، فدعي عمر فقرئت عليه، فقال: اللّهمّ بيّن لنا بياناً شافياً، فنزلت: **﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾**.

قال عمر: انتهينا، انتهينا[1].

ويظهر ممّا رواه ابن هشام عن بعض أهل العلم: انّ نهي الرسول عن الخمر كان مشهوراً عندما كان مقيماً بمكّة بين ظهراني قريش، وخرج الأعشى إلى رسول ا لله يريد الإسلام ومعه قصيدته المعروفة في مدح النبي التي مستهلّها:

الم تغتمض عينــك ليلة أرمـدا	وبتّ كما بات السليم مسهّدا
وما ذاك من عشق النساء و إنّما	تناسيت قبل اليوم صحبة مهددا

---

(١) سنن أبي داود ج٢ ص١٢٨، مسند أحمد ج١ ص ١٥٣، سنن النسائي ج٨ ص١٨٧، مستدرك الحاكم ج٢ ص٢٧٨، إلى غير ذلك من المصادر.

إلى أن قال:

فـإيّـاك و الميتـات لاتقـربنها لا تأخذن سهماً حديداً لتفصدا
و لاتقـربـنّ حـرّة كـان سـرها عليك حراماً فانكحن أو تأبّدا[1]

فلمّا كان بمكّة أو قريباً منها اعترضه بعض المشركين من قريش فسأله عن أمره فأخبره أنّه يريد رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) ليسلم فقال له: يا أبا بصير إنّه حرّم الزنا، فقال الأعشى:والله إنّ ذلك لأمر ما لي فيه من ارب، فقال له يا أبا بصير:

فإنّه يحرّم الخمر، فقال الأعشى:

أمّا هذه فو الله إنّ في النفس منها لعلالات، ولكنّي منصرف فأتروى منها عامي هذا، ثم آتيه فأُسلم، فانصرف فمات في عامه هذا، ولم يعد إلى رسول الله[2].

وببالي انّه جاء في بعض المصادر أنّـه قيل له: إنّه يحرّم الأطيبين والمراد بهما الخمر والزنا، وقد عرفت أنّه مع مـا رأى من نور النبوّة ودخل عليه من بصيص الإيمان لم يتحمّل تـرك الخمر، فعاد ليتروّى منها، ليعـود بعد عام إلى المدينـة، ولكن وافاه الأجل قبل أن يسلم.

وهذا مَثل آخر يعرب عن ترسّخ هذه العادة القبيحة في ذلك ا لمجتمع.

٨ ـ وأد البنات

أوّل من لطّخ يده بدم البنات البريئات هـم العرب الجاهليّون، فقد كانوا يئدون بناتهم لأعذار مختلفة واهية، فتارة يتذرّعون بخشية الإملاق، والأُخرى يتجنون بحجّة

---

(١) الأرمد: الـذي يشتكي عينيـه من الـرمد، و السليـم: الملدوغ، و المسهّـد: الذي منـع من النوم، و المهدد ـ على وزن معلل ـ: اسم امرأة، و تأبّد: أي تعزّب و ابتعد عن النساء.

(٢) السيرة النبوية ج١ ص٣٨٦.

الاجتناب عن العـار ، وقد حكى سبحانه عقيـدة العرب في بناتهم ووأدهـنّ في آيات نذكر ما يلي :

﴿ وَإذا بُشِّرَ اَحَدُهُمْ بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ * يتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُـوءِ مَـا بُشِّـرَ بِـهِ اَيُمْسِكُـهُ عَلَـىٰ هُـونٍ اَمْ يَـدُسُّـهُ فِـي التُّـرابِ اَلَا سَـاءَ مَـا يَحْكُمُونَ﴾ (النحل/ ٥٨ و٥٩) .

والآية تصوّر احساس القوم وإنفعالهم عندمـا كان أحدهم يبشّر بولادة أُنثى له ، فكـان يتجهّم وجهـه ويتغيّر إلـى السواد ، ويظهـر فيه أثـر الحزن والكـراهة ، والقـوم يكرهـون الأُنثى مـع أنّهم جعلـوها لله سبحـانه[1] ، ثمّ لـم يزل الحـزن يتزايـد فيمتلئ الشخص غيظاً ، وعند ذلك يستخفي من القوم الذي يستخبرونه عمّا ولد له ، إستنكافاً منه ، وخجلاً ممّا بشّر بـه من الأُنثى ، ثمّ هو يفكر في أمر البنـت المولودة له أيحفظها على ذل وهـوان ، أم يخفيها في التـراب ، ويدفنهـا حيّة وهذا هـو الوأد ﴿اَلاَ سَاءَ مَا يَحْكُمونَ﴾ أي في قتل البنات البريئات المظلومات .

ثمّ إنّه سبحانه يحارب بشدّة هذا العمل الإجرامي في بعض الآيا ت ويقول :

﴿ وَلاَ تَقْتُلُـوا اَوْلادَكُـمْ خَشْيَـةَ اِمْـلاَقٍ نَحْـنُ نَـرْزُقُهُـمْ وَاِيَّـاكُـمْ اِنَّ قَتْلَهُـمْ كَـانَ خِطْأً كَبِيراً﴾ (الإسراء/ ٣١) .

فالله سبحانه هو المتكفّل برزقهم ورزق أولادهم وقتلهم خطأً عظيم عند الله .

وقـال سبحـانـه : ﴿ وَلاَ تَقْتُلُـوا اَوْلادَكُـمْ مِـنْ اِمْـلاقٍ نَحْـنُ نَـرْزُقُكُـمْ وَاِيَّاهُمْ﴾ (الأنعام/ ١٥١)

ويؤكّـد القرآن على تحريـم قتل هذه البنـات المظلومات بأنّ المـؤودة سيسأل منها يوم القيامة ، قال سبحانه : ﴿ وَإذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ﴾ (التكوير/ ٨) .

---

(١) إشـارة إلـى قـولـه سبحـانـه : ﴿أَلَكُـمُ الـذَّكَـرُ وَ لَـهُ الأُنثَـى * تِلْـكَ إِذاً قِسْمَـةٌ ضِيزَى﴾(النجم/ ٢١و٢٢) .

وقد ذكر أصحاب السير بعض الدوافع التـي دفعت العرب إلى اتّخاذ مثل هذا الموقـف الظالم بشأن تلـك البريئات ولا يسع المجـال لنقلها، ولكن يظهر ممّـا نقله صعصعة بن ناجيـة ـ جد الفرزدق ـ: إنّ ذلك العمل الإجرامي كان شـائعاً ورائجاً في غير و احدة من القبائل آنذاك، و إليك البيان:

إنّ صعصعة بن ناجية بن عقال كان يفـدّي ا لمؤودة من القتل، ولمّا أتى رسول الله(صلّـى الله عليـه و آله و سلّـم) قـال: يـا رسـول الله إنـّي كنت أعمـل عمـلاً فـي الجاهليـة، أفينبغي ذلك اليـوم؟ قال: وما عملك؟ فقـال: إنّه حضر ولادة امـرأة من العرب بنتـاً، فأراد أبوهـا أن يئدها، قـال فقلت له: أتبيعهـا؟ قال: وهل تبيـع العرب أولادها؟ قـال: قلت إنّمـا أشتري حيـاتها ولا أشتـري رقّها، فـاشتريتهـا منه بنـاقتين عشراويـن و جمل، وقد صـارت لي سُنَّة فـي العرب على أن أشتـري ما يئدونه بـذلك فعندي إلى هذه الغاية ثمانون ومائتا مؤودة وقد أنقذتها.

فقـال رسـول الله(صلّى الله عليـه و آلـه و سلّـم): لـك أجره إذ مـنّ الله عليـك بالإسلام(1).

وقد ذكر الفرزدق احياء جدّه للمؤودات في كثير من شعره كما قال:

ومنّا الذي منع الوائدات وأحيى الوئيد فلم يؤدد(2)

ويعرب عن شيوع هذه العادة الوحشيّة والمروّعة قوله سبحانه:

﴿ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ (الأنعام / ١٣٧).

وكذا قوله: ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهاً بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ (الأنعام/ ١٤٠).

---

(١) بلوغ الارب ج٣ ص٤٤.

(٢) المصدر نفسه.

٩ـ أكل الخبائث من الدماء والحشرات

كانت العرب تأكل لحوم الأنعام وغيرهـا من الحيوانات كالفأر والضب الوزغ، وتـأكل مـن الأنعام مـا قتلتـه بذبـح ونحـوه، وتأكـل الميتة بجميـع أقسـامها أعنـي المنخنقة، والموقوذة، والمتـردّية والنطيحة، وما أكل السبع، و كـانوا يملؤون الأمعاء من الدم و يشوونه و يطعمونه الضيف،وكانوا إذا أجـدبوا جرحوا إبلهم بالنصال وشربوا ما يسيل منها من الدماء.

هذا ورغـم أنّه مضى على ظهور التشريع الإسلامي إلى الآن أربعةعشر قرناً فإنّ كثيراً من الأُمم غير المسلمة تأكل أصناف الحيوانات حتّى الكلب والهر، بل والديدان والأصداف، وقـد اتّخذ الإسلام بيـن هذا وذاك طريقـاً وسطاً، فـأباح من اللحـوم ما تستطيبه الطباع المعتـدلة من بني الإنسـان، فحلّل من البهائم الضـأن والمعز والبقر والإبل، وكرّه أكل لحوم الفرس والحمار، وحلـّل من الطيور غير ذات الجوارح ممّا له حوصلـة ودفيف ولا مخلـب له، كمـا حلّل مـن لحوم البحـر بعض أنـواع السمك، واشترط في كل واحدمن هذه اللحوم نوعاً من التذكية.

والإمعان فـي الآية التالية يقـودنا إلى أنّ العرب كـانت تفقد نظام التغـذية، أو كانت تتغذّى من كـلّ ما وقعت عليه يدها من اللحوم، كما أنّها كـانت تفقد الطريقة الصحيحة لـذبح الحيوان، فكـانوا يقتلونـه بالتعـذيب بدل ذبحـه، وإليه يشير قـوله سبحانه:

﴿حُرِّمَـتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالـدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيـرِ وَمَا أُهِـلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِـهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَـرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا اَكَلَ السَّبُعُ اِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ و مَا ذُبِـحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلاَمِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ﴾ (المائدة/ ٣).

فقد كـانوا ينتفعون مـن الميتة والـدم ولحم الخنزيـر والمذبوح باسـم الأصنام والأوثان.

كما كانـوا يستفيدون من «المنخنقة» وهي التـي تدخل رأسها بيـن شعبتين من

شجرة فتختنق فتموت أو تخنق بحبل الصائد، «والموقوذة» وهي التي تضرب حتّى تموت، «والمتردية» وهي التي تقع من جبل أو مكان عال أو تقع في بئر، «والنطيحة» وهي التي ينطحها غيرها فتموت.

١٠ ـ التقسيم بالأزلام

كان التقسيم بالأزلام ميسّراً رائجاً بينهم، وكان لهذا العمل صبغة الدين، وقد اختلفوا في تفسيره على قولين:

١ ـ قالوا: المراد طلب قسم الأرزاق بالقداح التي كانوا يتفاءلون بها في أسفارهم، وابتداء أُمورهم، وهي سهام كانت في الجاهليّة مكتوب على بعضها: «أمرني ربّي»، وعلى بعضها «نهاني ربّي»، وبعضها غفل لم يكتب عليه شيء، فإذا أرادوا سفراً أو أمراً يهتمّون به، ضربوا على تلك القداح، فإن خرج السهم الذي عليه «أمرني ربّي»، مضى الرجل في حاجته، وإن خرج الذي عليه «نهاني ربّي» لم يمض، وإن خرج الذي ليس عليه شيء أعاد.

٢ ـ روى علي بن إبراهيم في تفسيره عن الصادقين كيفيّة التقسيم بالأزلام بشكل آخر، فقال:

إنّ الأزلام عشرة، سبعة لها انصباء وثلاثة لا انصباء لها، فالتي لها انصباء: الفذ، التوأم، المسبل، النافس، الحلس، الرقيب، المعلى. فالفذ له سهم، والتوأم له سهمان، والمسبل له ثلاثة أسهم، والنافس له أربعة أسهم، والحلس له خمسة أسهم، والرقيب له ستّة أسهم، والمعلى له سبعة أسهم.

والتي لا انصباء لها: السفيح والمنيح والوغد.

وكانوا يعمدون إلى الجزور فيجزّئونه أجزاء، ثمّ يجتمعون عليه فيخرجون السهام، ويدفعونه إلى رجل، وثمن الجزور على من تخرج له «التي لا انصباء لها»

وهو القمار ، فحرّمه الله تعالى[1].

والتفسير الثاني أنسب لكون البحث في الآية عن اللحوم المحرّمة .

١١ ـ النسيء في الأشهر الحرم

لقد شاع في الألسن انّ العرب لمّا كانوا أصحاب غارات وحروب وكان استمرار الحروب والغارات مانعاً عن إدارة شؤون المعاش ، عمدوا إلى تحريم القتال والحرب في الأشهر الأربعة المعروفة بالأشهر الحرم أعني : «رجب وذي القعدة وذي الحجة ومحرّماً».

والظاهر من بعض الآيات أنّ التحريم هذا كان مستنداً إلى تشريع سماوي ، كما هو المستفاد من قول الله تعالى :

﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتَابِ اللهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلاَ تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ (التوبة/ ٣٦) .

فإنّ قوله ﴿ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ إشارة إلى أنّه جزء من الدّين ا لقيّم لا من طقوس العرب الجاهلي ، و لعلّه كان سنّة من سنن النبي إبراهيم ورثتها عنه العرب .

وعلى كلّ تقدير فقد كان العرب يتدخّلون في هذا التشريع الإلهي فيؤخّرون الحرمة من الشهر الحرام إلى بعض الأشهر غير المحرّمة .

وبعبارة أُخرى كانوا يؤخّرون الحرمة ، ولا يبطلونها برفعها من أساسها و أصلها حفاظاً على السنّة الموروثة عن أسلافهم عن النبي إبراهيم(عليه السلام) .

فمثلاً كانوا يؤخّرون تحريم محرّم إلى صفر ، فيحرّمون الحرب في صفر

---

(١) مجمع البيان ج٢ ص١٥٨ و ما أشبه التقسيم بالأزلام بالعمل المعروف في عصرنا بـ «اليانصيب الوطني» .

ويستحلّونها في محرّم فيمكثون على ذلك زماناً ثمّ يزول التحريم عن صفر ويعود إلى محرّم، وهذا هو المعنى بالنسيئ (أي التأخير).

وكان الدافع وراء هذا النسيء هو انّهم أصحاب حروب وغارات، فكان يشقّ عليهم أن يمتنعوا عن القتال ثلاثة أشهر متوالية وهي: ذو القعدة وذو الحجة ومحرّم، ولا يغزون فيها، ولهذا كانوا يؤخّرون تحريم الحرب في محرّم إلى شهر صفر، قال سبحانه:

﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾(التوبة/ ٣٧).

روى أهل السير أنّه(صلّى الله عليه و آله و سلّم) قال في خطبة حجّة الوداع:

«ألا و انّ الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض، السنة اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم ثلاثة متواليات، ذو القعدة وذو الحجّة ومحرّم ورجب مضر بين جمادى وشعبان»(١).

والحديث يعرب عن شكل آخر للنسيئ غير ما ذكرناه فإنّ ما ذكرناه كان مختصاً بتأخير حكم الحرب من محرّم إلى صفر، ولكن النسيئ المستفاد من الحديث على وجه آخر وهو انّ المشركين كانوا يحجّون في كل شهر عامين فحجّوا في ذي الحجّة عامين، وحجّوا في محرّم عامين، ثمّ حجّوا في صفر عامين، وكذا في بقيّة الشهور اللاحقة حتّى إذا وافقت الحجّ التي قبل حجّة الوداع في ذي القعدة ثمّ حجّ النبي(صلّى الله عليه و آله و سلّم) في العام القادم حجّة الوداع، فوافقت في ذي الحجة، فعند ذلك قال النبي(صلّى الله عليه و آله و سلّم): «ألا انّ الزمان قد استدار كهيئته».

---

(١) مجمع البيان ج٣ ص٢٢.

١٢ ـ الربا ذلك الاستغلال الجائر

كان العرب الجاهليّون يرون البيع والربا متماثلين، ويقولون: «إنّما البيع مثل الربا» فيضفون الشرعيّة على الربا كإضفائها على البيع. ولكن شتّان ما بين البيع والربا، فإنّ الثاني ينشر القسوة والخسارة، ويورث البغض والعداوة، ويفسد الأمن والاستقرار، ويهيّئ النفوس للانتقام بأية وسيلة ممكنة ويدعو إلى الفرقة والاختلاف سواء كان الربا مأخوذاً من قبل الفرد أو مأخوذ من جانب الدولة.

وفي الثاني من المفاسد ما لا يخفى إذ أدنى ما يترتّب عليه تكديس الثروة العامّة، وتراكمها في جانب، وتفشّي الفقر والحرمان في الجانب الآخر، وظهور الهوّة السحيقة بين المعسرين والموسيرين بما لا يسدّه شيء.

ولسنا هنا بصدد بيان هذه المفاسد والمساوئ، لكن الهدف هو الإشارة إلى أنّ الربا كان من دعائم الاقتصاد الجاهلي، والقرآن نزل يوبّخ العرب على ذلك بوجه لا مثيل له، ويقول سبحانه:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ﴾ (البقرة/ ٢٧٨ و٢٧٩).

ويقول سبحانه: **﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾** (البقرة/ ٢٧٥).

والآية تشبّه آكل الربا بالممسوس المجنون، فكما أنّه لأجل اختلال قوّته المميّزة لا يفرّق بين الحسن والقبح، والنافع والضار، والخير والشر، فهكذا حال المرابي عند أخذ الربا، فلأجل ذلك عاد لا يفرّق بين الربا والبيع، ويقول: «إِنَّمَا البَيعُ مِثْلُ الرِّبَا» مع أنّ الذي تدعو إليه الفطرة وتقوم عليه الحياة الإجتماعية للإنسان، هو أن يعامل بمعاوضة ما عنده من المال الذي يستغني عنه، بما عند غيره من المال الذي يحتاج إليه.

وأمّا إعطاء المال وأخذ ما يماثله بعينه، مع زيادة فهذا شيء يخالف قضاء الفطرة وأساس المعيشة، فإنّ ذلك يؤدّي من جانب المرابي إلى اختلاس مال المدين، وتجمّعه عند المرابي وهذا المال لا يزال ينمو ويزيد، ولا ينمو إلاّ من مال الغير، فهو في الانتقاص والانفصال من جانب، وفي الزيادة والانضمام من جانب آخر، ونتيجة ذلك هو ظهور الاختلاف الطبقي الهائل الذي يؤول إلى انقسام المجتمع إلى طبقتين: طبقة ثريّة تملك كل شيء، وطبقة فقيرة تفقد كل شيء، والأُولى تعاني من البطنة، والثانية تتضوّر من السغب.

خاتمة المطاف

ونختم البحث بما رواه علي بن إبراهيم في تفسيره من أنّه قدم أسعد بن زرارة وذكوان بن عبد قيس ـ وهما من الخزرج ـ وكان بين الأوس والخزرج حرب قد بغوا فيها دهوراً طويلة، وكانوا لا يضعون السلاح لا بالليل ولا بالنهار، وكان آخر حرب بينهم يوم بعاث، وكانت الأوس على الخزرج، فخرج أسعد بن زرارة وذكوان إلى مكّة في عمرة رجب يسألون الحلف على الأوس، وكان أسعد بن زرارة صديقاً لعُتبة بن ربيعة، فنزل عليه فقال له: إنّه كان بيننا وبين قومنا حرب وقد جئناكم نطلب الحلف عليهم. فقال عتبة: بعدت دارنا عن داركم ولنا شغل لا نتفرّغ لشيء.

قال: وما شغلكم وأنتم في حرمكم وأمنكم؟

قال له عتبة: خرج فينا رجل يدّعي أنّه «رسول الله» سفّه أحلامَنا وسبَّ آلهتنا، وأفسد شبابنا، وفرّق جماعتنا.

فقال له أسعد: من هو منكم؟

قال: ابن عبد الله بن عبد المطلب من أوسطنا شرفاً وأعظمنا بيتاً.

وكان أسعد وذكوان وجميع الأوس والخزرج يسمعون من اليهود الذين كانوا بينهم: النضير وقريظة وقينقاع: انّ هذا أوان نبيّ يخرج بمكّة يكون مهجره المدينة لنقتلنّكم به يا معشر العرب.

فلمّا سمع ذلك أسعد وقع في قلبه ما كان سمعه من اليهود .

فقال : فأين هو؟ قال : جالس في الحجر وإنّهم لا يخرجون من شعبهم إلاّ في الموسم فلا تسمع منه ولا تكلّمه فإنّه ساحر يسحرك بكلامه ، وكان هذا في وقت محاصرة بني هاشم في الشعب .

فقال له أسعد : فكيف أصنع وأنا معتمر؟ لابدّ أن أطوف بالبيت ، فقال له : ضع في أُذنيك القطن .

فدخل أسعد المسجد وقد حشّى أُذنيه من القطن ، فطاف بالبيت ورسول الله(صلّى الله عليه وآله وسلّم) جالس في الحجر مع قوم من بني هاشم فنظر إليه فجأة .

فلمّا كان الشوط الثاني قال في نفسه : ما أجد أجهل منّي أيكون مثل هذا الحديث بمكّة فلا أعرفه حتّى أرجع إلى قومي فأخبرهم ، ثمّ أخذ القطن من أُذنيه ورمى به ، وقال لرسول الله : «أنعم صباحاً» فرفع رسول الله رأسه إليه وقال : قد أبدلنا الله به ما هو أحسن من هذا ، تحيّة أهل الجنّة : السلام عليكم .

فقال أسعد : إنّ عهدي بهذا لقريب ، إلى ما تدعو يا محمّد؟

فقال(صلّى الله عليه و آله و سلّم) : إلى شهادة اَن لا إله إلاّ الله و انّي رسول اللهِ وأدعوكم :

١ ـ أنْ لاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً .

٢ ـ وَبِالْوَالِدَيْنِ إحْسَاناً .

٣ ـ وَلاَ تَقْتُلُوا أوْلاَدكُمْ مِنْ إمْلاَقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ و اِيَّاهُمْ .

٤ ـ وَلاَ تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَما بَطَنَ .

٥ ـ وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إلاَّ بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ .

٦ ـ وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إلاَّ بِالَّتِي هِيَ أحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ .

٧ ـ وَاَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيْزانَ بِالْقِسْطِ .

٨ ـ لانُكَلِّفُ نَفْساً إلاّ وُسْعَهَا .

٩ ـ وَإذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ .

١٠ ـ وَبِعَهْدِ اللهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ(الأنعام/ ١٥١و١٥٢) .

فلمّا سمـع أسعد هذا قـال : أشهد أنْ لا إله إلاّ الله وحـده لا شريك لـه و انّك رسول الله ، يا رسـول الله بأبي أنت وأُمّي ، أنـا من أهل يثرب من الخـزرج ، بيننا وبين إخواننـا من الأوس حبال مقطـوعة ، فإن وصلها الله بـك ، فلا أحد أعـزّ منك ، ومعي رجل من قومي فـإن دخل في هذا الأمر رجوت أن ينعم الله لنا أمـرنا فيه ، والله يا رسول الله لقد كنّا نسمع من اليهود خبرك ، كانوا يبشّروننا بمخرجك ويخبروننا بصفتك وأرجو أن تكون دارنـا دار هجرتك ، وعندنـا مقامك ، فقـد أعلمنا اليهود ذلك ، فـالحمد لله الذي سا قني إليك ، والله ما جئت إلاّ لنطلب الحلف على قومنا ، وقد آتانا الله بأفضل ممّا أتيت له . . . .[1].

إنّ هذا النص التاريخي يدفعنا إلى القـول بأنّ رئيس الخزرج كان قد وقف على داء قومـه العيّاء ، ودوائه الناجع ، وإنّ قـومه لن يسعدوا أبـداً بالتحالف مـع هذا وذاك وشـن الغـارات وإن انتصـروا علـى الأوس ، وإنّمـا يسعـدون إذا رجعـوا إلـى مكـارم الأخلاق ، وتحلّوا بفضائلها التي جاءت أُصولها في هاتين الآيتين اللتين تلاهما رسول ا لله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) في حجر إسماعيل .

عرف وافـد الخزرج علـى أنّ مجتمع يثـرب ومن والاه قـد أشرفـوا على الـدمار والانهيار، لأجل أنّهم غارقين في غمـرات ا لشرك ، ووأد البنات ، واقتراف الفواحش ، وقتل النفس المحترمة ، وأكل مال اليتيم ، وبخس الأموال عند الكيل والتوزين ، وترك العدل والقسط في القول والعمل ، ونقض عهـود الله إلى غير ذلك من الأعمال السيئة فلا يصلحهم إلاّ إذا خرجوا عن شراك هذه المهالك والموبقات .

---

(١) اعلام الورى بأعلام الهـدى ، ص٥٧ ، و للقصة ذيل جدير بالمطالعة و قدأخـذنا منها موضع الحاجة .

فخرج إلى يثرب ومعه مبعوث من قبل رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) أعني «مُصعبَ بن عُمير» فبشّر أهل يثرب بما عرف من الحقّ، وصار ذلك تمهيداً لقدوم الرسول الأكرم إلى بلده، بعدما بعثوا وفوداً إلى مكّة ليتعرّفوا على رسول الله ويبايعوه على ما هو مذكور في السيرة والتاريخ.

فنقول: كان هذا هو موطن النبي ودار ولادته وهذه هي ثقافة قومه وحضارة بيئته، وهذه صفاتهم وعاداتهم وتقاليدهم، وهذه هي علومهم ومعارفهم، حروبهم وغاراتهم، عطفهم وحنانهم، كل ذلك يعرب عن إنحطاط حضاري، و إنحلال خلقي، كاد أن يؤدّي بهم إلى الهلاك والدمار لو لا أن شاء ا لله حياتهم الجديدة وميلادهم الحديث.

وأين هذا ممّا جاء به القرآن الكريم والسنّة النبويّة من الدعوة إلى التوحيد، ورفض الأصنام والأوثان، وحرمة النفوس، والأعراض والأموال، والدعوة إلى العلم، والقراءة والكتابة، والحث على العدل والقسط في القول والعمل، والتجنّب عن الدعارة والفحشاء، ومعاقرة الخمر والميسر، فلو دلّ ذلك على شيء فإنّما يدل على أنّ ما جاء به من الأُصول لا يمتّ إلى بيئته بصلة.

هذا ما في الذكر الحكيم حول الوضع الإجتماعي والثقافي والعقائدي والعسكري للعرب في العصر الجاهلي وما كانوا عليه من حيرة وضلال، وسقوط وانهيار، فهلمّ معي ندرس وضع العرب الجاهلي عن طريق آخر وهو الإمعان في كلمات الإمام أمير المؤمنين عليّ(عليه السلام) الذي عاين الوضع الجاهلي بأُمّ عينيه، فقد قام الإمام في خطبه ورسائله وقصار كلماته ببيان أحوال العرب قبل البعثة، وما كان يسودهم من الوضع المؤسف، وبما أنّ الإمام هو الصادق المصدّق، نقتطف من كلامه في مجال الخطب والرسائل والكلم القصار ما يمتّ إلى الموضوع بصلة، وفي ذلك غنى وكفاية لمن أراد الحقّ:

أ ـ الفوضويّة العقائديّة

١ ـ «وَأَهْلُ الْأَرْضِ يَوْمَئِذٍ مِلَلٌ مُتَفَرِّقَةٌ، وَأَهْوَاءٌ مُنْتَشِرَةٌ، وَطَرَائِقُ مُتَشَتِّتَةٌ، بَيْنَ مُشَبِّهٍ لِلّهِ بِخَلْقِهِ، اَوْ مُلْحِدٍ فِي اسْمِهِ اَوْ مُشِيرٍ إِلَى غَيْرِهِ، فَهَدَاهُمْ بِهِ مِنَ الضَّلَالَةِ وَاَنْقَذَهُمْ بِمَكَانِهِ مِنَ الْجَهَالَةِ»[1].

٢ ـ «بَعَثَهُ وَ النَّاسُ ضُلاَّلٌ فِي حَيْرَةٍ، وَ حَاطِبُونَ فِي فِتْنَةٍ، قَدِاسْتَهْوَتْهُمُ الْأَهْوَاءُ، وَ اسْتَزَلَّتْهُمُ الْكِبْرِيَاءُ، وَ اسْتَخَفَّتْهُمُ الْجَاهِلِيَّةُ الْجَهْلاَءُ، حَيَارَىٰ فِي زَلْزَالٍ مِنَ الْأَمْرِ، وَبَلاَءٍ مِنَ الْجَهْلِ فَبَالَغَ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ ـ فِي النَّصِيحَةِ وَ مَضَىٰ عَلَى الطَّرِيقَةِ وَدَعَا إِلَى الْحِكْمَةِ وَ الْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ»[2].

٣ ـ «وَ النَّاسُ فِي فِتَنٍ انْجَذَمَ فِيهَا حَبْلُ الدِّينِ، وَ تَزَعْزَعَتْ سَوَارِي الْيَقِينِ، وَاخْتَلَفَ النَّجْرُ، وَ تَشَتَّتَ الْأَمْرُ، وَ ضَاقَ الْمَخْرَجُ، وَ عَمِيَ الْمَصْدَرُ، فَالْهُدَى خَامِلٌ، وَالْعَمَى شَامِلٌ، عُصِيَ الرَّحْمٰنُ، وَ نُصِرَ الشَّيْطَانُ، وَ خُذِلَ الْإِيمَانُ، فَانْهَارَتْ دَعَائِمُهُ، وَ تَنَكَّرَتْ مَعَالِمُهُ، وَ دَرَسَتْ سُبُلُهُ، وَ عَفَتْ شُرُكُهُ. اَطَاعُوا الشَّيْطَانَ فَسَلَكُوا مَسَالِكَهُ وَوَرَدُوا مَنَاهِلَهُ، بِهِمْ سَارَتْ اَعْلاَمُهُ، وَ قَامَ لِوَاؤُهُ. فِي فِتَنٍ دَاسَتْهُمْ بِاَخْفَافِهَا، وَوَطِئَتْهُمْ بِاَظْلاَفِهَا، وَ قَامَتْ عَلَى سَنَابِكِهَا، فَهُمْ فِيهَا تَائِهُونَ، حَائِرُونَ، جَاهِلُونَ، مَفْتُونُونَ، فِي خَيْرِ دَارٍ وَ شَرِّ جِيرَانٍ، نَوْمُهُمْ سُهُودٌ، وَ كُحْلُهُمْ دُمُوعٌ، بِاَرْضٍ عَالِمُهَا مُلْجَمٌ، وَ جَاهِلُهَا مُكْرَمٌ»[3].

٤ ـ «وَ أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَ رَسُولُهُ، ابْتَعَثَهُ وَ النَّاسُ يَضْرِبُونَ فِي غَمْرَةٍ، وَيَمُوجُونَ فِي حَيْرَةٍ، قَدْقَادَتْهُمْ اَزِمَّةُ الْحَيْنِ، وَ اسْتَغْلَقَتْ عَلَى اَفْئِدَتِهِمْ اَقْفَالُ الرَّيْنِ»[4].

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة١ .

(٢) نهج البلاغة، الخطبة٩٥ .

(٣) نهج البلاغة، الخطبة٢ .

(٤) نهج البلاغة، الخطبة١٩١ .

٥ ـ «ثُمَّ إِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ بَعَثَ مُحَمَّداً ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ ـ بِالْحَقِّ حِيْنَ دَنَا مِنَ الدُّنْيَا الْإِنْقِطَاعُ، وَ اَقْبَلَ مِنَ الْآخِرَةِ الْإِطِّلاعُ، وَ اَظْلَمَتْ بَهْجَتُهَا بَعْدَ إِشْرَاقٍ، وَ قَامَتْ بِاَهْلِهَا عَلَى سَاقٍ، وَ خَشُنَ مِنْهَا مِهَادٌ، وَ اَزِفَ مِنْهَا قِيَادٌ، فِي انْقِطَاعٍ مِنْ مُدَّتِهَا، وَاقْتِرَابٍ مِنْ اَشْرَاطِهَا، وَ تَصَرُّمٍ مِنْ اَهْلِهَا، وَ انْفِصَامٍ مِنْ حَلْقَتِهَا، وَ انْتِشَارٍ مِنْ سَبَبِهَا، وَ عَفَاءٍ مِنْ اَعْلاَمِهَا، وَ تَكَشُّفٍ مِنْ عَوْرَاتِهَا، وَ قِصَرٍ مِنْ طُولِهَا، جَعَلَهُ اللهُ بَلاَغاً لِرِسَالَتِهِ، وَ كَرَامَةً لِأُمَّتِهِ، وَ رَبِيعاً لِأَهْلِ زَمَانِهِ، وَ رِفْعَةً لِأَعْوَانِهِ، وَ شَرَفاً لِأَنْصَارِهِ»[1].

ب ـ الوضع الإجتماعي في العصر الجاهلي

٦ ـ «اَرْسَلَهُ عَلَى حِينِ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ، وَ طُولِ هَجْعَةٍ مِنَ الْأُمَمِ، وَ اعْتِزَامٍ مِنَ الْفِتَنِ وَ انْتِشَارٍ مِنَ الْأُمُورِ، وَ تَلَظٍّ مِنَ الْحُرُوبِ، وَ الدُّنْيَا كَاسِفَةُ النُّورِ، ظَاهِرَةُ الْغُرُورِ، عَلَى حِينِ اصْفِرَارٍ مِنْ وَرَقِهَا، وَ إِيَاسٍ مِنْ ثَمَرِهَا، وَ اغْوِرَاءٍ مِنْ مَائِهَا، قَدْ دَرَسَتْ مَنَارُ الْهُدَى، وَ ظَهَرَتْ اَعْلاَمُ الرَّدَى، فَهِيَ مُتَجَهِّمَةٌ لأَهْلِهَا، عَابِسَةٌ فِي وَجْهِ طَالِبِها ثَمَرُهَا الْفِتْنَةُ، وَ طَعَامُهَا الْجِيفَةُ، وَ شِعَارُهَا الْخَوْفُ، وَ دِثَارُهَا السَّيْفُ، فَاعْتَبِرُوا عِبَادَ اللهِ وَاذْكُرُوا تِيْكَ الَّتِي آبَاؤُكُمْ وَ إِخْوَانُكُمْ بِهَا مُرْتَهَنُونَ»[2].

ج ـ المستوى الثقافي لأهل الجاهلية

٧ ـ «وَ لاَتَكُونُوا كَجُفَاةِ الجَاهِلِيَّةِ، لاَ فِي الدِّينِ يَتَفَقَّهُونَ، وَ لَا عَنِ اللهِ يَعْقِلُونَ، كَقَيْضِ بَيْضٍ فِي اَدَاحٍ يَكُونُ كَسْرُهَا وِزْراً وَ يُخْرِجُ حِضَانُهَا شَرّاً»[3].

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة ١٩٨ .

(٢) نهج البلاغة، الخطبة٨٩ .

(٣) نهج البلاغة، الخطبة١٦٦ .

٨ ـ «اَمّا بَعْدُ فَاِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ بَعَثَ مُحَمَّداً ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ ـ وَ لَيْسَ اَحَدٌ مِنَ الْعَرَبِ يَقْرَأُ كِتَاباً، وَ لاَيَدَّعِي نُبُوَّةً، وَ لاَ وَحْياً»[١].

د ـ سيادة الوثنية

٩ ـ «فَبَعَثَ اللهُ مُحَمَّداً ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ ـ بِالْحَقِّ لِيُخْرِجَ عِبَادَهُ مِنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ اِلَىٰ عِبَادَتِهِ، وَ مِنْ طَاعَةِ الشَّيْطَانِ اِلَى طَاعَتِهِ بِقُرْآنٍ قَدْبَيَّنَهُ وَ اَحْكَمَهُ»[٢].

١٠ ـ «بَعَثَهُ حِينَ لاَعَلَمٌ قَائِمٌ، وَ لاَمَنَارٌ سَاطِعٌ، وَ لاَمَنْهَجٌ وَاضِحٌ»[٣].

هـ ـ العصبية الجاهليّة

١١ ـ «اَضَاءَتْ بِهِ الْبِلاَدُ بَعْدَ الضَّلاَلَةِ الْمُظْلِمَةِ، وَ الْجَهَالَةِ الْغَالِبَةِ، وَ الْجَفْوَةِ الْجَافِيَةِ، وَ النَّاسُ يَسْتَحِلُّونَ الْحَرِيمَ وَ يَسْتَذِلُّونَ الْحَكِيمَ، وَ يَحْيَوْنَ عَلَى فَتْرَةٍ، وَيَمُوتُونَ عَلَى كَفْرَةٍ»[٤].

و ـ مأكلهم و مشربهم

١٢ ـ «اِنَّ اللهَ بَعَثَ مُحَمَّداً ـ صلَّى اللهُ عليه وآلهِ وسلَّم ـ نَذِيراً لِلْعَالَمِينَ، وَ اَمِيناً عَلَى التَّنْزِيلِ، وَ اَنْتُمْ مَعْشَرَ الْعَرَبِ عَلَى شَرِّ دِينٍ وَ فِي شَرِّ دَارٍ، مُنِيخُونَ بَيْنَ حِجَارَةٍ خُشْنٍ، وَ حَيَّاتٍ صُمٍّ، تَشْرَبُونَ الْكَدِرَ، وَ تَأْكُلُونَ الْجَشِبَ وَ تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ،

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة١٠٤و٣٣.

(٢) نهج البلاغة، الخطبة١٤٧.

(٣) نهج البلاغة، الخطبة١٩٦.

(٤) نهج البلاغة، الخطبة١٥١.

وَ تَقْطَعُونَ اَرْحَامَكُمْ، اَلْاَصْنَامُ فِيكُمْ مَنْصُوبَةٌ، وَ الْآثَامُ بِكُمْ مَعْصُوبَةٌ»[1].

ز ـ مكانة المرأة في الجاهلية

١٣ ـ كلامه في المرأة الجاهلية مخاطباً عسكره قبل لقاء العدوّ بصفّين:
«وَ لاَتَهِيجُوا النِّسَاءَ بِأَذىً وَ اِنْ شَتَمْنَ أَعْرَاضَكُمْ، وَ سَبَبْنَ اُمَرَاءَكُمْ، فَاِنَّهُنَّ ضَعِيفَاتُ الْقُوَى وَ الْاَنْفُسِ وَ الْعُقُولِ، اِنْ كُنَّا لَنُؤْمَرُ بِالْكَفِّ عَنْهُنَّ وَ إِنَّهُنَّ لَمُشْرِكَاتٌ وَ اِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَيَتَنَاوَلُ الْمَرْأَةَ فِي الجَاهِلِيَّةِ بِالْفَهْرِ، أَوِ الْهِرَاوَةِ فَيُعَيَّرُ بِهَا وَ عَقِبُهُ مِنْ بَعْدِهِ»[2].

﴿إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَ هُوَ شَهِيدٌ﴾

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة ٢٦.

(٢) نهج البلاغة، الكتاب رقم ١٤ من وصيّته له عليه السلام.

(٣)

ميلاد النبي الأكرم ﷺ

أو

تبلّج النـور في الظـلام الحـالك

إنّ التعرّف على حياة النبي يتوقّف على دراسة مراحل ثلاث تشكّل فصول عمره المبارك وهي:

١ ـ من ولادته إلى بعثته.

٢ ـ من بعثته إلى هجرته.

٣ ـ من هجرته إلى رحلته.

إنّ أصحاب السير والتواريخ درسوا الفصول الثلاثة على ضوء الروايات والأحاديث التي تلقّوها عن الصحابة والتابعين، ونحن ندرسها على ضوء القرآن الكريم، فنقول:

اتّفق المؤرخون على أنّ النبي الأكرم ولد عام الفيل، وهي السنة الّتي عمد أبرهة إلى تدمير الكعبة وهدمها ولكنّه باء بالفشل وهلك هو وجنوده بأبابيل، كما يحكي عنه قوله سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ * أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ * وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾(الفيل/ ١ ـ٥).

ومن أراد الوقوف على تفصيل القصّة فعليه المراجعة إلى كتب السيرة والتفسير والتاريخ.

ويظهر ممّا أخرجه مسلم أنّ هذا اليوم يوم مبارك، قال: إنّ أعرابياً قال: يا رسول الله ما تقول في صوم يوم الإثنين؟ فقال: ذلك يوم ولدت فيه، وأُنزل عليّ فيه[1].

لم يذكر القرآن ما يرجع إلى المرحلة الأُولى من حياته إلاّ شيئاً قليلاً نشير إليها إجمالاً:

١ ـ عاش يتيماً فآواه سبحانه.

٢ ـ كان ضالّاً فهداه.

٣ ـ كان عائلاً فأغناه.

٤ ـ كما ذكر أسماءه في غير واحد من السور.

٥ ـ جاءت البشارة باسمه «أحمد» في الإنجيل.

٦ ـ كان أُمّياً لم يدرس ولم يقرأ ولم يكتب.

٧ ـ كان قبل البعثة مؤمناً موحّداً عابداً لله فقط.

فإليك البحث عن هذه الأُمور واحداً بعد آخر:

١ ـ الإيواء بعد اليُتم

ولد النبيّ الأكرم من والدين كريمين فوالده عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم.

واتّفقت الإماميّة والزيديّة وجملة من محقّقي السنّة على أنّه كان موحّداً مؤمناً.

ويستدل من صفاته المحمودة، وفضائله المرموقة، والأشعار المأثورة، على

---

(١) مسند أحمد، ج٥ ص٢٩٧ ـ ٢٩٩، و السنن الكبرى للبيهقي ج٤ ص٢٩٣، و صحيح مسلم ـ كتاب الصيام باب استحباب صيام ثلاثة أيام من كل شهر ج١ ص٩٧.

أنّه كان على خط التوحيد وعلى دين آبائه، نقل المؤرّخون: إنّ عبد الله بن عبد المطلب أقبل من الشام في عِيرٍ لقريش فنزل بالمدينة وهو مريض، فأقام بها حتّى توفّي ودفن في دار النابغة في الدار الصغرى إذا دخلت الدار عن يسارك، وليس بين أصحابنا فيه اختلاف[1].

وقد مات ـ رضي الله عنه ـ والنبي جنين في بطن أُمّه.

وأمّا والدته فهي «آمنة بنت وهب» خرجت مع النبي وهو ابن خمس أو ستّ سنين ونزلت بالمدينة تزور أخوال جدّه، وهم بنو عدي بن النجار، ومعها أُمّ أيمن فأقامت عندهم، ولمّا خافت على ولدها من اليهود خرجت من المدينة، فلمّا وصلت إلى الأبواء توفّيت ودفنت فيها[2].

وبذلك ولد النبي يتيماً وعاش يتيماً وإليه يشير قوله سبحانه ويقول:

﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى﴾؟ (الضحى/ ٦).

ولعلّ الحكمة في تولّده ونشوئه يتيماً أحد الأُمور التالية أو جميعها:

أ ـ إنّ هذا الطفل سيلقى عليه في مستقبل حياته قولاً ثقيلاً كما يقول سبحانه:

﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾ (المزمّل/ ٥).

وأيّ قول أثقل من هداية الأُمّة الأُميّة إلى معالم السعادة، ولا يقوم بهذا العبء الثقيل إلاّ الأمثل فالأمثل من الشخصيات التي ملأ روحها الصمود والثبات، ولاتحصل تلك الحالة إلاّ بعد تذوّق مرارة الدهور ومآسي الأيام حتّى يقع في بوتقة الأحداث ويخرج مؤهّلاً لحمل عبء الرسالة وهداية النّاس، وقد صار كزبر الحديد، عركته المحن، وحنّكته التجارب.

ب ـ ولد يتيماً ونشأ يتيماً حتّى يقف على الوضع المأساوي السائد على الأيتام

(١) تاريخ الطبري ج١ ص٨.

(٢) الاتحاف للبشراوي ص١٤٢، سيرة زيني دحلان، بهامش السيرة الحلبية ج١ ص٥٧.

في عامّة الأجيال، ولأجل ذلك يترتّب على قوله: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى﴾ قوله: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلاَ تَقْهَرْ﴾.

ج ـ ما روي عن الإمام الصادق(عليه السلام): «إنّ الله عزّ وجلّ أَيْتَمَ نَبِيَّه لِئَلاّ يكون لأحدٍ عَلَيْه طَاعَة»[1].

وروي عن الإمام الرضا(عليه السلام) أنّه قال: «لئلاّ يجب عليه حق لمخلوق»[2].

نعم ربّما يفسّر اليتيم في الآية الكريمة بالوحيد كما يقال الدرّة اليتيمة ولكنّه لايناسب قوله: ﴿فَآوَى﴾ كما أنّه لا يناسب مع ما رتّب عليه من عدم قهر اليتيم.

٢ ـ الهداية بعد الضلالة

الضلالة ضد الهداية فماذا يراد من الضلالة في الآية؟

هل يراد أنّ النبي(صلّى الله عليه و آله و سلّم) كان في فترة من عمره مضطرب العقائد، منحرف السلوك، ولم يكن على طريق واضح مطمئن ثم هداه الله بالأمر الذي أوحى به إليه؟ أو أنّ المراد من الضلالة، هو الضلالة الذاتية التي تعمّ كُلّ الموجودات الحيّة من النبات والحيوان والإنسان، لولا هداية الله تبارك وتعالى التي أُشير إليها في قوله سبحانه:

﴿الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ (طه/ ٥٠). وقال: ﴿وَالَّذِى قَدَّرَ فَهَدَى﴾ (الأعلى/ ٣).

والنبات بما هو موجود ممكن، ضالّ لايهدي إلى طريق إلاّ بهداية الله تبارك وتعالى، وكذلك الحشرات والحيوانات، فالنحل بوحي منه سبحانه يسلك سبيل الكمال، كما أنّ الحيوان بهداية منه سبحانه يقف على طريق الحياة، والإنسان بما

---

(١) علل الشرائع ج١ ص١٣١.

(٢) عيون أخبار الرضا ص٢١٠.

أنّه ممكن ضالّ فاقد للهـداية، وإنّما يعرف طرق السعادة بهداية منـه سبحانه، وعلى ذلك فـالآية تشيـر إلى الضـلالة الذاتيـة التي هـي من لـوزام وجود الإنسـان الممكن ولايمكن تحديـد ذلك بوقت دون وقـت، بل الإنسان منذ أن خـرج من بطن أُمّه يـُولَد ضالّاً، والله سبحانه في الآية المتقدّمة يشير إلى ذاك النوع من الضلالة.

ويؤيّده أنّ مدار البحث فـي الآيات ما يرجع إلى أيّام طفولتـه وصباه فتفسيرها بالضلالة بمعنى الحيرة في العقيدة، وضلال الشعاب التي تتبلور في أيام الشباب وما بعده،بعيدعـن سياق الآيات ويخالـف ما هو المعلوم مـن حال النبي انّه كـان موحّداً مؤمناً منذ طفولته إلى شبابه إلى أن أوحى الله إليه سبحانه.

إنّ الضلالة تطلق على معنيين يجمعهما فقد الهداية:

الأول: هيئة نفسـانيّة تحيط بـالقلب فيكفر بـالله سبحانـه، و آياته، وبيّنـاته، وأنبيائه، ورسله، أو ببعض منهـا، فالضلالة في الكفّار والمنافقيـن من هذا القسم، فهم منحرفون في التصوّرات والعقائد، منحرفون في السلوك والأوضاع.

الثاني: فقد الهدايـة مع كونه لائقاً بها غيـر أنّه يكون باب الهدايـة مسدوداً في وجهه كما هـو الحال في الأطفال والأحداث فهـؤلاء في أوان حياتهم يفقـدون الهداية لولا أنّ الله سبحانه يريهم الطريق من طرق الفطرة وهداية العقل ثمّ الشرع.

فالنبـي كان ضـالّاً بهذا المعنـى أي كان يفقد الهـداية الـذاتية وإنّمـا هداه الله سبحانه منذ أن تعلّقت مشيئته بهدايته، وربّما يـذكر مبدأها الإمام أمير المؤمنين(عليه السلام) في بعض كلماته وقال: «ولقد قـرن الله من لدن إن كان فطيماً أعظم ملك من ملائكته، يسلك به طريق المكارم، ومحاسن أخلاق العالـم ليلاً ونهاراً»(١).

فوزان قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَىٰ﴾ وزان قوله سبحانه: ﴿الَّذِى أَعْطَى كُلّ شَىءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ وقوله: ﴿إِنَّ الإِنسانَ لَفِى خُسْرٍ*إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا

---

(١) نهج البلاغة الخطبة ١١٧ (طبع عبده).

الصَّالِحاتِ﴾ (العصر/ ٢ و٣).

فليس الخسران في الآية أمراً وجودياً مثل الخسران الموجود في الكافر والمنافق فإنّ الخسـران فيهما ينقلب إلـى أمر وجودي وهيئـة ظلمانيـة في النفس والـروح، بل المراد هـو عدم الهداية الـذاتية لغرض أنّ كلّ إنسـان ممكن، وكلّ ممكن غيـر واجد لشيء من صميم ذاته، وإنّما يجد ما يجد من جانبه سبحانه.

نعم، لـو عاش وصار شاباً وكهلاً وأنكر آيات الله، ودلائل وجـوده، وأنبيائه، ورسله، فعنـد ذلك يتبـدّل الخسران بمعنـى فقد الهـداية إلـى هيئة ظلمـانيّة تحـدق بالقلب وتظلمه. فالضلالة بالمعنى الأوّل تقارن وجود الإنسان منذ أن يفتح عينه على الحياة، وبالمعنى الثاني تكون مكتسبة.

فتحصل مـن هذا البحث: انّ الآية لا تمـت بحيرة العقيدة، وضـلال الشعاب في فترة من العمر حتّى يستـدل بها عليه كونه كافراً قبل البعثة أو في بـرهة من حياته، ويحقّق هذا المعنـى ويثبّته بوضوح انّ السورة بمـوضوعها وتعبيرها تعكـس لمسة من حنان، ونسمة من رحمة، وطائفاً من ودّ، وكلّهـا تسلية وترويح وتطمين للنبي، وانّه سبحانه قام بـأمر حياته وهدايته مـن أوان يتمه وفقده لأبيه، وهذا يجر إلـى القول بأنّه ناظر إلى الهداية أوان الحياة بعد طروء اليتم عليـه، وعندئذ فالضلالة تعتبر أمراً عدمياً لا أمراً وجودياً.

٣ ـ الإغناء بعد العيلولة

يذكر سبحانه من مننه الكبرى علـى النبي الأكرم(صلّى الله عليه وآله وسلّم) انّه كان فقيراً فأغناه الله تعالى بالكسب.

روى ابن هشـام: كانـت خديجـة بنت خويلـد امرأة تـاجرة ذات شـرف ومال تستأجر الرجال في مالها وتضاربهم إيّاه بشـيء تجعله لهم، فكانت قريش قوماً تجّاراً فلمّا بلغها عن رسول الله ما بلغها من صدق حديثه، وعظم أمانته، وكرم أخلاقه بعثت

إليه فعرضت عليه أن يخرج في مال لها إلى الشام تاجراً وتعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره من التجّار مع غلام لها يقال له «ميسرة»، فقبله رسول الله(صلّى الله عليه وآله وسلّم) منها وخرج في مالها ذلك، وخرج معها غلامها «ميسرة» حتّى قدم الشام، ثمّ باع رسول الله سلعته التي خرج بها واشترى ما أراد أن يشتري[1].

ويظهر ممّا رواه أبو الحسن البكري في كتاب الأنوار، انّ عمّه أبا طالب هو الذي أرشده إلى هذا الأمر و أنّه قال لابن أخيه: إنّ هذه خديجة بنت خويلد قد انتفع بمالها أكثر النّاس، وهي تعطي مالها سائر من يسألها التجارة ويسافرون، فهل لك يا ابن أخي أن تمضي معي إليها، ونسألها أن تعطيك مالاً تتّجر فيه؟ فقال: نعم[2].

وقد صرّح أبو طالب في خطبته خديجة لابن أخيه بأنّه عائل مُقلّ، فقال: هذا محمّد بن عبد الله لا يوازن برجل من قريش إلاّ رجّح عليه، ولا يقاس بأحد منهم إلاّ عظم عنه، وإن كان في المال مقلاًّ، فانّ المال ورق حائل، وظلّ زائل[3]، وهذا يعرب وقت الإغناء، وانّه تحقّق بعد الاتّجار بمال خديجة.

فهذه الآيات الثلاث تعرب عن الودّ، والحبّ، والرحمة والإيناس التي عمّ النبي في أوان حياته والكل ظاهر من خلال الآيات الثلاث:

﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى * وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَىٰ * وَ وَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَىٰ﴾

٤ ـ تسميته بمحمّد وأحمد

إنّ القرآن الكريم يتفنّن في توصيف النبي وذكره بل في تسميته والإيماء إليه.

فتارة يشير إليه بإحدى الصفات العامّة الشاملة لكل إنسان كما في قوله

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج١ ص١٩٩.

(٢) بحار الأنوار ج١٦ ص٢٢.

(٣) المصدر نفسه ص٦ نقلاً عن مناقب ابن شهر آشوب ج١ ص٢٦.

سبحانه : ﴿ فَأَوْحَى إِلى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾ (النجم/ ١٠) .

وفي إضافة العبد إلى نفسه إلماع إلى تكريمه وتقرّبه منه .

وأُخرى يخاطبه بالألقاب الخاصّة بأنبيائه ورسله فيقول : ﴿يَا أَيُّها النَّبيُّ﴾ أو ﴿يَا أَيُّها الرَّسُولُ﴾ .

وثالثة يخصّه بإسميه اللّذين يدعى بهما في الإسلام أعني «محمداً» و«أحمد» .

أمّا الأول فقد جاء في مواضع أربعة من القرآن :

١ ـــ ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلٰكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ (الأحزاب/ ٤٠)

٢ ـ ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ (آل عمران/ ١٤٤) .

٣ـ ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَ آمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلٰى مُحمَّدٍ﴾ (محمد/ ٢) .

٤ - ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ (الفتح/ ٢٩) .

وأمّا الثاني فقد جاء في موضع واحد حيث يقول سبحانه :

﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْراةِ وَ مُبَشِّراً بِرَسُولٍ يأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمّا جَاءَهُمْ بِالبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ (الصف/ ٦) .

وليس الرسول بدعاً من بين الرسل في كونه ذا اسمين ، فقد سبقه في ذلك ثلّة من الأنبياء كيوشع بن نون وهو ذو الكفل في القرآن ، ويعقوب بن إسحاق وهو إسرائيل ، ويونس وهو ذو النون في القرآن ، و عيسى وهو المسيح .

ويظهر من الروايات المتضافرة انّ اسمهُ في السماء أحمد ، فقد جاء نفر من اليهود إلى رسول الله (صلّى الله عليه و آله و سلّم) ممّا سألوه انّه لم سمّيت محمداً

وأحمد و. . . ، فقال النبي(صلّى الله عليه و آله و سلّم): **أمّا محمّد فإنّي محمود في الأرض، وأمّا أحمد فإنّي محمود في السماء**[1].

والمراد من السماء عالم الوحي ويؤيّده ما دلّت عليه آية الصف من تبشير المسيح بمجيء نبيّ اسمه أحمد.

«أحمد» من أسمائه ﷺ

لا ريب في أنّ أحمد أحد أسمائه المعروفة ولا يتردّد في تسميته به من له تتبّع في سيرته وتاريخ حياته، وهذا أبو طالب شيخ الأباطح يذكره في أشعاره بهذا الإسم.

قال أبو طالب:

أَلا إنّ خير الناس نفساً ووالداً إذا عدّ سادات البريّة أحمد[2]

وقال ابن هشام: ولمّا خشى أبو طالب دهماء العرب أن يركبوه مع قومه، قال قصيدته التي تعوّذ فيها بحرم مكّة و بمكانه منها، وتودّد أشراف قومه، وهو على ذلك يخبرهم وغيرهم في ذلك من أنّه غير مسلّم رسول الله ولا تاركه بشيء أبداً حتّى يهلك دونه، ومن تلك القصيدة قوله:

لعمري لقد كلّفت وجداً بأحمد وأحببته حبّ الحبيب المواصل
فلا زال في الدّنيا جمالاً لأهلها وزيناً لمن والاه ربّ المشاكل
فأصبح فينا أحمد في أرومة تقصّر عنها سورة المتطاول

وقال «حسان بن ثابت» شاعر عهد الرسالة في رثاء النبي(صلّى الله عليه وآله):

---

(١) علل الشرايع ص٥٣.
(٢) ديوان أبي طالب ص١٣.

مفجعـة قـد سفّهـا فقـد أحمـد فظلـّت لآلاء الـرسـول تعـدد
أطالت وقوفاً تذرف العين جهدها على طلل القبر الذي فيه أحمد[1]

إلى غير ذلك من القصائد التي طفحت باسمه (صلّى الله عليه وآله) «أحمد» وقد أوعزنا إلى جملة منها في «مفاهيم القرآن»[2].

٥ ـ تبشير المسيح بالنبي باسم «أحمد»

أخبر القرآن الكريم بـأنّ المسيح يوم بعث إلى بني إسرائيل بشّـر بالنبي الخاتم باسمه أحمد وقال:

﴿ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يأتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ اَحْمدَ ... ﴾

ثمّ إنّ رجال الكنائس أمام هذه البشارة على قولين:

تارة يقولون: إنّ المسيح بشّر برسول يـأتي من بعده اسمه أحمد وهذا لا ينطبق على نبي الإسلام، فإنّ اسمه محمّد بنص القرآن واتّفاق ا لمسلمين.

وأُخرى ينكرون أصل وجود البشارة في الأناجيل، و إنّه لم يرد أيّ تبشير بهذا.

والوجه الأوّل من السقـوط والرداءة بمرحلة لا يستحقّ الجواب، فقـد عرفت أنّ القرآن كما أسماه محمـّداً سمّاه أحمد، و أيضاً كما عرفت انّ الـرسول(صلّى الله عليه وآله و سلّم) يدعى منـذ نعومة أظفاره بكلا الاسمين وقد أطراه الشعـراء وفي مقدّمتهم عمّه البارّ في قصائدهم واسموه بأحمد[3].

والمهم هو القول الثاني، ولكن إنكاره لجاج وعناد، وهنا نذكر مورداً واحداً:

---

(١) السيرة النبويّة ج١ ص٢٧٢.

(٢) مفاهيم القرآن ج٣ ص٥٥٠ـ٥٥٦.

(٣) السيرة النبوية ج٢ ص٦٦٧و ٦٦٩.

قد وردت هذه البشارة في أبواب إنجيل يوحنـاّ ونحن ننقلها عن التراجم العربية المطبوعة عام ١٨٢١م وسنـة ١٨٣١م وسنة ١٨٤٤م في مدينة «لندن» فـالباب الرابع عشر من إنجيل يوحنّا يتضمّن العبارات التالية :

١ ـ «إنْ كُنتُم تُحِبُّونِي فَاحفَظُوا وَصَايَايِ»(١٥) .

٢ ـ «وأَنَا اَطْلبُ مِنَ الأبِ فيعطيكم فارقليط آخر ليثبت معُكمْ إلى الأبد»(١٦) .

٣ ـ «روح الحـقّ الَّذي لَنْ يطيق العـالم أن يقبله لأنـّه ليس يراه ولا يعرفـه وأنتم تعرفونه لأنّه مقيم عندكم وهو ثابت فيكم»(١٧) .

٤ ـ « والفارقليـط ، روح القدس ، الذي يرسلـه الأب بإسمي هو يعلّمكـم كل شيء وهو يذكّركم كلّما قلته لكم»(٢٦) .

٥ ـ «والآن قد قلت لكم قبل أن يكون حتى إذا كان تؤمنون»(٣٠) .

وفي الباب الخامس عشر من إنجيل يوحنّا هكذا :

١ ـ «إذا جاء الفارقليـط الذي أرسله أنا إليكم من الأب ، روح الحـقّ الذي من الأب ينبثق هو يشهد لأجلي»(٢٦) .

٢ ـ «وأنتم تشهدون لأنكم معي من الإبتداء»(٢٧) .

و في الباب السادس عشر من انجيل يوحنّا جاءت العبارات التالية :

١ ـ «لكنّي أقول لكم الحق انّه خير لكـم أن أنطلق لأنّي إن لم أنطلق لم يأتكم الفارقليط فأمّا إن انطلقت أرسلته إليكم»(٧) .

٢ ـ «فاذا جاء ذلك فهو يوبّخ العالم على خطيّة و على برّ و على حكم»(٨) .

٣ ـ «أمّا على الخطية فلأنّهم لم يؤمنوا بي»(٩) .

٤ ـ «و أمّا على البر فلانّي منطلق إلى الأب و لستم تروني بعد»(١٠) .

٥ ـ «و أمّا على الحكم فإنّ اركون[1] هذا العالم قددين»(١١).

٦ ـ «و إنّ لي كلاماً كثيراً أقوله لكم و لكنّكم لستم تطيقون حمله الآن»(١٢).

٧ ـ «و إذا جاء روح الحق ذاك فهو يعلّمكم جميع الحق لأنّه ليس ينطق من عنده بل يتكلّم بكل ما يسمع و يخبركم بما سيأتي»(١٣).

٨ ـ «و هو يمجّدني لأنّه يأخذ ممّا هو لي و يخبركم»(١٤).

٩ ـ «جميع ما هو للأب فهو لي فمن أجل هذا قلت إنّ ممّا هو لي يأخذ ويخبركم»(١٥).

قبل تبيين الاستدلال على دلالة هذه الجمل على البشارة بأحمد، نقدّم ذكر أمرين.

١ ـ أجمع المؤرّخون على أنّ الأناجيل الثلاثة غير «متّي» كتبت من أوّل يومها باللّغة اليونانيّة، و أمّا إنجيل متّي فكان عبرياً من أوّل إنشائه، و على هذا فالمسيح بشّر بما بشر ـ في إنجيل يوحنّا ـ باللّغة العبرية، و إنّما نقله إلى اليونانيّة كاتب الإنجيل الرابع يوحنّا و كان عليه التحفّظ على اللفظ الذي تكلّم به المسيح في مورد المبشّر به، لأنّ القاعدة الصحيحة عدم تغيير الاعلام و الإتيان بنصّها الأصلي لاترجمة معناه، و لكن «يوحنّا» لم يراجع هذا الأصل و ترجمه إلى اليونانيّة، فضاع لفظه الأصلي الذي تكلّم به المسيح و بقيت ترجمته، فاللفظ العبراني الذي قاله عيسى(عليه السلام) مفقود، و اللفظ اليوناني الموجود ترجمة.

وفي غبّ ذلك حصل الاختلاف في المراد منه، ثمّ مترجموا العربية عرّبوا اللّفظ اليوناني بـ «فارقليط».

و أمّا اللفظ اليوناني الذي وضعه الكاتب يوحنّا مكان اللفظ العبري، فهو مردّد بين كونه «باراكلي طوس» الذي هو بمعنى المُعزي و المسلّي و المعين و الوكيل، أو «بيركلوطوس» الذي هو بمعنى المحمود الذي يرادف أحمد، و لأجل تقارب

---

(١) و في الترجمة المطبوعة في بيروت «رئيس هذا العالم».

الكلمتين في الكتابـة، و التلفّظ، و السماع، حصل التردّد في المبشّـر به، و مفسّروا إنجيل يوحنّا يصرّون على الأوّل، و ادعوا أنّ المـراد منه هو روح القدس و انّه نزل على الحواريين في اليوم الخمسين بعد فقد المسيح كما ذكر في كتاب «أعمال الرسل»[1].

و إليك نصّـه: «لمّا حضر يـوم الخمسين (بعـد عروج المسيح أو صلبـه على زعمهم) كـان الجميع معهـا بنفس واحدة، و صـار بغتة من السمـاء صوت كمـا من هبوب ريح عاصفة ملأ كل البيت، حيث كـانوا جالسين و ظهرت لهم ألسنة منقسمة كأنّهـا من نـار، و استقرّت على كـل واحد منهم، و امتـلأ الجميع مـن روح القدس و ابتدؤا يتكلّمون بألسنة أُخرى، كما أعطاهم الروح أن ينطقوا».

و لكـن القرائن المفيـدة للقطع و اليقيـن تفيد انّ المـراد منه هـو الأوّل، و انّ المسيح بصدد التبشير عن ظهور نبي في مستقبل الأيام و إليك بيان هذه القرائن:

١ ـ إنّ المسيح قال: «إن كنتم تحبّوني فاحفظوا وصاياي و أنا أطلب من الأب فيعطيكم فارقليط آخر».

إنّ هـذا الخطاب ينـاسـب أن يكون المبشّـر بـه نبيّاً مـن الأنبيـاء، إذ لو كـان «فارقليط» عبارة عن الروح النازل يوم الدار لمـا كان هناك حاجة إلى هذا التأكيد، لأنّ تأثيره في القلـوب تأثير تكويني ـ كمـا عرفت من النّص ـ لايمكـن لأحد التخلّف عنه و لايبقى في القلوب معه شـك، و هذا بخلاف تأثير النبي فإنّه يؤثّر ببيـانه و كلامه في القلوب، و هـو يختلف حسب اختلاف طبـائع المخالفين و استعدادهـم، و لأجل ذلك أصرّ على الإيمان به في بعض جمله و هو:

«و الآن قد قلت لكم قبل أن يكون حتى إذا كان تؤمنون به».

و قد عرفت ممّا نقلناه من كتاب أعمال الـرسل انّ تأثير روح القدس كان تأثيراً تكوينيّاً غير خاضع لإرادة الإنسان.

---

(١) أعمال الرسل، الإصحاح الثاني: الجمل ١ـ٤.

۲ ـ إنّه وصف المبشّر به بلفظ «آخر» و هذا لايناسب كون المبشّر به روح القدس لعدم تعدّده و اتّحاده بالأب و الابن اتّحاداً حقيقياً، فلايقال في حقّه «فارقليط» آخر، بخلاف الأنبياء فإنّهم يجيئون واحداً بعد الآخر في فترة بعد فترة.

۳ ـ إنّ المسيح قال: «هو يذكّركم كلّما قلته لكم».

إنّ من البعيد نسيان الحواريين تعاليم المسيح في مدة لاتزيد على خمسين يوماً حتى يذكّرهم روح القدس، و هذا بخلاف ما إذا قلنا بأنّ المراد هو النبي الخاتم الذي ظهر بعد مضي قرون ستّة، و قدلعبت الأهواء بتعاليم الأنبياء و حرّفت الكنائس و الرهبان ما جاء به المسيح(عليه السلام).

۴ ـ إنّ المسيح قال: «هو يشهد لأجلي» فلو كان المراد هو نزول الروح يوم الدار بعد خمسين يوماً كانت هذه الشهادة لغواً لعدم حاجة التلاميذ إلى شهادته لأنّهم كانوا يعرفون المسيح حق المعرفة، و المنكرون للمسيح لم تحضرهم تلك الروح، و هذا بخلاف ما إذا أُريد منه النبي المبشّر به فإنّ نبيّنا شهد للمسيح و صدّقه و نزّهه عن ادعاء الالوهيّة كما أبرأ أُمّه من تهمة الزنا، و هذا واضح لمن تدبّر آيات الذكر الحكيم.

۵ ـ إنّ المسيح قال: «إن لم أنطلق، لم يأتكم الفارقليط، فأمّا إن انطلقت أرسلته إليكم».

فعلّق مجيئه بذهاب نفسه مع أنّ مجيئ الروح غير معلّق على ذهاب المسيح بشهادة أنّه نزل على الحواريين في حضور المسيح، لمّا أرسلهم إلى الأطراف و الأكناف فنزوله ليس مشروط بذهابه، فلابد أن يكون المراد منه شخص يكون مجيئه موقوفاً على ذهاب المسيح كما هو الحال في النبي الخاتم لأنّه جاء بعد ذهاب المسيح، و كان مجيئه موقوفاً على ذهابه لأنّ وجود رسولين ذوي شريعتين مستقلّتين في زمان واحد غير جائز، بخلاف ما إذا كان الآخر متبعاً لشريعة الأوّل أو يكون كل من الرسل متبعاً لشريعة واحدة فيجوز في هذه الصورة وجود اثنين أو أكثر في زمان

واحد و مكان واحد كما ثبت وجودهم بين زمان «الكليم» و «المسيح».

٦ـ قال المسيح : «إنّه يوبّخ العالم».

و هذا لاينطبق إلاّ على نبي الإسلام لأنّه وبّخ العالم من المشركين و اليهود والنصارى توبيخاً لايشك فيه إلاّ معاند متكبّر، بخلاف الروح النازل يوم الدار، إذ لم يكن هناك وجه للتوبيخ لأنّه لم يكن هناك مخالف للمنهج الصحيح.

٧ـ قال المسيح :

«إنّ لي كلاماً كثيراً أقوله لكم و لكنكم لستم تطيقون حمله الآن».

هذا يعرب عن أنّ فارقليط يأتي بأحكام لم يكونوا يطيقونها زمان تكلّم المسيح، هذا لاينطبق على نزول الروح يوم الدار، لأنّه ما زاد حكماً على أحكام المسيح و أي أمر حصل لهم أزيد من أقواله إلى زمان صعوده؟

نعم بعد نزول هذا الروح أسقطوا جميع أحكام التوراة ما عدا بعض الأحكام العشرة المذكورة في الباب العشرين من سفر الخروج و أحلّوا جميع المحرّمات.

و هذا بخلاف ما إذا أُريد نبي يزيد في شريعته أحكاماً إلى أحكام موروثة من المسيح و يثقل حملها على المكلّفين، ضعفاء الإيمان.

٨ ـ إنّ المسيح قال: «لأنّه ليس ينطق من عنده بل يتكلّم بكل ما يسمع ويخبركم بما سيأتي».

هذا يعرب عن أنّ فارقليط سيواجه التكذيب فسوف يكذّبه بنو اسرائيل فأراد دعم دعوته و انّه صادق في كل ما يقول و لامجال لمظنّة التكذيب في حق الروح النازل يوم الدار، على أنّ الروح أحد الثلاثة و بوجهٍ نفسه سبحانه، فلامعنى لقوله بل يتكلّم بما يسمع، و هذا بخلاف أن يراد منه نبي من الأنبياء الذين لايتكلّمون إلاّ بوحي منه، قال سبحانه :

﴿وَ مَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾(النجم/ ٣و٤).

هذه القرائن و غيرها ممّا يظهر للقارئ بعد التدبّر فيما ورد في الإصحاحات الثلاث(الرابع عشر، الخامس عشر، و السادس عشر)، تفيد القطع و اليقين بأن المبشّربه هو نبي لاغير [1].

و ممّا يؤيد ذلك انّ المراد من «الفارقليط» هو النبي هو ما ذكره مؤرّخوا المسيحيين أنّ بعض الناس قبل ظهور النبي الأكرم(صلّى الله عليه و آله و سلّم) ادّعى أنّه هو الفارقليط الموعود قالوا: إنّ «منتنس» المسيحي الذي كان في القرن الثاني من الميلاد و كان مرتاضاً شديداً ادّعى في قرب سنة ١٧٧ من الميلاد أنّه هو الفارقليط الموعود الذي وعد بمجيئه عيسى(عليه السلام) و تبعه أُناس كثير و هذا يعرب عن أنّ المتبادر من الفارقليط في القرون الأُولى المسيحية هو النبي المبشّربه.
وعن صاحب«لب التواريخ»: إنّ اليهود والمسيحيين من معاصري محمّد(صلّى الله عليه و آله و سلّم) كانوا منتظرين لنبي و كان هذا سبباً لرجوع عدّة من المسيحيين إلى محمد(صلّى الله عليه و آله و سلّم) الذي ادّعى انّه هو ذاك المنتظر.

إنجيل «برنابا» و التبشير بالنبي الأكرم ﷺ

إنّ الكتاب الذي جاء به المسيح(عليه السلام) كان كتاباً واحداً و هو عبارة عن هديه و الأحكام التي جاء بها و بشارته بمن يجيء بعده، و إنّما كثرت الأناجيل لأنّ كل من كتب سيرته سمّاه إنجيلاً لاشتماله على ما بشّر و هدى به الناس، و من تلك الأناجيل، إنجيل برنابا،و «برنابا» حواري من أنصار المسيح الذين يلقّبهم رجال الكنيسة بالرسل، صحبه بولس زمناً بل هو الذي عرّف التلاميذ ببولس بعد ما اهتدى بولس و رجع إلى أُورشليم و لم يكن من هذا الإنجيل أثر في المجتمع المسيحي حتى عُثِرَ في أُروبا على نسخة منه منذ قرابة ثلاثة قرون و هذا هو الإنجيل الذي حرّم

---

(١) لاحظ في الوقوف على تلك القرائن و غيرها اظهار الحق ج٢ ص٢٨٣ـ٢٨٧، و أنيس الاعلام في نصرة الإسلام ج٥ ص١٧٩ـ٢٣٩، و لمؤلف الكتاب الأخير قصّة عجيبة حول الوقوف على مفاد «فار قليط» التي صارت سبباً لاستبصاره، فراجعه.

قراءته «جلاسيوس الأوّل في أواخر القرن الخامس للميلاد» و هذا الإنجيل يباين الأناجيل الأربعة في النقاط التالية:

١ ـ ينكر الوهية المسيح و كونه ابن الله.

٢ ـ يعرّف الذبيح بأنّه إسماعيل لا إسحاق.

٣ ـ و إنّ المسيح المنتظر هو محمّد(صلّى الله عليه و آله و سلّم) و قد ذكر محمداً باللفظ الصريح في فصول وافية الذيول.

٤ ـ إنّ المسيح لم يصلب بل حمل إلى السماء و إنّ الذي صلب إنّما كان «يهوذا» الخائن فجاء مطابقاً للقرآن، قدقام بترجمته من الإنجليزية إلى العربية الدكتور خليل سعادة و قدّم له مقدّمة نافعة و طبع في مطبعة المنار بتقديم السيد محمد رشيد رضا عام ١٣٢٦هـ ق.

روى البيهقي: قال أبو زكريا: و لنبيّنا(صلّى الله عليه و آله و سلّم) خمسة أسماء في القرآن: محمد، و أحمد، و عبدالله، و طه، و يس.

قال الله عزّ وجلّ في ذكر محمّد: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ...﴾ و قال: ﴿وَ مُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَد...﴾ وقال الله عزّ و جلّ في ذكر عبدالله: ﴿وَإِنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللهِ يَدْعُوه﴾ ـ يعني النبي(صلّى الله عليه و آله و سلّم) ليلة الجن ـ ﴿كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً﴾(الجن/ ١٩).

و إنّما كانوا يقعون بعضهم على بعض، كما أنّ اللبد يتّخذ من الصوف، فيوضع بعضه على بعض فيصير لبداً، وقال عزّ وجلّ: ﴿طه * مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾(طه/ ١و٢) و القرآن إنّما نزل على رسول الله دون غيره، و قال عزّ و جلّ: ﴿يس﴾ يعني يا إنسان و الإنسان هنا العاقل و هو محمد، إنّك لمن المرسلين.

ثمّ قال: قلت وزاد غيره من أهل العلم، فقال: سمّاه الله تعالى في القرآن: رسولاً، نبيّاً، أُمّيّاً. و سمّاه: شاهداً، و مبشّراً، و نذيراً، و داعياً إلى الله باذنه،

وسراجاً منيراً. و سمّاه: رؤوفاً رحيماً. و سمّاه: نذيراً مبيناً. و سمّاه: مذكّراً، و جعله رحمة، و نعمة، و هادياً. و سمّاه: عبداً(صلّى الله عليه و آله و سلّم) كثيراً[1].

أقول: و المراد من الإسم هنا أعم من الوصف، فإنّ كثيراً منها صفاته ـ صلوات الله عليه ـ لا اسمه بمعنى العلم.

و روى أيضاً بسنده عن محمّد بن جبير بن مطعم، عن أبيه قال: سمعت رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) يقول: إنّ لي أسماء.

أنا محمد، أنا أحمد، و أنا الماحي الذي يمحو بي الكفر، و أنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، و أنا العاقب الذي ليس بعده أحد[2].

قال العلماء: «كثرة الأسماء دالّة على عظم المسمّىٰ و رفعته و ذلك للعناية به و بشأنه و لذلك ترى المسمّيات في كلام العرب أكثرها محاولة و اعتناء».

قال النواوي: و غالب هذه الأسماء التي ذكروها انّما هي صفات كالعاقب و الحاشر، فإطلاق الإسم عليها مجاز، و نقل الغزالي: «الإتّفاق على أنّه لايجوز أن نسمّي رسول الله باسم لم يسمّه به أبوه و لاسمّا به نفسه الشريفة» أقرّه الحافظ ابن حجر في «الفتح» على ذلك[3].

قلت: ما ادعاه من الاتّفاق غير ثابت، و المسألة غير معنونة في كلام الكثير فكيف يمكن ادّعاء الاتّفاق عليه، و كلّ صفة تنبثق عن تكريمه و توقيره و كان(صلّى

---

(١) دلائل النبوّة ج١ ص١٥٩ـ١٦٠.

(٢) دلائل النبوّة ج١ ص١٥٢. و أخرجه البخاري كما في التعليقة في كتاب المناقب، باب ما جاء في أسماء رسول الله.

(٣) دلائل النبوّة ج١ ص١٥٥، في التعليقة: إنّ جماعة أفردوا أسماء رسول الله بالتصنيف منهم بدر الدين البلقيني، و كانت قصيدته الميميّة بديعة لم ينسج على منوالها ناسج، و رتّب السيوطي أسماءه على حروف المعجم في كتابه «الرياض الأنيقة في شرح أسماء خير الخليقة».

الله عليه و آله و سلّم) واجداً لمبدئها فيصحّ توصيفه به.

روى البيهقي عن ابن عباس، قال: قال رسول الله(صلّى الله عليه و آله وسلّم): «إنّ الله عزّ و جلّ قسّم الخلق قسمين، فجعلني في خيرهما قسماً، و ذلك قوله: ﴿و أصحاب اليمين﴾ و ﴿أصحاب الشمال﴾ فأنا من أصحاب اليمين و أنا خير أصحاب اليمين. ثم جعل القسمين ثلاثاً، فجعلني في خيرها ثلثاً، فذلك قوله تعالى: ﴿فأصحاب الميمنة﴾ ﴿و السابقون السابقون﴾ فأنا من السابقين، و أنا خير السابقين. ثمّ جعل الأثلاث: قبائل، فجعلني في خيرها قبيلة، و ذلك قول الله تعالى: ﴿ وَ جَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَ قَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ و أنا أتقى ولد آدم، و أكرمهم على الله و لافخر، ثمّ جعل القبائل بيوتاً، فجعلني في خيرها بيتاً، و ذلك قوله عزّ و جلّ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَ يُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ فأنا و أهل بيتي مطهّرون من الذنوب[1].

٦ ـ اُمّيّة النبي الأكرم ﷺ

القرآن الكريم يصف النبي في غير واحد من الآيات بالأُمّية و يقول: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَ الإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ يُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَ يُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَ يَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَ الأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ... ﴾(الأعراف/ ١٥٧).

فقد وصف سبحانه نبيّه في هذه الآية بخصال عشر و هي أنّه:

١ ـ رسول، ٢ ـ نبي، ٣ ـ اُمّي، ٤ ـ مكتوب اسمه في التوارة والإنجيل، ٥ ـ منعوت فيهما بأنّه يأمر بالمعروف ٦ ـ وينهى عن المنكر، ٧ ـ ويحل لهم الطيّبات، ٨ ـ ويحرّم عليهم الخبائث، ٩ ـ ويضع عنهم إصرهم، ١٠ ـ ويضع عنهم الأغلال التي كانت عليهم.

---

(١) دلائل النبوّة ج١ ص١٧٠و١٧١.

ويقول سبحانه أيضاً: ﴿فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (الأعراف/ ١٥٨).

وقد عرفت أنّه سبحانه يصف قوم النبي بالأُمّيين بل العرب جميعاً بهذا الوصف، كما تعرّفت على معنى الأُمّي عند البحث عن ثقافة قوم النبي وحضارتهم، فلا حاجة إلى إعادة البحث عن معنى الأُمّي وذكر نصوص أئمّة اللّغة إنّما المهم في المقام نقد الآراء الشاذة في تفسير الأُمّي،وإليك البحث عنها واحداً بعد آخر:

أ ـ الأُمّي منسوب إلى أُمّ القرى

ربّما يقال: إنّ الأُمّي هو المنسوب إلى «أُمّ القرى» وهي علم من أعلام مكّة كما يشير إليه قوله سبحانه:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾(الشورى/ ٧).

وعلى ذلك فلا يدل على أنّ النبي كان أُمّيّاً بمعنى أنّه لا يقرأ ولا يكتب.

يلاحظ عليه:

أوّلاً: انّ أُمّ القرى ليست من أعلام مكّة وإنّما هي كلّية لها مصاديق، منها مكّة المكرّمة، يقول سبحانه:

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا﴾(القصص/ ٥٩). أي حتّى يبعث في أُمّ القرى وعاصمتها رسولاً.

قال ابن فارس في المقاييس: «كل مدينة هي أُمّ ما حولها من القرى».

ثانياً: لو صحّ كونها من أعلام مكّة، فالصحيح عند النسبة إليها «هو القروي» لا «الأُمّي»[1].

---

(١) راجع شرح ابن عقيل ج٢ ص٣٩١ عند البحث عن «ياء» النسب.

ثالثاً: لو كان المراد من الأُمّي هو المنسوب إلى أُمّ القرى لكان الإتيان به في ثنايا الخصال العشر إقحاماً بلا وجه واقتضاباً بلا جهة، بخلاف ما إذا قلنا بأنّه إيعاز إلى أُمّيّته وعدم قراءته وكتابته ولكن في الوقت نفسه جاء بكتاب عجز كلُّ البلغاء عن معارضته، واخرسّ الفصحاء عن مباراته.

وعلى الجملة انّ توصيف النبي بالأُمّي وقومه بالأُمّيين، إيعاز إلى هذه النكتة، و انّ هذا النبي خرج من قوم غير قارئين ولا كاتبين ولا متحضّرين كما هو أيضاً غير قارئ ولا كاتب، ومع ذلك أتى بشريعة متقنة وسنن محكمة وكتاب بديع بلا بديل.

ب ـ الأُمّي غير المنتحل لملّة أو كتاب سماوي

وربّما يقال: إنّ الأُمّي هو غير المنتحل لملّة أو كتاب من الكتب السماوية ولو أطلق على العرب أنّهم أُمّيون فالمراد أنّهم غير منتحلين لكتاب من الكتب السماوية ويدل على ذلك أنّه سبحانه يجعل أهل الكتاب في مقابل الأُمّيين ويقول:

﴿ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ والأُمِّيِّينَ ءأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ اَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ البَلاَغُ وَاللهُ بَصيرٌ بِالعِبادِ﴾(آل عمران/ ٢٠).

يلاحظ عليه: أنّ توصيف العرب بالأُمّيّين لا لأجل عدم إنتحالهم لملّة أو كتاب سماوي بل لأجل عدم إقتدارهم على القراءة والكتابة، فقد كانت الأُمية بهذا المعنى سائدة عليهم كما كان التعرّف عليهما هو الغالب على أهل الكتاب، فصحّ لأجل ذلك التقابل بين أهل الكتاب والأُمّيين ويعود معنى الآية: «قل» للطائفتين الأُمّيين غير القارئين والكاتبين وأهل الكتاب الذين لهم اقتدار بهما.

والذي يدل على أنّ هذا هو ملاك التقابل هو أنّه سبحانه يصف بعض أهل الكتاب بالأُميّة ويقول: **﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لاَ يَعْلَمُونَ الكِتَابَ إلاَّ أَمَانِيَّ وإِنْ هُمْ إلاَّ يَظُنُّونَ﴾**(البقرة/ ٧٨).

فالآية بحكم رجوع الضمير «ومنهم» إلى اليهود تقسّم اليهود إلى طائفتين:

طائفة يعلمون الكتاب لثقافتهم وتمكّنهم مـن القراءة والكتابة وبالتالي تمكّنهم من التطلّع على التوراة والإستفادة منها.

وطائفة فاقدة للثقافة وغير قادرة على القراءة والكتابة وبالتالي جاهلين بكتابهم الذي نـزل بلسانهم،والجهـل بلغتهم قراءة وكتـابة يلازم جهلهـم بسائر اللغات غـالباً خصوصاً في بيئة اليهود الذين يقدّمون تعليم لغتهم على سائر اللغات.

فلو كـان الأُمّي بمعنـى غير المنتحـل لكتاب ولا ملـّة فما معنـى تقسيم أهـل الكتاب إلى طائفيتن أُمّي وغير أُمّي؟.

ج ـ الأُمّي من لا يعرف المتون السامية

الأُمّي عبارة عمـّن لم يعرف المتون العتيقة الســامية التي كتبت بهـا زبر الأوّلين مـن التوارة والإنجيـل وإن كـان عالمـاً بسائر اللغـات قـادراً بقراءتهـا وكتـابتها يقـول سبحانه:

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لاَ يَعْلَمُونَ الكِتَابَ إلاّ أَمَانِيَّ وإنْ هُمْ إلاّ يَظُنُّونَ﴾.

فإنّ قـوله: «لا يعلمـون الكتاب» جملـة تفسيريـّة لقولـه «أُمّيون» فـالأُمّي مـن لايحسن تلاوة الإنجيل والتوراة.

يلاحظ عليه: أنّ إرادة المعنى المذكور من «الأُمّيين» في الآية لا يثبت أنّ الأُمّي عبارة عمّن لا يعرف اللّغة السامية بل الأُمّي من لا يعرف القراءة والكتابة وذلك يختلف حسب البيئة والظروف.

ففـي العصـور التي ســادت فيهـا اللّغـة الساميـة التـي بهـا تكتب الـدواويـن والرسائل، و عليها لغة دينهم و كتابهم، يكون الأُمّي عبارة عمّن لايعرف تلك اللغة، ـ وبحسب الطبع ـ من كـان جاهلاً في أمثال تلك الظروف بلغته الـواجبة الضرورية،

يكون جاهلاً لسائر اللغات أيضاً، وعلى ذلك فليس للأمّي إلاّ معنى واحد وله مصاديق وأفراد حسب الظروف التي تستعمل ا الكلمة فيها، واطلاقه في الآية على من لم يعرف اللغات السامية لا يكون دليلاً على كونه موضوعاً لخصوص هذا المعنى، كما أنّ إطلاق الإنسان و إرادة فرد منه بالقرينة لا يكون دليلاً على كونه موضوعاً لذلك الفرد.

هذا هو خلاصة المقال في وصف الأمّي الذي جاء توصيف النبي به في الذكر الحكيم وهناك آيات أُخر تثبت ذلك المعنى (أُمّية النبي) قال سبحانه:

﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾(العنكبوت/ ٤٨).

فالآية بحكم وقوع النكرة فيها في سياق النفي تفيد شمول السلب وعمومه لتلاوة أي كتاب وممارسة أية كتابة.

ثم إنّه سبحانه علّل هذا السلب بأنّه خير عون لنفي ريب المبطلين وشك المشكّكين إذ لو كان النبي(صلّى الله عليه وآله وسلّم) ممارساً للقراءة والكتابة قبل البعثة، لاتّهمه اليهود والنصارى والمشركون بأنّ الشريعة التي جاء بها تلقّاها عن طريق قراءة الصحف وتلاوتها، ولأجل صد هذا الريب وقلع جذور هذا الشك لم يُمكّن نبيّه عن تعلّم الكتابة والقراءة حتّى يكون ذا بيّنة قويّة على أنّ شريعته شريعة سماوية.

ومع أنّ النبي ا لأكرم عاش أربعين سنة بلا ممارسة للكتابة والقراءة فقد اتّهمه بعض المعاندين بأنّ قرآنه استنساخ منه لما تملى عليه، قال سبحانه:

﴿ وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِ لاّ إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْماً وَزُوراً * وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَ أَصِيلاً﴾(الفرقان/ ٤و٥).

وكان المعاند يبثّ بذر هذا الشك حتّى وافاه الوحي الإلهي بالنقد والرد بقوله

سبحانه :

﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾(يونس/ ١٦).

ومعنى الآية إنّكم أيّها العرب تحيطون بتاريخ حياتي، فقد لبثت فيكم عمراً يناهز الأربعين فهل رأيتموني أقرأ كتاباً أو أخطّ صحيفة، فكيف ترمونني بالإفك الشائن بأنّه أساطير الأوّلين التي اكتتبتها وافتريتها على الله وأعانني على ذلك قوم آخرون؟ فإذا كنتم واقفين على سيرتي وحياتي في الفترة الماضية فاعلموا أنّه منزّل من الله سبحانه كما أمر الله نبيّه أن يجيبهم بقوله :

﴿ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً﴾(الفرقان/ ٦)

نعم ربّما يقال بأنّ قوله : ﴿مَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ﴾ لا يدل على أنّ النبي كان أُمّياً بل فيها أنّه لم يكن يكتب الكتاب، وقد لا يكتب الكتاب من يحسنه كما لا يكتب من لا يحسنه[1].

يلاحظ عليه : أنّ التعليل الوارد في الآية إنّما يصحّ وقوعه علّة لصدر الآية إذا كان النبي غير مستطيع لأن يقرأ ويكتب لا أن يكون عالماً بهما وإن لم يمارسهما، وذلك لأنّ التعليل بصدد إزالة الشك والريب في أنّه كتاب سماوي وليس من صنع النبي ولا يمت إليه بصلة وذلك إنّما يتحقّق إذا كان النبي أُمّياً محضاً غير قادر عليهما لا ما إذا كان عارفاً بهما ولكن تركهما لمصلحة أو لعلّة أُخرى .

* * *

(١) التبيان في تفسير القرآن ج٨ ص٢١٦، طبع بيروت. و يظهر من الآلوسي في تفسيره أنّه اعتمد على هذا .

وضع النبي بعد البعثة

اتّفق المحقّقـون من السنـّة والشيعة علـى أنّه كـان أُمّياً قبـل البعثة لا يحسـن الكتابة والقراءة، وأمّا وضعـه بعد البعثة و انّه هل بقي على ما كـان عليه قبلها أو تغيّر وضعه وصار عارفاً بالكتابة والقراءة، وعلى فـرض ثبوت معرفته بهما فهل مارسهما في بعض الفترات من عمره أو لا؟ فهذه بحوث خارجـة عن موضوع بحثنا لأنّ البحث في حياتـه و سيرته قبل البعثـة وما ذكر يـرجع إلى سيـرته بعدها، ولعلّنـا نرجع إلـى تلك المسألة في المستقبل.

* * *

٧ ـ إيمان النبي قبل البعثة

لم يشـك أحد مـن أهل التـاريخ والسيـر في انّ النبـي الأكرم كـان على خـط التـوحيد قبـل البعثـة ويدل عليـه مـأثورات كثيـرة والمسـألة إتفـاقيـة بين المسلميـن ولاتحتاج إلى اطناب، وقد دلـّت الآثار على أنّه كان يكافح الوثنيـّة منذ نعومة أظفاره ومن إبّان طفوليته وشبابه.

روى صاحب المنتقى: انّ النبـي لمّا تمّ له ثلاث سنين، قال يومـاً لوالدته أي مرضعته «حليمة السعديّة»: ما لي لا أرى أخويّ بالنهار؟ قالت له: يابُنيّ إنّهما يرعيان غنيمات.

قال: فما لي لا أخرج معهما؟

قالت له: أتحبّ ذلك؟

قال: نعم.

قالت حليمـة السعدية: فلمّا أصبـح محمّد دهّنته وكحّلته و علّقـت في عنقه

خيطاً فيه جزع يماني فنزعه ثمّ قال لأُمّه: «مهلاً يا أُمّاه فإنّ معي من يحفظني»[1].

ونكتفي في المقام بهذا المقدار وقد بسطنا الكلام في ا لمأثورات حول توحيده و إيمانه في محلّه[2].

إنّما المهم تعيين الشريعة التي كان يطبّقها في أعماله الفردية والإجتماعية العبادية وغيرها.

الشريعة التي كان يتعبّدبها قبل البعثة

أمّا الشريعة التي كان يطبقها في أعماله فقد اختلفت الأنظار فيه وانتهت إلى أقوال و إحتمالات:

١ ـ إنّه لم يكن يتعبّد بشريعة من الشرائع و إنّما يكتفي في أعماله الفردية والإجتماعية بما يوحي إليه عقله.

وهذا القول لا يُعرَّج عليه، إذ لم تكن أعماله منحصرة في المستقلاّت العقليّة كالاجتناب عن البغي والظلم والتحنّن على اليتيم، والعطف على المسكين، بل كانت له أعمال عبادية لاتصحّ بدون الركون إلى شريعة لأنّه كان يخرج في شهر رمضان إلى «حراء» فيعتكف فيه وهل يمكن الاعتكاف بدون الاعتماد على شريعة، وقد رويت عن أئمّة أهل البيت(عليهم السلام) إنّه حجّ عشرين حجّة مستتراً[3] ولم يكن البيع والربا ولا الخل والخمر ولا المذكّى والميتة ولا النكاح والسفاح عنده سواسية، فطبيعة الحال تقتضي أن يكون عارفاً بأحكام عباداته وأفعاله.

---

(١) المنتقى للكازروني، الباب الثاني من القسم الثاني، ونقله المجلسي في البحار ج١٥، ص٣٩٢.

(٢) لاحظ «مفاهيم القرآن» ج٥ ص ٣٥١ـ٣٥٢.

(٣) الوسائل ج٨، الباب٤٥ ص٨٧ـ٨٨.

٢ ـ إنّه كان يعمل بشريعة إبراهيم وسننـه وطقوسه المعروفة وهذا هو الذي كان السيّد العلاّمة الطباطبائي يستظهره كأحقّ الأقوال بشهادة أنّ أجداد النبي وأُسرة البيت الهاشمي وجميع الأحناف فـي الجزيرة العربية كانوا علـى دين إبراهيم،ولـم ينقل أحد من أهل السير تهوّدهم أو تنصّرهم.

ويتوجّه علـى هذا القول: إنّ لازم ذلك كـونه عاملاً بـالشريعة المنسوخـة فإنّ الشريعتين اللاحقتيـن كشريعة الكليم و المسيح نسختا تلـك الشريعة، إلاّ أن يقال: إنّ سنن إبـراهيم(عليه السلام) وطقـوسه كانـت باقية علـى ما هي عليها فـي الشرائع اللاحقـة لها، و إنّما انقضت نبـوّته، ولكن شـريعته كانـت باقية في غضـون الشرائع اللاحقة، ولأجل ذلك صارت الشريعة الإبراهيمية هي الأساس للشرائع اللاحقة و إنّما زيد عليهـا في الفترات الـلاحقة أحكام وأُصول أُخـر جاء بها الكليـم، أو المسيح أو النبي الأكرم(صلّى الله عليه وآله وسلّم).

نعم يبقى علـى هذا القول إشكال آخـر وهو أنّه لازم هذا القـول أن يكون النبي الأكرم(صلّى الله عليه وآله وسلّم) جزء من أُمّة إبـراهيم(عليه السلام) تابعاً له، واقتداء الفاضـل بالمفضولُ غيـر صحيح عقلاً ولـم يخصّ أحـد تفضيله على سـائر الأنبياء بوقت دون وقت، فيجب أن يكون أفضل في جميع الأوقات فلاحظ وتأمّل.

٣ ـ أن يكون تابعـاً للشريعة الأخيرة وهي شريعة المسيح، و إمـّا شريعة الكليم فلا شك انّهـا كا نت منسوخة بالشـريعة اللاحقة، ولكن هذا الاحتمـال مبني على أن يكـون النبي واقفـاً بشريعـة المسيـح ولم يكـن له طـريـق إلاّ مخالطـة أهل الكتـاب وعلمائهـم، وحياتـه(صلّى الله عليه و آلـه و سلّم) لاتنسجـم مع هـذا الإحتمال، إذ لم يتعلّم منهم شيئاً ولم يسألهم.

٤ ـ إنّه كان يعمل حسب ما يُلهم ويوحى إليه سواء أكان مطابقاً لشرع من قبله أم مخالفاً، وسـواء أكان مطابقاً لما بعث عليـه من الشريعة فيما بعـد أم لا؟ وهذا هو أظهر الأقوال، ويؤيّد ذلـك ما نقل عن الإمام أمير المؤمنين(عليـه السلام) أنّه قال:

«لَقَدْ قَرَنَ ا للهُ بِهِ مِنْ لَدُنْ اَنْ كَانَ فَطيماً اَعْظَمَ مَلك مِنْ مَلائِكَتِهِ يَسْلُكُ بِهِ طَرِيقَ المَكَارِمِ وَمحَاسِنَ اَخْلاَقِ العَالم لَيْلِهِ وَنَهارِهِ وَلَقَدْ كنْتُ اَتبَعهُ اتِّبَاعَ الفَصِيلِ اثرَ اُمِّهِ، يَرْفَعُ لِي في كُلِّ يوْمٍ منْ أخْلاَقِهِ علماً فَارَاه وَلا يرَاه غَيرِي»[1].

وعلى ذلك لا جدوى في البحث بعد ما كان العمل على ضوء ما يلهم ويؤيّد ذلك أنّه سبحانه أنعم على المسيح و يحيى بالنبوّة أيام صغرهما قال سبحانه حاكياً عن المسيح :

﴿قَالَ اِنِّي عَبْدُ اللهِ آتانِيَ الكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً﴾(مريم/ ٣٠).

وقال سبحانه مخاطباً يحيى :

﴿يَا يَحْيَى خُذِ الكِتابَ بِقُوَّةٍ وآتَيْنَاهُ الحُكْمَ صَبِيّاً﴾(مريم/ ١٢).

ولازم ذلك، إنّ النبي الأكرم(صلّى الله عليه و آله و سلّم) كان يُلْهم منذ صباه إلى أن بعثه الله سبحانه نبيّاً وهادياً للبشر وليس ذلك أمراً غريباً، وتؤيّد ذلك المأثورات المتضافرات في بدء نزول الوحي عليه فكان له الرؤية الصالحة في النوم فكان لا يرى رؤيا إلاّ جاءت مثل فلق الصبح، ثمّ حبّب إليه الخلاء وكان يخلو بغار حراء فيتحنّث فيه ـ وهو التعبّد ـ الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزوّد لذلك ثمّ يرجع إلى خديجة فيتزوّد لمثلها حتى جاءه الحقّ وهو في غار حراء، فجاءه الملك وقال: «اقرأ»[2].

خاتمة المطاف

نحن مهما جهلنا بشيء فلا يليق بنا الجهل بأنّ النبوّة منصب إلهي لا يتحمّله

---

(١) نهج البلاغة الخطبة رقم ١٨٧ طبعة عبده.

(٢) صحيح البخاري ج١ ص٣، باب بدء الوحي إلى رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم)، و السيرة النبوية ج١ ص٢٣٤.

إلاّ الأمثل فالأمثل من الناس، ولا يفاض إلاّ لمن له مقدرة روحيّة عظيمة ولا يتهيّب عندما يتمثّل له رسول الرب وأمين الوحي ويميّز بين وحي الحقّ وكلامه ووسوسة الشياطين وإلقاءاتهم، ومن المعلوم أنّه عبء فادح ومسؤولية عظمى، لا يحملها إلاّ من وقع تحت رعاية الله وتربيته، ولا تتحقّق تلك الغاية إلاّ باقتران ملك من ملائكته يرشده إلى معالم الهداية، ويصونه من صباه إلى شبابه إلى كهولته عن كل سوء وخطأ حتّى تستعدّ نفسه لتمثّل أمين الوحي وتحمّل كلامه سبحانه. وهذا ما أشار إليه الإمام أمير المؤمنين في كلامه السابق فلاحظ.

(٤)

الوحي في القرآن الكريم

لقد تعـرّفت علـى حياة النبي(صلـّى الله عليه وآله وسلـّم) قبل البعثـة وما ورد حولها من الآيـات في القرآن الكريم، وبذلـك تمّ بيان ما يرجع إلـى الشطر الأوّل من حياته، وتسلسل البحث يدفعنا إلى البحث عن الشطـر الثاني من حياته وهو ما يرجع إلى الحوادث التـي مرّت عليه بعد البعثـة ونزول الوحي عليـه قبل هجرته إلـى المدينة المنوّرة، وقد أقام بمكّة بعد أن حباه الله بالنبوّة والرسالة قرابة ثلاثة عشر سنة يقود فيها أمّته إلى الصلاح والفلاح بالحكمة والموعظة الحسنة ويجادلهم بالتي هي أحسن.

ولمّا ضـاق عليه الأمـر في مـوطنه الأوّل ودارت عليـه الدوائر مـن قبل أعـدائه وأعداء رسالته إضطرّ إلـى مغادرة موطنه وألقى رحاله في مهجـره أعني المدينة المنورة وبقي فيهـا زهاء عشر سنيـن إلى أن اختاره الله سبحـانه إلى جـواره، وبذلك طـويت صفحات عمره المشرقة، وبقيت آثارها لامعة في سماء الإنسانيّة مشعلاً للهداية على مرّ العصور والتاريخ، وقد اجتازت مراحل ثلاثة:

١ ـ حياته قبل البعثة.

٢ ـ حياته بعد البعثة إلى الهجرة.

٣ ـ حياته بعد الهجرة حتى الإرتحال إلى الرفيق الأعلى.

فها نحن في رحاب المرحلة الثانية من مراحل حياته الشريفة وجاءت الحوادث في هـذه المرحلة تترى وتقـارع شخصيّته الصامدة،وقبل أن نخوض في تحليـل هذه

الحوادث حسب التسلسل التاريخي على ضوء ما نستفيده من القرآن الكريم ونستوحيه من خلال آياته؛ نذكر حادثة نزول الوحي عليه وتكليله بوسام النبوّة التي هي من هبات الله تعالى الجسيمة يمنحها لمن يشاء من عباده ﴿اللهُ أَعَلم حَيْثُ يَجْعل رسالته﴾.

الوحي لغة واصطلاحاً

الوحي في اللّغة هو الإلقاء في خفاء. نصّ على ذلك ابن فارس في المقاييس، ثم إنّ أئمّة اللّغة وإن ذكروا للوحي معان مختلفة لكن الجميع يرجع إلى أصل واحد وهو تعليم الغير بخفاء، قال ابن منظور: الوحي: الإشارة، والكتابة، والرسالة، والإلهام والكلام الخفي وكل ما ألقيته إلى غيرك يقال وحيت إليه الكلام، والمستفاد من كلماتهم: انّ الوحي هو الإعلام بخفاء بطريق من الطرق والعنصر المقوّم لمعنى الوحي هو الخفاء، وأمّا غيره كالسرعة على ما في مفردات الراغب فليس بمقوّم لمعنى الوحي،كما أَنّ الإشارة و الكتابة و الإلهام إلى القلب كلّها من طرق الوحي و وسائله.

و قد أُستعمل الوحي في القرآن الكريم في موارد مختلفة كلّها مصاديق و موارد لهذا المعنى الجامع و إن شئت قلت من قبيل تطبيق المعنى الكلّي على مصاديقه المختلفة المتنوّعة، و إليك البيان:

١ ـ تقدير الخلقة بالسنن و القوانين:

قال سبحانه: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَ هِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَ لِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ * فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَ أَوْحَى فِي كُلِّ

سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾(فصّلت/ ١١و١٢).
فقوله سبحانه: ﴿وَ أَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ يحتمل وجهين:

(الأوّل): أودع في كل سماء السنن و الأنظمة الكونية و قدّر عليها دوامها إلى أجل معيّن. و بما أنّ السماوات تلقّت هذه السنن و النظم بالإشارة في خلقتها استعير في التعبير لفظ الوحي.

(الثاني): إنّ الشعور و الإدراك ساريان في جميع مراتب الوجود من أعلاه كواجبه إلى أدناه كالهيولي في عالم التكوين، و لكن كلّ حسب درجته و مرتبته، فالسماوات تلقّت ما أوحى إليها سبحانه بخفاء،فقامت بامتثاله ما أوحى إليها من الوظائف.

و من هذا القبيل قوله سبحانه: ﴿ اِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَ اَخْرَجَتِ الأَرْضُ اَثْقَالَهَا * وَ قَالَ الإِنْسَانُ مَالَهَا * يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ اَخْبَارَهَا * بِاَنَّ رَبَّكَ اَوْحَى لَهَا﴾(الزلزلة/ ١ـ٥).

٢ ـ الإدراك بالغريزة:

قال سبحانه: ﴿وَ اَوْحَى رَبُّكَ اِلَى النَّحْلِ اَنِ اتَّخِذِى مِنَ الجِبَالِ بُيُوتاً وَ مِنَ الشَّجَرِ وَ مِمَّا يَعْرِشُونَ * ثُمَّ كُلِى مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً﴾(النحل/ ٦٨و٦٩).

فالأعمال المدهشة الخلاّبة للعقول التي تقوم بها النحل في صنع بيوتها و القيام بشؤون وظائفها ثم التجوّل بين البساتين، و مص رحيق الأنهار، ثمّ إيداعها في صفائح الشهد، شيء تعلّمه بإيحاء من الله سبحانه و ذلك بإيداع الغرائز الكفيلة بذلك، و بما أنّ تأثّر النحل بها بخفاء و بلا إلتفات من الشعور و الإدراك أُطلق عليه لفظ الوحي.

و يحتمل أيضاً هناك معنى آخر ذكرناه في الوحي إلى السماء.

٣ ـ الإلهام و الإلقاء في القلب :

و قداستعمل الوحي في الإلقاء إلى القلب في موارد في الذكر الحكيم.

منها قوله سبحانه : ﴿ وَ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾(القصص/ ٧).

و منها قوله: ﴿ وَ إِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي﴾(المائدة/ ١١١).

و منها قوله تعالى في شأن يوسف(عليه السلام) عِندما جعلوه في غيابت الجبّ، قال سبحانه :

﴿ وَ أَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَ هُمْ لَايَشْعُرُونَ﴾(يوسف/ ١٥).

إلى غير ذلك من الموارد.

٤ ـ الإشارة :

قال سبحانه : ﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ المِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَ عَشِيّاً﴾(مريم/ ١١).

و بما أنّه استخدم الإشارة في تفهيم مراده فأشبه فعله إلقاء الكلام بخفاء فصار ذلك مصحّحاً لاستعمال لفظ الوحي.

٥ ـ الإلقاءات الشيطانيّة :

قال سبحانه : ﴿وَ كَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإِنْسِ وَ الجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ القَوْلِ غُرُوراً﴾(الأنعام/ ١١٢).

و يعلم وجه استعمال الوحي هنا ممّا ذكرنا فيما سبق.

٦ ـ كلام الله المنزّل على نبي من أنبيائه :

قال سبحـانه : ﴿ كَـذَٰلِكَ يُـوحِـى اِلَيْكَ وَ اِلَـى الَّـذِينَ مِـنْ قَبْلِـكَ اللهُ العَزِيـزُ الحَكِيمُ﴾(الشورى/ ٣).

وقد عرّف هـذا النوع من الوحي بأنّـه تعليمه تعالى من اصطفاه مـن عباده كلّما أراد اطّلاعه على ألوان الهداية و أشكال العلم و لكن بطريقة خفيّة غير معتادة للبشر.

و حصيلة البحث : انّ للوحي معنى واحداً و لـه مصاديق متنوّعة و ليست هي بمعان متكثّرة، و إنّ حقيقة الـوحي تعليم غيبـي لمن اصطفاه سبحـانه مـن عباده، لايشابه الطرق المألوفة بين العباد، و إن أردت المزيد من الإطّلاع فإليك البيان التالي :

قنوان المعرفة الثلاثة :

إنّ أمام الإنسان طرق ثلاثة للوصول إلى مقاصده :

الطريق الأوّل ـ يستفيد منه جموع الناس غالباً ـ بينما يستفيد طائفة خاصّة منهم من الطريق الثاني، و لايستفيد من الطريق الثالث إلاّ أفراد معدودون تكاملت عقولهم و تسامت أرواحهم و هي كالتالي :

١ ـ الطريق الحسّي و التجربي :

و المقصود منه الإدراكات و المعلومات الواردة إلى الذهن عن طريق الحواس الظاهريّة أو بفضل التجربة التي أسّست الحضارة المعاصرة عليها.

٢ ـ الطريق التعقّلي النظري :

إنّ المفكّرين يتوصّلـون إلى كشف الأُمور الخارجة عن إطـار الحسّ و التجربة عن طريق الإستدلال و أعمال النظر و إنهاء المجهولات إلى البديهـيات، و قدتوصّل

البشر بهذا الطريق إلى المسائل الفلسفيّة الكلّية و ما يضاهيها.

٣ـ طريق الإلهام:

و هذا هو الطريق الثالث و هو فوق نطاق الحس و التعقّل. إنّه نوع جديد من المعرفة، و نمط متميّز من إدراك الحقائق ليس محالاً من وجهة نظر العلم، و إن كان يصعب على أصحاب الإتجاه المادي قبوله لكونه طريقاً خارجاً عن إطار الحسّ و التعقّل.

إنّ طريق التعرّف على حقائق الكون ـ في منهج المادّيين و أصحاب النزعة المادّية ـ ينحصر في قناتين لاغير و هما اللّذان سبق ذكرهما،في حين إنّ هناك حسب نظر الإلهيين قناة ثالثة أيضاً.

إنّ هذا الطريق الثالث أقوى أُسساً و أوسع آفاقاً عند من يدّعون الرسالة و النبوّة من جانب الله سبحانه،و أنّ نفوس أُولئك الأشخاص لتبدو أكثر صفاءً و طراوة و زهواً.

كلّما حصل ارتباط بين الله سبحانه و فرد من أفراد النوع الإنساني على نحو تلقّي الحقائق من دون توسيط الحواس و أعمال الفكر يسمّى بالإلهام تارة و الإشراق أُخرى،و كلّما نتجت من هذا الإرتباط سلسلة تعاليم عامّة يطلق عليها اسم الوحي و يسمّى المتلقّي نبيّاً، و من هنا اعتبر العلماء «الوحي» الطريقة المطمئنّة الوحيدة إلى المعرفة العامّة.

أنواع الوحي و أقسامه:

إنّ النبي تارة يتلقّى الوحي على نحو الإلهام الى القلب، و أُخرى يسمع عبارات و كلمات من وراء حجاب كسماع موسى(عليه السلام) كلام الله سبحانه في الطور، و ثالثة تنكشف الحقائق له في عالم الرؤيا انكشاف النهار كرؤيا إبراهيم

الخليل (عليه السلام) ذبح ولده إسماعيل، و قدينزل عليه ملك من جانب الله تعالى معه كلامه سبحانه و هو الذي يسمّى بالروح الأمين.

و إلى الطرق الثلاثة: «سوى الرؤيا» أُشير بقوله سبحانه: ﴿وَ مَا كَانَ لِبَشَرٍ اَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ اِلاَّ وَحْياً اَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ و إلى نزول الملك بقوله: ﴿اَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً﴾ و أمّا الرؤيا الصادقة فيكفي في ذلكَ قوله سبحانه حاكياً عن الخليل (عليه السلام): ﴿يَا بُنَيَّ إِنِّي اَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي اَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَا ذَا تَرَى قَالَ يَا اَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ (الصافّات/ ١٠٢).

فلو لم تكن رؤيا الخليل إدراكاً قطعيّاً و اتّضح بها وجه الحقيقة كفلق الصبح لما أخبر ولده بها و لما أجابه الولد بالامتثال طائعاً. نعم أُشير إلى الملك الحامل لكلام الله سبحانه بقوله: ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الاَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذَرِينَ﴾ (الشعراء/ ١٩٣و١٩٤). ٠

إنّ هناك من يحاول أن يفسّر الوحي بالأُصول المادّية و الطرق الحسّية و لهم في ذلك آراء و نظريات يشبه كثيرها بكلام بعض المشركين في تقييم الوحي و القرآن الكريم، و إليك بيان هذه النظريات واحدة تلو الأُخرى.

١ ـ الوحي وليد النبوغ:

و يقولون: يتميّز بين أفراد الإنسان المتحضّر أشخاص يملكون فطرة سليمة، و عقولاً مشرقة تهديهم إلى ما فيه صلاح المجتمع وسعادة الإنسان، فيضعون قوانين فيها مصلحة المجتمع و عمارة الدنيا، و الإنسان المتصدّي لهذه الوظيفة هو النبي، و الفكر المترشّح من مكامن عقله و ومضات نبوغه هو الوحي، و القوانين التي يسنّها لصلاح المجتمع هي الدين، و الروح الأمين (جبرئيل) هو نفسه الطاهرة التي تفيض هذه السنن و القوانين إلى مراكز إدراكه، و الكتاب السماوي هو كتابه الذي يتضمّن تلك السنن و القوانين، و الملائكة التي تؤيّده في حلّه و ترحاله هي القوى الطبيعية،

و الشيطان الذي ينابذه و ينادده هي النفس الأمّارة بالسوء.

أقول: إنّ تفسير النبوّة بالنبوغ و إن صيغ في قالب علمي جديد ليس نظرية جديدة بحدّ ذاتها، فإنّ جذوره تمتد إلى عصر المشركين المعاصرين للنبي الأكرم(صلّى الله عليه و آله و سلّم) فإنّهم كانوا يحسّون بحالة الإنجذاب للقرآن و بلاغته الخلاّبة فينسبونه إلى الشعر و يصفون قائله بالشاعر، قال سبحانه حاكياً عنهم: ﴿**بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الأَوَّلُونَ**﴾(الأنبياء/ ٥).

و يجيبهم القرآن بقوله: ﴿**وَ مَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَ مَا يَنْبَغِى لَهُ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَ قُرْآنٌ مُبِينٌ**﴾(يس/ ٦٩).

إنّ هذه النظرية إبتنت على إنكار ماوراء الطبيعة فصار الوجود عندهم مساوقاً للمادّة فلم يجدوا منتدحاً عن تفسير الوحي بما جاء في هذه النظرية.

إنّا إذا سبرنا تاريخ المصلحين في العالم نجدهم على فئتين:

فئة تتكلّم باسم الدين الإلهي و تخبر عن الله سبحانه و ينسب كل ما يأمر و ينهي إلى عالم الغيب و لايرى لنفسه شأناً سوى كونه مبلّغاً لرسالات الله و مؤدّيا لبلاغها و إنذارها.

و فئة تتكلّم باسم المصلح الإجتماعي و ينسب كل ما يتفوّه به إلى بنات فكره و عقله، فلو صحّت تلك النظرية لما كان لهذا التقسيم مفهوم صحيح و عندئذ يتساءل: لما ذا نسبت الفئة الأُولى ما جاءوا به من التعاليم إلى عالم الغيب مع أنّه من ومضات فكرتهم هذا، و من جانب آخر: انّ المصلحين بإسم الأنبياء كانوا رجالاً صادقين و صالحين لم يبدر منهم ما ينافي صدقهم و صلاحهم، و هذا إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ على أنّهم كانوا يحسّون من صميم ذاتهم بأنّهم مبعوثون من جانبه سبحانه.

إنّ هذه النظرية التي تفسّر الوحي بالنبوغ و توسّم الأنبياء بالنوابغ لم تدرس أحوال النوابغ و العلل و المبادئ التي يرتكز عليها النبوغ حتّى تقف على أنّ أحوال

الأنبياء على طرف نقيض من أحوال النوابغ، فإنّ أفكار النوابغ تتوقّد و تزدهر تحت لواء المجتمعات الراقية، و تحت ظل الحضارات الإنسانية، و أمّا المجتمعات المتخلّفة فلو كانت تمتلك نوابغاً بالذات لأُخمد فيها ذكاؤهم و بادت فيها فطنتهم.

و أمّا الظروف التي كان يعيش فيها الأنبياء خصوصاً النبي الخاتم(صلّى الله عليه و آله و سلّم) فقد كانت على نقيض هذا الجانب، فقد بعث(صلّى الله عليه وآله وسلّم) بين قوم يغطّون في سبات التخلّف و الإنحطاط، فكيف يمكن تفسير النبوّة الخاتمة بالنبوغ مع هذا البون الشاسع بين ظروف النوابغ و ظروف خاتم المرسلين(صلّى الله عليه و آله و سلّم)؟

أضف إلى ذلك: انّ النوابغ تسودهم العزلة و الانزواء مع أنّ النبي الأكرم(صلّى الله عليه و آله و سلّم) كان بين الناس يعيش معهم في حياتهم الإجتماعية و إن لم يكن على سيرتهم و سلوكهم، فقد قضى عمره في الرعي و التجارة إلى أن بعثه الله سبحانه نبيّاً لهداية الأُمّة.

و أنّى للنوابغ الكتاب الذي حارت فيه العقول و خرست الألسن عن النطق بمثله؟ و أين لهم هذه النظم و التشريعات الحيّة النابضة التي تتلائم و تنسجم مع جميع الحضارات الإنسانية، فهي كما وصفها شبلي شمّيل اللبناني المتوفى عام ١٣٣٥ هـ ق في رسالته إلى صاحب المنار:

إلى السيّد محمد رشيد رضا صاحب(المنار):

أنت تنظر إلى محمّد كنبيّ و تجعله عظيماً، و أنا أنظر إليه كرجل و أجعله أعظم، و نحن و إن كنّا في الاعتقاد على طرفيّ نقيض، فالجامع بيننا العقل الواسع و الإخلاص في القول، و ذلك أوثق لنا لعرى المودّة(الحق أولى أن يقال):

دع من محمّد في صدى قرآنه ... ما قد نحاه للحمة الغايات

إنّي و إن أك قد كفرت بدينه ... هل أكفرن بمحكم الآيات؟

أو ما حوت في ناصع الألفاظ من ... حكم روادع للهوى وعظات

و شـرايـع لـو أنّهـم عقلـوا بهـا — مـا قيـّدوا العمـران بـالعـادات؟
نعـم المـدبـرّ و الحكيـم و إنـّه — ربّ الفصاحـة مصطفى الكلمـات
رجل الحجى رجل السياسة والدهاء — بطـل حليـف النصر فـي الغـارات
ببـلاغة القـرآن قـد خلـب النهـى — و بسيفـه أنحـى علـى الهـامـات
مـن دونـه الأبطال فـي كـل الـورى — مـن سـابـق أو غـائب أو آت

٢ ـ الوحي ثمرة الأحوال الروحيّة:

هـذه النظـريـة هي التـي يعتمـد عليهـا المستشـرقـون في تحليـل نبـوّة النبـي الأكرم(صلّى الله عليه و آله و سلّم) و فسّرها من بينهـم«اميل درمنغام»، وخلاصتها:

إنّ الوحي إلهام يفيـض من نفس النبي الموحى إليـه لا من الخارج، وذلك إنّ سريرته الطاهرة، وقوّة إيمانه بالله، والإعتقاد بوجوب عبادته، وترك ما سواها من عبادة وثنيّة وتقاليد وراثيّة موبوءة، يحدث في عقله الباطن،الرؤى والأحوال الروحيّة فيتصوّر ما يعتقد وجوبه، إرشـاداً إليه، نازلاً عليه من السماء بدون وساطـة، أو يتمثّل له رجل يلقّنه ذلك، يعتقد أنّه ملـك من عالم الغيب، وقد يسمعه يقول ذلـك ولكنّه إنّما يرى ويسمع ما يعتقده في اليقظة كما يرى ويسمع مثل ذلك في المنام الذي هو مظهر من مظاهر الـوحي عند جميع الأنبياء، فكلّما يخبـر به النبي انّه كلام اُلقـي في روعه، أو ملك ألقاه على سمعه، فهو خبر صادق عنده[1].

نبوّة أو أضغاث أحلام؟!

وممّا يلاحظ على تلك النظرية إنّها ليست بشيء جديد وإن كانت ربّما تنطلي

---

(١) الوحي المحمدي ص٦٦.

على السذج من الناس بأنّها نظرية جديدة ذات قيمة علمية.

إنّ الذكر الحكيم يحكي لنا مقالة المشركين في سالف عهدهم في حقّ ا لنبي الأكرم وكتابه حيث كـا نوا يحلّلون نبوّته والوحي المنزّل عليه، بأنّها أضغاث أحلام، قال تعالى حاكياً عنهم: ﴿أضغاث أحلام﴾ أي أنّ ما يحكيه عن الله تبارك وتعالى إنّما هو وحي الأحلام يجري على لسانه، وعلى ذلك فليست تلك النظرية إلاّ تفسير للنبوّة بالجنون الذي هو في مرتبة عالية وشديدة من تجلّي النزعات الخيالية فاستغلّه المستشرقون، واستعرضوه بثوب جديد يوهم السذّج أنّها تحليل علمي بني على أساس علمي رصين، ولكن المساكين غير و اقفين على أنّه نفس النظرية الجاهلية التي جوبه بها النبي حيث قالوا: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾(الحجر/ ٦).

وقد حكيت هذه التهمة عن لسان المشركين في غير سورة. سبحانك يا رب ما أعظم جناية الإنسان على الصالحين البالغين، ذروة الكمال في العقل والدراية حتى وسمهم هؤلاء المفترون تارة بالخبطة وأُخرى بالمسّ والجنون.

(٥)

بعثته ونزول الوحي إليه

«بَعَثَ اللهُ سُبْحانَهُ نَبِيَّهُ الأكْرَم عَلَى حِينِ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ، وَطُولِ هَجعَةٍ مِنَ الأُمَمِ، وَاعْتِزَامٍ مِنَ الفِتَنِ وَانتِشَارٍ مِنَ الأُمُورِ، وَتَلَظٍّ مِنَ الحُروبِ، والدُّنْيَا كَاسِفَةُ النُّورِ، ظَاهِرَةُ الغُرُورِ، عَلى حِينِ اصْفِرَارٍ مِنْ وَرَقِهَا، وإياسٍ مِنْ ثَمرِهَا، وَاغوِرَارٍ مِنْ مَائِهَا، قَدْ دَرَسَتْ مَنَار الهُدى، وَظَهَرَتْ أعلامُ الرَّدى، فَهِيَ مُتَجَهِّمَةٌ لِأَهْلِهَا، عَابِسَةٌ فِي وَجْهِ طَالِبِهَا، ثَمَرُهَا الفِتْنَةُ، وَطَعَامُهَا الجِيفَةُ، وَشِعارُهَا الخَوْفُ، وَدِثَارُهَا السَّيْفُ»(١).

بعث على رأس الأربعين من عمره، وبُشّر بالنبوّة والرسالة، وأمّا الشهر الذي بعث فيه، ففيه أقوال وآراء، فالشيعة الإمامية تبعاً لأئمّة أهل البيت(عليهم السلام) على أنّه(صلّى الله عليه و آله و سلّم) بعث في سبع وعشرين من رجب.

روى الكليني عن الإمام الصادق(عليه السلام) أنّه قال: لا تدع صيام يوم سبع وعشرين من رجب فإنّه اليوم الذي نزلت فيه النبوّة على محمّد(صلّى الله عليه و آله و سلّم)(٢).

وروى أيضاً عن الإمام الكاظم(عليه السلام) أنّه قال: بعث الله عزّ وجلّ محمّداً رحمة للعالمين في سبع وعشرين من رجب(٣).

روى المفيد عن الإمام الصادق(عليه السلام) قال: في اليوم السابع والعشرين من رحب نزلت النبوّة على رسول الله، إلى غير ذلك من الروايات(٤).

وأمّا غيرهم فمن قائل بأنّه بعث في سبعة عشر من شهر رمضان أو ثمانية عشر أو أربع وعشرين من هذا الشهر أو في الثاني عشر من ربيع الأوّل.

---

(١) إقتباس من كلام الإمام أمير المؤمنين في نهج البلاغة الخطبة٨٥، طبعة عبده.

(٢) و(٣) البحار ج١٨ ص١٨٩ـ نقلاً عن الكافي و أمالي ابن الشيخ.

(٤) البحار ج١٨ ص١٨٩ـ نقلاً عن الكافي و أمالي ابن الشيخ.

وبما أنّ أهل البيت أدرى بما في البيت، كيف وهم نجوم الهدى ومصابيح الدجى وأحد الثقلين اللذين تركهما رسول الله(صلّى الله عليه وآله وسلّم) بعده، فيجب علينا الوقوف دون نظرهم ولا نجتازه، نعم دلّ الذكر الحكيم على أنّ القرآن نزل في شهر رمضان قال سبحانه: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ...﴾(البقرة/ ١٨٥).

وقال سبحانه: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾(القدر/ ١).

وقال سبحانه: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾(الدخان/ ٣).

إلى غير ذلك من الآيات الدالّة على نزوله في شهر رمضان.

والإستدلال بهذه الآيات على أنّه(صلّى الله عليه و آله و سلّم) بعث في شهر رمضان مبني على إقتران البشارة بالنبوّة، بنزول القرآن وهو بعد غير ثابت، فلو قلنا بالتفكيك وانّه بعث في شهر رجب، وبشّر بالنبوّة فيه، ونزل القرآن في شهر رمضان، لما كان هناك منافاة بين بعثته في رجب، ونزول القرآن في شهر رمضان.

ويؤيّد ذلك أي عدم اقتران النبوّة بنزول القرآن،ما نقله غير واحد عن عائشة: إنّ أوّل ما بدء به رسول الله من النبوّة حين أراد الله كرامته، الرؤيا الصادقة، فكان لا يرى رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) رؤيا في نومه إلاّ جاءت كفلق الصبح، قالت: وحبّب الله تعالى إليه الخلوة، فلم يكن شيء أحبّ إليه من أن يخلو وحده[1].

لكن الظاهر من ذيل ما روته عائشة أنّ النبوّة كانت مقترنة بنزول الوحي والقرآن الكريم، ولنذكر نص الحديث بتمامه ثمّ نذيّله ببيان بعض الملاحظات حوله. روى البخاري: «كان رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) يخلو بغار حراء، فيتحنّث فيه وهو التعبّد في الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزوّد لذلك ثمّ يرجع إلى خديجة فيتزوّد لمثلها حتى جاء الحقّ وهو في غار حراء، فجاءه الملك، فقال: اقرأ. قال: ما أنا بقارئ، قال: فأخذني فغطّني حتى بلغ مني الجهد ثمّ أرسلني فقال: اقرأ، قلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطّني الثانية حتى بلغ منّي الجهد ثمّ أرسلني

---

(١) صحيح البخاري ج١ ص٣، السيرة النبوية ج١ ص ٢٣٤.

فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطّني الثالثة ثمّ أرسلني، فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَ رَبُّكَ الأَكْرَمُ﴾[1].

و في هذه الرواية تأمّلات واضحة:

١ ـ ما هو المبرّر لجبرئيل أن يروّع النبي الأعظم، و أن يؤذيه بالعصر إلى حدٍّ أنّه يظن انّه الموت، يفعل به ذلك و هو يراه عاجزاً عن القيام بما يأمره به، و لايرحمه و لايلين معه؟

٢ ـ لما ذا يفعل ذلك ثلاث مرات لاأكثر و لاأقل؟

٣ ـ لما ذا صدّقه في الثالثة، لا في المرّة الأُولى و لا الثانية مع أنّه يعلم أنّ النبي لايكذب؟

٤ ـ هل السند الذي روى به البخاري قابل للإحتجاج مع أنّ فيه الزهري وعروة؟

أمّا الزهري فهو الذي عرف بعمالته للحكام، و إرتزاقه من موائدهم، و كان كاتباً لهشام بن عبدالملك و معلّماً لأولاده، و جلس هو و عروة في مسجد المدينة فنالا من علي، فبلغ ذلك السجاد(عليه السلام) حتى وقف عليهما فقال: أمّا أنت يا عروة فإنّ أبي حاكم أباك، فحُكِم لأبي على أبيك، و أمّا أنت يا زهري فلو كنت أنا وأنت بمكّة لأريتك كن أبيك[2].

أمّا عروة بن الزبير الذي حكم عليه ابن عمر بالنفاق وعدّه الاسكافي من التابعيين الذين يضعون أخباراً قبيحة في عليّ(عليه السلام)[3].

نعم رواه ابن هشام و الطبري في تفسيره و تاريخه[4] بسند آخر ينتهي إلى

---

(١) صحيح البخاري ج١ ص٣.

(٢) أي بيت أبيك.

(٣) الصحيح من سيرة النبي الأعظم ص٢٢٣.

(٤) السيرة النبوية ج١ ص٢٣٥، تفسير الطبري ج٣٠ ص١٦٢، و تاريخه ج٣ ص٣٥٣.

أشخاص يستبعد سماعهم الحديث عن نفس الرسول الأكرم و دونك أسماؤهم :

١ ـ عبيدبن عميـر، ترجمه ابن الاثير، قال : ذكر البخـاري أنّه رأى النبي و ذكر مسلم أنّه ولد على عهد النبي و هو معدود من كبار التابعين يروي عن عمر و غيره[١].

٢ ـ عبد الله بن شداد، ترجمه ابن الأثير ، قال : ولد على عهد النبي، روى عن أبيه و عن عمر و علي[٢].

٣ ـ عـائشة، زوجة النبـي، حيث تفرّدت بنقل هـذا الحديث و مـن المستبعد جداً أن لايحـدّث النبي هذا الحـديث غيرها مـع تلهّف غيرهـا إلى سماع أمثـال هذا الحديث.

نعم ورد مضمون الحـديث في تفسير الإمام العسكـري(عليه السلام) ، و نقله من أعلام الطائفة ابن شهر آشوب في مناقبه[٣]أو المجلسي في بحاره[٤].

لكـن الكلام فـي صحـّة نسبة التفسيـر المـوجود إلـى الإمـام العسكري(عليـه السلام)و أمّا المنـاقب فإنّه يورد الأحـاديث و التواريخ مرسلـة لامسندة، و المجلسي اعتمد على هذه المصادر التي عرفت حالها.

و بذلـك يظهر أنّه لا دليل علـى أنّ البشارة بالنبوّة كـانت مقترنة بنـزول القرآن، و بذلك ينسجم نزول القرآن في شهر رمضـان مع كون البعثة في شهر رجب، نعم أورد العلاّمة الطباطبائي على هذه النظرية بقوله : إذا بعث النبي في اليوم الثاني و العشرين من شهر رجب و بينه و بيـن شهر رمضان أكثر من ثلاثين يومـاً فكيف تخلو البعثة في هذه المدّة من نزول القرآن؟ على أنّ سورة العلق أوّل سورة نزلت على رسول الله و أنّها

---

(١) أُسد الغابة ج٣ ص ٣٥٣ .

(٢) نفس المصدر ج٤ ص١٨٣ .

(٣) مناقب آل أبي طالب ج١ ص٤٠ـ٤٤ .

(٤) بحار الأنوار ج١٨ ص١٩٦ .

نزلت بمصاحبة البعثة[1].

يلاحظ على ما ذكر:

١ ـ انّ الوجه الأوّل من كلامه مجرّد استبعاد،فأيّ إشكال في أن يكون النبي قدبشّر بالنبوّة و نزّل القرآن بعد شهر و بضعة أيام؟

٢ ـ و أمّا الوجه الثاني فلأنّ الروايات نطقت بأنّها أوّل سورة نزلت و ليس فيها ما يدلّ على اقتران نزولها بأوّل عهد البعثة.

سؤال و إجابة:

إذا كان القرآن نازلاً في شهر رمضان فإنّ معناه أنّ مجموعه نزل في هذا الشهر مع أنّه نزل قرابة مدّة ثلاثة و عشرين سنة فكيف التوفيق بين هذين الأمرين؟

و أمّا الإجابة فقد أُجيب عنه بأجوبة نذكرها واحداً تلو الآخر.

الأوّل: إنّ للقرآن نزولين: نزول دفعي و قدعبّر عنه بلفظ الإنزال الدال على الدفعة، و نزول تدريجي و هو الذي يعبّر عنه بالتنزيل. قال سبحانه: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾(هود/ ١) فإنّ هذا الإحكام في مقابل التفصيل، و التفصيل هو جعله فصلاً فصلاً، و قطعة قطعة، و الإحكام كونه على وجه لايتفصّل فيه جزء من جزء و لايتميّز بعض من بعض، لرجوعه إلى معنى واحد، لاأجزاء و لافصول فيه، فعلى ذلك فالقرآن نزل دفعة واحدة على قلب النبي الأعظم، ثم صار ينزل تدريجياً حسب المناسبات و الوقائع و الأحداث[2].

و على ذلك فلا مانع من نزول جميع القرآن في شهر رمضان نزولاً دفعياً، ثمّ نزوله نحو ما في بضعة و عشرين سنة.

---

(١) تفسير الميزان ج٢ ص١٣.

(٢) الميزان ج٢ ص١٤ـ١٦.

و يلاحظ عليه: أنّ ما ذكره مبني على الفرق بين «الإنزال» و «التنزيل»، و إنّ الأوّل عبارة عن النزول الدفعي، و الثاني عن النزول التدريجي مع أنّه لادليل عليه، فإنّ الثاني أيضاً استعمل في النزول الدفعي. قال تعالى حاكياً عن المشركين: ﴿ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَقْرَؤُهُ﴾(الاسراء/ ٩٣).

و قال تعالى: ﴿ وَ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ القُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾(الفرقان/ ٣٢) فلو كان التنزيل هو النزول التدريجي فلماذا وصفه بقوله: «جملة واحدة ... ».

الثاني: إنّ القرآن نزل دفعة واحدة إلى البيت المعمور حسب ما نطقت به الروايات الكثيرة ثمّ صار ينزل تدريجياً على الرسول الأعظم.

روى حفص بن غياث عن الإمام الصادق(عليه السلام) قال سألته عن قول الله عزّ و جلّ: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ القُرْآنُ﴾ و إنّما أُنزل في عشرين بين أوّله وآخره، فقال أبو عبدالله(عليه السلام):«نزل القرآن جملة واحدة في شهر رمضان إلى البيت المعمور ثمّ نزل في طول عشرين سنة»[1].

و لو صحّت الرواية يجب التعبّد بها، و إلاّ فما معنى نزول القرآن الذي هو هدى للناس إلى البيت المعمور،و أي صلة بهذا النزول بهداية الناس الذي يتكلّم عنه القرآن و يقول: **﴿شهر رمضان الذي أُنزل فيه القرآن هدى للناس و بيّنات من الهدى و الفرقان﴾**؟

قال الشيخ المفيد:

«الذي ذهب إليه أبو جعفر[2] حديث واحد لايوجب علماً و لاعملاً،و نزول

(١) البرهان في تفسير القرآن ج١ ص١٨٢، و الدر المنثور ج٦ ص ٣٧٠.

(٢) مراده الصدوق، و قد ذهب إلى أنّ القرآن قد نزل في شهر رمضان في ليلة القدر جملة واحدة إلى البيت المعمور،ثمّ انزل من البيت المعمور في مدة عشرين سنة.

القرآن على الأسباب الحادثة حالاً يدلّ على خلاف ما تضمّنه الحديث، و ذلك انّه قدتضمّن حكم ما حدث، و ذكر ما جرى على وجهه، و ذلك لايكون على الحقيقة إلاّ لحدوثه عند السبب، ... الخ.

ثمّ استعرض آيات كثيرة نزلت لحوادث متجددة[1].

الثالث: إنّ القرآن يطلق على الكلّ و الجزء، فمن الممكن أن يكون المراد بنزول القرآن في شهر رمضان هو شروع نزوله في ليلة مباركة و هي ليلة القدر، فكما يصحّ نسبة النزول إليه في شهر رمضان إذا نزل جملة واحدة، تصحّ نسبتة إليه إذا نزل أوّل جزء منه في شهر رمضان و استمرّ نزوله في الأشهر القادمة طيلة حياة النبي.

فيقال: نزل القرآن في شهر رمضان أي بدأ نزوله في هذا الشهر، و له نظائر في العرف، فلو بدأ فيضان الماء في المسيل يقال جرى السيل في يوم كذا و إن استمرّ جريانه و فيضانه عدّة أيام.

و هذا هو الظاهر من صاحب«المنار» حيث يقول: و أمّا معنى إنزال القرآن في رمضان مع أنّ المعروف باليقين أنّ القرآن نزل منجّماً في مدّة البعثة كلّها، فهو أنّ ابتداء نزوله كان في رمضان، ذلك في ليلة منه سمّيت ليلة القدر أي الشرف، و الليلة المباركة كما في آيات أُخرى. و هذا المعنى ظاهر لاإشكال فيه، على أنّ لفظ القرآن يطلق على هذا الكتاب كلّه و يطلق على بعضه.

الرابع: إنّ جملة القرآن و إن لم تنزل في تلك الليلة، لكن لمّا نزلت سورة الحمد بها و هي تشتمل على جلّ معارف القرآن، فكأنّ القرآن أُنزل فيه جميعاً فصحّ أن يقال: إنّا اَنزلناه في ليلة القدر.

يلاحظ عليه: أنّه لو كانت سورة الحمد أوّل سورة نزلت على رسول الله لكان حق الكلام أن يقال: قل بسم الله الرحمن الرحيم، الحمدلله رب العالمين، أو يقال:

---

(١) تصحيح الإعتقاد ص٥٨.

بسم الله الرحمن الرحيم، قل: الحمد لله ربّ العالمين[1].

و هذا يعرب عن أنّ سورة الحمد ليست أوّل سورة نزلت على النبي.

هذه هي الوجوه التي ذكرها المفسّرون المحقّقون و الثالث هو الأقوى.

أوّل ما نزل على رسول الله:

ذكر أكثر المفسّرين أنّ أوّل سورة نزلت على رسول الله هي سورة العلق، و تدل عليه روايات أئمّة أهل البيت. روى الكليني عن الصادق(عليه السلام) قال: أوّل ما نزل على رسول الله ﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ * اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ... ﴾ و آخر سورة هو قوله: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ و الفَتْحُ ... ﴾ ومثله عن الإمام الرضا(عليه السلام)[2].

و لعلّ المراد نزول آيات خمس من أوّلها لاجميع السورة.

لأنّ قوله سبحانه في نفس تلك السورة: ﴿ اَرَأَيْتَ الَّذِى يَنْهَى عَبْداً إِذَا صَلَّى ... ﴾ لايناسب أن تكون أوّل ما نزل، بل هو حاك عن وجود تشريع للصلاة، و وجود من يقيمها حتّى واجه نهي بعض المشركين،و هذا لايتّفق مع كونه أوّل ما نزل.

أساطير و خرافات

دلّت الأدلة العقلية و الآيات القرآنية على أنّ الأنبياء مصونون عن الخطأ و الاشتباه في تلقّي الوحي أوّلاً، و ضبطه ثانياً، و إبلاغه ثالثاً و أنّهم لايشكّون فيما يلقى في روعهم من أنّه ربّ العالمين و أنّ ما يعاينونه رسول إله العالمين، و الكلام كلامه، لايشكّون في ذلك طرفة عين و لايتردّدون بل يتلقّونه بنفس مطمئنة.

---

(١) الميزان ج٢ ص٢١_٢٢.

(٢) البرهان في تفسير القرآن ج١ المقدّمة الباب الخامس عشر ص٢٩، و تاريخ القرآن للزنجاني ص٣٠.

هذا هو القرآن الكريم يذكر كيفيّة بدء نزول الوحي إلى موسى و إنّه تلقّاه بلاتردّد و لاتريّث، بذكره في سور مختلفة:

يقول: ﴿فَلَمَّا اَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى * اِنِّي اَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ اِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً * وَ اَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى * إِنَّنِي اَنَا اللهُ لاَ اِلَهَ اِلاَّ اَنَا فَاعْبُدْنِي وَاَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي * اِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ اَكَادُ اُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى * ... اذْهَبْ اِلَى فِرْعَونَ اِنَّهُ طَغَى * قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * و يَسِّرْلِي أَمْرِي * وَ احْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي * وَ اجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ اَهْلِي * هَارُونَ اَخِي * اشْدُدْ بِهِ اَزْرِي *وَاَشْرِكْهُ فِي اَمْرِي * كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً * وَ نَذْكُرَكَ كَثِيراً * اِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيراً﴾(طه/ ١١ ـ ٣٥).

ترى أنّ الكليم عندما فُوجئ بنزول الوحي، تلقّاه بصدر رحب، و لم يتردّد في أنّه وحيه سبحانه و أمره، و لذلك سأل سبحانه أن يشرح له صدره، و ييسر له أمره، ويحلّ العقدة التي في لسانه، و يجعل له وزيراً من أهله، يشدّ به أزره و يشركه في أمره.

يقول سبحانه: ﴿ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَ مَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾(النمل/ ٨ ـ ٩).

و جاءت هذه القصة في سورة القصص على وفق ما وردت في السورتين[1].

و من لاحظ هذه الآيات يقف على أنّ موقف الأنبياء من الوحي هو موقف الإنسان المتيقّن المطمئنّ إليه، و هذه خاصّة تعمّ جميع الأنبياء(عليهم السلام).

نرى أنّه سبحانه يذكر رؤية النبي الأكرم، و مواجهته لمعلّمه الذي وصفه القرآن بـ «شديد القوى».

يقول: ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى * ذُومِرَّةٍ فَاسْتَوَى * وَ هُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَى * ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ اَوْ أَدْنَى * فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ

---

(١) القصص ٢٩ـ٣٥.

مَا أَوحَى * مَا كَذَبَ الفُؤَادُ مَا رَأَى * أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى﴾(النجم/ ٤ ـ١٢).

فأيّ كلمة أصرح في توصيف إيمان النبي و إذعانه في مجال الوحي و مواجهة أمينه من قوله سبحانه: ﴿ مَا كَذَبَ الفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ أي صدق القلب عمل العين. و يحتمل أن يكون المراد، ما رآه الفؤاد.

قال العلاّمة الطباطبائي:

فالمراد بالفؤاد، فؤاد النبي(صلّى الله عليه و آله و سلّم) و ضمير الفاعل في «ما رأى» راجع إلى الفؤاد، و الرؤيا رؤيته و لابدع في نسبة الرؤية و هي مشاهدة العيان إلى الفؤاد، فإنّ للإنسان نوعاً من الإدراك الشهودي وراء الإدراك بإحدى الحواسّ الظاهرة و التخيّل و التفكّر بالقوى الباطنة كما أنّنا نشاهد من أنفسنا أنّنا نرى و ليست هذه المشاهدة العيانية رؤية بالبصر و لامعلوماً بالفكر،و كذا نرى من أنفسنا أنّنا نسمع و نشمّ و نذوق و نلمس، و نشاهد أنّنا نتخيّل و نتفكّر، و ليست هذه الرؤية ببصر أو بشيء من الحواسّ الظاهرة أو الباطنة[1].

فالله سبحانه يؤيّد صدق النبي فيما يدّعيه من الوحي و رؤية آيات الله الكبرى، سواء كانت بالعين أو بالفؤاد.

و على كل تقدير فهذه الآيات و غيرها تدلّ على أنّ الأنبياء و غيرهم لايشكّون و لايتردّدون فيما يواجهون من الأمور الغيبيّة.

و على ضوء ذلك تقف على أنّ ما ملأ كتب السيرة و بعض التفاسير في مجال بدء الوحي و أنّه تردّد النبي و شكّ عندما بشّر بالنبوّة و شاهد ملك الوحي و امتلأ روعاً و خوفاً إلى حدّ حاول أن يلقي نفسه من شاهق، و عاد إلى البيت فكلّم زوجته فيما واجهه، و عادت زوجته تسلّيه و تقنعه بأنّه رسول ربّ العالمين، و إنّ ما رآه ليس إلاّ أمراً حقّاً.

إذ كل ذلك أساطير و خرافات، تناقض البراهين العقليّة و ما يتلقّاه الإنسان

---

(١) الميزان ج١٩ ص٣٠.

من قصص الأنبياء الواردة في القرآن الكريم، و قد دسّها الأحبار و الرهبان و سماسرة الحديث و القصّاصون في كتب القصص و السير و الحديث، و نحن نكتفي في المقام بما ذكره البخاري في صحيحه و ابن هشام في سيرته، فإنّ استقصاء كل ما ورد حول هذا الموضوع من الروايات المدسوسة يدفع بنا إلى تأليف رسالة مفردة، و لكن فيما ذكرنا غنىً و كفاية. قال البخاري:

(بعد ذكر نزول أمين الوحي عليه في جبل حراء)«فرجع بها رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد(رضي الله عنها) فقال: زمّلوني زمّلوني، فزمّلوه حتى ذهب عنه الروع، فقال لخديجة ـ و أخبرها الخبر ـ:لقد خشيت على نفسي، فقالت خديجة: كلاّ و الله ما يخزيك الله أبداً إنّك لتصل الرحم، و تحمل الكَلّ و تكسب المعدوم، و تقري الضيف، و تعين على نوائب الحقّ، فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزّى ابن عمّ خديجة، و كان امرئٌ تنصّر في الجاهلية، و كان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، و كان شيخاً كبيراً قدعمي، فقالت له خديجة:يا ابن عمّ اسمع من ابن أخيك، فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) خبر ما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نزّل الله على موسى ياليتني فيها جذعاً ليتني أكون حيّاً إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم):أمخرجي هم؟ قال: نعم، لم يأتِ رجل قطّ بمثل ما جئت به إلاّ عودي، و إن يدركني يومك، أنصرك نصراً مؤزّراً ثم لم ينشب[1]ورقة أن توفّي و فتر الوحي»[2].

هذا ما لدى البخاري،و أمّا صاحب السيرة النبوية فبعدما ذكر مسألة الغتّ ينقل عن النبي أنّه قال:

«فخرجت حتى إذا كنت في وسط الجبل سمعت صوتاً من السماء يقول:

---

(١) أي لم يلبث.

(٢) صحيح البخاري ج١ ص٣.

يا محمد، أنت رسول الله و أنا جبرئيل، قال: فوقفت أنظر إليه، فما أتقدّم وما أتأخّر، و جعلت أصرف وجهي عنـه في آفاق السماء، قال: فلاأنظر في نـاحية منها إلاّ رأيته كذلـك، فما زلت واقفاً، ما أتقدّم أمـامي، و ما أرجـع ورائي، حتى بعثت خـديجة رسلهـا في طلبـي فبلغوا أعلـىمكّة و رجعـوا إليهـا، و أنا واقـف في مكـاني ذلـك، ثم انصرف عنّي و انصرفت راجعاً إلى أهلي حتـى أتيت خديجة فجلست إلى فخذها مضيفاً إليها، فقـالت: يا أبا القاسم، أيـن كنت؟ فو الله لقد بعثت رسلـي في طلبك حتى بلغـوا مكّة و رجعوا إليّ، ثـمّ حدّثتها بالـذي رأيت، فقالـت: أبشر يا ابـن عمّ و اثبت، فو الذي نفس خديجة بيده إنّي لأرجو أن تكون نبيّ هذه الأُمّة».

ثمّ يذكر انطلاق خـديجة إلى ورقة بن نوفل، و ما أجابهـا به ورقة بنفس النص الذي ذكره البخاري ثـمّ يذكر لقاء النبي ورقة بـن نوفل، و هو يطوف بالكعبـة، فسأله ورقة بما رأى و سمع، فـأخبره النبيّ(صلّى الله عليه و آلـه و سلّم)، فقـال له ورقـة: و الذي نفسي بيده إنّك لنبيّ هذه الأُمّة.

ثمّ عقّبه بـذكر ما قامـت به خديجة مـن امتحان صدق نبوّتـه فذكر أنّها قـالت لرسول الله: أي ابن عـمّ، أتستطيع أن تخبرني بصاحبك هـذا إذا جاءك؟ قال: نعم. قالت: فإذا جاءك فاخبرني به، فجاءه جبرئيل، فقال رسول الله لخديجة: هذا جبرئيل قدجاءني، قالـت: قم يا بن عمّ فاجلس على فخـذي اليسرى، قال: فقام رسول الله فجلس عليها، قـالت: هل ترى؟ قال: نعـم، قالت: فتحوّل فاجلـس على فخذي اليمنى، فجلس على فخذها اليمنى، فقالـت: هل تراه؟ قال: نعم، قالت: فتحوّل واجلس في حجري، فتحوّل فجلس في حجرها، قالت:هل تراه؟قال: نعم، فتحسّرت و ألقت خمارها و رسول الله جالس في حجرها، ثم قالت له: هل تراه؟ قال: لا.

قالت: يا ابن عم اثبت و ابشر، فو الله هذا ملك و ما هذا بشيطان[1].

و قال الطبري ــ بعد ما ذكر نزول جبرئيـل إليه و تعليم آيات من سـورة العلق ـ

---

(١) السيرة النبوية ج١ ص٢٣٧ـ٢٣٩، و تاريخ الطبري ج٢ ص٤٩ـ٥٠.

ثمّ دخلت على خديجة و قلت: زمّلوني زمّلوني حتى ذهب عنّي الروع، ثمّ أتاني و قال: يا محمد، أنت رسول الله.

قال: لقد هممت أن أطرح نفسي من حالق من جبل فتبدّى لي حين هممت بذلك، فقال: يا محمد، أنا جبرئيل و أنت رسول الله، ثمّ قال: اقرأ، قلت: ما اقرأ؟ قال: فأخذني فغتني ثلاث مرات حتّى بلغ منّي الجهد ثمّ قال: اقرأ باسم ربّك الذي خلق، فقرأت فأتيت خديجة، فقلت: لقد أشفقت على نفسي، فأخبرتها خبري فقالت: ابشر فو الله لايخزيك الله أبداً، و و الله إنّك لتصل الرحم، و تصدق الحديث، و تؤدّي الأمانة، و تحمل الكل، و تقري الضيف، و تعين على نوائب الحقّ، ثمّ انطلقت بي إلى ورقة بن نوفل بن أسد، فقالت: اسمع من ابن أخيك، فسألني فأخبرته خبري، فقال: هذا الناموس الذي أُنزل على موسى بن عمران... .

نظرة تحليلية حول هذه النصوص:

إنّ هذه النصوص التاريخية التي نقلها المشايخ كالبخاري و ابن هشام و الطبري، و تلقّاها الآخرون من بعدهم على أنّها حادثة متسالم عليها تضاد ما يستشفه الإنسان من التدبّر في حالات الأنبياء في القرآن الكريم و تناقض البديهة العقلية، و إليك بيان ما فيها من نقاط الضعف و علائم الجعل و التهافت:

١ ـ إنّ النبوّة كما عرفت منصب إلهي لايفيضه الله إلاّ على من امتلك زخماً هائلاً من القدرات الروحية و القوى النفسية العالية حتّى يقوى على معاينة الوحي، و مشاهدة الملائكة، فعندئذٍ فلا معنى لما ذكره البخاري: «لقد خشيت على نفسي» أفيمكن أن ينزل الوحي الإلهي على من لايفرّق بين لقاء الملك، و لقاء الجنّ و مكالمتهما حتى يخشى على نفسه الجنون أو الموت؟

٢ ـ و أسوأ منه ما ذكره الطبري من أنّه(صلّى الله عليه و آله و سلّم) همّ أن يرمي بنفسه من حالق من جبل، فندم عليه و رجع عنه حين سمع كلام جبرئيل:يا محمد أنا جبرئيل.

إنّ هذا الكلام يعـرب من أنّ نفسه(صلّى الله عليـه و آله و سلّم) لم تكـن نفساً مستعدّة لتحمّل الوحي على حدٍّ،همّ أن يقتل نفسـه بالإلقاء من حالق، و هل هذا هو إلاّ نفس الجنون الذي كان المشركون يصفونه به طيلة بعثته، فواعجباً نسمعه من أعوانه و أنصاره و من لسان زوجته.

٣ ـ إنّ قـول خديجـة لرسول الله(صلـّى الله عليه و آلـه و سلّم): كـلاّ و الله ما يخزيك الله أبداً، تعرب عن أنّها كانت أوثق إيماناً بنبوّته من نفس الرسول. فهل يمكن التفوّه بـذلك، و مـا حاجـة النبي الأعظـم الذي قـال تعالـى في حقـّه: **﴿وَ عَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَ كَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيماً﴾**(النساء/ ١١٣) إلى هذا التسلّي؟

و هل يصحّ و يتعقّل للنبيّ أن يشكّ في رسالة نفسـه حتى يستفتي زوجته فيزول شكّه بتصديقها؟

٤ ـ ذكر البخاري: انّ خـديجة انطلقت مع رسول الله إلى ورقـة، فأخبره رسول الله بما وقع، فأجاب ورقة بما ذكره، و انّ ما نـزل عليه هو الناموس الذي نزّله الله على موسى.

و معنى هذا أن يكـون ورقة أعلم بالسرّ المودع في قلب رسـول الله من نفسه، كما أنّ معنى ذلـك انّ كلاًّ من الزوجين كـانا شاكّين فـي صحّة الرسالة، فـانطلقا إلى متنصّر قرأ وريقات من العهدين حتى يستفتياه ليزيل عنهما حجاب الشكّ و غشاوة الريب.

٥ ـ إنّ معنى ما ذكره البخاري من أنّ ورقة أخبـر النبي بأنّه: يسخرمنك قومك، و تعجّب الرسول من هذا الكلام و قال: أوَمخرجي هم؟ كون المـرسل إليه أعلم من الرسول و أفضل منه.

٦ ـ إنّ ما ذكـره ابن هشام من «انّ الرسـول كلّما رفع رأسه إلى السمـاء لينظر ما رأى إلاّ رجلاً صافّاً قدميـه في أُفق السماء، فلاينظر في ناحيـة من السماء إلاّ رآه فيها» يشبه كلام المصابين في عقولهم و شعورهـم، و المختلّين في أفكارهم، فلايرون في

كل جهة إلاّ الصـورة المتخيّلة، لطغيانهـا على مخيّلتهم و شعـورهم، أعاذنـا الله من إكالة الشنائع بمقام النبوّة، بنحـو لايليق بساحة العاديين من النـاس فضلاً عن النبي الأكرم خاتم النبّيين.

٧ ـ انظر إلى امتحان خديجة لبرهان النبوّة فإنّ ظاهرها أنّها كانت شاكّة في نبوّة زوجها، و لكنّهـا استحصلت اليقيـن على الـوجه الـذي سمعته فـي كلام ابـن هشام والطبري، و لكن أي صلة بين رفع الخمار و إلقائه و عـدم رؤية جبرئيل، و هل لرفع الخمار و تعرية شعر الرأس تأثير في غياب أمين الوحي عن البيت؟

نرى أنّه سبحـانه ينقل في غير سورة مـن سور القرآن الكريم مكالمـة الملائكة زوجة الخليل و تبشيرهـا بالولد. فهل يمكن لنا أن نقول بعـد ذلك: إنّ زوجة الخليل لو كانت مكشوفة الرأس لامتنعت الملائكة من دخول بيت الخليل(عليه السلام)[1].

٨ ـ إنّ ورقة بن نوفل على حدّ تصريح نصّ الرواية كان بادى بدئه نصرانياً بعد ما كان مشـركاً، فمقتضـى الحال أن يشبـّه الرسول الأعظـم بالمسيـح الذي كـان يعتقد بنبوّته، لابالكليم. أو ليس هذا يعرب عن لعب يد الأحبار في الخفاء في اصطناع هذه الأحاديـث و دورهم في تشويـش صفاء رسالـة الرسول الأعظـم بأمثال هذه الأسـاطير والمهاترات و الخرافات؟

٩ ـ نحن على ثقة و يقين بأنّ النبوّة منصب إلهي لايتحمّله إلاّ الأمثل و الأكمل فالأكمل مـن الناس، و لايقوم بأعباءمهامّهـا إلاّ من امتلك قدرة روحيّة خـاصّة تبعث في نفسـه الإذعان و التسليـم، و الانقياد حينمـا يتمثّل لـه رسول ربـّه و أمين وحيـه، فلاتـأخذه المسكنة و لايستولـي عليه الخوف عند سمـاع كلامه و وحيه، و قـددرسنا وضع الكليم عنـدما فوجئ بالوحـي فما حاق به الروع و لاأحاط بـه الخوف، و لاهمّ بإلقاء نفسه... إلى غيـر ذلك ممّا ورد في هذه الروايات، و بما أنّ القـرآن هو المرجع الفصل في تمييز الصحيـح من الزائف في جملة هذه الروايـات، يحتّم علينا إعراض

---

(١) لاحظ هود/ ٧١ـ٧٣، الذاريات/ ٢٩.

الصفح عنها، و ضربها عرض الجدار، مضافاً إلى ما فيها من التناقض و الاختلاف في حكاية القصّة كما هو معلوم لمن تدبّر فيها و تأمّل نصّها.

فرية انقطاع الوحي و فتوره

وقفت على ما في الروايات السابقة من الوضع و الدسّ بهدف تشويه صفاء صورة رسالة النبي الأكرم فهلمّ معي نتناول فرية أُخرىٰ حيكت على المنوال السابق، و للغاية نفسها، و هي مسألة انقطاع الوحي بعد نزول آيات من سورة العلق، أو سورة المدّثّر، أو سورة الحمد على اختلاف في أوّل سورة نزلت على رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) و قدحازت هذه الفرية على نصيب من الإهتمام و التقدير في كتب السيرة و التفسير حتى إنّ الدكتور محمد حسين هيكل، أرسلها إرسال المسلّمات في كتابه بقوله: «انتظر هداية الوحي إيّاه في أمره، و إنارة سبيله، فإذا الوحي يفتر، و إذا جبرئيل لاينزل عليه، ... إلى أن قال: و قد روي أنّ خديجة قالت له: ما أرىٰ ربّك إلاّ قدقلاك، و تولاّه الخوف و الوجل، فهما يبعثانه من جديد، يطوي الجبال و ينقطع في حراء يرتفع بكل نفسه ابتغاء وجه ربّه، يسأله: لم قلاه بعد أن اصطفاه، و لم تكن خديجة بأقلّ منه إشفاقاً و وجلاً.و يتمنّى الموت صادقاً لولا أنّه كان يشعر بما أُمر به، فيرجع إلى نفسه، ثمّ إلى ربّه، و لقد قيل: إنّه فكّر في أن يلقي بنفسه من أعلى حراء أو أبي قبيس و أيّ خير في الحياة، و هذا أكبر عمله فيها يدوي و ينقضي، و انه لكذلك تساوره هذه المخاوف، إذ جاءه الوحي بعد طول فتوره إذ نزل عليه بقوله تعالى: ﴿وَ الضُّحَى * وَ اللَّيْلِ إِذَا سَجَى * مَاوَدَّعَكَ رَبُّكَ وَ مَا قَلَى * وَ لَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى * وَ لَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى * أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى * وَ وَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَى * وَ وَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى * فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَاتَقْهَرْ * وَ أَمَّا السَّائِلَ فَلَاتَنْهَرْ * وَ أَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾(سورة الضحى)[1].

هذا ما يذكره رجل مثقّف في القرن العشرين في حقّ النبي الأكرم، فما ظنّك

(١) حياة محمد(صلّى الله عليه و آله و سلّم) ص١٣٨.

بغيره ممّن سبقه من الذين يتعبّدون بالروايات و لايحيدون عن شاذّها و سقيمها قيد أنملةأو قدر شعرة، و أصل هذه الفرية يرجع إلى كتب السيرة و التفسير، و إليك ما يذكره واحد من أُولئك من أمثال الطبري حيث يصرّح في تفسيره بما نصّه:

١ ـ عن ابن زيد: إنّ هذه السورة نزلت على رسول الله تكذيباً من الله قريشاً في قيلهم لرسول الله لمّا أبطأ عليه الوحي: «قد ودّع محمداً ربّه و قلاه».

٢ ـ عن ابن عبدالله: لمّا أبطأ جبرئيل على رسول الله، فقالت امرأة من أهله أو من قومه: ودّع الشيطان محمداً، فأنزل الله عليه: ﴿**و الضحى** ... ـ إلى قوله ـ **ما ودّعك ربّك و ما قلى**﴾.

٣ ـ عن جندب البجلي: أبطأ جبرئيل على النبي حتّى قال المشركون ودّع محمداً ربّه، فأنزل الله: «و الضحى ...»، و عنه قالت امرأة لرسول الله: ما أرى صاحبك إلاّ قد أبطأ عنك، فنزلت هذه الآية.

و في رواية أُخرى عنه: ما أرى شيطانك إلاّ قدتركك.

٤ ـ عن عبدالله بن شدّاد: إنّ خديجة قالت للنبي: ما أرىٰ ربّك إلاّ قدقَلاك، فأنزل الله «والضحى».

٥ ـ و عن قتادة: إنّ جبرئيل أبطأ عليه بالوحي، فقال ناس من الناس: ما نرى صاحبك إلاّ قدقلاك فودّعك، فأنزل الله: ﴿**مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَ مَا قَلَى**﴾.

٦ ـ عن ضحّاك: مكث جبرئيل عن محمّد، فقال المشركون: قد ودّعه ربّه.

٧ ـ عن ابن عروة، عن أبيه قال: أبطأ جبرئيل على النبي، فجزع جزعاً شديداً، و قالت خديجة: أرىٰ ربّك قدقلاك، ممّا نرى من جزعك، قالت: فنزلت «و الضحى»[1].

يلاحظ على هذه الروايات و على فرية فترة انقطاع الوحي عدّة أُمور:

١ ـ إنّ هذه الروايات التي ملأت التفاسير و كتب السير، رويت عن أُناس

---

(١) تفسير الطبري ج ٣٠ ص١٤٨.

لايركن إليهم كقتادة و الضحّاك فإنّهما كانا يـأخذان تفسير القرآن عن أهل الكتاب[1]. وجلّها بل كلّها مرسلة غير مسندة إلى الرسول(صلّى الله عليه وآله وسلّم).

٢ ـ إنّها اختلفت في القائل الذي شَمِت برسول الله(صلّى الله عليه و آله وسلّم) بقوله: «ودّعك ربّك» فربّما يسند إلى امـرأة من أهله أو قومه و أُخرى إلى المشركين، و ثالثة إلى طائفة من الناس، و رابعة إلى زوجته خديجة.

إنّ نسبة هـذا القول إلى زوجتـه الطاهرة التـي آمنت به يـوم بعثته، و قدعـرفت فضائله و ملكاته النفسيّة عن كثب، بعيد جداً.

٣ ـ إنّها اختلفت في مدة الفترة. قال ابن جريج: احتبس عنه الوحي اثنى عشر يوماً، و قـال ابن عباس: خمسة عشر يومـاً، و قيل: خمسة و عشرين يـوماً، و قال مقاتل: أربعيـن يوماً[2]، و في فتـح الباري: انـّه كان ثـلاث سنين[3] كما فـي السيرة الحلبية و فيها أيضاً: إنّها كانت سنتين و نصفاً، و على قولٍ: سنتين، إلى غير ذلك من الأقوال المختلفة التي تحكي عن اضطراب في الرواية و النقل.

٤ ـ اختلفت الرواية في سبب الفترة و انقطـاع الوحي. فتارة زعموا أنّ سببها هو أنّ اليهود سألوا رسول الله عن مسائل ثـلاث: عن أصحاب الكهف و عن الروح و عن قصّة ذي القرنيـن، فقال(صلّى الله عليه و آله و سلـّم): سأخبركم غـداً و لم يستثنِ، فاحتبس عنه الوحي، فقال المشركون ما قالوا، فنزلت[4].

و أُخرى قالـوا: إنّ عثمان أهدى إليه عنقـود عنب، و قيل: عذق تمـر، فجاء سائل فـأعطاه، ثمّ اشتراه عثمـان بدرهم، فقدّمـه إليه(صلّى الله عليه و آلـه و سلّم)

---

(١) لاحظ آلاء الـرحمن فـي تفسير القـرآن، ج١، ص٤٦، يقول: إنّ الضحـّاك بن مـزاحم فقـد ضعّفه يحيى بن سعيد، و كان يروي عن ابن عباس، و أنكـر ملاقاته له حتى قيل: إنّه ما رآه قط، و أمّا قتادة فقد ذكروا: انّه مدلّس.

(٢) تفسير القرطبي ج٢٠ ص٩٢.

(٣) السيرة الحلبية ج١ ص ٢٦٢.

(٤) روح المعاني ج١٠ ص١٥٧، نقله عن جمع من المفسرين.

ثانياً، ثمّ عاد السائل فأعطى و هكذا ثلاث مرّات، فقال(صلّى الله عليه و آله و سلّم) ملاطفاً لاغضبان: أسائل أنت يا فلان أم تاجر؟ فتأخّر الوحي أيّاماً فاستوحش فنزلت.

و ثالثة: رووا عن ابن أبي شيبة في مسنده و الطبراني و ابن مردويه من حديث خولة، و كانت تخدم رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) انّ جرواً دخل تحت سرير رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) فمات و لم تشعر به، فمكث رسول الله أربعة أيّام لاينزل عليه الوحي، فقال: يا خولة! ما حدث في بيت رسول الله؟ جبرئيل لايأتيني! فقلت يا نبي الله ما أتى علينا يوم خير من هذا اليوم، فأخذ برده فلبسها وخرج، فقلت في نفسي لو هيّأت البيت و كنسته، فأهويت بالمكنسة تحت السرير فإذا بشيء ثقيل فلم أزل به حتى بدا لي الجرو ميّتاً، فأخذته بيدي فألقيته خلف الدار، فجاء النبي ترعد لحيته، و كان إذا نزل عليه الوحي أخذته الرعدة، فقال يا خولة دثّريني، فأنزل الله تعالى: ﴿و الضحى و الليل إذا سجى﴾[1].

و رابعة: انّ المسلمين قالوا: يا رسول الله مالك لاينزل عليك الوحي؟ فقال: وكيف ينزل عليّ و أنتم لاتنقّون رواجبكم، و في رواية: براجمكم، و لاتقصّون أظفاركم، و لاتأخذون من شواربكم، فنزل جبرئيل بهذه السورة، فقال النبي: ما جئت حتى اشتقت إليك، فقال جبرئيل: و أنا كنت أشدّ إليك شوقاً، و لكنّي عبد مأمور، ثمّ أنزل عليه: ﴿ وَ مَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾(مريم/ ٦٤)[2].

إنّ الإضطراب في أسباب فتور الوحي يعرب عن عدم صحّة الرواية.

أمّا الأوّل: فلو صحّ فيلزم كون زمان انقطاع الوحي في العام السابع من البعثة لأنّ قريشاً أرسلت النضر بن الحارث و ابن أبي معيط إلى أحبار اليهود يسألانهم عن النبي الأكرم، و قالا لهم: إنّكم أهل التوراة و قدجئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا، فقالت لهم أحبار اليهود: سلوهُ عن ثلاث نأمركم بهنّ، فجاءوا إلى رسول الله، وقالوا: يا محمّد أخبرنا عن فتية ذهبوا في الدهر الأوّل، قد كانت لهم قصّة عجب،

---

(١) روح المعاني ج١٠ ص١٥٧.

(٢) تفسير القرطبي ج٢٠ ص٩٣، و مجمع البيان ج١٠ ص٥٥(طبع صيدا).

و عن رجل كـان طوّافاً قدبلغ مشارق الأرض و مغـاربها، و أخبرنا عن الـروح ما هي؟ فقـال لهم رسـول الله(صلّـى الله عليه و آلـه و سلّم): أخبـركـم بما سـألتـم عنه غـداً ولـم يستثن، فانصرفوا عنه[1].

نحن ننـزّه ساحة النبـي الأكرم الذي نشأ نشـأة الأنبياء في عـالـم مليئ بـالطهر و القداسة، أن يخبرهم على وجه قاطع بأنّه سيجيبهم غداً على أسئلتهم تلك فمن أين علم أنّه سبحانه ينزل الوحي عليه غداً؟ أو أنّه سبحانه يجيـب عن أسئلتهم عن طريق الوحي؟

و أمّا الثاني: فهو أشبه بالقصـص الموضوعة، فهل من المعتـاد أن يباع عنقود عنب ثـلاث مرّات فـي السوق، و مثلـه عذق تمر؟ و لعـلّ الجاعـل كان يهـدف إلى إختلاق الفضائل لعثمان فحسب أنّ هذا الموضع مناسب له.

و أمّا الثالث: فبعيد جدّاً، إذ كيف يمكن أن يموت الجرو تحت سرير النبي أو في زاوية مـن البيت و لايلتفت إليه؟ على أنّ ظاهـر الرواية أنّ انقطاع الوحـي كان بعد تلقّي النبي نـزول الوحي مدّة مديدة حيث إنّ خـولة قالت: «و كان إذا نزل عليه الوحي أخذته الرعدة» فإنّ ذلك يعرب عن أنّ الحادثـة كانت في أزمنة متأخّرة من بدء البعثة، مع أنّ المشهور انّهاكانت في بدء البعثة ـ أي بعد نزول سورة العلق أو آيات منها ـ.

و أمّا الـرابع: فهـو أشبه بحمـل النبـي وزر الغير، فـإنّ عـدم قصّ المسلميـن شواربهـم، أو عدم تنظيف رواجبهـم لايكون سبباً لانقطـاع الوحي، قال سبحـانه: ﴿وَ لاَتَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾(الأنعام/ ١٦٤).

هذه الوجوه كلّهـا تدفع بنا إلى القول: بـأنّ مسألة انقطاع الوحي فـرية تاريخيّة صنعتها يد الجعل و الوضع لغاية أو غايـات خاصّة، و لـم يكن هناك أيّة فترة، و إنّما المسألة كانت بصورة أُخرى:

---

(١) السيرة النبويّة لإبن هشام ج١، ص ٣٠١.

هي أنّه تعلّقت مشيئته سبحانه على نزول الوحي نجوماً ـ أي فترة بعد فترة ـ حسب المقتضيات و الأسباب الموجبة لنزوله أوّلاً، و تثبيت فؤاد النبي بذلك ثانياً، قال سبحانه مشيراً إلى مشيئته الحكيمة:

﴿وَ قُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَ نَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً﴾(الأسراء/ ١٠٦).
و قال سبحانه مشيراً إلى أنّ من بواعث نزول الوحي تدريجيّاً كونه سبباً لتثبيت فؤاده: ﴿ وَ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيهِ القُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَ رَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾(الفرقان/ ٣٢) فعلى ضوء ذلك لم يكن هناك إلاّ مسألة طبيعية على صعيد الوحي و هو نزوله تدريجيّاً لادفعة واحدة، غير أنّ المشركين الجاهلين بمشيئته سبحانه و أسرار نزول الوحي تدريجيّاً، كانوا يترقّبون نزول الوحي عليه دوماً و في كل يوم و ساعة، أو نزول مجموع الشريعة دفعة واحدة كما نزلت التوراة على موسى. قال سبحانه: ﴿وَ كَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَ تَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُورِيكُمْ دَارَ الفَاسِقِينَ﴾(الأعراف/ ١٤٥). فلمّا شاهدوا خلاف ما كانوا يترقّبونه من مدّعي النبوّة انصرفوا إلى اتّهام النبي بأنّه ودّعه ربّه الذي ينزّل عليه الوحي أو الشيطان الذي يلهمه على حدّ تعبيرهم.

فحصيلة البحث: انّه لم يكن هناك انقطاع و لافتور و لاسبب من الأسباب المذكورة في الروايات بل كان مجرّد توهّم توهّموه.

ثُمّ إنّ المعروف بين المفسّرين أنّ سورة الضحى حسب الترتيب النزولي، السورة الحادية عشرة، و كانت الأُولى هي العلق، فالقلم، فالمزّمّل، فالمدّثّر، فلهب، فالتكوير، فالأعلى، فالإنشراح، فالعصر، فالفجر، فالضحى[1].

و الظاهر ممّن ينقل مسألة انقطاع الوحي و فتوره أنّها نزلت في بدء الوحي بعد انقطاعه أي نزل بعد العلق أو بعد المدّثّر مع أنّها نزلت متأخّرة، و كان الوحي ينزل على النبي تترى حسب مقتضيات الظروف و المناسبات و الوقائع و الأحداث.

---

(١) تاريخ القرآن للزنجاني ص٣٦.

نعم ذكر اليعقوبي أنّ سورة«الضحى» هي السورة الثالثة، و لعلّه متفرّد في ذلك القول[1].

مراحل الدعوة الثلاث

نزل الأمين جبرئيل مبشّراً النبي الأكرم بالنبوّة و الرسالة، و ألقى على عاتقه مقاليد مهامّها هداية الأُمّة، التي يصوّرها قوله سبحانه: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾(المزّمّل/ ٥).

و قوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا المدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ * وَ رَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾(المدّثّر/ ١ ـ ٣) و أيّ مسؤولية أثقل من مسؤولية هداية الأُمّة الغارقة في ظلمات الجهل و أوحال عبادة الأصنام و الأوثان، المنغمسة في الدنيا، المعرضة عن الآخرة، فقام الرسول مؤدّياً رسالته مستضيئاً بهدى الوحي قدقطعت رسالته مراحل ثلاث حتّى تكلّلت بالنجاح و بلغت الغاية المنشودة، و إليك تبيين هذه المراحل التي أشار إليها القرآن الكريم في مواضع متفرّقة.

المرحلة الأُولى: السرّية في الدعوة

إتّخذ الرسول الدعوة السرّية خطوة أُولى خطاها في سبيل تحقيق إنجاح الدعوة الإلهيّة، و لم يكن الغرض من التركيز على السرّيّة في الدعوة الخوف على نفسه و صيانتها من كيد الأعداء، بل هذه هي الخطّة الرائجة بين الدعاة المخلصين، فلايجهرون بالدعوة، و لايعلنونها بادئ بدء، بل يبدأون بعرض الدعوة سرّاً على الأفراد الذين يطمئنّون لهم ـ و لأجل ذلك ـ بدأ الرسول(صلّى الله عليه و آله و سلّم) بالدعوة السرّية إلى الاسلام فدخل تحتها عدّة من الشباب، فتعلّموا الفرائض و السنن سرّاً و كانوا يذهبون إلى شعاب مكّة فيقيمون الفرائض فيها.

---

(١) تاريخ اليعقوبي ج٢، ص٣٣.

وهذه الثلّة القليلة الّتي تشرّفت باعتناق الإسلام، هم الذين يعبّر عنهم القرآن الكريم بقوله: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾(الواقعة/ ١٠و١١)

فكان النبي الأكرم يعرض دعوته على من يتفرّس فيه علائم قبول الإسلام ولذلك لمّا هبط من غار حراء عرضه على زوجته خديجة وابن عمّه علي، وقد تمكّن الإسلام بذلك في قلوب عدّة سجّلت أسماؤهم في التاريخ[١] مثل زيد بن حارثة وعثمان بن مظعون وقدامة بن مظعون وغيرهم. يقول ابن هشام في تفسير قوله: ﴿وَأَمَّا بِنِعمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّث﴾ أي بما جاءك من الله من نعمته وكرامته، من النبوّة فحدّث أي اذكرها، فادع إليها، فجعل رسول الله يذكر ما أنعم الله به عليه وعلى العباد به من النبوّة سرّاً إلى من يطمئنّ إليه من أهله[٢].

وليس في الذكر الحكيم آية تكشف عن أحداث هذه المرحلة غير ما ذكرنا من الآيتين، فمن أراد التفصيل فيجب عليه أن يرجع إلى كتب السيرة النبويّة، ولنكتف ببعض ما جاء في المقام:

١ ـ روى ابن هشام عن ابن إسحاق أنّه ذكر بعض أهل العلم: انّ رسول الله كان إذا حضرت الصلاة خرج إلى شعاب مكّة وخرج معه علي بن أبي طالب مستخفياً من أبيه ومن جميع أعمامه وسائر قومه فإذا أمسيا رجعا ومكثا كذلك ما شاء الله أن يمكثا.... ثم أسلم زيد بن حارثة وكان أوّل ذكرٍ أسلم وصلّى بعد علي بن أبي طالب[٣].

٢ ـ روى الطبري عن جابر قال: بعث النبي يوم الاثنين وصلّى علي يوم الثلاثاء، وروي عن زيد بن أرقم قال: أوّل من أسلم مع رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) علي بن أبي طالب، ويقول علي: أنا عبد الله وأخو رسوله أنا الصّدّيق الأكبر

---

(١) السيرة النبوية ج١ ص ٢٤٧ـ٢٦٢.

(٢) السيرة النبويّة ج١ ص٢٤٣.

(٣) السيرة النبويّة ج١ ص٢٤٦.

لا يقولها بعدي إلاّ كاذب مفترٍ صلّيتُ مع رسول الله قبل الناس بسبع سنين[1].

ولعلّ بعض هذه السنين يرجع إلى ما قبل البعثة حيث إنّ الرسول كان يتعبّد لله سبحانه في غار حراء في كل سنة.

٣ ـ يقول ابن إسحاق: وكان أصحاب رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) إذا صلّوا ذهبوا في الشعاب فاستخْفوا بصلاتهم من قومهم، فبينا سعد بن أبي وقّاص في نفر من أصحاب رسول الله في شعب من شعاب مكّة إذ ظهر عليهم نفر من المشركين وهم يصلّون، فناكروهم، وعابوا عليهم ما يصنعون حتى قاتلوهم، فضرب سعد بن أبي وقّاص يومئذ رجلاً من المشركين بلَحى بعير، فشجَّه، فكان أوّل دم أهريق في الإسلام[2].

اتّخاذ النبي دار الأرقم مركزاً لنشر الدعوة.

كان النبي يؤدّي رسالته مستخفياً من قريش بمكّة ويعرض الإسلام لمن يطمئن إليه، وقد ألجأته الظروف إلى اتّخاذ بيت لتبليغ تعاليمه، وإقامة المؤمنين فيها فرائضهم، وقد وقع الإختيار على دار الأرقم بمكّة على الصفا[3] مركزاً لهذه المهمّة فدخل(صلّى الله عليه و آله سلّم) وأصحابه مستخفين فيها بعد وقوع الصدام بين سعد ابن أبي وقّاص وبعض المشركين، فكان(صلّى الله عليه و آله و سلّم) وأصحابه يقيمون الصلاة بها ويعبدون الله فيها إلى أن أمره الله تعالى بالإعلان عنها، فامتثل صادعاً بما أُمر، وقد اختلفت كلمة أصحاب السيرة في مدّة هذه المرحلة بين ثلاث سنين إلى خمس سنين، كما اختلفوا في مدّة اقامتهم في دار زيد بن الأرقم بين كونه

---

(١)تاريخ الطبري ج٢ ص٥٦، و فيه نصوص أُخرى على أنّه عليه السلام أوّل من آمن برسول الله.

(٢)السيرة النبويّة ج١، ص٢٦٢.

(٣)هي المعروفه الآن بدار الخيزران عند الصفا، اشتراها الخليفة المنصور و أعطاها ولده المهدي، ثمّ أعطاها المهدي للخيزران أُمّ ولديه: موسى الهادي و هارون الرشيد. لاحظ: السيرة الحلبيّة ج١، ص٢٨٣.

شهراً أو أزيد، كما اختلفت كلمتهم في عدد المؤمنين بالنبي في تلك المرحلة فقد أنهاه ابن هشام في سيرته معتمداً على سيرة ابن إسحاق بما يربو على خمسين بين رجل وامرأة وإن كان الأكثر هم الرجال،ولأجل أن يقف القارئ على هؤلاء الأشخاص وأسمائهم نستعرض ذكرهم إجمالاً على النحو التالي.

١ ـ خديجة بنت خويلد (زوجة النبي). ٢ ـ علي بن أبي طالب. ٣ ـ زيد بن حارثة. ٤ ـ أبو بكر. ٥ ـ عثمان بن عفّان. ٦ ـ عبد الرحمن بن عوف. ٧ ـ الزبير بن العوّام. ٨ ـ سعد بن أبي وقّاص. ٩ ـ طلحة بن عبيد الله. ١٠ ـ أبو عبيدة. ١١ ـ أبو سلمة. ١٢ ـ أرقم. ١٣ ـ قدامة بن مظعون. ١٤ ـ عبد الله بن مظعون. ١٥ـ عبيدة بن الحارث. ١٦ ـ سعيد بن زيد. ١٧ ـ امرأته (فاطمة بنت الخطاب). ١٨ ـ أسماء بنت أبي بكر. ١٩ ـ خباب بن الأرت. ٢٠ ـ عمير بن أبي وقاص. ٢١ـ عبد الله بن مسعود. ٢٢ ـ مسعود بن القارئ. ٢٣ ـ سليط بن عمرو. ٢٤ـ حاطب بن عمرو. ٢٥ ـ عيّاش بن أبي ربيعة. ٢٦ ـ أسماء بنت سلامة. ٢٧ـ خنيس بن حذافة. ٢٨ ـ عامر بن ربيعة. ٢٩ ـ عبد الله بن جحش. ٣٠ـ أبو أحمد بن جحش. ٣١ ـ جعفر بن أبي طالب. ٣٢ ـ أسماء بنت عميس. ٣٣ـ حاطب بن الحارث. ٣٤ ـ حطّاب بن الحارث ٣٥ ـ معمّر بن الحارث. ٣٦ـ سائب بن عثمان بن مظعون. ٣٧ ـ مطلب بن أزهر. ٣٨ ـ زوجته (رملة بنت أبي عوف). ٣٩ ـ نعيم بن عبد الله. ٤٠ ـ عامر بن فهيرة. ٤١ ـ خالد بن سعيد. ٤٢ـ أُميّة بنت خلف. ٤٣ ـ أبو حذيفة. ٤٤ ـ واقد بن عبد الله. ٤٥ ـ خالد بن بكير. ٤٦ـ عامر بن بكير. ٤٧ ـ عاقل بن بكير. ٤٨ ـ اياس بن بكير. ٤٩ ـ عمّار بن ياسر ٥٠ ـ صهيب بن سنان[1].

هذا ما ذكره ابن هشام، وقد ذكر في ثنايا كلامه ممّن آمن في تلك الفترة عائشة بنت أبي بكر، وهو غير صحيح جداً لأنّها ولدت في السنة الرابعة من البعثة، وقد عقد عليها النبي في شوال قبل الهجرة بثلاث سنين وهي بنت ست سنين، وبنى بها رسول

---

(١) السيرة النبويّة، ج١، ص٢٦٢.

الله وهي بنت تسع بالمدينة في شوال في السنة الأُولى من الهجرة، فكيف تكون من المؤمنات في المرحلة السرّية؟ [1].

أضف إلى ذلك انّ أبا ذر من السابقين إلى الإسلام وقد أخرج ابن سعد في الطبقات عن طريق أبي ذر، قال: كنت في الإسلام خامساً، وفي لفظ أبي عمرو وابن الاثير: «أسلم بعد أربعة»، وفي لفظ آخر يقال: «أسلم بعد ثلاثة»، ويقال: «بعد أربعة»، وفي لفظ الحاكم: «كنت رابع الإسلام أسلم قبلي ثلاثة نفر وأنا الرابع»، وفي لفظ أبي نعيم: «كنت رابع الإسلام، أسلم قبلي ثلاثة وأنا الرابع»، وفي لفظ المناوي: «أنا رابع الإسلام»، وفي لفظ ابن سعد من طريق ابن أبي وضّاح البصري: «كان إسلام أبي ذر رابعاً أو خامساً»[2].

وقد ذكر الشيخان في الصحيحين وابن سعد في طبقاته كيفيّة إسلامه ومن أراد فليرجع إليهما.

المرحلة الثانية: دعوة الأقربين

إجتازت الدعوة المحمّدية المرحلة السرّية إلى مرحلة ثانية بعد ما آمن به جماعة من قريش وغيرهم ودخل الناس في الإسلام آحاد من الرجال والنساء حتى فشا ذكر الإسلام بمكّة، فتحدّث به القريب والنائي، فعندئذٍ أمر سبحانه بدعوة الأقربين، بقوله: **﴿وَأَنْذر عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ * و اخفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتّبعَكَ مِنَ المُؤمِنِينَ * فَإِنْ عصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي برِيءٌ ممّا تعْمَلُونَ﴾ (الشعراء / ٢١٤ ـ ٢١٦).**

إنّ المعاجلة والمسارعة لدعوة العشيرة الأقربين قبل البدء بإعلان الدعوة العامّة يمكن أن يكون فيها سرّ إجتماعي وتوضيحه بما يلي:

---

(١) لاحظ: أعلام النساء ج٣ ص١١ نقلاً عن طبقات ابن سعد و سنن النسائي و صحيح البخاري و شرح الزرقاني على المواهب و السمط الثمين.

(٢) الغدير ج ٨ ص٣٠٨ ـ ٣٠٩.

أوّلاً: إنّ النبي الأكرم كان مطّلعاً على أنّ قومه سوف يجابهونه بالعنف والشدّة ويتآمرون للقضاء عليه قبل تمكّنه من تحقيق أُمنيته، فصيانة الدعوة من مكائد الأعداء مرهونة بوجود قوّة داخلية تحصّنها من غوائلهم ولا يمكن تصوّرها إلاّ في قومه وعشيرته من آل هاشم.

وثانياً: إنّ انقياد قومه وعشيرته لدعوته لدليل واضح على قداسته ونزاهته وصدق كلامه وانّهم ما رأوا منه إلا الصدق والصلاح طيلة أربعين سنة،فأجابوا دعوته وصدّقوا كلامه. فإنّ الإنسان مهما كان فطناً مهتمّاً بستر عيوبه وزلاّته لا يتمكّن من سترها عن بطانته وخاصّته، فإيمان البطانة وقبولهم دعوته دليل واضح على صفاء سريرته، فلأجل ذلك بدأ بدعوة العشيرة قبل إعلان الدعوة العامّة، وهذا بطبيعة الحال يكون مؤثّراً في إعداد الأرضية الصالحة لقبول المرحلة الأُخرى. وبعبارة ثانية: إنّ ضمان نجاح المصلحين في الدعوة العامّة يكمن في نجاحهم في دعوة اسرتهم، فلو افترضنا أنّ الداعي لم ينجح في دعوة اسرته، يكون حظّ نجاحه في الدعوة العامّة طفيفاً لأنّ رفض الأُسرة لدعوة المصلح وعدم إيمانها به، سوف يتّخذ ذريعة إلى تقوّل الآخرين وسخريتهم بأنّه لو كان الصادع محقّاً في كلامه فاسرته أولى بقبول دعوته.

وقد نقل المفسّرون وأهل السير في تفسير قوله سبحانه: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ كيفيّة دعوة الأُسرة، وإليك نصّ ما ذكره الطبري في تاريخه عن عليّ(عليه السلام): لمّا نزلت هذه الآية على رسول الله فقال لي: يا علي! إنّ الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين، فضقت بذلك ذرعاً و عرفت أنّي متى أبدأهم بهذا الأمر أرىٰ منهم ما أكره،فصمّمت عليه حتى جاءني جبرئيل، فقال: يا محمد إنّك إن لم تفعل ما تؤمر به يعذّبك ربّك، فاصنع لنا صاعاً من طعام و اجعل عليه رجل شاة و املأ لنا عِسّاً من لبن ثم اجمع لي بني عبد المطلب[1]، حتى أُكلّمهم و أُبلّغهم ما أُمرت به، ففعلت ما أمرني به ثمّ دعوتهم له و هم يومئذ أربعون رجلاً، يزيدون رجلاً أو ينقصونه، فيهم أعمامه أبوطالب و حمزة و العبّاس و أبولهب، فلمّا اجتمعوا إليه دعاني بالطعام الذي

---

(١)و في البداية و النهاية ج ٣ ص٤٠ «بني هاشم» و هو الأصح.

صنعت لهم، فجئت بـه، فلمّا وضعته تناول رسـول الله(صلّى الله عليه و آلـه و سلّم) حذية مـن اللحم فشقّها بأسنانه ثـمّ ألقاها في نواحـي الصفحة ثم قال: خذوا بـاسم الله، فأكل القوم حتى ما لهم بشيء حاجة و مـا منهم ليأكل ما قدّمت لجميعهم، ثمّ قال: اسق القوم، فجئتهم بذلك العس، فشـربوا منه حتى رووا منه جميعاً، و أيم الله إن كان الـرجل الـواحد منهم ليشـرب مثله، فلمّا أراد رسـول الله(صلّى الله عليـه و آله و سلّم) أن يكلّمهـم بدره أبولهب إلـى الكلام فقال: لقـد سحركم صاحبكـم، فتفرّق القوم و لم يكلّمهم رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم)، فقال في الغد: يا علي إنّ هذا الرجـل سبقني إلى ما قدسمعت مـن القول فتفرّق القوم قبل أن أُكلّمهـم، فعد لنا بمثل ما صنعت ثمّ اجمعهم ـ إلى أن قال ـ: ففعلت، ثمّ جمعتهم ثمّ دعاني بالطعام فقرّبتـه لهم، ففعل كما فعـل بالأمس، فأكلـوا حتى ما لهـم بشيء حاجة، ثـمّ قال: اسقهـم، فجئتهم بـذلك العـس، فشـربوا حتـى رووا منـه جميعاً، ثـمّ تكلّم رسـول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) فقال: يا بني عبـد المطلب إنّي والله ما أعلم شابّاً في العرب جـاء قومـه بأفضل ممـّا قدجئتكـم به، إنـّي قدجئتكم بخيـر الدنيـا و الآخرة، و قد أمرني الله تعالى أن أدعوكم إليه فأيّكـم يوازرني على هذا الأمر على أن يكون أخي و وصيّي و خليفتي فيكم؟ قـال: فأحجم القوم عنها جميعاً، و قلـتـو إنّي لأحدثهم سنّاً و أرمصهم عيناً و أعظمهم بطناً و أحمشهم ساقاً-:أنا يا نبيّ الله أكون وزيرك عليه؟ فأخذ بـرقبتي ثمّ قال: إنّ هذا أخـي و وصيّي و خليفتي فيكم فاسمعـوا له و أطيعوا، قال: فقام القوم يضحكون و يقولون لأبي طالـب: قدأمرك أن تسمع لابنك و تطيع[1].

هذا هو النصّ الذي رواه الطبري حول حادثـة بدء الدعوة و قد ذكره غيره، فمن أراد الوقوف على مصادر الحديث فليرجع إلى كتاب الغدير[2].

إنّ الحديث يستفاد منه أُمور عن تاريخ بدء الدعوة نشير إليها بالنقاط التالية:

١ ـ إنّ الخلافة تتمشّى مع النبوّة جنباً إلى جنب و إنّهما لايفترقان أبداً لأنّ النبيّ يوم صـدع بالـرسالة أعلـن خلافة علـيّ(عليه السـلام) و كانت الخـلافة تعـدّ إكمالاً

(١)تاريخ الطبري ج١ ص٦٣.

(٢)الغدير ج٢ ص٢٧٨_٢٨٤.

لوظائف الرسالة و إنّ الخليفة يقوم بتكميل وظائف النبي حيث يبيّن ما أجمله و يفصّل ما أوجزه.

٢ ـ إنّ عليّاً في ذاك اليوم و إن كان صغيراً لايتجاوز عمره الحلم لكنّه كان في القوّة و المقدرة على حدّ قام بتضييف مجموعة كبيرة تربو على أربعين نفراً فقد صنع لهم طعاماً و دعاهم إلى الضيافة، و هذا العمل كما يكشف عن مرحلة من النضوج البدني يكشف عن تفتّح عقله و شعوره حيث قام بأمر لايقوم بأعبائه إلاّ الرجال الكبار.

٣ ـ إنّ الطبري في تاريخه نقل القصّة كما مرّ و لكنّه جنى على الحقيقة في تفسيره، فذكر القصة و لكنّه عندما وصل إلى قوله(صلّى الله عليه و آله و سلّم): فأيّكم يوازرني على هذا الأمر على أن يكون أخي و وصيّي و خليفتي حرّفه و جاء مكانه بقوله: «فأيّكم يوازرني على هذا الأمر على أن يكون أخي و كذا و كذا»[1].

فما معنى هذا التحريف أهكذا تصان الأمانة التاريخية و يتحفّظ في نقل الحديث؟!

و إن تعجب فعجب عمل ابن كثير فإنّه وضع تاريخه على غرار تاريخ الطبري حذو النعل بالنعل، و لكنّه لمّا وصل إلى هذا المقام من تاريخه أعرض عن نقل نصّ الطبري في تاريخه و اعتمد على النصّ الذي ذكره الطبري في تفسيره، و ما هذا إلاّ لأنّه رآه دليلاً قاطعاً على خلافة علي و وصايته، و أعجب منه عمل محمد حسين هيكل في تاريخه فإنّه ارتكب جناية مفضوحة و أثبت الحديث في الطبعة الأُولى من كتابه و اكتفى منه بسؤال النبي بقوله: «فأيّكم يوازرني على هذا الأمر على أن يكون أخي و وصيّي و خليفتي فيكم» و أغفل ذكر جواب النبي لعلي عندما قام، و لم يذكر منه شيئاً، لكنّه في الطبعة الثانية أسقط جميع ما يرجع إلى أمير المؤمنين من كلام

---

(١) تفسير الطبري ج١٩ ص٧٤، و قد رواه العلاّمة الأميني في غديره: ٢/ ٢٧٩ـ٢٨٤.
و العلاّمة السيد جعفر مرتضى في كتابه: الصحيح من سيرة النبي ج٢ ص١٢ عن مصادر كثيرة تعرب عن تضافر الرواية و تواترها.

النبي[1].

۴ ـ إنّ ابن تيميّة لمّا رأى دلالة الحديث على خلافة الإمام علي(عليه السلام) عكف على المناقشة في سند الحديث، و انّه يشتمل في رواية الطبري على أبي مريم الكوفي، و هو مجمع على تركه، و قال أحمد: ليس بثقة، و اتّهمه ابن المديني بوضع الحديث[2].

و لكنّه ترك توثيق الآخرين لأبي مريم، فقد قال ابن عدي: سمعت ابن عقدة يثني على أبي مريم و يطريه و تجاوز الحدّ في مدحه،و اثنى عليه شعبة، و قال الذهبي: كان ذا اعتناء بالعلم و بالرجال[3].

و أظنّ إنّ تضعيف الرجل لغاية تشيّعه و حبّه للوصي، فإنّ التشيّع بالمعنى العام(من يحب علياً و يبغض أعدائه الذين خرجوا عليه في حروبه الثلاثة) أحد المضعّفات عند القوم، و مع ذلك فقد روى الشيخان في صحيحيهما عن الشيعة كثيراً، و قد قام العلاّمة السيد عبد الحسين شرف الدين بوضع قائمة لأسماء، من روى عنهم الشيخان و غيرهما في صحيحيهما من الشيعة[4].

على أنّ أحمد قد روى الحديث بسند آخر وجميع رجاله رجال صحاح بلاكلام، و هم عفّان بن مسلم، عن أبي عوانه، عن عثمان بن المغيرة، عن أبي صادق(مسلم الكوفي)، عن ربيعة بن ناجذ[5] و بهذا السند و المتن أخرجه الطبري في تاريخه و غيره[6].

---

(۱)لاحظ حياة محمد(صلّى الله عليه و آله و سلّم) الطبعة الأُولى: ص۱۰۴ـ و الطبعات الأُخر: ص۱۴۲.

(۲)منهاج السنّة ج۴ ص۸۱.

(۳) الصحيح من سيرة النبي الأعظم ج۲ ص۱۴.

(۴)المراجعات: ص۴۲ـ۱۰۵، و ما جاء فيها يشكّل رسالة أسماها شيخ الأزهر سليم البشري: «أسناد الشيعة في أسناد السنة».

(۵) مسند أحمد ج۱ ص۱۵۹.

(۶) تاريخ الطبري ج۲ ص۶۳.

٥ ـ و هناك مناقشـات أو مشاغبات لابن تيميّة حول الحديث نبعـت من مَوقفه تجاه فضـائل الإمام أميـر المؤمنيـن، فإنـه يردّ كثيـراً من فضـائل علي(عليـه السلام) و يضعّفهاجزافاً و ممّا قال في حق الحديث:

«إنّ مجرّد الإجـابة للمعاونـة على هذا الأمر لايـوجب أن يكون المجيـب وصيّاً و خليفة بعـده، فإنّ جميـع المؤمنين أجـابوه إلـى الإسلام و أعانـوه على هـذا الأمر، و بذلوا أنفسهم و أموالهـم في سبيله، كما أنّه لو أجابه الأربعـون أو جماعة منهم فهل يمكن أن يكون الكل خليفة له؟»[1].

إنّ هذا الإشكال يرجع إلى أمرين:

الأوّل: إنّ مجرّد الإجـابة للمعـاونة لايلازم أن يكـون المجيب و صيـاً، و لكنّه غفلة عن التدبّر في الرواية،فإنّه لـم يجعل مطلق الإجابة دليلاً على كون المجيب وصيّاً حتى يقال: إنّ جميع المؤمنيـن أجابوا إلى الإسلام بل جعل الإجابـة من العشيرة فقط علّة للوصاية، فلايشمل المؤمنين الخارجين عن دائرة إطارهم.

الثاني: لو افترضنا انّ الكل أجابوه، فهل يكون الكل خليفة؟

و الجواب: انّ النبي الأكـرم كان مطّلعـاً على أنـه لايجيبه غيـر علي، لأنّهـم لم يكونوا مطّلعين علـى مبادئ رسالته، و خصوصيّات شريعته، فـلايبادرون بالإجابة بخلاف علـيّ(عليه السلام) فـإنّه قـدنشأ و تربـّى في أحضان النبـي و تغذّى بلبـانه، و قدصلّى مع النبي قبل الناس بسنين، فكان سبقه أمراً طبيعيّاً بالنسبة له.

إنّ كتـب السيرة تـذكر أنـه(صلـّى الله عليه و آلـه و سلـّم) خاطبهـم في هـذا الإجتماع بقوله: «إنّ الرائد لايكذب أهله، و الله لو كـذبت الناس جميعاً ما كذبتكم، و لو غررت الناس جميعاً ما غررتكم، و الله الـذي لا إله إلاّ هو، إنّي لرسول الله إليكم خاصّـة و إلى النـاس عامـّة، و الله لتموتنّ كمـا تنامـون، و لتبعثنّ كمـا تستيقظون، و لتحاسبنّ بما تعملون، و لتجزونّ بالإحسان إحساناً، و بالسوء سوءاً، فإنّهاالجنّة أبداً

---

(١) منهاج السنة: ص٨٣.

والنار أبداً. يا بني عبد المطلب ما أعلم شاباً جاء قومه بأفضل ممّا جئتكم به إنّي قد جئتكم بخير الدنيا و الآخرة»، فتكلّم القوم كلاماً ليّناً غير أبي لهب، فإنّه قال: «يا بني عبد المطلب هذه و الله لسوأة خذوا على يديه.و امنعوه عن هذا الأمر بحبس أو غيره قبل أن يأخذ على يده غيركم، فإن التمسوه حينئذ ذلّلتم و إن منعتموه قتلتم»، فقالت أُختـه صفيّة عمّة رسول الله أمّ الزبير: «أي أخي! أيحسن بك خذلان ابن أخيك؟ فو الله ما زال العلماء يخبرون أنّه يخرج من ضئضئ(الأصل) عبد المطلب نبي فهو هو» قال أبولهب: «هذا و الله الباطل و الأماني، و كلام النساء في الحجال، فإذا قامت بطون قريش و قامت العرب معها بالكلاب فما قوّتنا بهم؟ فو الله ما نحن عندهم إلاّ أكلة رأس»، فقال أبوطالب: «و الله لنمنعنّه ما بقينا»[1].

و هل النبي خطب بهذه الخطبة في الدعوة الأُولى أو الثانية؟ فلو صحّت فهي بالدعوة الأُولى ألصق لما تضافر أنّ أبالهب لم يكن مدعوّاً في الدعوة الثانية، و يظهر من سيرة زيني دحلان أنّه خطب بها في الدعوة الأُولى،فلمّا أصبح رسول الله بعث إلى بني عبد المطلب فحضروا و كان فيهم أبولهب، فلمّا أخبرهم بما أنزل الله عليه، أسمعه أبولهب ما يكره و قال: تبّاً لك، ألهذا جمعتنا؟ و أخذ حجراً ليرمي به، وقال: ما رأيت أحداً جاء بني أبيه و قومه بأشرّ ممّا جئتهم به، فسكت رسول الله و لم يتكلّم في ذلك المجلس.

الدعوة العامة و كسح العراقيل الماثلة أمامه

كان للدعوة السريّة أوّلاً و دعوة الأُسرة ثانياً دور خاص في استقطاب لفيف من الناس و استمالة قلوب طائفة منهم إلى الإسلام، و قد أوجد هذا الإقبال أرضيةً صالحةً لمرحلة ثالثة من الدعوة و هي التي يصحّ وصفها بالدعوة العامّة، و كانت تهدف إلى توسيع نطاقها، فقام النبي الأكرم بها امتثالاً لقوله تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَ أَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾(الحجر/ ٩٤).

---

(١) سيرة زيني دحلان بهامش السيرة الحلبيّة ج١ ص١٩٤.

إنّ هذه الآية تناسب الدعوة العامّة بقرينة قوله : ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾(الحجر/ ٩٥).

نقل الطبري عن سعيد بن جبير أسماء المستهزئين برسول الله و هم خمسة : الوليدبن المغيرة، و العاص بن وائل، و أبو زمعة، و الحرث بن عيطلة، و الأسود بن قيس، و كلّهم هلكوا قبل بدر[١].

و قد حكى أصحاب السير خطبة النبي في بدء تلك المرحلة، قالوا :

١ ـ دعا النبي جميع قريش و هو قائم على الصفا و قال : إن أخبرتكم انّ خيلاً تخرج من صفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم أكنتم تكذّبوني؟ قالوا : و الله ما جرّبنا عليك كذباً، فقال : «يا معشر قريش انقذوا أنفسكم من النار فإنّي لاأغني عنكم من الله شيئاً إنّي لكم نذير مبين بين يدي عذاب شديد».

٢ ـ و في رواية : «إنّ مثلي و مثلكم كمثل رجل رأى العدو فانطلق يريد أهله أن يسبقوه إلى أهله فجعل يهتف : يا صباحاه! يا صباحاه! أتيتم أتيتم أنا النذير العريان[٢] الذي ظهر صدقه»[٣].

٣ ـ و في رواية : دعا قريشاً فخصّ و عمّ و قال يا بني كعب بن لؤي أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني مرّة بن كعب أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد شمس أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني زهرة أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار، يا فاطمة أنقذي نفسك من النار، يا صفيّة عمّة محمد أنقذي

---

(١) تفسير الطبري ج١٤ ص٤٩.

(٢) العريان : الذي أقبل عرياناً ينذر بالعدو. إنّه لايتّهم بخلاف الذي لم يجرّد فإنّه قد يتّهم والمعنى أنا النذير الذي لا اتّهم.

(٣) سيرة زيني دحلان، على هامش السيرة الحلبيّة ج١ ص١٩٤ـ ١٩٥، و البداية و النهاية ج٣ ص٣٨، و تاريخ الخميس ج١ ص٢٨٨.

نفسك من النار، فإنّي لاأملك لكم من الله شيئاً»[1].

ولو كان المراد من فـاطمة هي فاطمة بنت النبي فالـرواية بأجمعها أو خصوص هذه الجملة موضوعة لأنّها ولدت في السنة الخـامسة من الهجرة، وقد جاء في تاريخ الخميـس توصيفهـا بـ (بنـت محمـد) حيث قـال: «يـا صفيّة بنـت عبد المطلـب، يا فاطمة بنت محمد لا أغني عنكم من الله شيئاً، سلاني من مالي ما شئتم».

ولذلك احتمل زينـي دحلان أنّ فاطمة من خلط الرواة وانّما ذكـرت في حديث آخر وقع بالمدينة جاء فيه الزوجـات والبنات وقال لهن: «لا أغني عنكنّ من الله شيئاً» حثّاً لهنّ على صالح الأعمال.

(١) تـاريـخ الخميس ج١ ص٢٨٨، و سيـرة زينـي دحـلان علـى هـامش السيـرة الحلبيـة ج١ ص١٩٣.

(٦)

الإيـجابيـــات والسـلبيـــات

تجاه الدعوة المحمّدية

لم تكـن الدعوة المحمـّدية بـدعاً من الـرسالات السماويـّة، فقد واجهـت ما واجهته سائر الرسالات فحظيت بالقبول من بعض، بينما حاربتها الأكثرية الساحقة، شأنها شـأن ما سلفها من الـدعوات الإصلاحية حذو القـذة بالقذّة، ومن سَبـَر تاريخ الأنبياء وتـاريخ الدعوات الإصـلاحية بإمعان يقـف على أنّ النجاح لم يكـن حليفهم خصوصاً في الوهلـة الأُولى من دعوتهم بل كان الناس على مفـرق طريقين، فهم بين مؤمن بالدعوة ومصدّق لها ومستنفد طاقته في سبيلها ومضحّ بنفسه ونفيسه، ومكذّب عنـود يضع فـي طريـق دعوة المصلحيـن الموانـع والعراقيـل الكفيلة بصـدّهم عمـّا يطمحون إليه من الغايات المنشودة.

وكانـت هذه المجابهة والمحـاربة المستميتة مـع المصلحين وليدة حالـة من الجهل والإنحطاط الفكري والثقافي، وكلّما كان القـوم أبعد غوراً في تعصّبهم لآبائهم وأجدادهم ومـا كانوا يدينـون به من العقائد الشنيعـة والسخيفة كانت المكـافحة أشدّ والمنابذة أقوى.

ولمّا كانت الدعوة الإصلاحية سواء كانت سماوية أم أرضية، وضعية تؤدّي إلى تفويت مصالـح بعض الطبقات الخاصّة كالإقطاعييـن وذووا رؤوس الأموال الطائلة، لم تحـظ الدعوة في أغلـب صورها وحـالاتها بقبول الـرأي العام، وهذه هي الظـاهرة المألوفة غالباً، فترى أنّ المسيطرين علـى المجتمع في كافّة الأجيال و الأحقاب كانوا على طرف نقيض من الدعوة الإصلاحيـة، وكان التصويب بالإذعان والإيمان مختصّاً بالطبقة المحرومة المقهورة المستضعفة.

هذا هو جـون . اف . كندي الذي تربّع علـى منصّة الحكم بالـولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٦٠ م، بعـد أن انتخب رئيساً بالغالبية العظمى، فلقـد كان صاحب نظرة خاصّـة في الملوّنين الأمـريكيين، وكان بصدد اصـلاح حياتهم المليئة بـالبؤس والشقاء عن طريـق منحهم بعض الحقوق والحريات استلهاماً مـن الفطرة الإنسانية، ولكـن ما أن طلـع نجمه إلاّ وقـد أُغتيـل من جـانـب المتعصّبين العنصـريين بشكـل لم يعهد التاريخ له مثيل إلاّ القليل النـادر، فعلى الرغم من عظمة جهاز الاستخبارات الأمريكية وسطوتـه لم يعرف قاتله ولم يعثـر له على أثر أو خبر يذكـر، وكان التخطيط قد دبّر ليلاً.

وتصوّر لنـا هذه الظاهرة فـي محكية عن قـوم نوح بقوله تعـالى: ﴿**فَقَالَ المَلأُ الَّذِينَ كَفَـرُوا مِنْ قَوْمِهِ مـَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرَاً مِثْلَنا وَمَا نَـرَاكَ اتَّبَعَكَ إلاّ الَّذِينَ هـُمْ اَرَاذِلُنَا بادِيَ الرَّأْيِ وَما نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كاذِبِين**﴾ (هود/ ٢٧).

هـذه هي الظـاهرة الملمـوسة فـي حيـاة الأنبياء ومـا لاقوه فـي سبيل انجـاح دعوتهم، وعلـى ضوء ذلك فلا ينتابك العجـب عندما تلقي بنظرة خاطفـة على حياة الرسول(صلّى الله عليه و آله و سلّم) في بدء دعوته حيث كان الإيمان والانطواء تحت راية الرسـالة مختصّاً برجال أحـرار الفطرة أصفياء الطويـة لم يعم بريق زخـارف الدنيا وزينتها بصائرهم فلبّوا دعوة الرسول بصدر رحب.

إذا عرفت ذلك فلنركز على أمرين:

١ـ ما هي الدوافع الروحيّة الباعثة على مخالفة النّبي الأكرم؟

٢ـ ماذا كان ردود فعل لهذه الدوافع؟

الف: العراقيل و الموانع تجاه دعوة الرسول ﷺ

ظلّ النبي الأكرم في موطنه قرابة ثلاثة عشر عاماً ولم يكن النصر حليفه وما كان ذلك إلاّ نتيجة الموانع والعراقيل التي حيكت ضدّه، و إليك لمحة خاطفة عنها:

١ ـ إنّ الرسالة المحمدية كسائر الرسالات الإلهية كانت تهدف إلى انتشال المستضعفين من حضيض التخلّف المادي والمعنوي،والرقي بهم إلى حالة الإزدهار الحضاري، ومن المعلوم أنّ تلك الخطّة ما كانت تنسجم مع مطامع أصحاب السلطة والثروة الذين يسيطرون على المجتمع بسطوتهم وجبروتهم ويمتصّون دماء المحرومين بلا هوادة، يقول سبحانه:

﴿ وَلاَ تَطرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالغَدْوةِ والعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾(الأنعام/ ٥٢).

روى الثعلبي في تفسيره باسناده عن عبد الله بن مسعود، قال: مرّ الملأ من قريش على رسول الله وعنده صهيب وخباب وبلال وعمّار وغيرهم من ضعفاء المسلمين وقالوا: يا محمد! أرضيت بهؤلاء من قومك، أفنحن نكون تبعاً لهم، أهؤلاء الذين منّ الله عليهم؟ اطردهم عنك ولعلّك إن طردتهم اتّبعناك[1].

٢ ـ التعصّب المقيت لسيرة الآباء والأجداد أمر جبلي للبشر يتنامى في اطار حياتهم القبلية، وكانت دعوة النبي على خلاف سيرتهم ولذلك اهتمّوا بمكافحته ومنازعته قائلين: بأنّ دعوتك تضاد سيرة آبائنا، ولم يكتفوا بذلك حتى استدلّوا على صحّة سيرتهم بأنّه لولا مشيئة الله سبحانه لما عبد الآباء الأصنام والأوثان، يقول سبحانه حاكياً عنهم: **﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا عَبَدْنا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ**

---

(١) مجمع البيان ج٢ ص٣٠٥، طبع صيدا.

وَلا آباؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَىْءٍ كَذٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إلاَّ البَلاغُ المُبِينُ﴾ (النحل/ ٣٥)، وقال سبحانه: ﴿بَلْ قَالُوا إنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ﴾ (الزخرف/ ٢٢) ويظهر من غير واحد من الآيات أنّ تلك الظاهرة الروحية لم تزل تعرقل خطى الدعوة في أكثر الرسالات السماوية، قال سبحانه: ﴿وَكَذٰلِكَ مَا أرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إلّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إنـّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإنـّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ * قَالَ أوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ (الزخرف/ ٢٣و٢٤).

٣ ـ لقد كانت الأُمية والإنحطاط الثقافي متفشّية في شبه الجزيرة العربية آنذاك خصوصاً في أُمّ القرى وما حولها، فكانت العقلية الإنسانية التي تميّز الحق من الباطل والصالح من الفاسد متدهورة جدّاً. وهذا هو البلاذري يعكس لنا صورة هذا التدهور الثقافي بقوله في كتابه:

«دخل الإسلام وفي قريش سبعة عشر رجلاً كلّهم يكتب: عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب...» [1].

وقال ابن خلدون:

«إنّ عهد قريش بالكتابة والخط العربي لم يكن بعيداً بل كان حديثاً وقريباً بعهد الرسول وقد تعرّفوا عليها قبيل ظهور الإسلام» [2].

فإذا كان هذا مبلغ تعرّفهم على الكتابة والقراءة، فليكن هذا مقياساً لثقافتهم ومدى ازدهار قواهم العقلية.

٤ ـ ارتكزت الدعوة المحمّدية على دعامتين أصيلتين:

أ ـ اختصاص العبودية لله سبحانه ورفض عبادة غيره.

---

(١) فتوح البلدان: ص ٤٥٧.

(٢) مقدمة ابن خلدون: ص٣٤٨.

ب ـ الاعتقاد بيوم الحساب وأنّ وراء الحياة الدنيوية، حياة أُخرى تجزى فيها كل نفس بما عملت من خير وشر، وانّ الناس في ذلك اليوم على فئتين: فئة ضاحكة مستبشرة وفئة بائسة مكفهرّة، وانّ الظالمين والمتجاوزين سوف يحاسبون فيها أشدّ الحساب ودقيقه.

يقول سبحانه: ﴿ **فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ * يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِىءٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ * وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ * تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ * أُوْلٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ** ﴾(عبس/ ٣٣ ـ ٤٢).

ويقول عزّ اسمه في سورة أُخرى: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلٰكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ** ﴾(الحج/ ١ و٢).

كانت هذه النداءات الربّانيّة تبعث الرعب والهلع في قلوب المشركين، لأنّهم يجدون أنفسهم أمام عذاب أليم لا مناصّ منه ولا مفرّ عنه، وبما أنّهم كانوا يعانون من تبنّي هذه الفكرة بل من سماعها واحتمال صدقها، فجنحوا إلى إراحة أنفسهم من هذا العذاب الآجل بإنكار الدعوة وتكذيبها من الأساس.

إنّ هؤلاء الجناة كانوا معتادين أن ينحروا للأصنام طلباً لمحو سيئاتهم،ثم تتركهم في القتل والنهب وارتكاب الفحشاء وغيرها في مستقبل حياتهم، وأمّا الدعوة التي لاتقبل الرشوة والمهادنة وترفض القرابين والنحور فلا تحقّق أملهم ولا تلقي إليهم بالضوء الأخضر حتّى يقترفوا ما يشاءوا.

٥ ـ إنّ المترفين والملأ كانوا يكافحون دعوة الأنبياء وينابذونها والقرآن قد سجّل أعمالهم الإجرامية في غير واحد من الآيات، قال سبحانه: ﴿ **قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ** ﴾(الأعراف/ ٨٨).

ويقول سبحانه في حق المترفين: ﴿ وَمَا اَرْسَلْنا فِى قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إلاّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إنّا بِمَا اُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرونَ﴾(سبأ/ ٣٤).

إنّ طبيعة الترف وانبساط النعمة والعيش الرغيد تؤدّي إلى الجموح والطغيان والتغافل عن كل ما من شأنه أن يحول بينه وبين شهواته وميوله وغرائزه، يقول سبحانه: ﴿ إنَّ الإنسانَ لَيَطْغَىٰ * اَنْ رَآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾(العلق/ ٦و٧).

أين هذه الفكرة من طبيعة الشريعة السماوية التي تفرض على الإنسان الاعتدال في الشهوات وسلوك الجادة القويمة، فلا ينسفها من رأس ولا يرخي لها العنان.

فلأجل ذلك نرىٰ أنّ الملأ في عصر النبي(صلّى الله عليه و آله و سلّم) وأصحاب المجون والترف عارضوا النبي(صلّى الله عليه و آله و سلّم) وخالفوا لمّا رأوا أنّه يريد أن يضع حدوداً في طريق ميولهم والحيلولة دون اشباع نهم غرائزهم المستعرة، فلذلك قاموا بتكثيف الجهود في وجه الدعوة المحمّدية.

٦ ـ إنّ الحسد والتنافس والتنازع من العوامل التي تصطنع حجباً أمام البصائر فلا تتمكّن من رؤية الحقائق على ما هي عليه و مثله الكبر والغرور فيصدّان الإنسان عن رؤية الحقيقة بل يبعثان إلى اختلاق أعذار واهية للتنكّب عن قبول الحقّ والإذعان به، فنحن نرىٰ ذلك العامل في وجه الدعوة النبويّة حيث انّ قريشاً كانت تشعر بأنّ النبوّة مقام شامخ إلٰهي يستعقب عزّة الصادع بها وقومه على القبائل الأُخر، فكان ذلك رادعاً عن قبول عدّة من أكابر قريش الدعوة الإلهيّة قائلين: لماذا لم ينزل هذا القرآن على الوليد بن المغيرة وهو أحقّ به من النبي بزعمهم.

يقول سبحانه: ﴿ وَقالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذا القُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ القَرْيَتَيْنِ عَظِيم * اَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيْشَتَهُمْ فِى الحَياةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضَاً سُخْرِيّاً وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمّا يَجْمَعُونَ﴾(الزخرف/ ٣١و٣٢).

هذه هي الموانع التي اصطنعتها قريش في وجه الرسول(صلّى الله عليه و آله

و سلّم) للحيلولـة دون بلوغ أهدافه التـي كان يطمح لإقرارهـا وتثبيت أُسسها في بـرهة زمنية قياسية ، فكانت لهم ردود فعل مثبّطة نشير إليها .

قد وقفـت على الدوافـع الروحيـة الباعثة علـى مخالفة النبـي الأكرم غيـر أنّها تبلورت في الأُمور التالية :

١ ـ إكالة التهم للنبيّ(صلّى الله عليه و آله و سلّم) .

٢ ـ الاستنكار والاحتجاج بالأُمور الواهية .

٣ ـ الاقتراحات الباطلة كشروط لقبول الرسالة .

٤ ـ ايقاع الأذىٰ على النّبي(صلّى الله عليه و آله و سلّم) وأصحابه .

و إليـك بيان هـذه الأُمـور واحداً تلـو الآخـر حسبما يستفـاد مـن آيات القـرآن الكريم :

الف ـ اكالة التهم للنبيّ ﷺ

كان اسلوب تحطيم الشخصيات عن طريق إكالة التّهمْ إليهم أقدم حربة بيد الجهّال يطعنون بها على المصلحين، وقد استعملها مشركوا عصر الرسالة في بدء الدعوة ولم تكن الفرص تسنح لهم بقتله واغتياله، فحاولوا اغتيال شخصيّته ليسقطوه عن أعين الناس، فإنّ نجاح المصلح في نشر دعوته يكمن في اتّسامه بالقداسة والطهارة والعقلية الرزينة، فلو افتقد المصلح تلك ـ السمات عن طريق الاتّهام بما يضادها ـ ذهب سعيه أدراج الرياح وأصبحت جهوده سدىٰ، فلأجل ذلك اختارت قريش القيام بشن حرب نفسيّة ضروس لا هوادة فيها للحطّ من قيمته وكرامته والحيلولة دون نفوذ كلمته.

ولكنّهم مهما بذلوا من جهود لإنجاح مؤامراتهم لم تتجاوز تهمهم عن الكهانة والسحر والجنون وأشباهها لأنّ النّبي قد كان في الطهارة النفسيّة والأمانة المالية وسائر الصفات الكريمة على حدّ حال دون إلصاق تهم أُخرى به ككونه خائناً سارقاً قاتلاً غير عفيف، وهذا أحد الدلائل البارزة المشرقة على أنّه كان فوق التهم المشينة المزرية، وكانت حياته طيلة أربعين سنة مقرونة بالصلاح والفلاح والأمانة،ولو كانت هناك أرضية صالحة لتوصيف النبيّ بها، لما أمسكوا عنها.

نعم قام العدو باتّهامه بأُمور يشكل اثباتها كما يشكل نفيها عن المتهم، وهذه هي الطريقة المألوفة عند بني الشياطين لمس كرامة المصلحين حيث يشنّون عليهم بمثل هذه التّهم لغاية اسقاطهم عن أعين النّاس. يقول سبحانه: ﴿**كَذلِكَ مَا اَتى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إلاّ قَالُوا سَاحِرٌ اَوْ مَجْنُونٌ**﴾(الذاريات/ ٥٢).

هكذا كانت سيرة الأعداء في طرد المصلحين عن الساحة.

ثمّ إنّ التّهم الّتي حكاها القرآن عن لسان أعداء النبيّ تتلخّص في العناوين التالية:

١ ـ الكهانة: وهي في اللغة عبارة عن اتّصال الإنسان بالجن ليتلقّى منهم أنباء الماضين وأخبار اللاّحقين ومن خلالها يتمكّن من التنبّؤ بالمستقبل، يقول سبحانه مشيراً إلى تلك التّهمة وردّها: ﴿ وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ﴾(الحاقة/ ٤٢).

٢ ـ السحر: وهو قوّة نفسانيّة للساحر يقدر معها على إنجاز أُمور خارقة للعادة مموّهة، ومن تلك الأُمور التفريق بين المرء وزوجته والوالد وولده بل بين أفراد العائلة كافّة. قال سبحانه: ﴿ وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الكَافِرُونَ هَذا سَاحِرٌ كَذّابٌ﴾(ص/ ٤).

٣ ـ المسحورية: والمراد منه تأثّره بسحر الآخرين، وإنّ هناك ساحراً أو سحرة سحروا النبيّ و أثّروا فيه. يقول سبحانه حاكياً عن المشركين: ﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ إلاّ رَجُلاً مَسْحُوراً﴾(الفرقان/ ٨). ثمّ يردّه بقوله سبحانه: ﴿انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً﴾(الفرقان/ ٩) والمراد من قوله ﴿ضَرَبوا لَكَ الأَمْثَالَ﴾ أي وصفوك بالمسحورية، وقد اتّهم بنفس تلك التهمة النبيّ صالح. قال سبحانه حاكياً عن أعدائه: ﴿قَالُوا إِنَّما أَنْتَ مِنَ المُسَحَّرِينَ﴾(الشعراء/ ١٥٣) وممّا يجدر ذكره أنّ اتّهام النبيّ بالمسحورية ليست تهمة مستقلّة تغاير الجنون جوهراً بل هي نفس التهمة ولكنّها صيغت بلفظ أكثر أدباً، وهذه شيمة الدهاة حيث يمزجون السم بالعسل.

٤ ـ الجنون: ومفهومه غني عن البيان وقد مضىٰ أنّها تهمة شائعة تُلصق بالمصلحين من جانب خصومهم من غير فرق بين النبيّ وغيره، وبين نبيّنا وسائر الأنبياء كما عرفت[1]. قال سبحانه نقلاً عن المشركين: ﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾(الحجر/ ٦)، قال تعالى: ﴿ وَمَا صَاحِبُكُم

(١) الذاريات/ ٥٢

بِمَجْنُون﴾(التكوير/ ٢٢)، وقال عزّ من قائل: ﴿ فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكاهِنٍ وَلا مَجْنُون﴾(الطور/ ٢٩) والمبرّر لهم بوصفه بالجنون ومؤاخذتهم له، وقوفه لوحده في وجه الرأي العام المتمثّل في الشرك. والسذّج من النّاس يصفون من يتبنّىٰ الفكر الذي لا يوافقه عليه الرأي العام وهو يريد تطبيقه في المجتمع، بأنّه مجنون لا يعرف قدر نفسه ومنزلته وسوف يهدر دمه لا محالة.

ما أسخف هذه التهم إذ كيف يتّهمون من هو أرجحهم عقلاً وأبينهم قولاً منذ ترعرع إلى أن بلغ أشدّه بالجنون والكهانة مضافاً إلى ما في هذا من التناقض والاضطراب، فإنّ الكهنة كانوا من الطبقة العليا بين الناس يرجع إليهم القوم في المشاكل والمعضلات وأين هو من الجنون؟ فكيف جمعوا بين كونه كاهناً ومجنوناً؟

ولقد لمسنا ذلك في حياتنا القصيرة في مجتمعنا ورأينا كيف رمي رجال الإصلاح بنظائر هذه التهم وما ذلك إلاّ لأنّهم قاموا في وجه المستعمرين والناهبين لثروة أقطار العالم الإسلامي، فما كان نصيبهم جرّاء مقاومتهم تلك، إلاّ اتّهامهم بالجنون والتدهور العقلي، والغربة عن الواقع والحياة.

٥ ـ التعلّم من الغير: إنّ أعداء النبيّ من قريش وغيرهم وقفوا على مدى عظمة تعاليمه وسموّها، ولكن الحالة النفسية قد صدّتهم عن تصديق قوله والإذعان برسالته الإلهية وانتسابه إلى الوحي والسماء، فقاموا بتزوير آخر وهو أنّه مُعَلَّم، قد تلقّى تعاليمه من غيره. يقول سبحانه: ﴿ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ * ثُمَّ تَوَلَّوا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ﴾(الدخان/ ١٣و١٤).

وأمّا من هو المعلّم الذي كان قد علّم النبي وغذّاه بتلك المبادئ والقيم فلم يذكروه، ولكن اقتران هذه التهمة بتهمة الجنون يدلّ على أنّ المعلّم المزعوم هو الجن فهو عن طريق صلته بهم تلقّى رسالته عنهم ـ وبالتالي ـ أُصيب في عقله فصار معلّماً مجنوناً بزعمهم.

وهناك احتمال آخر وهو أنّه تلقّى مبادءه عن بشر آخر، وقد أُشير إليه في قوله

سبحانه: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾(النحل/ ١٠٣).

قال ابن عباس: قالت قريش: إنّما يعلّمه بلعام (و كان قينا بمكّة رومياً نصرانياً) و قال الضحّاك: أرادوا به سلمان الفارسي[١] قالوا إنّه يتعلّم القصص منه، و قال مجاهد و قتاده: أرادوا به عبداً لبني الحضرمي رومياً يقال له يعيش أو عائش صاحب كتاب، أسلم و حسن إسلامه، و قال عبد الله بن مسلم: كان غلامان في الجاهلية نصرانيّان من أهل عين التمر، اسم أحدهما يسار و اسم الآخر خير، كانا صيقلين يقرآن كتاباً لهما بلسانهم و كان رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) ربّما مرّ بهما و استمع لقراءتهما، فقالوا: إنّما يتعلّم منهما، ثم ألزمهم الله تعالى الحجّة و أكذبهم بأن قال: لسان الذي يضيفون إليه التعليم و يميلون إليه القول، أعجميّ لايفصح و لايتكلّم بالعربية، فكيف يتعلّم منه من هو في أعلى طبقات البيان؟ و هذا القرآن بلسان عربي مبين، فإذا كانت العرب تعجز عن الإتيان بمثله و هو بلغتهم فكيف يأتي الأعجمي بمثله؟[٢]

قال ابن هشام: قالوا: إنّما يعلّمه رجل باليمامة يقال له الرحمان و لن نؤمن به أبداً، فنزل قوله سبحانه: ﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِى أُمَّةٍ قَدْخَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِتَتْلُوَا عَلَيْهِمُ الَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَ هُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمٰنِ قُلْ هُوَ رَبِّى لاإِلٰهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ إِلَيْهِ مَتَابِ﴾(الرعد/ ٣٠)[٣]

روى ابن هشام: إنّ النضر بن الحارث كان إذا جلس رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) مجلساً، فدعا فيه إلى الله تعالى و تلا فيه القرآن، و حذّر فيه قريشاً ما أصاب الأُمم الخالية، خلّفه في مجلسه إذا قام، فحدّثهم عن رستم و اسفنديار و ملوك فارس ثم يقول: و الله ما محمد بأحسن حديثاً منّي و ما حديثه إلاّ أساطير

---

(١) كيف يقول ذلك مع أنّ سلمان أدرك النبي في مهجره، لا في موطنه.

(٢) مجمع البيان ج٣ ص٣٨٦.

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ج١ ص٣٣١.

الأوّلين، اكتتبها كما اكتتبتها، فأنزل الله فيه: ﴿وَ قَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً و أَصِيلاً * قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِى يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً﴾(الفرقان/ ٥و٦).

و نزل فيه: ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يَسْمَعُ آيَاتِ اللهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً كَأَن لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾(الجاثية/ ٧و٨)[1].

٦ ـ كذّاب: و ما وصفوه به إلاّ لأجل أنّه كان يكافح عقيدتهم و يقارع دينهم. قال سبحانه حاكياً عنهم تلك التهمة: ﴿وَ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَ قَالَ الكَافِرونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾(ص/ ٤).

فلماذا لايكون عندهم كذّاباً و قدرفض الآلهة المتعدّدة و جعلها إلهاً واحداً. قال سبحانه حاكياً عنهم: ﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلٰهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيءٌ عُجَابٌ﴾(ص/ ٥).

٧ ـ مفتر: و إنّما وصفوه به لأنّه ينسب تعاليمه إلى السماء. يقول سبحانه حاكياًعنهم: ﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لايَعْلَمُونَ﴾(النحل/ ١٠١) و يقول أيضاً: ﴿وَ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَ أَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ وَ قَدْجَاءُو ظُلْماً وَ زُوراً﴾(الفرقان/ ٤). و هذه الآية تعبّر عن أنّهم كانوا يتّهمونه بأنّ القرآن ليس من صنعه وحده بل هناك قوم أعانوه عليه، فربّما كانوا يفسّرونه بشكل آخر و هو انّ القرآن ليس شيئاً جديداً بل هي أساطير الأوّلين تملىٰ عليه بكرة و أصيلاً، كما قال سبحانه: ﴿وَ قَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَ أَصِيلاً﴾.

و قد أدحض الوحي هذه التهمة و كشف عن زيفها بأمرين:

الأوّل: لو صحّ قولكم إنّ هذا الكتاب من صنع محمد فنسبه إلى الوحي فأتوا بعشر سور مثله مفتريات، فإنّه لبشر مثلكم و أنتم بشر مثله. قال سبحانه:

---

(١) السيرة النبويّة لابن هشام: ١ ص٣٥٧.

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَ ادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللهِ وَ أَنْ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾(هود/ ١٣و١٤).

الثاني: كيف تقولون بأنّه استنسخ هذه الأساطير بإملاء الغير مع أنّه ما تلىٰ كتاباً، و لاخطّ صحيفة، فكيف تتّهمونه بالاستنساخ و الاستكتاب؟ قال سبحانه: ﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَ لاَتَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ * بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَ مَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الظَّالِمُونَ﴾(العنكبوت/ ٤٨و٤٩).

٨ ـ مفتر أو مجنون: ـ على ترديد بينهما ـ ربّما كان القوم يتردّدون في توصيف النبي بين كونه عاقلاً مفترياً على الله سبحانه أو مجنوناً معدم العقل و الشعور، و هذه شيمة الدهاة في استنقاص فضل الأشخاص حيث يكيلون التهم على مخالفيهم الأقوياء بلسان التردّد و عدم الجزم، لدفع نسبة شناعة التهمة عن أنفسهم كما يحكي عنهم سبحانه: ﴿افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً أَمْ بِهِ جِنَّةٌ﴾(سبأ/ ٨).

٩ ـ شاعر: إنّ القوم كانوا أُسود الفصاحة و فرسان البلاغة و قدأدركوا بفطرتهم سموّ القرآن و علوّ مرتبته في ذلك المجال، و من جانب كانوا في العداء و الحسد على مرتبة صدّتهم عن الاعتراف بكونه كتاباً منزّلاً من السماء، حاولوا أن يفسّروه بالشعر فوصفوه بالشاعر و قالوا: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾(الطور/ ٣٠) و حاصل هذه التهمة انّه شاعر و «أعذب الشعر أكذبه»، فلنصبر عليه و لنتربّص به صروف الدهر و أحداثه فسيكون حاله حال زهير و النابغة و أضرابهم ممّن انقرضوا و صاروا كأمس الدابر.

و قد ردّ سبحانه على تلك التهمة يأمر نبيّه بقوله: ﴿قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ * أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلاَمُهُمْ بِهٰذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ * أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لاَيُؤْمِنُونَ * فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾(الطور/ ٣١ـ٣٤).

إنّ الله سبحانه أمر النبي أن يتهدّدهم ويتوعّدهم بأُمور:

أ ـ ﴿قُلْ تَرَبَّصوا فَإِنّي مَعَكُمْ مِنَ المُتَرَبِّصِينَ﴾ : انتظروا وتمهّلوا في ريب المنون فإنّي متربّص معكم منتظر قضاء الله فيّ وفيكم وستعلمون لمن تكون حسن العاقبة والظفر في الدّنيا والآخرة.

ب ـ ﴿أَمْ تأْمُرُهُمْ أَحْلامُهُم بِهٰذا﴾؟ أي هل تأمرهم عقولهم بنشر هذه التّهمة، فإنّ التهم الثلاث لا تجتمع بحسب مدّعاهم في آن واحد، فإنّ المجنون من زال تعقّله و إدراكه، فكيف يقوىٰ على انشاء الشعر الرصين، وكيف يكون قوله حجّة في الإخبار عن المغيّبات؟.

وقصارى القول: إنّ هؤلاء المتحاملين كانوا قد فقدوا رشدهم فأخذوا يتخبّطون في تهمهم وكلامهم من دون وعي.

ج ـ ﴿اَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ : بل الحقّ، إنّ الذي حملهم على ما يقولون هو عنادهم وعتوّهم عن الحقّ وطغيانهم.

د ـ ﴿اَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ﴾ أي أنّ عقولهم لم تأمرهم بهذا ولم تدعهم إليه بل حملهم الطغيان على تكذيبك، ولأجل ذلك يقولون: افتعل القرآن من تلقاء نفسه.

هـ ـ ﴿بَلْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ أي قصارى القول: إنّهم لا يؤمنون ولا يصدّقون بذلك عناداً وحسداً واستكباراً، وإنّما هذه تهم اتّخذوها ذريعة إلى التمويه وستروا بها عداءهم وعنادهم.

و ـ ﴿فَلْيأتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ اِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ أي إن كان شاعراً فلديكم الشعراء الفصحاء، أو كاهناً فلديكم الكهّان الأذكياء، وإن كان قد تقوّله فلديكم الخطباء الّذين يحضرون الخطب ويجيدون إنشاء القول في كلّ فنون الكلام، فليأتوا بمثل هذا القرآن إن كانوا صادقين فيما يزعمون، فإنّ أسباب التحدّي بالقول متوفّرة لديكم كما هي متوفّرة لديه، بل فيكم من طالت مزاولته للخطب والأشعار وكثرة الممارسة لأساليب النظم والنثر وحفظ أيّام العرب ووقائعها أكثر من محمّد(صلّى الله عليه وآله

و سلّم)[1].

وقال سبحانه ردّاً على هذه الفرية: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾(يس/ ٦٩) فأين القرآن من الشعر وأين محمّد من الشعراء؟.

١٠ ـ **أضغاث أحلام**: والمراد منه تخاليط أحلام رآها في المنام، ويحكي عنهم سبحانه بقوله: ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ * قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ القَوْلَ فِي السَّماءِ وَ الأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ * بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَما أُرْسِلَ الأَوَّلُونَ﴾(الأنبياء/ ٣ ـ ٥).

بيّن سبحانه في هاتين الآيتين اقتسامهم القول في النبيّ، فقال بعضهم أخلاط أحلام قد رآها في النوم، وقال آخرون: بل اختلقه من تلقاء نفسه ونسبه إلى الله، وقال قوم: بل هو شاعر وما أتى به شعر، يخيّل إلى السامع معاني لا حقيقة لها، مضافاً إلى أنّهم استبعدوا أن يكون بشر مثلهم نبيّاً.

وهذا الإضطراب والتردّد في القول دأب المحجوج المغلوب على أمره، لايتردّد إلاّ بين باطل وأبطل ويتذبذب بين فاسد وأفسد منه.

فلو بنىٰ على تحليل القرآن بواحد من هذه الوجوه، فكونه سحراً ـ مع كونه فاسداً ـ أقرب من كونه أضغاث أحلام، فأين هذا النظم البديع من تخاليط الكلام التي لا تضبط؟ وادّعاء كونها مفتريات أبعد وأبعد، لأنّه(صلّى الله عليه و آله و سلّم) قد اشتهر بالأمانة والصدق، مضافاً إلى أنّهم أعرف النّاس بالفرق بين النظم والنثر، فكيف يصفونه بالشعر؟ كما أنّهم يفرّقون بين الغايات التي يصاغ له الشعر والغايات التي ينشدهاالقرآن كيف يتّهمونه بالشعر مع أنّهم يعلمون أنّه لم ينشد شعراً وما اجتمع بالشعراء ولا حام حوله مدىٰ أربعين سنة؟[2].

---

(١) تفسير المراغي: ج٢٥ ص٣٢.

(٢) تفسير المراغي: ج١٧ ص٧.

إنّ المتمعّن في أحوال النبيّ ينتهي من خلال هذه التهم إلى أنّه كان رجلاً صالحاً طاهراً ديّناً عفيفاً نقي الجيب مأموناً على المال والعرض والنفس، لم يدنّس نفسه بفاحشة ولم يتجاوز حقّ أحد قط بل كانت حياته حياة إنسان مثالي، فلأجل ذلك لم يجد الأعداء سبيلاً إلى رميه بهذه التهم، فحاولوا أن يتّهموه بأُمور نفسيّة يعسر إثباتها كما يعسر نفيها، وأمّا انّهم كيف اتّهموه بالسحر؟ فيقول ابن هشام:

«إنّ الوليد بن المغيرة اجتمع إليه نفر من قريش فقال: إنّه قد حضر الموسم، وإنّ وفود العرب ستقدم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فاجمعوا فيه رأياً واحداً، ولا تختلفوا فيكذّب بعضكم بعضاً، ويرد قولكم بعضه بعضاً، قالوا: فأنت يا أبا عبد شمس، فقل وأقم لنا رأياً نقول به، قال: بل أنتم فقولوا و أسمع، قالوا: نقول كاهن، قال: لا والله ما هو بكاهن، لقد رأينا الكهّان فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه، قالوا: فنقول مجنون، قال: ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون وعرفناه، فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته، قالوا فنقول: شاعر، قال: ما هو بشاعر، لقد عرفنا الشعر كلّه رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه، فما هو بالشعر، قالوا: فنقول ساحر، قال: ما هو بساحر، لقد رأينا السحّار وسحرهم، فما هو بنفثهم ولاعقدهم، قالوا: فما نقول يا أبا عبد شمس؟ قال: والله إنّ لقوله لحلاوة، وإنّ أصله لعذق، وإنّ فرعه لجناة، وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلاّ عرف أنّه باطل، وانّ أقرب القول فيه لأن تقولوا ساحر، جاء بقول هو سحر يفرّق بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجته، وبين المرء وعشيرته. فتفرّقوا عنه بذلك، فجعلوا يجلسون بسبل النّاس حين قدموا الموسم، لا يمرّ بهم أحد إلاّ حذّروه إيّاه، وذكروا لهم أمره. فأنزل الله تعالى في الوليد بن المغيرة في ذلك من قوله: ﴿ **ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً * وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُوداً * وَبَنِينَ شُهُوداً * وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيداً * ثمّ يَطمَعُ أَنْ أَزِيدَ * كَلاَّ إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيداً** ﴾ أي خصيماً ﴿ **سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً * إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّر * فَقُتِلَ كَيفَ قَدَّرَ * ثُمّ قُتِلَ كَيفَ قَدَّرَ * ثُمَّ نَظَرَ * ثُمّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ * فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلاّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ * إِنْ هَذَا إِلاّ قَوْلُ البَشَرِ** ﴾ (المدثّر/ ١١ـ٢٥).

وأنزل الله في النفر الذين كانوا يصنّفون القول في رسول الله وفيما جاء به من الله تعالى: ﴿كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ * الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ * فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(الحجر/ ٩٠ ـ ٩٣)[1].

* * *

(١) السيرة النبويّة لابن هشام: ج١ ص٢٧٠.

ب ـ الاستنكار والاحتجاج بالأُمور الواهية

قد اطّلعت على الظنون والشبهات التي نسجهـا القوم على نـول التّهم وعرفت إجابة القرآن عنها، فهلـمّ معي ندرس استنكارات القوم الباطلة التي جعلـوها سدّاً في وجه الإذعان بـرسالته، وهاتيك الإحتجاجـات وإن كانت قد صدرت مـن أفواه رجال طعنوا فـي السن ولكنّها أشبه شـيء بمنطق الّذيـن لا يعون ما يقـولونه وإليك سـردها واحدة واحدة:

١ ـ لماذا لم ينزل القرآن على رجل مُثْرٍ؟!

إنّ الوليـد بن المغيرة كـان رجلاً مثـرياً معروفـاً في مكّة ومثلـه عروة بـن مسعود الثقفي في الطائف، فكان من حججهم الواهية علـى النّبي أنّه لماذا لم ينزل ما تدّعيه من القرآن عليهمـا ونزل عليك؟ فهما مثريان وأنـت معوز فقير، فبما أنّ الرجليـن كانا عظيمي قومهمـا و من أصحاب الأموال الطائلـة في البلدين، فدخلـت الشبهة عليهم حتّـى اعتقدوا أنّ مـن كان كـذلك فهـو أولى بـالنبـوّة. قال سبحـانه حـاكياً عنهـم: **﴿لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾**(الزخرف/ ٣١) فهؤلاء وإن كانوا صادقين في أنّ شأن القـرآن أن ينزّل على من له مكانة مرموقة يمتـاز بها عن الآخرين، ولكنّهم أخطأوا في جعـل السموّ والعظمة في الثروة والمال لأنّ نزول الـوحي رهن كون المنزول عليـه رجلاً تقيـاً طاهـر النفس، صامـداً في تحمـّل أعباء الـرسالـة الإلهيّة، لايخاف من مواجهة الملك، ولايخفى عليك أنـّه لاصلة لهذه الشروط بالغنى والفقر، أو الثروة وخلو اليد، والقرآن يردّ على تلك الفرية بقوله: **﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ**

بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيّاً وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾(الزخرف/ ٣٢) والمعنى أنّهم لا يملكون النبوّة الّتي هي رحمة الله ولطفه الّذي يختصّ به من يشاء من عباده حتّى يمنعوك منها، فيعطوها من شاءوا، فهم عاجزون عن قسمة ما هو دون النبوّة بمراحل وهو معيشتهم في الحياة الدّنيا فنحن قسمناها بينهم، فكيف يتدخّلون فيما هو أرفع منزلة منها بما لا يقدّر قدره، ألا وهي النبوّة الّتي هي من شؤون الباري جلّ وعلا؟

٢ ـ الرسالة الإلهيّة فوق طاقة البشر

كان عرب الجاهليّة يزعمون: انّ الرسالة الإلهيّة فوق قدرة البشر وإنّما هي شؤون الملك، وإليه يشير قوله سبحانه: ﴿وَاَسَرُّوا النَّجوَىٰ الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذا اِلاّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾(الأنبياء/ ٣) وقال سبحانه: ﴿وَمَا مَنَعَ النّاسَ اَنْ يُؤْمِنُوا إذْ جاءَهُمُ الهُدىٰ اِلاّ اَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللهُ بَشَراً رَسُولاً﴾(الاسراء/ ٩٤) ويظهر من غير واحد من الآيات إنّ تلك الظاهرة الفكرية كانت تدور في أذهان أقوام نوح وثمود وعاد من قبل، حيث اعترضوا على رسلهم بأنّهم بشر مثلهم، قال سبحانه حاكياً عنهم: ﴿قَالُوا اِنْ اَنْتُمْ اِلاّ بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ اَنْ تَصُدُّونا عَمّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ * قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ اِنْ نَحْنُ اِلاّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾(إبراهيم/ ١٠و١١) ويلوح من بعض الآيات إنّ بعض اليهود المعاصرين للنبيّ الأكرم كانوا يتذرّعون بهذه الحجّة الواهية كما يحكي عنهم بقوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ اِذْ قَالُوا مَا اَنْزَلَ اللهُ عَلى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾ يقولون ذلك بصلافة ووقاحة في الوقت الذي كانوا يعتقدون بنبوّة موسىٰ وكتابه، وإليه يشير قوله سبحانه: ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الكِتَابَ الَّذِى جَاءَ بِهِ مُوسىٰ نُوراً وَ هُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَ تُخْفُونَ كَثِيراً﴾(الأنعام/ ٩١).

و القوم على جهل بسرّ لزوم كون الرسول بشراً لاملكاً، و لو كانوا على إحاطة به و منصفين في الحكم لما احتجّوا بمثل تلك الحجّة الواهية، إذ يترتّب على وجود المماثلة النوعية بين الرسول و المرسل إليه ما لا يترتّب على عدمها و ذلك لأمور:

أوّلاً: المسانخة و المماثلة أساس ترتكز عليه القيادة، فلو عدمت لانتفت الغاية المنشودة، فإنّ القائد إذا كان مشاكلاً للمقود يكون واقفاً على حدود طاقات المرسل إليهم و غرائزهم و طبائعهم و ميولهم، فيبادر إلى معالجة ما يعانونه من تخلّف و جهل و انحطاط كما يقوم بتنمية طاقاتهم و استعداداتهم في مجالي المادة و المعنى، إذ يحسّ منهم ما يحسّ من نفسه، فأين طبيعة الملك من فطرة الإنسان، فالملك مخلوق على نمط خاص لايحيد عنه فلايتمكّن من العصيان، و أمّا البشر فقد خلق مخيّراً بين الطاعة و المخالفة إن شاء امتثل و آمن، و إن شاء ارتدّ و كفر.

و بعبارة ثانية: إنّ الإنسان جبل على غرائز متضادّة سائدة عليه، ففيه الشهوة و الغضب و هما من الميول السفلية في كيان ذاته، كما فيه الميول العلوية التي تجرّه إلى الخير و الإحسان و التجافي عن الطبيعة و التوجّه إلى ماوراءها، فالإنسان المثالي هو من يقوم بتعديل تلك الفطريّات المتضادّة، و أمّا الملك فقد جبل على سلوك الخير و الطاعة، فلايقدر على الخلاف و العصيان، فهل يدرك هذا الموجود المفارق موقف الإنسان الذي خلق هلوعاً.

و ثانياً: إنّ القائد كما يهدي بكلامه و مقاله، يهدي بفعله و عمله، فهو قدوة في مجالي القول و العمل، و الدعوة بالفعل أرسخ في القلوب من الدعوة بالقول، و هذا يقتضي و جود السنخية بين الرسول و المرسل إليهم حتّى يكون الرسول في الغرائز الباعثة إلى الشرّ و العصيان، مثل المرسل إليهم في ذلك المجال، و بالتالي يكون سلوكه طريق الخير و الصلاح حجّة على المرسل إليهم، و لولا السنخية لما تمّت الحجّة و بقى مجال للاعتراض.

و إلى بعض ما ذكرنا يمكن أن يشير قوله سبحانه: «**وَ مَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلاَّ أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللهُ بَشَراً رَسُولاً * قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلاَئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكاً رَسُولاً**»(الاسراء/ ٩٤و٩٥) أي لو وجد

(١) نهج البلاغة: الكتاب رقم ٤٥.

في الأرض ملائكة يمشون كما يمشي البشر، و يقيمون فيها كما يقيم و يسهل الاجتماع بهم، و تتلقّي الشرائع منهم، لنزّلنا عليهم من السماء رسلاً من الملائكة للهداية و الإرشاد و تعليم الناس ما يجب عليهم تعلّمه، و لكن طبيعة الملك لاتصلح للاجتماع بالبشر، فلايسهل عليهم التخاطب و التفاهم معهم، لبعد ما بين الملك و بينهم، و من ثمّ لم نبعث ملائكة، بل بعثنا خواصّ البشر، لأنّ الله قد وهبهم نفوساً زكيّة، و أيّدهم بأرواح قدسية، و جعل لهم ناحية ملكية بها يستطيعون أن يتلقّوا من الملائكة، و ناحية بشرية بها يبلّغون رسالات ربّهم إلى عباده[1].

و قد نبّه سبحانه إلى عظيم هذه الحكمة و جليل تلك النعمة بقوله: ﴿**لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ ...**﴾(آل عمران/ ١٦٤) و قوله: ﴿**لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ**﴾(التوبة/ ١٢٨). و قوله: ﴿**كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَ يُزَكِّيكُمْ وَ يُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ يُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ**﴾(البقرة/ ١٥١) إلى غير ذلك من الآيات التي وقع التنصيص فيها بكون الرسول من جنس البشر.

٣ـ نبذ سنّة الآباء

التشبّث بسيرة الآباء من الأُمور الجبلية للبشر، خصوصاً فيمن يعيش في واحات الصحراء بعيداً عن الحضارة و أسبابها، فقد كان العرب متعصّبين على مسلك آبائهم تعصّباً حال بينهم و بين الإيمان بالرسول بحجّة انّه يدعوا إلى خلاف سيرة آبائهم، و في ذلك يقول سبحانه: ﴿**وَ إِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللهُ وَ إِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَايَعْلَمُونَ شَيْئاً وَ لَايَهْتَدُونَ**﴾(المائدة/ ١٠٤) وقدعرفت الكلام في ذلك عند البحث عن الدوافع الروحيّة التي منعتهم عن الإيمان إجمالاً.

---

(١) تفسير المراغي: ج١٥ ص٩٧.

و على ضوء ذلك كانوا يتعجّبون من جعل الآلهة المتعدّدة إلهاً واحداً، فقدكان للعرب أصنام منصوبة على سطح الكعبة، كاللات و العزّى و هبل، و يعكفون على عبادتها، فقال لهم النبي: يا معشر العرب، أدعوكم إلى عبادة الله، و خلع الأنداد والأصنام، و أدعوكم إلى شهادة أن لا إله إلاّ الله، فقالوا : أنَدَع ثلاثمائة و ستين إلٰهاً و نعبد إلهاً واحداً، و إليه الإشارة في قوله سبحانه: ﴿وَ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَ قَالَ الكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ * أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلٰهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾(ص/ ۴و۵)[1].

روى المفسّرون أنّ أشراف قريش و هم خمسة و عشرون منهم: الوليد بن المغيرة و هو أكبرهم، و أبوجهل، و أُبي و أُميّة ابنا خلف، و عتبة و شيبة ابنا ربيعة، و النضر بن الحارث، أتوا أباطالب، و قالوا: أنت شيخنا و كبيرنا و قدأتيناك لتقضي بيننا و بين ابن أخيك، فإنّه سفّه أحلامنا وشتم آلهتنا، فدعا أبو طالب رسول الله وقال: يا بن أخي هؤلاء قومك يسألونك، فقال: ما ذا يسألونني؟ قالوا: دعنا وآلهتنا، ندعك و إلٰهك، فقال: أتعطوني كلمة تملكون بها العرب و العجم؟ فقال أبو جهل:لله أبوك، نعطيك ذلك عشر أمثالها، فقال: قولوا لا إلٰه إلاّ الله، فقاموا و قالوا: أجعل الآلهة إلٰهاً واحداً، و روي أنّ النبي استعبر ثمّ قال: يا عمّ والله لو وضعت الشمس في يميني و القمر في شمالي ما تركت هذا القول حتى أنفذه أو أُقتل دونه، فقال له أبوطالب: امض لأمرك فوالله لاأخذلُك أبداً[2].

۴ ـ رد الدعوة إلى الحياة الأُخروية

كانت عرب الجاهلية خصوصاً المترفين منهم يخافون من سماع أخبار البعث و النشور، و انّ الإنسان سيبعث بعد موته و يحاسب و يجزى حسب أعماله، و كان

---

(۱) مناقب ابن شهر آشوب: ج۱ ص۴۹، بحار الأنوار: ج۱۸ ص۱۱۵، و لاحظ تاريخ الطبري: ج۲ ص۶۶.

(۲)مجمع البيان: ج۸ ص۴۶۵.

هذا أحد الدوافع للإعراض عن الدعوة، و قدجـاء في الذكر الحكيم ما ذكروه في هذا المجال من الحجج الواهية، و سنوافيك به عند البحث عن المعاد في الذكر الحكيم و نكتفي في هذا المقام ببعض الآيات، فقال سبحانه: ﴿ وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾(السجدة/ ١٠)، و قـال سبحانـه: ﴿وَ قَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً﴾(الإسراء/ ٩٨)، و قال سبحـانه: ﴿وَ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾(سبأ/ ٧).

و تعرب الآيـة الأُولى عـن أنّهم كانـوا يظنّون إنّ الموت فنـاء للإنسـان و اعدام و اضمحلال لـه، فكيف يمكـن احياؤه ثـانياً؟ و القرآن يجيب عنه بقـوله سبحـانه: ﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾(السجدة/ ١١). إنّ الوفاء في الآية بمعنى الأخذ، و حاصـل الجواب: انّ ملك الموت الذي وكّل بكم يأخذكم فلاتضلّون في الأرض ثمّ إلى ربّكم ترجعون.

و بعبارة ثانية: إنّ الإنسـان مركّـب من جسـم و روح فما يبقـى في الأرض هـو جسمـه و ليس حقيقتـه و واقعيّته، و أمّـا حقيقة الإنسـان فهي روحـه و نفسه و هـي محفوظـة عندنـا يأخـذها ملـك الموت فمـا بقي فهـو غير حقيقتـه، و ما هـو واقعية الإنسان(الروح)، و النفس فهي محفوظة عندالله غير ضالة في الأرض.

قال العلاّمة الطباطبائي: «أمر سبحـانه رسولـه أن يجيب عن حجّتهـم المبنيّة على الاستبعـاد بأنّ حقيقة المـوت ليس بطلاناً لكـم و ضلالاً منكم فـي الأرض، بل ملك الموت الموكّل بكـم يأخذكم تامّين كاملين من أجسـادكم أي ينزع أرواحكم من أبدانكم بمعنـى قطع علاقتها من الأبـدان، و أرواحكم تمام حقيقتكم، فـأنتم أي ما يعني لفظـة «كم» محفـوظون لايضـل منكم شـيء في الأرض، و إنّمـا تضلّ الأبـدان و تتغيّر من حـال إلى حال، و قدكانت فـي معرض التغيّر من أوّل كينونتهـا، ثمّ إنّكم محفوظون حتّى ترجعوا إلى ربّكم بالبعث و رجوع الأرواح إلى أجسادها»[1].

---

(١)الميزان: ج١٦ ص٢٥٢.

و تعرب الآية الثانية عن أنّ سبب الإنكـار هو تخيّل قصور القدرة و عدم إمكان البعث، فكيف يمكن احيـاء العظام الرميمة؟ فردّ عليه سبحـانه بقوله: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِى خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَ الأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾(الإسراء/ ٩٩) فليس احياء العظام الرميمة أكبر و أعظم من خلق السموات و الأرض، فالقادر على خلقهما قادر على احيائهما من جديد[١].

٥ ـ طلب المشاركة في امتيازات النبوّة

كان المشركـون ـ لأجل قصور معارفهـم عن درك مقام النبوّة السـامي، يطلبون المشاركة في أمر النبوّة، فكان الوليد بن المغيرة يقول: لو كانت النبوّة حقّاً لكنت أولى بها منك، لأنّي أكبر سنّا و أكثر منك مالاً! و قال أبوجهل: زاحمنا بني عبد مناف في الشرف حتى صرنا كفـرسي رهان. قالوا منّا نبيّ يوحى إليـه، و الله لانؤمن به و لانتبعه أبداً إلاّ أن يأتينا وحي كما يأتيه[٢].

و إلى هذه الحجّة الواهية يشير قـوله سبحانه حاكياً عنهم: ﴿وَ إِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللهِ﴾(الأنعام/ ١٢٤).

إنّ كلامهم هذا ينـمّ عن حقد دفين و عناد مستبطن فردّ عليهم سبحـانه بقوله: ﴿اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾(الأنعام/ ١٢٤). فهـو سبحانه أعلم منهـم و من جميع الخلق بمن يصلح لتنفيذ رسالاته، و يعلم من له الأهلية بتحمّل أعباء الرسالة.

٦ ـ المطالبة بمثل ما أُوتي سائر الرسل

كان المشركون المتواجدون في عصر الرسـالة بلغ مسامعهم بأنّ الكليم موسى

---

(١) قد جمعنا مجموع شبهاتهم الواهية في إمكـان المعاد و تحقّقه في الجزء المختص بالمعاد و قد اكتفينا بهذا المقدار هنا روماً للإختصار.

(٢) مجمع البيان: ج٢ ص٣٦٢(ط صيدا).

بعث بمعاجز مثل العصا إذا رمى بها في مجال التحدّي تنقلب ثعباناً، و بإدخال اليد في الجيب إذا أخرجها منه تكون بيضاء للناظرين، فاعترضوا عليه(صلّى الله عليه و آله و سلّم) بأنّه يجب أن تكون حجّة رسالته كحجج الكليم موسى(عليه السلام) و قدحكى ذلك منهم سبحانه بقوله: ﴿ **فَلَمَّا جَاءَهُمُ الحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى** ﴾(القصص/ ٤٨).

و في آية أخرى: ﴿ **وَ قَالُوا لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لايَعْلَمونَ** ﴾(الأنعام/ ٣٧). و ربّما يحتجّ بهذا الإعتراض من في قلبه مرض من المستشرقين، فيجب علينا تناوله بشيء من الدراسة و التحليل لرفع ما فيه من الإيهام و الإبهام و ذلك من خلال جوابين مستفادين من القرآن الكريم:

أ ـ إنّ هذا الإعتراض كان لمحض اختلاق المعاذير، و الشاهد على ذلك انّ هؤلاء المشركين وصفوا ما أُوتي الكليم بالسحر أيضاً، فقد روى المفسّرون أنّ المشركين بعثوا رهطاً إلى رؤوس اليهود في عيد لهم فسألوهُم عنه(صلّى الله عليه و آله و سلّم) فأخبروهم بنعته وصفته في كتابهم التوراة، فرجع الرهط إلى قريش فأخبروهم بقول اليهود، فقالوا عند ذلك: ﴿ **سِحْرَانِ تَظَاهَرَا** ﴾ و إليه يشير قوله سبحانه: ﴿ **أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرانِ تَظَاهَرَا وَ قَالُوا إنّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ** ﴾(القصص/ ٤٨).

و يظهر من الآيات الواردة بعد هذه الآية أنّهم رجعوا إلى أهل الكتاب واستفتوهم في أمره و عرضوا عليهم بعض القرآن النازل عليه، فأجابوا عنه بتصديقه والإيمان به، فساء ذلك المشركين و أغلظ عليهم بالقول و أعرض الكتابيّون عنهم وقالوا: سلام عليكم لانبتغي الجاهلين. قال سبحانه: ﴿ **الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ * وَ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ... وَ إِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَ قَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَ لَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ لانَبْتَغِي الجَاهِلِينَ** ﴾(القصص/ ٥٢ـ٥٥)[1].

---

(١) لاحظ التفاسير.

ب ـ إنّ هؤلاء جاهلون بالحكمة في اختـلاف المعاجز و الآيات التي تنزل على أنبياء الله تعـالى و يزعمـون أنّه يجب أن تكـون معاجز الجميـع على حد سـواء مع أنّ المصـالح تقتضـي أن تختلف معـاجز الأنبيـاء ذاتاً و سنخـاً حتى تتـم الحجّة علـى المرسل إليهم، و تفصيـل القول في ذلك إنّه يجب أن تكون معجزة كـل نبي مجانسة للفن الرائج في عصـره حتى إذا عرضت على مهرة ذلك الفن و خبـرائه، أذعنوا بتفوّقه على قدراتهم و طاقاتهم،وأنّ الذي جاء به مدّعي النبوّة فوق حدود العلم و الفن الذي تمرّسـوا فيه، و هذا يقتضـي كون المعجزة مسانخـة لما برعـوا فيه في ذلـك العصر إذ لـو كان مغـايراً و مفـارقاً لمـا تمّت الحجـة و لما أُلـزموا بهـا إذ بوسعهـم أن يعترضـوا و يقولون: لاخبرة بشأن ما أتيت به، فكيف لنـا التحدّي و المناجزة أو التصديق بأنّ ما جئت به معجزة إلهية تفـوق قدرة البشر؟ فاقتضـت المصلحة تسانخ المعاجز للفنون الرائجة في عصر كل نبي.

و قدبلـغ فن السحـر و الشعبذة في عصـر الكليم موسـى الذروة و القمـّة كما اكتسب الطـب في عصر المسيـح أهميّة بالغـة، فجاء الكليم مـوسى بالعصـا و اليد البيضاء فأبطل سحرهم و أثبت أنّ ما أتـى به معجزة تفوق حد السحر و إن كان بينهما مشاكلـة في الصورة و لكنّها تبـاينه بالذات، كمـا أنّ المسيح بابراء الأكمـه و الأبرص و احياء الموتى كان قـدأثبت أنّ ما أتى به فوق علمهم و طاقتهـم و براعتهم، و خارج عن الموازين الطبيعية التي كانوا يعتمدونها في الإبراء و المداواة.

فنفس تلك المصلحة تتطلّب أن تكون معجزة النبـي الأكرم مشابهة لما برع فيه العرب فـي العصر الجـاهلي لأنّه كـان قدراج بينهم انشـاء الخطب البليغـة الفصيحة و نظم الشعر و التحدّي بينهـم في ذلك، فجاء بكتاب متحدّيـاً بصريح نصّه: **﴿وَ إِنْ كُنْتُمْ فِی رَیْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَی عَبْدِنَا فَـأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَ ادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُـمْ صَادِقِیـنَ * فَـإِنْ لَمْ تَفْعَلُـوا وَ لَـنْ تَفْعَلُوا فَـاتَّقُـوا النَّارَ الَّتِی وَ قُـودُهَا النَّـاسُ وَ الحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِینَ﴾**(البقرة/ ٢٣و٢٤).

و إلى هذا الجواب يشير قوله سبحانه في ذيل الآية التي نبحث عنها:

﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا[1] أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾(القصص/ ٤٩) .

ويدلّ على هذه الحقيقة مضافاً إلى ذلك ما روي عن أبي السكيت أنّه قال لأبي الحسن الرضا(عليه السلام) :

«لماذا بعث الله موسى بن عمران(عليه السلام) بالعصا ، و يده البيضاء ، و آلة السحر؟ وبعث عيسى بآلة الطب؟ وبعث محمداً ــ صلى الله عليه وآله وسلّم وعلى جميع الأنبياء ـ بالكلام والخطب؟ .

فقال أبو الحسن(عليه السلام) : إنّ الله لمّا بعث موسى(عليه السلام) كان الغالب على أهل عصره السحر، فأتاهم من عند الله بما لم يكن في وسعهم مثله ، وما أبطل به سحرهم ، وأثبت به الحجة عليهم . و انّ الله بعث عيسى(عليه السلام) في وقت قد ظهرت فيه الزمانات ، واحتاج النّاس إلى الطب ، فأتاهم من عند الله بما لم يكن عندهم مثله ، وبما أحيى لهم الموتى ، وأبرأ الأكمه والأبرص بإذن الله ، وأثبت به الحجّة عليهم .

و انّ الله بعث محمد(صلّى الله عليه وآله وسلّم) في وقت كان الغالب على أهل عصره الخطب والكلام . وأظنّه قال : الشعر، فأتاهم من عند الله من مواعظه وحكمه ما أبطل به قولهم ، وأثبت به الحجّة عليهم»[2].

أضف إلى ذلك انّ نبوّة الرسول الأكرم نبوّة خالدة ورسالته رسالة أبدية فهو خاتم الأنبياء والمرسلين كما أنّ كتابه خاتم الكتب ، ورسالته خاتمة الرسالات ، فيجب أن تقترن الرسالة الأبديّة بمعجزة خالدة حتّى تتمّ الحجّة على مرّ الأجيال والعصور، ولا يختلق الجاهل عذراً يبرّر له رفضه لتلك الرسالة بعد رحيل الصادع بها ، وتباعد العهد وطول الشقّة الزمنيّة .

---

(١)الضمير راجع إلى التوراة و القرآن .

(٢)الكافي : ج١«كتاب العقل و الجهل» الرواية ٢٠ .

كلّ ذلك كان حافزاً لدعم دعوة النبيّ(صلّى الله عليه و آله و سلّم) بالقرآن الكريم الّذي ما أفلت نوره منذ أن بزغ نجمه في أوّل مرّة.

٧ ـ لماذا لا ينزّل عليه ملك؟!

وهذا الاعتراض يحكيه عنهم قوله سبحانه: ﴿وَقَالُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾(الأنعام/ ٨) وما كانوا يقصدون به أنّه لماذا لا ينزل الملك إليه(صلّى الله عليه و آله و سلّم) فإنّه كان يدّعي نزول الملك عليه والقرآن أيضاً يصدّقه في ذلك بقوله: ﴿نَزَلَ بِهِ الروحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكونَ مِنَ المُنْذِرِينَ﴾(الشعراء/ ١٩٣ و ١٩٤).

وقال سبحانه: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي العَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾(التكوير/ ١٩ ـ ٢١) إلى غير ذلك من الآيات الصريحة في أنّ الوحي ينزل على النبيّ بتوسّط الملك، ومع هذا التصريح فما معنى قوله: ﴿لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾؟.

أقول: إنّ الاقتراحات الّتي تقدّم بها المشركون في نزول الملك معه أو إليه كانت على أنحاء:

الأوّل: إنّهم كانوا يطلبون المشاركة في امتيازات مقام النبوّة ويقولون: إنّه لو صحّ نزول الملك على النبيّ فلماذا لا ينزل علينا مباشرة على جهة الاستقلال؟ وقد ورد في ذلك آيات نحو قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْنَا المَلائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا﴾(الفرقان/ ٢١) وقال سبحانه: ﴿إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلّا تَعْبُدُوا إِلّا اللهَ قَالُوا لَوْ شاءَ رَبُّنَا لأَنْزَلَ مَلائِكَةً فَإِنّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾(فصّلت/ ١٤).

إنّ هذا القسم من الآيات مبني على اعتقادهم بأنّه لا يصحّ لأحد من البشر ولو كان أرقاهم عقلاً وخلقاً وأدباً أن يكون رسولاً وواسطة بين الله و عباده، لأنّهم يأكلون ويشربون وفي ذلك قال سبحانه حاكياً عنهم: ﴿مَا هَذا إِلّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمّا تَشْرَبُونَ * وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَراً مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذاً

لَخَاسِرونَ﴾(المؤمنون/ ٣٣ ـ ٣٤).

الثاني: كانوا يطلبون أن ينـزل مع النبيّ ملك يصدّقه، وقد ورد هذا المعنى في عدّة آيات، قال سبحانه: ﴿ **وَقَالُوا مَالِهذَا الرَّسُولِ يـأكُلُ الطَّعامَ وَيَمْشِى فِى الأسْواقِ لَوْلا أُنْزِلَ اِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً**﴾(الفرقان/ ٧) فالغاية من نزول الملك إلى النبي كونه نذيراً معه ومصدّقاً له، قال سبحانه: ﴿ **فَلَوْلاَ أُلْقِىَ عَلَيْهِ اَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أوْ جَاءَ مَعَهُ المَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ**﴾(الزخرف/ ٥٣) وقال سبحانه: ﴿**فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى اِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ اَنْ يَقُولُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أوْ جَاءَ مَعَه مَلَكٌ اِنَّما اَنْتَ نَذِيرٌ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ**﴾(هود/ ١٢).

وعلى ذلك يحمل قوله سبحانه: ﴿ **وَقَالُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ اَنْزَلْنَا مَلَكاً لَقُضِىَ الأمْرُ ثُمَّ لاَ يُنْظَرُونَ**﴾(الأنعام/ ٨).

ويحتمل أن يكون المراد مشاهدة الملك معه فقط سواء أنذر معه أو لا؟ فيدخل في القسم الثالث الآتي.

ثمّ إنّ انزال الملك مع النبيّ ليصدّق دعوته وينذر معه يتصوّر على وجهين:

أ ـ أن ينزل الملك بصورته الواقعية ـ وسيوافيك في القسم الثالث ـ إنّ نتيجة ذلك هو موت المنذرين لأنّهم لا يحتملون رؤيته ومشاهدته بحسب طاقتهم البشريّة إلاّ بالانسلاخ عن الماديّة والانتقال إلى مرحلة أعلى منها.

ب ـ أن ينزل الملك لا بصورته الواقعيّة بل يتمثّل بصورة إنسان،وهذا لا يفيد شيئاً لأنّهم باستطاعتهم أن يتّهمونه بأنّه بشر مثل النبيّ وليس بملك.

وبعبارة أُخرى: لو جعله ملكاً في صورة بشر لجزموا ببشريّته لأنّهم لا يدركون منه إلاّ صورته الظاهرية وصفاته البشريّة التي تمثّل بها، وحينئذ لا يصدّقونه ويرجع الأمر كما كان في بادئ ذي بدء، وإليه يشير قوله سبحانه: ﴿**وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ**﴾(الأنعام/ ٩) أي لكان يلحقهم فيه من اللبس مثل ما

لحق، وهذا احتجاج عليهم بأنّ الّذي طلبوه لا يزيدهم بياناً بل يكون الأمر عبثاً ولغواً لا طائل وراءه[1].

الثالث: كانوا يطلبون مشاهدة الملك عياناً على أن يكون الإتيان بالملك، احدى معاجزه مثل قوله سبحانه: ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ والمَلائِكَةِ قَبِيلاً﴾(الإسراء/ ٩٢)، قال سبحانه: ﴿لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالمَلائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾(الحجر/ ٧)، قال سبحانه: ﴿ وَلَوْ أَنّنا نَزَّلنَا إِلَيْهِمُ المَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ المَوْتَى وَحَشَرْنا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلاّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهلُونَ﴾(الأنعام/ ١١١).

ويردّ القرآن على هذا الاحتجاج: ﴿ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكاً لَقُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لا يُنْظَرُونَ﴾(الأنعام/ ٨)أي يكون هلاكهم قطعياً على ما يوضّحه النص التالي:

إنّ نفوس المتوغّلين في عالم المادّة لا تطيق مشاهدة الملائكة لو نزلوا عليهم واختلطوا بهم لكون ظرفهم غير ظرف الملائكة فلو ارتفع الناس إلى المرتبة الوجودية للملائكة لم يكن ذلك إلاّ انتقالاً منهم من حضيض المادة إلى ذروة ما وراءها وهو الموت كما قال تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لاَ يَرجُونَ لِقاءَنا لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْنَا المَلائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوّاً كَبِيراً * يَوْمَ يَرَوْنَ المَلائِكَةَ لاَ بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْراً مَحْجُوراً﴾(الفرقان/ ٢١ و ٢٢)[2]. قال ابن عباس: ولو أتاهم ملك في صورته لأهلكناهم ثمّ لا يؤخّرون[3].

٨ ـ التفاؤل بغلبة فارس على الروم

قد نشبت حرب دامية بين الروم والفرس، والنبيّ والمسلمون بمكّة حوالي سنة سبع من البعثة، فغلبت الفرس على الروم فتفاءلت بذلك قريش بحجّة أنّ الفرس

(١)مجمع البيان: ج٢ ص ٧٦و٧٧.

(٢)الميزان: ج٧ ص١٦.

(٣)دلائل النبوّة للبيهقي: ج٢ ص ٣٣٢.

وثنيّون والروم أهـل كتاب،فقالوا: الـروم أهل كتاب وقـد غلبتهم الفرس وأنتم تـزعمون أنّكم ستغلبـون بالكتاب الـّذي أُنزل على نبيّكم فسنغلبكـم كما غلبت فـارسُ الروم، فأنزل الله سبحـانه: ﴿الم* غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ للهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾(الروم/ ١ ـ ٥).

والآية تتضمن خبراً غيبياً بل خبرين حيـث يخبر عن غلبة الروم على الفرس أوّلاً في بضع سنين أي في مدة لا تتجاوز تسع سنين، وانّه في ذلك اليوم ينزل النصر على المؤمنين أيضـاً وقد تحقّق الخبران يوم ظهر المسلمـون على مشركي قريـش يوم بدر. قال عطيـة: وسألت أبا سعيـد الخدري عن ذلك فقـال:التقينا مع رسول الله ومشـركي العرب، و التقت الروم وفارس فنصرنا الله على مشركي العرب ونصر أهل الكتاب على المجوس،ففـرحنا بنصـر الله إيّانـا علـى مشـركي العـرب ونصـر أهـل الكتاب علـى المجوس، وذلك قوله: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللهِ﴾[١].

٩ ـ طلب رفع العذاب

لمّا رأى رسول الله(صلـّى الله عليه و آله و سلّم) من الناس إدبـاراً فقال: اللّهمّ سبع كسبـع يوسف، فأخـذتهم سنة حتى أكلـوا الميتة والجلود والعظام، فجـاءه أبو سفيان وناس مـن أهل مكّة فقالـوا:يا محمّد، إنّك تـزعـم أنّك بعثت رحمـة وأنّ قومك قد هلكوا فـادع الله لهم، فدعا رسول الله فسقـوا فأطبقت عليهم سبعـاً، فشكى الناس كثرة المطـر، فقال: اللّهمّ حوالينـا ولا علينا، فانحـدرت السحابة عن رأسـه فسقي الناس حولهم[٢].

وروى السيوطي: انّ قـريشاً لمّا استعصيت على رسول الله وأبطـأوا عن الإسلام قال: اللّهمّ أعنّي عليهم بسبع كسبع يوسفـ،فأصابهم جهد وقحط حتّى أكلوا العظام

(١)مجمع البيان: ج٤ ص٢٩٥.

(٢)دلائل النبوّة: ج٢ ص٣٢٦.

فجعل ينظر إلـى السماء فيـرى ما بينـه وبينها كهيئـة الدخـان من الجـوع فأنـزل الله : ﴿ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ * يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(الدخان/ ١٠ و١١) فأُتي النبيّ فقيل: يا رسول الله استسق الله لمضر، فاستسقى لهم فسقوا فأنزل الله : ﴿إِنَّا كَاشِفُوا العَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾(الدخان/ ١٥)، فلمّا أصابتهم الرفاهية عادوا إلى حالهم فأنزل الله : ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ البَطْشَةَ الكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ﴾(الدخان/ ١٦) فانتقم الله منهم يوم بدر[1].

١٠ ـ كيف يمكن إحياء العظام البالية؟

مشى أُبيّ بن خلف إلى رسول الله بعظم بال قد أُرفت فقال: يا محمّد إنّك تزعم أنّ الله يبعث هذا بعدما أرم؟ ثمّ فتّه بيده، ثمّ نفخه في الريح، فقال رسول الله: نعم أنا أقول ذلك، يبعثه الله وإيّاك بعدما تكون هكذا ثمّ يدخلك الله النار، فأنزل الله تعالى فيه: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي العِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ﴾(يس/ ٧٨ـ٨٠)[2].

١١ ـ هل المسيح حصب جهنّم؟!

جلس رسول الله مع الوليد بن المغيرة في المسجد فجاء النضر بن الحارث، حتّى جلس معهم في المجلس وفي المجلس غير واحد من رجال قريش،فتكلّم رسول الله، فعرض له النضر بن الحارث، فكلّمه رسول الله حتّى أفحمه ثمّ تلى عليه وعليهم: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ * لَوْ كَانَ

---

(١) الدر المنثور: ج٦ ص٢٨.

(٢) السيرة النبويّة لابن هشام: ج١ ص٣٦١و٣٦٢. و سيوافيك جميع حججهم الواهية حول المعاد في الجزء المختص به بإذن الله، و لذلك آثرنا في المقام الإختصار.

هَؤُلاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيْهَا خَالِدُونَ * لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لاَ يَسْمَعُونَ﴾(الأنبياء/ ٩٨ـ١٠٠).

فأقبل عبد الله بن الزبعري السهمي حتّى جلس فقال الوليد بن مغيرة لعبد الله ابن الزبعري: والله قد زعم محمّد إنّا وما نعبد من آلهتنا هذه حصب جهنّم. فقال عبد الله بن الزبعري: أما والله لو وجدته لخصمته، فسلوا محمداً أكلُّ ما يعبد من دون الله في جهنّم مع من عبده؟ فنحن نعبد الملائكة، واليهود تعبد عزيراً، والنّصارى تعبد عيسى بن مريم، فعجب الوليد ومع من كان معه في المجلس من قول عبد الله بن الزبعري ورأوا أنّه قد احتجّ وخاصم،فذكر ذلك لرسول الله من قول ابن الزبعري.... فأنزل الله تعالى عليه: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الحُسْنَى أُوْلئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ * لاَيَسْمَعُونَ حَسِيْسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ**﴾(الأنبياء/ ١٠١و١٠٢) أي عيسى بن مريم وعزيراً ومن عبدوا من الأحبار والرهبان الذين مضوا على طاعة الله فاتّخذهم من يعبدهم من أهل الضلالة أرباباً من دون الله.

فنزل فيما يذكرون أنّهم يعبدون الملائكة، وإنّهنَّ بنات الله: ﴿**وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَداً سُبْحانَهُ بَلْ عِبادٌ مُكْرَمُونَ * لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالقَوْلِ وَهَمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ**... ـ إلى قوله ـ **وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِي إِلهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِى الظَّالِمينَ**﴾(الأنبياء/ ٢٦ـ٢٩).

ونزل في ما ذكر من أمر عيسى بن مريم أنّه يعبد من دون الله، وعجب الوليد ومن حضر من حجّته وخصومه ﴿**وَلَمّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً اِذا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ... إِنْ هُوَ اِلاّ عَبْدٌ اَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِبَنِي إِسرائِيلَ * وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُمْ مَلائِكَةً فِي الأَرْضِ يَخْلُفُونَ * وَ اِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسّاعَةِ فَلا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ**﴾(الزخرف/ ٥٧ و ٥٩ـ٦١).

* * *

خاتمة المطاف :

دعاء النّبيّ على سبعة من قريش

استقبل رسول الله البيت فدعا على نفر مـن قريش سبعة فيهم أبو جهل ، وأُميّة ابن خلـف ، وعتبة بن ربيعة،وشيبـة بن ربيعة، وعتبة بـن أبي معيط ، قال عبـد الله بن مسعود:أُقسم بالله لقد رأيتهم صرعى على بدر، قد غيّرتهم الشمس وكان يوماً حاراً[1].

وقد نزلت آيات في حقّهم وحقّ غيرهم تقدّم بعضها و إليك البقية الباقية منها :

١ ـ لمّا أرادت قريش البطش بالنبيّ أخذوا يتنـاولونه بالنبز واللمز والهمز وصور الاستهزاء المختلفة وجعل القرآن ينزل في قريـش يخبر عن أعمالهم وعدائهم ، فمنهم من سمّي لنا ، ومنهـم من لم يسمّ ، وممّن سمّي لنـا من قريش عمّه أبو لهـب بن عبد المطلب وامـرأته أُم جميل بنـت حرب بن أُميـة ، حمّالـة الحطب ، و إنّما سمـّاها الله تعالـى حمّالة الحطب ، لأنّهـا كانت ـــ تحمل الشوك فتطـرحه على طريـق رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلـّم ـ حيث يمرّ، فأنزل الله تعـالى فيهما : ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ * مَـا أَغْنَى عَنْـهُ مَالُـهُ وَمَا كَسَـبَ * سَيَصْلَىٰ نَـاراً ذَاتَ لَهَبٍ * وَ امـْرَأَتُهُ حَمـَّالَةَ الحَطَبِ * فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ﴾[2].

٢ ـ إنّ أُميـّة بن خلـف كان إذا رأى رسول الله (صلـّى الله عليه و آلـه و سلّم) همزه و لمزه ، فأنزل الله تعالى فيه : ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ * الَّذِى جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ * يَحْسَبُ اَنَّ مَالَهُ اَخْلَـدَهُ * كَلاّ لَيُنْبَذَنَّ فِى الحُطَمَةِ * وَمَا اَدْرَاكَ مـَا الحُطَمَةُ * نَارُ اللهِ المـُوقَـدَةُ * الَّتـِى تَطَّلـِعُ عَلـَى الاَفْئِـدَةِ * اِنَّهـَا عَلَيْهِـمْ مُـؤْصَـدَةٌ * فِى عَمـَدٍ مُمَدَّدَةٍ﴾(الهمزة/ ١ ـ ٩)[3].

---

(١)دلائل النبوة : ج٢ ص٣٣٥ .

(٢)السيرة النبوية لابن هشام : ج١ ص٣٥٥ .

(٣)المصدر السابق : ج١ ص٣٥٦ .

٣ ـ لقى أبو جهل بن هشام رسول الله فقال له: والله يا محمّد لتتركنّ سب آلهتنا أو لنسبنّ إلهك الذي تعبد، فأنزل الله تعالى: **﴿وَلاَ تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدعُونَ مِن دُونِ اللهِ فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾**(الأنعام/ ١٠٨)[١].

لمّا نزل قوله سبحانه: **﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ * لاَ تُبْقِي وَلاَ تَذَرُ * لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ * عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾**(المدثر/ ٢٦ ـ ٣٠)، قال أبو جهل لقريش: ثكلتكم أمّهاتكم أتسمعون ابن أبي كبيشة يخبركم بأنّ خزنة النار تسعة عشر وأنتم الدهم الشجعان، أفيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا برجل من خزنة جهنّم، فقال أبو الأسد الجمحي: أنا أكفيكم سبعة عشر، عشرة على ظهري، وسبعة على بطني، فاكفوني أنتم اثنين، فنزل قوله: **﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلاَّ مَلاَئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَاناً﴾**(المدثر/ ٣١)[٢].

لمّا ذكر الله عزّ وجلّ شجرة الزقوم ترهيباً بها و قال: **﴿أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ * إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ * إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ * طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ * فَإِنَّهُمْ لآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ * ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْباً مِنْ حَمِيمٍ * ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لإِلَى الْجَحِيمِ﴾**(الصافات/ ٦٢ ـ ٦٨).

قال أبو جهل: يا معشر قريش، هل تدرون ما شجرة الزّقوم الّتي يخوّفكم بها محمّد؟ قالوا: لا، قال: عجوة يثرب بالزبد، والله لئن استمكنّا منها لنتزقمنّها تزقّماً. فأنزل الله تعالى فيه: **﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ * طَعَامُ الأَثِيمِ * كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ * كَغَلْيِ الْحَمِيمِ﴾**(الدخان/ ٤٣ ـ ٤٦).

---

(١) المصدر السابق: ج١ ص٣٥٧.

(٢) لاحظ مجمع البيان: ج٥ ص٣٨٨. و الميزان: ج٢٠ ص١٧٠، و المقصود ما أخبرنا عن عدّتهم انّها تسعة عشر إلاّ ليكون فتنة للذين كفروا، و في الوقت نفسه يكون سبباً لاستيقان أهل الكتاب، لأنّهم يجدونه موافقًا لما جاء في كتابهم كما يكون سبباً لزيادة إيمان المؤمنين بسبب ما يجدون من تصديق أهل الكتاب ذلك.

قال ابـن هشام: المهـل كلّ شـيء أذبته مـن نحاس أو رصـاص، أو ما أشبـه ذلك، فيما أخبـرني أبا عبيدة، قال: كـان عبد الله بن مسعود والياً لعمـر بن الخطاب على بيـت مال الكوفة وأنّـه أمر يوماً بفضـة فأُذيبت فجعلـت تلوّن ألواناً، فقـال: هل بالباب مـن أحد؟ قالوا: نعـم. قال: فادخلوهـم، فأُدخلوا، فقال: إنّ أدنـىٰ ما أنتم راوون شبهاً بالمهل كهذا[1].

٤ ـ إنّ أُبي بن خلف وعقبة بن أبي معيط كانا متصافيين،حَسَناً ما بينهما، فكان عقبة قد جلس إلى رسول الله (صلّى الله عليه وآلـه وسلّم) وسمع منه، فبلغ ذلك أُبيّاً، فأتـى عقبة فقال (لـه): ألم يبلغني إنـّك جالست محمـّداً و سمعت منهاوجهـي من وجهك حرام أن أُكلّمك ـ واستغلظ من اليميـن ـ إن أنت جلست إليه أو سمعت منه، أو لم تأته فتتفل في وجهه. ففعل ذلك عدو الله عقبة بن أبي معيط لعنه الله. فأنزل الله تعالـى فيهما: ﴿ وَيَوْمَ يَعَـضُّ الظَّالِـمُ عَلَىٰ يَـدَيْهِ يَقُولُ يَـالَيْتَنِى اتَّخَـذْتُ مَعَ الـرَّسُولِ سَبِيلاً . . ﴾ إلى وقوله تعالى: ﴿لِلإِنْسَانِ خَذُولاً﴾(الفرقان/ ٢٧ ـ ٢٩).

٥ ـ ابـن أخنس بـن شريف الـذهبي حليـف بني زهرة، كـان من أشـراف القوم وممّن يستمـع منه، وكـان يصيب مـن رسول الله ويـرد عليه، فـأنزل الله تعـالى فيـه: ﴿ وَلاَتُطِعْ كُلَّ حَلاَّفٍ مَهِيـنٍ * هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ * مَنَّاعٍ لِلخَيْرِ مُعْتَـدٍ اَثِيمٍ * عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ﴾(القلم/ ١٠ ـ ١٣).

قال ابن هشـام: ولم يقل«زنيم» لعيـب في نسبه وإنّ الله لا يعيب أحـداً بنسب ولكنّه حقّق بذلك نعته ليعرف. والزنيم:العديد (الدعيّ) للقوم[2].

٦ ـ إنّ العاص بـن وائل كان من أعداء النبـيّ وكان خباب بن الأرتّ، صـاحب رسول الله(صلّى الله عليـه و آله و سلّم) قيناً بمكـّة يعمل السيوف، و كان قـد باع من العاص بـن وائل سيوفـاً عملها له حتـى كان عليـه مال، فجاءه يتقـاضىٰ، فقـال له:

---

(١) السيرة النبوية: ج١ ص٣٦٢و٣٦٣.

(٢)السيرة النبويّة لابن هشام: ج١ ص٣٦٠.

يا خباب أليس يزعم محمد صاحبكم هذا الـذي أنت على دينه أنّ في الجنة ما ابتغى أهلها من ذهب، أو فضّة، أو ثياب، أو خدم؟ قال خباب: بلى. قال: فانظرني إلى يوم القيامة يا خباب حتى أرجع إلى تلك الدار فاقضيك هنالك حقّك، فوالله لاتكون أنت و صاحبك يا خبّاب آثر عند الله منّي، و لاأعظم حظّاً في ذلك. فأنزل الله تعالى فيه: ﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِى كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَ قَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَ وَلَداً * أَطَّلَعَ الغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمٰنِ عَهْداً * كَلاَّ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَ نَمُدُّ لَهُ مِنَ العَذَابِ مَدّاً * وَ نَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَ يَأْتِينَا فَرْداً﴾(مريم/ ٧٧ـ٨٠).

٧ ـ وقف الوليد بن المغيرة مع رسول الله و رسول الله يكلّمه و قد طمع في إسلامه، فبينما هو في ذلك إذ مرّ به ابن أُم مكتوم الأعمى فكلّم الأعمى رسول الله و جعل يستقرئه القرآن، فشقّ ذلك منه على رسول الله حتى أضجره و ذلك انّه شغله عمّا كان فيه من أمر الوليد و ما طمع فيه من إسلامه، فلمّا أكثر عليه انصرف عنه عابساً و تركه، فأنزل الله تعالى فيه: ﴿ عَبَسَ وَ تَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الأَعْمَى * وَ مَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى * أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى * فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى * وَ مَا عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّى * وَ أَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى * وَ هُوَ يَخْشَى * فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى * كَلاَّ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ * فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ﴾(عبس/ ١ـ١٢)[١].

و ما ذكره ابن هشام و غيره و إن كان ينطبق على ظاهر الآيات و لكنّه لايتفق مع خلق النبي الذي وصفه سبحانه بقول: ﴿وَ إِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.

و في بعض الروايات إنّ العبوس المتولّي، رجل من بني أُميّة، كان عند النبي فدخل على النبي ابن أُم مكتوم فعبس الرجل و قبض وجهه فنزلت الآيات.

قال العلاّمة الطباطبائي: و ليست الآيات ظاهرة الدلالة على أنّ المراد بها هو النبي(صلّى الله عليه و آله و سلّم) بل خبر محض لم يصرّح بالمخبر عنه، بل فيها ما يدل على أنّ المعني بها غيره، لأنّ العبوس ليس من صفات النبي(صلّى الله عليه

---

(١)السيرة النبويّة: ج١ ص٣٦٣، و أكثر التفاسير نقلوا هذا المضمون.

و آله و سلّم) مع الأعداء فضلاً عن المؤمنين به و الموالين له، و على كلّ تقدير، فإنّ توصيفه بأنّه يميل للأغنياء و يعرض عن الفقراء لايتناسب مع أخلاقه الكريمة كما عن المرتضى ـ رحمه الله ـ.

و قد أوضحنا الحال في الجزء الخامس من هذه الموسوعة[1].

٨ ـ كان العاص بن وائل السهمي ـ إذا ذكر رسول الله (صلّى الله عليه و آله و سلّم) ـ قال: دعوه، فإنّما هو رجل أبتر لاعقب له، لو مات لانقطع ذكره و استرحتم منه، فأنزل الله في ذلك: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ ما هو خير لك من الدنيا و ما فيها، و الكوثر: العظيم.

إنّ هذه الآية تتضمّن خبراً غيبيّاً و هو أنّه سيكثر نسل رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) و إنّ تعيير العدو يرجع إلى نفسه، و على الرغم من أنّ أهل بيته لاقوا من الأُمّة مالاقوا من القتل و التشريد و التنكيل، و مع ذلك نجد نسل الرسول قد بلغ من التصوّر ما بلغ. قال الرازي: «فانظر كم قتل من أهل البيت ثمّ العالم ممتلئ منهم ولم يبق من بني أُميّة في الدنيا أحد يعبأ به، ثمّ انظر كم فيهم من الأكابر من العلماء كالباقر و الصادق و الكاظم و الرضا(عليهم السلام) و النفس الزكية و أمثالهم»[2].

هذا ما يقوله الرازي في القرن السابع أو أواخر القرن السادس، و نحن في أوائل القرن الخامس عشر، و قد ملأ العالم نسل البتول، و هذه بلاد المغرب و تونس و الجزائر و مصر و الشام و تركيا و إيران و العراق زاخرة بالشرفاء من أبناء الرسول (صلّى الله عليه و آله و سلّم) فصدق قول الله العلي العظيم: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾.

إنّ منصب نقابة الطالبين في عصر الرضا(عليه السلام) و بعده إلى عصر الشريف الرضي الذي تصدّر هذا المنصب عام ٣٨٠هـ، لأوضح دليل على كثرة

---

(١) مفاهيم القرآن: ج٥ ص١٣٠ عند البحث عن عصمة النبي.

(٢) مفاتيح الغيب: ج٨ ص٤٩٨ (طبع مصر ـ ١٣٠٨).

الطالبيين من نسل البتول إلى حد عيّن لهم نقيب كالإمام الرضا والشريف الرضي، والمسؤولية الملقاة على عاتقه، ضبط مواليدهم و وفياتهم و أنسابهم و القيام بمهام أُمورهم و هدايتهم و إرشادهم إلى ما فيه صلاح دنياهم و آخرتهم على حد ما ذكره الماوردي في كتاب الأحكام السلطانية[1].

---

(١) الأحكام السلطانية: ص٨٢ ـ ٨٦.

ج ـ الاقتراحات الباطلة لقبول الرسالة

الدارج و المألوف بين الدبلوماسيين إذا كانوا بصدد رفع ما بينهم من خصومة و مرافعة، هو الجلوس على طاولة المفاوضات و إبداء بعض التنازلات عن المصالح الجزئية لقاء الحفاظ على مصالح أُخرى أكثر أهميّة بالنسبة لهم مع سعيهم الحثيث للحفاظ على حرمة الأُصول المبدئية للطرفين.

و لكن القوم لتشبّثهم بما كانوا عليه، و غربتهم عن العلم بأُصول دعوة الأنبياء و أهدافها السامية، كانوا يطلبون من النبي (صلّى الله عليه و آله و سلّم) أُموراً مختلفة: منها ما يضاد الأُصول التي بنيت عليها الشرائع السماوية، و منها ما يدخل في المحالات بالذات، و منها ما هو خارج عن نطاق وظائف الرسل و الأنبياء، و لايمت بصدق دعوتهم و رسالتهم، و إليك جملة من هذه الطلبات التي تقدّموا بها على ضوء الكتاب العزيز:

١ ـ التشريك في العبادة

روى المفسرون أنّ نفراً من قريش منهم الحارث بن قيس السهمي، و العاص ابن أبي وائل، و الوليد بن المغيرة و غيرهم، قالوا: اتبع ديننا نتبع دينك، و نشركك في أمرنا كلّه، تعبد آلهتنا سنة و نعبد إلهك سنة، فإن كان الذي جئت به خيراً ممّا بأيدينا كنّا قد شركناك فيه و أخذنا بحظّنا منه، و إن كان الذي بأيدينا خيراً ممّا في يديك كنت قدشركتنا في أمرنا و أخذت بحظّك منه، فقال (صلّى الله عليه و آله وسلّم): معاذ الله أن أُشرك به غيره. قالوا: فاستلم بعض آلهتنا نصدّقك و نعبد إلهك فقال: حتى انظر ما يأتي من عند ربي، فنزل: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الكَافِرُونَ ﴾ فعدل رسول الله

(صلّى الله عليه و آله و سلّم) إلى المسجد الحرام و فيه الملأ من قريش، فقام على رؤوسهم، ثمّ قرأ عليهم حتى فرغ من السورة فأيسوا عند ذلك، فآذوه و آذوا أصحابه، قال ابن عباس: و فيهم نزل قوله: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الجَاهِلُونَ﴾(الزمر/ ٦٤)[1].

و روى أبو حفص الصائغ عن جعفر بن محمد(عليهما السلام) قالوا: نعبد إلهك سنة و تعبد إلهنا سنة، فأنزل الله عليه: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الكَافِرُونَ ... ﴾[2].

نظراً لابتعاد هؤلاء عن النبوّة و الأنبياء يخالون أنّ برامج الأنبياء في رسالاتهم برامج بشرية يسوغ لهم المساومة فيها و إبداء التنازلات عنها، و لأجل ذلك نزل الوحي راداً على تلك الفكرة الخاطئة و قال: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الكَافِرُونَ * لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَ لاَ أَنْتُم عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَ لاَ أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ * وَ لاَ أَنْتُم عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَ لِيَ دِينِ﴾.

إنّ الدعوة إلى التوحيد في العبادة و رفض عبادة الغير هو الحجر الأساس الذي تهدف إليه الدعوة الإلهية المتمثّلة في رسالات الأنبياء، و لم يبعث نبي قط إلاّ و كان هذا هو المحور المهمّ في صلب دعوته، فكيف يخوّل له التنازل عن هذا الأصل الأصيل. قال سبحانه: ﴿وَ لَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَ اجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾(النحل/ ٣٦).

و يعرب أيضاً عن وجود مثل هذا الاقتراح قوله سبحانه: ﴿وَ إِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَ إِذاً لاَتَّخَذُوكَ خَلِيلاً * وَ لَوْلاَ أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً * إِذاً لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الحَيَاةِ وَضِعْفَ المَمَاتِ ثُمَّ لاتَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً﴾(الأسراء/ ٧٣ـ٧٥).

هذه الآيات تفصح عن شدة مكر المشركين و تماديهم في إنكار التوحيد حيث

---

(١)مجمع البيان: ج٥، ص٢٥٢.

(٢)السيرة النبويّة لابن هشام: ج١ ص٣٦٢، بحار الأنوار: ج٧ ص٢٣٩.

أرادوا أن يفتنوا النبي (صلّى الله عليه و آله و سلّم) عن بعض ما أُوحي إليهأن يميل إلى الركون إليهم بعض الميل، و لكنّهم لم يحظوا بما كانوا يصبون إليه و يرمون تحقيقه من ميل النبي إليهم وافتتانه عن بعض ما أُوحي إليه و الشاهد على ذلك أمران:

١ ـ قوله سبحانه: ﴿وَ إِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ﴾ و هو صريح في أنّه لم يتحقّق الإفتتان.

٢ ـ قوله عزّ و جلّ: ﴿ وَ لَوْلاَ أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً﴾ والمراد من التثبيت هو العصمة و لأجل ذلك قال: ﴿لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ﴾ و لم يقل: «كنت» و المراد القرب من الركون و إنّه لولا التثبيت لقرب ركونه إليهم و لكنّه لم يحصل القرب فضلاً عن الركون لأجل التثبّت.

٢ ـ تبديل القرآن بغيره

و قد كان من جملة الإقتراحات التي قدّمت للنبي (صلّى الله عليه و آله و سلّم) أزاء قبول دعوته هو تبديل القرآن لأنّه يشتمل على تخطئة ما كانوا هم و آباؤهم عليه من الاعتقاد و العمل، فاقترحوا عليه أن يأتي بقرآن خالي من ذلك، قال سبحانه في محكية عنهم: ﴿ وَ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لاَيَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ﴾(يونس/ ١٥).

و هذا الإقتراح على غرار ما سبق ينبع عن جهل بمبادئ النبوّة و الرسالة التي يتحمّلها الرسول من خلال دعوته و ابلاغه و ليس له حق في تحويره و إبداله بل هو مأمور لاتتجاوز وظيفته حد الإبلاغ. قال سبحانه مشيراً إلى هذا الجواب: ﴿قُلْ مَا يَكُونَ لِى أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِى إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّى أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾(يونس/ ١٥).

فهذه الآية تفسّر حقيقة النبوّة و تبيّن حدود وظيفة النبي، فإنّه خاضع للوحي و ليس له إلاّ إبلاغ ما يوحى إليه و إنّ تبديل الموحى إليه عمل إجرامي لايغتفر

و عصيان للرب موجب للثبور و الخسران.

ثمّ إنّه سبحانه يرشد النبي إلى أن يستدل عليهم بأنّ القرآن ليس كلامه و إنّما هو وحي يوحى إليه من خلال تسليط الضوء على سيرته بينهم حيث عاش فيهم عمراً و لم يسمعوا منه شيئاً ممّا يشبه القرآن، فلو كان القرآن حصيلة فكره و نتاج عقله لبدر منه شيء طيلة أربعين سنة من عمره المنصرم إذ (مَا أَضْمَرَ أَحَدٌ شَيْئاً إِلاَّ ظَهَرَ فِي صَفَحَاتِ وَجْهِهِ وَ فَلَتَاتِ لِسَانِهِ)[1].

فامساكه في هذه الحقب و الأعوام عن التفوّه بما يماثل ذلك لأوضح دليل على أنّه وحي أُوحي إليه في حاضر دعوته فكيف تقترحون عليه أن يأتي بقرآن غير هذا إذ ليس القرآن رهن إشارته وطوع اختياره و إرادته حتى يأتي بطائفة منه و يعزف عن طائفة أُخرى و إليه يشير قوله سبحانه:

﴿ قُلْ لَوْ شَاءَ اللهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَ لاَ أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾(يونس/ ١٦).

فهؤلاء القوم مرضى القلوب و الضمائر و ضعفاء العقول و البصائر، يقترحون على الطبيب الإلهي أن يكتب لهم الوصفة العلاجية لدائهم المزمن حسبما تشتهي أنفسهم و أهواؤهم.

٣ ـ شروط تعجيزية

قد بلغ عناد القوم و لجاجهم في وجه الدعوة المحمديّة حدّاً كانوا يقترحون عليه أُموراً تارةً تدخل في حيّز المستحيلات و لاتتعلّق بها القدرة و إن بلغت ما بلغت، و أُخرى أُموراً ممكنة و لكنّها خارجة عن نطاق وظائف النبي في دعوته ورسالته و تضاد أهدافها و لاتمت بالاستدلال على صدقها بصلة و لاتعد دليلاً على

---

(١) مقتبس من كلام لأمير المؤمنين علي(عليه السلام) في قصار حكمه(رقم٢٦) من نهج البلاغة.

ربّانيّة رسالته[1].

و قدتعرّض القرآن الكريم لهذه الشروط المستحيلة أو الصعبة بأشكالها المختلفة في ضمن الآيات التالية:

﴿وَ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ:

١ ـ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعاً

٢ ـ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَ عِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً

٣ ـ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً

٤ ـ أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ

٥ ـ وَ المَلائِكَةِ قَبِيلاً

٦ ـ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ

٧ ـ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ

٨ ـ وَ لَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَقْرَؤُهُ﴾.

هذا تصوير لجملة شروط القوم، و أمّا الجواب عنها فقد أوجزه في كلمتين:

١ ـ ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي

٢ ـ هَلْ كُنْتُ إِلاَّ بَشَراً رَسُولاً﴾ (الأسراء/ ٩٠ـ٩٣)

هذه مطالبهم و إليك تفصيل القول فيها:

إنّ هذه المطالب بين محال لاتدخل في نطاق القدرة، و بين ما هو خارج عن وظيفة الرسول و رسالته، و بين ما هو يضادّ أهداف دعوته، أو لايمت بصلة إلى صدق دعوته، كما سبق ذكره، و إليك بيانها بمزيد من التفصيل:

---

(١) لاحظ السيرة النبويّة: ج١ ص٢٩٦و٢٩٧و٣٠٩.

أمّا الأول: أعني تفجير الينبوع من الأرض فهو يحتمل معنيين:

١ ـ أن يفجّر الينبوع من الأرض وفق رغبتهم لنفسه حتى يكون رجلاً ثريّاً.

٢ ـ أن يفجّر الينبوع من الأرض لأجل هؤلاء حتى تصبح أراضيهم و مراتعهم مخضرّة مزهرة يانعة الثمار.

أمّا الاحتمال الأول: فلايعد دليلاً على صدق الدعوة، و لو أُريد الثاني فهو على خلاف السنّة الإلهية فقد تعلّقت مشيئته الحكيمة بتحصيل هذه المواهب المادّية عن طريق الكدح و الجد في ظل أعمال الطاقات البشرية، بالإضافة إلى أنّه خارج عن وظائف الرسالة، فإنّ الأنبياء قدبعثوا لهداية الناس إلى ما فيه سعادتهم في الدارين باراءة الطريق الموصل إليها، و أمّا القيام بتفجير الينبوع من الأرض فهو أمر خوّل إلى الناس أنفسهم.

و أمّا الثاني: فهو أن يكون للنبيّ جنّة من نخيل و عنب تجري الأنهار خلالها فلاصلة له بصدق الدعوة إذ أقصى ما يستدلّ به على أنّه رجل عاقل عارف بشؤون الفلاحة والتجارة أو رجل له مكانة مرموقة في المجتمع و لاتدلّ كثرة الأموال و الانتعاش الإقتصادي على صدق الدعوة، و قدمرّ تحقيق ذلك في تفسير قوله: ﴿ وَلَوْلاَ نُزِّلَ هذَا القُرْآن عَلَى رَجُلٍ مِنَ القَرْيَتَيْنِ عَظِيم﴾.

و أمّا الثالث: أعني اسقاط السماء على رؤوسهم فهو يضادّ هدف الدعوة، لأنّه (صلّى الله عليه و آله و سلّم) بعث لهداية الناس و رحمة بهم لا لإهلاكهم، نعم يمكن تصوّر ذلك إذا تمّت الحجّة عليهم و لم يبق لهم عذر في عدم قبول الدعوة، فربّما يشملهم العذاب و هو خارج عن موضوع البحث.

أمّا الرابع: أعني الإتيان بالله فهو طلب أمر محال، فهؤلاء كانوا يطلبون رؤية الله سبحانه قبيلاً و مواجهة. و الله فوق الزمان و المكان لايحيط به شيء، و لايمكن أن تراه العيون بمشاهدة الأبصار و إنّما تراه القلوب بحقائق الإيمان.

و أمّا الخامس: أعني الإتيان بالملائكة قبيلاً و مشاهدتهم بانقلاب الغيب شهوداً فهو من المعاجز التي لو تحقّقت و لم يترتب عليها منهم إيمان و إذعان لعمّهم العذاب و لاينظرون، و قد مرّ ذلك في تفسير قوله: ﴿وَ لَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكاً لَقُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لاَيُنْظَرُونَ﴾(الأنعام/ ٨).

و أمّا السادس: و هو أن يكون له بيت من ذهب فلاصلة له بصدق الدعوة.

و أمّا السابع: و هو الرقي في السماء فهو أشبه باقتراح الصبيان و لو فرض تحقّقه عن طريق الإعجاز لما آمنوا به بشهادة قولهم في الإقتراح الثامن: ﴿وَ لَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَقْرَؤُهُ﴾. حيث صرّحوا بأنّ رقيه في السماء غير كاف في إيمانهم و إذعانهم بل يجب أن يقترح عليه أمراً ثامناً و هو أن ينزّل عليهم كتاباً يقرأونه، و لعلّ مقصودهم أن ينزّل كتاباً فيه اسمه و رسالته.

إنّ هذه الإقتراحات التعجيزية أوضح شاهد على أنّ القوم لم يكونوا بصدد كشف الحقيقة و تحرّي الواقع و الصدق،و لو افترضناأنّ النبي قد امتثل لبعض اقتراحاتهم الممكنة لوجدناهم يأتون بحجج واهية أُخرى بقصد التعجيز لاغير،و لأجل ذلك يقول سبحانه في حق هؤلاء و أشباههم: ﴿ وَ لَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بأيديهم لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ﴾(الأنعام/ ٧).

و يقول سبحانه: ﴿ وَ لَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ للهِ الأَمْرُ جَمِيعاً﴾(الرعد/ ٣١). و هذه الآية و نظائرها تدلل بشواهد صادقة لايشوبها الريب على أنّ القوم لم يكونوا بصدد الوقوف على الحقيقة و استكشافها و لأجل ذلك كانوا يقترحون على النبي أُموراً تنم عن روح العناد و المكابرة، و أمّا الذكر الحكيم فقد أجاب عنه بوجهين:

١ ـ ﴿سُبْحَانَ رَبِّي ...﴾ و لعلّه جواب عن قولهم:أو يأتي بالله، و الله سبحانه منزّه عن المادّة و آثارها و ليس للبشر يصحّ رؤيته بحاسة الأبصار. قال سبحانه: ﴿ لاَتُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَ هُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَ هُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾(الأنعام/ ١٠٣).

٢ ـ ﴿هَلْ كُنْتُ إِلاَّ بَشَراً رَسُولاً﴾ و معناه أنّه بشر مأمور لايستطيع القيام بالممكن من هذه الأمور إلاّ بإذنه سبحانه، شأن كل رسول في إنجاز رسالته.

و بعبارة أُخرى إنّكم إن كنتم تطلبون هذه الأمور منّي بما أنا بشر، فالممكن منها خارج عن إطار قدرة البشر، و إن كنتم تطلبون مني بما انّني رسول مبلغ فلاأستطيع التصرّف بلاإذن و رخصة منه سبحانه، و على كل تقدير فهؤلاء الجهلة المجادلون ما كانوا ليؤمنوا و لو جاءهم النبي بأضعاف ما لم يطلبوا به. قال تعالى: ﴿وَ لَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ المَلاَئِكَةَ وَ كَلَّمَهُمُ المَوْتَى وَ حَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾(الأنعام/ ١١١).

و المراد من قوله: ﴿إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ﴾ هو المشيئة القاهرة التي تجبر الناس على الإيمان بالرسالة، و عندئذ لايقام لمثل هذا الإيمان وزن و لاقيمة[١].

* * *

٤ ـ طلب طرد الفقراء

روى الثعلبي باسناده عن عبدالله بن مسعود قال: مرّ الملأ من قريش على رسول الله و عنده صهيب و خباب و بلال و عمّار و غيرهم من ضعفاء المسلمين، فقالوا: يا محمد أرضيت بهؤلاء من قومك أفنحن نكون تبعاً لهم؟ أهؤلاء الذين منَّ الله عليهم؟ أطردهم عنك فلعلّك إن طردتهم اتّبعناك، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ ...﴾[٢].

---

(١) لقد بسطنا الكلام في الجزء الرابع من هذه الموسوعة في تحديد الشروط التي يجب للنبي دونها القيام بالمعجزة وبيّنّاه في مفاد الآيات النافية للإعجاز، لاحظ: ص٩٥ـ١٥٤ من ذلك الجزء.

(٢) مجمع البيان: ج٤ ص٣٠٥.

قال ابـن هشام: و كان رسول الله (صلّـى الله عليه و آله و سلّم) إذا جلـس في المسجد و جلس إليه المستضعفـون من أصحابه: خباب و عمّار و أبـو فكيهة يسار مولـى صفوان بن أُميـّة بن محرث و صهيـب و أشباههـم من المسلمين، هـزأت بهم قريش و قال بعضهم لبعض: هؤلاء أصحابـه كما ترون، أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا بالهدى و الحق؟ لو كان ما جاء به محمد خيراً ما سبقنا هؤلاء إليه، و ما خصّهم الله به دوننا، فـأنزل الله تعالـى فيهم: ﴿وَ لاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالغَدَاوَةِ وَ العَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَ مَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ * وَ كَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهٰؤُلاَءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ * وَ إِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَ أَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(الأنعام/ ٥٢ـ٥٤)[1].

و قد ذكر فـي شأن نزول الآية وجه آخر يناسب كونها مدنيّة لامكيـّة، علماً بأنّ جميع آيات السورة مكيّة و هذا يبعد أن تكون هذه الآية وحدها مدنيّة مع أنّ لحن الآية يناسب كونها مكّية.

و مثله قوله سبحانه: ﴿وَ اصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالغَدٰوةِ وَ العَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَ لاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ لاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَ اتَّبَعَ هَوَاهُ وَ كَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً﴾(الكهف/ ٢٨).

و السورة مكيّة و مفاد الآيـة يشبه مفاد الآيات المكيّة، وقد ذكر فـي شأن نزولها أيضاً ما يعرب عن كونها مدنيّة، و إليك النص الدال على ذلك:

روى السيوطـي في الـدر المنثور: جاء الأقـرع بن حابـس التميمي و عيينـة بن حصين الفـزاري فوجدا النبـي قاعداً مـع بلال و صهيـب و عمّار و خباب فـي أُناس ضعفاء من المؤمنين فلمّا رأوهم حقّروهم، فـأتوه فخلوا به فقالوا: إنّا نحب أن تجعل

---

(١) السيرة النبويّة، لابن هشام: ج١ ص٣٩٢و٣٩٣.

لنا منك مجلساً تعرف لنا العرب به فضلاً، فإنّ و فود العرب ستأتيك فنستحيي أن ترانا العرب قعوداً مع هؤلاء الأعبد، فإذا نحن جئناك فأقمهم عنا فإذا نحن فرغنا فلتقعد معهم إن شئت، قال:نعم، قالوا: فاكتب لنا عليك بذلك كتاباً، فدعا بالصحيفة و دعا عليّاً ليكتب و نحن قعود في ناحية إذ نزل جبرئيل بهذه الآية: ﴿وَ لا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالغَدٰوةِ وَ العَشِىِّ﴾ إلى قوله ﴿فَقُلْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾فألقى رسول الله الصحيفة من يده، فأتيناه و هو يقول: ﴿سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ فكنّا نقعد معه، فإذا أراد أن يقوم قام و تركنا، فأنزل الله: ﴿وَ اصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالغَدٰوةِ وَ العَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ قال: فكان رسول الله يقعد معنا بعد فإذا بلغ الساعة التي يقوم فيها قمنا و تركناه حتى يقوم[١].

يقول العلاّمة الطباطبائي في هذا الصدد: «استفاضت الروايات على نزول سورة الأنعام دفعةً، هذا و التأمل في سياق الآيات لايبقي ريباً أنّ هذه الروايات إنّما هي من قبيل ما نسمّيه تطبيقاً، بمعنى أنّهم وجدوا مضامين بعض الآيات تقبل الانطباق على بعض القصص الواقعة في زمن النبي(صلّى الله عليه و آله و سلّم) فعدّوا القصّة سبباً لنزول الآية لابمعنى أنّ الآية انما نزلت وحدها دفعة لحدوث تلك الواقعة و رفع الشبهة الطارئة من قبلها،بل بمعنى أنّ الآية يرتفع بها ما يطرأ من قبل تلك الواقعة من الشبهة كما ترفع بها الشبه الطارئة من قبل سائر الوقائع من أشباه الواقعة و نظائرها كما يشهد بذلك ما ترى في هذه الروايات الثلاث الواردة في سبب نزول قوله: ﴿وَ لاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ...﴾ الآية، فإنّ الغرض فيها واحد لكن القصص مختلفة في عين أنّها متشابهة فكأنّهم جاءوا إلى النبي (صلّى الله عليه و آله و سلّم) و اقترحوا عليه أن يطرد عنه الضعفاء كرّة بعد كرّة و عنده في كل مرّة عدّة من ضعفاء المؤمنين،و في مضمون الآية إنعطاف إلى هذه الإقتراحات أو بعضها[٢].

---

(١)الدر المنثور: ج٣ ص١٣، و نقله في مجمع البيان عند تفسير الآيتين فلاحظ.

(٢)الميزان: ج٧ ص١١٠ بتصرّف يسير.

و يضيف قائلاً: «إنّ ما اقترح المشركون على النبي نظير ما اقترحه المستكبرون من سائر الأمم على رسلهم من أن يطردوا عن أنفسهم الضعفاء و الفقراء من المؤمنين تعزّزاً و تكبّراً و قد حكى الله سبحانه عن قوم نوح فيما حكى من محاجّته(عليه السلام) حجاجاً يشبه ما في هذه الآيات من الحجاج قال تعالى: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِثْلَنَا وَ مَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَ مَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ إلى أن قال: ﴿وَ مَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلاَقُوا رَبِّهِمْ وَ لَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ * وَ يَا قَوْمِ مَنْ يَنصُرُنِي مِنَ اللهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾(هود/ ٢٧و٢٩و٣٠)[1].

(١)الميزان: ج٧ ص١١٠ بتصرّف يسير.

د ـ تعذيب النبيّ و أصحابه

قد كان إيقاع الأذى على الدعاة المصلحين من سنن المجتمعات الجاهلية حيث قد كان أهلها يخالونهم أعداء لأنفسهم و مصالحهم فكانوا يقابلونهم بالإيذاء والشتم و الضرب و القتل،فلم يكن النبي فيما لاقاه من الأذى و السب و التنكيل به وبأصحابه بدعاً من الأمور.

و قد أدار المشركون رحى الشر عليهم طيلة لبثهم في مكة فجاء الوحي يحثّهم على الصبر و الثبات بتعابير و أساليب مختلفة و إليك توضيح ذلك:

١ ـ نزل الوحي مسلّياً بقوله: ﴿ وَ لَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَ أُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَ لاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ وَ لَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾(الأنعام/ ٣٤) و قوله: ﴿ وَ اصْبِرْ وَ مَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللهِ وَ لاَتَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾(النحل/ ١٢٧).

٢ ـ و محفّزاً تارة أُخرى بتذكيره (صلّى الله عليه و آله و سلّم) بجَلَد أُولي العزم في إداء رسالاتهم بقوله: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا العَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَ لاَتَسْتَعْجِل لَهُمْ﴾(الأحقاف/ ٣٥).

٣ ـ و ثالثة داعياً له (صلّى الله عليه و آله و سلّم) تفويض الأمر إلى الله و التريّث حتى يأتي موعده بقوله: ﴿وَ اتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَ اصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ وَ هُوَ خَيْرُ الحَاكِمِينَ﴾(يونس / ١٠٩).

٤ ـ و رابعاً مروّضاً له (صلّى الله عليه و آله و سلّم) في قبال ما يكال إليه من

صنوف الايذاء بقوله: ﴿وَ اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَ اهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً﴾(المزّمل / ١٠).

٥ ـ و خامساً منبّهاً له(صلّى الله عليه و آله و سلّم) بتجنّب ما وقع فيه النبيّ يونس بقوله سبحانه: ﴿وَ لاَ تَكُنْ كَصَاحِبِ الحُوتِ إِذْ نَادَى وَ هُوَ مَكْظُومٌ﴾(القلم/ ٤٨).

فهذه الآيات و نظائرها تعرب عن عظم درجة الايذاء و الوصب الذي عاناه النبي في سبيل إرساء قواعد دعوته حيث قابلها برحابة صدر وسعة نفس، و على الرغم من كل ذلك فلم تتحرك شفتاه بطلب انزال العذاب عليهم، سواء عندما كان في مكة أم بعد مغادرتها إلى المدينة فكان يقابل تزمّت قومه و عنادهم بالحكمة و الموعظة الحسنة ما وجد لذلك سبيلاً.

المضطهدون في صدر البعثة

و قد جاء في كتب السيرة أسماء الذين عذّبوا بيد قريش من صحابة النبي الأكرم و على رأسهم«ياسر» و «سميّة» أبوا عمّار، و «صهيب» و «بلال» و «خباب» و قد اُستشهد أبو عمّار و اُمّ عمّار بتعذيب المشركين و أمّا عمّار فقد أعطاهم بلسانه ما أرادوا منه و بقي قلبه مطمئن بالإيمان، و عندما جاء خبر تعذيب قريش لنبي الإسلام(صلّى الله عليه و آله و سلّم) فلم يزل يلهج بهم و يدعو لهم و يقول: اصبروا آل ياسر موعدكم الجنّة، و يقول: أبشروا آل ياسر موعدكم الجنّة، و يقول: اللّهمّ اغفر لآل ياسر و قد فعل.

يقول ابن هشام: و كان بنو مخزوم يخرجون بعمّار و أبيه و اُمّه و كانوا أوّل أهل بيت في الإسلام إذا حميت الظهيرة يعذبونهم برمضاء مكة فيمر بهم رسول الله فيقول: صبراً آل ياسر موعدكم الجنّة، صبراً آل ياسر فإنّ مصيركم إلى الجنّة[1].

---

(١)سيرة ابن هشام: ج١ ص٣١٩ـ٣٢٠.

يروي أبو نعيم عن عثمان بن عفـان قال: لقيت رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) بالبطحـاء فأخذ بيدي فانطلقـت معه، فمرّ بعمّار و أُمّ عمار و هـم يعذّبون، فقال: صبراً آل ياسر فإنّ مصيركم إلى الجنّة.

و روى أيضـاً عن مجاهـد: أوّل من أظهـر الإسلام سبعـة، فعـدّ منهم عمّـار و سميّة ـ أمّ عمّار ـ.

و كانوا يلبسـونهم أدراع الحديد ثمّ يسحبـونهم في الشمس فبلـغ منهم الجهد ما شاء الله أن يبلـغ من حر الحديـد و الشمس، فلمّا كان مـن العشيّ أتاهم أبـوجهل ـ لعنه الله ـ و معه حربة فجعل يشتمهم و يوبّخهم[1].

ثمّ إنّ المشركين أصابوا عمّار بن ياسر فعذّبوه ثمّ تركوه(لأنّه أعطاهم ما يطلبون) فرجع إلى رسول الله فحدّثه بالذي لقي من قريش.

و في روايـة: أخذ بنـو المغيرة فغطّـوه في بئرميمـون و قالوا: اكفـر بمحمد، فتابعهم على ذلك و قلبه كاره.

و في رواية ثالثة: أخذ المشركون عمّار بن يـاسر فعذّبوه حتى باراهم في بعض ما أرادوا، فشكـى ذلك إلـى النبي، فقـال النبي: كيـف تجد قلبـك؟ قال: مطمئنـاً بالإيمـان، فقال النبـي(صلّى الله عليـه و آله و سلـّم): فإن عـادوا فعد، فنزل قـوله سبحانه: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللهِ مِنْ بَعْدِ إِيْمَانِهِ إِلاَّ مَـنْ أُكْرِهَ وَ قَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَ لَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللهِ وَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾(النحل/ ١٠٦).

فأخبر الله سبحانه أنّه من كفر بعد إيمانه فعليه غضب من الله و له عذاب أليم، و أمّا من أكره و تكلّم بها لسانه و خالفه قلبـه بالإيمان لينجو بذلك من عدوّه فلاحرج عليه، لأنّ الله سبحانه إنّما يأخذ العباد بما عقدت عليه قلوبهم[2].

(١)حلية الأولياء: ج١ ص١٤٠.

(٢)تفسير الطبري: الجزء١٤، ص١٢٢.

لقد تطرّق إلى بعض القلوب أنّ عمّاراً كفر، فقال النبي: إنّ عمّاراً ملئ إيماناً من قرنه إلى قدمه و اختلط الإيمان بلحمه و دمه، و جاء عمّار إلى رسول الله و هو يبكي، فقال: ماوراءك؟ فقال: شر يا رسول الله، ماتركت حتى نلت منك و ذكرت آلهتهم بخير، فجعل رسول الله يمسح عينيه و يقول: إن عادوا لك فعدلهم بما قلت، و أضاف الطبرسي انّ ياسراً و سميّة أبوي عمّار أوّل شهيدين في الإسلام(١).

إنّ الأساليب التي أنتهجتها و تبنّتها قريش لشل حركة تقدم الدعوة النبويّة لمّا أضحت فاشلة، أضطرّت إلى اللجوء إلى اسلوب آخر و هو اثارة الضوضاء و الضجيج، للحيلولة دون بلوغ القرآن إلى مسامع الناس.

إثارة الضوضاء عند تلاوة النبي للقرآن

كان القرآن الكريم هو المعجزة الكبرى للنبي و كانت العرب تعرف بفطرتها أنّه كلام فوق كلام البشر، و أنّ له لحلاوة و أن عليه لطلاوة و أنّ أعلاه لمثمر و أن أسفله لمغدق و أنّه يعلو و ما يعلى عليه(٢).

هكذا و صف القرآن بعض أعداء النبي، و قد كان الشباب من قريش و غيرها يدركون حلاوة القرآن بذوقهم السليم فيندفعون إلى الإعتناق به حيث كان القرآن يأخذ بمجامع قلوبهم و يوردهم المنهل العذب من الإيمان، فلم ير أعداء النبي بدّاً من نهي العرب عن الاستماع إليه و قد كان النبي يجهر بالقرآن في الأشهر الحرم في المسجد الحرام، فاحتالوا بالمكاء و التصفير و التخليط في المنطق على رسول الله حتى لايسمع صوته و لايعلم كلامه، و إليه يشير قوله سبحانه: **﴿وَ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَاتَسْمَعُوا لِهٰذَا الْقُرْآنِ وَ الْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾**(فصّلت/ ٢٦). حتى يصدّوا بذلك

---

(١)مجمع البيان: ج٣ ص٣٨٨.

(٢)اقتباس من كلام الوليد بن المغيرة، راجع مجمع البيان: ج٥ ص٣٨٧.

من أراد استماعه، فإذا لم يسمع و لم يفهم لايتبعه«فيغلبون بذلك محمداً[1]. فأوعدهم الله سبحانه بقوله: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَاباً شَدِيداً وَ لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِى كَانُوا يَعْمَلونَ﴾ و لقد تحقّق وعده سبحانه في الدنيا يوم بدر فقتل منهم من قتل و أسر منهم من أُسر، فنالوا جزاء أعمالهم، و بقي عليهم العذاب الأكبر الذي يجزون به في يوم البعث. يقول سبحانه: ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾(فصّلت/ ٢٧و٢٨).

العذر الأخير للإمتناع عن قبول الدعوة

و أقصى ما كان عند قريش من العذر لتبرير عملهم و عدم اعتناقهم لدين النبي، هو أنّهم كانوا يخافون من مشركي الجزيرة العربيّة حيث إنّهم كانوا على خلاف التوحيد بل على عبادة الأصنام، فقالوا: لو اعتنقنا دين محمد(صلّى الله عليه و آله وسلّم) و رفضنا الأصنام و الأوثان، لثار الجميع علينا، و هذا ما يحكيه عنهم قوله سبحانه: ﴿وَ قَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا ... ﴾(القصص/ ٥٧) و الآية تعطي أنّهم كانوا واقفين على أنّ دين النبي حق و لكن الذي منعهم عن اتباع الهدى مخافة أن تتخطّفهم العرب من أرضهم و ليس لهم طاقة بهم[2].

فردّه الوحي بأنّ الله سبحانه جعل لهم مكّة دار أمن و أمان و دفع ضرّ الناس عنهم عندما كانوا مشركين فإذا آمنوا و اعتنقوا دين الله يعمّهم الأمن و السلامة أيضاً لأنّهم في حالة الإيمان أقرب إلى الله سبحانه من حالة الكفر، فالخالق الذي قطع أيدي الأشرار عن بلدهم قادر في كلتا الحالتين» و إليه يشير قوله سبحانه:
﴿... أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبَى إِلَيهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقاً مِنْ لَدُنَّا وَ لَكِنَّ

---

(١)تفسير الطبري الجزء ٢٤ ص٧٢.

(٢)التخطّف: أخذ الشيء على وجه الإضطراب من كل وجه، و المصطلح الدارج هو الإختطاف.

﴿أَكْثَرَهُمْ لَايَعْلَمُونَ﴾(القصص/ ٥٧).

كان على هؤلاء أن يعتبروا بأقوام متمرّدين الذين أعطوا المعيشة الواسعة، فلم يعرفوا حق النعمة و كفروا فعمّهم الهلاك و هذه ديار عاد و ثمود و قوم لوط صارت خالية عن أهلها و هي قريبة منهم، فإنّ ديار عاد إنّما كانت بالأحقاف و هو موضع بين اليمن و الشمال،و ديار ثمود بوادي القرى، و ديار لوط بسدوم و كانت قريش تمر بهذه المواضع في تجارتها، و إليه يشير قوله سبحانه: ﴿وَ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ[1] مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلاً وَ كُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾(القصص/ ٥٨).

هذا آخر ما كان عندهم من المبرّرات لعدم الإيمان بالدّعوة.

خرافة الغرانيق

كان اللازم علينا ضرب الصفح عن تناول هذه الخرافة التاريخية بالبحث لأنّا قد اعتمدنا في سرد حوادث السيرة النبوية و فق ما ورد في القرآن الكريم، فما جاء في خلال آياته نذكره و ما لم يرد نتركه إلى كتب السيرة و التاريخ،غير أنّ هذه القصة لمّا الصقت بساحة القرآن الكريم القدسيّة بالإستناد إلى بعض الآيات الموهمة لذلك كذباً و زوراً، فصارت ذريعة في الآونة الأخيرة بيد أعداء الدين من المستشرقين كـ «بروكلمان» في كتاب تاريخ الشعوب الإسلامية، ص٣٤، و كتاب «الإسلام» لفرويد هيوم، لزم علينا التطرّق لتلك الخرافة و تحليلها تحليلاً علمياً مؤيّداً بالبرهان الرصين و الحجّة الدّامغة حتى لا يبقى لمشكك شكّ و لا لمريب ريب إلاّ من أخذته العصبية العمياء فانّها داء لا علاج له، خصوصاً ما نشاهده في المؤامرة الأخيرة التي حاكتها بريطانيا وغيرها من أذناب الكفر العالمي حيث زمّروا و طبّلوا لكتاب «الآيات الشيطانية» لمؤلّفه «سلمان رشدي» و منحوا له جائزة أدبية في ذلك المجال، و الرجل

---

(١)البطر: الطغيان عن النعمة.

هندي الأصل بريطاني الجنسيّة و الدراسة و قد ترجم الكتاب بإيعاز من الدول المستعمرة إلى أكثر اللغات العالميّة مع أنّه ليس بكتاب أدبي و لا علمي و لا تاريخي، بل أشبه بأضغاث أحلام نسجها الخيال و روّج لها الإستعمار، و إليك القصّة على وجه الإجمال:

«جلس رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) في ناد من أندية قريش كثير أهله فتمنّى يومئذ أن لايأتيه من الله شيء فينفروا عنه، فأنزل الله عليه: ﴿وَ النَّجْمِ إِذَا هَوَى * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَ مَا غَوَى﴾ فقرأه رسول الله حتى إذا بلغ ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالعُزَّى وَ مَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى﴾ ألقى عليه الشيطان كلمتين:

«تِلْكَ الغَرَانِيقُ العُلَى وَ إِنَّ لَشَفَاعَتَهُنَّ لَتُرْجَى» فتكلّم بها ثمّ مضى فقرأ السورة كلّها فسجد في آخر السورة و سجد القوم جميعاً معه، و رفع الوليد بن المغيرة تراباً إلى جبهته فسجد عليه و كان شيخاً كبيراً لايقدر على السجود، فرضوا بما تكلّم به، و قالوا: قدعرفنا أنّ الله يحيي و يميت و هو الذي يخلق و يرزق و لكنّ آلهتنا هذه تشفع لنا عنده، إذ جعلت لهانصيباً، فنحن معك. قالا(محمد بن كعب القرظي و محمد ابن قيس): فلمّا أمسى أتاه جبرئيل(عليه السلام) فعرض عليه السورة فلمّا بلغ الكلمتين اللتين ألقى الشيطان عليه، قال: ما جئتك بهاتين، فقال رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم): افتريت على الله و قلت على الله ما لم يقل!! فأوحى الله عليه: ﴿وَ إِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ... ثُمَّ لاَتَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً﴾. فما زال مغموماً مهموماً حتّى نزلت عليه: ﴿وَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَ لاَ نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِى أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللهُ مَا يُلْقِى الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آيَاتِهِ وَ اللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾(الحج/ ٥٢)، قال فسمع من كان من المهاجرين بأرض الحبشة:إنّ أهل مكّة قد أسلموا كلّهم، فرجعوا إلى عشائرهم و قالوا: هم أحبّ إلينا، فوجدوا القوم قد ارتكسوا حين نسخ الله ما يلقي الشيطان»[1].

---

(١)تفسير الطبري الجزء ١٧، ص١٣١.

و تحقيق القوم في تلك القصّة يتوقّف على البحث عن سند الرواية التي أوردها الطبري في تفسيره و السيوطي في الدر المنثور أوّلاً، و دراسة متنها و عرضه على العقل و القرآن ثانياً لكي يتجلّى الحق بأجلى مظاهره.

تحليل سند الرواية

إنّ هذه الروايات لايمكن الإحتجاج بها لوجهين:

الأوّل: إنّ أسانيدها تنتهي إلى التابعين الذين لم يدركوا النبي(صلّى الله عليه وآله و سلّم).

من أمثال:

١ ـ محمد بن كعب القرظي ٢ ـ محمد بن قيس ٣ ـ أبو العالية ٤ ـ سعيد بن جبير ٥ ـ الضحّاك ٦ ـ ابن شهاب.

و لم يدرك واحد منهم النبي قطّ و هم قد ساقوا القصّة من دون أن يذكروا الواسطة بينهم و بينه، و إليك نصوص علماء الرجال في حقّهم:

الف ـ محمد بن كعب القرظي

قال ابن حجر: قال العجلي: مدني تابعي ...،و قال البخاري: إنّ أباه كان ممّن لم يَثْبُت يوم قريظة فترك، و ما نقل من قتيبة من أنّه ولد في عهد النبي،لاحقيقة له، إنّما الذي ولد في عهده، هو أبوه، و قد ذكروا انّه كان من سبي قريظة ممّن لم يحتلم و لم ينبت فخلّوا سبيله، حكى ذلك البخاري في ترجمة محمد، و يدلّ على ذلك إنّه مات سنة ١٠٨ هـ ق و قيل: ١١٧ هـ ق و هو ابن ثمان و سبعين سنة، وجاء عن النبي(صلّى الله عليه و آله و سلّم) من طرق أنّه قال: يخرج من أحد الكاهنين رجل يدرس القرآن دراسة لايدرسها أحد يكون بعده. قال ربيعة: فكنّا نقول: هو محمد بن كعب، و الكاهنان قريظة و النضير ـ إلى أن يقول ـ:

... فكان يقص في المسجد فسقط عليه وعلى أصحابه سقف، فمات هو وجماعة معه[1].

ب ـ محمد بن قيس

و هو محمد بن قيس المدني قاضي عمر بن عبد العزيز، روى عن أبي هريرة وجابر، و يقال: مرسل، توفّي أيام الوليد بن يزيد. روى عنه أبو معشر. قال ابن معين: ليس بشيء لايروى عنه[2].

ج ـ ابن شهاب

و هو محمد بن مسلم الزهري ـ كان يدلّس في النادر ـ و هو أحد التابعين بالمدينة، و قال ابن حجر: محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب بن عبد الله بن الحارث بن زهرة بن كلاب القرشي الزهري، و كنيته أبو بكر و هو من رؤوس الطبقة الرابعة مات سنة خمس وعشرين [بعد المائة] وقيل قبل ذلك بسنة أو سنتين[3].

د ـ أبو العالية

و هو رفيع بن مهران الرياحي أدرك الجاهلية و أسلم بعد وفاة النبي بسنتين ودخل على أبي بكر وصلّى خلف عمر... حتى قيل: إنّه أدرك عليّاً ولم يسمع منه[4].

---

(١) تهذيب التهذيب ج٩ ص٤٢١.

(٢) تهذيب التهذيب ج٩ ص٤١٤.

(٣) ميزان الإعتدال ج٤ ص٤٠، و تقريب التهذيب ج٢ ص٢٠٧، و وفيات الاعلام ج٤ برقم٥٦٣.

(٤) تهذيب التهذيب ج٣ ص٣٨٤.

هـ ـ سعيد بن جبير

فهو سعيد بـن جبير الكوفـي روى عن ابـن عباس و ابـن الزبيـر و غيره، قتلـه الحجاج صبراً سنة٩٥ [١].

و ـ الضحّاك

و هو الضحّاك بن عثمان. قال أبو زرعة: ليس بقوي، و قال أبو حاتم: يكتب حديثه و لايحتج به. مات بالمدينة سنة ثلاث و خمسين [٢].

هؤلاء الذيـن ينتهي إليهم السند كلّهم تـابعون، نعم رواه الطبري أيضـاً عن ابن عباس،فهو ولد قبل الهجرة بثلاث سنين، مـات سنة ثمان و ستين بالطائف و هو أحد المكثرين مـن الصحابة، و لكنّه لـم يكن حاضراً في زمـن القصة بل لم يكـن متولّداً فيه(لأنّ تـاريخها يرجـع إلى السنة الخامسـة من البعثة و هـو ولد قبل الهجـرة بثلاث سنين) فتكون روايته مقطوعة.

و على كل تقدير فكل ما رواه الطبري فـي هذا المجال مراسيـل أو مقطوعات لايمكن الاحتجاج بها.

الثاني: إنّ الأسانيـد تشتمل على رجال ضعـاف لايمكن الاحتجاج بهـم سوى طريق سعيد بن جبير،و قد عرفت أنّه أيضاً مرسل.

هذا مـا لدى الطبـري في تفسيـره،و أمّا مـا نقله السيـوطي فـلايقصر عمّا نقله الطبري في الضعف و الإرسال، و قدرواه عن «أبي صالح» و أبي بكر بن عبد الرحمان ا بن الحارث و «السدي» أيضاً.

---

(١)تهذيب التهذيب ج٤ ص١١.

(٢)تهذيب التهذيب ج٤ ص٤٤٧.

أمّا الأوّل فهو مشترك بين ١٩ شخصاً لم يرو واحد منهم عن النبي فالجلّ لولا الكل تابعون[١].

و أمّا الثاني فهو أبوبكر بن عبد الرحمان بن الحارث ولد في خلافة عمر[٢].

و أمّا الثالث فهو محمد بن مروان تابعي. قال ابن معين: ليس بثقة، قال ابن غير: ليس بشيء و كان كذّاباً[٣].

نعم رواه أيضاً عن سعيد بن جبير و ابن عباس و قد عرفت حالهما، و رواه عن السدي و هو أيضاً تابعي.

مضافاً إلى اشتمال الاسناد على رجال ضعاف، و أمّا ماذكره السيوطي من أنّه أخرج الطبراني و البزار و ابن مردويه و الضياء في المختار بسند رجاله ثقات من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس فهو غير صحيح لما عرفت من أنّ المرسل و المقطوع لايوصفان بالصحّة على الإطلاق و لو وصفا بالصحّة فالمراد هو الصحّة النسبية، فلايحتج بها.

إنّ علماء الإسلام و أهل العلم و الدراية من المسلمين، قد أشبعوا هذه الرواية نقضاً وردّاً و إبراماً فوصفها السيد مرتضى بأنّها خرافة وضعوها[٤].

و قال النسفي عند القول بها: غير مرضي. و قال الخازن في تفسيره: إنّ العلماء وهّنوا أصل القصّة ولم يروها أحد من أهل الصحّة، و لاأسندها ثقة بسند صحيح، أو سليم متّصل، و إنّما رواها المفسّرون و المؤرّخون المولعون بكل غريب، الملفّقون من الصحف كل صحيح و سقيم، و الذي يدل على ضعف هذه القصّة اضطراب رواتها و انقطاع سندها و اختلاف ألفاظها[٥].

---

(١) راجع تهذيب التهذيب ج١٢ ص ١٣٠-١٣١.

(٢) تهذيب التهذيب ج١٢ ص ١٣٠-١٣٣.

(٣) تهذيب التهذيب ج٩ ص٤٣٦ برقم ٧١٩.

(٤) تنزيه الأنبياء ص١٠٩.

(٥) الهدى إلى دين المصطفى ج١ ص١٣٠.

و قال القاضي عياض : إنّ هذا حديث لم يخرجه أحد من أهل الصحّة ولا رواه ثقة بسنده سليم متّصل ، و إنّما أولع به المفسّرون ، و المؤرّخون ، المولعون بكل غريب ، و المتلقّفون من الصحف كل صحيح و سقيم ، و صدق القاضي بكر بن العلا المالكي حيث قال : لقد بلي الناس ببعض أهل الأهواء و التفسير ، و تعلّق بذلك الملحدون مع ضعف نقلته ، و اضطراب رواياته ، و انقطاع أسناده و اختلاف كلماته[1].

و قال أمين الإسلام الطبرسي : أمّا الأحاديث المرويّة في هذا الباب فهي مطعونة و مضعّفة عند أصحاب الحديث ، و قد تضمّنت ما ينزّه الرسل عنه ، فكيف يجوز ذلك على النبي و قدقال سبحانه : ﴿كَذَٰلِكَ لِنثبتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ و قال : ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَىٰ﴾ .

و أقصى ما يمكن أن يقال :إنّ النبي(صلّى الله عليه و آله و سلّم) لمّا تلا سورة والنجم و بلغ إلى قوله : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَ الْعُزَّىٰ وَ مَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَىٰ﴾ علمت قريش من عادته أنّه كان يعيبها ، قال بعض الحاضرين من الكافرين : ﴿تِلْكَ الغَرَانِيقُ العُلَى﴾ فظنّ الجهّال أنّ ذلك من قول النبي(صلّى الله عليه و آله و سلّم)[2].

و قال السيّد الطباطبائي : إنّ الأدلّة القطعية على عصمته تكذّب متنها ، و إن فرضت صحّة سندها ، فمن الواجب تنزيه ساحته المقدّسة عن مثل هذه الخطيئة ، مضافاً إلى أنّ الرواية تنسب إليه أشنع الجهل و أقبحه فقد تلا«تِلْكَ الغَرَانِيقُ العُلَى وَإِنَّ شَفَاعَتَهُنَّ لَتُرْتَجَى» و جهل أنّه ليس من كلام الله ، و لانزل به جبرئيل ، و جهل أنّه كفر صريح يوجب الإرتداد ، و دام على جهله ، حتى سجد و سجدوا في آخر السورة ، و لم يتنبّه ثمّ دام على جهله حتى نزل عليه جبرئيل ، و أمره أن يعرض عليه السورة فقرأها عليه و أعاد الجملتين و هو مصرّ على جهله ، حتى أنكره عليه جبرئيل ، ثمّ أنزل عليه آية تثبت نظير هذا الجهل الشنيع و الخطيئة الفاضحة لجميع الأنبياء

---

(١)الشفاء ج٢ ص١٢٦ .

(٢)الطبرسي مجمع البيان ج٤ ص٦١و٦٢ .

والمرسلين و هي قوله: ﴿ وَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَ لاَنَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِه﴾.

لو جاز مثل هذا التصرّف من الشيطان في لسانه بالقائه جملة أو جملتين، في ثنايا الوحي، لارتفع الأمن عن الكلام الإلهي، فكان من الجائز حينئذ أن تكون بعض الآيات القرآنية من إلقاء الشيطان فيلقي نفس هذه الآية﴿ وَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَ لاَنَبِيٍّ﴾ فيضعه في لسان النبي و ذكره، فيحسبها من كلام الله الذي نزل به جبرئيل كما حسب حديث الغرانيق كذلك ـ إلى أن قال:ـ و بذلك يرتفع الاعتماد والوثوق بكتاب الله من كل جهة، و تلغى الرسالة و الدعوة النبويّة بالكليّة جلّت ساحة الحق من ذلك[1].

هذا كلّه راجع إلى اسناد الرواية و كلمات العلماء بشأنه، وأمّا ما يرجع إلى متنها فنشير إلى أمرين كل واحد كاف لإبطال الرواية:

تحليل متن الرواية

١ ـ إنّ هذه الروايات أجمعت على أنّ النبي الأكرم(صلّى الله عليه و آله وسلّم) قرأ سورة والنجم فلمّا بلغ إلى قوله:﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَ الْعُزَّى وَ مَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى﴾ وسوس إليه الشيطان بهاتين الجملتين ثمّ مضى في التلاوة حتى إذا بلغ آية السجدة في آخر السورة، سجد و سجد معه المشكرون.

فنقول: إنّ الذين كانوا في المسجد كانوا على قدر من الوعي و الدراية فكيف يعقل منهم أنّهم سمعوا هاتين الجملتين، اللتين تتضمّنان مدح أصنامهم و أوثانهم، و غاب عن سمعهم ما يتضمّن التنديد و الازراء بشأن آلهتهم، فإنّه قدجاء بعد هاتين الجملتين المدّعيتين قوله سبحانه: ﴿ إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَ آبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَ مَا تَهْوَى الأَنْفُسُ وَ لَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ

---

(١)الطباطبائي: الميزان ج١٤ ص٤٣٥و٤٣٦.

رَبِّهِمُ الهُدَى﴾(النجم/ ٢٣).

فهل يتعقّل أن ينسب إلى أوتاد الفصاحة و البلاغة أنّهم أُقنعوا بهاتين الجملتين، و فاتهم ما تضمّنته الآيات الكثيرة التي أعقبتها.

فهذه حجّة بالغة على أنّ واضع القصة كان غافلاً عن تلك الآيات التي ترد على هاتين الجملتين بصلابة.

٢ ـ إنّ وجود التناقض في طيّات الرواية من جهات شتّى دليل واضح على كونها مختلقة حاكتها أيدي القصّاصين.

و أمّا بيان ذلك التناقض فمن وجوه:

أ ـ تروي الروايات أنّ النبي و المسلمين و المشركين سجدوا إلاّ الوليد ابن المغيرة فإنّه لم يتمكّن من السجود لشيخوخته، و قيل:مكانه سعيد بن العاص، و قيل: كلاهما، و قيل: أُميّة بن خلف، و قيل: أبو لهب، و قيل: المطّلب.

ب ـ تضمّن بعضها أنّ النبي(صلّى الله عليه و آله و سلّم) قرأها و هو قائم يصلّي، و تضمّن البعض الآخر أنّه قرأها بينما هو جالس في نادي قومه.

ج ـ يقول بعضها:حدّث بها نفسه،و آخر:جرت على لسانه.

د ـ يقول بعضها:انّ النبي(صلّى الله عليه و آله و سلّم) تنبّه لها حين تلاوتها، و آخر: انّه لم يتنبّه إلى المساء حتى جاء إليه جبرئيل فعرضها عليه ثمّ تبيّن له الخطأ، إلى غير ذلك من وجوه التناقض التي يقف عليها المتتبّع عند التأمّل و امعان النظر في متون الروايات المختلفة التي جمعها ابن جرير و السيوطي في تفسيرهما.

فحصيلة الكلام: إنّ الرواية بشتّى طرقها وصورها لايصحّ الاحتجاج بها لكون اسنادها مراسيل و مقاطيع من جانب، و كونها متضاربة المضمون من جانب آخر، و الذي يسقط الرواية عن الحجّية أنّها تنتهي إلى قصّاصين نظير محمد بن كعب

القرظي و محمد بـن قيس، و همـا مولعـان بذكر كـل صحيح و سقيـم في أنـديتهم و مجالسهم، لأنّ لكل غـريب لذّة، ليس في غيره، خصوصاً أنّ محمد بن كعب ابن بيت يهـودي أباد النبي قبيلتـه، و لـم يبق منـه إلاّ نفراً قليـلاً، فمن المحتمل جـدّاً أنّه حاكها على نول الوضع لينتقـم من النبي الأكرم و ليشوّه عصمته، و الآفة كل الآفة من هؤلاء المستسلمين مثل كعب الأحبار و وهب بن منبه.

ثمّ إنّ الآية التي زعمت الرواية أنّها نزلت في تلك الواقعة أعني قوله سبحانه:

﴿ وَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَ لاَنَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آيَاتِهِ وَ اللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾(الحج/ ٥٢).

و قد فرغنا من تفسيره في هذه الموسوعة عند البحث عن عصمة الأنبياء فلانعيد[1].

---

(١) مفاهيم القرآن ج٤ ص٣٧٣ـ٤٥٠.

(٧)

إسراءه و معراجه

إنّ الأنبياء و الرسل هم أوّل من سبروا أعماق الفضاء بأكنافه و آفاقه، و لو صحّ لنا تسميتهم: «روّاد الفضاء» فهم أولى بإطلاق ذلك الإسم عليهم دون غيرهم، فقد عرجوا قبل أن يكون هناك أثر لوجود روّاد الفضاء في روسيا أو الولايات المتحدة الأمريكية، بل لم تكن هناك أية فكرة لتسخير الفضاء أو التجاسر على التفكير به، و أخطاره في الأذهان، فقد كانت العلوم الرائجة في تلك العصور تستحيله و تجعله في مصافّ المحالات، لأنّهم كانوا على القول بامتناع الخرق و الالتئام في طبقات السماء فهم(عليهم السلام) أوّل من كسروا حاجز هذه الخرافة و أثبتوا بتطبيقهم العملي عن طريق العروج و الاسراء إنّه ليست هناك حجب تخرق، أو تلتئم بعد الخرق، بل السماء فضاء رحب، و الكواكب إنّما هي عبارة عن أجرام معلّقة في أرجائه، تحكمها قوابين الطرد و الجذب المركزية، و إنّ الإنسان بفضل معونة القدرة الغيبية، يستطيع الافلات من قوّة الجاذبية الأرضية، كما أنّه يقدر على اختراق الغلاف الكثيف المحيط بالأرض،كل ذلك بفضل المواهب السنيّة التي يجلّل بها الخالق جلّ جلاله عبده.

إنّ الأُمنية البعيدة غوراً في تاريخ الفكر الإنساني، و التي أصبحت في متناول إنسان العصر الحديث بفضل ازدهار ورقي حضارته المادّية، و تسخير قوىٰ الطبيعة لصالحه، تحقّقت بالأنبياء و أُمناء الغيب بفضل ما حباهم الباري عزّ شأنه به من الوسائل الغيبية للصعود و الارتقاء في أعماق الفضاء الواسع.

و بذلك يفترق عمل الأنبياء في ذلك المجال عن عمل روّاد الفضاء و إن كان الكل مثيراً للإعجاب لأنّهم كانوا يعتمدون على أسباب غيبية لاتخضع للموازين

البشريـة ، و هذا بخـلاف عمل روّاد الفضـاء فإنّهـم يستمدّون فـي تحقيق اُمنيتهـم ، بتـوسّط الأسبـاب و العلـل الطبيعية و الأجهـزة الصنـاعيّة التـي عكـف على صنعهـا وإعدادها مئات بل اُلوف من المفكّرين و العباقرة في مختلف العلوم البشرية و بإنفاق المليارات من العملة الصعبة .

هذا هو الذكـر الحكيم يصوّر لنا كيفيّة إرتقاء النبي سليمـان(عليه السلام) إلى السماء و سياحتـه في جوّ الأرض و ذلك بتسخيـر الريح العاصفـة له تسير به طـواعية تحت أمره حيثما شاء في قوله : **﴿وَ لِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَـةً تَجْرِى بِأَمْرِهِ إِلَى الأَرْضِ الَّتِى بَارَكْنَا فِيهَا وَ كُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَالِمِينَ﴾**(الأنبياء/ ٨١) .

فهذه الآية تعرب عن أنّ الريح العاصفة تسيـر به إلى الأرض التي باركها سبحانه و هي أرض الأنبياء المشـار إليها في آية اُخرى : **﴿إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾**(الأسراء/ ١) .

و مثلهـا قـولـه سبحـانـه : **﴿فَسَخَّرْنَا لَـهُ الـرِّيحَ تَجْـرِى بِـأَمْـرِهِ رُخَاءً حَيْـثُ أَصَابَ﴾**(ص/ ٣٦) .

و الرخاء هو الليـن، و لعلّ المراد بأنّ الريح العاصفة التـي من طبيعتها الجموح و الإهلاك كانت مطيعة لسليمان تجري بأمره طـواعية ذلولاً كما أنّ قوله **﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾** أي بمعنى حيث شاء سليمان و قصد ، سواء كان المقصد البقاع المباركة أو غيرها .

كما أنّ هناك آية اُخرى تحدّد لنا مقاطع حركتها الزمنية و كيف انّها كانت في يوم واحد تقوم بقطع مسافة كانت تقطعها وسائل النقل في تلك العصـور مدّة شهرين في قوله :

﴿وَ لِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَ رَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾(سبأ/ ١٢) .

فلو افترضنا أنّ وسائل النقل تقطع في كلّ يوم أربعاً و أربعين كيلومتراً على وفق مـا هو المتعـارف عليه يـومذاك ، يكـون مجموع مقـدار المسافـة اليوميـّة في امتـداد شهر(١٣٢٠) كيلـومتراً، فإذا كان غـدوّها شهراً و رواحهـا شهراً يكون مجموع المسـافة التي كان يقطعها سليمان في يوم واحد تبلغ(٢٦٤٠) كيلومتراً .

و الحقّ إنّهاكـانت كرامة عظيمة كـرّمه الله سبحانه بها ، و ليـس سليمان وحيداً في الاختصاص بتلك المكرمة بل تلاه المسيح عيسى بن مريم عند ما اجتمع أجلاف اليهود و جلاوزتهم على قتله حيث رفعه إليه و نجّاه من كيدهم ، يقول سبحانه :

﴿وَ قَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَـى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللهِ وَ مَا قَتَلُوهُ وَ مَـا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَ إِنَّ الَّذِيـنَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِنْهُ مَالَهُمْ بِـهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَ مَا قَتَلُوهُ يَقِيناً * بَلْ رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ وَ كَانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾(النساء/ ١٥٧و١٥٨) .

فالآية تتضمّن دعويين :

الأُولى : ما يقوله اليهود و هو قتل المسيح وصلبه .

الثاني : ما يصرّح به القرآن و هو نفي قتله و عدم صلبه بل رفعه .

و بما أنّ متعلّق القتل و الصلب هو الوجود الخارجي أي جسم المسيح و روحه فيكون ذلك متعلّق الرفع أيضاً ، فهو رفـع بجسمه و روحه ، و بعبارة أكثر وضـوحاً إنّه رفع حيّاً لا أنّه قد أُميت ثمّ رفع على ما هـو المصرّح به في الأناجيل المحرّفة من موت المسيح ثمّ رفعه بعـد اسبوع من صلبه أو أيام قلائل ، فما ربّما يظهـر من جنوح بعض المتأخّـرين مـن المفسّرين إلـى هذا التفسيـر ، فهو تفسير بمحـض الرأي و مخـالف لظاهر الآية فإنّ الاضراب الـوارد في قوله تعالى﴿ **بَلْ رَفَعَهُ اللهُ**﴾ لايكون إضراباً عن قول اليهود إلاّ برفعه حيّاً لابرفعه ميّتاً ، فإنّ هذا الـرفع كان لغاية تخليص المسيح من سطوة اليهود سواء مات بعد ذلك أم بقي حيّاً بإبقاء الله تعالى له ، و على كل تقدير فلايكون قوله﴿ **بَلْ رَفَعَهُ اللهُ**﴾ إبطالاً لقول اليهود إلاّ إذا رفع حيّاً .

و أمّا قوله سبحانه : ﴿ **إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَـى إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَ رَافِعُـكَ إِلَيَّ وَ مُطَهِّرُكَ مِـنَ الَّـذِيـنَ كَفَـرُوا وَ جَـاعِلُ الَّـذِيـنَ اتَّبَعُـوكَ فَـوقَ الَّـذِيـنَ كَفَـرُوا إِلَـى يَـوْمِ الْقِيَامَةِ**﴾(آل عمـران/ ٥٥) ، فليس التـوفّي هنـاك بمعنى الإمـاتة و الإزهـاق بل ليـس للتوفّي إلاّ معنى واحد و هو القبض و الأخذ ، يقـال : توفّيت المال منه واستوفيته : إذا أخذته كلّـه ، و يقال توفّيت عـدد القوم : إذا عددتهم كلّهـم ، كما يقال : توفـّي فلان

و توفّاه الله إذا قبض[1]. و على ذلك فليس للتوفّي إلاّ معنى الأخذ و له مصاديق مختلفة، فالإماتة من مصاديقه كما أنّ النوم بما أنّه نوع أخذ للإنسان مصداق آخر له قال سبحانه: ﴿وَ هُوَ الَّذِى يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ﴾(الأنعام/ ٦٠) وعلى ضوء ذلك فمعنى﴿إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ﴾: قابضك من الأرض حيّاً إلى جواري و رافعك من بين أعدائك، فالآيات متضافرة المضمون على أنّه رفع من الأرض حيّاً إليه سبحانه.

و رفعه من الأرض حيّاً يلازم رفعه إلى السماء، و بذلك تقف على تفسير قوله سبحانه حيث يحكي عن المسيح قوله: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إلاَّ مَا أَمَرْتَنِى بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّى وَ رَبَّكُمْ وَ كُنْتَ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِم فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَ أَنْتَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾(المائدة/ ١١٧).

معراج النبي الأكرم ﷺ

إنّ الوقوف على إسراء النبي من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى و عروجه منه إلى سدرة المنتهى من معاجزه و كراماته التي أثبتهما القرآن الكريم في سورتي الإسراء و النجم، و تفصيل ما ظهر له فيهما من الآيات يتوقّف على نقل شأنهما في الذكر الحكيم. أمّا الإسراء فقال فيه:

﴿سُبْحَانَ الَّذِى أَسَرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾(الإسراء/ ١).

١ ـ إبتدأ سبحانه كلامه بالتسبيح و قال: ﴿سُبْحَانَ﴾[2] و هي كلمة تنزيه لله عزّ

---

(١) لسان العرب: ج١٥ ص٤٠٠ مادّة «وفى».

(٢) سبحان علم للتسبيح كعثمان للرجل، و انتصابه بفعل مضمر لايظهر تقديره يسبّح الله سبحان، ثمّ نزل سبحان منزلة الفعل و سدّ مسدّه و دلّ على التنزيه البليغ من جميع القبائح التي يضيفها إليه أعداؤه.

اسمه عمّا لايليق به من الصفات ، و قد يراد به التعجيب ، ولكن الظاهر هو الأوّل .

و لعلّ الوجه في إبتدائها بالتنزيه هو التصريح بتنزيهه سبحانه عن العجز لما سيذكر بعده من الإسراء بعبده من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى في فترة زمنية قصيرة ، و يمكن أن يكون الوجه إرادة تنزيهه سبحانه عن التجسيم و الجهة و الرؤية و كل ما لا يليق بعزّ جلاله و صفات كماله ، حتّى لايتوهّم متوهّم أنّ المقصود من المعراج هو رؤية الله تبارك و تعالى في ملكوت عرشه و جبروت سلطانه ، و الأوّل أقرب .

٢ ـ الإسراء لغة هو السير في الليل . يقال : سرى بالليل و أسرى بمعنىً ، و أمّا الإتيان بلفظة «ليلاً» مع الاستغناء عنه فيأتي وجهه .

٣ـ قوله ﴿بِعَبْدِهِ﴾ يدل على أنّ الإسراء كان بمجموع الروح و الجسد يقظة لامناماً و لم يطلق العبد في القرآن إلاّ على المجموع منهما . قال سبحانه : ﴿الحُرُّ بِالحُرِّ وَالعَبْدُ بِالعَبْدِ﴾ (البقرة/ ١٧٨) ، و قال سبحانه : ﴿وَ لَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ﴾ (البقرة/ ٢٢١) .

إلى غير ذلك من الآيات التي ورد فيها لفظ العبد و التي تناهز ٢٨ آية ، و يؤيّد ذلك أنّه سبحانه ابتدأ السورة بالتنزيه فقال : ﴿سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ ...﴾ خصوصاً إذا قلنا بأنّه للتعجّب فإنّه يكون في الأُمور العظام الخارقة للعادة ، و لو كان الإسراء بمجرّد الروح مناماً لم يكن فيه كبير شأن و لم يكن مستعظماً ، و ما ورد في المقام من الروايات المنتهية إلى أمثال معاوية ابن أبي سفيان بأنّه قال : كان رؤيا من الله صادقة ، مرفوض فإنّ معاوية يومئذٍ كان من المشركين لايقبل خبره في مثل هذا ، و مثله ما روي عن عائشة زوجة النبي بأنّه قال : ما فقد جسد رسول الله و لكن أُسري بروحه ، فإنّ عائشة يومئذٍ كانت صغيرة و لم تكن زوجة رسول الله ، بل لم تولد بعد على احتمال ، و هناك كلام لأبي جعفر الطبري في تفسيره نقتطف منه ما يلي :

«الصواب من القول في ذلك عندنا أن يقال : إنّ الله أسرى بعبده محمد(صلّى

الله عليه و آله و سلّم) من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى كما أخبر الله عباده و كما تضافرت به الأخبار عن رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) : إنّ الله حمله على البراق حتى أتى به فصلّى هناك بمن صلّى من الأنبياء و الرسل فأراه ما أراه من الآيات، و لامعنى لقول من قال: أُسري بروحه دون جسده، لأنّ هذا الإسراء لايشكّل دليلاً على نبوّته و لاحجّة له على رسالته، و لا كان الذين أنكروا حقيقة ذلك من أهل الشرك. إذ لم يكن منكراً عندهم و لا عند أحد من ذوي الفطرة الصحيحة من بني آدم أن يرى الرائي منهم في المنام ما على مسيرة سنة، فكيف ما هو مسيرة شهر أو أقل؟ و بعد، فإنّ الله إنّما أخبر في كتابه أنّه أسرى بعبده و لم يخبرنا أنّه أسرى بروح عبده، فليس جائزاً لأحد أن يتعدّى ما قال الله إلى غيره [مضافاً] إلى أنّ الأدلّة الواضحة و الأخبار المتداولة عن رسول الله أُسري به على دابة يقال لها البراق، فلو كان الإسراء بروحه لم تكن الروح محمولة على البراق، إذ كانت الدواب لاتحمل إلاّ الأجساد[1].

۴ ـ ﴿لَيْلاً﴾ و هو يدل على أنّ الإسراء في بعض الليل كما يفيده التنكير فلايستفاد ذلك من لفظ الإسراء، فإنّه يدل على صرف كونه في الليل.

قال الزمخشري: إنّ تنكير «ليلاً» للدلالة على أنّه أُسرى به بعض الليل من مكّة إلى الشام مسيرة أربعين ليلة، و ذلك إنّ التنكير قد دلّ على معنى البعضيّة و يشهد لذلك قراءة عبدالله بن حذيفة: «من الليل» أي بعض الليل، كقوله: ﴿وَ مِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ﴾(أي من بعضه)[2]. ثمّ إنّ الحركة بهذه السرعة ممكنة في نفسها، فقد جاء في القرآن أنّ الرياح كانت تسير بسليمان إلى المواقع البعيدة،في الأوقات الزمنية القليلة كما مرّ.

و حكى سبحانه عن الذي كان عنده علم من الكتاب أنّه أحضر عرش بلقيس من أقصى اليمن إلى أقصى الشام في مقدار لمح البصر، حيث قال: ﴿قَالَ الَّذِى عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرّاً عِنْدَهُ قَالَ

---

(۱)تفسير الطبري: ج۱۵ ص۱۳۰.

(۲)الكشّاف: ج۲ ص۲۲۳ (طبع مصر).

﴿هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي﴾(النمل/ ٤٠).

فإذا أجاز هذا لدى طائفة من الناس، ممّن سبقه، صحّ وقوعه منه[1].

و ها نحن في كل يوم نشاهد من صنوف المخترعات في ميادين النقل و المواصلات ما يتمكّن بواسطتها من قطع المسافات الشاسعة كالطائرات التي تجتاز المحيطات في ساعات قلائل و ينتقل من قارة إلى قارة و من قطر إلى قطر بيسر و سهولة، و هذا ليدفعنا إلى الإعتقاد الجازم بشهادة العيان بأنّ ما جاء في هذه الرحلة الخارقة لقوانين الطبيعة ليس أمراً عزيز الحصول أو مستحيلاً، فإذا كان هذا بوسع الإنسان بحسب طاقاته المحدودة و هو الذي خلق ضعيفاً، فالله سبحانه أقدر عليه وعلى غيره من كل أحد﴿وَ مَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾.

٥ ـ ﴿مِنَ المَسْجِدِ الحَرَامِ إِلَى المَسْجِدِ الأَقْصَى﴾ و هذه الجملة تعرب عن تحديد بدء السير و منتهاه، و أنّه ابتدأ من المسجد الحرام و انتهى إلى المسجد الأقصى و هو بيت المقدس بقرينة قوله: ﴿ الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ و القصى البعد، وسمّي المسجد الأقصى به لكونه أبعد مسجد بالنسبة إلى مكان النبي و من معه من المخاطبين و هو مكّة التي فيها«المسجد الحرام».

و ذهب أكثر المفسّرين إلى أنّه أُسري به من دار أُم هاني أُخت علي بن أبي طالب و زوجها هبيرة بن أبي لهب المخزومي، وكان(صلّى الله عليه وآله وسلّم) نائماً تلك الليلة في بيتها، و أنّ المراد بالمسجد الحرام هنا مكّة، و الحرم كلّها مسجد[2].

و قال بعضهم: إنّما أُسري به من شعب أبي طالب.

و الوجه الأوّل هو الأوفق بظاهر الكتاب و مع ذلك يمكن تصحيح الوجهين الأخيرين بوجهين:

---

(١)تفسير المراغي: ج١٥، ص٦، بتصرّف يسير.

(٢)مجمع البيان: ج٦ ص٣٩٩.

الأوّل: إنّه لو كان في المكان الوسيع شيء معروف و متبرّك يطلق اسمه على جميع المكان،نظير ذلك،مسجد الشجرة حيث يطلق و يراد منه ذو الحليفة، و مشهد الإمام عليّ(عليه السلام) يطلق و يراد منه النجف برمّتها، إلى غير ذلك، و من الممكن أن يكون المراد من المسجد الحرام، الحرم كلّه بالملاك المذكور فيشمل مكّة و البيت الذي أُسري منه النبي أو الشعب الذي كان النبي لاجئاً إليه يومذاك.

الثاني: أن يكون الإسراء قد حدث مرّتين أحدهما من المسجد الحرام و الآخر من بيت أُم هاني أو من الشعب، و يؤيّد ذلك ما رواه الكليني أنّه سأل أبو بصير أبا عبدالله(عليه السلام) فقال: جعلت فداك و كم عرج برسول الله؟ فقال: مرّتين[1].

٦ ـ ﴿الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ أي جعلنا البركة فيما حوله من الأشجار و الثمار و النبات و الأمن و الخصب حتّى لايحتاجون إلى أن يجلب إليهم من موضع آخر. أضف إلى ذلك انّه سبحانه جعله مقرّ الأنبياء و مهبط الملائكة، فقد اجتمعت فيه بركات و خيرات الدين و الدنيا.

٧ ـ ﴿لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾ و الجملة متكفّلة ببيان الهدف من الإسراء و هو إراءة عجائب الآيات و غرائب الصنع، و منها إسراءه في ليلة واحدة من مكّة إلى المسجد الأقصى، و هي فترة قياسية خارقة للعادة.

فلو كان المسجد الأقصى منتهى سيره في ذلك الإسراء، فيكون المراد من الآيات التي أراه الله سبحانه إيّاها مجرّد ما رأته عيناه في طريقة إلى المسجد الأقصى و ما فيه من مقامات الأنبياء و قبورهم و آثارهم.

و أمّا إذا كان العروج إلى السماء متّصلاً بذلك الإسراء فيتّسع نطاق الآيات، و في السياق دلالة على عظمة هذه الآيات التي كشف له عنها الله سبحانه، و حيث أراه بعضها لا كلّها، و فيه تصريح بأنّ الهدف هو إراءة الآيات الكونية الباهرة ليرجع

---

(١) نور الثقلين: ج٣ ص٩٨.

النبي من إسرائه بصدر منشرح و قلب متفتّح قد انعكست فيه آيات العظمة و سبحات الجلال و الجمال، و أمّا ما يتخيّل من أنّ الهدف رؤية الله سبحانه فهو ممّا حاكته يد الدسّ و نسجته أغراض التزوير.

و في الأحاديث المرويّة عن أئمّة أهل البيت تنديد بهذا الفكر النابي. روى الصدوق في علل الشرائع، عن ثابت بن دينار قال: سألت زين العابدين ـ علي بن الحسين ـ (عليه السلام) عن الله جلّ جلاله هل يوصف بمكان؟ فقال: تعالى عن ذلك، قلنا: فلم أسرى نبيّه إلى السماء؟ قال: ليريه ملكوت السماوات و ما فيها من عجائب صنعه و بدائع خلقه.

و في حديث آخر عن يونس بن عبد الرحمان، قال: قلت لأبي الحسن موسى ابن جعفر(عليهما السلام): لأيّ علّة عرج الله ـ عزّ و جلّ ـ نبيّه إلى السماء و منها إلى سدرة المنتهى، و منها إلى حجب النور، و خاطبه و ناجاه هناك، و الله لايوصف بمكان؟ فقال عليه السلام: إنّ الله تبارك و تعالى لايوصف بمكان و لايجري عليه زمان، و لكنّه عزّ وجلّ أراد أن يشرّف ملائكته و سكّان سماواته و يكرمهم بمشاهدته و يريه من عجائب عظمته و يخبر به بعد هبوطه، و ليس ذلك على ما يقوله المشبّهون. سبحان الله و تعالى عمّا يشركون.

٨ ـ ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ﴾ و هذا تعليل لإراءة آياته، و معناه أنّه سميع لأقوال عباده، بصير بأفعالهم، يسمع أقوال من صدّقه أو كذّبه و يبصر أفعالهم.

عروجه إلى السماء

هذا كلّه حول إسرائه من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، و قد جاء في القرآن في سورة واحدة و هي سورة الإسراء، و أمّا عروجه إلى السماء فقد تكفّلت ببيانه سورة النجم، و إليك نصّ ما ورد بشأن ذلك فيها:

قال سبحانه: ﴿وَ النَّجْمِ إِذَا هَوَى * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَ مَا غَوَى * وَ مَا يَنْطِقُ عَنِ الهَوَى * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى * عَلَّمَهُ شَدِيدُ القُوَى * ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى * وَ هُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَى * ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى * فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى * مَا كَذَبَ الفُؤَادُ مَا رَأَى * أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى﴾

﴿وَ لَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى * عِنْدَ سِدْرَةِ المُنْتَهَى * عِنْدَهَا جَنَّةُ المَأْوىٰ * إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى * مَا زَاغَ البَصَرُ وَ مَا طَغَى * لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الكُبْرَى﴾(النجم/ ١ـ ١٨)

والطائفة الأُولى من الآيات راجعة إلى بدء الدعوة و لاتمتّ إلى حديث المعراج بصلة، وأمّا الطائفة الثانية فهي مصرّحة بمعراجه(صلّى الله عليه و آله وسلّم).

و لأجل الوقوف على ما تهدف إليه الآيات يحتّم علينا أن نفسّرها واحدة بعد الأُخرىٰ، فنقول:

١ ـ ﴿وَ النَّجْمِ إِذَا هَوَى﴾. و هو حلف من الله بمخلوقه، و المراد من الهوى سقوطه للغروب.

٢ ـ ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَ مَا غَوَىٰ﴾ أي لم يخرج عن الصراط المستقيم، و المراد من الصاحب هو النبي، كما أنّ المراد من الغيّ هو الاعتقاد الفاسد، أي ما خرج النبي عن الطريق الموصل إلى الغاية المطلوبة ولم يخطئ في اعتقاده ورأيه.

٣ ـ ﴿وَ مَا يَنْطِقُ عَنِ الهَوَى﴾ المراد بالهوى هوى النفس و رأيها، و مقتضى ورود النفي على النطق هو نفي الهوى في مطلق نطقه، إلاّ أنّ ذيله قرينة على أنّ المراد نفي سلطة الهوى في ما يدعوهم إلى الله.

٤ ـ ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾ أي لاينطق فيما يدعوكم إلى الله عن هوى نفسه و رأيه و ليس ذلك إلاّ وحياً يوحى إليه من الله تعالى.

٥ ـ ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ القُوَىٰ﴾ المراد من شديد القوىٰ هو جبرئيل بقرينة قوله

سبحانه: ﴿ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾(التكوير/ ٢٠) و بذلك يضعف احتمال كون المراد هـو الله سبحانه، و الضمير في «علّمـه» يرجع إلى الصاحـب، المراد منه النبي(صلّـى الله عليه و آلـه و سلّم) و احتمال رجوعـه إلى الوحي أو القـرآن ضعيف لاستلزامه تقدير مفعول له مثل قولنا: «علّمه إيّاه» و هو خلاف الظاهر.

٦ـ﴿ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى﴾ المرّة ـ بكسر الميم ـ الشـدّة و حصافة العقل و الرأي، أي ذو حصافة في عقله و رأيه أو ذو شدّة في جنب الله، و احتمال كون المراد منه هو النبي يستلزم جعله صفة لــ «صاحبكم» و هو بعيد، بل هو صفة لشـديد القوى الذي جاء بعده، و هو أيضاً دليل على أنّ المراد من شديد القوى هو جبرئيل. كما أنّ المراد من قولـه «فاستوى» إستقام علـى صورته الأصليّة التـي خلق عليها، لأنّ جبرئيـل كان ينزل على النبي(صلّى الله عليه و آله و سلّم) في صور مختلفة، و لكنّه في بدء الدعوة ظهر له في صورته الأصليّة.

٧ ـ ﴿وَ هُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى﴾ و الضمير يرجـع إلى شديد القـوى، و المراد منه جبرئيل، كما أنّ المـراد بالأُفق الأعلى ناحية المشرق مـن السماء، لأنّ المشرق مطلّ على المغـرب و يحتمل أن يكـون المراد أُفـق أعلى من السمـاء من غيـر اعتبار كـونه شرقياً، و الجملة، هي جملة حالية من ضمير فاستوى.

٨ ـ ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴾ و الضميران راجعـان إلى جبرئيـل، و المراد من «الـدنوّ» القرب كمـا أنّ المراد من التـدلّي هـو الاعتماد على جهـة السفل مأخـوذ من الـدلو، و المراد قرب جبرئيل متدلّياً من الأُفق الأعلى.

٩ ـ ﴿فَكَانَ قَابَ قَـوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ ألقاب مقـدار الشيء، و القـوس معروف و هي آلـة الرمي، و المعنـى قرب جبـرئيل على حـدّ لـم يبق بينـه و بين النبـي إلاّ قدر قوسين أو أقلّ.

١٠ ـ ﴿فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾ و الضمير فـي كلا الفعليـن يرجـع إلى جبرئيل علـى نسق رجوع سائر الضمائر إليـه. نعم الضمير في «عبده» يـرجع إلى الله

سبحانه، و المعنى فأوحى جبرئيل إلى عبد الله ما أوحى.

و ربّما يحتمل رجوع الضمائر الثلاث إلى الله سبحانه، و المراد فأوحى الله بتوسّط جبرئيل إلى عبده، و هو و إن كان صحيحاً و لكنّه على خلاف السياق.

١١ ـ ﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ و الكذب كما يتّصف به الكلام كذلك يطلق على خطأ القوّة المدركة، يقال: كذّبته عينه أي أخطأت في رؤيتها، و نفي الكذب عن الفؤاد كناية عن تنزيهه عن الخطأ، و المراد من الفؤاد فؤاد النبي، و ضمير الفاعل في «ما رأى» راجع إلى الفؤاد، و الرؤية رؤيته، و لا إشكال في إسناد الرؤية إلى الفؤاد لأنّه يطلق على شهود النفس رؤيتها.

١٢ ـ ﴿ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى﴾ و هو توبيخ لهم على مماراتهم إيّاه، حيث إنّه(صلّى الله عليه و آله و سلّم) كان يدّعي رؤية جبرئيل و هم يجادلونه في ما رآه و شاهده، و لامجال للمجادلة فيما شوهد بالحسّ و العيان.

إلى هنا تمّت الطائفة الأُولى من الآيات و الكلّ يهدف إلى استعراض قصّة بدء الدعوة أنّ جبرئيل الذي هو شديد القوى كان قد علّمه القرآن و رآه النبي و هو بالأُفق الأعلى، و قد قرب من النبي متدلّياً إليه فلم يبق بينه و بين النبي إلاّ مسافة قوسين أو أدنى، و ليس هناك بحث عن رؤية النبي لله سبحانه كما لاصلة لهذه الآيات بحديث المعراج و عروجه إلى السماء.

و بالإمعان فيما ذكرنا تظهر أُمور:

أ ـ إنّ الضمائر من قوله﴿عَلَّمَهُ﴾إلى قوله ﴿إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى ﴾ كلّها يرجع إلى شديد القوى و المراد منه جبرائيل إلاّ الضمير في ﴿إِلَى عَبْدِهِ﴾ فإنّه يرجع إلى الله.

و على احتمال، يرجع الضميران في الفعلين ﴿ فَأَوْحَى ... مَا أَوْحَى﴾ إلى الله سبحانه، و بعد ذلك لامعنى للاستدلال بهذه الآيات على أنّ النبي رأى ربّه، و الاشتباه إنّما حصل من إرجاع الضمائر الثلاثة من قوله: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴾ إلى النبي

الأكرم و أنّ المراد دنا منه سبحانه و هو ممّا لايساعد عليه سياق الآيات.

ب ـ إنّ الكاتب الإنگليزي «جان. ديون. بورت» فسّر قوله ﴿دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ بأنّ النبي استجاز ربّه للحضور عنده، فقرب منه إلى حدّ لم يبق بينه و بين ربّه إلاّ قاب قوسين، و هو غلط كما أوضحناه. أضف إلى ذلك: إنّ هذا القسم من الآيات لايمتّ إلى حديث المعراج بصلة، و إنّما هو بصدد بيان حادثة بدء الدعوة و لم يكن هناك يومئذ معراج من النبيّ حتى يستأذن للحضور عند ربّه، و منشأ الإشتباه مضافاً إلى ذلك هو إرجاع الضميرين في دنا فتدلّى إلى النبي(صلّى الله عليه و آله و سلّم).

ج ـ إنّ بعض المستشرقين يذكر في تفسير الآيات: إنّ النبي قرب من الله سبحانه حتى سمع صرير قلمه و وقف على أنّه سبحانه مهتمّ بصيانة حساب عباده، سمع صرير قلمه،ولم يرشخصه، كل ذلك خلط و خبط، يفعلون ذلك على الرغم من أنّهم غير متضلّعين في اللغة العربيّة و أساليبها و قواعدها و أسرارهاو في القرآن الكريم و إشاراته و نكاته، ثمّ يكتبون عن النبي و الإسلام و القرآن كل شيء دعتهم إليه أغراضهم،و لاعلم لهم بشيء منها إلاّ ما لايلتفت إليه.

إذا وقفت على مفاد الطائفة الأُولى من الآيات نعرج بك على تفسير الطائفة الثانية التي وردت في معراج النبي(صلّى الله عليه و آله و سلّم) و إنّما جاءت بعد الطائفة الأُولى لصلة تامّة بينهما و هو التركيز على أنّ النبي رأى جبرئيل على صورته الواقعيّة في كلتا المرحلتين، أُولاهما بدء الدعوة حيث رآه بالأُفق الأعلى، و ثانيهما عند المعراج إذ رآه عند سدرة المنتهى التي عندها جنّة المأوى، و يؤكّد على أنّ الرؤية كانت رؤية صادقة غير خاطئة، فيركّز على صدق الرؤية في ضمن الطائفة الأُولى بقوله: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾ و في ضمن الطائفة الثانية بقوله: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ و أنّ الرؤية رؤية واقعيّة غير مشوبة بالزيغ و الخطأ، ثمّ قال سبحانه:

١٣ ـ ﴿وَ لَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ النزلة بناء مرة من النزول فمعناه نزول واحد، فتدلّ الآية على أنّ هذه قصّة رؤية في نزول آخر، و الآيات السابقة تحكي نزولاً آخر، و لأجل

ذلك قلنا إنّ الطائفتين تهدف كل منهما إلى قصّة خاصة، و ضمير الفاعل يرجع إلى النبي، و ضمير المفعول لجبرئيل و النزلة نزول جبرئيل إليه ليعرج به إلى السموات.

١٤ ـ ﴿عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَى﴾ و هو ظرف للرؤية، لا للنزلة و المراد برؤيته رؤيته و هو في صورته الأصليّة، و المعنى أنّه نزل عليه نزلة أُخرى، و عرج به إلى السماوات، و رآه النبي عند سدرة المنتهى و هو في صورته الأصليّة، و السدر شجر معروف و التاء للوحدة، و المتنهى كأنّه إسم مكان، و لعلّ المراد به منتهى السماوات بدليل أنّ جنّة المأوى عنده و الجنّة في السماء، فينتج إنّ سدرة المنتهى في السماء، و أمّا كون الجنّة في السماء فبدليل قوله: ﴿وَ فِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَ مَا تُوعَدُونَ﴾(الذاريات/ ٢٢) و أمّا ما هو المراد من تلك الشجرة فليس في كلامه سبحانه ما يفسّره، و يؤيّده قوله: ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾ و سيوافيك تفسيره.

١٥ ـ ﴿عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى﴾ و المراد هي جنّة الآخرة التي يأوى إليها المؤمنون. قال تعالى: ﴿فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلاً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(السجدة/ ١٩). و هي أيضاً في السماء على ما دلّ عليه قوله: ﴿و في السماء رزقكم و ما توعدون﴾.

١٦ ـ ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾ غشيان الشيء الإحاطة به، و ما موصولة و المعنى إذ يحيط بالسدرة ما يحيط بها، و قد أبهم الله تعالى حقيقة تلك الشجرة كما أبهم ما يغشاها.

١٧ ـ ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَ مَا طَغَى﴾ زيغ البصر إدراكه المبصر على غير ما هو عليه، و طغيانه إدراكه مالاحقيقة له، و المراد بالبصر بصر النبي، والمعنى أنّه لم يبصر ما أبصره على غير صفته الحقيقة، و لاأبصر ما لاحقيقة له بل أبصر إبصاراً لايشوبه الخطأ.

و قال العلاّمة الطباطبائي: إنّ المراد بالإبصار رؤيته بقلبه لابجارحة العين، فإنّ المراد بهذا الإبصار ما يعنيه بقوله: ﴿ وَ لَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ المشير إلى مماثلة هذه

الرؤية لرؤية النزلة الأُولى التي يقول فيها: ﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى * أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى ﴾[1] غير أنّه لامنافاة بين أن يراه بعينه و يراه بقلبه، فإنّ الرؤية بالجارحة وسيلة و الرؤية الحقيقية بالقلب.

١٨ ـ ﴿ لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ﴾ فهو رأى بعض آيات ربّه الكبرى، ورؤية الآيات نوع رؤية لذيها و لايمكن رؤية ذي الآية أعني ذاته المقدسّة بلاتوسيط آية. قال سبحانه: ﴿وَ لاَيُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً﴾ إلى غير ذلك من الآيات المنكرة لإمكان وقوع الرؤية على ذاته عزّ و جلّ، و الإمعان في مجموع الآيات الواردة حول إسرائه و عروجه ينتهي بنا إلى عدّة أُمور:

١ ـ إنّه قد أُسري بالنبي ليلاً على جهة القطع، و لكن هل كان عروجه في الليل أيضاً؟ ليس في الآيات شيء يدل على ذلك، فلو كان عروجه إلى السماوات متّصلاً بإسرائه فيتّحد معه زماناً.

٢ ـ إنّ النبي أُسري و عرج بروحه و جسده و لم يكن ذلك رؤياً.

٣ ـ بدأ الإسراء من المسجد الحرام أو مكّة المكرمة على ما مرّ ذكره، و أمّا مبدأ المعراج فلو كان متّصلاً بالإسراء فيكون مبدؤه من المسجد الأقصى.

٤ ـ منتهى الإسراء هو المسجد الأقصى، و أمّا منتهى المعراج فهو منتهى السماوات كما يفيده قوله: ﴿عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى﴾ أي رأى جبرئيل عند شجرة السدرة الواقعة في منتهى السماوات.

٥ ـ كان الغرض من الإسراء و المعراج إراءة الآيات كما يتضمّنه قوله: ﴿لنريه من آياتنا﴾ و قوله: ﴿و لقد رأى من آيات ربّه الكبرى﴾.

٦ ـ إنّ النبي رآى جبرئيل بصورته الأصليّة مرّتين، مرّة في بدء الدعوة و مرّة في المعراج.

---

(١) الميزان: ج١٩ ص٣٢.

٧ـ قد دنا جبرئيل من النبي على حد لم يبق بينهما مسافة إلاّ مقدار قاب قوسين أو أدنى .

٨ ـ لم يكن هناك خطأ في تلك الرؤية ، فما أخطأ فؤاده وما زاغ بصره وماطغى .

كل ذلك ممّا تفيده الآيات و بقيت هنا عدّة أُمور لم يرد في كلامه سبحانه ما يوضحه :

الف ـ ما هو حقيقة شجرة السدرة؟

ب ـ بماذا غشى السدرة؟

ج ـ ما ذا أوحى إلى النبي في بدء الدعوة؟

فلابدّ في الوقوف على هذه الأُمور من الرجوع إلى الروايات .

ثمّ إنّ الروايات الواردة في الإسراء ومعراج النبي تنقسم جملتها عن أربعة أوجه :

أوّلاً : ما يقطع بصحّتها لتواتر الأخبار به و لإحاطة العلم بصحّته .

ثانياً : ما ورد في ذلك ممّا تجوّزه العقول و لاتأباه الأُصول ، و نحن نجوّزه ثمّ نقطع بأنّ ذلك كان في يقظته دون منامه .

ثالثاً : ما يكون ظاهره مخالفاً لبعض الأُصول إلاّ أنّه يمكن تأويلها على وجه يوافق المعقول ، فالأولى أن نؤوّله إلى ما يطابق الحق و الدليل .

رابعاً : ما لايصحّ ظاهره و لايمكن تأويله إلاّ بالتعسّف البعيد ، فالأولى أن لانقبله .

أمّا الأوّل المقطوع به ، فهو أنّه أسرى به .

و أمّا الثاني فمنه ما روي أنّه طاف في السماوات و رأى الأنبياء و العرش و سدرة المنتهى و الجنّة و النار و نحو ذلك .

و أمّا الثالث فنحو ما روي أنّه رأى قوماً في الجنّة يتنعّمون فيهاو قوماً في النار يعذّبون فيها، فيحمل على أنّه رأى صفتهم أو أسماءهم.

و أمّا الرابع فنحو ما روي أنّه(صلّى الله عليه و آله و سلّم) كلّم الله سبحانه جهرة و رآه و قعد معه على سريره و نحو ذلك ممّا يوجب ظاهره التشبيه، و الله سبحانه يتقدّس عن ذلك.

و كذلك ما روي أنّه شقّ بطنه و غسله، لأنّه(صلّى الله عليه و آله و سلّم) كان طاهراً مطهّراً من كل سوء و عيب، و كيف يطهر القلب و ما فيه من الاعتقاد بالماء؟[1]

* * *

استشارة قريش أحبار اليهود في أمر دعوة النبي:

كان النضر بن الحارث من شياطين قريش، و كان ممّن يؤذي رسول الله وينصب له العداوة، و كان قد قدم الحيرة، و تعلّم بها أحاديث ملوك الفرس، و أحاديث رستم و إسبنديار، و كان يقول: أنا و الله يا معشر قريش أحسن حديثاً منه فأنا أُحدّثكم أحسن من حديثه، ثمّ يحدّثهم عن ملوك فارس و رستم و إسبنديار، ثمّ يقول: بماذا محمد أحسن حديثاً منّي؟

و هو الذي نزل في حقّه قوله: ﴿وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَ لَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَ مَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللهُ... ﴾(الأنعام/ ٩٣).

فلمّا قال ذلك النضر بن الحارث، بعثته قريش مع عقبة بن أبي معيط إلى أحبار يهود و قالوا لهما: سلاهم عن محمد، وصفا لهم صفته، و إخبراهم بقوله،

---

(١)مجمع البيان: ج٣ ص٣٩٥ (طبع طهران).

فإنّهم أهل الكتاب الأوّل و عندهم علم ليس عندنا من علم الأنبياء، فخرجا حتى قدما المدينة، فسألا أحبار يهود عن رسول الله و وصفا لهم أمره، و أخبراهم ببعض قوله، و قالا لهم: إنّكم أهل التوراة و قدجئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا، فقال لهما أحبار يهود: سلوه عن ثلاث نأمركم بهن، فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل، و إن لم يفعل فالرّجل متقوّل، سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأوّل ما كان أمرهم؟ و أنّه قد كان لهم حديث عجب، و سلوه عن رجل طوّاف قد بلغ مشارق الأرض و مغاربها ما كان نبأه، و سلوه عن الروح ما هي، فإذا أخبركم بذلك فاتبعوه فإنّه نبي، و إن لم يفعل فهو رجل متقوّل فاصنعوا في أمره ما بدا لكم، فأقبل النضر بن الحارث و عقبة ابن أبي معيط حتى قد ما مكة على قريش، و قالا: يا معشر قريش قدجئناكم بفصل ما بينكم و بين محمد، قد أخبرنا أحبار يهود أن نسأله عن أشياء آمرونا بها فإن أخبركم عنها فهو نبي و إن لم يفعل فالرجل متقوّل، فأروا فيه رأيكم.

فجاءوارسول‌الله و ذكروا الأسئلة حسبما تلقّوه من أحبار يهود، فوافاه الوحي في الموارد الثلاثة.

أمّا الفتية التي ذهبوا في الدهر الأوّل، فبيّنتها آيات من سورة الكهف مبتدئة من قوله: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الكَهْفِ وَ الرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَباً ...﴾ و منتهية بقوله: ﴿قُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَ الأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَ أَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لاَيُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً﴾(الكهف/ ٢٦).

و أمّا الرجل الطوّاف الذي قد بلغ مشارق الأرض و مغاربها، فنزل في حقّه آيات من سورة الكهف، مبتدئة بقوله: ﴿وَ يَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي القَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْراً﴾(الكهف/ ٨٣) و منتهية بقوله: ﴿وَ تَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَ نُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعاً﴾(الكهف/ ٩٩).

و أمّا الروح فوافاهم الجواب بقوله: ﴿وَ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَ مَا أُوتِيتُمْ مِنَ العِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾(الإسراء/ ٨٥).

ثمّ إنّ النبي الأكرم لمّا قدم المدينة قالت أحبار اليهود: يا محمد أرأيت قولك **﴿وَ مَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾** إيّانا تريد، أم قومك؟ قال: كلاّ، قالوا: فإنّك تتلو فيما جاءك: «إنّا قدأُوتينا التوراة فيها بيان كل شيء» فقال رسول الله(صلّى الله عليه وآله و سلّم): «إنّها في علم الله قليل، و عندكم في ذلك ما يكفيكم لو أقمتموه». قال: فأنزل الله تعالى عليه فيما سألوه عنه من ذلك: **﴿وَ لَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَ الْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾** أي أنّ التوراة في هذا من علم الله قليل[1].

هذا ما رواه ابن هشام في سيرته، و لكن المروي عن الإمام الصادق(عليه السلام) يختلف معه في جهات:

الأولى: إنّ صريح ما ورد في السيرة هو أنّ قريشاً بعثوا إلى أحبار اليهود بالمدينة و المروي عنه(عليه السلام) أنّ قريشاً بعثوا إلى نجران.

الثانية: إنّ المبعوث على ما في السيرة شخصان، و لكن المرويّ عنه ثلاثة أشخاص، و الثالث العاص بن وائل.

الثالثة: إنّ المسألة الثالثة على ما في السيرة هو السؤال عن الروح و المروي عنه هو قصّة موسى حين أمره الله عزّ وجلّ أن يتبع العالم و يتعلّم منه، فمن هو ذلك العالم وكيف تبعه و ما كانت قصّته معه؟

الرابعة: صريح السيرة أنّ السؤال كان عن ثلاث مسائل، و المرويّ عنه أنّ السؤال كان عن أربع مسائل، و المسألة الرابعة هو السؤال عن وقت الساعة، فإن ادّعى علمها فهو كاذب، فإنّ قيام الساعة لايعلمها إلاّ الله[2].

و يؤيّد كون السؤال عن أمر موسى باتباع العالم إنّ هذه المسائل الثلاث وردت

---

(١) السيرة النبويّة: ج١ ص٣٠٧و٣٠٨.

(٢)تفسير القمي: ج٢ ص٣١.

في سورة الكهف[1] و أمّا السؤال عن الروح فقد ورد في سورة الأسراء، الآية ٨٥.
و لو كان السؤال عن الروح لكان الأنسب الإجابة عن الجميع في سورة واحدة.

و على فرض التسليم بذلك فما هو المراد من الروح، فهل المراد هو روح الإنسان أو جبرئيل (روح الأمين) و الأقرب هو الثاني، و ذلك بقرينة كون السؤال هو من اليهود، فقدكان لهم عقيدة خاصة في جبرئيل و كانوا يسمّونه ملك العذاب، و لأجل ذلك كانوا ينصبون له العداء، و هم الذين يتهمونه بأنّه خان حيث نقل النبوّة من نسل إسرائيل إلى أولاد إسماعيل، و قداشتهر منهم قولهم «خان الأمين»، و في الوقت نفسه كانوا يظهرون المودّة لميكائيل، و لأجل ذلك جاء الوحي مندّداً بهم بقوله: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَ بُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (البقرة/ ٩٧) و قال: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِلَّهِ وَ مَلاَئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَ جِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ (البقرة/ ٩٨) و قال سبحانه: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ* عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾ (الشعراء/ ١٩٣ـ١٩٤).

و وصفه بالأمين لرد اتهام اليهود إياه بالخيانة، و أنّه نقل النبوّة من نسل إسرائيل إلى أولاد إسماعيل، و أنّ قولهم «خان الأمين» افتراء على أمين الوحي.

كل ذلك يعرب عن أنّ اليهودكانوا يكنّون العداء لجبرئيل أو يظهرونه له، و عند ذلك طرحوا هذا السؤال حتى يعلم لهم موقف النبي (مدّعي النبوّة) من عدوّهم (جبرئيل) فإن قام بذمّه، كان من أنصارهم، و إن مدحه، قاموا في وجهه، فنزل الوحي بأنّ الروح من أمر الله أي من مظاهر أمره سبحانه، فهو لايقوم بما يقوم إلاّ بأمر منه، فلو قام بإنزال البشارة فبأمره، و لو جاء بأمر العذاب و الإبادة فهو أيضاً من أمره و بذلك يعلم أنّ تفسير الروح بروح الإنسان بعيد عن البيئة التي طرح فيها السؤال، فإنّ البحث عن الروح و حقيقتها و حدوثها و قدمها يناسب البيئات الفلسفية لاغير.

---

(١) أعني قوله سبحانه: ﴿إذ قال موسى لفتيه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضى حقباً...﴾ (الكهف/ ٦٠ـ٨٢).

وفد الحبشة إلى النبي ﷺ للاستطلاع على أمر الدعوة :

لمّا بلغ خبر رسول الله إلى الحبشة و هـم نصارى، قـدم منهم إلى مكّة عشرون رجلاً ليقفـوا على حقيقة الأمر عـن كثب، فوجـدوا النبي في المسجد، فجلسـوا إليه و كلّموه و سألوه، و رجال من قريش في أنديتهـم حول الكعبة، فلمّا فرغوا من مسألة رسول الله عمّا أراد، و دعاهم رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) إلى الله عزّ و جلّ و تلا عليهـم القرآن، فلمّا سمعوا القـرآن فاضت أعينهم مـن الدمع، ثمّ استجـابوا لله وآمنوا بالنبيّ و صدّقوه و عرفوا منه ما كان يوصف لهم في كتابهم من أمره، فلمّا قاموا عنه اعترضهم أبـوجهل بن هشام في نفر مـن قريش فقالوا لهم: خيّبكـم الله من ركب بعثكم مـن ورائكم من أهـل دينكم، ترتـادون لهم لتـأتوهم بخبـر الرجل فلـم تطمئنّ مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم، و صدّقتموه بما قال، مانعلم ركباً أحمق منكم، فقالوا لهم: سلام عليكم لانجاهلكم، لنا ما نحن عليه، و لكم ما أنتم عليه، لم نأل أنفسنا خيراً، و فيهم نزل قوله سبحانه:

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِـهِ يُؤْمِنُونَ * وَ إِذَا يُتْلَى عَلَيهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الحَـقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّـا كُنَّا مِنْ قَبْلِـهِ مُسْلِمِينَ * أُولئِكَ يُـؤْتَوْنَ أَجْرَهُـمْ مَرَّتَيْنِ بِمَـا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِـالحَسَنَةِ السَّيِّئَـةَ وَ مِمَّا رَزَقْنَاهُـمْ يُنْفِقُونَ * وَ إِذَا سَمِعُوا اللَّغْـوَ أَعْرَضُـوا عَنْهُ وَ قَـالُـوا لَنَـا أَعْمَـالُنَـا وَلَكُـمْ أَعْمَـالُكُـمْ سَـلاَمٌ عَلَيْكُـمْ لاَنَبْتَغِـي الجَاهِلِينَ﴾(القصص/ ٥٢ـ٥٥)[١].

إلى هنا تمّ الفراغ من بيان الحوادث المهمّة في الفترة الواقعة بين بعثته و هجرته وبقيت هناك عدّة حوادث يقف عليها من سبر التفاسير، فتركنا ذكرها روماً للإختصار.

---

(١) السيرة النبويّة، لابن هشـام: ج١ ص٣٩٢، مجمع البيان: ج٤ ص٣٥٨، مع اختلاف يسير بين المصدرين.

(٨)

في رحاب الهجرة إلى يثرب

الهجرة في اللّغة هو الخروج من أرض إلى أرض[١] فلو ترك إنسان أرضاً و انتقل إلى أرضٍ أُخرى لغاية من الغايات، يقال إنّه هاجر، و لكنّها في مصطلح القرآن هو الإنتقال من أرض إلى أرض لغاية قدسية كحفظ الإيمان و التمكّن من إقامة الفرائض على وجه تكون قداسة الهدف مقوّماً لمفهوم المهاجرة إلى حدٍّ استعمله النبيّ في ترك المحرّمات و نبذ المعاصي و إن لم يكن هناك انتقال من مكان إلى مكان، بل كان هناك انتقال الروح من العصيان إلى الطاعة. قال: «المهاجر من هجر ما حرّم الله عليه»[٢].

و الهجرة في مصطلح أهل السيرة و التاريخ و التفسير من المسلمين هو هجرة الرسول من موطنه إلى يثرب للتخلّص من مؤامرة قريش على سجنه أو قتله أو نفيه. و ليس الرسول بدعاً في ذلك فقد ذكر القرآن مهاجرة لفيف من الأنبياء.

فهذا هو إبراهيم الخليل لمّا أُلقي في النار، و نجّاه الله سبحانه غادر موطنه، قال سبحانه حاكياً قصّته:

﴿ قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَاناً فَأَلْقُوهُ فِى الجَحِيمِ* فَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الأَسْفَلِينَ* وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّى سَيَهْدِينِ* رَبِّ هَبْ لِى مِنَ

(١) لسان العرب: مادة «هجر».

(٢) جامع الأُصول: ج١ ص١٥٤.

الصَّالِحِينَ﴾(الصافّات/ ٩٧ـ١٠٠)فنزل الخليـل الأراضي المقدّسـة و وهبه سبحـانه إسحاق و يعقوب. قال تعالى:

﴿وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ كُلاًّ جَعَلْنَا نَبِيّاً﴾(مريم/ ٤٩).

و هذا لـوط و قد تبع إبـراهيم و غـادر موطنه كمـا يحكي عنه قـوله سبحـانه: ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَ قَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّى إِنَّهُ هُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾(العنكبوت/ ٢٦).

و هذا موسى بن عمران فلمّا وقف علـى أنّ الملأ يأتمرون به ليقتلوه غادر أرض الفراعنة و نزل مدين. يقول سبحانه: ﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَـائِفاً يَتَرَقَّبُ قَـالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ القَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾(القصص/ ٢١).

و أمّا النبيّ الأكـرم فقد خرج في موسـم الحج و لقيه فيه نفر مـن الخزرج فقال لهم: من أنتم؟ فقالـوا: نفر من الخزرج، قال: أمن موالي يهـود؟ قالوا: نعم. قال: أفلاتجلسون أكلّمكم؟ قـالوا: بلى. فجلسوا معه فدعاهم إلـى الله عزّ و جلّ و عرض عليهم الإسلام، و تلى عليهـم القرآن. قال: و كان ممّا صنع الله بهـم في الإسلام أنّ اليهود كـانوا معهم في بـلادهم، و كانـوا أهل كتاب و علـم، و كانوا هم أهـل شركٍ و أصحاب أوثانٍ، و كانوا قد غزوهم ببلادهـم، و كانوا إذا كان بينهم شيء قالوا لهم: إنّ نبيّنا مبعوث الآن قد أظـلّ زمانه نتبعهُ فنقتلكم معهُ قتل عـاد و إرم، فلمّا كلّم رسول الله أُولئك النفر و دعاهم إلى الله، قال بعضهم لبعض: يا قوم، تعلموا و الله إنّه النبيّ الذي تـوعدكم بـه اليهود، فلاتسبقنّكـم إليه. فأجابـوه فيما دعاهـم إليه بأن صـدّقوه و قبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام، و قالوا: إنـّا قد تركنا قومنا، و لاقوم بينهم من العداوة و الشر ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بـك، فستقدم عليهم، فندعوعم إلى أمرك، و تعرض عليهم الـذي أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهـم الله عليه فلا رجل أعزّ منك.

ثمّ انصرفوا عـن رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) راجعيـن إلى بلادهم، و قد آمنوا و صدّقوا. فلمّا قدموا المدينة إلـى قومهم ذكروا لهم رسول الله و دعوهم إلى الإسلام، حتّى فشا فيهم، فلم يبق دار من دور الأنصار إلاّ و فيه ذكر لرسول الله.

حتّى إذا كان في العام المقبل و أتى الموسم من الخزرجيين اثنا عشر رجلاً بالعقبة، فبايعوا رسول الله (صلّى الله عليه و آله و سلّم) على بيعة النساء[1] و ذلك قبل أن تفرض عليهم الحرب ...

يقول عبادة بن الصامت: فبايعنا على أن لانشرك بالله شيئاً و لانسرق و لانزني و لانقتل أولادنا ولانأتي ببهتان نفتريه من بين أيدينا و أرجلنا، و لانعصيه في معروف. و قال النبيّ: فإن وفّيتم فلكم الجنّة و إن خشيتم من ذلك شيئاً فأمركم إلى الله عزّ و جلّ إن شاء عذّب و إن شاء غفر...

ثمّ إنّ النبي بعث إلى يثرب مصعب بن عمير ليعلّمهم القرآن، و ذلك باستدعاء أسعد بن زرارة ـ أحد رؤساء الخزرجيين ـ، فصارت نتيجة ذلك أن وافى النبيّ في العام المقبل في العقبة الثانية وفود من الخزرجيين و الأوسيين، فبايعوا النبيّ في الشعب ...

فتكلّم رسول الله، فتلا القرآن، و دعا إلى الله، و رغّب في الإسلام. ثمّ قال أُبايعكم على أن تمنعوني ممّا تمنعون منه نساءكم و أبناءكم ...

فقام أبوالهيثم بن التيهان، و قال يا رسول الله: إنّ بيننا و بين الرجال حبالاً و إنّا قاطعوها فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثمّ أظهرك الله أن ترجع إلى قومك و تدعنا؟ قال: فتبسّم رسول الله ثمّ قال: بل الدم بالدم، و الهدم بالهدم[2] أنا منكم و أنتم منّي، أُحارب من حاربتم، و أُسالم من سالمتم ...

ثمّ قال: أخرجوا إليّ منكم اثنيّ عشر نقيباً ليكونوا على قومهم بما فيهم،

---

(١) ذكر الله تعالى بيعة النساء في القرآن و قال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَايُشْرِكْنَ بِاللهِ شَيْئاً وَ لَايَسْرِقْنَ وَ لَايَزْنِينَ وَ لَايَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَ لَايَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَ أَرْجُلِهِنَّ وَ لَايَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَ اسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (الممتحنة/ ١٢). ترى المماثلة بين بيعة الخزرجيّين و بيعة النساء في الموادّ والمضامين.

(٢) الهدم: الحرمة، أي ذمتي و حرمتي حرمتكم.

فأخرجوا منهم اثنّي عشر نقيباً تسعة من الخزرج و ثلاثة من الأوس...

فلمّا انتشرت مبايعة الأوس و الخزرج لرسول الله، خافت قريش على نفسها خصوصاً بعد ما وقفوا على أنّ المعذّبين في مكّة أخذوا يهاجرون إلى يثرب، فأذعنوا أنّ النبيّ أيضاً سوف يخرج إليهم و يتّخذها مأوى لنفسهِ و أصحابه، و ليشنّ عليهم الحرب و ينكّلهم، فاجتمعوا...

قال ابن إسحاق: «فلمّا رأت قريش أنّ رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) قد صارت له شيعة وأصحاب من غيرهم بغير بلدهم و رأوا خروج أصحابه من المهاجرين إليهم، عرفوا أنّهم قد نزلوا داراً، وأصابوا منهم منعة، فحذروا خروج رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) إليهم، و عرفوا أنّه قد أجمع لحربهم. فاجتمعوا له في دار الندوة و هي دار قصيّ بن كلاب التي كانت قريش لاتقضي أمراً إلاّ فيها، يتشاورون فيها ما يصنعون في أمر رسول الله(صلّى الله عليه وآله وسلّم) حين خافوه...

فتشاوروا فقال قائل منهم: إحبسوه في الحديد و اغلقوا عليه باباً، ثمّ تربّصوا به ما أصاب من الشعراء الذين كانوا قبله: زهيراً و النابغة حتّى يصيبهُ ما أصابهم، و قال قائل منهم: نخرجه من بين أظهرنا فننفيه من بلادنا، و قال أبوجهل بن هشام: أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتىً شابّاً جليداً نسيباً و سيطاً فينا، ثمّ نعطي كل فتىٰ منهم سيفاً صارماً، ثمّ يعمدوا إليه فيضربوه بها ضربة رجل واحد، فيقتلوه فنستريح منه، فإنّهم إذا فعلوا ذلك تفرّق دمه في القبائل جميعاً، فلم يقدر بنوعبد مناف على حرب قومهم جميعاً، فرضوا منّا بالعقل فعقلناه لهم، فتفرّق القوم على ذلك و هم مجمعون له، فأتى جبرئيل و قال: لاتبت هذه الليلة على فراشك الذي كنت تبيت عليه. قال: فلمّا كان عتمة من الليل إجتمعوا على بابه يرصدونه متىٰ ينام فيثبون عليه، فلمّا رآى رسول الله مكانهم قال لعلي بن أبي طالب: نم على فراشي و تسجّ ببردي هذا الحضرمي الأخضر فنم فيه، فخرج عليهم رسول الله، و أخذ الله تعالى على أبصارهم عنه، وجعل القوم يتطلّعون فيرون عليّاً على الفراش متسجّياً ببرد رسول الله، فيقولون: و الله إنّ هذا لمحمد نائماً عليه برده، فلم يبرحوا كذلك، و حتى أصبحوا، فقام عليّ

(رضي الله عنه) عن الفراش»[1]... فباءوا بالفشل وانصرفوا عن إيذاء علي وقتله.

و إلى تلك المؤامرة يشير قوله سبحانه: ﴿وَ إِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَو يُخرِجُوكَ وَ يَمْكُرُونَ وَ يَمْكُرُ اللهُ وَ اللهُ خَيْرُ المَاكِرِينَ﴾(الأنفال/ ٣٠). و فيه تصريح بآرائهم الثلاثة التي أبدوا بها في الندوة، و أجمعوا على القتل.

عزب عن قريش أنّه سبحانه تعهّد على نفسه نصر أنبيائه و رسله، فقال سبحانه: ﴿وَ لَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا المُرْسَلِينَ* إِنَّهُمْ لَهُمُ المَنْصُورُونَ﴾(الصافّات/ ١٧١ـ١٧٢).

أمر رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) عليّاً أن يتخلّف بعده بمكّة حتّى يؤدّي عن رسول الله الأمانة التي كانت عنده للناس، و ليس بمكّة أحد عنده شيء إلاّ وضعه رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) عند علي، فخرج رسول الله عامداً إلى غار بثور[2] و بقى فيها ثلاثاً و استنفدت قريش طاقتها في الوقوف على محلّه، وجعلت مائة ناقة لمن يردّه إليها، فخرج رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) مع دليله(عبدالله بن أرقط) و معهما أبوبكر فسلك بهما أسفل مكّة ثمّ مضىٰ على الساحل حتّى عارض الطريق أسفل من عسفان حتى قدم قباء باثنتىٰ عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأوّل يوم الإثنين، حتّى اشتدّ الضحى و كانت الشمس تعتدل[3].

و إلى هجرته هذه و اختفائه في الغار و نزول نصرته سبحانه عليه يشير قوله سبحانه:

﴿إلاَّ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْهُمَا فِي الغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَتَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَ أَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَ جَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ العُلْيَا وَ اللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(التوبة/ ٤٠).

---

(١) السيرة النبوية، لابن هشام: ج١ ص٤٢٨ـ٤٨٣.

(٢) جبل بأسفل مكّة.

(٣) السيرة النبويّة: ج١ ص٤٨٥ـ٤٩٢.

و الضمير في قوله: ﴿أَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾ يرجع إلى النبيّ بشهادة قوله: ﴿وَ أَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا﴾. فما هي النكتة في افراد الضمير؟

روى البيهقي عن ابن عباس:كان رسول الله بمكّة فأُمر بالهجرة و أُنزل عليه: ﴿وَ قُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَ أَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ واجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَاناً نَصِيراً﴾(الإسراء/ ٨٠)[1].

و قد نقل غير واحد من المفسّرين: إنّ النبيّ لمّا بلغ في هجرته الجحفة تذكّر موطنه، فنزل عليه الوحي مبشّراً بأنّه سوف يرد إلى موطنه و يزوره، قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ﴾(القصص/ ٨٥).

روى السيوطي: «لمّا خرج النبي من مكّة فبلغ الجحفة اشتاق إلى مكّة فأنزل الله:﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ﴾: إلى مكّة، و عن علي بن الحسين(عليه السلام) قال: كل القرآن مكّي أو مدنيّ غير قوله: ﴿إنّ الذي فرض عليك القرآن لرادّك إلى معاد﴾ فإنّها أُنزلت على رسول الله بالجحفة حين خرج إلى المدينة فلاهي مكّية و لامدنية، و كل آية نزلت على رسول الله قبل الهجرة فهي مكيّة نزلت بمكة أو بغيرها من البلدان، و كل آية نزلت بالمدينة بعد الهجرة فإنّها مدنيّة نزلت بالمدينة أو بغيرها من البلدان»[2].

و قد أشار الذكر الحكيم إلى موطنه(صلّى الله عليه و آله و سلّم) بقوله: ﴿وَ كَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلاَنَاصِرَ لَهُمْ﴾(محمد/ ١٣).

---

(١)دلائل النبوّة: ج٢ ص٥١٦، و أخرجه الترمذي في كتاب تفسير القرآن، باب تفسير سورة الإسراء،الحديث ٣١٣٩.

(٢)الدر المنثور في التفسير بالمأثور: ج٥ ص١٣٩و١٤٠، و مجمع البيان: ج٧ ص٢٦٨و٢٦٩.

قدومه ﷺ إلى قباء

قدم النبي حسب ما يذكره ابن هشام قباء لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأوّل يوم الإثنين حين اشتدّ الضحى و كانت الشمس تعتدل، و أقام علي بن أبي طالب بمكة ثلاث ليال و أيامها حتى أدّى عن رسول الله الودائع التي كانت لرسول الله عنده، حتى إذا فرغ منها لحق برسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم).

فأقام رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) بـ «قباء» في بني أمر بن عوف يوم الإثنين و يوم الثلاثاء و يوم الأربعاء و يوم الخميس، و أسّس مسجده الذي أُشير إليه في قوله سبحانه: ﴿ **لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَ اللهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ** ﴾(التوبة/ ١٠٨)[1].

إطلالة على نشأة التاريخ الهجري

المشهور إنّ أوّل من أرّخ بالتاريخ الهجري هو عمر بن الخطاب. يقول اليعقوبي: «و فيها (سنة ١٦هـ) أرّخ عمر الكتب و أراد أن يكتب التاريخ منذ مولد رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) ثمّ قال: من المبعث، فأشار عليه علي بن أبي طالب(عليه السلام) أن يكتبه من الهجرة، فكتبه من الهجرة»[2].

و روى الحاكم عن سعيد بن المسيب أنّه قال: جمع عمر الناس فسألهم من أي يوم يكتب التاريخ؟ فقال علي بن أبي طالب: من يوم هاجر رسول الله، و ترك أرض الشرك، ففعله عمر (رضي الله عنه)، هذا حديث صحيح الإسناد، و لم يخرجاه[3].

---

(١)مجمع البيان: ج٣ ص٧٢.

(٢)تاريخ اليعقوبي: ج٢ ص١٣٥ (طبع النجف).

(٣)مستدرك الصحيحين، الحاكم: ج٣ ص١٤.

و يظهر من ابـن كثير الدمشقي أنّ اليعقوبـي و الحاكم لخّصا القصـة و كانت هي أطول ممّا ذكراه. حيث نقل عن الواقدي أنّه قال:

«و في الـربيع الأوّل مـن هذه السنة ــ أعني سنة١٦ــ كتب عمر بـن الخطاب التاريخ و هو أوّل من كتبه.

و أضاف ابن كثير قائلاً: قد ذكرنا سببه فـي سيرة عمر، و ذلك انّه رفع إلى عمر صكّ مكتوب لـرجل على آخر بديـن يحلّ عليه في شعبان، فقـال: أي شعبان؟ أمن هذه السنـة أم التي قبلها، أم التي بعـدها؟ ثمّ جمـع الناس فقال: ضعوا للنـاس شيئاً يعرفـون فيه حلـول ديونهـم، فيقال: إنّهـم أراد بعضهم أن يـؤرّخوا كمـا تؤرّخ الفـرس بملوكهم كلّما هلك ملك أرّخوا من تاريـخ ولاية الذي بعده فكرهوا ذلك، و منهم من قال: أرّخـوا بتاريـخ الروم مـن زمان إسكنـدر فكرهـوا ذلك، ولطـوله أيضـاً، و قال قائلون: أرّخوا من مولد رسول الله، وقال آخرون:من مبعثه(صلّى الله عليه وآله وسلّم)، و أشار علي بن أبي طـالب و آخرون أن يؤرّخ من هجرته من مكـّة إلى المدينة لظهوره لكل أحد، فإنّه أظهر من المولد و المبعـث، فاستحسن ذلك عمر و الصحابة، فأمر عمر أن يؤرّخ مـن هجرة رسول الله(صلّى الله عليـه و آله و سلّم) و أرّخوا مـن أوّل تلك السنة من محرّمها، و عند مالك ـ رحمه الله ـ فيما حكاه عن السهيلي[١] و غيره أنّ أوّل السنة من ربيع الأوّل لقـدومه(صلّى الله عليه و آله و سلّم) إلـى المدينة، و الجمهور على أنّ أوّل السنة من المحرّم لأنّه أضبط لئلاّ تختلف الشهور، فإنّ المحرّم أوّل السنة الهلالية العربية[٢].

و لكن الجزم و الإذعـان بصحّة هذه النقول مشكل، و الظـاهر أنّ أوّل من أرّخ بالسنة الهجريّة، هـو النبيّ الأكرم حسب تضافر النصوص الموجـودة في ثنايا الكتب و ماظفرنا عليه من النصوص تدلّ على كون التأريخ بالهجرة في زمن النبي و بعده.

---

(١)كذا في المصدر و الظاهر زيادة كلمة«عن».

(٢)البداية و النهاية: ج٧ ص٧٥و٧٦. طبع دار الكتب العلميّة.

١ ـ ما روي عن الزهري: إنّ رسول الله لمـّا قدم المدينة مهاجراً أمر بالتاريخ فكتب في ربيع الأوّل[1].

٢ ـ ما رواه الحاكم و صحّحه عن عبد الله بن العباس أنّه قال: كان التاريخ في السنة التي قدم فيها رسول الله المدينة، وفيها ولد عبد الله بن الزبير[2].

و دلالته على المقصود واضحة، لأنّه قال: «كان التاريخ في السنة» و لم يقل «من السنة».

٣ ـ إنّ بعض الصحابة كانوا يعدّون بالأشهر من مهاجرة النبيّ(صلّى الله عليه وآله و سلّم) إلى أواسط السنة الخامسة، مثلاً أرّخوا تحويل القبلة على رأس سبعة عشر شهراً، و فرض رمضان على رأس ثمانية عشر شهراً من هجرة الرسول[3].

٤ ـ ما رواه أبو نعيم عن عهد النبي(صلّى الله عليه و آله و سلّم) لسلمان الفارسي و هو مؤرّخ بسنة تسع للهجرة، و هو ينقل عن الحسين بن محمد بن عمرو الوثابي: إنّه رأى هذا السجل بشيراز بيد سبط لغسّان بن زاذان بن شاذويه بن ماهبنداز، و هو أخو سلمان، و هذا العهد بخط علي بن أبي طالب، مختوم بخاتم النبي، فنسخ منه ما صورته:

«بسم الله الرّحمن الرّحيم. هذا كتاب من محمد رسول الله ـ سأله سلمان وصيّة بأخيه ماهبنداز أهل بيته و عقبه... » و في آخر العهد: «و كتب علي بن أبي طالب بأمر رسول الله في رجب سنة تسع من الهجرة، و حضره أبوبكر، و عمر، و عثمان، وطلحة، و الزبير، و عبد الرّحمان، و سعد، و سعيد، و سلمان، و أبوذر، وعمّار، و عيينة، و صهيب، و بلال، و المقداد، و جماعة آخرون من المؤمنين».

---

(١) فتح الباري: ج٧ ص٢٠٨، و إرشاد الساري: ج٦ ص٢٣٣.

(٢) مستدرك الصحيحين، للحاكم النيسابوري: ج٣ ص١٣و١٤.

(٣) تاريخ الخميس: ج١ ص٣٦٨، و من راجع الكتب المؤلّفة حول السيرة يجد ذلك بوضوح، فإنّ أكثر الحوادث في السنين الأُولى بعد الهجرة مؤرّخة بالشهور.

و ذكره أيضاً أبو محمد بن حيّان عن بعـض من عني بهذا الشأن : إنّ رهطاً من ولد أخـي سلمان بشيراز زعيمهـم رجل يقال له(غسّـان) بن زاذان معهم هـذا الكتاب بخط علي بـن أبي طالب في يدغسـان، مكتوب في أديم أبيض مختوم بخـاتم النبي و خاتم أبي بكر و علـي ـ رضي الله عنهما ـ على هذا العهد حـرفاً بحرف إلاّ أنّه قال : وكتب علي بن أبي طالب، و لم يذكر عيينة مع الجماعة[١].

و نقل أيضاً عن أبي كثير بن عبدالرحمـان بن عبد الله بن سلمان الفارسي، عن أبيه، عن جدّه أنّ النبيّ(صلّى الله عليه و آله و سلّـم) أملى هذا الكتاب على علي بن أبي طـالب ـ رضي الله عنه ـــ : هذا مافادى محمـد بن عبدالله رسول الله فـدى سلمان الفارسي من عثمـان بن الأشهل اليهودي، ثمّ القرظي بغرس ثـلاثمائة نخلة و أربعين أوقيـة ذهب، فقـد برئ محمـد بن عبـدالله رسـول الله لثمن سلمـان الفارسـي ،و ولاؤه لمحمد بن عبـدالله رسول الله و أهل بيته فليـس لأحد على سلمان سبيـل . شهد على ذلك : أبوبكر الصديق و عمر بن الخطاب و علـي بن أبي طالب ... و كتب علي بن أبي طالب يوم الإثنين في جمادى الأُولى مهاجر محمد بن عبدالله(صلّى الله عليه و آله وسلّم)[٢].

٥ ـ كتب خـالد بن الوليد لأهل دمشق : إنـّي قد أمنتهم على دمائهـم و أموالهم وكنائسهم ... و في آخـره شهد أبو عبيدة بن الجـرّاح و شرحبيـل بن حسنـة، و كتب سنة١٣[٣].

إلى غير ذلك من النصوص التي جاء بهـا الفاضل المتتبّع السيّد جعفر مرتضى

---

(١)ذكر أخبار اصبهان : ج١ ص٥٣ .

(٢)المصدر السابق : ج١ ص٥٢، و الظاهر أنّ المراد من «المهـاجر» هو عام الهجرة لامكانها، ويؤيّد ذلـك:إنّ سلمان عرف الرسـول إبّان قدومه بالمـدينة و آمن و التحق بـه، و الظاهر أنّ توصيف أبي بكر بما في الرواية من تلاعب الرواة، حيث لم يكن يوم ذلك معروفاً به. لاحظ : السيرة النبويّة لابن هشام : ج١ ص٢١٨و٢١٩ .

(٣)الأموال لأبي عبيد الثقفي القاسم بن سلام، ـ(المتوفّى ٢٢٤) : ص٢٩٧ .

العاملي في مقالـه في مجلة الهادي[1] و هذا يعرب عـن أنّ التاريخ بالهجـرة كان قبل الخليفة، و غاية مـا يمكن تصحيح ما ورد بأنّ الخليفة أرّخ بـالهجرة هو أنّ النبيّ أرّخ بالهجرة و لم يشتهر بين الناس لقلّة حاجاتهم إلى التاريخ، فلمّا انتشر الإسلام خارج الجزيـرة مسّت الحاجـة إلى تاريـخ الكتب و الرسـائل الواردة من مختلـف الأرجاء، جمع الخليفة صحابـة النبي وأشار الإمام بنفس مافعله رسـول الله(صلّى الله عليه وآله وسلّم).

و ممّا يـؤسف لـه أنّ المسلمين نسوا أمجـادهم التاريخيـة و الحضاريـة التي كـرّمهـم الإسلام بهـا، فعـادوا يـؤرّخون كتبهـم و رسـائلهـم بـالتاريـخ المسيحـي، فكأنّهم ﴿نَسُوا اللهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾ و قد رأيـت بعيني رسالـة لشيخ الأزهـر الشيخ محمود عبد الحليـم و قد أرّخها بالتاريخ المسيحـي الميلادي و لم يذكر ـ حتّى في جنبه ـ التاريخ الهجري، فإذا كان هذا حال شيخ الأزهر فما ظنّك بغيره؟

إذا كان ربّ البيت بالدّف مولعاً   فشيمة أهل البيت كلّهم رقص

و مـن الواجـب على المسلميـن أن لايتنازلـوا عـن أقل شـيء ممّا يـرجع إلـى تـاريخهم و حضـارتهم و دينهـم، حتى انّ ذكـر التاريـخ الميلادي جنـب التاريـخ الهجري نوع ترويج له و مماشاة مع الكفر، و لم يزل أعداء الدين يتآمرون على الإسلام و المسلمين بمسـخ شخصيتهم الإسلاميّة و اقتلاع جذور مبادئهـا، و قدشهدنـا في بلدنا العزيز إيران مثل ذلك عام١٣٩٦ هــ ق. فقد قام طاغوت إيران بتبديل التاريخ الإسلامي إلى التاريخ«الشاهنشاهي» المجعـول الذي لاسند له، و فرضه على الناس وعادت الرسائل و الكتب الرسمية تؤرّخ به، و كادت أن ترسّخ في القلوب لولا أن بدّد الله شملـه و أزال ملكـه و حاق بـه العـذاب و البلاء بـانتصار الثـورة الإسـلاميّة عـام ١٣٩٨هــ. ق ﴿قُلْ جَاءَ الحَقُّ وَ زَهَقَ البَاطِلُ إِنَّ البَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً﴾.

---

(١)العدد السادس من السنة الخامسة و هو مقال ممتع.

نزول النبيّ بالمدينة :

خرج رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) يوم الجمعة من«قبا» فأدرك الجمعة في بني سالم بن عوف فكانت أوّل جمعة أقامها بالمدينة، و كان لايمر على قبيلة إلاّ قالوا:أقم عندنا، فيقول النبيّ خلّوا سبيلها(الناقة) فإنّهامأمورة، حتّى إذا أتت دار بني مالك بن النجّار، بركت ناقته على باب مسجده و هو مربد[1] فنزل رسول الله فاحتمل أبو أيّوب رحله فوضعه في بيته، و سأل عن المربد لمن هو، فقال معاذبن عفراء: هو لسهل و سهيل ابني عمرو و هما يتيمان لي و سارضيهما منه، فاتّخذه مسجداً، فأمر به رسول الله أن يبني مسجداً، و نزل رسول الله حتى بنى مسجده و مسكنه، فعمل فيه رسول الله ليرغّب المسلمين في العمل فيه، فعمل فيه المهاجرون و الأنصار و دأبوا، فقال قائل من المسلمين :

لئن قعدنا و النبي يعمل　　　لذاك منّا العمل المضلّل

و ممّن ساهم في بناء المسجد عمّار بن ياسر و قد أثقلوه باللبن، فقال: يا رسول الله: قتلوني، يحمّلون عليّ مالا يحملون، قالت أُمّ سلمة زوجة النبي(صلّى الله عليه و آله و سلّم): فرأيت رسول الله ينفض و فرته بيده و كان رجلاً جعداً، و هو يقول: ويح ابن سميّة ليسوا بالذين يقتلونك إنّما تقتلك الفئة الباغية .

و ارتجز علي بن أبي طالب(عليه السلام) يومئذ :

لايستوي من يعمّر المساجدا　　　يدأب فيه قائماً و قاعداً

و من يرىٰ عن الغبار حائداً

و قد كان بين أصحاب رسول الله من يستنكف العمل، فهذا الرجز من علي(عليه السلام) كان بقصد التعريض به، و قد قال ابن إسحاق: إنّ المقصود به عثمان بن عفّان، و في المواهب اللدنية: إنّ المقصود عثمان بن مظعون .

---

(١)الموضع الذي يجفّف فيه التمر.

فأقام رسول الله بالمدينة إذ قدمها شهر ربيع الأوّل إلى صفر من السنة التالية حتّى بنىٰ له فيها مسجده و مساكنه، فلم يبق دار من دور الأنصار إلاّ أسلم أهلها إلاّ حيّ من الأوس، فإنّهم أقاموا على شركهم.

و لأجل استتباب الأمن، و إضفاء طابع الوحدة السياسية على القبائل التي تستوطن يثرب و ما جاورها كتب رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) كتاباً بين المهاجرين و الأنصار، وادع فيه اليهود وعاهدهم و أقرّهم على دينهم و أموالهم و شرط لهم و اشترط عليهم.

و قد نقل ابن هشام الكتاب برمّته و هو أوّل منشور سياسي أدلى به النبي إبّان نزوله بالمدينة.

و لم يكتف بذلك حتى آخىٰ بين المهاجرين و الأنصار، فقال: تآخوا في الله أخوين أخوين، ثمّ أخذ بيد علي بن أبي طالب، فقال: هذا أخي، فكان رسول الله سيّد المرسلين و إمام المتّقين و رسول رب العالمين الذي ليس له نظير من العباد وعلي بن أبي طالب(عليه السلام) أخوين، و كان حمزة بن عبد المطلب أسد الله و أسد رسوله و عمّه و زيد بن حارثة مولى رسول الله أخوين، و إليه أوصى حمزة يوم أُحدحين حضره القتال إن حدث به حادث الموت، فهكذا تآخى المهاجرون والأنصار أخوين أخوين.

فلمّا اطمأنّ رسول الله بالمدينة و التفّ حوله إخوانه من المهاجرين و اجتمع أمر الأنصار، استحكم أمر الإسلام، فقامت الصلاة و فرضت الزكاة و الصيام و قامت الحدود و فرض الحلال و الحرام، و شرع الآذان[1].

و لمّا استحكمت شوكة المسلمين ظهرت من أحبار اليهود العداوة حسداً وضغناً و التحق بهم رجال من الأوس و الخزرج فتظاهروا بالإسلام، و نافقوا في السرّ و كان هواهم مع اليهود.

---

(١) السيرة النبويّة: ج١ ص٤٩٤ـ٥١٢.

و كان أحبار اليهود هم الذين يسألون رسول الله و يشاغبونه ليلبسوا الحقّ بالباطل، فكان القرآن ينزل فيهم فيما يسألون عنه.

و كان المجتمع اليهودي عبارة عن مجموع قبائل ثلاث:

١ ـ بني قينقاع.

٢ ـ بني النضير.

٣ ـ بني قريظة.

و كانت تلك القبائل مليئة بالأحبار و هم الذين شنُّوا حرب الاستنزاف الخفيّة على النبي، و استمدّوا ممّن اجتمع إليهم من منافقي الأنصار، وإليك استعراض ما بدر منهم من جدال على ضوء ما ورد في القرآن الكريم.

مجادلة أهل الكتاب

كانت بيئة مكّة قاعدة للشرك و المشركين و لم يكن هناك حبر و لاراهب، بل و لايهودي و لانصراني إلاّ شرذمة قليلة لاتتجاوز عدد الأصابع من أمثال ورقة بن نوفل، و عثمان بن حويرث اللّذين تنصّرا قبل الإسلام، و كانت قريش تغط في الكفر و الشرك إلاّ أُناس قليل المقتفين أثر الخليل المسمّين بالأحناف[1].

إنّ ما ورد من الآيات حول جدال أهل الكتاب مع النبي، آيات مدنية تناثر ذكرها في السور الطوال كالبقرة و آل عمران و غيرهما.

كان الجدال محتدماً على قدم و ساق في الفترة التي كانت القبائل الثلاث مقيمة في المدينة، و بعد ما أُزيلوا عنها أُخمدت نار فتنتهم، و كان أكثر ما جادلوا فيه ما يرجع إلى النبي و علائمه في العهدين، و لسنا في هذا المقام بصدد نقل كل حوار

---

(١) السيرة النبويّة: ج١ ص٢٢٢ـ٢٢٤.

ورد في القرآن الكريم سواء كانت راجعة إلى الأحبار و الرهبان أم إلى غيرهم، و إنّما الهدف تبيين مادار بين النبي وبين أحبار اليهود في يثرب قبل إجلائهم و إبادتهم، و كان الكل في السنين الخمس الأُولى إلى أوان حرب الخندق حيث استأصل نسل اليهود في المدينة و لم يبق منهم أحد إلاّ كعب القرظي[1].

تنبّؤ القرآن عن شدّة عداوة اليهود:

تنبّأ القرآن الكريم عن قسوة اليهود و شدّة عدائهم كالمشركين بينما كان المسيحيون على خلاف ذلك، فكانوا أقرب الناس مودّة للّذين آمنوا، قال سبحانه: **﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا وَ لَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَ رُهْبَاناً وَ أَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ* وَ إِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾**(المائدة٨٢و٨٣) و لأجل ذلك نرى أنّه لم يسلم من اليهود و لا من أحبارهم إلاّ أقلّ القليل، كعبد الله بن سلام و كعب الأحبار من الذين دسّوا بإسلامهم كثيراً من البدع اليهودية بين المسلمين، بينما نرى أنّه بعد ما انتشر الإسلام في ربوع الأراضي المسيحية، دخل المسيحيّون أفواجاً في الإسلام و ما ذلك إلاّ لأنّه كان فيهم قسّيسون و رهبان، مالوا إلى الحق و اعتنقوه و صدّقوا به فتبعهم غيرهم.

و هناك سبب آخر لتصلّب اليهود و عدم رضوخهم لدعوة الإسلام، يتمثّل في حرصهم على زينة الحياة و زبرجها و هو أكبر حجاب بين بصيرة الإنسان، و الحق الذي يجب أن يتّبع، قال سبحانه:

---

(١) هو والد محمد بن كعب القرظي، القصّاص الذي ملأت كتب التاريخ و التفسير قصصه، فتدبّر.

﴿وَ لَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَ مِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَ مَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ العَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَ الله بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾(البقرة/ ٩٦).

الدعوة إلى أصل مشترك بين الشرائع السماوية:

إنّ التوحيد في العبادة هو الأصل المشترك الذي قام عليه صرح الشرائع السماوية، و من العجب انّ أهل الكتاب الذي يضفون على أنفسهم أنّهم من أنصار لواء التوحيد، قدانحرفوا عن هذا الأصل الأصيل، فعاد يتّخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله، فجاء الوحي يدعوهم إلى العودة إلى هذا الأصل، و الإنضواء تحت رايته الخفّاقة، قال سبحانه:

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَ بَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ وَ لاَنُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَ لاَيَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾(آل عمران/ ٦٤).

و لأجل إيقاف القارئ على نماذج من إنحراف اليهود والنصارى عن هذا الأصل المشترك على أبعاده المختلفة(التوحيد في العبادة ـ التوحيد في الربوبية ...) نذكر بعض عقائدهم الخرافية حسبما ورد في القرآن الكريم.

الاعتقاد بمبدأ البنوّة للباري جلّ و علا:

و قد تمخّض الانحراف عن أصل التوحيد، و بلغ الذروة حيث اتّخذوا لله ابناً باسم عزير و المسيح و هم يضاهئون بذلك قول الكافرين، و إليه الإشارة في قوله عزّ و جلّ: ﴿وَ قَالَتِ اليَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ وَ قَالَتِ النَّصَارَى المَسِيحُ ابْنُ اللهِ ذٰلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾(التوبة/ ٣٠).

إنّ اليهود اليوم و إن كانت تنكر تلك النسبة و لاتدين بها ولكنّها كانت موجودة في عصر نزول القرآن، و لأجل ذلك لم تعترض اليهود على النبيّ الأكرم.

و المستفاد من الآية انّ الاعتقاد بمبدأ البنوّة للباري جلّ و علا ذات خلفيّة تاريخيّة و لعلّ الآية تشير إلى عقيدة التثليث التي كانت تدين بها الهندوكية كما هو الظاهر من آثار آلهتهم المجسّمة المثلّثة[1].

و بما أنّ للتثليث دعامة راسخة في الديانة النصرانية أفاض القرآن القول فيه، يليق بنا الإسهاب في تناول أطراف هذا الموضوع.

ذاتية التوحيد و ظاهرة التثليث:

لقد تمثّلت ظاهرة التثليث في الديانة النصرانية عصر نزول القرآن في صور مختلفة تناولها القرآن الكريم بالذكر.

فتارة يقولون المسيح هو الله.

و اُخرى يصرّحون بالثالوث المقدّس، و إنّ هناك ثلاث آلهاتٍ بإسم إله الأب، و إله الإبن، و روح القدس.

و ثالثة إنّ المسيح ابن الله.

و لعلّ الجميع تعبيرات متنوّعة عن حقيقة واحدة أو أنّها عبارة عن نظريّات مختلفة يتبنّى كلّ واحد منها طائفة منهم و إليك التوضيح.

أ ـ المسيح هو الله:

يقول سبحانه حاكياً عنهم تلك العقيدة: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ

(١) لاحظ: الآثار الوثنية في الديانة النصرانية.

الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَ قَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِى إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّى وَ رَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْحَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الجَنَّةَ وَ مَأْوَاهُ النَّارُ وَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَار﴾(المائدة/ ٧٢) .

فالآيـة تعرب عـن أنّ المسيح عنـد طائفـة منهم هـو الربّ الخـالق، و بعبـارة أُخرى: إنّ الله اتّحـد بالمسيـح اتّحاد الـذات، فصارا شيئـاً واحداً و صـار الناسـوت لاهوتاً[١].

و الذيـن يقولون مـن النصارى: إنّ الله هو المسيـح ابن مـريم هم اليعقـوبية، و اللائق بهذا القول هـو إنكار التثليث، و لكن لايخلو مذهب مـن مذاهب النصارى منه، و قد ردّ القرآن على ذلك الزعم بمـا نقله عن المسيح بأنّه قال: ﴿يَا بَنِى إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا رَبِّى وَ رَبَّكُمْ ... ﴾ فهو يدلّ على أنه عبـد مثلهم كما أنّ قوله: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الجَنَّةَ﴾ يدلّ علـى أنّ من يجعل لله شريكـاً في الوهيّتـه، فهو مشرك كافـر، محرّم عليه الجنّة. و في هـذا القول مزيد عنـاية بإبطال ما ينسبـونه إلى المسيح من حديـث التفدية و أنّه(عليه السلام) باختياره الصلـب فدى بنفسه عنهم، فهم مغفور لهـم، مرفوع عنهم التكاليف الإلهية، و مصيرهـم إلى الجنّة ولايمسّون ناراً.

كيف يقولون ذلك مع أنـه(عليه السلام) كان يقول: ﴿مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الجَنَّةَ وَ مَأْوَاهُ النَّارُ وَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَار﴾[٢].

ب ـ الله ثالث ثلاثة أو الثالوث المقدّس:

و كان هناك قسم آخر من الانحراف عن خط التوحيد يتجسّد في القول بأنّ الله ثالث ثلاثة كما يحكيه قوله سبحانه:

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَـلاثَةٍ وَ مَا مِنْ إِلٰهٍ إِلاَّ إِلٰهٌ وَاحِدٌ وَ إِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُـولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِيـنَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَـذَابٌ أَلِيمٌ﴾(المائدة/ ٧٣) و القـائل بهذه

(١)مجمع البيان: ج٢ ص٢٢٨.

(٢)التبيان: ج٣ ص٥٨٧.

المقالة هم جمهور النصارى من الملكانيـة و اليعقوبية، و النسطورية و المقصود أنّه أحد الثـلاثة: الأب و الإبـن و روح القدس أي أنّه ينطبـق على كل واحـد من الثـلاثة وهذا لازم قولهم: إنّ الأب إلـه، و الإبن إله، و الروح إله، و هو ثـلاثة و هو واحد، ويمثّلون لـذلك بقولهم: إنّ زيـدبن عمرو إنسان فهنـاك أُمور ثلاثة هـي زيد، و ابن عمرو و الإنسان، و هناك أمر واحد و هو المنعوت بهذه النعوت.

و يلاحظ عليه: أنّ هذه الكثرة إن كانت حقيقية غير اعتبارية أوجبت الكثرة في المنعوت حقيقـة، و إنّ المنعوت إن كان واحداً حقيقـة أوجب ذلك أن تكـون الكثرة اعتباريـّة غير حقيقيّة، فالجمـع بين هذه الكثـرة العددية و الـوحدة العددية كمـا في المثال بحسب الحقيقة ممّا يستنكف العقل عن تعقّله.

و لأجـل ذلك التجـأ دعاة النصـارى في الآونـة الأخيرة إلـى القول بـأنّ مسألـة التثليـث من المسـائل المـأثورة مـن مـذاهـب الأسلاف وهـي لاتخضـع للموازيـن العلميّة[1].

و قد ردّ الذكر الحكيم على ذلك بقوله: ﴿وَ مَا مِنْ إِلٰهٍ إِلاَّ إِلٰهٌ وَاحِدٌ...﴾ ببيان أنّ الله سبحانه لايقبل بـذاته المتعالية، الكثرة بوجـه من الوجوه،فهو تعالـى ذاته واحد وإذا اتّصف بصفاته الكريمة و أسمائه الحسنى لـم يزد ذلك على ذاته الواحدة شيئاً، و لا الصفة إذا أُضيفت إليها أورثـت كثرة و تعدّداً، فهو تعالى أحـديّ الذات لاينقسم لا في خارج و لافي وهم و لا في عقل.

و يستفاد من قـوله: ﴿وَ إِنْ لَمْ يَنْتَهُـوا عَمَّا يَقُـولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّـذِينَ كَفَـرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيـمٌ﴾ بحكم الإتيـان بلفظ(منهـم) المشعرة بـالتبعيض ـ، إنّ هناك طـائفة لايعتقدون بالتثليث و لايقـولون في المسيح إلاّ إنّه عبد الله و رسولـه كما عليه مسيحيّة الحبشة بعضهم أو جلّهم.

---

(١) الميزان: ج٤ ص٧٠.

مشكلة الجمع بين التوحيد و التثليث:

إنّ المسيحيين يعتبرون أنفسهم موّحدين و إنّهم من المقتفين أثر التوحيد الذي جاءت بـه جميع الشـرائع السماويـة، و من جانـب آخر يعتقـدون بالتثليـث اعتقاداً جازماً، و هذان لايجتمعان إلاّ أن يكون أحد الوصفين حقيقيّاً و الآخر مجازيّاً ولكنّهم ياللأسف يقولون بكونهما معاً حقيقيين، و لأجل ذلك أصبحت عندهم: ١=٣ و هو محال ببداهة العقل.

و القرآن الكريم ينسب التثليث إلى أقوام آخرين كانوا قبل المسيح و المسيحيّة و هؤلاء إنّما اتّبعوا أُولئك، و لعلّ الثالوث الهنـدي هو الأصل حيث يعتقدون بأنّ الإله الواحد له مظـاهر ثلاثة: «برهما»: «الموجد»، و «فيشفـو»: «الحافظ»، و «سيفا»: «المميـت» فقـد دان بتلك العقيـدة المسيحيّون بعـد رفـع المسيـح آماداً متطـاولـة، و لمّا جاء المتأخّرون منهم و رأوا أنّ الوحدة الحقيقية لاتخضع للكثرة كذلك حاولوا أن يصحّحوه بوجهين:

الأوّل: تفكيك المسائل الدينية عن المسائل العلميّة و أنّ الدين فوق العلم وأن مسألة ١=٣ و إن كانت بـاطلة حسب القوانين الرياضية المسلّمـة و لكنّ الدين قبلها ونحن نعتقد بها. و لكنـّه عذر أقبح من ذنب فكيف نعتنق دينـاً يتصادم مع أوضح الواضحات و أبده البديهيّات.

الثاني: إنّ المعادلة الـرياضية السابقة ليست بـاطلة و ذلك لوجود نظـائرها في الخارج، فإنّ الشمس لها جرم و لها نور و لها حرارة و مع ذلك فهي شيء واحد.

و هذا الاستـدلال يكشف عن جهـل مطبق بحقيقة الـوحدة المعتبرة فـي حقّه سبحانـه فإنّ المقصود منهـا في حقّه هو الـوحدة الحقيقية التـي لاكثرة فيها لاخـارجاً ولاذهناً و لا وهمـاً و أين هـو من وحدة الشمـس التي هي وحـدة اعتباريـة لاحقيقية حيث تتركّب من جرم و نور و حرارة و كل منها ينقسم إلى انقسامات.

و على كـلّ تقدير فماذا يـريدون من قـولهم(إنّه إلـه واحد) و في الوقـت نفسه

ثلاثة، فهل يريدون أنّ هناك أفراداً متميّزة و متشخّصة من الإله الصادق هو عليهم صدق الكلّي على الأفراد؟

أو يريدون أنّ هناك فرداً واحداً ذا أجزاء و ليس لكل واحد منها استقلال و لاتشخّص و إنّما يتشكّل الإله من تلك الأجزاء؟

فالفرض الأوّل يستلزم تعدّد الإله تعدّداً حقيقيّاً و هو لايجتمع مع التوحيد بحال من الحالات.

و الفرض الثاني لايخلو إمّا أن يكون كل واحد من هذه الأجزاء واجبة الوجود أو ممكنة، فعلى الأوّل تلزم منه كثرة الإله(واجب الوجود) و هم يدّعون الفرار منه.

و على الثاني يلزم أن يكون واجب الوجود محتاجاً في تحقّقه و تشخّصه إلى أجزاء ممكنة و هو كما ترى.

و لأجل ذلك نرى أنّ الذكر الحكيم ينادي ببطلان التثليث بأيّ نحو يمكن أنّ يتصوّر بقوله: ﴿يَا أَهْلَ الكِتَابِ لاَتَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَ لاَتَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلاَّ الحَقَّ إِنَّمَا المَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَ كَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَ رُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَ لاَتَقُولُوا ثَلاَثَةٌ انْتَهُوا خَيْراً لَكُمْ إِنَّمَا اللهُ إِلٰهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمٰواتِ وَ مَا فِي الأَرْضِ وَ كَفَى بِاللهِ وَكِيلاً﴾(النساء/ ١٧١).

إنّ الآية تركّز على أنّ نسبة الالوهيّة إلى المسيح من آثار الغلوّ في حقه فلو تنزّه القوم عن هذا التمادي الفكري المفرط لوقفوا على سمة المثالية فيه و نفوا عنه مقام الالوهية.

و الآية تصف المسيح بالصفات الخمس:

١ ـ عيسى ابن مريم ٢ ـ رسول الله ٣ ـ كلمته ٤ ـ ألقاها إلى مريم ٥ ـ روح منه.

إنّ بعض هذه الصفات المسلّمة في حقّ المسيح تشهد بعبوديّته و تنفي الوهيّته وإليك مزيد من التوضيح حولها:

١ ـ **عيسى ابن مريم**: و قد ورد في الذكر الحكيم ذكره عشر مرّات و بنوّته لمريم التي لاتنفك عن كونه جنيناً رضيعاً في المهد صبيّاً يافعاً و... لدليل واضح على بشريّته.

٢ ـ **رسول الله**: و معناه مبعوثه و مرسله و ليس نفسه.

٣ ـ **كلمة الله**: و قد أطلق القرآن لفظ الكلمة على المسيح كما أطلقه على جميع الموجودات الإمكانية و قال: ﴿**قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّى لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّى**﴾(الكهف/ ١٠٩).

و أمّا إطلاق الكلمة على الموجودات الإمكانية لأجل وجود التشابه بين الكلمة و الموجود الإمكاني فإنّ الكلمة تكشف عمّا يقوم في ذهن المتكلّم من المعاني فهكذا الموجودات الإمكانية عامّة، و خلقة المسيح على وجه الإعجاز خاصّة تكشف هي الأخرى عن علم و قدرة وسِيعَين و كما ل لا متناه يكمن في ذاته سبحانه و لأجل ذلك يعد القرآن المسيح و جميع العوالم الإمكانية كلمات الله سبحانه.

٤ ـ **ألقاها إلى مريم**: إنّ الإلقاء إلى رحم الأُم آية كونه مخلوقاً و قد ذكر تفصيله في سورة مريم، الآية١٦ إلى ٣٦ و اختتمها بقوله: ﴿**ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ**﴾(مريم/ ٣٤).

٥ ـ **و روح منه**: إنّ هذا التعبير ربّما وقع دليلاً على تطرّق فكرة الالوهيّة في حقّ المسيح و هم يتخيّلون إنّ(منه) تبعيضية و لكنّها ابتدائية مثل قوله سبحانه: ﴿**وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِى السَّمٰوَاتِ وَ مَا فِى الأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ**﴾(الجاثية/ ١٣) و المعنى انّ السموات و ما في الأرض جميعاً ناشئ منه و حاصل من عنده، و مبتدأ منه، فذوات الأشياء تبتدئ منه بإيجاده لها من غير مثال سابق و كذلك خواصّها و آثارها. قال تعالى: ﴿**اللهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ**﴾(الروم/ ١١).

أضف إلى ذلك انّ ذلك التعبير لايفوق في حق آدم حيث قال: ﴿**فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِى فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ**﴾(الحجر/ ٢٩).

فقد وصف آدم(عليه السلام) بلفظة «من روحي» و لم يقل أحد بأنّه جزء من الإله.

ثمّ إنّه سبحانه ختم تلك الصفات بقوله: ﴿فَآمِنُوا بِاللهِ وَ رُسُلِهِ وَ لاَتَقُولُوا ثَلاَثَةٌ انْتَهُوا خَيْراً لَكُمْ﴾.

سمات العبودية في المسيح:

إنّ الذكر الحكيم يستدل على عبوديته بوجوه ثلاثة:

١ ـ كيفيّة خلق المسيح و اُمّه.

٢ ـ طبيعة عيشهما في المجتمع.

٣ ـ تصريح المسيح بعبوديّته.

هذه هي الوجوه التي يستدلّ بها القرآن الكريم على عبوديّته، أمّا الأوّل فقد بسط الذكر الحكيم في تناولها في سورة مريم كما مرّ و هذه الآيات تلقي الضوء على كيفيّة خلقه إلى أن توّج بالرسالة،فيقول سبحانه:

﴿فَأَجَاءَهَا المَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هٰذَا وَ كُنْتُ نَسِياً مَنْسِيّاً﴾ إلى أن يقول: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الحَقِّ الَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾.

و لو تمسّك الخصم على عدم بشريته بأنّه ولد من غير أب فهو محجوج بخلقة آدم فقد خلق من غير اُمّ و والد، قال سبحانه: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾(آل عمران/ ٥٩).

و أمّا الثاني فيلمح إليه ما ورد بأنّ المسيح و اُمّه كانا يعيشان شأنهما كشأن سائر بني آدم و لايحيدان عنهم قيد شعرة، قال سبحانه: ﴿مَا المَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْخَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَ أُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ

﴿الآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾(المائدة/ ٧٥) فمن الممتنع أن يكون آكل الطعام إله العالمين.

و أمّا الثالث فيشير إليه قوله سبحانه: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ المَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْداً للهِ وَ لَا المَلَائِكَةُ المُقَرَّبُونَ وَ مَن يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَ يَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعاً﴾(النساء/ ١٧٢).

و ليس بوسع إنسان أن ينكر عبادة المسيح و هي آية وجود المعبود له و هناك كلمة قيّمة للإمام الطاهر علي بن موسى الرضا في مناظرته مع الجاثليق، قال الإمام: يا نصراني والله إنّا لنؤمن بعيسىٰ الذي آمن بمحمد و ما نقم على عيسىٰ شيئاً إلاّ ضعفه و قلّة صيامه و صلاته.

قال الجاثليق: أفسدت و الله علمك و ضعّفت أمرك و ما كنت أظن إلاّ انّك أعلم أهل الإسلام.

قال الرضا: و كيف ذلك؟

قال الجاثليق: من قولك إنّ عيسىٰ كان ضعيفاً قليل الصيام و الصلاة و ما أفطر عيسىٰ يوم قط و ما نام بليل قط و ما زال صائم الدهر قائم الليل.

قال الرضا: فلمن كان يصوم و يصلّي؟

فخرس الجاثليق و انقطع[1] الحديث.

إنّ الذكر الحكيم يصرّح بأنّ المسيح سوف يعترف يوم البعث بعبوديّته على رؤوس الأشهاد و انّه لم يأمر قطّ الناس بعبادة نفسه:

﴿وَ إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِى وَ أُمِّىَ إِلٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِى أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَ لَا أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الغُيُوبِ﴾(المائدة/ ١١٦).

---

(١) الاحتجاج: ج٢ ص٢٠٣ و٢٠٤.

و قال عزّ اسمه حاكياً عنه : ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَ رَبُّكُمْ وَ كُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَ أَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾(المائدة/ ١١٧).

ج ـ المسيح ابن الله :

قد طرأت أزمة حادّة على خط التوحيد من قبل المشركين و اليهود و النّصارى بزعم وجود الابن أو البنت لله سبحانه، فتارة جعلوا بينه وبين الجِنَّة نسباً، و اُخرىٰ اتّهموه بأنّه اتّخذ من الملائكة اناثاً، و ثالثة نسبوا إليه الولد بصورة مطلقة، و قد جاء الجميع في الذكر الحكيم مشفوعاً بالردّ و النقض :

١ ـ الجن : ﴿وَ جَعَلُوا بَيْنَهُ وَ بَيْنَ الجِنَّةِ نَسَباً﴾(الصافّات/ ١٥٨).

و أمّا ما هذا النسب، فيحتمل أن يكون المراد نسب البنوّة و الاُبوّة و لأجل ذلك كان جماعة من العرب يعبدون الجن، كما ورد في قوله سبحانه : ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الجِنَّ ... ﴾(سبأ/ ٤١).

٢ ـ الملائكة : ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالبَنِينَ وَ اتَّخَذَ مِنَ المَلاَئِكَةِ إِنَاثاً إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَولاً عَظِيماً﴾(الإسراء/ ٤٠) و لأجل ذلك كان جماعة أيضاً من العرب تعبد الملائكة، و بما أنّهم كانوا يتخيّلون الملائكة على أنّهم خلقوا بصور جذّابة جميلة خالوهم اناثاً، قال سبحانه : ﴿وَ جَعَلُوا المَلاَئِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمٰنِ إِنَاثاً﴾(الزخرف/ ١٩).

٣ ـ المسيح : و قد اشتهر النصارى بأنّهم جعلوا «المسيح» ابناً لله تعالى، وهذه الفكرة الخاطئة و إن لم تكن منحصرة فيهم، بل كان لليهود أيضاً مثل تلك الفكرة في حقّ «عزير» لكن النصارى أكثر اشتهاراً بهذه النسبة، غير نافين عن أنفسهم هذا العار، و اليهود يؤوّلون الفكرة بأنّه ولد فخري لاحقيقي.

و القرآن الكريم يندّد بتلك الفكرة في غير واحد من الآيات مشيراً إلى براهين

عقلية محتاجة إلى التوضيح، و إليك نقل الآيات مع توضيح مضامينها:

١ ـ البقرة/ ١١٦ـ١١٧:

﴿ وَ قَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰاتِ وَ الأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ * بَدِيعُ السَّمٰوَاتِ وَ الأَرْضِ وَ إِذَا قَضَىٰ أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾.

تريك هذه الآية كيف أنّهم نسبوا إلى الله ولداً من غير فرق بين أن يكون الناسب يهودياً أو مسيحياً، و لكنّ الآيتين تتضمّنان ردّاً لهذه النسبة،يستفاد من الإمعان في الجمل التالية:

١ ـ سبحانه. ٢ ـ بل له ما في السموات و الأرض كل له قانتون.

٣ ـ بديع السموات و الأرض. ٤ ـ و إذا قضى أمراً فإنّما يقول له كن فيكون.

و إليك شرح هذه الجمل التي يعد كل واحد منها بمثابة ردّ و نقض للفكرة الخاطئة المصرّحة بالبنوّة لله عزّ و جلّ.

أ ـ «سبحانه»: و هذه الكلمة تفيد تنزيه الله سبحانه من كل نقص و عيب وشائنة، و لأجل ذلك يأتي هذا اللفظ في آية أُخرى بعد بيان تلك النسبة الخاطئة، قال تعالى: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ هُوَ الغَنِيُّ﴾(يونس/ ٦٨).

و اللفظة تفيد انّ اتّخاذ الولد نقص و عيب على الله تعالى، يجب تنزيهه عنه، و ذلك لأنّ اتّخاذ الولد إمّا لغاية اشباع الغريزة الجنسية أو لأجل الاستعانة بالولد أيّام الهرم و الكهولة، أو لأجل ابقاء النسل و إدامته التي تعد نوع بسط وجود للشخصية، و الكل غير لائق بساحته سبحانه.

و يمكن أن يكون اللفظ مشيراً إلى أمر آخر و هو أنّ اتّخاذ الابن فرع التوالد والتناسل و هو من شؤون الموجودات المادية حيث ينتقل جزء من الأب إلى رحم الأم فتتّحد نطفة الأب مع البويضة في رحم الأم فتخصّبها فينتج عن ذلك نشأة الجنين والله سبحانه أعلى و أجل و أنبل من أن يكون جسماً أو جسمانياً.

ب ـ ﴿ بَلْ لَهُ مَا فِى السَّمٰوَاتِ وَ الأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾ :

إنّ هذه الجملة مشعرة ببرهان دامغ و هو أنّ كل ما في الكون قانت لله و خاضع لسلطته و مسخَّر و مقهور له و من هذا شأنه لايتصوّر أن يكون له ولد و ذلك لأنّ الولد يكون مماثلاً للوالد، فكما هو واجب الوجود يكون الولد مشاطراً له في ذلك، و ما هو كذلك لايمكن أن يكون مقهوراً و مسخَّراً لموجود من الموجودات.

ج ـ ﴿ بَدِيعُ السَّمٰوَاتِ وَ الأَرْضِ﴾ :

أي انّه سبحانه خالق مبدع لهما و ما فيهما و المراد من الإبداع هو خلقهما بلامثال سابق و لامادّة متقدّمة، فيكون المجموع مسبوقاً بالعدم، و ما هو كذلك كيف يمكن أن يكون ولداً لله سبحانه؟ لما عرفت من أنّ الولد يماثل الوالد في الالوهيّة و وجوب الوجود، و هو لايجتمع مع كون السموات و الأرض و ما فيهما مخلوقاً حادثاً مسبوقاً بالعدم.

د ـ ﴿وَ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ :

و هذه الآية تفيد أنّ سنّة الله تبارك و تعالى في الإيجاد و الإنشاء و الخلق،و أنّه لو أراد إيجاد شيء فإنّه يوجد بلاتريّث أو تلبّث، و لكنّ الولد إنّما يتكوّن من إلتقاء النطفتين في رحم الأم ثمّ يتكامل تدريجيّاً على امتداد أمد بعيد و هذا لايجتمع مع ما مرّ ذكره في السنّة الحكيمة.

ثمّ إنّ العلاّمة الطباطبائي جعل الجمل الثلاث مشيرة إلى برهانين(لا إلى ثلاثة براهين كما أوضحناه) فقال:

إنّ قوله: ﴿بَلْ لَهُ مَا فِى السَّمٰوَاتِ ...﴾ يشتمل على برهانين ينفي كلّ منهما الولادة و تحقّق الولد منه سبحانه، فإنّ اتّخاذ الولد هو أن يجزّئ موجود طبيعي بعض أجزاء وجوده و يفصله عن نفسه فيصيّره بتربية تدريجية فرداً من نوعه مماثلاً لنفسه، و هو سبحانه منزّه عن المثل بل كل شيء ممّا في السموات و الأرض مملوك له قائم الذات به قانت ذليل عنده ذلّة وجودية،فكيف يكون شيء من الأشياء ولداً له

مماثلاً نوعياً بالنسبة إليه؟ و هو سبحانه بديع السموات و الأرض، إنّما يخلق ما يخلق على غير مثال سابق فلايشبه شيء من خلقه خلقاً سابقاً و لايشبه فعله فعل غيره في التقليد و التشبيه و لا في التدريج و التوصّل بالأسباب إذا قضى أمراً فإنّما يقول له كن فيكون من غير مثال سابق و لاتدريج، فكيف يمكن أن ينسب إليه اتّخاذ الولد؟ و تحقّقه يحتاج إلى تربية و تدريج فقوله: **﴿ لَهُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَ الأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾** برهان تام، و قوله: **﴿ بَدِيعُ السَّمٰوَاتِ وَ الأَرْضِ وَ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونَ﴾** برهان آخر تام[1].

٢ـ الأنعام/ ١٠٠ـ١٠٢:

﴿وَ جَعَلُوا لِلّٰهِ شُرَكَاءَ الجِنَّ وَ خَلَقَهُمْ وَ خَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَ بَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَ تَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ﴾(الأنعام/ ١٠٠).

﴿بَدِيعُ السَّمٰوَاتِ وَ الأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَ لَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَ هُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾(الأنعام/ ١٠١).

﴿ذَلِكُمُ اللّٰهُ رَبُّكُمْ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَ هُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾(الأنعام/ ١٠٢).

و في هذه الآيات إشارات إلى بطلان النظرية القائلة بكون الجن شركاء لله سبحانه و خرق بنين و بنات له بغير علم، و إليك بيانها:

أ ـ **﴿سُبْحَانَهُ وَ تَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ﴾**: و قد مرّ توضيح تلك الجملة في القسم الأوّل من الآيات.

ب ـ **﴿بَدِيعُ السَّمٰوَاتِ وَ الأَرْضِ﴾**: و قد تقدّم معناه أيضاً.

ج ـ **﴿ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَ لَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ﴾**: و هذه الجملة تشير إلى أنّ إتّخاذ الإبن يستلزم اتّخاذ الزوجة حتى يقع جزء من الزوج في رحم الزوجة و الله

(١) الميزان: ج١ ص٢٦١.

سبحانه منزّه، عن أن تكون له زوجة.

د ـ ﴿وَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾: فإذا كان هـو خالق كل شيء، و الكـل مخلوق له فلايتصوّر كون المخلوق ولـداً، لأنّ الولد يشاطر الوالد في الطبيعـة و النوعيّة فإذا كان سبحانـه واجب الـوجود لاستغنـى عن العلّة و الخـالق و لتـرفّع عـن حيّز الإمكـان، و المفروض خلافه.

٣ ـ يونس/ ٦٨:

﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَـداً سُبْحَانَهُ هُوَ الغَنِيُّ لَهُ مَا فِـي السَّمٰوَاتِ وَ مَا فِي الأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لاَتَعْلَمُونَ﴾.

و هذه الآية تشتمل علـى مثل ما اشتملت عليه الآيات السـابقة و إليك تفصيل جملها:

أ ـ ﴿سُبْحَانَهُ هُوَ الغَنِيُّ﴾: و قد عرفت أنّ اتّخـاذ الولد إمّا لغاية إشبـاع الغريزة الجنسية أو لاستعـانة بـه في أيّام الكهـولة أو لبسط نفـوذ الشخصية، و الله غنـي عن الجميع.

ب ـ ﴿لَهُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَ مَا فِي الأَرْضِ﴾: و فيه إشـارة إلى أنّ كل مـا في الكون مقهـور و مسخّر فكيف يكـون شيء منـه ولداً له مـع لزوم المماثلـة بين الـولد و الوالد.

ج ـ ﴿إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لاَتَعْلَمُونَ﴾: و هو إشارة أُخرى إلى أنّه إنّمـا تبنّوا هذه الفكرة تقليداً بـلا علم و برهـان، و قد تقدّم فـي الآيات السابقة(بغير علم سبحانه).

٤ ـ الكهف/ ٤و٥:

﴿وَ يُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَداً * مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَ لا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِباً﴾.

و في هذه الآية اكتفاء ببرهان واحد و هو أنّ القوم يتفوّهون بذلك بلا علم لهم ولا لآبائهم.

٥ـ مريم/ ٣٥:

﴿ مَا كَانَ لِلهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾.
و في الآية إشارة إلى برهانين: أحدهما قوله: ﴿سبحانه﴾ و الثاني: ﴿إذا قضى﴾، و قد مرّ تفسيرهما فلانعيد.

٦ـ مريم/ ٨٨ـ٩٥:

﴿ وَ قَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمٰنُ وَلَداً﴾
﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً﴾
﴿ تَكَادُ السَّمٰوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَ تَنْشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الجِبَالُ هَدّاً﴾
﴿ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمٰنِ وَلَداً﴾
﴿ وَ مَا يَنْبَغِى لِلرَّحْمٰنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً﴾
﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِى السَّمٰوَاتِ وَ الأَرْضِ إِلاَّ آتِى الرَّحْمٰنِ عَبْداً﴾
﴿لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدّاً﴾
﴿وَ كُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ القِيَامَةِ فَرْداً﴾

و قد ركّزت الآيات على برهانين:

أحدهما قولهُ: ﴿وَ مَا يَنْبَغِى لِلرَّحْمٰنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً﴾ و هذه الجملة واقعة مكان لفظة ﴿سبحانه﴾ في الآيات السابقة.

و ثانيهما قوله: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِى السَّمٰوَاتِ وَ الأَرْضِ إِلاَّ آتِى الرَّحْمٰنِ عَبْداً﴾ و هو يفيد نفس ما يفيده قوله: ﴿بَلْ لَهُ مَا فِى السَّمٰوَاتِ وَ مَا فِى الأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾ في الآيات السابقة، و المعنى بعد التطبيق واضح و محصّله أنّ من في الكون عبد

مسخّر لله سبحـانه، و هو لايجتمـع مع كون واحد منهم ولداً له ،لأنّه يقتضي المماثلة و المشاركة في الوجوب و الإستغناء عن العلّة مع أنّ المفروض كونه ممكناً.

٧ـ الأنبياء/ ٢٦و٢٧ :

﴿ وَ قَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمٰنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾

﴿لاَيَسْبِقُونَهُ بِالقَوْلِ وَ هُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ .

فلفظة ﴿سُبْحَانَهُ﴾ مشيـرة إلى أنّ اتّخـاذ الولـد ملازم للنقـص و العيبِ و هـو سبحانه منزّه عنه.

و قوله : ﴿بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾ إشارة إلى ما مرّ من أنّ العبودية لاتجتمع مع البنوّة لأنّ مقتضى البنوّة،المشاركـة و المسانخة مع الوالد فـي الطبيعة، و المفروض وجوب وجود الوالد فيكون الولد واجباً و هو محال.

٨ـ المؤمنون/ ٩١ :

﴿مَا اتَّخَذَ اللهُ مِنْ وَلَدٍ وَ مَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلٰهٍ﴾ .

و الآية تشير إلى أنّ اتّخاذ الـولد ينافي التوحيد و الوحدانيـة لأنّ الولد يجب أن يكون مماثلاً للوالد على نحو ما مـرّ ذكره و عندئذ يكـون إلهاً مثله، و المفـروض أنّه ليس معه إله.

٩ـ الزمر/ ٤ :

﴿ لَوْ أَرَادَ اللهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً لاَصْطَفَـى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَـهُ هُوَ اللهُ الوَاحِدُ القَهَّارُ﴾

و في الآية إشارة إلى دحض تلك العقيدة المنحرفة بأُمور ثلاثة :

أ ـ ﴿سُبْحَانَهُ﴾

ب ـ ﴿الوَاحِدُ﴾ .

ج ـ ﴿القَهَّارُ﴾ .

أمّا الأوّل:فدلالته على نفي البنوّة مثل الآيات السابقة .

و أمّا الثاني:أعني كونه واحداً، فهو يدلّ على نفي البنوّة لأنّ اتّخاذ الإبن يستلزم المماثلة بين الأب و الولد، فيلزم تعدّد الإله و واجب الوجود .

و أمّا الثالث:أعني كونه قهّاراً و غيره مقهوراً عليه فدلالته مثل دلالة قوله : ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَ الأَرْضِ إِلاّ آتِي الرَّحْمٰنِ عَبْداً﴾ و قوله : ﴿بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَ الأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾ و قوله : ﴿بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾ و ذلك لأنّ اتّخاذ الإبن يستلزم أن يكون له مماثل من ذاته لأنّ الولد يماثل الوالد في النوعية و الطبيعة فيلزم أن يكون الولد واجب الوجود، و المفروض أنّه مقهور و مسخّر لله سبحانه .

و أنت إذا قارنت هذه الآيات بعضها ببعض لوقفت على أنّ الجميع في المادة و المعنى و كيفيّة الإستدلال مصبوب في قالب واحد بينها كمال الإئتلاف و التناسب، و العبارات الواردة في المقام و إن كانت مختلفة المواضع و لكنّ المؤدّى والمعنى واحد، و تلك الآيات نزلت على النبيّ في ظروف مختلفة و أجواء متباينة والنبيّ لم يزل بين كونه منهمكاً في الحرب،وهادئ البال في الصلح و السلم،ومع ذلك يتكلّم على نسق واحد مع كونه اُمّياً لم يقرأ قطّ و لم يكتب. صدق الله العليّ العظيم حيث قال : ﴿وَ لَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً﴾(النساء/ ٨٢) .

قسمة ضيزي :

و من عجائب اُمورهم أنّهم اتّخذوا لأنفسهم البنين و نسبوا إلى الله عزّ و جلّ الإناث من الملائكة، قال سبحانه : ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالبَنِينَ وَ اتَّخَذَ مِنَ المَلاَئِكَةِ إِنَاثاً﴾(الإسراء/ ٤٠) .

و قال تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَ أَصْفَاكُمْ بِالبَنِينَ﴾(الزخرف/ ١٦).

و قال تعالى: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَ لَهُ الأُنْثَىٰ * تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ﴾(النجم/ ٢١ـ٢٢).

ثمّ إنّه سبحانه أبطل ادّعاءهم بكون الملائكة إناثاً و قال: ﴿وَ جَعَلُوا المَلاَئِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمٰنِ إِنَاثاً أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾(الزخرف/ ١٩) فكيف يدّعون ما لم يشهدوه؟!

إلى هنا تمّ حوار القرآن مع اليهود و النصارىٰ في اتّخاذه سبحانه و لداً من الإنس و الجنّ و الملائكة، و قوّة البرهان القرآني و إتقانه و تعاضد بعضه بعضاً يدلّ على أنّه وحي إلهي نزل به الروح الأمين على قلبه، و أنّىٰ للإنسان الغارق في الحياة البدائيّة أن يأتي بمثل ذلك لولا كونه مسدّداً بالوحي، مؤيّداً بالمدد الغيبي منه سبحانه.

و إليك بقية المناظرات الواردة في القرآن الكريم.

اليهود و نقض المواثيق و العهود

حطّ النبيّ الأكرم(صلّى الله عليه و آله و سلّم) رحاله بالمدينة، و التفّ حوله الأوس و الخزرج، ففشىٰ أمر الإسلام و شاع خبره و ذكره بين الناس و القبائل القاطنة بأطراف المدينة، و كان ذلك بمثابة جرس إنذار لليهود ينبئ عن إقتراب أُفول شوكتهم في المدينة و ماوالاها بل في شبه الجزيرة العربية برمّتها.

و كانت اليهود في سابق عهدها تفتخر على سائر الأمم بأنّها تقتفي أثر التوحيد و أنّ لهم كتاباً سماويّاً يجمع بين دفّتيه الأحكام الإلهية ، و لكنّ تلك المفخرة أوشكت أن تذهب أدراج الرياح بدعوة النبيّ الأكرم الناس كافّة إلى التوحيد الأصيل و نزول القرآن عليه، فما كانت لهم بعد إذ ذاك ميزة يمتازون بها على العرب.

و كانت اليهود لفرط حبّهمُ للدنيا و زبرجها تمكّنوا من السيطرة على مقاليد أزمّة

إدارة التجارة، و كان وجود الشقّة السحيقة بين الأوس و الخزرج، و النزاعات القبلية بينهما، خير معين للإنفراد بإدارة دفّة القوافل التجارية، غير أنّ تلك الأرضية التي فسحت لهم المجال لتسلّم زمام التجارة فيما مضىٰ كادت تنعدم بالأُخوّة الإسلامية التي جاء بها الإسلام، فصار المتصارعان متصافيين متآخيين متآلفين في مقابل اليهود و أطماعهم.

كلّ ذلك صار سبباً لتحفيز اليهود لإثارة الشبهات حول رسالة الرسول الأكرم وبثّ السموم و تشوية معالم الرسالة الجديدة ليضعضعوا أركان الإيمان الفتي في قلوب المؤمنين بالإسلام، و قد غاب عن خلدهم أنّ سنّة الله الحكيمة تتكفّل بنصر رسله. قال سبحانه:

﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَ الَّذِينَ آمَنُوا فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ يَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾(غافر/ ٥١).

و إليك نماذج من أسئلتهم و شبهاتهم التي أثاروها حول الرسالة النبويّة:

١ ـ إفشاء علائم النبوّة:

إنّ أوّل خطوة خطوها لأجل إيقاف مدّ الصحوة الدينية و الإيمان برسالة النبيّ الأكرم(صلّى الله عليه و آله و سلّم) هو إصدار مرسوم يقضي بكتمان علائم نبوّته التي وردت في التوراة حتى لاتقع للمسلمين ذريعة يتمسّكون بها ضدّهم في عزوفهم عن قبول الدعوة، و هذا ما يحكي عنه الذكر الحكيم بقوله:

١ ـ ﴿وَ إِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَ إِذَا خَلاَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلاتَعْقِلُونَ﴾(البقرة/ ٧٦).

و روي عن الإمام الباقر(عليه السلام) أنّه قال: كان قوم من اليهود ليسوا من المعاندين المتواطئين،إذا لقوا المسلمين حدّثوهم بما في التوراة من صفة محمد(صلّى الله عليه و آله و سلّم) فنهاهم كبراؤهم عن ذلك و قالوا: لاتخبروهم بما

في التوراة من صفة محمد(صلّى الله عليه و آله و سلّم) فيحاجّوكم به عند ربّكم[1].

و ردّ سبحانه عليهم بقوله: ﴿أَوَلاَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَ مَا يُعْلِنُونَ﴾(البقرة/ ٧٧) فالله سبحانه يحتجّ بكتابهم عليهم سواء تفوّهوا بسمات النبيّ الأكرم المذكورة في التوراة أم لم يتفوّهوا بها،على الرغم من أنّهم كانوا يستفتحون و يستنصرون على الأوس و الخزرج برسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) قبل مبعثه فلمّا بعثه الله من بين العرب و لم يكن من بني إسرائيل، كفروا به و جحدوا ما كانوا يقولون فيه، فقال لهم معاذبن جبل و بشر بن البراء بن معرور: يا معشر اليهود اتّقوا الله و أسلموا فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد و نحن أهل الشرك، و تصفونه و تذكرون أنّه مبعوث، فقال سلام بن مشكم أخو بني النضير: ما جاءنا بشيء نعرفه و ما هو بالذي كنّا نذكر لكم، فأنزل الله تعالى قوله:

﴿وَ لَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَ كَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الكَافِرِينَ﴾(البقرة/ ٨٩).

٢ ـ السؤال عن الروح الأمين:

إنّ نفراً من أحبار اليهود جاءوا رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) فقالوا: يا محمداً أخبرنا عن أربع نسألك عنهنّ، فإن فعلت ذلك اتّبعناك و صدّقناك و آمنّا بك، فقال لهم رسول الله: عليكم بذلك عهدالله وميثاقه لئن أنا أخبرتكم بذلك لتصدّقنّني؟ قالوا: نعم، قال: فسألوا عمّا بدا لكم ...و ممّا سألوا عنه نوم النبيّ(صلّى الله عليه وآله و سلّم).فقالوا: كيف نومك؟ فقال: تنام عيني و قلبي يقظان. قالوا:فأخبرنا عمّا حرّم إسرائيل على نفسه؟ قال: حرّم على نفسه لحوم الإبل و ألبانها، فصدّقوه في الإجابة عن هٰذين السؤالين، ثمّ قالوا له: فأخبرنا عن الروح،

---

(١)مجمع البيان: ج١ ص٢٨٦ (طبع بيروت).

قال: أنشدكم بالله و بأيّامه عند بني إسرائيل هل تعلمونه جبرئيل و هو الذي يأتيني؟ قالوا: اللّهمّ نعم، و لكنّه يا محمد لنا عدوّ و هو ملك إنّما يأتي بالشدّة و سفك الدماء و لولا ذلك لاتّبعناك، فأنزل الله عزّ و جلّ فيهم: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَ هُدىً وَ بُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ * مَنْ كَانَ عَدُوّاً للهِ وَ مَلاَئِكَتِهِ وَ رُسُلِهِ وَ جِبْرِيلَ وَ مِيكَالَ فَإِنَّ اللهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾(البقرة/ ٩٧و٩٨)[١].

و ما ذكرنا من شأن النزول يؤيّد ما ذكرناه سابقاً من أنّ المقصود من الروح في قوله سبحانه: ﴿وَ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾(الإسراء/ ٨٥) هو الروح الأمين لا الروح الإنسانية، و أنّ ما أُثير حولها في التفاسير المختلفة مبني على تفسير الروح بالروح الإنسانية و هو غير صحيح.

و على أي تقدير فنصب العداء لجبرئيل نصب للعداء له سبحانه، لأنّ جبرئيل مأمور من جانبه و مبلّغ عنه هو و جميع الملائكة: ﴿لاَيَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَ يَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾(التحريم/ ٦).

٣ ـ إنكار نبوّة سليمان (عليه السلام):

إنّ رسول الله لمّا ذكر سليمان بن داود في المرسلين، قال بعض أحبارهم: ألا تعجبون من محمد(صلّى الله عليه و آله و سلّم) يزعم أنّ سليمان بن داود كان نبيّاً، و الله ما كان إلاّ ساحراً، فأنزل الله تعالى في ذلك: ﴿وَ اتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَ مَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَ لكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾(البقرة/ ١٠٢)[٢].

---

(١) السيرة النبويّة: ج١ ص٥٤٣. مجمع البيان: ج٢ ص٣٢٤ (طبع بيروت).
(٢) السيرة النبوية: ج١ ص٥٤٠. مجمع البيان: ج٢ ص٣٣٦ (طبع بيروت).

٤ ـ كتابه إلى يهود خيبر:

كتب رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) إلى يهود خيبر بكتاب جاء فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله صاحب موسى و أخيه والمصدّق لما جاء به موسى على أنّ الله قد قال لكم يا معشر أهل التوراة، و أنّكم لتجدون ذلك في كتابكم : ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَ الَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَ رِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَ مَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الكُفَّارَ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَ أَجْراً عَظِيماً﴾ .

و إنّي انشدكم بالله، و انشدكم بما أنزل عليكم و انشدكم بالذي أطعم من كان قبلكم من أسباطكم المنّ و السلوى، و انشدكم بالذي أيبس البحر لآبائكم حتى أنجاهم من فرعون و عمله إلاّ أخبرتموني : هل تجدون فيما أنزل الله عليكم أن تؤمنوا بمحمد؟ فإن كنتم لاتجدوني ذلك في كتابكم فلاكره عليكم ﴿قَدْتَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَيِّ﴾ فأدعوكم إلى الله و إلى نبيّه[1].

٥ ـ إنكار أخذ الميثاق منهم :

إنّ أحد أحبار اليهود قال لرسول الله : يا محمد ما جئتنا بشيء نعرفه و ما أنزل الله عليك من آية بيّنة فنتّبعك لها، و قد كانوا ينكرون العهد الذي أخذه الأنبياء عليهم أن يؤمنوا بالنبيّ الأمّي.

فأنزل الله سبحانه في ردّهم : ﴿وَ لَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلاَّ الفَاسِقُونَ * أَوَ كُلَّما عاهَدُوا عَهْداً نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَيُؤْمِنُونَ﴾(البقرة/ ٩٩و١٠٠).

---

(١)السيرة النبويّة : ج١ ص٥٤٤ـ٥٤٥.

و لفظة «كلّما» تفيد التكرّر فيقتضي تكرّر النقض منهم[1].

٦ ـ الاقتراحات التعجيزيّة :

و قد كان اليهود قد تقدّموا باقتراحات تعجيـزيّة على غرار ما بدر من المشركين فقد سألت العرب محمـداً(صلّى الله عليه و آله و سلّم) أن يـأتيهم بالله فيـروه جهرة، فنزل قوله سبحانه: ﴿أَمْ تُرِيـدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُـولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُـوسَى مِنْ قَبْـلُ وَ مَنْ يَتَبَدَّلِ الكُفْرَ بِالإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾(البقرة/ ١٠٨).

و قال رافع بن حـريملة لرسول الله: يا محمد إن كنت رسـولاً من الله كما تقول فقل لله فيكلّمنا حتى نسمع كلامـه، فنزل قوله سبحانه: ﴿وَ قَالَ الَّذِينَ لايَعْلَمُونَ لَوْلاَ يُكَلِّمُنَا اللهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِـمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[2].

٧ ـ تنازع اليهود و النصارى عند الرسول ﷺ

لمّا قـدم أهل نجـران من النصارى علـى الرسول(صلّى الله عليه و آله و سلّم) أتتهم أحبار اليهود فتنازعوا عند رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم)، فقال رافع بن حريملة: ما أنتـم على شيء، و كفر بعيسىٰ و بالإنجيل، فقال رجـل من أهل نجران من النصارىٰ لليهود: ما أنتم على شيء، وجحد نبوّة موسى و كفر بالتوراة، فأنزل الله في ذلك قولـه :

﴿وَ قَالَتِ اليَهُـودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَـىْءٍ وَ قَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَـتِ اليَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَ هُـمْ يَتْلُونَ الكِتَابَ كَذَٰلِـكَ قَالَ الَّذِينَ لايَعْلَمُـونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَـاللهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾(البقرة/ ١١٣).

---

(١)مجمع البيان: ج١ ص٣٢٧.

(٢)السيرة النبوية: ج١ ص٥٤٩.

فقوله سبحانه: ﴿وَ هُمْ يَتْلُونَ الكِتَابَ﴾ إشارة إلى أنّ كلاّ من الفريقين يتلو في كتابه تصديق ما كفر به، أي كفر اليهود بعيسى بن مريم و عندهم التوراة فيما أخذ الله عليهم على لسان موسى بالتصديق بعيسى، و في الإنجيل ما جاء به عيسىٰ(عليه السلام) من تصديق موسى(عليه السلام) و ما جاء به من التوراة من عندالله و كل يكفر بما في يد صاحبه.

و قوله سبحانه: ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لايَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ إشارة إلى أنّ مشركي العرب الذين هم جهّال و ليس لهم كتاب، هكذا قالوا لمحمد(صلّى الله عليه و آله و سلّم) و أصحابه: إنّهم ليسوا على شيء من الدين مثل ما قالت اليهود والنصارى بعضهم لبعض[1].

و ربمّا بلغ تجاسرهم بساحة النبي(صلّى الله عليه و آله و سلّم)، فطلبوا منه أن يقتدي بإحدى الشريعتين، قال ابن عباس: إنّ جماعة من اليهود و نصارى نجران ذمّوا أهل الإسلام، كل فرقة تزعم أنّها أحق بدين الله من غيرها، فقالت اليهود: نبيّنا موسى أفضل الأنبياء و كتابنا التوراة أفضل الكتب، و قالت النصارىٰ: نبيّنا عيسى أفضل الأنبياء و كتابنا الإنجيل أفضل الكتب و كل فريق منهما قالوا للمؤمنين كونوا على ديننا، فأنزل الله تعالى هذه الآية، و قيل: إنّ ابن صوريا قال لرسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم): ما الهدى إلاّ ما نحن عليه فاتّبعنا تهتدِ، و قالت النصارى مثل ذلك، فأنزل الله هذه الآية. ﴿وَ قَالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾.

فردّ الله عليهم بقوله: ﴿بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَ مَا كَانَ مِنَ المُشْرِكِينَ﴾(البقرة/ ١٣٥).

٨ ـ التشبّث بالكلمات المتشابهة:

كان اليهود لايألون جهداً في إثارة القلاقل و الفتن و الاستهزاء بالنبيّ إلى حدّ

---

(١) السيرة النبوية: ج١ ص٥٤٩، و مجمع البيان: ج١ ص٣٥٩.

يصرّون على استعمال الكلمات المشتركة بين المعنى الحسن و المعنى القبيح.

فعلى سبيل المثال عندما كان النبيّ(صلّى الله عليه و آله و سلّم) يتحدّث، كان المسلمون يطلبون منه التأنّي في التحدّث فيقولون:«راعنا»،بمعنى أمهلنا مشتق من مادّة «رعى»،فحرّفت اليهود هذه اللفظة، فقالوا:يا محمد راعنا، و هم يلحدون إلى الرعونة يريدون به النقيصة و الوقيعة و معناه «حمّقنا»، و لأجل ذلك وافى الوحي و أمر أن يتركوا هذه الكلمة و يستعملوا مكانه «انظرنا» قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَتَقُولُوا رَاعِنَا وَ قُولُوا انْظُرْنَا وَ اسْمَعُوا وَ لِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(البقرة/ ١٠٤).

و قال العلاّمة الطباطبائي في الآية نهي شديد عن قول:«راعنا»،و هذه الكلمة ذكرتها آية أُخرى و بيّنت معناها في الجملة و هي قوله تعالى: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَ يَقُولُونَ سَمِعْنَا وَ عَصَيْنَا وَ اسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَ رَاعِنَا لَيّاً بِأَلْسِنَتِهِمْ وَ طَعْناً فِي الدِّينِ﴾(النساء/ ٤٦).

و منه يعلم أنّ اليهود كانوا يريدون بقولهم للنبيّ(صلّى الله عليه و آله و سلّم): راعنا،نحواً من معنى قوله: ﴿اسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾،و لذلك ورد النهي عن خطاب رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) بذلك و حينئذ ينطبق على ما نقل: إنّ المسلمين كانوا يخاطبون النبيّ(صلّى الله عليه و آله و سلّم) بذلك إذا ألقى إليهم كلاماً يقولون: «رَاعِنَا يَا رَسُولَ اللهِ»،يريدون:أمهلنا و انظرنا حتّى نفهم ما تقول، و كانت اللفظة تفيد في لغة اليهود معنى الشتم، فاغتنم اليهود ذلك فكانوا يخاطبون النبيّ(صلّى الله عليه و آله وسلّم) بذلك،يظهرون التأدّب معه و هم يريدون الشتم، و معناه عندهم:اسمع لاأسمعت، فنزل: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَ يَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَ اسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَ رَاعِنَا ...﴾ و نهى الله المؤمنين عن الكلمة و أمرهم أن يقولوا ما في معناه و هو:انظرنا، فقال: ﴿لاَ تَقُولُوا رَاعِنَا وَ قُولُوا انْظُرْنَا﴾[1].

---

(١)الميزان: ج١ ص٢٤٨.

٩ ـ كتمان الحقائق :

سأل معاذبن جبل، و سعد بن معاذ، و خارجة بن زيد، نفراً من أحبار اليهود عن بعض ما في التوراة، فكتموهم و أبوا أن يخبروهم عنه، فأنزل الله تعالى فيهم: **﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَ الْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ وَ يَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ﴾**(البقرة/ ١٥٩)[١].

و لو أنّ أحبار اليهود مثل كعب بن الأشرف و كعب بن أسد و ابن صوريا وغيرهم من علماء النصارى بيّنوا للناس ما ورد في التوراة و الإنجيل من أوصافه(صلّى الله عليه و آله و سلّم) لعمّ الإسلام شرق العالم و غربه و يا للأسف رجّحوا الاحتفاظ بمناصبهم على ثواب الآخرة.

١٠ ـ النبيّ الأكرم و بيت المدارس :

دخل رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) بيت المدارس[٢] على جماعة من اليهود فدعاهم إلى الله، فقال لهم النعمان بن عمرو و الحارث بن زيد:على أي دين أنت يا محمد؟ قال:على ملّة إبراهيم و دينه، قال: فإنّ إبراهيم كان يهودياً. فقال لهما رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم):فهلمّا إلى التوراة فهي بيننا و بينكم. فأبيا عليه، فأنزل الله تعالى فيهما: **﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَ هُمْ مَعْرِضُونَ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَعْدُوداتٍ وَ غَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾**(آل عمران/ ٢٣و٢٤).

و قد رووا أنّ أحبار اليهود و نصارى نجران إجتمعوا عند رسول الله، فقالت الأحبار: ما كان إبراهيم إلاّ يهودياً، و قالت النصارى من أهل نجران: ما كان إبراهيم

---

(١)السيرة النبوية: ج١ ص٥٥١.

(٢)بيت المدارس: هو بيت اليهود يتدارسون فيه كتابهم.

إلاّ نصرانياً، فأنـزل الله عزّ و جلّ فيهم: ﴿يَا أَهْلَ الكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَ الإِنْجِيلُ إِلاَّ مِنْ بَعْدِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ * هَا أَنْتُمْ هٰؤُلاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَ اللهُ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لاَتَعْلَمُونَ * مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَ لاَنَصْرَانِيّاً وَ لٰكِنْ كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَ مَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَ هٰذَا النَّبِيُّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ اللهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾(آل عمران/ ٦٥ـ ٦٨)[١].

إنّ ادّعاءهم بأنّ إبراهيم(عليه السلام) كان يهودياً أو نصرانياً نابع عن جهلهم المطبق بحياة إبراهيم، فكيف يكون إبراهيم يهودياً أو نصرانياً و هو والد إسحاق الّذي هو والد يعقوب المعروف بيهودا فما ظنّك بكونه نصرانياً؟

١١ ـ الإيمان غدوة و الكفر عشيّة:

لمّا رأت اليهود أنّ الإسلام ينتشر شيئاً فشيئاً، حاولوا تشويه سمعته بالتظاهر بالانتماء إلى الإسلام صباحاً و الخروج عنه عشيّة حتّى يلبسوا على المسلمين دينهم و يصيروا مثلهم، فقال جماعة منهم: تعالوا نؤمن بما أُنزل على محمد و أصحابه غدوة و نكفر به عشيّة حتّى نلبس عليهم دينهم لعلّهم يصنعون كما نصنع و يرجعون عن دينه، فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿يَا أَهْلَ الكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الحَقَّ بِالبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الحَقَّ وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ * وَ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَ اكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * وَ لاَ تُؤْمِنُوا إِلاَّ لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الهُدَى هُدَى اللهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَ اللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾(آل عمران/ ٧١ـ٧٣).

١٢ ـ إتّهام النبيّ بأنّه يُؤَلِّهُ نفسه:

اجتمعت الأحبار من اليهود و النصارى من أهل نجران عند رسول الله(صلّى الله

---

(١)السيرة النبوية: ج١ ص٥٥٣.

عليه و آله و سلّم) فدعاهم إلى الإسلام، فقالوا: أتريد منّا يا محمد أن نعبدك كما تعبد النصارى عيسى بن مريم؟ و قال رجل من أهل نجران: أو ذاك تريد منّا يا محمد؟ و إليه تدعونا؟ فقال رسول الله: معاذ الله أن أعبد غير الله أو آمر بعبادة غيره فما بذلك بعثني الله و لا أمرني. فأنزل الله تعالى في ذلك من قولهما: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللهُ الكِتَابَ وَ الحُكْمَ وَ النُّبُوَّةَ، ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَاداً لِي مِنْ دُونِ اللهِ وَلٰكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الكِتَابَ وَ بِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ * وَ لايَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا المَلاَئِكَةَ وَ النَّبِيِّينَ أَرْبَاباً أَيَأْمُرُكُمْ بِالكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾(آل عمران/ ٧٩و٨٠).

و محصّل ما يستفاد من الآية إنّ البشر الذي آتاه الله تعالى الكتاب و الحكم و النبوّة كائناً من كان ـ عيسى كان أم محمد ـ إنّما يدعوكم إلى التلبّس بالإيمان و اليقين بما في الكتاب الذي تعلّمونه و تدرسونه من أُصول المعارف الإلهيّة و الإتّصاف بالملكات و الأخلاق الفاضلة التي يشتمل عليها و العمل بالصالحات حتى تنقطعوا بذلك إلى ربّكم و تكونوا به علماء ربّانيين.

ثمّ إنّ الربّاني منسوب إلى الرب، زيد عليه الألف و النون للدلالة على التفخيم كما يقال «لحياني» لكثير اللحية و نحو ذلك، فمعنى الربّاني شديد الإختصاص بالرب و كثير الإشتغال بعبوديّته و عبادته[1].

١٣ ـ سعيهم للوقيعة بين الأنصار:

نزل النبيّ الأكرم(صلّى الله عليه و آله و سلّم) مدينة يثرب فوجد الأوس و الخزرج في شقاق، فآخى بينهما و جعل الجميع صفّاً واحداً في وجه اليهود، فشقّ ذلك على الكافرين فحاولوا جاهدين أن يشقّوا عرى وحدتهم بوسائل مختلفة، فمرّ شاس بن قيس ـ و كان شيخاً عظيم الكفر، شديد الضغن على المسلمين، شديد

---

(١)السيرة النبوية: ج١ ص٥٥٤، الميزان: ج٣ ص٢٧٦.

الحسد عليهم ـ على نفر من أصحـاب رسول الله من الأوس و الخزرج، فـي مجلس قد جمعهم يتحدّثون فيه فغاظه ما رأى من ألفهم وجماعتهم، وصلاح ذات بينهم على الإسلام بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية، و قال: قد اجتمع ملأ بني قيلة بهذا البلاد، لا و الله مـا لنا معهم إذا اجتمع ملـؤهم بها من قـرار، فأمر فتىً شـاباً من اليهود كان معهم، فقال:أعمد إليهم، فاجلس معهـم ثمّ اذكر يوم بعاث و ما كان قبله و أنشدهم بعض ما كانوا تقوّلوا فيه من الأشعار، ففعل ذلك الشاب، فتكلّم القوم عند ذلك و تنازعوا و تفاخروا حتى تواثب رجلان من الحيّين... فبلغ ذلك رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّـم) فخرج إليهم فيمن معه من أصحـابه المهاجرين حتـى جاءهم فقال: يـا معشر المسلميـن! الله الله! أبدعوى الجـاهلية، و أنا بيـن أظهركـم بعد أن هداكم الله لـلإسلام و أكرمكم به و قطع بـه عنكم أمر الجاهلية، و استنقذكـم به من الكفر، و ألّف به بين قلـوبكم، فعرف القوم أنّها نزعة من الشيطـان و كيد من عدوّهم فبكـوا و عانـق الرجـال من الأوس و الخـزرج بعضهـم بعضاً ثـمّ انصرفـوا مع رسـول الله(صلّى الله عليـه و آله و سلّـم)،سامعين مطيعيـن قد أطفـأ الله عنهم كيـد عدوّ الله شاس بن قيس، فأنزل الله تعالـى في شاس بن قيس و ما صنع: ﴿**قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَ اللهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ * قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجاً وَ أَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَ مَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ**﴾(آل عمران/ ٩٨و٩٩)(١).

١٤ ـ الحط من شأن مَنْ آمن من اليهود:

قد سبق و أن عرفت أنّ اليهـود كانوا ـ و مازالوا ـ أكثر تعصّبـاً لقوميتهم و دينهم و لأجل ذلـك لم يدخـل منهم في الإسـلام إلاّ الأقل القليـل مثل عبد الله بـن سلام، و ثعلبة بن سعيـة، و أسيد بن سعية، و أسد بـن عبيد و من أسلم مـن اليهود معهم، فخاف المـلأ من اليهود أن يدخـل الإسلام في سـائر البيوت، فنشروا بينهم: مـا آمن بمحمد و لااتّبعه إلاّ شرارنا و لو كانوا من أخيارنا ما تركوا دين آبائهم و ذهبوا إلى غيره،

(١)السيرة النبوية: ج١ ص٥٥٦.

فأنزل الله تعالى في ذلك: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَ هُمْ يَسْجُدُونَ﴾(آل عمران/ ١١٣).

١٥ ـ دعوة المسلمين إلى البخل:

كان الإسلام ينتشر صيته في الربوع و الآفاق بفضل ما كان يمتلكه من مبادئ سامية و قيم مثالية و إيثار معتنقيه النفس و النفيس، فشق ذلك على اليهود فحاولوا خداع المسلمين حتّى يصدّوهم عن البذل في سبيل نصرة الدعوة المحمدية و خوّفوهم بحلول القحط.

قال ابن هشام: كان رجال من اليهود يأتون رجالاً من الأنصار يخالطونهم ينتصحون لهم من أصحاب رسول الله، فيقولون لهم: لاتنفقوا أموالكم فإنّنا نخشى عليكم الفقر في ذهابها و لاتسارعوا في النفقة فإنّكم لاتدرون على ما يكون، فأنزل الله فيهم: ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَ يأْمُرُونَ النَّاسَ بِالبُخْلِ وَ يَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَ أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً﴾(النساء/ ٣٧).

١٦ ـ تفضيلهم الوثنية على الإسلام:

كانت فكرة تأليب العرب هي الفكرة التي إختمرت في نفوس يهود المدينة خصوصاً بعد غزوة بدر و أُحد، فخرجوا من المدينة نازلين بمكة، فقالت قريش لليهود: يا معشر اليهود إنّكم أهل الكتاب الأوّل و أهل العلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن و محمد أفَدِيننا خير أم دينه؟ قالت اليهود: بل دينكم خير من دينه وأنتم أولى بالحق منه، فنزل القرآن ردّاً عليهم بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالجِبْتِ وَ الطَّاغُوتِ وَ يَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هٰؤُلاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً * أُولٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ وَ مَنْ يَلْعَنِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيراً﴾(النساء/ ٥١و٥٢).

و في موقف اليهود هذا من قريش و تفضيلهم و ثنيّتهم على توحيد

محمد(صلّى الله عليه و آله و سلّم)،يقـول الدكتور إسرائيل ولفنسون في كتابه(تاريخ اليهود في بلاد العرب) :

«كان من واجـب هؤلاء ألاّ يتورّطوا في مثـل هذا الخطأ الفاحـش و ألاّ يصرّحوا أمام زعماء قريش بأنّ عبادة الأصنام أفضل مـن التوحيد الإسلامي و لو أدّى بهم الأمر إلى عدم إجابة مطالبهم لأنّ بني إسرائيل الّذين كانوا مدّة قرون حاملي راية التوحيد في العالم بين الأُمم الوثنية بإسم الآباء الأقدمين و الذين نكبوا بنكبات لاتحصى من تقتيل و إضطهاد بسبب إيمانهـم بالله واحد في عصور شتّى من الأدوار التـاريخية، كان من واجبهم أن يضحّوا بحيـاتهم و كل عزيز لديهـم في سبيل أن يخذلوا المشـركين، هذا فضلاً عن أنّهـم بإلتجائهم إلى عبدة الأصنـام إنّما كانوا يحاربون أنفسهـم و يناقضون تعاليم التـوراة التي توصيهم بـالنفور من أصحاب الأصنـام و بالوقـوف منهم مـوقف الخصومة»[1].

١٧ ـ إدّعاؤهم أنّهم أحبّاء الله و أصفياؤه :

أتى رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) جماعة من اليهود فكلّموه و كلّمهم رسول الله(صلّى الله عليه و آلـه و سلّم) و دعاهم إلى الله و حذّرهم نقمتـه، فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿وَ قَالَـتِ الْيَهُودُ وَ النَّصَارَى نَحْـنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَ أَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَـذِّبُكُمْ بِـذُنُوبِكُـمْ بَلْ أَنْتُـمْ بَشَـرٌ مِمَّنْ خَلَـقَ يَغْفِرُ لِمَـنْ يَشَـاءُ وَ يُعَذِّبُ مَـنْ يَشَاءُ وَ للهِ مُلْـكُ السَّمٰوَاتِ وَ الأَرْضِ وَ مَا بَيْنَهُمَا وَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾(المائدة/ ١٨).

١٨ ـ إنكارهم نزول كتاب بعد موسى :

دعا رسـول الله(صلّى الله عليه و آله و سلـّم) اليهود إلى الإسلام و رغّبهـم فيه، وحذّرهم غِيـرَ الله و عقوبته، فأبـوا عليه و كفروا بما جـاءهم به، فقال لهـم معاذ بن

(١)السيـرة النبـويـة: ج١ ص٥٦٢، حيـاة محمـد(صلّى الله عليـه و آلـه و سلـّم) لهيكـل: ص٣٢٨ـ٣٢٩.

جبل و سعد بن عبـادة و عقبة بن وهب: يا معشر اليهود إتّقـو الله فوالله إنّكم لتعلمون أنّه رسول الله و لقد كنتم تذكرونه لنا قبل مبعثه و تصفونه لنا بصفته، فقال بعضهم: ما قلنا لكم هذا قط و مـا أنزل الله من كتاب بعد موسى و لاأرسل بشيـراً و لانذيراً بعده، فأنزل الله تعالى في ذلك من قولهما:

﴿يَا أَهْلَ الكِتَابِ قَدْجَـاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الـرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَـاءَنَـا مِـنْ بَشِيـرٍ وَ لاَ نَـذِيـرٍ فَقَـدْ جَـاءَكُـمْ بَشِيـرٌ وَ نَـذِيـرٌ وَ اللهُ عَلَـى كُـلِّ شَـىْءٍ قَدِيرٌ﴾(المائدة/ ١٩)[١].

١٩ ـ رجوعهم إلى النبيّ في حكم الرجم:

إنّ أحبـار اليهود إجتمعـوا في بيـت المدارس، حيـن قدم رسـول الله المدينـة و قد زنى رجـل منهم بعد إحصانه بامـرأة من اليهود قد أحصنت، فقالـوا: إبعثوا بهذا الرجل و هذه المرأة إلى محمد فسلوه كيـف الحكم فيهما، و ولّوه الحكم عليهما فإن عمل فيهما بعمل من التجْبيه فاتّبعوه فإنّما هو ملك و صدّقوه، و إن هو حكم فيهما بالرجم فإنّه نبـي فاحذروه على ما في أيديكم أن يسلبكموه، فأتـوه فقالوا: يا محمد! هذا رجل قـد زنى بعد إحصانه بامـرأة قد أحصنت فاحكم فيهما، فقـد ولّيناك الحكم فيهما، فمشـى رسول الله حتّى أتى أحبـارهم فـي بيت المـدارس، فقال: يـا معشر اليهود! أخـرجوا إليّ علماؤكـم،فأُخرج لـه عبد الله بن صـوريا و غيره، فقالـوا: هؤلاء علماؤنا، و قـالوا: إنّ عبدالله ابن صوريا أعلـم من بقى بالتوراة، فخلـي به رسول الله وكان غلاماً شابّاً من أحدثهم سنّاً، فألحّ رسول الله عليه المسألة و قال له: أنشدك الله و أُذكّرك بـأيّامه عند بنـي إسرائيل، هـل تعلم أنّ الله حكم فـي من زنى بعد إحصـانه بالرجم في التوراة؟

---

(١)السيرة النبوية: ج١ ص٥٦٣ـ٥٦٤.

(٢)الجَلِد بحبل مـن ليف مطلي بقار ثـمّ تسوّد وجوههما، ثـمّ يحملان على حماريـن و تجعل وجوهها من قبل ادبار الحمارين.

قال: اللّهم نعم! أما والله يا أبا القاسم إنّـه ليعرفونك انّك لنبيّ مرسل و لكنّهم يحسدونك، فخرج رسـول الله فأمر بهما فرجما فـي باب مسجده، ثمّ كفـر بعد ذلك ابن صـوريا و جحـد نبوّة رسول الله، فـأنزل الله سبحـانه: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَايَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَ لَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَ إِنْ لَنْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَ مَنْ يُرِدِ اللهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللهِ شَيْئاً أُولٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ * سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَ إِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئاً وَ إِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالقِسْطِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ المُقْسِطِينَ﴾(المائدة/ ٤١و٤٢).

و نقل ابن هشام عـن ابن إسحاق: إنّه لما حكّموا رسـول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) فيهما، دعاهـم بالتوراة و جلس حبر منهم يتلوها و قـد وضع يده على آية الرجم، فضرب عبد الله بـن سلام يد الحبر ثمّ قال: هذه يا نبيّ الله آيـة الرجم يأبى أن يتلوها عليك، فقـال لهم رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّـم): و يحكم يا معشر يهود! ما دعاكم إلـى ترك حكم الله و هو بأيديكم؟ قال: «فقالـوا أما و الله أنّه قد كان فينا يعمل به، حتّى زنى رجل منّا بعد إحصـانه من بيوت الملوك و أهل الشرف فمنعه الملك من الرّجم ثمّ زنى رجل بعده فأراد أن يـرجمه فقالوا: لا و الله حتّى ترجم فلاناً! فلمّا قالوا له ذلك إجتمعوا فأصلحوا أمرهم على التجبيه و أماتوا ذكر الرجم، و العمل به». قـال: فقال رسول الله(صلـّى الله عليه و آله و سلّم): فـأنا أوّل من أحيـا أمر الله و كتابـه و عمل به، ثـمّ أمر بهمـا فرجما عنـد باب مسجده، قـال عبد الله بـن عمر: فكنت فيمن رجمهما[1].

(١)السيرة النبوية: ج١ ص٥٦٦.

٢٠ ـ ظلمهم في الديّة :

كانت قبيلة بني النضير يؤدّون الديّة كاملـة وبنو قريظة كانوا يؤدّون نصف الدية فتحاكموا في ذلك إلى رسـول الله ، فنزل قوله سبحانه : ﴿وَ إِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالقِسْطِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ المُقْسِطِينَ﴾(المائدة/ ٤٢).

فحملهم رسول الله على الحق ذلك و جعل الديّة سواء.

٢١ ـ قصدهم الفتنة برسول الله ﷺ :

قال جماعة من اليهود: اذهبوا بنا إلى محمد لعلّنا نفتنه عن دينه فإنّما هو بشر، فأتوه فقالوا له : «يا محمد إنّك قد عـرفت انّا أحبار اليهود وأشرافهم و سادتهم و إنّا إن إتّبعناك إتّبعتك اليهود و لـم يخالفنا و إنّ بيننا و بين بعض قومنا خصـومة أفنحاكمهم إليك فتقضـي لنا عليهم و نـؤمن بك و نصـدّقك؟» فأبـى ذلك رسول الله ، فـأنزل الله فيهم: ﴿وَ أَنِ احْكُمْ بَيْنَهُـمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ وَ لاَتَتَّبِـعْ أَهْوَاءَهُـمْ وَ احْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُـوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْـزَلَ اللهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوا فَاعْلَـمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْـضِ ذُنُوبِهِمْ وَ إِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ لَفَـاسِقُونَ * أَفَحُكْمَ الجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَ مَنْ أَحْسَـنُ مِنَ اللهِ حُكْماً لِقَومٍ يُوقِنُونَ﴾(المائدة/ ٤٩و٥٠).

٢٢ ـ إنكار نبوّة المسيح :

مناصبـة اليهود العداء للمسيحيين لهـا جذور متأصّلـة في التاريخ فمـذ أعلن المسيح بنبـوّته و رسالته قـامت اليهود فـي وجهه و أنكـروا رسالتـه ، يقول سبحـانه : ﴿وَإِذْ قَالَ عِيْسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِى إِسْرائِيلَ إِنِّى رُسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَ مُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنْ بَعْدِى اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُـمْ بِالبَيِّنَاتِ قَالُوا هذا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾(الصف/ ٦).

نعم نرى اليوم تحـالف اليهود مع المسيحيين لضمان المصالـح المشتركة التي

على رأسها و أهمّها القضاء على الإسلام و إبعاده عن المجتمع و الحياة، و لأجل ذلك نرى أنّ البابا قام مؤخّراً بزيارة الكنيست اليهودي في روما و أعلن خلال زيارته له براءة اليهود من دم المسيح من أجل توحيد الصف و دعم الجهود الكفيلة بالقضاء على المسلمين و دينهم، و لكنّهم في الواقع و الحقيقة لازالوا يكنّون نفس العداء التاريخي المتأصّل في نفوسهم.

روي أنّ نفراً من اليهود أتوا رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) فسألوه عمّن يؤمن به من الرّسل؟ فقال: أؤمن بالله، فعند ذاك جحدوا نبوّة المسيح و قالوا و الله ما نعلم أهل دين قطّ أخطأ في الدّنيا و الآخرة منكم و لاديناً شرّاً من دينكم، فأنزل الله: **﴿قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللهِ وَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَ مَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَ أَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾(المائدة/ ٥٩)**[1].

٢٣ ـ إشراكهم بالله عزّ و جلّ:

إنّ العصبية العمياء ربّما تبلغ بالإنسان حدّاً ينكر ما كان يدين به هو وقومه طيلة قرون إنصرمت، فهؤلاء اليهود المعاصرون كانوا يفتخرون و يتمجّدون بدين التوحيد، و أنّهم ضحّوا في سبيله نفسهم و نفيسهم، و لكنّهم لمّا رأوا أنّ النبيّ الأكرم يدعو إلى هذا المبدأ، و يتّخذ منه الحجر الأساس لدعوته، عادوا ينكرونه و يروّجون الشرك تشفّياً لغيظهم و حنقهم.

أتى رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) جماعة من اليهود فقالوا له: يا محمد أما تعلم مع الله إله غيره؟ فقال رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم): «الله لا إله إلاّ هو بذلك بعثت و إلى ذلك أدعوا»، فأنزل الله فيهم و في قولهم: **﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ وَ أُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا القُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَ مَنْ بَلَغَ ءَإِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّما هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَ إِنَّنِي**

---

(١)السيرة الحلبية: ج١ ص٥٦٧، مجمع البيان: ج٣ ص٣٢٩ (طبع بيروت).

بَرِیءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾(الأنعام/ ١٩)[١].

٢٤ ـ سؤالهم عن محين الساعة:

تعلّقت مشيئته الحكيمة بكتمان وقت الساعة، قال سبحانه: ﴿إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾(لقمان/ ٣٤)، و مع ذلك جاء جماعة من اليهود قالوا: أخبرنا متى تقوم الساعة إن كنت نبيّاً، فنزل قوله سبحانه: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّی لايُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِی السَّمٰوَاتِ وَ الأَرْضِ لاتَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللهِ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لايَعْلَمُونَ﴾(الأعراف/ ١٨٧).

و لم يكن هذا السؤال إلاّ تعنّتاً و عناداً لأنّهم هم الذين ذكروا لقريش: إسألوا محمداً عن وقت الساعة فإن خوّل علمها إلى الله سبحانه فاعلموا أنّه نبي ...[٢].

هذه نماذج من مناظراتهم و مشاغباتهم التي تنم عن مبلغ لجاجهم و عنادهم و ممّا يصوّر لك طبيعتهم.

٢٥ ـ تهجّمهم على ذات الله عزّ و جلّ:

أتى رهط من اليهود إلى رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) فقالوا: يا محمّد هذا الله خلق الخلق، فمن خلق الله؟ فغضب رسول الله حتّى انتقع لونه ثمّ ساورهم[٣] غضباً لربّه، فجاءه جبرئيل(عليه السلام) فسكّنه فقال: خفّض عليك يا محمد،و جاءه عن الله بجواب ما سألوه عنه: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ * اللهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَ لَمْ يُولَدْ * وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾.

---

(١) السيرة النبويّة: ج١ ص٥٦٨.

(٢) قد ذكرنا تفصيل القصّة في ص٢١٧ ـ ٢٢٠.

(٣) ساورهم: واثبهم و باطشهم.

فلمّا تلاها عليهم، قالوا: فصف لنا يا محمد كيف خلقة(الله)، كيف ذراعه، كيف عضده؟ فغضب رسول الله أشدّ من غضبه الأوّل و ساورهم، فأتى جبرئيل فقال له مثل ما قال له أوّل مرّة، و جاءه من الله تعالى بجواب ما سألوه بقول الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَ الأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَ السَّمٰوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾(الزمر/ ٦٧).

٢٦ ـ طلبهم كتاباً من السماء:

إنّ اليهود كانت جاهلة بحكمة نزول القرآن تدريجيّاً و قد ورد النص بها في غير واحد من الآيات، قال سبحانه: ﴿وَ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ القُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَ رَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾(الفرقان/ ٣٢).

إنّ في نزول القرآن تدريجيّاً منجّماً حسب الوقائع و الأحداث لدلالة واضحة على أنّه وحي إلٰهي ينزل شيئاً فشيئاً حسب الحاجات و ليس شيئاً متعلّماً عن ذي قبل من إنس أو جن، و لكن جهل اليهود بحكمته دعاهم إلى أن يطلبوا عن رسول الله نزول القرآن جملة واحدة من السماء حتّى يروا بأُمّ أعينهم أنّه كتاب سماوي أُنزل من عند الله سبحانه و هم يضاهئون في هذا الإقتراح قول المشركين في مكّة[1].

أتى جماعة من اليهود رسول الله، فقالوا: يا محمد! إنّ هذا الذي جئت به لحقّ من عند الله؟فإنّا لانراه متّسقاً كما تتّسق التوراة؟ فقال لهم رسول الله: أما و الله لأنّكم لتعرفون أنّه من عند الله تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة و لو اجتمعت الإنس و الجنّ على أن يأتوا بمثله ما جاءوا به، فقالوا: يا محمّد أما يعلّمك هذا انس ولاجن؟ فقال لهم رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم): أما والله إنّكم تعلمون أنّه من عند الله و إنّي لرسول الله تجدون ذلك مكتوباً عندكم في التوراة، فقالوا: يا محمد فإنّ الله يصنع لرسول إذا بعثه ما يشاء ويقدر منه على ما أراد، فأنزل علينا كتاباً من السماء

---

(١)الإسراء/ ٩٣، و قد مضى تفسيرها.

نقرأه و نعرفه و إلاّ جئناك بمثل ما تأتي به، فأنزل الله تعالى فيهم و فيما قالوا: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَ الجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هٰذَا القُرْآنِ لايأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾(الإسراء/ ٨٨).

٢٧ ـ تحويل القبلة إلى الكعبة:

كان النبي الأكرم(صلّى الله عليه و آله و سلّم) يصلّي إلى بيت المقدس في المدينة المنوّرة إلى سبعة عشر شهراً[1] من الهجرة، و كانت اليهود تعيّر المسلمين على تبعيّة قبلتهم و يتفاخرون بذلك عليهم، فحزن رسول الله ذلك فخرج في سواد الليل يقلّب وجهه في السماء ينتظر الوحي من الله سبحانه و كشف همّه، فنزل الوحي بقبلة جديدة، فقطع تعييرهم و تفاخرهم، قال سبحانه: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ المَسْجِدِ الحَرَامِ وَ حَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَ مَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾(البقرة/ ١٤٤).

و روى الصدوق أنّ النبي(صلّى الله عليه و آله و سلّم) صلّى إلى بيت المقدس ثلاث عشرة سنة و تسعة عشر شهراً بالمدينة ثمّ عيّرته اليهود، فقالوا: إنّك تابع قبلتنا فاغتمّ لذلك غمّاً شديداً، فلمّا كان في بعض الليل خرج يقلّب وجهه في آفاق السماء فلمّا أصبح صلّى الغداة فلمّا صلّى من الظهر ركعتين جاء جبرئيل فقال له: **﴿قد نرى تقلّب وجهك في السماء فلنولّينّك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام...﴾** ثمّ أخذ بيد النبي فحوّل وجهه إلى الكعبة و حوّل من خلفه وجوههم حتى قام الرجال مقام النساء و النساء مقام الرجال، فكان أوّل صلاته إلى بيت المقدس وآخرها إلى الكعبة، فبلغ الخبر مسجداً بالمدينة و قد صلّى أهله من العصر ركعتين فحوّلوا نحو القبلة، فكان أوّل صلاتهم إلى بيت المقدس و آخرها إلى الكعبة فسمّي

---

(١)و في رواية الفقية كما سيوافيك تسعة عشر شهراً.

ذلك المسجد مسجد القبلتين[1].

و قد أثار هذا الأمـر أسئلة و اعتراضات من جانب اليهود بـل المؤمنين أنفسهم وجاء الذكر الحكيم مجيباً عنها بما يلي:

١ ـ أتى جمـاعة من اليهود مثل رفاعـة بن قيس و كعب بن الأشـرف و غيرهما فقالوا: يا محمدما ولّاك عن قبلتك التي كنت عليها و أنت تزعم أنّك على ملّة إبراهيم و دينه أرجع إلى قبلتك التي كنت عليها نتّبعك و نصدّقك. و إنّما يريدون بذلك فتنته عن دينـه، و هذا هـو الاعتراض الـذي يتناوله الـوحي مشفـوعاً بـالجواب: **﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾** و بعبارة أُخرى إنّ التحوّل كان بأمر من الله فكيف يأمـر به مع انّه هو الـذي جعل بيت المقدس قبلة فكيـف ينقض حكمه و ينسخ مـا شرعـه(و اليهود مـن القائليـن بامتنـاع النسخ) و إن كـان بغير أمـر الله فهو انحراف عن الصراط المستقيم.

و أمّا الجواب فهو إنّ جعل بيت من البيوت أو بناء من الأبنية قبلة ليس لاقتضاء ذاتي فيـه يستحيل التعدّي عنـه، بل جميع الأجسام و الأبنيـة بل جميع الجهـات من الشرق و الغرب إليه سبحانه على السواء يحكم فيها ما يشاء و كيف يشاء و متى شاء، و انّ الإعتراض نابع من قلّة عقلهم أو عدم استقامته في درك حقيقة التشريع.

و إلى هذا الجواب يشير قوله سبحانه: **﴿قُلْ للهِ المَشْرِقُ وَ المَغْرِبُ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾**(البقرة/ ١٤٢).

٢ ـ لمّا كان المقدّر أن تكون الكعبة هي القبلة الأخيرة فما هو السبب في جعل بيت المقدس قبلة أُولى للمسلمين؟

و الجواب: إنّ المصالح كانت تقتضـي أن يصلّي المسلمون إلى القبلة الأُولى في مكّـة و المدينة فـي أوائل البعثة و أوائل الهجـرة و ذلك لأنّ النبي(صلّـى الله عليه وآله و سلّـم) في مكّـة المكرمـة و بعد الهجرة بقليـل كان مبتلـى بالمشـركين الـذين

---

(١)من لايحضره الفقيه ج١ ص١٧٨ ح٣.

لايصلّون لله سبحانه و لايعبدونه و إنّما يعبدون الأوثان و الأصنام، فعندئذٍ أمر النبي بالصلاة إلى بيت المقدس(الذي كان الموحّدون من اليهود و النصارى يصلّون إليه) حتّى يتميّز الموحّدون عن المشركين و يكون ذلك سمة التوحيد و علامته، فكانت الصلاة إلى بيت المقدس وسيلة لتميّز الموّحدين عن المشركين.

و لمّا كانت العرب شديدة الأُلفة بمكّة و قبلتها فأحبّ الله تعالى أن يمتحن القوم بغير ما ألفوا ليميّز من يتّبع الرسول عمّن ينقلب على عقبيه.

و لأجل هذين الوجهين(تميّز الموحّدين عن المشركين و امتحان من يتّبع الرسول ممّن ينقلب على عقبيه من العرب الآلفة بمكّة و قبلتها) أمر المسلمون بالصلاة إلى بيت المقدس مؤقّتاً و إلى ذلك يشير قوله سبحانه: ﴿وَ مَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَ إِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللهُ﴾(البقرة/ ١٤٣).

و لعلّ قوله: ﴿لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ﴾ إشارة إلى الوجه الأوّل.

كما أنّ قوله: ﴿وَ إِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللهُ﴾ إشارة إلى الوجه الثاني و هو اختبار من يخالف العادة و الأُلفة لأجل إمتثال أمر الرسول، فإنّ مخالفة العادات و التقاليد كبيرة إلاّ على الذين هدى الله.

و الحاصل إنّ جعل بيت المقدس قبلة لأجل تمحيص المؤمنين من غيرهم وتميّز المطيعين من العاصين و المنقادين من المتمرّدين.

و أمّا العدول عن بيت المقدس إلى الكعبة فقد عرفت أنّه ليس لمكان أو بيتٍ شرفٌ ذاتي بل الحكم يدور مدار المصلحة، فصارت المصالح مقتضية بأن يتميّز المسلمون من اليهود بتفكيك قبلتهم التي كانوا يصلّون إليها عن قبلة اليهود، و يميّز المنافق المتظاهر بالإسلام من اليهود عن المؤمن المنقاد الواقعي، و لأجل ذلك حوّلت القبلة إلى الكعبة.

٣ـ ما حكم الصلوات التي كان المسلمون قد أدّوها إلى بيت المقدس؟

و الجواب: إنّ القبلة قبلة ما لم تنسخ و إنّ الله سبحانه إذا نسخ حكماً نسخه من حين النسخ لا من أصله لرأفته و رحمته بالمؤمنين، و إليه يشير قوله سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾(البقرة/ ١٤٣).

و أمّا الاقتراح الذي تقدّمت به اليهود إلى النبيّ(صلّى الله عليه و آله و سلّم) من رجوعه إلى القبلة السابقة حتّى يتّبعوه و يصدّقوه فإنّما هو وعد مكذوب لايتّبعون قبلته إلى آخر الدهر، و إليه يشير قوله سبحانه: ﴿وَ لَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَ مَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَ مَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَ لَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ العِلْمِ إِنَّكَ إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾(البقرة/ ١٤٥).

و المراد من الإيمان في الآية في قوله: ﴿مَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ هو العمل. قال ابن عباس: قالوا كيف بمن مات من إخواننا قبل ذلك؟ و كان قد مات أسعد بن زرارة و البراء بن معرور و كانا من النقباء.

و بذلك يعلم أنّ ما ذكره سبحانه قبل هذه الآيات من قصّة إبراهيم و أنواع كرامته و كرامة ابنه إسماعيل و دعوتهما للكعبة و مكّة و للنبيّ و الأُمّة المسلمة وبنائهما البيت و الأمر بتطهيره للعبادة، كل ذلك تمهيد لحادثة تغيير القبلة و اتّخاذ الكعبة قبلة، فإنّ تحويل القبلة من أعظم الحوادث الدينية و أهم التشريعات التي قوبل بها الناس بعد هجرة النبيّ إلى المدينة. فكانت محتاجة إلى ترويض النفوس لقبولها.

٢٨ـ مباهلة النبيّ نصارى نجران: [١]

لمّا كتب رسول الله إلى ملوك العرب و العجم رسائلة التبليغية و بعث رسله إلى

(١)نجران في مخاليف اليمن من ناحية مكة، و بها كان خبر الأخدود و إليها تنسب كعبة نجران، و كانت بيعة، بها أساقفة مقيمون منهم السيّد و العاقب اللّذان جاءا إلى النبي(صلّى الله عليه و آله و سلّم) في أصحابها و دعاهم إلى المباهلة و بقوا بهاحتّى أجلاهم عمر. وقال زيني دحلان: ⇐

الأقوام و القبائل، أرسل عتبة بن غزوان، و عبد الله بن أبي أُميّة و صهيب بن سنان إلى نجران و نواحيه و كتب معهم[1] إلى أساقفة نجران يدعوهم إلى رفض الأقانيم و الأنداد و التزام التوحيد و عبادة الله تعالى، و ها نحن نسوق إليك نصّ كتابه :

«بسم إله إبراهيم و إسحاق و يعقوب، من محمّد النبيّ رسول الله إلى أسقف نجران، فإنّي أحمد إليكم إله إبراهيم و إسحاق و يعقوب، أمّا بعد فإنّي أدعوكم إلى عبادة الله من عبادة العباد و أدعوكم إلى ولاية الله من ولاية العباد، و إن أبيتم فالجزية، فإن أبيتم آذنتكم بحرب»[2].

و لمّا قرأ الأسقف الكتاب فزع و ارتاع و شاور أهل الحجى و الرأي منهم، فقال شرحبيل-و كان ذالبّ و رأي بنجران-: قد علمت ما وعد الله إبراهيم في ذريّة إسماعيل من النبوّة فما يؤمنك أن يكون هذا الرجل؟ و ليس لي في النبوّة رأي لو كان أمر من أُمور الدنيا أشرت عليك فيه وجهدت لك.

فبعث الأسقف إلى واحد من بعد واحد من أهل نجران فتشاوروا فكثر اللغط و طال الحوار، فاجتمع رأيهم على أن يبعثوا وفداً يأتي رسول الله فيرجع بخبره.

فأوفدوا إليه ستّين راكباً و فيهم ثلاثة عشر رجلاً من أشرافهم و ذوو الرأي و الحجى منهم و ثلاثة يتولّون أمرهم: العاقب إسمه عبد المسيح، أمير الوفد الذي لايصدرون إلاّ عن رأيه، و السيّد و إسمه الأيهم و هو ثمالهم و صاحب رحلهم، و أبوحارثة بن علقمة أسقفهم الأوّل و حبرهم و إمامهم و صاحب مدارسهم و هو

⇐ نجران بلدة كبيرة واسعة على سبع مراحل من مكة إلى جهة اليمن تشتمل على ثلاث و سبعين قرية.

مراصد الإطلاع في معرفة الأمكنة و البقاع، مادة(نجران).

(١)و كان بخط الإمام علي بن أبي طالب(عليه السلام) راجع: صبح الاعشى ج١ ص٦٥(طبع بيروت).

(٢)تاريخ اليعقوبي ج٢ ص٦٥، دلائل النبوّة ج٥ ص٣٨٥، البداية و النهاية ج٥ ص٥٣.

الأسقف الأعظم[1].

فجاءوا إلى النبـي حتّى دخلوا على رسـول الله وقت العصر، فدخلـوا المسجد وعليهم ثياب الحبرات[2] و أردية الحرير مختّمين بخواتيـم الذهب و أظهروا الصليب و أتوا رسول الله فسلّموا عليـه، فلم يرد عليهم السلام و لم يكلّمهـم،فانطلقوا يبتغون عثمان بن عفّان و عبد الرحمن بن عوف و كان لهما معرفة بهم فوجدوهما في مجلس من المهاجرين، فقالوا: إنّ نبيّكم كتب إلينا بكتاب فأقبلنا مجيبين له، فأتيناه و سلّمنا عليه فلم يردّ سلامنا و لم يكلّمنا. فما الرأي؟

فقالا لعلي بن أبي طالب: ما تـرى يا أبا الحسن في هؤلاء القوم؟ قال: أرى أن يضعوا حللهم هـذه، و خواتيمهم ثمّ يعـودون إليه، ففعلوا ذلك، فسلّمـوا فردّ عليهم سلامهـم، ثمّ قـال: و الذي بعثنـي بالحـق لقد آتيتمـوني المـرّة الأُولى و إنّ إبليـس لمعكم[3].

و كانوا قد أتوا معهـم بهديّة و هي بُسَط إلى النبيّ فيها تمـاثيل و مسوح، فصار الناس ينظرون للتماثيل، فقال: أمّا هذه البسط فلاحاجة لي فيها، و أمّا هذه المسوح فإن تعطونيها آخذها، فقالوا: نعم نعطيكها، و لمّا رأى فقراء المسلمين ما عليه هؤلاء من الزينة و الزيّ الحسن، تشوّقت نفوسهم، فنزل قوله سبحانه:

﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْـرٍ مِنْ ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَـوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْـرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَـارُ خَالِـدِينَ فِيهَـا وَ أَزْوَاجٌ مُطَهَّـرَةٌ وَ رِضْـوَانٌ مِـنَ اللهِ وَ اللهُ بَصِيـرٌ بِالعِبَادِ﴾(آل عمران/ ١٥).

ثمّ أرادوا أن يصلّوا بالمسجد بعد أن حانت وقت صلاتهم، و ذلك بعد العصر فـأراد الناس منهـم، فقـال النبي: دعـوهـم، فـاستقبلوا المشـرق فصلّـوا صلاتهـم فلمّا قضوا صلاتهم ناظروه.

---

(١)دلائل النبوّة ج٥ ص٣٨٦، الدر المنثور ج٢ ص٣٨، و تاريخ اليعقوبي ج٢ ص٦٦.

(٢)ثوب من ثياب اليمن.

(٣)السيرة الحلبية ج٣ ص٢٣٩.

فقالوا لرسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّـم) : إلى ما تدعو؟ فقال:إلى شهادة أن لا إله إلاّ الله و إنّي رسول الله و إنّ عيسى عبد مخلوق، يأكل و يشرب، و يُحدث، فقالوا:فمـن أبوه؟ فنزل الوحـي على رسول الله، فقال: قـل لهم: «ما تقولـون في آدم أكان عبداً مخلـوقاً يأكل و يشرب و يُحـدث و ينكح؟ فسألهم النبيّ، فقـالوا: نعم، فقل: فمن أبوه؟ فبهتوا، فأنزل الله:

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثِمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * الحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَـلاتَكُنْ مِنَ المُمْتَرِيـنَ * فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِـنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِـنَ العِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَـا وَ أَبْنَاءَكُمْ وَ نِسَاءَنَا وَ نِسَاءَكُمْ وَ أَنْفُسَنَا وَ أَنْفُسَكُـمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللهِ عَلَى الكَاذِبِينَ﴾(آل عمران/ ٥٩ـ٦١).

الدعوة إلى المباهلة

فلأجل ذلك قال لهم رسول الله:فباهلونـي فإن كنت صادقاً أُنزلت اللّعنة عليكم و إن كنت كاذباً أُنزلت عليّ، فقالوا: «أنصفت»، فتواعدوا للمباهلة، فلمّا رجعوا إلى منازلهم، قال لهم رؤساؤهم ـ السيّد و العاقب و الأيهم ـ: إن باهلنا بقومه باهلناه فإنّه ليس نبيّاً، و إن باهلنـا بأهـل بيته خـاصّة لم نبـاهله فـإنّه لايقـدّم أهل بيتـه إلاّ و هو صادق، فلمّا أصبحـوا جاءوا إلى رسول الله و معـه أمير المؤمنين و فـاطمة و الحسن والحسين، فقال النصارى:من هؤلاء؟ فقيل لهم: هـذا ابن عمه و صهره علي بن أبي طالب و هذه ابنته فاطمة و هذان ابناه الحسن و الحسين، ففزعوا، فقالوا لرسول الله: نعطيك الرضا فاعفنا من المباهلة، فصالحهم رسول الله على الجزية و انصرف[1].

و روى الطبرسي: و لمّا كان الغد جاء النبي(صلّى الله عليه و آله و سلّم) آخذ بيـد علي بـن أبي طـالب و الحسـن و الحسيـن(عليهم السـلام) بين يـديه يمشيـان و فاطمة(عليهـا السلام) تمشي خلفه، و خـرج النصارى يتقدّمهم أسقفهـم فلمّا رأى

---

(١)تفسير القمي ج١ ص١٠٤.

النبي(صلّى الله عليه و آله و سلّم) قد أقبل بمـن معه، سأل عنهم، فقيل له: هذا ابن عمّه و زوج ابنتـه و أحبّ الخلق إليـه و هذان ابنا بنته مـن علي(عليه السـلام) و هذه الجارية بنته فاطمة، أعزّ الناس عليه و أقربهم إلى قلبه، و تقدّم رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) فجثا على ركبتيه.

قـال أبو الحـارثـة الأسقف: جثـا و الله كمـا جثا الأنبيـاء للمبـاهلة، فسكـع ولـم يقـدم على المباهلة، فقـال السيّد: ادن يا أبا حـارثة للمباهلة، فقـال: لا، إنّي لأرى رجلاً جريئاً على المباهلة و أنا أخاف أن يكون صادقاً و لئن كان صادقاً لم يحل و الله علينا الحول و في الدنيـا نصراني يطعم الماء، فقال الأسقف: يا أبـا القاسم إنّا لانباهلك و لكن نصـالحك فصالحنا على ما ينهض به، فصـالحهم رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) علـى ألفي حلّة من حلل الأواقي قيـمة كـل حلّة أربعون درهماً فما زاد و نقـص فعلى حساب ذلك، و علـى عارية ثـلاثين درعاً، و ثلاثيـن رمحاً، و ثلاثين فرساً إن كان باليمن كيد، و رسول الله ضامن حتّى يؤديهـا و كتب لهم بذلك كتاباً.

و روي أنّ الأسقف قال لهـم: إنّي لأرى وجوهاً لـو سألوا الله أن يزيـل جبلاً من مكانه لأزاله، فلاتبـاهلوا فتهلكوا و لايبقى على وجه الأرض نصراني إلـى يوم القيامة، و قال النبـيّ: و الذي نفسـي بيده لـو لاعنونـي لمسخوا قـردة و خنازيـر، و لاضطرم الوادي عليهـم ناراً، و لمـا حال الحـول على النصـارى حتى يهلكـوا كلّهم، قـالوا: فلمّا رجـع وفد نجران، لم يلبـث السيّد و العاقـب إلاّ يسيراً، حتّى رجعا إلـى النبيّ، و أهدى العاقب له حلّة و عصا و قدحاً و نعلين و أسلما[1].

و هناك كلمة قيّمة للزمخشري يقول فيها:

فإن قلـت: ما كـان دعاؤه إلـى المباهلـة إلاّ لتبيّن الكـاذب منه و مـن خصمه و ذلك أمر يختصّ به و بمن يكاذبه فما معنى ضم الأبناء و النساء؟

قلت: ذلك آكد في الدلالة على ثقته بحاله و استيقانه بصدقه حيث تجرّأ على

---

(١) مجمع البيان: ج٢ ص٧٦٢ و ٧٦٣ (طبع بيروت).

تعريـض أعزّته و أفـلاذ كبده و أحبّ الناس إليـه لذلك، و لـم يقتصر على تعـريض نفسه لـه و على ثقتـه بكذب خصمه حتّى يهلـك خصمه مـع أحبّته و أعـزّته هـلاك الإستئصال إن تمّت المباهلة. و خصّ الأبنـاء و النساء لأنّهم أعزّ الأهـل و ألصقهم بالقلوب، و ربّما فداهم الرجل بنفسه، و حـارب دونهم حتّى يقتل، و من ثـمّ كانوا يسوقون مع أنفسهم الظعائن في الحـروب لتمنعهم من الهرب، و يسمّون الذادة عنهم بأرواحهـم: «حماة الحقائق» و قدّمهـم في الذكر علـى الأنفس(في الآية) لينبّـه على لطف مكانهم، و قرب منزلتهم و ليؤذن بأنّهم مقدّمون على الأنفس مفدون بها، و فيه دليل لاشيء أقوى منه على فضل أصحاب الكساء(عليهم السلام) وفيه برهان واضح على صحّة نبوّة النبيّ لأنّه لم يرو أحد من موافق و لامخالف أنّهم أجابوا إلى ذلك[1].

و من أمعـن فيما ورد من سبـب النزول و شرحه فـي كتب الحديـث و التفسير يقف علـى مكرمة و فضيلة عظيمـة لأهل البيت(عليهـم السلام) في تلك الحـادثة، ومن أراد التفصيل فليرجـع إلى كتاب «الكلمة الغرّاء في تفضيل الـزهراء» للسيّد شرف الدين(ص١٩٧ـ٢٠٣).

و هناك نكتة أُخـرى نقلها الرازي عن بعض معـاصريه من الشيعة و لـم يناقش في كلامه مع غرامه بنقض المحكمات و هيامه في التشكيكات و الشبهات، قال:

كان في الـري رجل يقال له محمـود بن الحسن الحمصي و كـان معلّم الإثنى عشرية و كان يزعم أنّ عليّاًـرضي الله عنهـأفضل من جميع الأنبياء سوى محمد(صلّى الله عليه و آله و سلّـم) و استدلّ على ذلك بقولـه تعالى: ﴿وَ أَنْفُسَنَا وَ أَنْفُسَكُم﴾ إذ ليس المراد بقوله﴿وَ أَنْفُسَنَا﴾ نفس محمد(صلّى الله عليـه و آله و سلّم) لأنّ الإنسان لايـدعو نفسـه بل المـراد غيرهـا، و أجمعوا علـى أنّ ذلك الغيـر كان علـي بن أبـي طالب(رض) فدلّت الآية على أنّ «نفس علي» هي محمد، و لايمكن أن يكون المراد إنّ هذه النفـس هي عيـن تلك، فـالمراد إنّ هـذه النفس مثـل تلك النفـس، و ذلك

(١)الكشاف: ج١ ص٣٢٧.

يقتضي المساواة في جميع الوجوه، ترك العمل بهذا العموم في حق النبوّة و في حق الفضل لقيام الدلائل على أنّ محمداً عليه الصلاة و السلام كان نبيّاً و ما كان علي كذلك و لإنعقاد الإجماع على أنّ محمداً(صلّى الله عليه و آله و سلّم) كان أفضل من علي(رض) فبقى فيما وراءه معمولاً به ثمّ الإجماع دلّ على أنّ محمداً(صلّى الله عليه و آله و سلّم) كان أفضل من سائر الأنبياء(عليهم السلام) فيلزم أن يكون علي أفضل من سائر الأنبياء[1].

٢٩ ـ الخلفيّة التشريعيّة لحرمة الأشهر الحرم:

ربّما نقرأ في بعض الصحف و الكتب أنّ عرب الجاهلية هم الذين حرّموا الحرب في الأشهر الحرم و أضفوا عليها مسحة قدسية خاصة، و ذلك لأنّهم كانوا متوغّلين في الحروب و الغارات و كان تمادي الظاهرة القبليّة الشاذّة موجباً لفكّ عرى الحياة، و لأجل ذلك استثنوا هذه الأشهر لتقويم أودهم و ضمان أمن طرق التجارة و تيسير أمر زيارة الكعبة.

و لكنّها فكرة خاطئة تخالف ما نستلهمه من القرآن الكريم، فإنّ الظاهر منه أنّ حرمة الأشهر لها جذور دينية و أنّها جزء من صميم الدين القيّم الذي جاء به إبراهيم(عليه السلام) إلى أمّته، قال سبحانه: ﴿**إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِى كِتَابِ اللهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَ الأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلاَتَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ...**﴾(التوبة/ ٣٦).

فإنّ قوله: ﴿**ذلك الدين القيّم**﴾ ربّما يشير إلى أنّ اتّصاف الأربعة بالحرم جزء من الدين القيّم و تشريعاته.

و على ذلك الأساس فالنبيّ الأكرم أولى بأن يحافظ على حرمتها و يراعي قدسيّتها، و بذلك يسهل لك القضاء في الحادثة الدموية التي وقعت في مستهلّ

---

(١)تفسير الرّازي ج٨ ص٨١(طبع بيروت).

شهر رجب بيد المسلمين و هي التي استغلّتها قريش للتعيير بالنبيّ و الإزدراء به، و أنّه هدم قدسيّة تلك الأشهر و إراقة الدم فيها، و إليك نصّ القصة:

بعث رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) عبد الله بن جحش بن رئاب الأسدي في رجب مقفلة من بدر الأُولى و بعث معه ثمانية رهط من المهاجرين ليس فيهم من الأنصار أحد، و كتب لهم كتاباً و أمره أن لاينظر فيه حتّى يسير يومين ثمّ ينظر فيه، فيمضي بما أمره به و لايستكره من أصحابه أحداً.

فلمّا سار عبد الله بن جحش يومين فتح الكتاب فنظر فإذا فيه: إذا نظرت في كتابي هذا فامض حتّى تنزل نخلة بين مكّة و الطائف، فترصد بها قريشاً و تعلم لنا من أخبارهم.

فلمّا نظر عبد الله بن جحش في الكتاب قال: سمعاً و طاعة، ثمّ قال لأصحابه:قد أمرني رسول الله أن أمضي إلى نخلة أرصد بها قريشاً حتّى آتيه منهم بخبر، و قد نهاني أن أستكره أحداً منكم فمن كان منكم يريد الشهادة و يرغب فيها فلينطلق و من كره ذلك فليرجع، فأمّا أنا فماض لأمر رسول الله، فمضى و مضى معه أصحابه لم يتخلّف منهم أحد.

و سلك إلى الحجاز حتّى إذا كان بمعد فوق «الفرع»يقال له«بحران»أضلّ سعد ابن أبي وقّاص و عتبة بن غزوان بعيراً لهما، كانا يتعاقبانه، فتخلّفا عليه في طلبه و مضى عبد الله بن جحش و بقيّة أصحابه حتّى نزل بنخلة، فمرّت به عير لقريش تحمل زبيباً و أدماً وتجارة من تجارة قريش، فيها عمرو بن الحضرمي، فلمّا رآهم القوم[1]هابوهم و قد نزلوا قريباً منهم، فأشرف لهم عكاشة ابن محصن و كان قد حلق رأسه فلمّا رأوه أمنوا و قالوا: عمّار لابأس عليكم منهم، و تشاور القوم فيهم و ذلك في آخر يوم من رجب، فقال القوم: [2]و الله لئن تركتم القوم هذه الليلة ليدخلنّ الحرم

(١)المقصود عير قريش.

(٢)المقصود المسلمون.

فليمتنعنّ منكم به[1] و لئن قتلتموهم لنقتلنّهم في الشهر الحرام، فتردّد القوم[2] و هابوا الإقدام عليهم ثمّ شجّعوا أنفسهم عليهم و أجمعوا على قتل من قدروا عليه منهم و أخذ ما معهم فرمى و اقد بن عبد الله التيمي عمرو بن الحضرمي بسهم فقتله، و استأسر عثمان بن عبد الله و الحكم بن كيسان و أفلت القوم[3] نوفل بن عبد الله فأعجزهم و أقبل عبد الله بن جحش و أصحابه بالعير و بالأسيرين حتّى قدموا على رسول الله (صلّى الله عليه و آله و سلّم).

فلمّا قدموا على رسول الله المدينة، قال: ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام فوقّف العير و الأسيرين و أبى أن يأخذ من ذلك شيئاً، فلمّا قال ذلك رسول الله، سقط في أيدي القوم و ظنّوا أنّهم قد هلكوا و عنّفهم إخوانهم من المسلمين فيما صنعوا، و قالت قريش: قد استحلّ محمّد و أصحابه الشهر الحرام فسفكوا فيه الدم و أخذوا فيه الأموال و أسروا فيه الرجال.

و قد توقّع اليهود لأجل هذه الحادثة بالمسلمين الشر، فلمّا أكثر الناس في ذلك أنزل الله على رسوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَ صَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَ كُفْرٌ بِهِ وَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَ إِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللهِ وَ الْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَ لَايَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَ مَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَ هُوَ كَافِرٌ فَأُولٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِى الدُّنْيَا وَ الآخِرَةِ وَ أُولٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ الَّذِينَ هَاجَرُوا وَ جَاهَدُوا فِى سَبِيلِ اللهِ أُولٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللهِ وَ اللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (البقرة/ ٢١٧ و ٢١٨).

و الآية الثانية تحكي عن نزول المغفرة لعبد الله بن جحش و أصحابه و ذلك لأجل أنّهم كانوا ذوو سابقة حسنة و بلاء محمود كما يشير إليه قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا

---

(١) أي يتحصّنون بالحرم.

(٢) المقصود هم المسلمون.

(٣) أي فر من بين أيديهم فلم يتمكنّوا من اللحاق به و القبض عليه.

وَ الَّذِينَ هَاجَرُوا وَ جَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أُولٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللهِ﴾ .

قال ابن هشام: لمّا تجلّى عن عبد الله بن جحش و أصحابه ما كانوا فيه حين نزل القرآن (الآية الأُولى) طمعوا في الأجر، فقالوا: يا رسول الله أنطمع أن تكون لنا غزوة نعطى فيها أجر المجاهدين؟ فأنزل الله عزّ و جلّ فيهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ الَّذِينَ هَاجَرُوا ... ﴾ .

فلمّا نزل القرآن بهذا و فرّج الله تعالى عن المسلمين ما كانوا فيه من الشفق قبض رسول الله العير و الأسيرين. و بعثت إليه قريش في فداء عثمان بن عبد الله و الحكم بن كيسان(الأسيرين)، فقال رسول الله:لانفديكموهما حتّى يقدم صاحبانا ـ يعني سعد بن أبي وقاص و عتبة بن غزوان ـ فإنّا نخشاكم عليهما فإن تقتلوهما، نقتل صاحبيكم، فقدم سعد و عتبة فأفداهما رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) منهم.

فأمّا الحكم بن كيسان فأسلم فحسن إسلامه و أقام عند رسول الله حتّى قتل يوم بئر معونة شهيداً، و أمّا عثمان بن عبد الله فلحق بمكّة حتّى مات بها كافراً.

هذا كلّه راجع إلى حكاية القصّة بجزئيّاتها،و أمّا تحليل الحادثة و توضيح الجواب الذي جاءت به الآية الأُولى فهو بالشكل التالي:

لاشك أنّ عمل عبد الله بن جحش لم يكن خاضعاً للضوابط العسكرية، فإنّ النبي(صلّى الله عليه و آله و سلّم) لم يأمره بالقتال بل أمر بإستطلاع أخبار القوم ونقل أخبارهم إليه، فقتاله كان عصياناً لأوامر قائده أوّلاً و هتكاً لقداسة الشهر ثانياً، و لأجل ذلك لمّا جاء إلى النبيّ لم يقبل منه العير و الأسيرين و انتظر الوحي الإلهي حتّى وافاه، و ليس من الصحيح أن يؤاخذ الأمير و رئيس القوم بإجرام واحد من قادة عسكره.

و إليه يشير قوله سبحانه: ﴿قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ أي إنّ القتال فيه و إن كان صغيراً في نفسه: أمر كبير مستنكر لعظيم حرمته، و لكن الذي ينبغي إلفات النظر إليه هو أنّ الناقدين أعني قريشاً قد ارتكبوا جريمة أكبر ممّا ارتكبه ذلك القائد

العسكري و ذلك :

١ ـ إنّهـم صدّوا الناس عن سبيـل الله و منعوهم عـن الطريق الموصـل إلى الله تعالى و هو الإسـلام، حيث كان المشركون يضطهدون المسلميـن و يقتلون من يسلم أو يؤذونه في نفسه و أهله و ماله فيمنعـونه من الهجرة إلى النبي(صلّـى الله عليه و آله و سلّم) .

٢ ـ إنّهم كفروا بالله سبحانه .

٣ ـ إنّهم صدّوا عن المسجد الحرام و منعوا المؤمنين من الحج و الإعتمار.

٤ ـ إنّهم أخرجوا النبيّ(صلّى الله عليه و آله و سلّم) و المهاجرين .

و كلّ هذه أكبر عند الله من قتال المسلمين المشركين في الشهر الحرام .

٥ ـ و الفتنـة أكبر من القتـل أي فتنة المسلمين في دينهـم بإلقاء الشبهـات في قلوبهم أو بتعـذيبهم كما فعلوا بعمّار بـن ياسر و بلال و خبّاب بـن الأرت و غيرهم، أكبر من قتل المشركين .

و القتال في الشهـر الحرام أهون من الفتنة عـن الإسلام لو لـم يحفّ بهـا غيرها من الآثار، كيف و قد قارنها الصدّ عـن سبيل الله، و الكفر به، و الصد عن المسجد الحرام و إخـراج أهله منه، فمـن وقف على فتنة المشـركين لضعفاء المسلميـن طيلة ثلاث عشرة سنـة و استمرارها بعد هجرتـه في حقّ المستضعفين القاطنيـن في مكّة، يقـف على أنّ قتـل مشرك و أسـر نفريـن منهـم أهون بكثيـر ممّا ارتكبـوه طوال هـذه السنين .

و إلى هذا يشير قوله سبحانه :

﴿ وَ صَدٌّ عَن سَبِيلِ اللهِ وَ كُفْـرٌ بِهِ وَ المَسْجِدِ الحَرَامِ وَ إِخرَاجُ أَهْلِهِ مِنْـهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللهِ وَ الفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ القَتْلِ﴾ .

(٩)

الإشتباك المسلّح مع اليهود بالمدينة :

١ ـ إجلاء بني قينقاع من المدينة :

قد وقفت فيما سبق على المناظرات و الاحتجاجات التي دارت رحاها بين النبيّ و اليهود، و اتّضح لك إنّها لم تكن من اليهود بغرض كشف الحقيقة و إنّما كانت مماراة منهم حتّى يشوّهوا الحقيقة على طلاّبها و يضعوا العراقيل في وجه انتشار الإسلام و تعاظم قدرة المسلمين، و قد كان النبيّ الأكرم صابراً على إيذائهم، و لكنّهم لمّا بلغت جرأتهم إلى حدّ هتكوا عرض امرأة مسلمة و قتلوا رجلاً من المسلمين في سوقهم، قام النبيّ في وجههم فرفض الميثاق الذي عقدوه بينهم و بين النبيّ لأنّهم بأعمالهم الإجرامية نقضوا بنوده و مضامينه فلم يبقوا له حرمة، و لكن النبيّ الأكرم أخذ كل طائفة من اليهود بجرمها و لم يأخذ جميع طوائف اليهود بجرم واحدة منها .

فأجلى بني قينقاع لأجل ذينك العملين(هتك حرمة المرأة المسلمة و قتل مسلم) و أبقى الطائفتين الأُخريين على حالهما، فلمّا همّ بنو النضير بقتل النبيّ الأكرم، أجلاهم بمؤامرتهم و أبقى بني قريظة على حالها في المدينة إلى أن ارتكبت الثالثة جريمة كبيرة، فجازاهم بعملهم حسبما يوافيك بيانه .

و هذا إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ على أنّ النبيّ الأكرم كان يحترم العهود و المواثيق المبرمة بينه و بين سائر الملل و النحل و أنّه لو لم تنقض اليهود عهودها و مواثيقها لما خطا النبيّ الأكرم(صلّى الله عليه و آله و سلّم) خطوة واحدة في طريق

الحرب ضدّهم، و لأجل ذلك يجب علينا دراسة العوامل التي حفّزت النبي إلى اتّخاذ موقف حازم و صارم في وجه اليهود القاطنين في المدينة، و قبل إيضاحها نذكر لك نص الميثاق الذي عقده النبيّ(صلّى الله عليه و آله و سلّم) معهم إبّان نزوله المدينة.

روى القمّي في تفسيره: و جاءته اليهود ــ قريظة و النضير و قينقاع ـ فقالوا: يا محمّد إلى ما تدعو؟ قال: إلى شهادة أن لا إله إلاّ الله و أنّي رسول الله و أنّي الذي تجدونني مكتوباً في التوراة و الذي أخبركم به علماؤكم أنّ مخرجي بمكة و مهاجري في هذه الحرّة، و أخبركم عالم منكم جاءكم من الشام فقال: «تركت الخمر والخمير و جئت إلى البؤس و التمور لنبيّ يبعث في هذه الحرّة مخرجه بمكة ومهاجره هاهنا، و هو آخر الأنبياء و أفضلهم، يركب الحمار و يلبس الشملة و يجتزي بالكسرة، في عينيه حمرة و بين كتفيه خاتم النبوّة، و يضع سيفه على عاتقه لايبالي من لاقى، و هو الضحوك القتّال يبلغ سلطانه منقطع الخف و الحافر» فقالوا له: قد سمعنا ما تقول و قد جئناك لنطلب منك الهدنة على أن لانكون لك و لاعليك و لانعين عليك أحداً و لانتعرّض لأحد من أصحابك و لاتتعرّض لنا و لا لأحد من أصحابنا حتّى ننظر إلى ما يصير أمرك و أمر قومك، فأجابهم رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) إلى ذلك و كتب بينهم كتاباً: ألاّ يعينوا على رسول الله (صلّى الله عليه وآله و سلّم) و لا على أحد من أصحابه بلسان و لايد و لابسلاح و لابكراع في السرّ والعلانية، لابليل و لابنهار، الله بذلك عليهم شهيد، فإن فعلوا فرسول الله في حِلٍّ من سفك دمائهم، وسبي ذراريهم و نسائهم، و أخذ أموالهم. و كتب لكل قبيلة منهم كتاباً على حدة، و كان الذي تولّى أمر بني النضير حيّي بن أخطب، فلمّا رجع إلى منزله قال له أُخوته(جديّ بن أخطب و أبوياسر بن أخطب): ما عندك؟ قال: هو الذي نجده في التوراة و الذي يبشّرنا به علماؤنا و لاأزال له عدوّاً لأنّ النبوّة خرجت من ولد إسحاق، وصارت في ولد إسماعيل، و لانكون تبعاً لولد إسماعيل أبداً.

و كان الذي ولي أمر قريضة كعب بن أسد، و الذي ولي أمر بني قينقاع مخيريق و كان أكثرهم مالاً و حدائق، فقال لقومه: تعلمون أنّه النبيّ المبعوث؟

فهلمّوا نؤمن به و نكون قد أدركنا الكتابين، فلم تجبه قينقاع إلى ذلك[1].

هذا هو نص الميثاق، و سنوافيك في هذا البحث و ما يتلوه إنّهم كيف ضربوا به عرض الجدار خصوصاً بعد ما بلغهم انتصار المسلمين على قريش في غزوة بدر فانتابهم الهلع و الخوف، و ترقّبوا الخطر المحدق بهم، و قد بلغ النبيَّ أخبار بني قينقاع، و ما أخذوا يتفوّهون به ضدّه، فلأجل إتمام الحجة جمعهم رسول الله في سوق بني قينقاع بعد نزوله عن بدر، فقال: يا معشر يهود أسلموا قبل أن يصيبكم الله بمثل ما أصاب به قريشاً، فقالوا له: يا محمّد لايغرّنّك من نفسك أنّك قتلت نفراً من قريش، كانوا أغماراً[2] لايعرفون القتال، إنّك و الله لو قاتلتنا لعرفت انّا نحن الناس وإنّك لن تلقى مثلنا، فأنزل الله تعالى في ذلك من قولهم: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَ تُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَ بِئْسَ المِهَادُ * قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللهِ وَ أُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ العَيْنِ وَ اللهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُولِي الأَبْصَارِ﴾(آل عمران/ ١٢و١٣)[3].

و بين ما هم عليه من إظهار العداوة و نقض العهد، جاءت امرأة نزيعة[4] من العرب تحت رجل من الأنصار إلى سوق بني قينقاع، و جلست عند صائغ في حُليّ لها، فجاء رجل من يهود قينقاع فجلس من ورائها و لاتشعر، فخلّى[5] درعها إلى ظهرها بشوكة، فلمّا قامت المرأة بدت عورتها، فضحكوا منها، فقام إليه رجل من المسلمين فاتّبعه فقتله، فاجتمعت بنو قينقاع فتحايشوا، فقتلوا الرجل و نبذوا العهد إلى النبيّ و تحصّنوا في حصنهم[6].

---

(١)البحار ج١٩ ص١١٠ـ١١١(طبع بيروت).

(٢)الأغمار جمع الغمر و هو الذي لم يجرّب الأمور.

(٣)السيرة النبويّة ج١ ص٥٥٢، مجمع البيان ج٢ ص ٧٠٦، المغازي للواقدي ج١ ص١٧٦ .

(٤)المرأة التي تزوّجت في غير عشيرتها.

(٥)أي جمع بين طرفي الشيء.

(٦)المغازي للواقدي ج١ ص١٧٦و١٧٧ .

فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود، فغضب المسلمون، فحاصرهم رسول الله حتّى نزلوا على حكمه.

روى الواقدي: لمّا رجع (رسول الله صلّى الله عليه و آله) من بدر حسدوه فأظهروا الغشّ، فنزل عليه جبرئيل (عليه السلام) بهذه الآية: ﴿وَ إِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللهَ لَايُحِبُّ الخَائِنِينَ﴾ (الأنفال/ ٥٨).

قال: فلمّا فرغ جبرئيل قال له رسول الله (صلّى الله عليه و آله و سلّم): فأنا أخافهم. فسار رسول الله (صلّى الله عليه و آله و سلّم) بهذه الآية حتّى نزلوا على حكمه و لرسول الله أموالهم، و لهم الذرّية و النساء[١].

فقام عبد الله بن أُبي بن سلول رئيس المنافقين في المدينة بالشفاعة لهم فقال: يا محمّد أحسن في مواليّ، و كانوا حلفاء الخزرج، فأبطأ عليه رسول الله، فقال: يا محمّد، أحسن في مواليّ، فأعرض عنه، فأدخل يده في جيب درع رسول الله، فقال له رسول الله: أرسلني، و غضب رسول الله حتّى رأوا لوجهه ظللاً، ثمّ قال: ويحك أرسلني، قال: لا و الله لاأرسلك حتّى تحسن في مواليّ، أربعمائة حاسر[٢] و ثلاثمائة دارع، قد منعوني من الأحمر و الأسود، تحصدهم في غداة واحدة إنّي و الله امرؤٌ أخشى الدوائر، فقال رسول الله: هم لك، فاستعمل رسول الله على المدينة في محاصرته إيّاهم بشير بن عبد المنذر، و كانت محاصرته إيّاهم خمس عشرة ليلة.

و كان لعبادة بن الصامت مثل الحلف الذي كان لهم من عبد الله بن أُبي، فجاء عبادة بن الصامت و قال: يا رسول الله أتولّى الله و رسوله و المؤمنين، و أبرأُ من حلف هؤلاء الكفّار و ولاينهم، و في تلك القصّة نزلت الآيات التالية:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَاتَتَّخِذُوا اليَهُودَ وَ النَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللهَ لَايَهْدِى القَوْمَ الظَّالِمِينَ * فَتَرَى الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ

---

(١) مغازي الواقدي ج١ ص١٨٠.

(٢) الحاسر الذي لادرع له و يقابله الدارع.

مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ * وَ يَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ﴾(المائدة/ ٥١ـ٥٣) .

فلمّا أصرّ ابن أُبي فيهم تركهم رسول الله و أمر بهم أن يجلوا من المدينة .

و روى الواقدي : كان ابن أُبي أمرهم أن يتحصّنوا و زعم أنّه سيدخل معهم، فخذلهم و لم يدخل معهم، و لزموا حصنهم فما رموا بسهم، و لاقاتلوا حتّى نزلوا على صلح رسول الله و حكمه، و أموالهم لرسول الله، فلمّا نزلوا و فتحوا حصنهم، كان محمّد بن مسلمة هو الذي أجلاهم و قبض أموالهم، و أمر رسول عبادة بن الصامت أن يجليهم، فقالت قينقاع: يا أبا الوليد نحن مواليك فعلت هذا بنا؟

قال لهم عبادة:لمّا حاربتم جئت إلى رسول الله فقلت : يا رسول الله إنّي أبرأ إليك منهم و من حلفهم، و كان ابن أُبي وعبادة بن الصامت منهم بمنزلة واحدة في الحلف، فقال عبدالله بن أُبي: تبرّأت من حلف مواليك، فقال عبادة: أبا الحبّاب تغيّرت القلوب و محى الإسلام العهود، فخرجوا إلى الشام و لحقوا بإذرعات[1] ثمّ هلكوا[2].

---

(١)بلد في أطراف الشام يجاور أرض البلقاء وعمان «معجم البلدان ج١ ص١٦٢» .
(٢)السيرة النبويّة ج١ ص٤٧ـ٤٩ ، المغازي للواقدي ج١ ص١٧٦ـ١٨٠ .

٢ ـ إجلاء بني النضير

قدم أبـو براء، عامـر بن مالـك على رسول الله المـدينة فعرض عليـه رسول الله الإسلام و دعـاه إليه، فلم يسلم و لـم يبعد من الإسـلام، و قال : يا محمّد لـو بعثت رجالاً مـن أصحابك إلى نجـد، فادعوهم إلـى أمرك رجوت أن يستجيبوا لـك، فقال رسول الله : إنّي أخشى عليهم أهل نجد، قال أبو بـراء : أنا لهم جار، فابعثهم فليدعوا الناس إلـى أمرك، فبعـث رسول الله المنـذر بن عمـرو في أربعيـن رجلاً[1] من خيـار المسلمين فساروا حتّى نزلـوا بئر معونة و هي بين أرض بني عامـر، و حرّة بني سليم، كلا البلدين منها قريب و هي إلى حرّة بني سليم أقرب.

فلمّا نزلـوها بعثوا ابن ملحام بكتاب رسـول الله إلى عامر بن الطفيـل، فلمّا أتاه لم ينظر في كتابه حتّى عدى على ا الرجل فقتله، ثمّ استصرخ عليهم بني عامر فأبوا أن يجيبوه إلى مـا دعاهم إليه، وقالـوا:لن نحفر[2] أبا بـراء لقد عقد لهم عقـداً و جواراً، فاستصرخ عليهم قبائل مـن بني سليم فأجابوه إلى ذلك، فخـرجوا حتّى غشوا القوم، فأحـاطوا بهم فـي رحالهـم، فلمّا رأوهم أخـذوا سيوفهم ثـمّ قاتلـوهم حتّى قتلـوا من عند آخرهم إلاّ كعب بن زيد فإنّهم تركوه وبه رمق، فرفع من بين القتلى فقدم المدينة.

و كان في مسيـر القوم عمرو بن أُميّـة الضمري و رجل من الأنصـار فلمّا اطّلعا على قتل إخـوانهم، قال عمرو بن أُميّـة : نخبر رسول الله، فقال الأنصـاري : ما كنت لأرغب بنفسي عن موطن قتل فيه المنذر بن عمرو، فقاتل القوم حتّى قتل و أُسر عمرو ابن أُميّة، و أطلقه عـامر بن الطفيل و جزّ ناصيتـه، فأقبل عمرو بن أُميّة إلـى المدينة

---

(١)أو سبعين رجلاً على ما في صحيح البخاري و مسلم.

(٢)أي لانقض عهده.

ولقي في مسيره رجلين من بني عامر و قد سألهما ممّن أنتما؟ فقالا: من بني عامر فأمهلهما حتّى إذا ناما، عدى عليهما فقتلهما و هو يرى أنّه أصاب بهما الثأر من بني عامر، فيما أصابوا من أصحاب رسول الله، فلمّا قدم عمرو بن أُميّة على رسول الله فأخبره الخبر، قال رسول الله: لقد قتلت قتيلين لأُدِينهما[1].

خرج رسول الله إلى بني النضير يستعينهم في ديّة ذينك القتيلين من «بني عامر» اللذين قتلهما عمرو بن أُميّة الضمري، فكان بين بني النضير و بين بني عامر عقد وحلف، فلمّا أتاهم رسول الله يستعينهم في أداء الديّة، قالوا: نعم يا أبا القاسم نعينك على ما أجبت ممّا استعنت بنا عليه، ثمّ خلا بعضهم ببعض فقالوا: إنّكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه، و رسول الله إلى جنب جدار من بيوتهم قاعد، فمن رجل يعلو على هذا البيت فيلقي عليه صخرة فيرحنا منه؟ فانتبذ لذلك عمرو بن جحاش بن كعب فصعد ليلقي عليه صخرة و رسول الله في نفر من أصحابه.

فأتى الخبر من السماء بما أراد القوم، فقام و خرج إلى المدينة «و كأنّه يريد أن يقضي حاجة و ترك أصحابه في مجلسهم»[2] فلمّا استلبث النبيّ أصحابه قاموا في طلبه فلقوا رجلاً مقبلاً من المدينة فسألوه عنه، فقال: رأيته داخلاً المدينة، فأقبل أصحاب رسول الله حتّى انتهوا إليه فأخبرهم الخبر بما أراد اليهود من الغدر إليه، و أمر رسول الله بالتهيّؤ لحربهم، و السير إليهم، و استعمل على المدينة ابن أُمّ مكتوم فتحصّنوا في الحصون.

و قد بعث عبد الله بن أُبي بعض أصحابه إلى بني النضير، فقال لهم: إثبتوا وتمنّعوا فإنّا لن نسلّمكم، إن قوتلتم قاتلنا معكم، و إن أُخرجتم خرجنا معكم،

---

(١) أي لأدفع ديّتهما، و وجهه: إنّ القتل وقع بقبيلة بني سليم لابني عامر، فإنّهم و إن لم يدافعوا عن المسلمين و خذلوهم، و لكنّهم لم يشتركوا في مقاتلتهم، فكان قتل هذين الرجلين بلاظلامة اقترفاها، و هذا إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ على أنّ الرسول كان يقوم بالعدل ولايأخذه في ذلك شيء من الأهواء.

(٢) ما بين القوسين ممّا رواه الواقدي.

فتربّصوا ذلك من نصرهم، و لم يكن وعده إلاّ خداعاً، و في ذلك نزل الوحي:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَ لاَنُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَداً وَ إِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَ اللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * لَئِنْ أُخْرِجُوا لاَيَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَ لَئِنْ قُوتِلُوا لاَيَنْصُرُونَهُمْ وَ لَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الأَدْبَارَ ثُمَّ لاَيُنْصَرُونَ * لأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللهِ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَيَفْقَهُونَ * لاَيُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلاَّ فِي قُرىً مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَ قُلُوبُهُمْ شَتَّى ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَيَعْقِلُونَ * كَمَثَلِ الَّذِينَ قَبْلِهِمْ قَرِيباً ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(الحشر/ ١١ـ١٥) ففي هذه الآيات ملاحم و تنبّؤات غيبية كشف عنها الوحي. و إليك الإشارة إليها:

١ ــ إنّ اليهود لعلاقتهم الشديدة بالحياة لايجرأون على مقاتلتكم خارج حصونهم، و إنّما يقاتلونكم متمنّعين بحصونهم، و يكتفون في ذلك برشقهم بالحجارة و نحوها، كما أشار إليه قوله: **﴿لاَيُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلاَّ فِي قُرىً مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ﴾**.

٢ ـ يستأسدون عند الإجتماع ببعضهم البعض و لكنّهم عند لقاء المسلمين ينتابهم الخوف و الرعب و الهلع، و يستفاد ذلك من ضم الآيتين أعني قوله: **﴿بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾** إلى قوله: **﴿لأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللهِ﴾**.

٣ ـ إنّهم يتظاهرون بوحدة الكلمة، و لكنّها وحدة شكلية صورية و قلوبهم شتّى، و إليه يشير قوله سبحانه: **﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَ قُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾**.

ثمّ إنّ الذكر الحكيم يصفهم بأنّهم قوم لايعقلون و لايتّخذون العبرة ممّا لاقاه بنو قينقاع، و إليه يشير قوله: **﴿كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيباً ذَاقُوا وَ بَالَ أَمْرِهِمْ﴾**.

ثمّ إنّ الملاحم الواردة فيما سبق من الآيات لاتنحصر بذلك بل تنبأت بأنّ وعد النصر من جانب المنافقين وعد خاوٍ و مكذوب لايفون به، و إليه يشير قوله سبحانه:
﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا لاَيَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَ لَئِنْ قُوتِلُوا لاَيَنْصُرُونَهُمْ وَ لَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الأَدْبَارَ ثُمَّ لاَيُنْصَرُونَ﴾.

و قد تنبّأ القرآن بكل ما ذكرنا قبل وقوع النصر و غلبة المسلمين عليهم.

روى البيهقي: إنّ النبيّ مضى لأمر الله تعالى فأمر أصحابه فأخذوا السلاح، ثمّ مضى إليهم و تحصّنت اليهود في دورهم و حصونهم، فلمّا إنتهى رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) إلى أزقّتهم و حصونهم فأمر بالأدنى فالأدنى من دورهم أن تهدم، و بالنخل أن تحرق و تقطع، و كفّ الله تعالى أيديهم و أيدي المنافقين فلم ينصرونهم، و ألقى الله عزّو جلّ في قلوب الفريقين الرعب[1].

لم يكن عمل النبي(صلّى الله عليه و آله و سلّم) في هذا المجال إلاّ إيجاداً للرعب في قلوب الكافرين و التعجيل في استسلامهم، فإنّ اليهود ما زالوا و لن يزالوا عالقين بالمال و الثروة، و يحبّونهما كحب الأنفس و الأولاد، فلم يكن للنبيّ إلاّ الإضرار ببعض أموالهم و ثرواتهم لتلك الغاية، و الشاهد على ذلك أنّ النبيّ لم يقطع إلاّ بعض النخيل،قوله تعالى: **﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللهِ وَ لِيُخْزِيَ الفَاسِقِينَ﴾**(الحشر/ ٥)، و أمّا الدور التي هدمها النبي فكانت عبارة عن الدور الواقعة خارج الحصن بشهادة أنّهم هدموا دورهم بأيديهم عند مغادرة المدينة، يقول سبحانه: **﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَ أَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِى الأَبْصَارِ﴾**(الحشر/ ٢).

فهذا العمل العسكري من النبي و أصحابه كان عملاً تكتيكيّاً لغاية قصوى، و هو الاستيلاء عليهم بلا إراقة الدم من الجانبين، و لولا ذلك ربّما طال الحصار و كان من المتوقّع تحقّق الاشتباك الدموي بين الطرفين. فلما رأوا أنّ النبيّ مصمّم على الاستيلاء عليهم، سألوه أن يجليهم و يكف عن دماءهم على أنّ لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلاّ السلاح، فقبل النبيّ، فاحتملوا من أموالهم ما استقالت به الإبل، فكان الرجل منهم يهدم بيته عن نجاف[2] بابه، فيضعه على ظهر بعيره

---

(١)دلائل النبوّة ج٣ ص١٨١، و المغازي للواقدي، ج١ ص٣٧٤، و السيرة النبويّة لابن هشام ج٢ ص١٩١.

(٢)نجاف ـ على وزن كتاب ـ: العتبة التي على الباب.

فينطلق به، فخرجوا من المدينة إلى خيبر و بعضهم صار إلى الشام.

و من الذين صاروا إلى خيبر سلاَّم بن أبي الحقيق و كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق و حُيي بن الأخطب.

و العجب انّهم خرجوا بنسائهم و أبنائهم و أموالهم و معهم الدفوف و المزامير و القيان يعزفن خلفهم، و ماهذا إلاّ لأجل إلقاء الستار على خذلانهم فكأنّهم أرادوا بالخروج بهذه الكيفية أنّهم ليسوا بمغلوبين ولامحزونين، وإنّما يخرجون مع النشاط والسرور لأنّهم ينتقلون إلى أمكنة خصبة بالعطف والحنان[1].

و أمّا الأراضي التي تركوها فجعلها سبحانه نفلاً لرسول الله و لم يجعل فيها سهماً لأحد غيره، قال سبحانه: ﴿**وَمَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ**[2] **عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَ لاَرِكَابٍ وَ لكِنَّ اللهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ القُرَى فَلِلّهِ وَ لِلرَّسُولِ وَ لِذِي القُرْبَى وَ اليَتَامَى وَ المَسَاكِينِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لاَيَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَ مَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَ مَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَ اتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ العِقَابِ * لِلْفُقَرَاءِ المُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَ أَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَ رِضْوَاناً وَ يَنْصُرُونَ اللهَ وَ رَسُولَهُ أُولئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ**﴾(الحشر/ ٦ـ٨).

فالآيات الكريمة تحدّد مواضع صرف الأموال التي أفاء الله على رسوله، فذكر مصارفها المتعدّدة فيها، و لكنّ النبيّ حسب ما ورد في السيرة قسّمها على المهاجرين الأوّلين دون الأنصار إلاّ سهل بن حنيف و أبا دجانة الأنصاري ـ سماك بن حرشة ـ ذَكرا فَقْراً فأعطاهما رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم).

و لم يسلم من بني النضير إلاّ رجلان. أسلما على أموالهما فأحرزاها.

---

(١)قال الواقدي: و مرّوا يضربون بالدفوف، و يزمّرون بالمزامير... مظهرين ذلك تجلّداً.المغازي للواقدي ج١ ص٣٧٥.

(٢)فما أوجفتم: أي ما حرّكتم و أتعبتم في السير، قال سبحانه: ﴿**قُلُوب يَوْمَئِذٍ وَاجِفَة**﴾.

و قد نزلت سورة الحشر في هذه القصة و الله سبحانه يمنّ على المؤمنين، بأنّه سبحانه سلّطهم على الكافرين عن طريق إيجـاد الرعب في قلوبهم، كما يبيّن بأنّهم جوزوا بسوء أعمالهم، قال سبحانه:

﴿هُوَ الَّذِى أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ الحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللهِ فَأَتَاهُمُ اللهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَ قَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَ أَيْدِى المُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِى الأَبْصَارِ * وَ لَوْلاَ أَنْ كَتَبَ اللهُ عَلَيْهِمُ الجَلاَءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى الدُّنْيَا وَ لَهُمْ فِى الآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ * ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللهَ وَ رَسُولَهُ وَ مَنْ يُشَاقِّ اللهَ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ العِقَابِ﴾(الحشر/ ٢ـ٤).

و بإجلائهم لم تبق في المدينة طـائفة من اليهود، إلاّ قبيلة بني قريظة، و كان النبي يحترم عهودهم ماداموا حافظين عليها. و لمّا ظهرت منهم بـادرة النقض، أخذهم النبيّ أخذ عزيز مقتدر، كما سيبيّن في الفصل القادم.

٣ ـ إبادة بني قريظة

لقد أجلى النبيّ الأكـرم قبيلتي بني قينقاع، و بني النضير، و جزاهـم بأعمالهم الإجراميـة، و كانت فكـرة تأليب العـرب على النبـي و المسلمين فكرة اختمـرت في نفوس رؤساء بني النضير، و قبلهم بني قينقاع، نظـراء حيي بن أخطب و سلاّم بن أبي الحقيق و كنانة بن الـربيع بن أبي حقيق، الذين نزلوا حصـن خيبر، فأرادوا درك ثأرهـم من المسلمين بتأليب الأحزاب عليهم، فقدموا إلى قريش، و دعوهم إلى حرب رسول الله و قالوا: إنّـا سنكون معكم عليه، حتّـى نستأصله، و قدسـألتهم قريش و قـالوا:يا معشر يهود: إنّكم أهل الكتـاب الأوّل، و أهل العلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن و محمد. أفديننا خير أم دينه؟ قالوا: بل دينكم خير من دينه، وأنتم أولى بالحقّ منه[1].

و لم يكتف زعماء بني النضيـر بتأليب قريش على النبي الأكرم بـل خرجوا إلى غطفان و كلّ من له عند المسلمين ثأر، حرّضـوهم على الأخذ بثأرهم، و يذكرون لهم متابعة قريش إيّـاهم على حرب محمد، فاتّفقوا على الخـروج و الحضور في المدينة في يوم واحد، و أحاطوا المدينة رجالاً و ركبـاناً و قد بلغ عددهم عشرة آلاف، و كان قد بلغ النبـي مؤامرتهم فضرب الخندق علـى المدينة حتّى يكون كالحصـن لها حائلاً بينه و بينهم، و قد طـال الحصار على المدينة قرابة شهر، و وقـع هناك اشتباك بينهم و بين العدوّ على وجه سنذكره في مغازي النبيّ(صلّى الله عليه و آله و سلّم).

و قد أدركت الأحزاب المـؤلّفة من قريش و غطفان و يهـود خيبر و على رأسهم حيي بن أخطب أنّ الانتصار على محمد أمـر غير ميسور، مادام الخندق يحول بينه و

(١)قد مرّ نقل هذا الخطأ الفاحش في مناظرات النبيّ مع اليهود، فلاحظ.

بين العدوّ، و قـد وضع المسلمون الأحجار إلى جـانب الخندق، يرمـون بها من أراد العبور، فعند ذلك قام حيي بن أخطب بمؤامـرة أُخرى و هو فتح الطريق لدخول يثرب من نـاحية أُخرى، و هـو إقناع بني قـريظة(الطـائفة الوحيـدة المتبقّاة من اليهـود في المدينة) على رفض عهدها مع محمد، و انضمامها إلى الأحزاب، فاجتمع مع أكابر الأحزاب، و قال: إنّه مقنـع بني قريظة بنقض عهد مـوادعتهم محمداً و المسلمين، حتّـى يقطعوا بـذلك المـدد و الميـر عنه، و يفتحـوا الطـريق لاجتيـاز الأحزاب مـن حصونهم إلى داخل المدينة، و لمّا سمعت ذلـك قريش و قبائل غطفان فرحوا بذلك و زعموا أنّ هذه الخطوة سوف تكون ناجحـة، و أنّها مفتاح الإنتصار، فخرج حيي بن أخطب حتّى أتـى كعب بن أسد القرظي صـاحب عقد بني قريظة و عهـدهم، و لمّا سمع كعب بحيي بن أخطب، أغلق دونه باب حصنه، فاستأذن عليه، فأبى أن يفتح له فنـاداه حينئذٍ: و يحـك يا كعـب، إفتح لـي. قال: و يحـك يا حيـي إنّك رجـل مشؤوم، و إنّي قد عاهدت محمداً و لست بناقض ما بيني و بينه، و لم أر منه إلاّ وفاءً و صدقاً. قال: ويحك إفتح لي أُكلّمك. قال: ما أنا بفاعل. قال: و الله إن أغلقت دوني إلاّ خـوفاً عـن جشيشتك أن آكـل معك منهـا، فعندئذٍ غضـب كعب ففتـح له فقال: و يحك يا كعب جئتك بعـزّ الدهر و بحر طامّ[1]، جئتك بقريش على قادتها وسادتها، قـد عاهدوني و عـاقدوني على أن لايبـرحوا حتّى يستأصلـوا محمداً و من معه. قال: فقال له كعب: جئتني و الله بذلّ الدهـر، و يحك يا حيي! فدعني وما أنا عليه، فإنّي لم أر مـن محمّد إلاّ صدقاً و وفاءً. فلم يزل حيي بكعـب يفتله في الذروة والغارب حتّى سمـع له، على أن أعطاه عهداً(مـن الله) و ميثاقاً: لئن رجعـت قريش وغطفان، ولم يصيبوا محمّداً أن يدخل معه في حصنه حتّى يصيبه ما أصابه، فنقض كعب بن أسد عهده، وبرئ ممّا كان بينه وبين رسول الله(صلّى الله عليه وآله وسلّم).

و قد بلـغ المسلمين نبأ انضمام قـريظة إلى الأحـزاب، فاهتزّوا و خافـوا مغبّته فبعث رسول الله سعد بن معاذ، و هو سيد الأوس و سعد بن عبادة و هو سيد الخزرج و معهما لفيـف من المسلمين، فقـال: إنطلقوا حتّى تنظروا أحـقٌّ ما بلغنا عـن هؤلاء

---

(١)يشير إلى الأحزاب المؤلّفة.

القوم أم لا؟ فإن كان حقاً فألحنوا لي لحناً[1] أعرفه، و لاتفتّوا في أعضاد الناس، وإن كانوا غير ناقضين فأجهروا به للناس، قال:فخرجوا حتى أتوهم، فوجدوهم على أخبث ما بلغهم عنهم فيما نالوا من رسول الله و قالوا: مَن رسول الله؟ لاعهد بيننا وبين محمد و لاعقد، فشاتمهم سعد بن معاذ و شاتموه، و كان رجلاً فيه حدّة، فقال له سعد بن عبادة: دع عنك مشاتمتهم فما بيننا و بينهم أعظم من المشاتمة، فأقبلا إلى رسول الله فسلّموا عليه، و قالوا: «عضل و القارة» أي غدروا كغدر عضل و القارة، و أصحاب الرجيع، فقال رسول الله: الله أكبر! أبشروا يا معشر المسلمين. و عظم عند ذلك البلاء و اشتدّ الخوف و ذلك لأنّهم لو قطعوا المير و المدد وفتحوا الطريق للأحزاب، لدخلوا المدينة و استأصلوا أهلها، فما مضى وقت حتّى بدت بوادر النقض فقطعوا المدد و الميرة عن المسلمين، و خرجوا يطيفون في أزقّة المدينة، يخوّفون النساء و الصبيان. قالت صفيّة ـ و كانت في حصن «حسّان» ـ :مرّ بنا رجل من اليهود فجعل يطيف بالحصن، فقلت: يا حسّان! إنّ هذا اليهودي كما ترى يطيف بالحصن وإنّي و الله ما آمنه أن يدلّ على عورتنا مَنْ وراءنا من يهود، و قد شغل عنّا رسول الله و أصحابهم، فانزل إليه فاقتله. قال: يغفر الله لك يا ابنة عبد المطلب! و الله لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا! قالت: فلمّا قال لي ذلك، و لم أر عنده شيئاً احتجزت[2] ثمّ أخذت عموداً ثمّ نزلت من الحصن إليه، فضربته بالعمود، حتّى قتلته. قالت: فلمّا فرغت منه، رجعت إلى الحصن[3].

ثمّ إنّه سبحانه سلّط على الأحزاب البرد و الريح الشديدة، و فرّق كلمتهم على وجه سيوافيك تفصيله، و تفرّقوا و جلوا عن جوانب المدينة و رجعوا إلى أوطانهم من دون أن ينالوا من المسلمين شيئاً. و لم يكن عود الأحزاب بعد فصل الشتاء أمراً غير بعيد في نظر النبي(صلّى الله عليه و آله و سلّم) و بنو قريظة هم الأعداء الغدرة، و من الممكن أن يتكرّر التاريخ و يقع المسلمون في مغبّته، و بينما كان النبيّ يفكر في

---

(١)أي تكلّموا بالإشارة و التعريض، و لاتوهنوا عزائم المسلمين.

(٢)شددت معجري.

(٣)السيرة النبويّة لابن هشام، ج٢ ص٢٢٨.

ذلك و قد صلّى الظهر، جاء جبرئيل و قال: إنّ الله عزّ و جلّ يأمرك بالمسير إلى بني قريظة، فأمر رسول الله مؤذّناً فأذّن في الناس من كان سامعاً مطيعاً فلايصلّين إلاّ ببني قريظة[1] و لبس رسول الله السلاح و المغفر و الدرع و البيضة و أخذ قناتاً بيده، و تقلّد الترس، و ركب فرسه، و حفّ به أصحابه، و تلبّسوا السلاح و ركبوا الخيل، و كانت ستّة و ثلاثين فرساً، و كان رسول الله قد قاد فرسين و ركب واحداً، و انتهى رسول الله إلى بني قريظة، فنزل على أسفل حرّة بني قريظة، و كان عليّ (عليه السلام) قد سبق في نفر من المهاجرين و الأنصار، فيهم أبو قتادة، و طلع رسول الله، فلّما رأى رسول الله عليّاً أمره بأخذ اللواء و كره أن يسمع رسول الله أذاهم و شتمهم، فتقدّمه أسيد بن حضير، قال: فقال: يا أعداء الله لانبرح حصنكم حتّى تموتوا جوعاً. قال: يا بن الحضير نحن مواليكم دون الخزرج. قال: لا عهد بيني و بينكم و دنا رسول الله، فقال (صلّى الله عليه و آله و سلّم): يا إخوة القردة و الخنازير و عبدة الطواغيت أتشتموني؟ قال : فجعلوا يحلفون بالتوراة التي أُنزلت على موسى ما فعلنا و قالوا: نكلّمك، فقال رسول الله (صلّى الله عليه و آله و سلّم): نعم.فأنزلوا نباش بن قيس، و قالوا: يا محمّد ننزل على ما نزلت عليه بنو النضير. لك الأموال و الحلقة وتحقن دمائنا و نخرج من بلادكم بالنساء و الذراري و لنا ما حملت الإبل إلاّ الحلقة فأبى رسول الله و قال: لا إلاّ أن تنزلوا على حكمي. فرجع نباش إلى أصحابه بمقالة رسول الله و لمّا وقف القوم على عزم رسول الله بنزولهم على حكمه، عقدوا مجلساً للمشاورة إشترك فيهاأكابر القوم، فاقترح كعب بن أسد عليهم عدّة اقتراحات، يعرب بعضها عن ضآلة تفكيره و يدلّ البعض الآخر على قسوته، و إليك تلك الاقتراحات:

١ ـ الإيمان بما جاء به محمّد ﷺ

يا معشر بني قريظة إنّكم لتعلمون أنّ محمداً نبي الله و ما منعنا من الدخول معه إلاّ الحسد بالعرب، و لقد كنت كارهاً لنقض العقد و العهد، و لكنّ البلاء و شؤم

---

(١) قال الواقدي: صار إليهم النبيّ لسبع بقين من ذي القعدة، فحاصرهم خمسة عشر يوماً، ثمّ انصرف يوم الخميس لسبع خلون من ذي الحجة سنة خمس.

هذا الجالس[1] علينا و على قومه ... فتعالوا نصدّقه و نؤمن به، فنأمن على دمائنا و أبنائنا و نسائنا و أموالنا فنكون بمنزلة من معه، قالوا:لانكون تبعاً لغيرنا، نحن أهل الكتاب و النبوّة. فجعل كعب يردّ عليهم الكلام بالنصيحة لهم. قالوا: لانفارق التوراة و لاندع ما كنّا عليه من أمر موسى.

٢ ـ قتل النساء و الأولاد

إذا كنتم كارهين للإيمان بمحمّد(صلّى الله عليه و آله و سلّم) فهلمّوا نقتل أبناءنا و نساءنا ثمّ نخرج و في أيدينا السيوف إلى محمّد و أصحابه، فإن قتلنا قتلنا، و ماوراءنا أمر نهتم به، و إن ظهرنا لنتّخذنّ النساء و الأبناء.

فصاح حيّي بن أخطب و قال: ما ذنب هؤلاء المساكين؟ و قالت رؤساء اليهود: ما في العيش خير بعد هؤلاء.

٣ ـ الخروج على أصحاب محمّد ليلة السبت

إنّ محمّداً و أصحابه آمنين لنا فيها أن نقاتله، فنخرج فلعلّنا أن نصيب منه غرّة قالوا:نفسد سبتنا و قد عرفت ما أصابنا فيه. قال حيّي: قد دعوتك إلى هذا و قريش وغطفان حضور فأبيت أن تكسر السبت فإن أطاعتني اليهود فعلوا. فصاحت اليهود: لانكسر السبت. قال نبّاش بن قيس:و كيف نصيب منهم غرّة و أنت ترى أنّ أمرهم كل يوم يشتدّ كانوا أوّل ما يحاصروننا إنّما يقاتلون بالنّهار و يرجعون بالليل، فهم الآن يبيتون الليل و يظلّون النهار، فأي غرّة نصيب منهم؟ هي ملحمة و بلاء كتب علينا، فاختلفوا و سقط في أيديهم و ندموا على ما صنعوا ورقّوا على النساء و الصبيان و كنّ يبكين.

وعندئذٍ قال ثعلبة وأسيد إبنا سعيد وأسد بن عبيد عمّهم: يا معشر بني قريظة!

و الله إنّكم لتعلمون أنّه رسول الله، و أنّ صفته عندنا، حدّثنا بها علماؤنا

---

(١)يعني حيّي بن أخطب وقد وفى بعهده، بعد تفرّق الأحزاب، فدخل حصن بني قريظة ليشترك معهم في المصير.

وعلماء بني النضير، . هذا أوّلهم يعني حيّي بـن أخطب مع جبير بن الهيّبان. أصدق الناس عندنا و هو خبّرنا بصفته عند موته. قالوا: لانفارق التوراة، فلمّا رآى هؤلاء النفر إباءهم، نزلوا فـي الليلة التي في صبحها نزلت قريظة، فـأمّنوا على أنفسهم و أهلهم و أموالهم.

اقتراح رابع

و اقترح عمرو بـن سعد و قال: يا معشر اليهـود إنّكم حالفتم محمـداً على ما حالفتموه عليـه، أن لاتنصروا عليه أحداً مـن عدوّه و أن تنصروه ممّن دهمـه فنقضتم ذلك العهد الذي كان بينكم و بينه فلم أدخل فيه و لم أشرككم في عذركم، فإن أبيتم أن تدخلوا معـه، فاثبتوا على اليهوديّـة و أعطوا الجزية، فـو الله ما أدري يقبلها أم لا؟ قالوا: نحن لانقرّ للعرب بخرج في رقابنا يأخذوننا به، القتل خير من ذلك.

و لمّا طال الحصار و أذعنـت بنو قريظة أنّ النبيّ الأكرم لايتـركهم إلاّ أن ينزلوا على حكمـه، بعثوا إلى رسول الله حتّـى يبعث إليهم أبا لبـابة بن عبد المنـذر، و كان حليف الأوس ليستشيروه فـي أمرهم، فأرسلـه رسول الله فلمّا رأوه قام إليـه الرجال، و بكت النسـاء و الصبيان، فـرقّ لهم، و قالـوا: يا أبـا لبابة أتـرى أن ننزل علـى حكم محمّد؟ فأشار بيده إلى حلقه، يعني أنّه الذبح.

ثمّ نـدم أبو لبابـة من إذاعة سرّ رسـول الله، قال: فو الله مـا زالت قدمـاي من مكانهمـا حتّى عـرفت أنّي قـد خنت الله و رسـوله، ثـمّ انطلق أبو لبـابة علـى وجهه ولم يـأت رسول الله حتّـى ارتبط فـي المسجد إلـى عمود مـن عمده و قـال: لا أبرح مكاني هذا حتّـى يتوب الله عليّ ممّا صنعت، و عاهد الله:أن لاأطأ بنـي قريظة أبـداً و لاأرى في بلد خنـت الله و رسوله فيه أبـداً، و في ذلك نزل قـوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَتَخُونُوا اللهَ وَ الرَّسُولَ وَ تَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾(الأنفال/ ٢٧).

فمكث سبعة أيّام لايذوق فيها طعاماً و لاشـراباً حتّى خرّ مغشياً عليه، ثمّ تاب الله عليه، فقيل:له يا أبا لبابة قد تيب عليك، فقال: لا والله لا أحلّ نفسي حتّى يكون رسول الله هو الذي يحلّني، فجاءه فحلّه بيده، ثمّ قال أبو لبابة: إنّ من تمام توبتي أن

أهجر دار قومي التي أصبت فيها الذنب و أن أنخلع من مالي، فقال النبيّ: يجزيك السدس أن تصدّق به.

و قد نزل أيضاً في توبته قوله سبحانه: **﴿ وَ آخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَ آخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾**(التوبة/ ١٠٢)[١].

فلمّا أصبحوا، نزلوا على حكم رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) فتواثبت الأوس، فقالوا: يا رسول الله و قد فعلت في موالي إخواننا بالأمس ما قد علمت(يريدون بني قينقاع ـ و كانوا حلفاء الخزرج ـ فسأله إيّاهم عبد الله بن أُبي، فوهبهم له) قال رسول الله: ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم؟ قالوا: نعم. قال رسول الله: فذلك إلى سعد بن معاذ، فلمّا حكّمه رسول الله أتاه قومه إلى رسول الله، فلمّا إنتهى سعد إلى رسول الله قال ـ يخاطب الأوسيين ـ: قوموا إلى سيّدكم، قالت الأوس ـ الذين بقوا عند رسول الله ـ: يا أبا عمرو! إنّ رسول الله قد ولاّك الحكم، فأحسن فيهم و اذكر بلاءهم عندك، فقال سعد بن معاذ: أترضون بحكمي لبني قريظة؟ قالوا: نعم، قد رضينا بحكمك و أنت غائب عنّا، قال سعد: عليكم عهد الله و ميثاقه أنّ أحكم فيكم ما حكمت. قالوا: نعم، قال سعد: فإنّي أحكم فيهم أن يقتل من جرت عليه الموسى، و تسبى النساء و الذريّة و تقسّم الأموال، و في نقل آخر: أحكم فيهم أن تقتل الرجال و تقسّم الأموال و تسبى الذراري و النساء، و رضي رسول الله بحكم سعد[٢].

و قال ابن هشام: إنّ بني قريظة طلبوا من النبيّ أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ، قال: إنّ علي بن أبي طالب صاح و هم محاصرو بني قريظة: يا كتيبة الإيمان! و تقدّم هو و الزبير بن العوّام، فقال: و الله لأذوقنّ ما ذاق حمزة أو لأفتحنّ حصنهم، فقالوا: يا محمّد ننزل على حكم سعد بن معاذ، و أُجري الحكم حسبما رأى سعد.

---

(١)السيرة النبويّة، لابن هشام، ج٢ ص٢٣٧، و المغازي للواقدي ج٢ ص٥٠٥ و مجمع البيان ج٤ ص٨٢٤.

(٢)المغازي للواقدي ج٢ ص٥١٢.

إنّ المستشرقين قد استغلّوا هذه الواقعة، فحاولوا أن يتّهموا قضاء سعد بن معاذ بالقسوة و الخروج عن العدل، و لكنّهم نظروا إلى الواقعة بعين واحدة، فنظروا إلى ما حاق ببني قريظة من الذلّ و الخزي، و قد أحاطت بهم نساؤهم و أطفالهم بالبكاء عليهم، فزعموا أنّ مقتضى العدل و الرحمة هو الإغماض عنهم، و عن جريمتهم، و لأجل دعم أنّ العدل و الحق كانا يقضيان بما قضى به سعد بن معاذ، نشير إلى دلالته:

لاشك أنّ عواطف سعد و أحاسيسه و مشاعره و مناظر الصبيان و نساء بني قريظة، و أوضاع رجالهم و ملاحظة الرأي العام(الأوسيين)، كان يثير الإشفاق لهم و الإغماض عن جريمتهم. كلّ هذه الإعتبارات كانت تقتضي أن تجعل القاضي فريسة العاطفة، و يبرّئ بني قريظة الجناة الخونة و أن يخفّف من عقوبتهم أكبر قدر ممكن، لكنّ منطق العقل و حرّية القاضي و استقلاله، و قبل كلّ شيء مراعاة المصالح العامّة، قاده إلى الحكم بقتل رجالهم الخونة و سبي نسائهم و أطفالهم، و لقد استند الحاكم في حكمه إلى الأُمور التالية:

١ ـ إنّ يهود بني قريظة كانوا قد تعهّدوا للنّبي ــ عند نزوله بالمدينة ــ بأنّهم لو تآمروا ضدّ الإسلام و المسلمين و ناصروا أعداء التوحيد و ألّبوهم على المسلمين، كان للنبيّ أن يقوم بقتلهم و سبي نسائهم، و إليك نقل هذه الإتفاقيّة: ... ألاّ يعينوا على رسول الله، و لا على أحد من أصحابه بلسان و لايد و لا بسلاح و لا بكراع في السرّ و العلانية لابليل و لابنهار. الله عليهم بذلك شهيد، فإن فعلوا فرسول الله في حلّ من سفك دماءهم، و سبي ذراريهم و نسائهم، و أخذ أموالهم[1].

إنّ النبيّ(صلّى الله عليه و آله و سلّم) كتب لكل قبيلة منهم كتاباً على حدة و كان الذي تولّى أمر بني النضير: حيي بن أخطب و هو الذي رغّب رئيس بني قريظة على نقض العهد و رفضه، كما أنّ الذي تولّى أمر بني قريظة هو كعب بن أسد،

---

(١) بحار الأنوار ج١٩ ص١١١، و نقله الصدوق في كمال الدين، و أخرجه علي بن إبراهيم القمي في تفسيره.

الذي نقض عهد النبي و سبّه بمحضر من أصحابه من سعدين و غيرهما.

فلو حكم سعد بن معاذ على قتل رجالهـم و سبي نسائهم فإنّما استند إلى هذه الاتفاقية التي تولّى أمرها رؤساؤهم و أكابرهم، فلو كان سعد حاكماً بغير ما ورد فيها، فقد بخس حق المسلميـن و ظلمهم، فالعدل في القضاءكـان يقتضي عدم الخضوع لحكم العاطفة.

٢ ـ ارتكبـت بنو قريظـة جريمة عظيمـة في ظـروف حرجة عنـدما لم يبـق بين المسلمين، و إبادتهم و استئصالهم و استيـلاء الأحزاب عليهم و نسفهم من رأس إلاّ خطوة أو خطوتان لولا أنّ الله بدّد شمل الكفّـار، و سخّر عليهم الرياح و البرد، و فرّق كلمتهم، و نشر فيهم سوء الظن بحلفائهم.

هذا ما قد كان، و لكنّ التاريخ يمكن أن يعيد نفسه و يرجع الأحزاب في العام القابـل أو بعد برهـة من الـزمن مستمدّيـن في استيلائهـم من هـذا الطابور الخـامس المتواجد بين المسلمين، و لم يكن ذلك الاحتمال أمراً بعيداً في نظر القاضي بل أمراً قريباً جدّاً، فلو كـان حكم عليهم بالعفو لخان بمصالح المسلميـن العامّة و جعلهم في دائرة الخطر.

إنّ بني قريظة قد جسّدوا العداوة بين اليهود و المسلمين و أثبتوا أنّ بني إسرائيل لاتطيب نفوسهم إلاّ باستئصال المسلمين، فلو عادت الأحزاب إلى المدينة من جديد لعادوا إلـى مشاركـة العرب و قـريش فـي حربهـم ضدّ النبـي(صلّى الله عليـه و آله و سلّم)، أفهل يمكن للقاضي العادل أن ينظر إلى هذا الاحتمال بعين التساهل؟!

٣ ـ من المحتمل جداً أنّ سعد بن معـاذ رئيس قبيلة الأوس الموالين ليهود بني قريظة كان واقفاً على قانون العقوبات لدى اليهود. فإنّ التوراة تنصّ على ما يلي:

«حين تقرب مـن مدينة لكي تحاربها إستـدعها إلى الصلح. فإن أجـابتك إلى الصلح و فتحت لك فكل الشعب الموجود فيها، يكون لك للتسخير و يستعبد لك،

و إن لم تسالمك بل عملت معك حرباً فحاصرها ، و إذا دفعها الربّ إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحدّ السيف ، و أمّا النساء و الأطفال و البهائم و كلّ ما في المدينة كلّ غنيمتها فتغتنمها لنفسك»[1].

۴ ـ و الذي نتصوّره أنّ أكبر أسباب هذا الحكم هو أنّ سعد بن معاذ رأى بأُمّ عينيه أنّ رسول الله عفا عن بني قينقاع و نزل على طلب الخزرجيين منه العفو منهم ، و اكتفى من عقابهم بإخراجهم من المدينة ، ولكنّ تلك الزمرة ما غادرت أراضي الإسلام حتّى بدأت بالمشاغبة و المؤامرة الدنيئة ضد الإسلام ، فذهب كعب بن الأشرف إلى مكّة و أخذ يتباكى دجلاً و خداعاً على قتلى بدر و لم يفتأ عن تأليب قريش ضد الرسول ، و كانت نتيجة تلك المؤامرة وقعة أُحد التي استشهد فيها أزيد من سبعين صحابيّاً من خيرة أبناء الإسلام .

هكذا عفا الرسول عن بني النضير المتآمرين و اكتفى من عقابهم بمجرّد الإجلاء ، و لكنّهم قابلوا هذا الموقف الإنساني بتأليب القبائل العربية ضد الإسلام ، حتّى أنّهم عقدوا إتّحاداً عسكريّاً فيما بينهم ، و كانت من أخطر المعارك على الإسلام لولا منّه سبحانه و حنكة رسوله و تضحيات أصحابه .

و قد أعطت هاتان الواقعتان للقاضي دروساً كافية ، فوقف على أنّ الإفراج عن بني قريظة ـ هذه الشرذمة الباغية و الطغمة الظالمة ـ سوف يثير على المسلمين ما كانوا يجتنبون عنه ، فسوف يقومون باتّحاد عسكري أوسع و يؤلّبون العرب على الإسلام .

و الذي يكشف عن إخلاص القاضي و نواياه الحسنة أنّ قومه الأوسيين كانوا مصرّين على العفو عن بني قريظة و الحنان لهم ، و كان الرئيس أحوج ما يكون إلى تأييد قومه ، و كانت مخالفتهم توجّه إليه أكبر ضربة ، و لكنّ القاضي الحر أدرك أنّ جميع هذه الشفاعات تخالف مصالح الآلاف من المسلمين ، فانطلق من منطق العقل و رفض رضا قومه فأخذ برضا الله .

(۱)التوراة ، سفر التثنية الفصل العشرون / ۱۰ـ۱۴ .

۴ ـ غزوة خيبر أو بؤرة الخطر:

كانت منطقة خيبر منطقة واسعة خصبة تقع على بعد ۱۷۶ كيلومتراً من المدينة و كانت تسكنها قبائل من اليهود مشتغلين فيها بالزراعة و جمع الثروة، و كانوا متسلّحين بأقوى الوسائل الدفاعيّة، حيث كان عدد نفوسهم يقارب عشرين ألف نسمة بينهم عدد كبير من الأبطال الشجعان[1].

إنّ النبي الأكرم قد أجلى بني قينقاع و بني النضير من المدينة، و أباد بني قريظة، و ظلّ السلام يخيّم على المدينة و أطرافها، غير أنّه كان بقرب المسلمين حصن حصين ليهود خيبر، و هم الذين شجّعوا جميع القبائل العربية على محاربة الحكومة الإسلامية و القضاء عليها، فلم يكن النبي(صلّى الله عليه و آله و سلّم) أن يضرب الصفح عنهم و لايفكّر فيهم، و هم الذين موّنوا جيش العرب بأموالهم، و ثرواتهم، و وعدوهم بثمار المدينة.

و بما أنّ النبي(صلّى الله عليه و آله و سلّم) قد عقد الصلح مع قريش في السنة السادسة من الهجرة و اطمئنّ من جانبهم، و بما أنّه راسل الملوك والسلاطين و دعاهم جميعاً إلى الإسلام، فلم يكن من المستبعد أن يستغلّ كسرى و قيصر يهود خيبر فيتعاونوا على القضاء على الإسلام.

و من هنا رأى النبيّ الأكرم(صلّى الله عليه و آله و سلّم) أن لايضيّع هذه الفرصة حيث انّ قريش صالحت رسول الله على أن لاتتعاون عليه، فقد فرغ باله من جانبهم، فلو دخل هو في محاربة اليهود، لما ساعدتهم قريش، و لكن كان من الممكن أن تقوم قبائل النجد بمساعدتهم، فخطّط رسول الله للإستتار، و فاجأهم على وجه لم يعلموا به حتّى وجدوا جيش المسلمين أمام حصونهم.

---

(۱)تاريخ الطبري، ج۲ ص۴۶، السيرة الحلبية ج۳ ص۳۶.

غادر رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) المدينة و أمر أن ينادى فيها بأنّه لايخرج معي إلاّ راغب في الجهاد، أمّا الغنيمة فلا، و استخلف فيها نميلة بن عبد الله الليثي، فأخذ يسير إلى شمال المدينة، و كان المسلمون يظنّون أنّه يريد غزو قبائل غطفان و فزارة الذين تعاونوا مع قريش في معركة الأحزاب، و لكنّه عندما وصل أرض الرجيع، عرّج بجيشه صوب خيبر، و بهذا قطع الطريق على أيّة إمدادات عسكرية من ناحية الشمال إلى خيبر، و حال بين قبائل غطفان و فزارة و يهود خيبر، فعلى الرّغم من أنّ الحصار إمتدّ على اليهود قرابة شهر لم تستطع القبائل المذكورة أن تمدّ حلفاءهم اليهود بأيّ شيء(١).

فلمّا نزل النبيّ(صلّى الله عليه و آله و سلّم) قرب خيبر مع ١٦٠٠ مقاتل والخيبريّون بين عشرين ألف نسمة، دعا بهذا الدعاء:

«اللّهم ربّ السموات و ما أظللن، و ربّ الأرضين و ما أقللن... نسألك خير هذه القرية وخير أهلها وخير ما فيها، ونعوذ بك من شرّها وشرّ أهلها وشرّ ما فيها»(٢).

و هذا الدعاء يكشف عن نوايا النبي و هو يدعو به أمام ١٦٠٠ من جنوده الشجعان الذين كان كل واحد منهم شعلة وهّاجة من الشوق إلى القتال في سبيل الله، و لكنّ هذا الدعاء أنار الهدف من هذا الغزو و أنّه يطلب خير هذه القرية و خير أهلها و خير ما فيها، ثمّ أمر بإحتلال المواقع و المواضع الحسّاسة ليلاً بحيث لم يقف واحد من الخيبريين، و لا القاطنين في أبراج حصونهم السبعة على قدوم المسلمين، و احتلالهم القلاع السبع، و صدّ الطريق على سائر القبائل، و لمّا طلع الشمس خرج الفلاّحون من الحصن مغادرين بيوتهم إلى مزارعهم و بساتينهم، ففوجئوا بجيش التوحيد، فرجعوا إلى حصونهم و هم يقولون: محمد و الجيش معه. فبادروا إلى إغلاق أبواب الحصون، ثمّ عقدوا اجتماعاً عسكرياً داخل حصنهم المركزي، فلمّا رأى رسول الله مساحي اليهود، إستغلّ تلك المنظرة فقال:

---

(١) السيرة النبويّة ج٢ ص٣٠٣.

(٢) الكامل لابن الأثير ج٢ ص١٤٧.

«الله أكبر خربت خيبر. إنّا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين».

و قد إتّخذت اللجنة العسكرية قراراً خاصاً، و هو أن يجعل الأطفال و النساء في واحد من الحصون، و يجعل الطعام و الذخيرة في حصن آخر، و يستقرّ المقاتلون على الأبراج و يدافعوا عن كل حصن بالأحجار، ثمّ يخرج الأبطال الصناديد من كلّ حصن و يقاتلون المسلمين خارجه.

كانت هذه خطّة اليهود الدفاعيّة لمواجهة جنود الإسلام، و قد أصرّوا على تنفيذها حتّى آخر لحظة، و بهذا التخطيط استطاعوا أن يقاوموا الجيش الإسلامي قرابة شهر كامل، إلى أن وفّق الله تبارك و تعالى المسلمين بفتح هذه القلاع واحدة بعد أُخرى.

فكان أوّل حصن افتتح حصن ناعم، ثمّ القموص(حصن بني أبي الحقيق) و هكذا سائر الحصون افتتحت واحد بعد الآخر.

ثمّ إنّ الآيات الواردة في هذه الواقعة على قسمين:

قسم نزل في صلح الحديبيّة، حيث إنّ النبي الأكرم صالح قريشاً، و كانت تلك المصالحة مرّة في مذاق بعض الأصحاب، فنزل الوحي بأنّهم سوف يصيبهم مغانم كثيرة يريد بها غنائم خيبر. قال سبحانه:

﴿وَ مغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَ كَانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً*وَعَدَكُمُ اللهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَ كَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَ لِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَ يَهْدِيَكُمْ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً*وَ أُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللهُ بِهَا وَ كَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً﴾(الفتح/ ١٩ـ٢١).

و هذه الآيات نزلت في قصّة الحديبيّة، و بذلك كسب النبي رضا بعض الصحابة الذين كانت تهمّهم الغنيمة و الفوز بالمال.

فإذا كان المراد من الآية: **﴿وَعَدَكُمُ اللهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾** هو غنائم خيبر يكون المراد من قوله: **﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾** هو قصّة الحديبيّة، فقد كان للمسلمين في

صلحها فوز عظيم، و إن لم يقف عليها السطحيون منهم، كما أنّ المراد من الناس في قوله: ﴿وَ كَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ﴾ هو قريش، و بذلك يعلم أنّ تفسير هاتين الجملتين بغزوة خيبر تفسير على وجه بعيد و إن اختاره أمين الإسلام في مجمعه.

و من أمعن النظر في سورة الفتح يرى أنّ الجميع على سبيكة واحدة فركّز على قصّة الحديبيّة و يعد الفوز بمغانم كثيرة و ليس هو إلاّ غزوة غنائم خيبر.

و قسم آخر نزل عند مغادرة النبي المدينة قاصداً إلى خيبر و هو قوله سبحانه:

﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللهِ قُل لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذٰلِكُمْ قَالَ اللهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلاً﴾ (الفتح/ ١٥).

قال الطبرسي:

« لمّا انصرف المسلمون عام الحديبيّة بالصلح وعدهم الله تعالى فتح خيبر و خصّ بغنائمها من شهد الحديبية دون من تخلّف عنها فلمّا انطلقوا إليها، قال هؤلاء المخلّفون: «ذرونا نتبعكم» يريدون بذلك تبديل كلام الله و مواعيده لأهل الحديبيّة بغنيمة خيبر خاصّة، فأرادوا بالمشاركة ابطال هذا النبأ، ثمّ قال سبحانه:

﴿قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذٰلِكُمْ قَالَ اللهُ مِنْ قَبْلُ ...﴾[1].

قصّة فدك و التصالح مع أهالي وادي القرىٰ

لمّا فرغ رسول الله من خيبر قذف الله الرعب في قلوب أهل «فدك» حين بلغهم ما أوقع الله تعالى بأهل خيبر، فبعثوا إلى رسول الله يصالحونه على النصف من فدك فقدمت عليه رسلهم بخيبر، فقبل ذلك منهم رسول الله، فكانت فدك لرسول الله (صلّى الله عليه و آله وسلّم) خالصة لأنّه لم يوجف عليها من خيل و لا ركاب[2].

---

(١) مجمع البيان ج٥ ص١١٤.

(٢) السيرة النبويّة لابن هشام ج٢ ص٣٥٣.

قال سبحانه: ﴿وَ مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(الحشر/ ٦).

كانت فدك منطقة خصبة كثيرة الخير قرب خيبر و هي تقع في وادي القرى، فقد شاء الله تبارك و تعالى أن تكون ملكاً مطلقاً للرسول الأكرم يصرفه في مصالح الإسلام و المسلمين حسبما يشاء، و من ثمّ وهب رسول الله فدكاً لابنته الطاهرة و ذلك بعد ما نزل قوله سبحانه:

﴿وَ آتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَاتُبَذِّرْ تَبْذِيراً﴾(الإسراء/ ٢٦).

و أكّد المفسّرون من الشيعة و السنّة على أنّها نزلت في أقرباء رسول الله و بالأخص ابنته الزهراء(عليها السلام) فإنّها كانت أقوى مصاديق «ذى القربى» و كان المسلمون يعرفونها بأنّها هي المراد من الآية.

يقول السيوطي:

«كان علي بن الحسين السجّاد(عليه السلام) في الشام بعد واقعة كربلاء فسأله بعض الشاميين عن نسبه، فتلى علي بن الحسين(عليه السلام) تلك الآية للتعريف عن نفسه، فقال الشامي متعجّباً: و إنّكم القرابة التي أمر الله أن يعطى حقّها»؟![1].

نعم اختلفوا في أنّ النبي وهب ساعة نزول الآية فدكاً لابنته فاطمة أو لا؟ فالشيعة على الأوّل و وافقهم جمع من السنّة، و إن خالف بعضهم الآخر.

و لمّا أراد المأمون العباسي إعادة فدك إلى بني الزهراء كتب إلى المحدّث المعروف عبد الله بن موسى و طلب منه أن يرشده في هذا الأمر، فوافاه الجواب بالإيجاب، فأعاد المأمون فدكاً إلى أبناء الزهراء و ذرّيتها[2].

---

(١) الدر المنثور ج٤ ص١٧٦، مجمع البيان ج٣ ص٤١١.
(٢) مجمع البيان ج٣ ص٤١١، و فتوح البلدان ص٤٦.

و قد جلس المأمـون ذات يوم على كرسي خاصّ للإستماع إلـى مظالم الناس و شكاياتهم، فكانت أوّل ما أُعطي له رسالة وصـف صاحبها نفسه فيها بأنّه يدافع عن الزهراء، فقرأ المـأمون الرسالة و بكى مـدّة، ثم قال: من هذا المحامـي عن الزهراء، فقام شيـخ كبير و قال: أنا هو ذا، فانقلب مجلس المـأمون من مجلس القضـاء إلى مجلس الحوار بينه وبين ذلك الشيخ و وجد نفسه محجوجاً لأدلّة الشيخ، فأمر رئيس ديوانه بالكتـابة إلى عامله أن يردّ فدك إلـى أبناء الزهراء، ثمّ وشّحه المـأمون بتوقيعه، و في ذلك يقول دعبل الخزاعي:

أصبح وجه الزمان قد ضحكا بــردّ مأمـونِ هـاشـمَ فدكـا[1]

و ليست الشيعة بحاجة في ذلك المقام إلى إقامة الدلائل بأنّ فدكاً كانت ملكاً موهوبـاً لبنت رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّـم) و يكفي في ذلك ما قـاله الإمام علي(عليه السلام) في رسالته إلى عثمان بن حنيف عامله بالبصرة:

«بلى كانت في أيدينا فدك من كـلّ ما أظلّته السماء، فشحّت عليها نفوس قوم و سخت عنهانفوس قوم آخرين، و نعم الحكم الله!»[2].

لقد بدأ منـع بني الزهراء من فـدك في عهد الخليفة الأوّل، و كـان الحال على ذلك حتّـى تسنّم معاوية سـدّة الحكم، فوزّع فـدكاً بين ثـلاثة هم:مروان بـن الحكم وعمرو بن عثمان و ابنه يزيد، و لمّا ولّـى الأمر مروان بن الحكم، سيطر على فدك بصورة كاملة و وهبها لابنه عبد العزيز و هو وهبها لولده عمر بن عبد العزيز[3].

و هو أوّل من ردّ فدك إلى بني فاطمة، ثمّ انتزعها الخلفاء الذين توالوا بعده من أبناء الزهراء، و كانت بأيديهم حتّى انقرض حكم الأمويين.

---

(١)شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد ج١٦ ص٢١٧.

(٢)نهج البلاغة، الكتاب رقم ٤٥.

(٣) شرح نهج البلاغة ج١٦ ص٢١٦.

و قد اضطرب أمر فدك اضطراباً عجيباً أيام الخلافة العباسية، فلمّا ولّي أبوالعباس السفّاح ردّها على عبد الله بن الحسن بن الحسن، ثمّ قبضها أبو جعفر من بني الحسن، ثمّ ردّها محمد المهدي ابنه على ولد فاطمة(عليها السلام)، ثمّ قبضها موسى الهادي بن المهدي و هارون أخوه، لأسباب سياسيّة خاصّة، حتّى وصل الدور إلى المأمون فردّها على الفاطميين أصحابها الشرعيّين ضمن تشريفات خاصة وبصورة رسمية، ثمّ اضطرب أمر فدك من بعده أيضاً، فربّما سلبت من أصحابها وربّما ردّت إليهم، و هكذا تراوحت بين السلب و الردّ.

و لقد اُستغلّت فدك في عهد الأمويين و العباسيين في أغراض سياسية بحتة قبل أن تستغل في أغراض إقتصاديّة.

فلقد كان الخلفاء في صدر الإسلام يحتاجون إلى عائدات فدك المالية مضافاً إلى أنّهم انتزعوها من يد الإمام علي(عليه السلام) لغرض سياسي، و لكن في العصور المتأخّرة عن ذلك كثرت ثروة الخلفاء وزادت زيادة هائلة بحيث لم يكونوا بحاجة إلى عائدات فدك، و لهذا فإنّ عمر بن عبد العزيز لمّا أعاد فدكاً إلى بني فاطمة إحتجّ عليه بنو اُميّة و اعترضوا قائلين: «هجنت فعل الشيخين، و إن أبيت إلاّ هذا فامسك الأصل و اقسم الغلّة»[1].

إنّ دراسة قصّة فدك و ما ورد حولها من الأقوال و الآراء يحتاج إلى بسط في الكلام و هو خارج عن مقاصد هذه الموسوعة، و قد أشبعنا الكلام فيها في بعض كتبنا الخاصّة ببيان سيرة الأئمّة الطاهرين و في مقدّمتهم أمير المؤمنين علي(عليه السلام) فمن شاء فليرجع إليه.

---

(١)شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج١٦ ص٢٧٨.

(١٠)

غزوات النّبي الأكرم ﷺ

١ ـ غزوة بدر

ليس الهدف في المقام تبيين غزوات النّبي و سراياه طيلة حياته، فإنّ ذلك يقع على عاتـق كتب السير الوافـرة، و إنمّا الهدف الإشارة إلـى الغزوات التّي قادهـا بعد هجرته، و لها جـذو ر في القرآن الكريم، و لأجل ذلك نقتصر فـي عرض جهاده في سبيل الله على القليل منه الذي جاء ذكره في القرآن الكريم.

و من أسمىٰ مغازيه و أعظمها أثراً و أكبرهـا دويّاً غزوة بدر الكبرى التّي وقعت في «وادي بدر» المنسوب إلى «بـدربن يخلدبن نضربن كنانـة» و وادي بدر معروف، وبينه و بين المدينة قرابة(١٥٠) كيلومترا.

بلغ رسول الله(صلىٰ الله عليه و آله) أنّ أباسفيان بن حرب، مقبل من الشام في عير عظيمة لقـريش، فيها أموال لهـم و تجارة من تجاراتهـم، فيها ثلاثون رجـلاً من قريش أو أربعون، منهم مخرمة بن نـوفل و عمروبن العاص، فندب المسلمين إليهم و قال: هـذه عير قريـش فيها أموالهـم، فاخرجـوا إليها، لعلّ الله ينفلكمـوها[١].هذا ما يذكـره أصحاب السير، و هو بظـاهره يكشف عن جـانب من جوانـب القضيّة، و لكن كان هناك حافز آخر دفع النبي للتعرّض إلى عير قريش،و هو أنّ المسلمين في أُمّ القرىٰ، كانـوا يعانون من ضغـط المشركين و ظلمهم، فقـد كانوا يستبيحون دمـاءهم ويصادرون أموالهم و يخـرجونهم من مساكنهم و ديارهم ظلمـاً و بغياً، فأراد النبي أن

(١)السيرة النبوية لابن هشام ج١ ص٦٠٦ـ٦٠٧، و مغازي الواقدي ج١ ص٢٠.

يوقف قريشاً على خطورة ما يفعلون، و أنهم إذا تمادوا في أعمالهم الإجراميّة في مكّة، فسوف يقوم المسلمون بقيادة نبيّهم، بسد منافذ تجارتهم و مصادرة قوافلهم.

فخرج رسول الله في ثمان ليال خلون من شهر رمضان و استعمل عمرو بن أُم مكتوم على الصلاة بالناس، و ردّ أبا لبابة من الروحاء و استعمله على المدينة، فسلك طريقه من المدينة ـ و بعد ما قطع منازل ـ نزل على واد يقال له «ذفران». و كان أبوسفيان حين دنا من الحجاز يتحسّس الأخبار ويسأل من لقى من الركبان حتّى أصاب خبراً من بعضهم أنّ النّبي قد استنفر أصحابه قاصداً إيّاه و عيره، فحذر عند ذلك، فاستأجر «ضمضم بن عمرو الغفاري» فبعثه إلى مكّة و أمره أن يأتي قريشاً فيستنفرهم إلى أموالهم، و يخبرهم أنّ محمّداً قد عرض لها في أصحابه، فخرج «ضمضم بن عمرو» سريعاً إلى مكّة، و دخل و هو يصرخ ببطن الوادي واقفاً على بعيره، و قد جدع بعيره، و حوّل رحله، و شقّ قميصه، و هو يقول:

«يا معشر قريش، اللطيمة، اللطيمة، أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد في أصحابه، لا أرى أن تدركوها، الغوث، الغوث».

فتجهّز الناس سراعاً و قالوا: أيظن محمد و أصحابه أن تكون (عيرنا) كعير ابن الحضرمي، كلاّ والله، ليعلمنّ غير ذلك، فكانوا بين رجلين أمّا خارج و أمّا باعث مكانه رجلاً. و أوعبت قريش، فخرجوا كلّهم إلى الغزو، فلم يتخلّف من أشرافها إلاّ أبالهب فبعث مكانه العاص بن هشام بن المغيرة.

أقبل أبوسفيان بن حرب، و تقدّم العير حذراً، حتّى وردالماء، فقال لـ «مجدي بن عمرو»: هل أحسست أحداً. فقال: ما رأيت أحداً أنكره، إلاّ انّي قد رأيت راكبين قد أناخا إلى هذا التل، ثم استقيا في شن[1] لهما، ثم انطلقا، فأتى أبوسفيان مناخهما، فأخذ من أبعار بعيريهما، ففتّه فإذا فيه النوى، فقال: هذه والله علائف يثرب، فرجع إلى أصحابه سريعاً، فضرب وجه عيره عن الطريق و أخذ بها جهة

---

(١) أي قربة، و هي آلة حمل الماء.

الساحل و ترك بدراً يساراً، و انطلق حتّى أسرع.

و لمّا رأى أبوسفيان أنّه قد أحرز عيره، أرسل إلى قريش: إنّكم إنّما خرجتم لتمنعوا عيركم و رجالكم و أموالكم، فقد نجّاها الله، فارجعوا.

فقال أبوجهل بن هشام: والله لا نرجع حتى نرد بدراً ـ و كان بدر موسماً من مواسم العرب، يجتمع به سوق كل عام ـ فنقيم عليه ثلاثاً، فننحر الجزر، و نطعم الطعام، و نسقي الخمر، و تعزف علينا القيان، و تسمع بنا العرب و بمسيرنا و جمعنا، فلا يزالون يهابوننا أبداً بعدها.

فمضت قريش حتّى نزلوا بالعدوة القصوى من الوادي يتوسّط بينها و بين وادي البدر كثيب.

ثمّ إنّ النّبي (صلّى الله عليه و آله و سلّم) أتاه الخبر عن قريش بمسيرهم ليمنعوا عيرهم، فاستشار الناس و أخبرهم عن قريش، فأظهر كل رأيه. فقال عمر بن الخطاب ـ مهوّلاً خطورة الموقف ـ: إنّها والله قريش و عزّها، والله ما ذلّت منذ عزّت، والله ما آمنت منذ كفرت، والله لا تسلم عزّها أبداً، و لتقاتلنّك، فاتّهب لذلك أُهبته، وأعد لذلك عدتّه[1].

ثمّ قام المقداد بن عمرر، فقال: «يا رسول الله، امض لما أراك الله، فنحن معك، والله لانقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿**إِذْهَبْ أَنْتَ وَ رَبُّكَ فَقَاتِلاَ إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُون**﴾. و لكن إذهب أنت و ربّك فقاتلا إنّا معكما مقاتلون، فوالّذي بعثك بالحق، لو سرت بنا إلى بَرْك الغِماد[2]، لجادلنا معك من دونه حتّى تبلغه». فقال له رسول الله خيراً و دعا له بخير.

ثمّ قال رسول الله: «أشيروا عليّ أيّها الناس» و إنّما يريد (رسول الله) الأنصار، و كان يظن أنّ الأنصار لا تنصره إلاّ في الدار، و ذلك انّهم شرطوا له أن يمنعوه ممّا

---

(١) المغازي، للواقدي ج١ ص٤٨.

(٢) موضع بناحية اليمن، و قيل هو أقصى حجر، و قيل إنّها مدينة في الحبشة.

يمنعون منه أنفسهم و أولادهم، و عند ذلك قام سعد بن معاذ، فقال: «أنا أُجيب عن الأنصار، و كأنّك تريدنا يا رسول الله؟» قال: «أجل» ؛ قال:

«فقد آمنّا بك و صدّقناك، و شهدنا أنّ ماجئت به هوالحقّ، و آتيناك على ذلك عهودنا و مواثيقنا على السمع و الطّاعة، فامض يا رسول الله لما أردت، فنحن معك، فو الّذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلّف منا رجل واحد، و ما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً، و إنّا لصبرٌ في الحرب، صُدُق في اللقاء، لعلّ الله يريك منّا ما تقرّ به عينك، فسر بنا على بركة الله».

فسرّ رسول الله بقول سعد، و نشّطه ذلك، ثم قال: «سيروا وابشروا، فإنّ الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين، والله كإنّي الآن أنظر إلى مصارع القوم».

ثم إنّه سبحانه يشير إلى خروج قريش من مكّة و إصرارهم على إدامة السير إلى وادى بدر ليقيموا هناك أيّاماً يسقون الخمر و تعزف عليهم القيان بقوله سبحانه: ﴿وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوامِنْ دِيَارِهِمْ بَطَراً وَ رِئَاءَ النَّاسِ وَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ وَ اللهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ (الأنفال/ ٤٧).

روى ابن عباس في تفسيرالآية: «لمّا رأى أبوسفيان أنّه أحرز عيره، أرسل إلى قريش أن ارجعوا، فقال أبوجهل: والله لا نرجع حتّى نرد بدراً...» [1] و قد تقدّم ذكره.

إنّ غزوة بدر، كانت أوّل غزوة قام بها المسلمون، و لم يكن لهم تدريب في الحرب، و لأجل ذلك كره فريق من المؤمنين الحرب، قال سبحانه: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالحَقِّ وَ إِنَّ فَرِيقاً مِنَ المُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ* يُجَادِلُونَكَ فِى الحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى المَوْتِ وَ هُمْ يَنْظُرُونَ﴾(الأنفال/ ٥-٦).

و الآية ظاهرة في كراهة لفيف من المؤمنين للخروج من المدينة عند مغادرتها، و يحتمل أن تكون إشارة إلى كراهة بعضهم للخروج في مجلس المشورة في منطقة «ذفران»، و قد تعرّفت على بعض نصوص الكارهين.

---

(١) مجمع البيان ج٢ ص٥٤٨.

و كان أكثر المؤمنين يريدون مواجهة العير دون النفير، مواجهة غير ذات الشوكة، حتّى يكسبوا الأموال و يجمعوا الغنائم. و إليه يشير قوله سبحانه: ﴿وَ إِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَى الطَّـآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَ تَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَ يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَ يَقْطَعَ دَابِرَ الكَافِرِينَ * لِيُحِقَّ الحَقَّ وَ يُبْطِلَ البَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ المُجْرِمُونَ﴾(الأنفال/ ٧ـ٨).

و قد عرفت أنّ النّبي قال لهم: «إنّ الله تعالىٰ قد وعدني إحدى الطائفتين» ولكنّ إرادة الله سبحانه غلبت على إرادتهم فالتقوا بالنفير دون العير، لما في ذلك من إظهار للحق، واعزاز للإسلام، و استئصال للكافرين، و إبطال للباطل.

إنتقال الرسول إلى مكان قريب من بدر

و لمّا وقف الرسول على أنّ الأنصار مستعدّون للحرب و القتال، و أنّ حربهم و قتالهم عن رغبة و رضى، ارتحل الرّسول من «ذفران» و قطع منازل حتّى نزل قريباً من «وادي بدر» ، فركب هو (صلّى الله عليه و آله و سلّم) و رجل من أصحابه يتعرّفان أخبار قريش، فوقف (صلّى الله عليه و آله و سلّم) على شيخ في المنطقة، فسأله عن قريش و عن محمّد و أصحابه.

قال الشيخ: إنّه بلغني أنّ محمّداً و أصحابه خرجوا يوم كذا و كذا، فإن كان الذي أخبرني صدق، فهم اليوم بمكان كذا و كذا(فسمّىٰ المكان الّذي به رسول الله)، و بلغني أنّ قريشاً خرجوا يوم كذا و كذا، فإن كان الّذي أخبرني صدق، فهم اليوم في مكان كذا و كذا (فسمّى المكان الّذي فيه قريش)؛ ثم انصرف. فلمّا أمسى بعث علي بن أبي طالب مع غيره يلتمسون الخبر له، فأصابوا راوية[1] لقريش، و عليها غلامان لهم، فأتوا بهما فسألوهما، فقالا: نحن سقاة قريش بعثونا نسقيهم من الماء و هؤلاء وراء هذا الكثيب؛ فقال لهما رسول الله: كم القوم؟ قالا: كثير، قال: ما

(١)الإبل التي يستقى عليها الماء.

عدّتهم؟ قـالا: لاندري، قال: كم ينحرون كل اليـوم؟ قالا: يوماًتسعاً و يـوماً عشراً، فقال رسول الله:القوم بين التسعمائة و الألـف. ثم قال لهمـا: فمن فيهم مـن أشراف قريش؟ فسمّوا أسمـاء عدّة منهم، فأقبل رسول الله على النّاس، فقـال: هذه مكّة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها.

و لم يكتف النّبـي بما وصل اليه من الأخبـار، فأرسل بعض أصحابـه حتّى نزل بدراً، فأناخ إلى تل قريب من الماء، ثمّ أخذ زقّاً يستقي فيه، فسمع جاريتين تتنازعان في دين عند«مجدي بن عمرو الجهني» شيخ القبيلة، فقالت إحداهما للأُخرى:عندما تـأتي العير غـداً أو بعد غد، فأعمـل لهم، ثمّ أقضـي الّذي لك، فقـال مجدي: صدقت: ثّـم خلص بينهما. فرجـع إلى النبي، فأخبـره بما سمع، فأذعـن النّبي بأنّ موضع العدو قريب وهم وراء الكثيب.

نزول النبي في وادي بدر

لمّا كانـت قلب المياه في بـدر، أسرع النبي بالسيـر حتّى ينزل ببدر فـي العدوة الدنيا، فمضى و كان الوادي ليّناً و لكن قليل الرمل، و جاءت الأمطار فلبّدت الأرض للنّبي و أصحابه و لم يمنعهم عن السير، و لكن أصاب قريشاً من المطر مالم يقدروا على أن يرتحلوا معه، فخرج رسول الله يبادرهـم إلى الماء، حتّى إذا جاء أدنى ماء من بدر، نزل به.

ثمّ قـال رسول الله(صلّى الله عليـه و آله و سلّم) بـه: أشيروا عليّ فـي المنزل. فقال الحبّاب بن المنذر: يا رسول الله أرأيت هـذا المنزل، أمنزل أنزلكه الله، فليس لنا أن نتقدّمـه و لا نتأخّـر عنه، أم هو الـرأي و الحرب و المكيدة؟ قـال: بل هـو الرأي والحرب و المكيدة. قال: فـإنّ هذا ليس بمنزل انطلق بنا إلى أدنى مـاء القوم، فإنّي عالـم بها و بقلبها، بها قليـب قد عرفـت عذوبة مـائه، و ماء كثير لا ينزح، ثـم نبني عليها حوضاً و نقذف فيه الآنية فنشرب و نقاتل، و نغور ماسواها من القلب.

فقال رسول الله : يا حبّاب أشرت بالرأي ، و بادر القوم إلى الماء حتّى إذا وصلوا إلى ما يريدون نزلوا فيه . ثم أمر بالقلب فغورت ، و بنى حوضاً على القليب الّذي نزل عليه ، فملئ ماء ثمّ قذفوا فيه الآنية[1].

بناء العريش

فلمّا استقرّ لهم المكـان إقترح سعدبن معاذ على النّبـي ، فقال : يا نبي الله ألا نبني لك عريشاً تكون فيه و نعدّ عندك ركائبـك ثم نلقى عدوّنا ، فإن أعزّنا الله و أظهرنا على عدوّنا ، كان ذلك ما أحببنا ،و إن كـانت الأُخرى ، جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنـا ، فقد تخلّـف عنك أقـوام ، يا نبـي الله ، ما نحـن بأشـدّ لك حبّـاً منهم ، و لو ظنّوا انّك تلقى حرباً ما تخلّفوا عنـك ، يمنعك الله بهم ، يناصحونك و يجاهدون معك . فأثنى عليـه رسول الله (صلّى الله عليه و آله و سلّم) خيراً ، و دعـا له بخير ، ثم بنى لرسول الله (صلّى الله عليه و آله و سلّم) عريش ، فكان فيه[2].

تعليق على تغوير القلب و بناء العريش

هذا ما تذكره كتـب السيرة ، و لكن للنظر في كلا الأمرين المـذكورين مجالاً ، أمّا تغوير القلب و طمّها ، فهو لا يناسب شأن النبي الأكرم ، فقد كان (صلّى الله عليه و آله) يوصـي قادة سراياه عند ما كـان يبعثها بأُمور ، و يقول : سيروا بـاسم اللهو بالله ، و في سبيل الله ، و على ملّةِ رسول الله ، لا تغلو ، و لا تمثّلوا ، و لا تغدروا ، و لا تقتلوا شيخاً فانياً ، و لا صبيّاً ، و لا امرأة ، و لا تقطعوا شجراً إلاّ أن تضطرّوا إليها .

و في رواية أُخرى : و لا تحرقوا النخل ، و لا تغرقوه بالماء ، و لا تقطعوا شجرة مثمرة ، و لا تحرقوا زرعاً ، لأنّكم لا تدرون لعلّكم تحتاجون إليه[3].

---

(١) السيرة النبويّة ج١ ص٦٢٠ ، مغازي الواقدي ج١ ص٥٣ .

(٢) السيرة النبويّة لابن هشام ج١ ص٦٢٠ـ٦٢١ .

(٣) الوسائل ج١١ الباب ٥ من أبواب جهاد العدو ، الحديث ٢و٣ .

فإنّ من يمنع من قطع الشجرة أولى بأن يمنـع من طمّ القلب الّتي حفرها رجال الخير لأجل سقاية القوافل الّتي كانت تمرّ من هذا الطريق.

و قـد أشار بعـض أصحابـه في غـزوة خيبـر أن يمنع جـريان المـاء إلى قـلاع خيبر، فأبى[1]. و قد كانت هـذه سيرة وصيّة أميرالمومنين فإنّه ـ صلوات الله عليه ـ ورد صفّيـن و قد سيطـر أصحـاب معاويـة علـى الشـريعة، فمنعـوا أصحـاب علي مـن الإستقاء، حتّـى أصابهم العطش و ضـاق الأمر عليهم، فلم يكـن بد من فتح طـريق الماء على أصحابه، فحمل حملة خاطفة مـع لفيف من أصحابه على الشريعة فأزال جيش معاوية عنهـا، فلمّا إستولى عليها اقترح عليه بعض أصحـابه أن يعتدي عليهـم بالمثل، فـأبى، و قال ـ مخاطباً لعسكـره ـ : خذوا من الماء حاجتكـم و ارجعوا الى عسكركم و خلّوا بينهم و بين الماء، فإنّ الله قد نصركم ببغيهم و ظلمهم[2].

و أمّا بنـاء العريـش للنّبي الأكـرم، فهو بمعـزل من الصحّـة، فإنّ قبـوله أمـام أصحابه الّذين يضحّون بنفسهم ونفيسهم يثبّط من عزائمهم، و يخفّف من مثابرتهم، فإنّهم إذا رأوا بأُمّ أعينهـم أنّ سيّدهم على حالة إذا رأى بوادر الهـزيمة فسيجلس على الركائب و ينجي نفسه و يترك أصحابه تحت رحمة عدوّهم، فلربّما يشكّون في صحّة دعوته و نبـوّته، فلا يصدر مثـل ذلك الاقتراح من سيـد مثل سعد بن معـاذ المعروف بالعقـل و الحنكة، و لو صـدر منه ـ على وجـه بعيد ـ فلـن يقبله النّبي الأكـرم الّذي يصفه علي(عليه السلام) بقوله: «كان أقـرب الناس إلى العدوّ، و كنّا إذا احمر البأس إتّقينا برسول الله»[3].

---

(١)ناسخ التواريخ ج٢ ص٤٠٠.

(٢)وقعة صفّين ص١٨٠.

(٣)نهج البلاغة: قسم غريب كلامه برقم ٩.

إرتحال قريش من مقامهم و نزولهم وادي بدر

قد تعرّفت على أنّ النبي الأكرم قد أسرع في الارتحال و استقرّ في وادي بدر قبل أن ينزل العدو من وراء الكثيب، فارتحلت قريش حين أصبحت فأقبلت، فلمّا رأى رسول الله نزولهم إلى الوادي قال: «اللّهمّ هذه قريش قد أقبلت بخيلائها و فخرها تحادك و تكذّب رسولك، اللّهمّ فنصرك الّذي وعدتني، اللّهمّ أحنهم[1] الغداة»[2].

و قال الواقدي: و كان أوّل من طلع زمعة بن الأسود على فرس له، يتبعه ابنه، فاستجال بفرسه يريد أن يتبوّأ للقوم منزلاً، فقال رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم): اللّهمّ إنّك أنزلت عليّ الكتاب و أمرتني بالقتال، و وعدتني إحدى الطائفتين، و أنت لاتخلف الميعاد، اللّهمّ هذه قريش قد أقبلت بخيلائها و فخرها... [3].

فلمّا اطمأنّ القوم بعثوا عمير بن وهب الجمحي، فقالوا: أحرز لنا محمداً و أصحابه، فاستجال بفرسه حول المعسكر، فصوّب في الوادي و صعد، يقول: عسى أن يكون لهم مدد أو كمين، ثمّ رجع فقال: لا مدد و لاكمين، و القوم ثلاثمائة إن زادوا قليلاً، و معهم سبعون بعيراً، و معهم فرسان، ثم قال: يا معشر قريش، البلايا[4] تحمل المنايا، نواضح يثرب تحمل الموت الناقع، قوم ليس لهم منعة و لاملجأ إلاّ سيوفهم، ألا ترونهم خُرّسا لا يتكلّمون، يتلمّظون تلمّظ الأفاعي، و الله ما أرى أن يُقتل منهم رجل حتّى يقتل منّا رجلاً، فإذا أصابوا منكم مثل عددهم فماخير في العيش بعد ذلك، فارتأوا رأيكم[5].

---

(١) أي أهلكهم.

(٢) السيرة النبويّة ج١ ص٦٢١.

(٣) مغازي الواقدي ج١ ص٢٩.

(٤) البلايا: جمع بليه و هي الناقة.

(٥) السيرة النبويّة ج١ ص٦٢٢، و المغازي للواقدي ج١ ص٦٢.

و لمّا قال الجمحي هذه المقالة أرسلوا أبا أُسامة الجشمي و كان فارساً، فأطاف بالنّبي و أصحابه، قال: والله ما رأيت جلداً، و لا عدداً، و لا حلقة[1]، و لاكراعاً، ولكنّي والله رأيت قوماً لا يريدون أن يعودوا إلى أهليهم، قوماً مستميتين ليست لهم منعة و لا ملجأ إلاّ سيوفهم[2].

فلمّا سمع حكيم بن حزام ذلك مشى في الناس، فأتى عتبة بن ربيعة، فاستدعى منه أن يرجع بالناس فلبّى دعوته برحابة، و أمره بالإنطلاق إلى أبي جهل، ويستدعي منه نفس ذلك، فرجع إليه و قال: يا أبا الحكم إنّ عتبة أرسلني إليك بكذا وكذا(أي أن ترجع بالناس و تترك الحرب)، فقال: «والله لا نرجع حتّى يحكم الله بيننا و بين محمّد. و ما بعتبة ما قال، و لكنّه قد رأى أنّ محمداً و أصحابه أكلة جزور، وبين أصحابه ابنه، فقد تخوّفكم عليه». و بالتّالي أفسد أبوجهل على النّاس الرأي الّذي دعاهم إليه عتبة، و جرّهم إلى التهلكة و الدمار.

الشرارة الّتي أشعلت الحرب

كان القوم يتحاورون حول الحرب، فبين داع إلى ترك الوادي واللحوق بمكّة، وترك أمر محمّد إلى ذؤبان العرب[3]، وبين متردّد يقدّم رجلاً ويؤخّر أُخرى، ومحرّض يدعو إلى الإقدام والقتال، فبينما كان القوم على هذه الحالة، خرج الأسود بن عبدالأسد المخزوفي، وكان رجلاً سيّئ الخلق، فقال: أُعاهد الله لأشربن من حوضهم، أو لأهدِّمنّه أو لأموتنّ دونه، فلمّا خرج، خرج إليه حمزة بن عبدالمطلب، فلمّا التقيا، ضربه حمزة فأطار قدمه بنصف ساقه، و هو دون الحوض، فوقع على ظهره تشخب رجله دماً، ثم حبا إلى الحوض، حتّى وقع فيه، يريد أن يبرّ يمينه، فتبعه حمزة وضربه حتى قتله في الحوض.

---

(١)أي سلاحاً.

(٢)المغازي ج١ ص٦٢.

(٣)صعاليكهم.

و هذه الحادثة فرضت الحرب على قـريش وأبطلت فكرة الرجوع، فخرج عتبة ابن ربيعة بيـن أخيه شيبة بن ربيعة وابنه الـوليد بن ربيعة، حتى إذا فصـل من الصف دعا إلى المبـارزة، فخرج إليه فتية مـن الأنصار. فقالوا: مـن أنتم؟ فقالوا: رهـط من الأنصار، قـالوا: مالنـا بكم من حـاجة، ثـم نادى مناديهـم: يا محمّد، أخـرج إلينا أكفّاءنا من قـومنا، فقـــال رسول الله: قـم يا عبيدة بن الحارث، وقم يـا حمزة، وقم ياعلي، فلمّـا قاموا ودنوا منهـم. قالوا: من أنتـم؟ قال عبيدة: عبيدة، وقـال حمزة: حمزة، وقـال علي: علي. قـالوا: نعم أكفّـاء كرام، فبـارز عبيدة، وكان أسـنّ القوم عتبة بن ربيعة، و بارز حمـزة شيبة بن ربيعة، وبارز عليّ الوليد بـن عتبة، فأمّا حمزة فلم يمهل شيبة أن قتله، و أمّا علي فلم يمهـل الوليد أن قتله، و اختلف عبيدة و عتبة بينهما ضربتين كلاهمـا أثبت صاحبه[1]، و كرّ حمزة و علـي بأسيافهما علـى عتبة، فأسرعا قتله، و احتملا صاحبهما.

ثّم تزاحف الناس و دنا بعضهم من بعض، وقد أمر رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) أصحابه أن لا يحملوا حتّى يأمرهم، فقال: إن اكتنفكم القوم فانضحوهم عنكم بالنبل. ثم عدّل رسول الله الصفوف، و نـاشد ربّه وقال: «اللّهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لـن تعبد» ثم خرج رسول الله إلى الناس فحرّضهـم و قال: والّذي نفس محمّد بيده لا يقاتلهـم اليوم رجل فيُقتل صابراً محتسباً مقبلاً غيـر مدبر إلاّ أدخله الله الجنّة.

ثّم إنّ رسول الله أخذ حفنةً من الحصباء فاستقبـل قريشاً بها، ثم قال: شاهت الوجـوه، ثم نفحهم بهـا. وأمر أصحابـه فقال: شدّوا، فكـانت الهزيمـة، فقتل الله تعالى من قتل من صناديد قريش، وأُسِر من أُسر من أشرافهم وفرّ من فرّ إلى مكّة.

وكان شعار أصحـاب رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) يـوم بدر: أحد، أحد. فكانت الهزيمة لقريش والنّصر للمسلمين.

* * *

(١)جرحه جراحة لم يقم معها.

الإعانات الغيبيّة

إنّ غزوة بدر من أعظم غزوات النّبي(صلّى الله عليه و آله و سلّم) ، وكان انتصاره فيها معجزة غيبيّة تفضّل بها سبحانه على أُمّة محمّد(صلّى الله عليه و آله و سلّم) حيث التقى في وادي بدر فئتان غير متكافئتين عدداً وعدّة، ولقد كان عدد المشركين ثلاثة أضعاف عدد المسلمين ،كان المشركون بين تسعمائة وألف[1] وعدد المسلمين ثلاثمائة وبضع وعلى قول ثلاثمائة وثلاثة عشر لم يكن لدى المسلمين إلاّ فرسان، وقد تعرّفت على كلمة أبي أُسامة الجشمي رائد القوم(قريش) «... والله مارأيت جلداً ولا عدداً ولا حلقة ولا كراعاً»[2].

و مع ذلك كلّه، غلبت هذه الفئة القليلة تلك الفئة الكثيرة، لقوّة إيمانها وتفانيها دون رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) ودينهم، وفي ظل إعانات غيبيّة يذكرها القرآن الكريم، سيوافيك بيانها.

قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (آل عمران/ ١٢٣).

نعم، كانوا أذلاّء، فصاروا أعزّاء أقوياء بفضله وكرمه. قال سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾(المنافقون/ ٨) فصاروا أعزّاء بعنايات ربّانية، وإعانات غيبيّة تكفّل الذكر الحكيم ببيانها ونحن نذكرها استلهاماً منه، وتصل أنواعها إلى ثمانية، وكان لها الدور الهام في انتصار المسلمين.

---

(١)قال الواقدي: «و خرجت قريش بالجيش يتقاذفون بالحراب، و خرجوا بتسعمائة و خمسين مقاتلاً، و قادوا مائة فرس، و كانت الإبل سبعمائة بعير، و كان أهل الخيل كلّهم دارع و كانوا مائة، و كان في الرجالة دروع سوى ذلك» المغازي، ج١ ص٣٩.

(٢)المغازي ج١ ص٦٢.

١ـ إراءة العدو قليلاً في المنام

قد رأى النّبي فـي المنام وقعة بدر، وأراه سبحـانه عدد العدو قليـلاً فيه ليصون المسلمين بذلك عن الفشل والتنازع، قال سبحانه: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَاكَهُم كَثِيراً لَّفَشِلْتُـمْ وَلَتَنَازَعْتُم فِى الأَمْرِ وَلٰكِنَّ اللهَ سَلَّمَ إِنَّـهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (الأنفال/ ٤٣).

إنّ الآية تصرّح بـأنّه سبحانه أراهم للنّبـي في منامه قليلاً، وبيّـن أنّ سبب ذلك هو منع طروءأمرين بين المسلمين، أشارإليهما بقوله:

أ ـ (لفشلتم)

ب ـ (ولتنازعتم)

والّذي يلزم الفات النظـر إليه هو أنّ الله سبحانه ينسب الأمـرين إلى المسلمين لاإلى النّبي الأكرم، وهذا يعرب أنّ إراءة العدو قليليـن كان مؤثّراً في عزائم المسلمين لا في عـزيمة النّبي الأكـرم، فإنّه(صلوات الله عليـه وآله) كان ثـابتاً، قليلين كـانوا أم كثيرين، وإنّما أراهم النّبي قليلاً حتّى ينقل رؤياه إلى المسلمين حسب مارآه، فتشتدّ عزيمتهم وترتفع معنويّاتهم بظنّ انّ أعدائهم أقلاّء.

٢ـ إراءة كلّ من الفريقين الآخر قليلاً في بدء الحرب

ومن إعاناته تعالى الغيبيّة أنّه سبحانـه أرى كل فريق للفريق الآخر ـ عند ابتداء الحرب ـ قليلاً، وقد كانت تكمن في ذلك فلسفة انتصار الحق على الباطل وزهوقه، فأرى المشركين المؤمنيـن قليلين، كما أرى المؤمنين للفريق الآخر كذلك، حتّى انّ أبا جهل قال: خذوا أصحاب محمّد بالأيـدي [١].

---

(١) مجمع البيان ج٢ ص٥٤٧.

إنّما أرى المشركين المؤمنين قليلين، حتّى لا يورث ذلك رُعبا ووحشة في قلوبهم، وقد مرّ في الاعانة الأُولى أنّه سبحانه فعل ذلك دفعاً للفشل والتّنازع.

و إنّما أرى المؤمنين للمشركين قليلين لئلّا يتأهّبوا ويستشرسوا في القتال، ويتخيّلوا أنّهم لا يحتاجون في دفع عدوّهم إلى بذل جهد كبير.

قال سبحانه مشيراً إلى ذلك بقوله: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِى أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِى أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ اللهُ أَمْرَاً كَانَ مَفْعُولاً وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الأُمُور﴾ (الأنفال/ ٤٤)و حاصل الآية أنّه سبحانه قلّل الفريقين في عين الآخر، ولولا ذلك لانتهى الأمر إلى فشل المسلمين أو إلى فرار العدوّ من المعركة، بحفظ أنفسهم. وقد تعلّقت مشيئته بإبادتهم.

٣ـ إراءة المشركين كثرة المؤمنين أثناء القتال

و هناك إعانة غيبيّة ثالثة وهي أنّه سبحانه أرىٰ المؤمنين للمشركين في أثناء القتال كثيرين، على خلاف ما أراهم إيّاه عند إبتداء القتال.

إنّ المصلحة قد اقتضت أن يُري سبحانه المؤمنين للعدو كثيرين على خلاف ما أراهم عند أوّل الحرب و ذلك حتّى يتخيّل العدو أنّه وصل إلى المسلمين مددٌ كانوا بعيدين عن المعركة حتّى تتزعزع بذلك معنويّاتهم و يتقهقروا عن ميدان المعركة بعد ما فتك بهم المسلمون بقتل كثيرين منهم و أسر آخرين.

قال سبحانه: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِى فِئَتَيْنِ التَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْىَ العَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُولِى الأبْصَارِ﴾ (آل عمران/ ١٣).

أُنظر إلى قوله سبحانه: ﴿يرونهم مثليهم رأى العين﴾ فإنّ هذه الجملة ناظرة إلى أثناء الحرب، وماورد في الإعانة الغيبيّة الثانية ناظر إلى أوّل الحرب.

٤ـ استغاثة المسلمين و نزول الملائكة

إنّ النّبي لمّا نظر إلى كثرة عدد المشركين وقلّة عدد المسلمين استقبل القبلة، وقال: اللّهم أنجز لي ما وعدتني، اللّهم إن تهلك هذه العصابة، لا تعبد في الأرض. فمازال يهتف ربّه ماداً يديه حتّى سقط رداؤه من منكبيه، فأنزل الله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ * وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(الأنفال/ ٩و١٠).

لعلّ معنى قوله: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى﴾ إنّه سبحانه جعل الإمداد بالملائكة بشرى للمسلمين بالنّصر ولتسكن به قلوبهم وتزول الوسوسة عنها، وإلاّ فملك واحد كاف للتدمير.

أو لعلّ معناها: انّ الإمداد بالملائكة إمداد بالسبب والنصر الحقيقي من جانب المسبّب وهو الله العزيز الحكيم، وليس للسبب أصالة ولا استقلال[1].

ثمّ إنّه سبحانه جعل عدد الملائكة في هذه الآية ألفاً، مع أنّه سبحانه أمدّ المسلمين ـ حسب آية أُخرى ـ بثلاثة آلاف كما في قوله: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ * بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ * وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾(آل عمران/ ١٢٤ـ١٢٦).

و لكنّ الاختلاف يرتفع بالإمعان بما في ذيل الآية التّاسعة من سورة الأنفال حيث قال: ﴿بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ أي مردفين بملائكة أُخرى، كما يقال أردفت زيداً خلفي، فيكون المفعول الثاني محذوفاً، فلو كان عدد الملائكة الأُخرى ألفين، يصير المجموع ثلاثة آلاف.

---

(١) و قد تكرّر مضمون الآية في سورة آل عمران، الآية ١٢٦.

و هناك وجه آخر لرفع الاختلاف وهو أنّ هـذا العدد(ثلاثة آلاف) جاء في كلام النّبي عند مخاطبة المسلمين حيث قال: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَـنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ﴾ وأمّا عدد الألف فقد جاء في كلامه سبحانه و وعده حيث قال: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ﴾.

والجمع بيـن الآيتين بأنّـه كان في ضميـر النّبي أنّه سبحـانه ينزّل ثـلاثة آلاف، ولكنّه سبحانه نزّل ألفاً منهم، وما ذلك إلاّ لأنّ الملائكة لم يقتحموا المعركة اِلاّ بشكلٍ جزئي كما سيوافيك، وكان الوعد والعمل به لأجل تثبيتهم و إزالة الوسوسة عنهم.

و أمّا عدد الخمسة آلاف فلم يكن إلاّ وعداً مشروطـاً بأنّ المؤمنين لوصبروا على الجهاد واتّقوا معاصي الله ومخـالفة الرسول ورجع المشركون إليهم فـوراً، فالله سبحانه يمددهم بخمسة آلاف من الملائكة مسوّمين أي معلّمين.

٥ـ الإمداد بالنعاس

إنّ الإنسان لا يأخذه النـوم في حال الخوف، وقد قيل: الخـوف مسهر والأمن منوّم، فالله سبحانه أمدّهم بالنّعاس وهو أوّل النوم قبل أن يثقل، فقوّاهم ـ بالإستراحة ـ على قتال العدو.

٦ـ الإمداد بنزول المطر

وقد أصـابهم المطر ـ وكانوا أحوج شيئ إليه فطهّروا بـه أبدانهم واغتسلـوا من الجنابـة، وزادهم قوّة قلـب وسكون نفس وثقـة بالنّصر، وثبّـت أقدامهم فـي الحرب بتلبّد الرّمل.

وإلى الإمدادين: الخامس والسادس يشير قوله سبحانه: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْـهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِـنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّـرَكُمْ بِهِ وَيُـذْهِبَ عَنكُمْ رِجْـزَ الشَّيْطَانِ[1]

(١) و هو الجنابة.

﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ﴾(الأنفال/ ١١).

فإلى فائدة الإمداد بالنّعاس أشار بقوله: ﴿أَمَنَةً مِنْهُ﴾.

و إلى فوائد نزول المطر المختلفة أشار بقوله:

١ـ ﴿يُطَهِّرَكُم﴾ ٢ـ ﴿يُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ﴾ ٣ـ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُم﴾ ٤ـ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ﴾.

٧ـ الإمداد بتثبيت أقدام المؤمنين

و قد كان لنزول الملائكة فائدة أُخرى، وهي تثبيت أقدام المؤمنين في ميدان الحرب لئلاّ تزلّ أقدامهم عند هجوم العدو، و كانت ساحة القتال رملاً.

٨ـ الإمداد بإلقاء الرّعب في قلوب المشركين

و قد أمدّهم سبحانه بإلقاء الرّعب في قلوب الكافرين.

يقول سبحان مشيراً إلى الإمدادين: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى المَلاَئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾(الأنفال/ ١٢).

والمراد من «فَوقَ الأعناق» هي الرؤوس، لأنّها فوق الأعناق، كما أنّ المراد من قوله: «كُلَّ بَنَان»، أطراف الأصابع، و لعلّه سبحانه اكتفى به عن جملة اليد و الرّجل.

وأمّا الخطاب، فيحتمل أن يكون للملائكة، كما استظهره أكثر المفسّرين، أو للمؤمنين كما هو الظّاهر، لما عرفت من أنّ الملائكة لم يقتحموا المعركة، و إنّما كان نزولهم لأجل تثبيت القلوب.

و أمّا وجه إذلاله سبحانه قريشاً، و أعزازه المؤمنين، فقد بيّنه في قوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُم شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ العِقَابِ * ذَلِكُم فَذُوقُوهُ

﴿وَاَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾(الأنفال/ ١٣و١٤).

هذه مجموعة الإعانات الغيبيّة التّي شملت المسلمين، وقد تعلّقت مشيئته سبحانه بإختصاص الإعانات الربّانيّة بالمؤمنين، والوساوس الشيطانيّة بالمشركين، فقد ظهر الشيطان، وتجسّم للكافرين يوم بدر، وزيّن لهم أعمالهم وخروجهم بطراً ورئاء النّاس، ثمّ قال لهم بأنّه لا يغلبكم أحد من الناس لكثرة عددكم، وقوّتكم، وأنا ناصر لكم، ودافع عنكم السوء، ولمّا التقت الفرقتان، رجع العدو القهقرى منهزماً، لأنه رأىٰ عناية الله سبحانه بالمسلمين.

و إلى ذلك يشير قوله سبحانه: ﴿وَاِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ اَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لاَ غَالِبَ لَكُمُ اليَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَاِنِّى جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ اِنِّى بَرِىءٌ مِنكُمْ إِنِّى أَرَى مَا لاَتَرَوْنَ اِنِّى اَخَافُ اللَّهَ وَ اللَّهُ شَدِيدُ العِقَابِ﴾(الأنفال/ ٤٨).

و قد علّل الشيطان تقهقره بأمرين:

الأوّل: إنّه يرى ما لا تراه قريش أعني الملائكة الّذين جاءوا لنصرة المؤمنين.

الثّاني: إنّه يخاف الله.

إختلافهم في الفيء

إنّ رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) أمر بما في العسكر، ممّا جمع النّاس، فجُمع، فاختلف المسلمون فيه فقال من جمعه: هو لنا، وقال الّذين كانوا يقاتلون العدو ويطلبونه: والله لولا نحن ما أصبتموه لنحن شغلنا عنكم القوم حتّى أصبتم ما أصبتم، وقال الّذين يحرسون رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم): والله ما أنتم بأحق به منّا، والله لقد رأينا أن نقتل العدو إذ منحنا الله أكتافهم، و قد رأينا أن نأخذ المتاع حين لم يكن دونه من يمنعه، فخفنا على رسول الله كرّة العدو، فقمنا دونه، فما أنتم بأحقّ به منّا.

كان الأولى بالمسلمين أن يفوّضوا أمر الفيء إلى الرّسول أخذاً بالتسليم الّذي

أمر به المسلمون.

سُئل عبادة بن الصامت عن الأنفال فقال: فينا أصحابَ بدر نزلت، حين اختلفنا في النفل، و ساءت أخلاقنا، فنزعه الله من أيدينا، فجعله إلى رسوله، وقال: ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ الاَنفَالِ قُلِ الاَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَاَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَاَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ اِنْ كُنتُم مُؤْمِنِينَ﴾(الأنفال/ ١)[١].

و روي عن ابن عباس أنّ سبب سؤالهم هو أنّ النّبي قال يوم بدر: من جاء بكذا، فله كذا، ومن جاء بأسير، فله كذا، فتسارع الشبّان، وبقي الشيوخ تحت الراية، فلمّا انقضت الحرب طلب الشبّان ما كان قد نفلهم النّبي به، فقال الشيوخ: كنّا رداءاً لكم ولو وقعت عليكم الهزيمة لرجعتم إليناوجرى بين أبي اليسر وبين سعد بن معاذ كلام، فنزع الله تعالى الغنائم منهم[٢].

ما معنى الأنفال في الآية؟

الأنفال جمع نفل، وهو بمعنى الزيادة، ولو اطلقت على الرواتب من الصلوات وغيرها فلأجل أنّها زيادة على الفريضة، و ربّما تستعمل في العطيّة، ولعلّ المعنيين متقاربان.

و قد أُطلق هذا اللّفظ في الآية وأُريد منه غنائم الحرب، فيكون مساوياً لقوله سبحانه: ﴿وَاعْلَمُوا اَنَّمَاغَنِمْتُم مِنْ شَيْءٍ فَاَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى القُرْبَى وَاليَتَامَى وَالمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ اِنْ كُنتُمْ آمَنتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(الأنفال/ ٤١) والآيتان نزلتا في غزوة بدر، و سيوافيك الجمع بين مضمونيهما، حيث جعلت الأُولى الأنفال للّه. والثّانية خصّت الخمس منها للّه وللرّسول ولذي القربى، والطوائف الثلاث الأُخرى، فانتظر.

---

(١)السيرة النبويّة لابن هشام ج١ ص٦٤١ ـ ٦٤٢.

(٢)مجمع البيان، ج٢ ص٥١٨.

وأمّا الغنائم التّي يحصل عليها النّبي عن غير طريق الحرب، أي بلا إيجاف عليه بخيل، ولا ركاب، فيطلق عليها الفيء، قال سبحانه: ﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلاَ رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ* مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لاَ يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾(الحشر/ ٦و٧).

و قد نزلت الآيتان في أموال كفّار أهل القرى، وهم بنو النضير و بنو قريظة قرب المدينة، وفدك. وقال رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) يوم بني النضير للأنصار: إن شئتم قسّمتم للمهاجرين من أموالكم ودياركم، وتشاركونهم في هذه الغنيمة و إن شئتم كانت لكم دياركم وأموالكم ولم يقسّم لكم شيء من الغنيمة، فقال الأنصار: بل نقسّم لهم من أموالنا و ديارنا ونؤثرهم بالغنيمة، ولا نشاركهم فيها، وفيهم نزل قوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَيَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(الحشر/ ٩).

نعم ربّما تطلق الأنفال ويراد منها غير غنائم الحرب بل معنى يرادف الفيء، أو شيئاً أوسع منه، قال الإمام الصادق: «الأنفال ما لم يوجف عليه بخيل ولا ركاب(الفيء)، أو قوم صالحوا، أو قوم أعطوا بأيديهم، وكلّ أرض خربة، وبطون الأودية، فهو لرسول الله، وللإمام من بعده يضعه حيث يشاء».

وبذلك يعلم أنّ الأنفال بما أنّ له معنى وسيعاً، يطلق على غنائم الحرب تارة، وعلى ما يحصل عليه النّبي من غير إيجاف بخيل ولا ركاب، وثالثاً على معنى أوسع يشمل على بطون الأودية، و رؤوس الجبال ممّا ورد في الروايات.

الجمع بين مفاد الآيتين

إنّ الآيتين: ﴿قُلِ الأنفَالُ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ ـ وَاعْلَمُوا أَنَّ مَا غَنِمْتُم مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ و... ﴾.

نزلتا في غزوة بدر، فعلى ضوء ذلك يكون المراد من الأنفال هو غنائم الحرب، وقد جعله في الآية الأُولىٰ لله وللرّسول، وفي الآية الثانية للمسلمين إلاّ الخمس، فخصّه لله والرسول و ذي القربى والطوائف الثلاث الباقية، فكيف التوفيق بينهما؟ فهل الآية الثانية ناسخة للأُولىٰ أو لا؟

و الجواب انّه لا تنافي بين الآيتين حتّى تكون الثانية ناسخة للأُولى،فانّها لا تفيد إلاّ كون أصل ملكها لله وللرّسول من دون أن تتعرّض لكيفيّة التصرّف و جواز الأكل والتمتّع، وأمّا الآية الثانية فهو يبيّن كيفيّة التصرّف والأكل والتمتع، وتكون الثانية مبيّنة للأُولى. فأصل الملك في الغنيمة للّه والرّسول، ثمّ ترجع أربعة أخماسها إلى المجاهدين به يمتلكونها، ويرجع خمس منها إلى الله والرّسول وذي القربى وغيرهم[1].

وبعبارة أُخرى: انّ أمرها مفوّض إلى الله ورسوله، ثمّ بيّن سبحانه مصارفها، وكيفيّة قسمتها في آية الخمس، ثمّ إنّ التعبير عن الغنائم بالأنفال التي هي بمعنى الزيادات، لأجل الإشارة إلى تعليل الحكم بموضوعه، كأنّه قيل يسألونك عن الغنائم، وهي زيادات لا مالك لها بين النّاس، وإذا كان كذلك، فأجبهم بحكم الزيادات والأنفال، و قل الأنفال لله والرّسول، ومنها الغنيمة، فهي لله والرّسول بالذات، و إنّما يتمتّع بها المسلمون، حسب ماورد في الآية الثانية.

ثمّ إنّ اللام في قوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأنفَالِ﴾ وإن كانت للعهد، تشير إلى غنائم الحرب، لكنّها في قوله: ﴿قُلِ الأنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ للجنس، وعليه فكل ما يعدّ زيادة، فهو لهما بالذات من غير فرق بين غنائم الحرب، أو ما حصل عليه

---

(١) الوسائل ج٦ كتاب الخمس الباب الأوّل من أبواب الأنفال، الحديث١ ص٣٦٤.

بغير خيل ولا ركاب، أو ليس له مالك خاص، فالأموال الزائدة في المجتمع نظير الديار الخالية، والقرى البائدة، ورؤوس الجبال، وبطون الأودية، وقطائع الملوك، وتركة من لا وارث له.

نعم يقسّم قسم خاص من الأنفال بين المقاتلين، وهو ما أوجفوا عليه بخيل و ركاب، دون الباقي، وتفصيل الكلام في الفقه.

أخذ الأسرى قبل الدعم والاستقرار

أمر رسول الله بقتل أسيرين أعني النضربن حارث وعقبة بن أبي معيط لأعمالهما الإجرامية في مكّة قبل الهجرة و بعدها، فخافت الأنصار أن يقتل الأسرى، فقالوا يا رسول الله: قتلنا سبعين وهم قومك وأُسرتك أتجذّ أصلهم؟ فخذ يا رسول الله منهم الفداء. و قد كانوا أخذوا ما وجدوه من الغنائم في عسكر قريش، ولمّا طلبوه و سألوه، نزل قوله سبحانه: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرىٰ حتَّى يُثْخِنَ فِي الأرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ* لَوْلاَ كِتَابٌ مِنَ اللّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ* فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلاَلاً طَيِّباً وَاتَّقُوااللَّهَ إنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(الأنفال/ ٦٧ـ٦٩).

إنّ الاثخان في الأرض عبارة عن التغليظ. يقال: ثخن ا لشيء فهو ثخيين إذا غلظ فلم يسل، فكنّي به عن استقرار دينه بين الناس كاستقرار الشيء الغليظ المنجمد الثابت بعدما كان رقيقاً سائلاً مخشيّ الزوال بالسيلان، فالآية تحرّم أخذ الأسرى قبل أن يستقر للمسلمين أمرهم، ويعرب عن أنّ الهدف من الأمر بقتل الأسرىٰ، وعدم أخذ الفداء، لأجل انّ في اطلاق سراحهم قبل الاستقرار مظنّة إجتماعهم، وتكاثفهم، ووثوبهم على النّبي، والمسلمين من جديد، فيجب إبادتهم واستئصالهم إلى حد الإثخان الذّي لا يخاف معه عن توثّبهم وتكاثفهم مرّة أُخرى.

إنّ اتّخاذ الأسرى إنّما يكون خيراً ورحمة ومصلحة للبشر إذا كان الظهور والغلب لأهل الحق والعدل، ولولاه لانقلب شرّاً، والّذين يقترحون أخذ الأسرى،

يريدون عرض الدنيا، أعني المال الّذي يأخذونه من الأسرى فداء لهم، والله يريد ثواب الآخرة الباقي.

والعتاب خاص بالصحابة والمسلمون الأوائل دون النبيّ، بشهادة تغيّر لحن الكلام حيث ابتدأه بقوله: ﴿ماكانَ لِنَبِيٍّ أنْ يَكُونَ لَهُ أسْرى﴾ وانتهى بالخطاب للمسلمين ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا﴾، والخطاب خاص بهم لا يشمل النّبي، وحاشا نبيّ العظمة أن يريد عرض الدّنيا.

ومن رديء الكلام، ما في تفسير المراغي وغيره، من أنّه سبحانه عاتبهم على ما فعلوا بعد بيان سنّة النبيين كما عاتب رسوله[1].

والآية تعرب أنّ السنّة الجارية في الأنبياء الماضيين هي أنّهم كانوا إذا حاربوا أعداءهم، وظفروا بهم ينكّلونهم بالقتل لكي يضعفوا أوّلاً، ويعتبر بهم مَنْ وراءهم، فيكفّوا عن محادّة الله ورسوله، فكانوا لا يأخذون أسرىٰ حتّى يثخنوا في الأرض، ويستقرّ دينهم بين النّاس، وأمّا مسألة المنّ أو الفداء، فإنّما هو بعدما علا أمر الإسلام، واستقرّ في الحجاز واليمن: ﴿فَإذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إذَا أثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الوِثَاقَ فَإمَّا مَنّاً بَعْدُ وَإمَّا فِدَاءً﴾(محمد/ ٤)، فحكم الأسرى قبل الاثخان هو القتل، و أمّا بعده، فالحكم هو شدّهم في الحبال، وسوقهم على الأقدام حتّى يتعامل معهم بأحد الأمرين: المنّ و اطلاق السراح، أو أخذ الفدية.

وبذلك يعلم أنّ الأمر بقتل الأسرى إنّما كان حكماً مؤقّتاً زمنياً مختصّاً بزمن لم يستقر أمر النّبي ولا دينه، فكان في أخذ الأسرى مظنّة الخوف على بيضة الإسلام، وأمّا إذا ارتفع ذلك الخوف، وضرب الإسلام بجرانه[2] في الأرض، فالحكم السائد هو ما جاء في سورة محمد(صلّى الله عليه و آله و سلّم) من المنّ، أو أخذ الفداء، و ما ربّما يستدلّ بالآية على أنّ الإسلام يسرف في إراقة الدماء،وقتل النفوس، لا أصل له، لأنّ الأمر بالقتل، وعدم أخذ الأسرى، كان راجعاً إلى حالة خاصّة، وهي حالة

(١)تفسير المراغي ج٤ ص٣٦.

(٢)ضرب الإسلام بجرانه: أي ثبت و استقرّ.

عدم استقرار الإسلام في المنطقة كما كان الحال كذلك في السنوات الأُولى قبل غزوة الأحزاب، وأمّا بعدها فقد علا أمر النّبي واستقرّ، فلم تكن حاجة إلى قتل الأسرى، بل كان السائد هو ما ورد في سورة محمد(صلّى الله عليه و آله و سلّم) من اطلاق سراحهم منّاً عليهم، أو أخذ الفدية منهم.

بل الظروف في غزوة واحدة كانت مختلفة، فربّما تسود في السّاعات الأُولى من الحرب حالة عدم الاستقرار والتزلزل، ومظنّة رجوع العدو ثانياً بعد اطلاق سراحه، فلا يؤخذ الأسرىٰ، والحال إنّ الحالات الأخيرة من الحرب كانت على عكس ذلك، فلم يكن أيّة مظنّة للكرّة، فيختصّ قتل الأسرى في غزوة واحدة بالسّاعات الأُولى أي ساعات عدم الاستقرار، ومظنّة الكرة لا الساعات الأخيرة.

ثُمَّ إنّ الآية الثانية أعني قوله: ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ يعرب عن عظم المعصية، أعني أخذ الأسرى قبل الاثخان في الأرض لما فيه من مظنّة زوال الإسلام وكيانه.

كيف ولولا كتاب سابق لمسّ المسلمين، أو المصرّين على الأخذ عذاب عظيم. وأمّا ما هو هذا الكتاب الّذي سبق، فقد أُبهم غاية الابهام، لأنّه أنسب في مقام المعاتبة ليذهب ذهن السامع كل مذهب ممكن، ولا يتعيّن عنده، فيهون عنده الأمر. ومن رديء الكلام ما مرّ في غير واحد من التفاسير: قال رسول الله: «إن كاد ليمسّنا في خلاف ابن الخطّاب(حيث كان يقترح القتل خلاف الباقين حيث كانوا يقترحون الأخذ) عذاب عظيم، ولو نزل العذاب ما أفلت إلاّ عمر».

ومعناه شمول العذاب، للرّسول الأعظم، وقد سبق من المراغي وغيره: إنّ العتاب عام يعمّ المسلمين والنّبي الأكرم، مع أنّه سبحانه يقول: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِم﴾(الأنفال/ ٣٣).

فالّذي يدفع بوجوده العذاب، صار يُدفع عنه العذاب بوجود غيره. ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾(الكهف/ ٥).

ثُمّ إنّه سبحانه يبيح لهم ــ رحمة منه ــ ما تسلّط عليه المسلمون من أموال المشركين، وما أخذوا من الأسرى للفداء، ويقول: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلالاً طَيِّباً وَاتَّقُوااللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وحاصل مضمون الآيات الثلاث عبارة عن:

١ـ إنّ أخذ الأسرى قبل الاثخان غير مشروع في الشرائع السماويّة.

٢ـ لولا كتابٌ من الله سبق، لمسّ المسلمين في أخذ الأسرى قبل الاثخان عذاب عظيم.

٣ـ لقد أباح الله سبحانه الجميع من الأموال والأسرى رحمة منه.

الوعد الجميل للأسرى

إنّ فداء كل رجل من المشركين يوم بدر كان أربعين أوقية والأوقية أربعون مثقالاً، إلاّ العبّاس فإنّ فداءه كان مائة مثقال، وكان أُخذ منه حين أُسر عشرون أوقية ذهباً، فقال النّبي(صلّى الله عليه و آله و سلّم): ذلك غنيمة ففاد نفسك، وابني أخيك نوفلاً وعقيلاً. فقال: ليس معي شيء. فقال: أين الذّهب الّذي سلّمته إلى أمّ الفضل وقلت: إن حدث بي حدث فهولك وللفضل وعبد الله وقثم؟ فقال: من أخبرك بهذا؟ قال: الله تعالى. فقال: أشهد أنّك رسول الله، والله ما اطّلع على هذا إلاّ الله.

ثمّ إنّه سبحانه ــ رحمة منه ـ يعد الأسرى بأنّهم إن آمنوا، واتبّعوا الحق، يؤتهم خيراً ممّا أُخذ منهم، ويغفر لهم، ولكنّهم إن أرادوا خيانتك بعد اطلاق سراحهم بالفداء، والعود إلى ما كانوا عليه من العناد والفساد، فقد خانوا الله من قبل، فأمكنك منهم، وأقدرك عليهم، وهو قادر على أن يفعل بهم ذلك ثانياً، كما يقول سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِى أَيْدِيكُمْ مِنَ الأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْراً يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾(الأنفال/ ٧٠ـ٧١).

و روي أنّه قدم مال من البحرين يقدر بـ «ثمانين» ألفاً، و قد توضّأ النّبي(صلّى الله عليه و آلـه و سلّم) لصلاة الظهـر، فما صلّى يـومئذٍ حتّـى فرّقه، وأمـر العباس أن يأخذ منه، ويحثـي، فأخذ، فكـان العبّاس يقـول: هذا خيـر ممّا أُخـذ منّا، وأرجـو المغفرة[1].

(1) لاحظ مجمع البيان ج٢ ص٥٥٧ ـ ٥٦٠، و الميزان ج٩ ص١٣٦ ـ ١٤٠.

٢ـ غزوة أُحد[١]

لقد كانت لغزوة«بدر» أصداء في عهد النّبي(صلّى الله عليه و آله و سلّم) ومابعده، وقد أوجد انتصار النّبي(صلّى الله عليه و آله و سلّم) فيها خوفاً ووجلاً في قلوب المشركين، خصوصاً بعد ما شاع خبر أنّ النّبي الأكرم(صلّى الله عليه و آله وسلّم) طرح أجساد قتلىٰ المشركين في القليب، ووقف عليهم رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم)، فخاطبهم بقوله: يا أهل القليب هل وجدتم ما وعدكم ربّكم حقّاً، فإنّي قد وجدّت ما وعدني ربّي حقّاً. فلمّا قيل لرسول الله: أتكلّم قوماً موتى، أو أتنادي قوماً قد جيفوا؟ فقال: ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكنّهم لا يستطيعون أن يجيبوني.

فلمّا بلغ خبر انتصار النّبي(صلّى الله عليه و آله و سلّم) وهزيمة المشركين إلى مكّة، ناحت قريش على قتلاها، ثم منعت النياحة بتاتاً في مكّة ونواحيها حذراً من شماتة المسلمين أوّلاً، واستنهاضاً لعزائمهم لأخذ الثأر ثانياً، فإنّ النياحة والبكاء وسكب الدّموع تهبّط العزائم، وتثبّط الهمم.

و كان الأسود بن عبدالمطلب قد أُصيب له ثلاثة من ولده، وكان يحب أن يبكي على بنيه، و لكنّه كان يكبح جماح مشاعره حذراً من نقمة قريش، فبينما هو كذلك إذ سمع نائحة في الليل، فقال لغلام له و قد ذهب بصره: انظر هل أُحلّ النحب لعلّي أبكي على أولادي، فإنّ جوفي قد احترق، فرجع الغلام و قال: إنّما هي امرأة تبكي على بعير لها أضلّته.

---

(١)وقعت غزوة أُحد يوم السبت لسبع خلون من شوّال في السنة الثالثة من الهجرة.

فعند ذلك أنشأ يقول:

أتبكـي أن يضـل لهـا بعيـر   و يمنعهـا من النـوم السهـود
فـلا تبكي علـى بكر ولكـن   على بدر تقاصرت الجدود[1]

باتت قـريش على تلك الحالة وصـدورهم مليئة بالغيظ والحقـد، وهم بصدد العزم على أخذ الثأر، وتحيّن الفرصة المناسبة لذلك.

ولأجل ذلك مشـى عبدالله بن أبي ربيعة، وعكـرمة بن أبي جهـل، وصفوان بن أُميّة، في رجـال من قريش ممّن أُصيب آبـاؤهم وأبناؤهم و إخوانهم يـوم بدر، فكلّموا أباسفيان ومن كانـت له في تلك العير من قريش تجارة، فقالـوا: يا معشر قريش، إنّ محمّداً قد وتركم، و قتـل خياركم، فأعينونا بهذا المال(اشارة إلـى العير الّتي أقبل بها أبوسفيـان من الشام إلى مكّـة) على حربـه، فلعلّنا ندرك منـه ثأرنا بمن أصـاب منّا، ففعلوا، وفي ذلك نزل قوله سبحانه:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَـرُوا يُنفِقُونَ اَمْوَالَهُمْ لِيَصُـدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَـا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا اِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾(الأنفال/ ٣٦)[2].

فـاجتمعت قـريـش لحرب رسـول الله(صلّى الله عليـه و آلـه و سلّم)، و مـن أطاعهم من قبائل كنانة، وأهل تهامة. وكان أبو عزّة عمرو بن عبدالله الجمحي قد منّ عليه رسول الله يوم بدر، و كان فقيراً، ذا عيال وحاجة، وكان في الأسارى، فقال: إنّي ذو عيال وحاجة، فامنن عليّ صلّى الله عليك؛ فمنّ عليه رسول الله. فقال له صفوان ابن أُميّة: يا أبا عزّة إنّك إمروٌ شاعر، فـأعنّا بلسانك، فاخرج معنا؛ فقال: إنّ محمداً قد منّ عليّ، فـلا أُريد أن اظاهر عليه. قال: بلىٰ، فاعنـا بنفسك، فلك الله عليّ إن رجعت أنْ اغنيـك، وإن أصبتَ أن أجعل بناتـك مع بناتـي يصيبهن ما أصابهـن من عسر ويسر. فخرج أبو عزّة في تهامة.

---

(١)السيرة النبويّة ج١ ص٦٤٨.

(٢)السيرة النبويّة ج٢ ص٦٠، و مجمع البيان ج٢ ص٨٣٢، نقلاً عن أبي إسحاق.

خرجت قريش بحدّها وجدّها، وحديدها وأحابيشها[1] و من تابعها من بني كنانة، و أهل تهامة، وخرجت معهم النساء في الهوادج التماس الحفيظة وألاّ يفرّوا. فخرج أبوسفيان بهند بنت عتبة، وخرج عكرمة بأمّ حكيم، وهكذا.

فخرجوا حتّى نزلوا على شفير الوادي مقابل المدينة، وهم ثلاثة آلاف بمن انضم إليهم، وكان فيهم من ثقيف مائة رجل، وخرجوا بعدّة وسلاح كثير، وقادوا مائتي فرس، وكان فيهم سبعمائة دارع، وثلاثة آلاف بعير.

ثم إنّ العباس بن عبدالمطلب أخبر النبي(صلّى الله عليه و آله و سلّم) بنيّة القوم، ومسيرهم نحو المدينة وعددهم وعُدتهم، فكتب كتاباً وختمه، واستأجر رجلاً من بني غفار، واشترط عليه أن يسير ثلاثاً، فوجد رسول الله بقباء، فدفع إليه الكتاب، فقرأه عليهم أُبيّ بن كعب، واستكتم أُبيّاً ما فيه. فدخل منزل سعد بن الربيع، فأخبره بكتاب العباس، وجعل سعد يقول: يا رسول الله إنّي لأرجو أن يكون في ذلك خير.

فلمّا سمع رسول الله نزولهم على شفير الوادي، شاور قومه في الخروج عن المدينة، أو البقاء فيها، فاختلفت آراء أصحابه، فكان عبدالله بن أُبيّ وأصحابه يكرهون الخروج، فقالوا: يا رسول الله أقم بالمدينة لاتخرج إليهم، فو الله ما خرجنا منها إلى عدوٍ لنا قطّ إلاّ أصاب منّا، ولا دخلها علينا إلاّ أصبنا منه.

وكان الشّباب من أصحاب الرّسول يصرّون على الخروج، ويقولون: «اخرج بنا إلى أعدائنا لا يرون إنّا جبنا عنهم وضعفنا».

فلمّا رآى رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) اصرارهم على الخروج، وهم يقولون: (هي احدى الحسنيين أمّا الشهادة وأمّا الغنيمة)، صلّى رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) الجمعة بالنّاس، ثم وعظهم، وأمرهم بالجد والجهاد، ثم صلّى العصر، وصفّ النّاس له ما بين منبره وحجرته، فجاء هم سعد بن معاذ، وأسيد بن

---

(١)الأحابيش من اجتمع إلى العرب و انضمّ إليهم من غيرهم.

حضير، فقالا للنّاس: قلتم لرسول الله ما قلتم، واستكرهتموه على الخروج، فردّوا الأمر إليه، فما أمركم فافعلوه، فبينا القوم على ذلك، إذ خرج رسول الله قد لبس لامّته ودرعه، وحزم وسطها بمنطقة من حمائل سيف من أدم، فقالوا يا رسول الله: استكرهناك، ولم يكن ذلك لنا، فإن شئت فاقعد صلّى الله عليك، فقال رسول الله: ما ينبغي لنبيّ إذا لبس لامّته أن يضعها حتّى يقاتل، فخرج في ألف من أصحابه[1].

عودة المنافقين القهقرى إلى المدينة:

كان عبدالله بن أُبَيّ ممّن أبدى الإصرار على الإقامة في المدينة والتحصّن بها فلمّا رأى أنّ رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) ترك رأيه وأخذ برأي الآخرين، فقال: أطاعهم وعصاني، ما ندري علام نقتل أنفسنا هاهنا، فرجع بمن اتّبعه من قومه من أهل النفاق والريب، وهم ثلث الناس، واتّبعهم عبد الله بن عمرو، فقال: ياقوم أُذكّركم الله ألاّ تخذلوا قومكم ونبيّكم عندما حضر من عدوّهم؛ قال عبد الله بن أبيّ: لو نعلم أنّكم تقاتلون لما أسلمناكم، ولكنّا لا نرى أنّه يكون قتال.

فلمّا استعصوا عليه وأبوا إلاّ الإنصراف عنهم، قال: أبعدكم الله أعداء الله، فسيغني الله عنكم نبيّه.

و في ذلك نزل قوله سبحانه: ﴿**وَ قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ اَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَ تَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ اَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلاِيْمَانِ يَقُولُونَ بِاَفْوَاهِهِمْ مَالَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ اَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ**﴾(آل عمران/ ١٦٧).

و قد أوجد رجوع رئيس النفاق في أثناء الطريق شقاقاً وخلافاً بين أصحاب النّبي(صلّى الله عليه و آله و سلّم) على نحوين:

١ـ فقال قوم من المسلمين: نقاتل قريشاً، وقال آخرون: لا نقاتلهم، وفي ذلك نزل قوله سبحانه ﴿**فَمَا لَكُمْ فِى الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ اَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا اَتُرِيدُونَ**

---

(١)المغازي للواقدي، ج١ ص٢١٣، و السيرة النبويّة ج٢ ص٦٣.

أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً﴾(النساء/ ٨٨).

فالآية تشير إلى أنّ المسلمين صاروا في أمر ما صار إليه المنافقون فرقتين مختلفتين، فمنهم من مال إلى مقالتهم ومنهم من يخالفهم في الرأي.

٢ـ همّت طائفتان من المسلمين أن تأخذ برأي رئيس النفاق، ويرجعا في أثناء الطريق، وهما بنو سلمة وبنو حارثة من الأنصار، وإليه يشير قوله سبحانه:

﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلاَ وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾(آل عمران/ ١٢١و١٢٢).

نزول رسول الله أرض أُحد:

لمّا انتهى رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) إلى أُحد، جعل جبل أُحد خلف ظهره، واستقبل المدينة، وجعل عينين [١] عن يساره،وجعل الرماة وهم خمسون رجلاً على عينين عليهم عبد الله بن جبير، فقال لرئيسهم: انضح الخيل عنّا بالنّبل لا يأتونا من خلفنا،إن كانت لنا أو علينا، فأثبت مكانك لا نؤتين من قبلك.

ثم قام رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) وخطب الناس وقال: إنّ جهاد العدو شديد، شديد كربه، قليل من يصبر عليه، إلاّ من عزم الله رشده، فإنّ الله مع من أطاعه، و انّ الشيطان مع من عصاه، فافتتحوا أعمالكم بالصبر على الجهاد، والتمسوا بذلك ما وعدكم الله [٢].

و كان للمشركين كتيبتان ميمنة عليها خالد بن الوليد، وميسرة عليها عكرمة بن أبي جهل. وجعل رسول الله ميمنة، وميسرة، ودفع لواءه الأعظم إلى مصعب بن

---

(١)جبل بأُحد له هضبتان بينهما معبر ينتهي إلى ساحة القتال.

(٢)راجع المغازي للواقدي ج١ ص٢٢٢، و للخطبة صلة.

عمير، ودفع لواء الأوس إلى أسيد بن حضير، ولواء الخزرج إلى سعد أو حباب بن المنذر، والرماة يحمون ظهورهم ، يرشقون خيل المشركين بالنّبل .

وعند ذلك دنا القوم بعضهم من بعض فقدّمت قريش صاحب لوائهم طلحة بن أبي طلحة ، وصفّوا صفوفهم ، وأقاموا النساء خلف الرجال بالأكبار والدفوف ، وهند وصواحبها يحرّضن ويَذْمُرن[1]الرجال ويذكرن من أُصيب ببدر.

وصاح طلحة بن أبي طلحة : مَن لبني عبد الدار؟ وكانت راية قريش يوم ذلك بأيدي هؤلاء ، فقال علي(عليه السلام) : هل لك في البراز؟ قال طلحة : نعم، فبرزا بين الصفّين ، ورسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) جالس تحت الراية عليه درعان ومغفَر وبيضة ، فالتقيا ، فبدره عليّ ، فضربه على رأسه ، فمضى السيف حتّى فلق هامته حتّى انتهى إلى لحيته ، فوقع طلحة ، و انصرف علي[2].

ثمّ أخذ الراية أبو سعيد بن أبي طلحة ، فقتله علي و سقطت الراية ، فأخذها مسافع بن أبي طلحة ، فقتله علي . حتّى قتل تسعة نفر من بني عبد الدار، حتّى صارلواؤهم إلى عبد لهم أسود يقال له:صوأب ، فانتهى إليه علي ، فقطع يده اليمنى ، فأخذاللواء باليسرىٰ ، فضرب يسراه فقطعها ، فاعتنقها باليدين المقطوعتين ، فضربه على رأسه فقتله ، فسقط اللواء ، فأخذتها عمرة بنت علقمة الكنانية ، فرفعتها[3].

وقد كان لعليّ(عليه السلام) مواقف مشهودة كما كان لأبي دجانة ، والزبير بن العوّام ، وفي ظل بطولة هؤلاء ، ولفيف من غيرهم انهزمت قريش هزيمة نكراء لايلوون ، ونساؤهم يَدْعَوْن بالويل بعد ضرب الدفاف ، فلمّا انهزم المشركون تبعهم المسلمون يضعون السلاح فيهم حتّى أخرجوهم عن الساحة ثمّ اشتغلوا بعد وضع سيوفهم على الأرض بنهب ما استولوا عليه في معسكرهم .

---

(١)أي يحضضن الرجال باللوم على الفرار.

(٢)المغازي للواقدي ج١ ص٢٢٦ .

(٣)مجمع البيان ج١ ص٨٢٥ .

وعند ذلك قال بعض الرماة لبعض: لِـمَ تقيمون ههنا في غير شيء؟ قد هزم الله العدو، وهؤلاء إخوانكـم ينهبون معسكرهم، فادخلوا معسكر المشركيـن، فاغنموا مع إخوانكـم. فقال بعـض الرمـاة لبعض: ألـم تعلموا أنّ رسـول الله قال لكـم: «احموا ظهورنا، فلا تبرحـوا مكانكم، وإن رأيتمونا نقتل، فلا تنصرونـا، وإن رأيتمونا غنمنا، فلا تشـركونا» فقـال الآخر: لم يـرد رسول الله هذا، وقـد أذلّ الله المشركين وهـزمهم، فادخلوا المعسكـر، فانتهبوا مع إخوانكـم، فلمّا اختلفوا خطبهم أميرهـم عبد الله بن الجبير، و أمرهـم بأن لايخالفوا لرسول الله أمراً، فعصوا، فانطلقوا فلم يبق من الرماة مع أميرهم عبد الله بـن الجبير إلاّ نفراً ما يبلغون العشرة، واشتـرك المنطلقون في النهب، واشتغلوا بما إشتغل به سائر المسلمين.

الهزيمة بعد الإنتصار:

قد كـان الإنتصار حليف المسلمين فـي الغزوة، ولكن لمّـا خالف الرمـاة أمر رسول الله، وأخلـوا مكانهم ،رأى العدو أنّ جبـل العينين قد أضحـى خالياً من الـرماة والمدافعين، وكان جبـل العينين يقع على ضفّتين يتخللهما معبـر، وينتهي مداه إلى المعسكر، وقد أمر رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) بوقوف الرماة على الضفتين حتّى يمنعـوا من دخـول العدو مـن هذا المعبر علـى ساحـة القتال، والحيلـولة دون هجومـه عليهم من خلفهـم، ولمّا خالف الـرماة باخـلائهما، رأى العدو أنّ الفـرصة مساعدة لمباغتة المسلمين، فأدار خالدبن الوليد ومن معه من وراء المسلمين[1] فورد المعسكر من هذا المعبر على حين غفلة من المسلمين بعد ما قتل من بقي من الرماة فوق الهضبة، وعند ذلك أثخنوا المسلمين ضرباً وقتلاً، فألقى كل مسلـم ما كان بيده ممّـا انتهب، و عـاد إلى سيفـه يسلّه ليقـاتل بـه ولكنّ هيهـات هيهات لقـد تفرّقـت الصفوف، وتمـزّقت الـوحدة، بعـد أن كانـت تقاتـل تحت لـواء قيادة قـويّة حـازمة حكيمة، وهـي الآن أصبحت تقـاتل ولا قيـادة لها، فلـم يكن عجبـاً أن ترى مسلمـاً يضرب مسلماً بسيفه، وهو لا يكاد يعرفه.

---

(١)و لعلّه نجح لذلك بإدارتهم على ظهر جبل أُحد حتّى دخل المعسكر من هذا المعبر.

النداء بنعي النّبي :

والذي زاد في الطّين بلّة وأعان على تمزّق الصفوف، وتفرّق المسلمين عن ساحة الحرب، ولجوئهم إلى مخابئ الجبل وثناياه، سماعهم خبراً مكذوباً يهتف بموت النّبي، إذ نادى أحد المشركين أنّ محمّداً قد قتل، فعند ذلك سقط ما في أيدي المسلمين، وتفرّقوا في كل وجه، وصعدوا الجبل، والتجاءوا إلى المخابئ، فلم يبق إلاّ الأقل القليل من أصحابه.

هذه هي الحالة التّي صار إليها المسلمون. وأمّا المشركون، فقد امتلأوا فرحاً وطرباً، واستنهضت هممهم كل يريد أن يشفي غليله بالمساعدة على الإجهاز على النبيّ(صلّى الله عليه و آله و سلّم) .

و في هذه المرحلة الرهيبة كيف يتصوّر حال النبيّ؟ فهو بين تجرّع مرارة جلاء أصحابه من ساحة القتال، وبين مضض هجوم عدوّه بشراسة وحماسة تجاه موقعه وموضعه الّذي ربض فيه.

فلم يصمد معه في ساحة المعركة إلاّ شرذمة قليلة، وعلى رأسهم ابن عمّه علي ابن أبي طالب، وأبو دجانة سمّاك بن خرشة، وكلّما حملت طائفة على رسول الله استقبلهم علي(عليه السلام) ، فدفعهم عنه حتّى تقطّع سيفه، فدفع إليه رسول الله سيفه ذا الفقار، وانحاز رسول الله إلى ناحية جبل أحد، فصار القتال من وجه واحد، فلم يزل علي يقاتلهم حتّى أصابه في رأسه ووجهه ويديه سبعون جراحاً. كان علي يدافع عن ساحة النّبي، والنّبي يريد اللجوء إلى جانب الجبل، كان النّبي على هذه الحالة إذ عرفه أحد أصحابه وهو كعب بن مالك، عرفه من عينيه وهما تزهران من تحت المغفر، فنادى بأعلى صوته: يا معشر المسلمين، أبشروا، هذا رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) . فأشار إليه رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم): أن أنصت[1] و إذا أردت أن تقف عن كثب على حقيقة الحال، وعلى ما حاق

---

(١) السيرة النبويّة ج٢ ص٨٣، و المغازي للواقدي ج١ ص٢٣٦ .

بالمسلمين من محنة وبلاء، وتفرّق وتشتّت، وهبوط معنويّاتهم، وخوار عزائمهم، فاستمع إلى هذا النص الّذي يرويه لنا ابن هشام حيث يقول:

انتهى أنس بن النضر، عم أنس بن مالك، إلى عمر بن الخطاب وطلحة بن عبيدالله، في رجال من المهاجرين والأنصار، وقد ألقوا ما بأيديهم، فقال: ما يجلسكم؟ قالوا: قتل رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) . قال: فماذا تصنعون بالحياة بعده؟ قوموا فموتوا على مامات عليه رسول الله(صلّى الله عليه و آله وسلّم)، ثم استقبل القوم، فقاتل حتّى قتل، وبه سمّي أنس بن مالك[1].

قد كان يوم أُحد يوم بلاء ومحنة وتمحيص. أكرم الله تعالى فيه من أكرم بالشّهادة، ومحص فيه من لم يكن له ثبات عزم، وقوّة شكيمة في الدّفاع عن حريم الإسلام.

ولأجل فرار المسلمين، وجلائهم ساحة المعركة رشق العدو بالحجارةوجه النّبي(صلّى الله عليه و آله و سلّم) فاثقلوه جراحاً، فشجّوا وجهه، وكسروا رباعيته، ولولا أنّ هنالك رجالاً مخلصين لنجدته، لقضي الأمر، ولكنّه سبحانه كتب على نفسه نصر المؤمنين، وإعزاز الرّسول، وتمكين دعوته.

إنّ النّبي(صلّى الله عليه و آله و سلّم) مشى وحوله لفيف من أصحابه إلى فم الشعب، فلمّا استقرّ به الحال جاء علي بماء غسّل عن وجه النبيّ الدم، وصبّ على رأسه وكان النبيّ يقول: اشتدّ غضب الله على من أدمى وجه نبيّه، ونزع أبو عبيدة بن الجرّاح حلقتي المغفر من وجه الرّسول، فسقطت ثنيّتاه. ولمّا وقف المسلمون على أمر النبيّ، وعلموا موضعه تقاطروا عليه تترى من كل جانب، والتفّوا حوله.

وأمّا قريش فطارت بنصرها سروراً، وحسبت نفسها أنّها انتقمت لبدر أشدّ الإنتقام، حتّى بعد ما وقفوا على أنّ النبيّ حي لم يقتل، وحينما أراد أبوسفيان الإنصراف أشرف على الجبل ثم صرخ بأعلى صوته فقال: إنّ الحرب سجال يوم بيوم

(١) السيرة النبويّة لابن هشام ج١ ص٨٣.

أعل هبل ـ أي أظهر دينك ـ فأمر رسول الله أصحابه أن يقولوا : الله أعلى وأجلّ لاسواه، قتلانا في الجنّة، وقتلاكم في النار .

وقال أبوسفيان : «إنّ لنا العزّى ولا عزّى لكم» .

فأمر رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) أن يجيب أصحابه ويقولوا : «الله مولانا ولا مولى لكم» .

ثُمَّ رجعت قريش إلى أثقالهم، وركّبوا الأثقال، فتركوا ساحة المعركة . فخرج المسلمون يتبعون قتلاهم، فلم يجدوا قتيلاً إلاّ مُثّل به ، إلاّ حنظلة كان أبوه مع المشركين فترك له، و وجدوا حمزة بن عبد المطّلب عم النبيّ قد بقر بطنه ، وحمل كبده، احتملها وحشي، وهو قتله، يذهب بكبده إلى هند بنت عتبة في نذر نذرته حين قتل أباهايوم بدر. وأقبل المسلمون على قتلاهم يدفنونهم ثُمَّ رجعوا إلى المدينة . فلمّا دخل النبيّ(صلّى الله عليه و آله و سلّم) إلى أزقّتها إذا النوح والبكاء في الدور. فقال : ما هذا؟ قالوا : هذه نساء الأنصار يبكين على قتلاهنّ . وقال رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) حين سمع البكاء : لكنّ حمزة لا بواكي له، واستغفر له . فسمع ذلك سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة، ومعاذ بن جبل، وعبد الله بن رواحة، فمشوا في دورهم، فجمعوا كل نائحةو باكية كانت بالمدينة للبكاء على حمزة .

و عند ذلك بدت شماتة اليهود و قالوا : لو كان نبيّاً ما ظهروا عليه، ولا أُصيب منه ما أُصيب . وقال المنافقون للمسلمين : لو كنتم أطعتمونا ما أصاب الذي أصابوا منكم .

ثُمَّ قدم رجل من أهل مكّة على رسول الله ، فاستخبرهم عن أبي سفيان و أصحابه، فقال : نازلتهم، فسمعتهم يتلاومون يقول بعضهم لبعض : لم تصنعوا شيئاً أصبتم شوكة القوم وحدّهم، ثمّ تركتموهم و لم تبروهم، فقد بقي منهم رؤوس يجمعون لكم، فلمّا كان الغد من يوم أُحد أذّن مؤذّن النبيّ(صلّى الله عليه و آله وسلّم) في المسلمين بطلب العدو، و استنفرهم لمطاردته على أن لايخرج إلاّ من حضر الغزوة،و خرج المسلمون، فوقع في روع أبي سفيان أنّ أعداءه جاءوا من المدينة بمدد

جديـد، فخاف لقاءهـم، و بلغ النبيّ(صلّى الله عليـه و آله و سلّم) حمـراء الأسد[1] فأقام بها ثـلاثة أيّام. فكان أبو سفيان و أصحـابه بالروحاء، فمرّ بـه معبد الخزاعي، وكان قـد مرّ بالنبـيّ و من معه، فسأل عـن شأنهم، فقـال: إنّ محمداً قدخـرج في أصحابه يطلبكم في جمـع لم أر مثله قط يتحرّقون عليكم تحرّقـاً، قد اجتمع معه من كان تخلّـف عنه في يـومكم، ونـدموا على مـا صنعوا، فيهم مـن الحنق شـيء لم أر مثله. فلمّا سمـع أبو سفيان مقالة معبد، خـاف على نفسه و أصحابه، فشـدّ عزيمته علـى الرجـوع قول صفـوان بن أُميّـة حيـث قال: إنّ محمـداً و أصحابـه قدغضبـوا، و قد خشينا أن يكون لهم قتال غير الذي كان، فارجعوا، فرجعوا إلى مكّة.

و قد قتـل من المسلميـن في سـاحة أُحـد تسعة و أربعـون رجلاً، و قتـل من المشركين ستّة عشر رجلاً[2].

هذه إطلالة سريعة على غزوة أُحد تعرّضنـا لذكرها لتكون معيناًعلى فهم ما ورد حول هـذه الغزوة من آيات الـذكر الحكيم، فانّ مـا ورد في المغازي و السّيرة بمثـابة القـرائن التي يستعـان بها علـى رفـع اجمال الآيـات و مـا أُبهم معنـاه منها. و إليـك إستعراض ما ورد في الذكر الحكيم مع الاشارة إلى ما يستفاد منها من عبر و عظات:

١ ـ حنكة النبيّ العسكريّة:

قد أوضحت الخاتمة التي آل إليها مصير المسلمين قيمة ما ألزم به النبيّ الرماة حيث قال: «احموا لنا ظهورنا فإنّا نخاف أن نؤتى من ورائنا، والزموا مكانكم لا تبرحوا منه وإن رأيتمونـا نهزمهم، وإن رأيتمونا نقتل فـلا تعينونا، ولا تدفعوا عنّـا، اللّهم إنّي أُشهدك عليهم، وأرشقوا خيلهم بالنّبل».

---

(١) موضع على ثمانية أميال من المدينة.

(٢) لاحظ السيرة النبـويّة لابن هشام ج٢ ص٨٥ ـ ١٠٥، ومغازي الـواقدي ج١، ٢٣٩ـ٢٤٩، و دلائل النبوة ص٢١٢ ـ ٢١٩ و غيرها.

و لكنّ يالـلأسف إنّ الـرماة خـالفوا الـرّسول وعصـوه، فبقيت ثلّـة منهم فـي موقفهم، ونزل كثير منهم من الجبل للنّهب وجمع الثروة، حتّى جاء خالد بن الوليد، فقتل من بقي منهم، ثّم دخل ساحة المعـركة من دون مقاومة تذكـر، فأعمل السيف فيهم.

وهذا إن دَلّ على شيء فإنّما يدلّ على حنكة النبيّ العسكريّة أوّلاً، وعلى وجود حالة عدم الرضوخ التامّ بين أصحابه لأوامره ثانياً، حيث أوّلوا أمره(صلّى الله عليه و آله و سلّم) بتـأويلات لغايـة اشباع نهم شهواتهـم بجمع المال، وإلـى ذلك يشير قـوله سبحانه:

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّـهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُمْ مَن يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّـهُ ذُوفَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾(آل عمران/ ١٥٢).

وإليك تحليل ما تضمّنته هذه الآية:

أ ـ قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ﴾ يدل علـى أنّه سبحانه وعدهم بالنصر، ولعلّ النصر هو ما ورد في قوله سبحانه:

﴿بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلافٍ مِنَ المَلاَئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾(آل عمران/ ١٢٥).

نعم وعد سبحانه بالإنتصـار بشرطين لا مطلقاً، وقد ألمحت الآيـة إليهما في قوله:

١ ـ ﴿إِنْ تَصْبِرُوا﴾.

٢ ـ ﴿وَتَتَّقُوا﴾.

و لكنّ الـرماة المستقـرّين علـى الهضبة لم يصبـروا، ولم يتّقـوا مغبّة مخـالفة الرّسول، فآثروا حطام الدّنيا على الآخرة.

ب ـ قوله سبحانه : ﴿حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَا تُحِبُّونَ مِنكُم مَن يُرِيدُ الدُّنْيَا ...﴾ يدلّ على أنّه طرأ الفشل عليهم، وتنازعوا في أمر البقاء والمغادرة، وعصوا أمر الرّسول، وكان منهم من يطمح في نيل حطام الدّنيا، ومنهم من آثر الآخرة وطاعة الرّسول على نيل شهوات الدّنيا.

ج ـ ولكنّ رحمته الواسعة شملتكم، فكفّكم عن المشركين بعد ظهور الفشل والتّنازع والمعصية، وعفى عن عصيانكم كما يدلّ عليه قوله :

﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُم لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾

د ـ ليبتليكم : أي كان هذا الخلاف مَحَكّاً قَويّاً لتمييز الطالب للدّنيا عن طالب الآخرة، بل لتمييز المؤمن عن المنافق، والمؤمن الراسخ في إيمانه الثّابت على عزيمته، من المتلوّن السريع الزوال، ومع ذلك فإنّ الله سبحانه عفا عنهم بفضله كما قال :

﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾

٢ـ تصدّع جيش المسلمين و انحلال زمامه :

لقد مَرَّبك أنّ خالد بن الوليد باغت المسلمين من ورائهُم، وقد وضعوا سيوفهم على الأرض، والتهوا بجمع الغنائم، فعندما رأوا سيوف العدو على رؤوسهم، وبريق أسنّة رماحهم،أصابهم الذهول، و تفرّقوا في كلّ حدب وصوب، فتركوا ما كان بأيديهم، وصعدوا الجبل من دون أن يلتفتوا ورائهم إلى النبيّ والمؤمنين، وأنّهم تركوه أثناء المعركة الطاحنة، مع أنّ النبيّ كان يدعوهم بقوله : إليّ عباد الله، إليّ عباد الله، إليّ عباد الله، وهم لا يلتفتون، فعند ذلك ملأت قلوبهم الهموم بعضها أشدّ من بعض، همّ الإنتكاسة غير المرتقبة، ثمّ همّ فقد الأحبّة والأعزّة، ثم تعالى صوت الناعي بقتل النبيّ الأكرم، وإلى ذلك يشير قوله سبحانه :

﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلاَ تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمّاً

بِغَمٍّ لِكَيْلاَ تَحْزَنُوا عَلَى مَافَاتَكُمْ وَلاَ مَا اَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾(آل عمران/ ١٥٣) وإليك تحليل ما تضمّنته الآية:

في قوله سبحانه: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلاَ تَلْوُونَ عَلَىٰ اَحَدٍ﴾ تلويح بفرارهم عن ساحة الحرب كما أنّ قوله: ﴿والرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي اُخْرَاكُمْ﴾ إشارة إلى النداءات الّتي تعالت من فم النبيّ في تلك الأثناء، تدعوهم للصمود والثّبات في المعركة:

وقوله: ﴿فَاَثَابَكُمْ غَمّاً بِغَمٍّ﴾ إشارة إلى تراكم الغموم والهموم والآلام على قلوب المسلمين، وقوله: ﴿لِكَيْلاَ تَحْزَنُوا عَلَى مَافَاتَكُمْ وَلاَ مَا اَصَابَكُمْ﴾ اشعار بأنّ الغموم بلغت حدّاً نسوا معه مافاتهم من الغنائم.

٣ـ على أعتاب الردّة

لم تكن زلّة القوم منحصرة بالفرار و اخلاء ساحة المعركة، وترك النبيّ(صلّى الله عليه و آله و سلّم) بين يدي المشركين، ومخالفة الرماة أوامره، بل بلغ أمرهم إلى أبعد من ذلك غوراً، حيث طرأ علىٰ قلوبهم ظنون أهل الجاهليّة، فظنّوا من الظنون الّتي لا يليق بتصوّرها إلاّ أهل الجاهلية، حيث انتابتهم حالة من الشكّ، وإلى ذلك ونحوه يشير قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ اَنزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الغَمِّ أَمَنَةً نُعَاساً يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِنكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ اَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَالحَقِّ ظَنَّ الجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الاَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الاَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي اَنْفُسِهِمْ مَا لاَ يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الاَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هٰهُنَا قُلْ لَوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ القَتْلُ اِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾(آل عمران/ ١٥٤).

ولأجل الوقوف على المزيد ممّا تضمّنته الآية الشريفة السابقة نتناول التعرّض لها جملة بعد جملة.

١ـ ﴿ثُمَّ اَنزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الغَمِّ أَمَنَةً نُعَاساً يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِنكُم﴾.

النّعاس ما يسبق النوم من فتور واسترخاء، وربّما يسمّى بالنّوم الخفيف، وقد نزل النّعاس، وغشىٰ طائفة من القوم ولم يعمّ الجميع بقرينة قوله: ﴿يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُم﴾، وكان هذا النّعاس بمثابة الرحمة بعد الغمّ الذي اعتراهم، فأزال عنهم الخوف بغلبة النوم ليستردّوا ما فقدوا من القوّة، وما عرض لهم من الارهاق والتّعب والضعف.

وكلمة﴿نُعَاساً﴾ يدلّ من قوله﴿اَمَنَةً﴾ للملازمة بين الأمنة والنوم، وقد قيل: الأمن منوّم والخوف مسهّر، وأمّا من هؤلاء الّذين غشيهم النّعاس دون غيرهم؟ فيحتمل أن يكونوا هم الّذين رجعوا إلى رسول الله بعد الانهزام والانكسار لمّا ندموا وتحسّروا، فهؤلاء بعض القوم، وهم النادمون على ما فعلوا، الراجعون إلى النبيّ، المحتفّون به، وكان ذلك حينما وصل النبيّ(صلّى الله عليه و آله و سلّم) إلى فم الشعب، ووقفت تلك الطائفة على أنّ النبيّ لازال على قيد الحياة لم يقتل، فرجعوا إليه يتقاطرون تترىٰ.

٢ـ ﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ اَهَمَّتْهُمْ اَنْفُسُهُمْ﴾ وهذه طائفة أُخرىٰ من المؤمنين لا من المنافقين، فإنّهم فارقوا النبيّ(صلّى الله عليه و آله و سلّم) ومن معه في أثناء الطريق وانخذلوا، ولهم شأن آخر سينبّئ الله سبحانه بهم بعد ذلك، وهذه الطائفة الثانية الموصوفة بـ﴿اَهَمَّتْهُمْ اَنْفُسُهُمْ﴾ لم يكرمهم الله بما أكرم به الطائفة الأُولىٰ من العفو، وإثابة الغمّ ثمّ الأمنة والنّعاس، بل وكّلهم إلى أنفسهم، ونسوا كلّ شيء، ولم يهتمّوا إلّا بأنفسهم.

وهذه الطائفة قد استولى عليهم الخوف، وذهلوا عن كلّ شيء سواهم، ولمّا لم يكن الوثوق بالله ووعده رسوله وصل إلى قرارة أنفسهم، لأنّهم كانوا مكذّبين للرّسول في قلوبهم لا جرم عظّم الخوف لديهم، وحقّ عليهم ما وصفهم الله به:

أ ـ ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الحَقِّ ظَنَّ الجَاهِلِيَّةِ﴾ فكانوا يبطنون في قرارة أنفسهم: «لو كان محمد نبيّاً حقّاً ما سلّط الله عليه الكفّار» وهذه مقالة لا يتفوّه بها إلّا من دان بالكفر.

ب ـ ﴿يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ﴾ والظّاهر أنّ المراد من الأمر هو الظّفر والنّصر في كلا الموردين، والمقصود من الضّمير في ﴿لَنَا﴾ هؤلاء بما أنّهم يشكّلون جزءاً من المسلمين وإن لم يكونوا منهم حقيقة، والمعنى:

يقول بعضهم لبعض على سبيل الإنكار والإستهجان: «هَلْ لَنَا مِنَ النَّصْرِ وَالفَتْحِ والظّفر نصيب»؟! يعنون أنّه ليس للمسلمين(لنا) من ذلك شيء، وإنّ الله سبحانه لا ينصر محمّداً(صلّى الله عليه و آله و سلّم) وبما أنّ النّصر وكون الدّين حقّاً كانا متلازمين عندهم، فاستنتجوا أنّ الدعوة المحمّديّة ليست حقّاً.

ثمّ إنّه سبحانه أجابهم في معرض تناول ذكرهم بقوله:

﴿إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ أي كلّ الأُمور بيده سبحانه حتّى النّصر والهزيمة، وإليه دعى محمّد(صلّى الله عليه و آله و سلّم)، وهو معتقد المسلمين، ولكن بمقتضى حكمته وسننه الّتي وضعها لتسيير شؤون الخلق، وربط فيها الأسباب بالمسبّبات، فهو وإن وعد رسله بقوله:

﴿كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾(المجادلة/ ٢١).

وقال: ﴿وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الغَالِبُونَ﴾(الصافّات/ ١٧٣).

ولكنّ تحقّق هذا الوعد مرهون بتوفّر الأسباب الكفيلة بالنصر، فإنّه سبحانه هو الذي وضع سنّة الأسباب والمسبّبات، فما كان سببه أقوى كان وقوعه أرجح سواء في ذلك الحقّ والباطل والخير والشر والهداية والضلالة والعدل والظلم، ولا فرق فيه بين المؤمن والكافر، والمحبوب والمبغوض، ومحمد وأبي سفيان، ولأجل ذلك كلّما توافقت الأسباب العاديّة على تقدّم هذا الدين وظهور المؤمنين كان النصر حليفهم، وحيث لم تتوافق الأسباب كتحقّق نفاق أو معصية لأمر النبيّ أو فشل أو جزع كانت الغلبة والظهور للمشركين على المؤمنين، وكذلك الحال في أمر سائر الأنبياء مع النّاس.

وإنّكم أيّها المنضوون تحت لواء المسلمين قد عصيتم أمر الرسول،

ولم تأتمروا بأمره، فأخليتم مواقعكم عاصين لأمره وآثرتم حطام الدّنيا والأدنى الخسيس، ومع ذلك تترقّبون النصر لكم والهزيمة للعدو! فكيف يقتطف الثمرة من لم يغرس شجرتها أو غرسها ولم يقم بأمرها؟

ثمّ إنّه سبحانه بعد هذه الإجابة يأخذ بتبيين ما كان يخامرهم من الأفكار الفاسدة.

ج ـ ﴿يُخْفُونَ فِى أَنفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَىْءٌ مَا قُتِلْنَا هَـٰهُنَا﴾.

الظّاهر أنّ قولهم: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ...﴾ تفسير للموصول في﴿مَا لَا يُبْدُونَ﴾ والفرق بين ما كانوا يظهرونه وما يضمرونه واضح، فقد كانوا يتظاهرون بالاستفسار في قولهم: «هل لنا من الأمر شيء» لغاية التشكيك، وهي وإن كانت فكرة خاطئة ولكن لمّا غلّفت بطابع الاستفسار لم تكن ذات بأس شديد.

ولكنّهم كانوا يخفون قولهم: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَىْءٌ مَا قُتِلْنَا هَـٰهُنَا﴾ يريدون بذلك الاستدلال على بطلان الدعوة المحمّدية بحجّة الانكسار لأنّ النبيّ الأكرم كان يقول: الأمر بيد الله وأنا رسوله، فلو كان ما يدّعيه حقّاً بأنّ الأمر كان بيد الله لا بيد الآلهة والأرباب المعبودة بين الناس وكان محمّد من جانبه لعمّنا النصر، ولكنّه النهاية كانت على العكس من ذلك، فكيف يمكن أن يكون الأمر بيد الله غير مقسّم على الآلهة والأرباب المدبرّة للأمور بزعمهم.

ولأجل انّ تلك الفكرة كانت فكرة أهل الشرك والوثنيّة سمّاها سبحانه ﴿ظَنَّ الجَاهِلِيَّة﴾.

ولكنّهم تناسوا ماجرت عليه سنّته الحكيمة، فإنّ الأمر بيد ا لله ولكنّها تجري وفق الأسباب والمسبّبات، فمن لم يأخذ بأسباب النصر لم يكن حليفه.

ثمّ إنّه سبحانه أجاب عن تلك الفكرة بوجوه ثلاثة:

الأوّل: ﴿قُلْ لَوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾ فالآجال محدودة والأعمار مؤقّتة بوقت لا تتعدّاه، فإن قتل من قتل منكم في المعركة ليس دليلاً على عدم كون الأمر بيد الله أو أنّ الدعوة المحمّديّة ليست على حق، بل لأجل القضاء الإلهي الّذي لا مناص من الوقوع في نفوذه و امضائه، فقد كان في قضائه اضطجاع هؤلاء في هذه المضاجع، فلو لم تكونوا خرجتم إلى القتال لبرز الّذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم، فلا مفرّ من الأجل المسمّى الّذي إذاحان لا يتقدّم ساعة ولا يتأخّر.

الثاني و الثالث: ﴿وَ لِيَبْتَلِيَ اللهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَ لِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أي وقع ما وقع في غزوة أُحد لظهور ما انطوت عليه سريرة كلّ نفس حتّى يتميّز المؤمن من المنافق و المجاهد من المتقاعد، و قد جرت سنّة الله على عموم الابتلاء و التمحيص و هي حاكمة على جميع الأُمم لغاية التمحيص.

نعم ليست الغاية من ابتلائه سبحانه لعباده هو التعرّف لما يكمن في ضمائرهم فإنّه سبحانه عليم بالسرائر مطّلع على الضمائر لايعزب عنه مثقال ذرّة في الأرض و لافي السماء، بل الغاية هي الإبتلاء و التمحيص و وصول كلّ ما بالقوّة إلى الفعل من الكفر و الإيمان، و إليه يشير قوله سبحانه: ﴿وَ اللهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

و حصيلة البحث: انّ هذه الآية تشير إلى فريقين من المسلمين و المؤمنين الملتفّين حول الرسول المتنكّبين عَن المنافقين.

(أحدهما): طائفة وهبهم الله عزّ و جلّ بعد الغمّ نعاساً أمنة منه لإزالة ما انتابهم من الروع و الخوف و التفّوا حول الرسول بعد الندم.

(ثانيهما): طائفة شغلتهم أنفسهم لايتجاوز تفكيرهم نطاق ذاتهم من دون أن يتوجّهوا قيد طرفة صوبَ قائدهم و نبيّهم، و قد اعترتهم هواجس الجاهليّة الأُولى، فتارة يتفوّهون بها علانية بنحو من الشك و الترديد و الاستفسار بقولهم: ﴿هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ﴾ و أُخرى بصورة الجزم و القطع و اليقين بنحو الاخفاء و الاسرار

بقولهم: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هٰهُنَا﴾.

و الله سبحانه يجيب عليها:

١ ـ بأنّ أمر النصر بيد الله كما أخبر به النبيّ(صلّى الله عليه و آله و سلّم) ولكنّه مرهون بعوامل و أسباب غيبيّة و أُخرى اكتسابيّة خاصّة، و أنتم أيّها المعترضون قد فوّتم تحصيل تلك الأسباب و العوامل، فلايحق لكم الاعتراض بعد تقصيركم.

٢ ـ بأنّ لكل نفس أجلاً محدّداً لايتقدّم عليه و لايتأخّر.

٣ ـ إنّ في هذه النكسة الفادحة تمحيص لما في الصدور و القلوب فقد تميّز به المؤمن المثابر من المتظاهر بالإيمان، و بذلك يعلم أنّ القول بأنّ الصحبة كافية في تحقيق إتّصاف الرجل بالعدالة و النزاهة و الإستقامة شيء لاحقيقة له و لاأساس وقد تحقّق لديك بفضل هذه الآيات أنّ أصحاب النبيّ(صلّى الله عليه و آله و سلّم) إنقسموا إلى طوائف: فمن منافق نكص على عقبيه في أثناء الطريق و لم يشترك في القتال و تذرّع بقولهم: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ﴾(آل عمران/ ١٦٧).

و من مؤمن كابر أمر الرسول و خرج عن طاعته و أخلى ساحة القتال و لكنّه لم تنتابه و تعتريه شبهات و ظنون أهل الجاهليّة، فتاب و رجع إلى النبيّ بعد جلاء المعركة و هم من مصاديق قوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾(الأعراف/ ٢٠١).

و من متظاهر بالإيمان لم يتمكّن الإيمان من قلبه حقّ التمكّن، فلمّا حاق به البلاءو رأى الانتكاسة المروّعة الرهيبة، ارتدّ القهقرى و صار يتفوّه بمقولات أهل الشرك و الجاهلية.

أضف إلى ذلك، الطائفة الثالثة الذين رجعوا أثناء الطريق و لم يساهموا النبيّ و المسلمين، و هؤلاء هم أتباع عبد الله بن أُبيّ المنافقون.

أفبعد هـذا يصحّ لنا القـول بأنّ كلّ صحـابي عادل؟!! و انّ العـدل و الصحبة متلازمان،كلّا و من يذهب إليه فإنّما يجترئ عظيماً.

و الذي يعرب عن أنّ بعضهم قد بلغ به الحـال إلى المشارفة على أعتاب الرّدة قوله سبحانه: ﴿وَ مَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَ مَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئاً﴾(آل عمران/ ١٤٤).

قال أنـس بن النضر: فـي السّاعة التي زاغـت فيها الأبصار و البصـائر و بلغت القلوب فيهـا الحناجـر، و حين فشـا في النّـاس أنّ رسول الله قـد قتل، و قـال بعض ضعفاء المؤمنين ليـت لنا رسولاً إلى عبد الله بن أُبـي فيأخذ لنا أماناً مـن أبي سفيان[١] و قال ناس من أهل النّفاق: إن كان محمّد قد قتل فالحقوا بدينكم الأوّل. قال أنس: إن كان محمـد قد قتـل فإنّ ربّ محمّـد لم يقتل، و مـا تصنعون بـالحياة بعـد رسول الله(صلّى الله عليـه و آله و سلّم)؟ فقـاتلوا علـى ما قاتـل عليه و موتـوا على مـا مات عليه، ثمّ قال: اللّهم إنّي أعتذر إليك ممّا قـال هؤلاء، و أبرأُ إليك ممّا جاء به هؤلاء، ثمَّ شدّ بسيفه فقاتل حتّى قتل ـ رضي الله عنه ـ، كما مرّ[٢].

فمحصّـل معنـى الآيـة علـى مـا فيهـا مـن سيـاق العتـاب و التـوبيـخ: انّ محمّداً(صلّى الله عليه و آله و سلّم) ليس إلاّ رسولاً من الله مثل سائر الرّسل ليس شأنه إلاّ تبليغ رسالـة ربّه لايملك من الأمر شيئـاً، و إنّما الأمر لله و الدين دينـه باق ببقائه، فما معنى اتّكاء إيمانكم على حياته، حيث يظهر منكم أنّ لو مات أو قتل تركتم القيام بالدين و رجعتم إلى أعقابكم القهقرى و اتّخذتم الغواية بعد الهداية.

و هذا السياق أقـوى شاهد على أنّهم ظنّـوا يوم أُحد بعد أن حمـي الوطيس انّ النبيّ(صلّى الله عليه و آله و سلّم) قد قتل فانسلّوا عند ذلك و تولّوا عن القتال.

---

(١) مجمع البيان: ج١ ص٥١٣.

(٢) لاحظ ص ٣٥١.

القصاص بالقسط :

إنّ المشركيـن لمّا مثّلوا بقتلـى المسلمين في أُحـد و بحمزة بن عبـد المطّلب فشقّوا بطنه، و أخـذت هند بنت عتبة كبده فجعلـت تلوكه، وجدعـوا أنفه و أُذنه... قال المسلمون:لئـن أمكننا الله منهم لنمثّلنّ بـالأحياء منهم فضلاً عـن الأموات، و في ذلك نزل قوله سبحانه: ﴿وَ إِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُـوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَ لَئِـنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْـرٌ لِلصَّابِـرِينَ*وَاصْبِر وَ مَـا صَبْـرُكَ إِلاَّ بِـاللهِ وَ لاَتَحْزَنْ عَلَيْهِـمْ وَ لاَتَـكُ فِي ضِيـقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾[1].

و روى السيوطي في الدر المنثور عن ابن عبّاس قال: قال رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) يـوم قتل حمزة و مثّل به: لئن ظفرت بقريـش لأُمثلنّ بسبعين رجلاً منهم، فـأنزل الله: ﴿وَ إِنْ عَاقَبْتُـمْ﴾ الآيـة، فقـال رسول الله(صلّـى الله عليـه و آلـه وسلّم): «بـل نصبر يا ربّ. فصبـر و نهى عن المثلة» و الظّـاهر أنّ الحكايـة الأُولى أوثق و ذلك لأنّ النبيّ(صلّـى الله عليه و آله و سلّم) أجلّ و أعلى شـأناً من أن يتمنّى قصاصاً فيه اجحاف و انتقاص بالآخرين.

و روى البيهقي عن محمّد بن كعب القرظي قال: لمّا رأى رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) حمزة بـالحال التي هو بها حين مثّل به، قـال: لئن ظفرت بقريش لأُمثّلنّ بثلاثيـن منهم، فلمّا رأى أصحاب رسـول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّـم) ما به من الجزع قالـوا: لئن ظفرنا بهم لنمثّلنّ بهم مثلة لم يمثّلها أحـد من العرب بأحد، فأنزل الله عزّ و جلّ: ﴿وَ إِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ إلى آخر السورة فعفا رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم)[2].

و الإختلاف بين الحكايتين واضح لكنّ محمّد بن كعب القرظي من بني قريظة الذين تمّـت إبادتهم أيام رسول الله في المـدينة و لم يبق منهم إلاّ قلّـة قليلة، لا يعبأ بنقله، و لعلّ غرضه الازدراء بالنبيّ و ادّعاء عدم قيامه بمقتضى العدل.

---

(١) مجمع البيان: ج٣ ص٦٠٥.

(٢) دلائل النبوّة، ج٣ ص٢٨٦، و السيرة النبويّة لابن هشام ج٢ ص٩٥.

مطاردة العدو:

ثـمّ إنّه لمّـا بلغ رسـول الله أنّ العـدو بصدد معـاودة الكـرّة إلى المـدينة حتّـى يستأصل بقية المسلمين، فأمر رسول الله المـؤذّن أن يؤذّن بالخروج إلى مطاردة العدو و أن لايخـرج إلاّ مـن حضـر الأمـس فـي المعـركة، و إليـه يشيـر قـولـه سبحـانـه: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا للهِ وَ الرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ القَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَ اتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ* الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَ قَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَ نِعْمَ الوَكِيلُ* فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَ فَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَ اتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللهِ وَ اللهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ * إِنَّمَا ذٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَ خَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾(آل عمران/ ١٧٢ـ١٧٥).

و يستفاد من جملتها:

(أوّلاً): إنّ المؤمن إذا انتابته الهزيمة و اعتراه الإنكسار الظاهري لايصل به الأمر إلى فقـد الثقة بالله سبحانـه و تعالى، فلو تمكّـن من معاودة الكرّة لتحقيـق الإنتصار لهبّ مسرعاً و لـم يقعد به القرح و لايكون جليس البيت لأجل ملمّـة ألمّت به، و إليه يشير قوله سبحانه: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا للهِ...﴾.

(و ثانياً): لو بلغهم تأهّب العدوّ لكرّ عليهـم ثانياً وجاءت النذر يخوّفونهم من بأس العدو و مـازادهم إلاّ إيماناً وثقـة و انقطاعاً إلى الله و قـالوا: ﴿حَسْبُنَا اللهُ وَ نِعْمَ الوَكِيلُ﴾.

(و ثالثـاً): إنّ ما جاءت بـه النذر من الأنباء إنّمـا كانت مـن الشياطين الّـذين يخوّفون أولياءهـم، و أمّا المؤمنون فإنّهم قد خرجوا عن نطاق تـأثير تلك الإرهاصات النفسيّة.

غزوة أُحد بين السلبيات و الإيجابيّات:

إنّ غزوة أُحد كسائر الغزوات التي تمخّض عنها ما هو سلبي و ما هو إيجابي، و قد ورد في الـذّكر الحكيم آيات تشير إلـى جملتها، و إليك نصوصها مشفـوعة بما

يليق بها من التحليل :

قال عزّ و جلّ : ﴿وَ تِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَ لِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَ اللهُ لايُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ .

﴿وَ لِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ يَمْحَقَ الكَافِرِينَ﴾ .

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الجَنَّةَ وَ لَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَ يَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ .

﴿وَ لَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ المَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَ أَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾(آل عمران/ ١٤٠ـ١٤٣) .

﴿مَا كَانَ اللهُ لِيَذَرَ المُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَميزَ الخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الغَيْبِ وَ لكِنَّ اللهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسلِهِ مَن يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَ إِنْ تُؤْمِنُوا وَ تَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾(آل عمران/ ١٧٩) .

و يستفاد من هذه الآيات ما يلي :

١ ـ الانتصار و الانكسار من سنن الله :

إنّ من سنن الله تعالى الطبيعية في الأُمم انّه لم يكتب على جبين أُمّة السيادة والإنتصار في جميع الأزمنة والأمكنة ، وكذلك شأن الهزيمة . فهي تعيش بين هذين مقبلة ومدبرة تارة أُخرى كما يشير إليه قوله سبحانه :

﴿وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ... ﴾

٢ـ التمحيص بالمحنة و البلاء :

إذا كتب النصر على جبين أُمّة على ممرّ الأعصار والدهور لم يتميّز المؤمن عن المنافق والصابر المجاهد عن المتهاون المتقاعد ، وقد كان المسلمون قبل لقاء العدوّ

يتمنّون الموت ولكنّهم فشلوا في الإمتحان عنـد اللّقاء كما يشير إليه قوله : ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ ...﴾ وقد طبّقت غزوة اُحد ذلـك المقياس وقد عرفت ما آل إليه جيش المسلمين حيث انقسموا إلى ثـلاث طوائف أو أكثر، و إليه يشير قوله سبحانه : ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا ...﴾ وقوله سبحانه : ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ وقال أيضاً : ﴿مَا كَانَ اللَّـهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ...﴾ .

٣ـ خُلّص الغزاة شهداء على الأعمال :

وقد بلـغ إخلاص بعض الغـزاة إلى حدّ جعلهـم يتسنّمون درجة الشهـادة على الأعمال وهي درجة رفيعة تحتاج إلى بصيرة مثاليّةو كماليّة في القلب حتّى يشهد على سائر إخوانه بخيـر أو شرّ كما يشير إليه قولـه سبحانه : ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء﴾ ومع ذلك فـربّما يحتمل أن يراد مـن الشهداء في الآية هـو الشهيد في المعركـة والمضحّي بنفسه في سبيل إعلاء كلمة الحق .

٤ـ الجنّة رهن الجهاد والصمود :

إنّ استحقاق دخول الجنّة لا يكتسب بمجرّد التفوّه بمحض عبارات اللّسان بل يحتاج إلى عظيم جهاد بالنفس والنفيس .

و إليه يشير قولـه سبحانه : ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَـدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّـا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّـذِينَ جَاهَدُوا مِنكُم وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ .

هذا ما يستفاد من جملة هذه الآيات ، وهناك طائفة اُخرى من الآيات وردت في شأن تلك الغزوة فيها من العظات والحكم البليغة .

٥ـ استنهاض الهمم والعزائم :

لا شكّ إنّ الهزيمة والانكسار في الحرب من أعظم عوامل تثبيط العزائم كما أنّ الإنتصار من أقوى عوامل النهوض بها وتتويجها بتاج الاستبسال والبطولة .

وبما أنّ الهزيمة كانت قد لحقت بالمسلمين في خاتمة المعركة فقد كان لها بطبيعة الحال آثار سيّئة مروّعة خصوصاً عند ظهور الأعداء عليهم فهم قد انبروا يحيكون حولها من الأراجيف، قال علي(عليه السلام) : «إذا أقبلت الدنيا على أحد أعارته محاسن غيره، وإذا أدبرت عنه سلبته محاسن نفسه»[1] فعاد الذكر الحكيم يعالج هذا الداء المزمن الّذي استشرى في نفوس المسلمين وتمكّن في قلوبهم وذلك بإعلامهم بأنّ الموت من سنن الله سبحانه الحتميّة وأنّ لكلّ نفس كتاباً مؤجّلاً لايتخلّف ولا يحيد عنه أبداً، وإليه يشير قوله سبحانه : ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ اَنْ تَمُوتَ اِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَاباً مُؤَجَّلاً وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِى الشَّاكِرِينَ﴾(آل عمران/ ١٤٥) .

٦ـ الاعتبار بالأُمم الماضية :

إنّه سبحانه من أجل رفع معنويّات المسلمين واستنهاض هممهم يذكّرهم بالأُمم الماضية وكيف انّ فئتهم القليلة كانت تغلب الفئات الكثيرة وتجعل الصبر على البلاء دثارها وذلك لأخذهم بأسباب النّصر من الصمود والمفاداة في سبيل إظهار الحق واعلاء كلمته، قال سبحانه : ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا اَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾(آل عمران/ ١٤٦) .

﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ اِلاَّ اَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَاِسْرَافَنَا فِى اَمْرِنَا وَثَبِّتْ اَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾(آل عمران/ ١٤٧) .

---

(١) نهج البلاغة قسم الحكم رقم ٢ .

٧ـ إخماد ثائرة الفتنة :

ولمّا رجع المسلمون إلى المدينة بعد أن أصابهم ما أصابهم فوجئوا بشماتة المتقاعدين والمنافقين حيث خاطبوهم بقولهم : لو كنتم معنا لما قتلتم ، وذلك ما يحكيه عنهم سبحانه بقوله : ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ اَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ اَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ اِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾(آل عمران/ ١٦٨) .

وقد ورد ذلك المضمون في موضع آخر من السورة في قوله سبحانه : ﴿يَا اَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ اِذَا ضَرَبُوا فِى الْأَرْضِ اَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِى وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾(آل عمران/ ١٥٦) .

فهو سبحانه يجيب عن هذه الشبهة بأُمور:

أ ـ ما أشار إليه في قوله : ﴿ قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ اَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ اِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ وحاصله أنّ قولكم «لو أطاعونا ما قتلوا» يعرب عن أنّ القائل يعتقد بأنّ الموت والحياة بيد الانسان ولو صحّ ذلك فليدفع الموت عن نفسه ، مع أنّه سنّة الله الحتميّة في جميع الكائنات .

ب ـ بأنّ موت الإنسان في ساحة القتال مع الشرك ليس موتاً حقيقياً و إنّما هو في حقيقة الأمر ارتحال من دار إلى دار ومن حياة مادّية إلى حياة مثالية وأبدية سرمدية وفي خاتمة المطاف في جنات النعيم وانّ الشهداء أحياء عند ربّهم يرزقون ويستبشرون بالّذين لم يلحقوا بهم بما هم فيه من حياة بلا كآبة ووجل ، قال سبحانه :

﴿ وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ اَمْوَاتاً بَلْ اَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ اَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ * يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَاَنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ اَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾(آل عمران/ ١٦٩ـ١٧١) .

ثمّ إنّ المستفاد منها أنّ حياة الشهداء حياة حقيقية لها آثار جسمية ولها آثار

روحية، ومن آثارها الجسميّة هو الرزق، ومـن آثارها النفسية الاستبشار، فمن زعم أنّ المراد مـن حياة الشهـداء هو خلودهـم في صفحـة تاريخ أمجـاد الشعوب فقـد فسّر القرآن تفسيراً مادّياً أعاذنا الله تعالى منه ولذلك قال النبيّ(صلّى الله عليه و آله و سلّم) في جوابه لأبي سفيان ـ عندما قال: «إنّ الحرب سجال يوم بيوم» ـ :

«قتلانا في الجنّة وقتلاكم في النار».

وقال الإمام الحسين حينما أمر أصحابه بالصبر:

«صبراً بني الكرام فما الموت إلاّ قنطرة تعبر بكم عن البؤس والضرّاء إلى الجنان الواسعة والنعيم الدائمة فأيّكم يكره أن ينتقل من سجن إلى قصر وما هو لأعدائكم إلاّ كمن ينتقل مـن قصر إلى سجن وعـذاب، وإنّ أبي حدّثني عـن رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّـم) : إنّ الدنيا سجن المؤمـن وجنّة الكافر، والموت جسـر هؤلاء إلى جنانهم،وجسر هؤلاء إلى جحيمهم،ما كذبت ولا كذّبت»[1].

فما جاء في كلامه(عليه السلام) صريح في كون الحياة حياة حقيقية.

وهذه الآيـات بجملتها قد تنـاولت غزوة أُحد بجـوانبها المختلفة وهنـاك آيات أُخرىٰ أيضاً وردت بالتنديد بالمتقاعدين وباستنهاض هممهم مثل قوله سبحانه: ﴿وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ القَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّـهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾(آل عمران/ ١٣٩و١٤٠).

(١) بلاغة الحسين ص٤٧.

٣ـ غزوة الخندق

أجلى النبي الأكرم قبيلتي«بني قينقاع» و «بنـي النضير» من المدينة المنوّرة إلى شمال شبه الجزيرة العربيّة فنزلت عـدّة منهم قلاع خيبر ورحلت عدّة أُخرى منهم إلى الشام ولبثتا تتحيّنان الفرص لإدراك ثأرهما مـن النبيّ وأصحابه والإنقضاض عليهم في عقر دارهم، و قد كـان اليهود أبصر خصوم المسلمين وأشدّهم حنكـة وسياسة، فهم كانوا دعاة التوحيد في شبه الجزيرة العـربية، وكانوا ينافسون المسيحيين في سلطانهم حيث كـانوا دعـاة التثليث، وفـي خضمّ هـذه الظروف فـوجئوا ببـزوغ نجم شخصيّـة محمد(صلّى الله عليه و آله و سلّم) وكتابه الجديـد حيث يدعوا إلى التوحيد بعبارات قويّة جذّابة وبمبادئ خلاّبة تأخذ بمجامع القلوب وتستقطب الأفكار.

ولأجـل ذلك اجتمعـت كلمتهـم على تـأليـب العرب و إثـارة حفـائظهم ضـدّ محمد(صلّـى الله عليه و آله و سلّم) فـأرسلوا رسلهم إلى قـريش منهم سلاّم بـن أبي الحقيق، وحيي بن أخطب، وكنانة بن أبي الحقيق من بني النضير، ونفراً من بني وائل حتى قـدموا قـريشاً فـدعوهـم إلى حـرب رسول الله وقـالوا: إنّـا سنكون معكـم حتى نستأصلـه، فقالـت لهم قـريش: يـا معشر اليهـود إنّكم أهـل الكتاب الأُول والعلـم وتعلمون اختلافنا ومحمّد، أفديننا خير أم دينه؟

قالوا: بل دينكم خير من دينه وأنتم أولى بالحق.

الله أكبر ما هذه الشراسـة والصلافة والوقاحة! وهم يزعمـون أنّهم دعاة التوحيد وهاهم يفضّلـون ويرجّحون الوثنيّة على التـوحيد بملء فيهم لغايـة التشفّي والإنتقام، و إليه يشير قوله سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّـذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الكِتَابِ يُـؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ

وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاَءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً* أُولئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيراً ... ﴾(النساء/ ٥١ـ٥٢)[١].

فلمّا قالوا ذلك لقريش طاروا فرحاً وامتلأوا سروراً ونشطوا لإنجاح وتلبية ما دعوهم إليه من حرب رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) .

ولمّا تمكّنوا من أخذ الميثاق منهم على الحركة صوب المدينة في وقت مُخصّص ارتحلوا من مكّة إلى شمال الجزيرة فجاءوا إلى غطفان من قيس بن غيلان ومن بني مرّة، ومن بني فزارة، ومن أشجع، ومن سليم، ومن بني سعد، ومن أسد التي هي بمجموعها تشكّل بطون غطفان، وما زالوا بهم يحرّضونهم ويستحثّونهم ويذكرون لهم متابعة قريش إيّاهم على حرب محمد(صلّى الله عليه و آله و سلّم) فاجتمع أمرهم على نصرتهم ووعدهم يهود خيبر على أن يدفعوا إليهم محاصيل نخيلهم طيلة عام واحد ازاء نصرتهم لهم ومعاضدتهم إيّاهم[٢].

حفر الخندق واحداثه حول المدينة[٣]:

ولمّا بلغ رسول الله اتّفاق كلمتهم على حربه واجتماع قبائلهم على غزوه، أخذ يخطّط لكيفيّة الدفاع وصدّ هجوم القبائل عليه في عقر داره. إذ فرق كبير بين غزوتي بدر وأُحد وغزوة الخندق، فإنّ المحاربين في هذه الغزوة المترقّبة أشد شراسة وعدداً وعدّة من سلفهم، ومن أجل ذلك فإنّ الصمود في وجههم يحتاج إلى حنكة عسكرية فائقة وتخطيط حربي متقن،فاستشار أصحابه في أمرهم فقال سلمان: يا رسول الله إنّ القليل لا يقاوم الكثير في المطاولة، قال : فما نصنع؟ قال: نحفر خندقاً يكون بيننا

---

(١) و قد أشبعنا الكلام في توضيح الآية في الفصل المخصّص بأهل الكتاب فراجع.

(٢) المغازي للواقدي ج٢ ص٤٤٦ .

(٣) عسكر رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) يوم الثلاثاء لثمان مضت من ذي القعدة فحاصروه خمس عشرة و انصرف يوم الأربعاء لسبع بقين سنة خمس، و قد استعمل على المدينة ابن أُمّ مكتوم.

وبينهم حجاباً فيمكنك منعهـم في المطاولة، ولا يمكنهم أن يأتوا من كـل وجه، فإنّا كنّا معـاشر العجم فـي بلاد فـارس إذا باغتنا العـدو نحفر خندقـاً فتكون الحـرب من مواضع معروفة، فـأمر رسول الله بالحفر من ناحية «أُحد» إلـى «راتج» وجعل على كل عشرين خطوة وثـلاثين خطوة[1] قومـاً من المهاجريـن يحفرونه، فحملت المسـاحي والمعاول وبدأ رسـول الله (صلّى الله عليه و آله و سلّـم) وأخذ معولاً فحفر فـي موضع المهاجـرين بنفسه وأميـرالمؤمنين (عليـه السلام) ينقل التـراب من الحفرة حتـى عرق رسول الله (صلّـى الله عليه و آله و سلّم) وعـيّ وقال: «لا عيش إلاّ عيش الآخـرة اللّهـمّ اغفر للأنصـار والمهاجرة» فلمّا نظـر الناس إلى رسول اللـه يحفر اجتهدوا في الحفر ونقل التراب، فلمّا كان في اليوم الثاني بكّروا إلى الحفر...[2].

ومع ذلـك أبطأ عـن رسول الله وعـن المسلمين رجال مـن المنافقيـن يستترون بالضعيف مـن العمل ويتسلّلون إلى أهليهم بغيـر علم من رسول اللـه (صلّى الله عليه وآله و سلّم) ولا إذن، وأمّـا غيرهم من المسلميـن فإذا نابته النـائبة من الحاجـة التي لابدّ له منها يذكر ذلك لرسول اللـه (صلّى الله عليه و آله و سلّم) ويستأذنه في اللحوق بحاجته، فيأذن له، فاذا قضى حاجته رجع إلى مـا كان فيه من عمله رغبـة في الخير واحتساباً له[3].

فخرجت قريش ومن لحق بها من أحابيشها أربعة آلاف فارس وعقدوا اللواء في دارالندوة وقـادوا معهم ثمانمـائة فرس، وكان معهم مـن الظهر ألف وخمسمـائة بعير لحمل أمتعتهم ومؤونتهم.

وأمّا مـن غير قريـش فقد خـرجت جموع مـن القبائل، فبلغ القـوم الذيـن وافوا

---

(١) و لعلّ في النصّ سقـط، و يحتمل أن يكون الصواب بهذا النحو: و جعل علـى كل عشرين خطوة قوماً من المهاجرين و على كل ثلاثيـن خطوة قوماً من الأنصار، و الوجه في ذلك كثرة عدد الأنصار و قلّة عدد المهاجرين فتأمّل.

(٢) البحار ج ٢٠ ص ٢١٨.

(٣) السيرة النبويّة لابن هشام ج ٢ ص ٢١٦.

الخندق من قريش وسواهم عشرة آلاف بين راكب وراجل ، فنزلت قريش برومة ووادي العقيق في أحابيشها ومـن انضوى إليها من العرب،وأقبلت غطفان حتى نزلـوا بالزغابة بجانب أُحد[1].

وخرج رسول الله والمسلمون حتى جعلوا ظهورهم إلى سلع في ثلاثة آلاف من المسلمين ، فضرب هنالك عسكره والخندق بينه وبين القوم[2].

بينما كانت قريـش وحلفاؤها ترجو أن تلقى المسلمين بأُحـد ، فلم تجد عنده أحداً فجاوزته إلى المـدينة حتى فاجأها الخندق ، ولـم تكن عـارفة بهذا الاسلوب من الدفاع ، فرابطـوا حول الخندق وعلموا أنّهم لا يستطيعون اقتحامـه واجتيازه بعد جهد جهيد ، فـاكتفوا بتـراشق النبل والسهـام عدّة أيّـام متوالية وكلّمـا أراد بطل مـن أبطال الحلفاء أن يجتاز الخندق ، رُمي بالحجارة والنبل مـن خلف كثبان الرمل التي نصبت على أطرافه في مواقع المسلمين ، وقد ا ستمرّت الحال على هذا المنوال قرابة خمسة عشر يوماً أو أزيد .

قال المقريـزي : كان المشركون يتناوبـون بينهم فيغدو أبوسفيان بـن حرب في أصحابه يومـاً وخالدبن الوليد يومـاً ويغدو عمرو بن العاص يوماً وهبيـرة بن أبي وهب يوماً وعكرمـة بن أبي جهل يوماً وضـرار بن الخطاب الفهري يوماً ، فـلا يزالون يجيلون خيلهم ويتفـرّقون مرّة ويجتمعـون مرّة أُخرى وينـاوشون المسلميـن ويقدّمون رمـاتهم فيرمون ، وإذا أبوسفيان في خيل يطيفون بمضيق من الخندق فرماهم المسلمون .

حتى رجعوا وكان عبـاد بن بشر ألزم الناس لقبّة رسـول الله(صلّى الله عليه و آله وسلّم) يحرسها وكان «أسيد بن حضير» يحرس في جماعة ، فاذا عمرو بن العاص في نحو المائة يـريدون العبور من الخندق فرمـاهم حتى ولّوا ، وكان المسلمـون يتناوبون الحراسة،وكانوا فـي فقر وجوع،وكان عمرو بن العاص وخالدبن الـوليد كثيراً ما يطلبان

---

(١) المغازي للواقدي ج٢ ص٤٤٤ .

(٢) السيرة النبويّة ج٢ ص٢٢٠ .

غرّة ومضيقاً من الخندق يقتحمانه فكانت للمسلمين معها وقائع في تلك الليالي[1].

فأقام رسول اللـه والمشركون بضعاً وعشرين ليلة، فبينما الناس على ذلك من الخوف والبلاء ولم يكن قتال إلاّ الحصار و الرمي بالنبل إلاّ أنّ فوارس من قريش منهم عمرو بن عبد ودّ، وعكرمة ابن أبي جهل، وضرار بن الخطاب، وهبيرة بن أبي وهب، تلبّسوا للقتال وخرجوا على خيولهم حتى مرّوا على منازل بني كنانة ووقفوا فقالوا: تهيّأوا للحرب يا بني كنانة فستعلمون من الفرسان اليوم، ثم أقبلوا تسرع بهم خيولهم حتى وقفوا على الخندق فقالوا: والله إنّ هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها.

ثم يمّموا شطرهم مكاناً من الخندق ضيّقاً، فضربوا خيولهم فجالت بهم حتى عبرت الخندق،فطلب عمرو بن عبد ودّ البراز مرّة بعد أُخرى إلىٰ أن ارتجز بقوله:

ولقد بححت من النداء	بجمعكم هل من مبارز
ووقفت إذ جبن المشجع	موقف القرن المناجز
ولذاك إنّي لم أزل	متسرّعاً قبل الهزائز
إنّ الشجاعة في الفتى	والجود من خير الغرائز[2]

ثمّ قال النبي لأصحابه ثلاث مرّات: أيّكم يبرز لعمرو وأضمن له على الله الجنّة، في كلّ مرّة كان يقوم عليّ فاستدانه وعمّمه بيده، فلمّا برز قال: «برز الإيمان كلّه إلى الشرك كلّه» وقال: «اللّهمّ إنّك أخذت منّي عبيدة بن الحارث يوم بدر وحمزة ابن عبد المطلب يوم أُحد و هذا أخي عليّ بن أبي طالب، ربّ لا تذرني فرداً وأنت خير الوارثين»[3].

وقال الواقدي: إنّ المسلمين كأنّ على رؤوسهم الطير لمكان عمرو وشجاعته، فلمّا استقبله عليّ ارتجز بقوله:

---

(١) امتاع الأسماع ص٢٤١.

(٢) دلائل النبوّة ج٣ ص٤٣٨.

(٣) بحار الأنوار ج٢٠ ص٢١٥ نقلاً عن كنز الفوائد للعلامة الكراجكي ص١٣٦.

لا تعجلـــنّ فقـــد أتـــاك ... مجيب صـوتك غيـر عاجـز

ذو نيّـــــة وبصيـــــرة ... والصـدق منجـى كـلّ فـائز

إنّـــي لأرجـــو أن أُقيـــم ... عليـك نـائحـة الجنـائز

مـــن ضـــربـــة نجـــلاء ... يبقـى ذكـرهـا عنـد الهـزائز

فقال له عمرو: ومن أنت؟ قال: أنا علـيّ. قال: ابن عبد مناف؟ فقال: علي ابن أبي طالب. فقال: غيرك يا ابن أخي ومن أعمامك من هو أسنّ منك فأنا أكره أن اهريق دمك.

و قال الواقدي: أقبل عمرو يومئذٍ و هو فارس و عليّ راجل فقال له عليّ(عليه السلام): إنّـك كنت تقول فـي الجاهلية: لايـدعوني أحـد إلى واحدة مـن ثلاث إلاّ قبلتها! قـال: أجل! قـال علي: فـإنّي أدعـوك أن تشهد أن لاإلٰـه إلاّ الله و أنّ محمداً رسول الله و اسلم لله رب العـالمين، قال: يا ابن أخـي أخّر هذا عني. قـال: فأُخرى ترجع إلـى بلادك فإن يكن محمد صادقـاً كنت أسعد الناس به، و إن كـان غير ذلك كان الذي تـريد، قال: هذا ما لاتتحدّث بـه نساء قريش أبداً، و قد نـذرت ما نذرت وحرّمت الدهن، قال: فالثالثة؟ قال: البراز، قال: فضحك عمرو، ثمّ قال: إنّ هذه الخصلة ما كنت أظن انّ أحداً من العرب يرومني عليها إنّي لأكره أن أقتل مثلك و كان أبوك لي نـديماً، فارجع فأنت غـلام حدث و إنّما أردت شيخي قريش أبـابكر و عمر قال، فقـال عليّ(عليـه السلام): فـإنّي أدعـوك إلى المبـارزة فأنـا أحبّ أن أقتلـك، فأسـفّ عمرو و نزل و عقل فـرسه[1] و سلّ سيفـه كأنـة شعلة نار ثـمّ أقبل نحـو عليّ مغضباً، فأنحـى بسيفه على هامّة علي، فصـدّها علي بمجنّه فانقـدّ المجن و أثبت فيها السيف و أصاب رأسه فشجّه، فعاجله عليّ فضربه على حبل العاتق فسقط وثار العجاج، و سمـع رسول الله التكبيـر فعرف أنّ عليّـاً قد قتلـه، و عند ذلـك خرجـت خيلهم منهـزمة حتى جاوزت الخنـدق هاربة، ثـمّ أقبل عليّ نحو رسـول الله و وجهه يتهلّل، فقـال عمر بن الخطاب هـلا استلبته درعه؟ فـإنّه ليس للعرب درع خيـر منها

---

(١) المغازي للواقدي ج٢ ص٤١٧.

فقال : ضربته فاتقاني بسواده[1] فاستحييت ابن عمي أن استلبه ثمّ أنشد يقول :

نصر الحجارة من سفاهة رأيه ... و نصرت ربّ محمد بصواب
فصددتّ حين تركته متجدّلاً ... كالجذع بين دكادك[2] و رواب
لا تحسبنّ الله خاذل دينه ... و نبيّه يا معشر الأحزاب[3]

استبشار المؤمنين و كآبة المشركين :

قد كان الخوف و الوجل مستولياً على نفوس المسلمين منذ جاء الأحزاب و حاصروا المدينة،ولمّا قتل علي بطل الأحزاب و فارسها و انهزم من كان معه من أبطالهم و ذؤبانهم ، حتى انّ عكرمة بن أبي جهل ألقى رمحه يومئذٍ و فرّ، انقلبت الأُمور رأساً على عقب ، فصار الخوف و الهلع نصيب المشركين و مخيّماً عليهم . هذا من جانب ، و من جانب آخر، كان الوقت إذ ذاك شتاءً قارساً برده ، عاصفة رياحه ، يخشى في كل وقت مطره ، فالخيام التي ضربوها أمام يثرب لاتحميهم منها فتيلاً .

و من ناحية ثالثة وقف أبو سفيان و حلفاؤه على أنّ الخندق مادام حائلاً بينهم و بين المسلمين و الأبطال منهم يذودون عنه بالنبال و الحجارة ، و ما دامت بنو قريظة تمدّ المسلمين بالمؤونة امداداً ، فإنّه من الصعب العسير احراز النصر عليهم بل بإمكانهم الصمود أمامهم على تلك الحال مدّة مديدة تطول مع الشهور، و الحل الوحيد الذي أصبح أمامهم هو أن ترجع الأحزاب إلى أدراجهم .

ولكن إجتماع هؤلاء الأحزاب على حرب المسلمين مرّة أُخرى ليس بالأمر

---

(١) هكذا في المصدر و لعلّ الصحيح : بسوأته .

(٢) جمع «دكداك» و هو الرمل اللّين ، و «الروابي» : جمع «رابية» و هي الكدية المرتفعة .

(٣) السيرة النبويّة لابن هشام ج٢ ص٢٦٥ .

الميسور فإن أفلتت الفرصة ربّما لم يسنح لهم الزمان بمثلها في المستقبل.

هذه النهاية التي آل إليها أمر الأحزاب و كانوا في حيرة من أمرهم و غمّة شديدة.

و عند ذلك تفطّن حيي بن أخطب فتيل الفتنة بأنّ في امكانه أن يتّصل ببني قريظة القاطنين في داخل المدينة و يحرّضهم على نقض عهدهم مع النبيّ(صلّى الله عليه و آله و سلّم) و المسلمين، فعند ذلك تنقطع الميرة و المؤونة و المدد أوّلاً، وينفتح الطريق لدخول يثرب من قلاع بني قريظة ثانياً.

و خال حيي بن أخطب بأنّه جاء بمكيدة محكمة، فعرضت فكرته على قريش وغطفان فحبّذاها و سارعا إلى انجازها فذهب بنفسه يريد كعب بن أسد صاحب عقد بني قريظة و قد أغلق كعب دونه باب حصنه إذ عرف أنّه حيى بن أخطب، و لكنّه آخر الأمر فتح باب قلعته و اعتنق نظريّته و نقض عهده مع الرسول، و أوجد ذلك قلقاً شديداً بين المسلمين، و قد ذكرنا تفصيله عند البحث عن أهل الكتاب، و لكنّه سبحانه دفع شرّهم بحدوث الاختلاف بين المشركين و بني قريظة فآل الأمر إلى انجلاء الأحزاب من ساحة القتال من دون نتيجة و إليك بيانه:

انقسام المشركين على أنفسهم:

إنّ نعيم بن مسعود أتى رسول الله فقال: يا رسول الله إنّي قد أسلمت و إنّ قومي لم يعلموا بإسلامي، فمرني بما شئت. فقال رسول الله: إنّما أنت فينا رجل واحد فادخل بين القوم خذلانا إن استطعت فإنّ الحرب خدعة، فخرج نعيم بن مسعود حتى أتى بني قريظة و كان لهم نديماً في الجاهلية فقال: يا بني قريظة قد عرفتم ودّي إيّاكم وخاصّة ما بيني و بينكم قالوا: صدقت لست عندنا بمتّهم، فقال لهم: إنّ قريشاً وغطفان ليسوا كأنتم، البلد بلدكم فيه أموالكم و أبناؤكم و نساؤكم لاتقدرون على أن تحوّلوا منه إلى غيره، و إن قريشاً و غطفان قدجاءوا لحرب محمد وأصحابه

و قد ظاهرتموهم عليه و بلدهم و أموالهم و نساؤهم بغيره فليسوا كأنتم، فإن رأوا نهزة أصابوها، و إن كان ذلك لحقوا ببلادهم، و خلّوا بينكم و بين الرجل ببلدكم و لاطاقة لكم به إن خلا بكم فلاتقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهناً من أشرافهم يكونون بأيديكم ثقة لكم على أن تقاتلوا معهم محمداً حتى تناجزوه، فقالوا له: أشرت بالرأي.

ثمّ خرج حتى أتى قريشاً فقال لأبي سفيان بن حرب و من معه من رجال قريش: قدعرفتم ودّي لكم و فراقي محمداً و انّه بلغني أمر قدرأيت عليّ حقّاً أن أُبلغكموه نصحاً لكم فاكتموا عنّي، فقالوا: نفعل. قال: تعلّموا أنّ معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم و بين محمّد و قد أرسلوا إليه: إنّا قد ندمنا على ما فعلنا فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين من قريش و غطفان رجالاً من أشرافهم فنعطيكهم فتضرب أعناقهم ثمّ نكون معك على من بقي منهم حتى نستأصلهم؟ فأرسل إليهم نعم، فإن بعثت إليكم يهود يلتمسون منكم رهناً من رجالكم فلاتدفعوا إليهم منكم رجلاً واحداً.

ثمّ خرج حتّى أتى غطفان فقال: يا معشر غطفان إنكم أصلي و عشيرتي و أحبّ الناس إليّ و لا أراكم تتّهموني، قالوا: صدقت ما أنت عندنا بمتّهم، قال: فاكتموا عنّي، قالوا: نفعل، فما أمرك؟

ثمّ قال لهم مثل ما قال لقريش و حذّرهم ما حذّرهم.

فلمّا كانت ليلة السبت من شوّال سنة خمس أرسل أبو سفيان بن حرب و وجهاء غطفان إلى بني قريظة عكرمة بن أبي جهل، فقالوا لهم لسنا بدار مقام، قد هلك الخف و الحافر، فاغدوا للقتال حتى نناجز محمّداً،فأجابوا أنّ اليوم يوم السبت لانعمل فيه شيئاً و مع ذلك لسنا بالذين نقاتل معكم محمداً حتى تعطونا رهناً من رجالكم يكونون بأيدينا ثقة لنا حتى نناجز محمّداً، فإنّنا نخشى إن اشتدّ عليكم القتال تتركونا في بلادنا و لاطاقة لنا بذلك منه، فلمّا رجعت إليهم الرسل بما قالته بنو قريظة، قالت قريش و غطفان: و الله إنّ الذي حدّثكم به نعيم بن مسعود لحق، فارسلوا إلى بني قريظة: إنّا لاندفع إليكم رجلاً واحداً من رجالنا، فإن كنتم تريدون

القتال فاخرجوا فقاتلوا، فقالت بني قريظة حين انتهت الرسل إليهم بهذا: إنّ الذي ذكر لكم نعيم بن مسعود لحق ما يريد القوم إلاّ أن يقاتلوا، فإن رأوا فرصة انتهزوها و إن كان غير ذلك تفرّقوا إلى بلادهم و خلّوا بينكم و بين محمّد في بلدكم، فارسلوا إلى قريش و غطفان: إنّا و الله لانقاتل معكم محمداً حتى تعطونا رهناً،فأبوا عليهم.

فلمّا كان ليلة السبت بعث الله عليهم الريح في ليلة شاتية باردة شديدة البرد فجعلت تكفأ قدورهم و تطرح آنيتهم،و لمّا انتهى إلى رسول الله ما فرّق الله من جماعتهم دعا حذيفة بن اليمان فبعثه إليهم لينظر ما فعل القوم ليلاً.

فذهب حذيفة و رجع بقوله: دخلت في القوم و الريح و جنود الله تفعل بهم ما تفعل لاتقرّ لهم قدراً و لاناراً و لابناءً، فقال أبو سفيان: يا معشر قريش إنّكم و الله ما أصبحتم بدار مقام، لقد هلك الكراع و الخف و اخلفنا بنو قريظة و لقينا من شدّة الريح ماترون ما تطمئن لنا قدر و لاتقوم لنا نار فارتحلوا فإنّي مرتحل.

و بذلك اختلفت الأحزاب و لم يبق منهم أحد و أصبح الصبح و لم ير منهم شيء، فرجع المسلمون إلى منازلهم شاكرين.

هذا خلاصة ما أفادته كتب السير و التواريخ[1] و إليك تحليل ما ورد حول تلك الواقعة من الآيات و لا محيص لمفسّر عن الوقوف بما جاء في كتب السيرة فإنّها كالقرائن المنفصلة لفهم معنى ما تضمّنته الآيات الشريفة و نحن نذكر الآيات الواردة حول هذه الغزوة كاملة ثمّ نعقّبها، بما تسنح به الفرصة من التحليل و التوضيح.

---

(١) راجع السيرة النبويّة ج٢، و مغازي الواقدي ج٢، وبحار الأنوار ج٢٠، ومجمع البيان ج٤.

غزوة الأحزاب في الذكر الحكيم :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَ كَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً* إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَ مِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَ إِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَ بَلَغَتِ القُلُوبُ الحَنَاجِرَ وَ تَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا* هُنَالِكَ ابْتُلِيَ المُؤْمِنُونَ وَ زُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً* وَ إِذْ يَقُولُ المُنَافِقُونَ وَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَاوَعَدَنَا اللهُ وَ رَسُولُهُ إِلاَّ غُرُوراً* وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لاَمُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَ يَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَ مَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَاراً* وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الفِتْنَةَ لآتَوْهَا وَ مَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلاَّ يَسِيراً* وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللهَ مِنْ قَبْلُ لاَيُوَلُّونَ الأَدْبَارَ وَ كَانَ عَهْدُ اللهِ مَسْئُولاً* قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ المَوْتِ أَوِ القَتْلِ وَ إِذاً لاتُمَتَّعُونَ إِلاَّ قَلِيلاً* قُلْ مَنْ ذا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَ لاَيَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيّاً وَ لانَصِيراً* قَدْ يَعْلَمُ اللهُ المُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَ القَائِلِينَ لإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَ لايَأْتُونَ البَأْسَ إِلاَّ قَلِيلاً* أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ المَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الخَيْرِ أُولٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللهُ أَعْمَالَهُمْ وَ كَانَ ذٰلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيراً* يَحْسَبُونَ الأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَ إِنْ يَأْتِ الأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَو كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلاَّ قَلِيلاً* لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللهَ وَ اليَوْمَ الآخِرَ وَ ذَكَرَ اللهَ كَثِيراً* وَ لَمَّا رَءَا المُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هٰذَا مَاوَعَدَنَا اللهُ وَ رَسُولُهُ وَ صَدَقَ اللهُ وَ رَسُولُهُ وَ مَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَاناً وَ تَسْلِيماً* مِنَ المُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَ مِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَ مَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً* لِيَجْزِيَ اللهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَ يُعَذِّبَ المُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً* وَرَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْراً وَ كَفَى اللهُ المُؤْمِنِينَ القِتَالَ وَ كَانَ اللهُ قَوِيّاً عَزِيزاً* وَ أَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَ قَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَ تَأْسِرُونَ فَرِيقاً* وَ أَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَ دِيَارَهُمْ وَ أَمْوَالَهُمْ وَ أَرْضاً لَمْ تَطَؤُهَا وَ كَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً﴾(الأحزاب/ ٩ـ٢٧).

١ ـ استحواذ القلق عند مرابطة الأحزاب :

إنّ الآية الأُولى ترسم لنا كيفيّة نزول الأحزاب على المدينة و إنّهم جاءوها من أعاليها و أسافلها، فقد جاءت قبيلة غطفان و بني النضير من الجانب الشرقي للمدينة و هي الجهة العليا و جاءت قريش و من انضم إليهم من الأحابيش و كنانة من الجانب الغربي و هي الجهة السفلى، و إليه يشير قوله سبحانه: ﴿إِذْ جَاؤُكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَ مِنْ أسفلَ مِنكُمْ﴾.

كما أنّها تعكس الحالة النفسية التي عايشها المسلمون أثناء تطويق المدينة وهم على طوائف:

١ـ من مالت أبصارهم عن كل شيء فلم تنظر إلاّ إلى عدوّهم مقبلين من كل جانب.

٢ـ من شخّصت قلوبهم من مكانها ولولا أنّه ضاق الحلقوم عنها ان تخرج لخرجت.

٣ـ من ظنّ بالله ظنّ الجاهلية متقوّلين بأنّ الكفّار سيغلبون وسيستولون على المدينة وبالتالي ينمحق الدين وتعود الجاهلية أدراجها الأُولىٰ.

و إلى هذه الحالات الثلاث أشارت الآية بجملها الثلاث:

أ ـ ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ﴾

ب ـ ﴿وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الحَنَاجِرَ﴾

ج ـ ﴿وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾

والجملتان الأوّليتان كناية عن مبلغ استحواذ الخوف والهلع عليهم حتى انتقل بهم إلى حالة شبيهة بالإحتضار التي يزيغ فيها البصر وتبلغ القلوب الحناجر.

وأمّا الجملة الثالثة: فلم تكن تشير إلى عموم المسلمين بل تستعرض حال المنافقين والذين في قلوبهم مرض، فهؤلاء ظنّوا بالله ظنّ الجاهلية، كما يدل عليه

صريح لفظها حيث تضمّنت ما لفظه:

﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُوراً﴾.

والمراد من قوله: ﴿وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ ضعفاء الإيمان من المسلمين وهم غير طائفة المنافقين الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر والشرك وإنّما يسمّون محمّداً رسولاً لمكان اظهارهم الإسلام.

وأمّا الوعد الذي وعدهم الله ورسوله به هو أنّه كان يكرّر قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾(التوبة/ ٣٣).

ولو افترضنا نزول الآية بعد غزوة الخندق فقد كان النبي يعدهم أنّه يفتح مدائن كسرى وقيصر خصوصاً عند حفر الخندق على ما في كتب السير والتواريخ[١].

قال ابن هشام:

وعظم عند ذلك البلاء، واشتدّ الخوف وأتاهم عدوّهم من فوقهم ومن أسفل منهم حتّى ظنّ المسلمون كلّ ظنّ،ونجم النفاق من بعض المنافقين حتى قال بعضهم: كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب للتخلّي.

وايم الله كانت هذه الغزوة كأُختها أي غزوة أُحد تمحيصاً وغربلة وتمييزاً للمؤمن الواقعي عن المنافق المتظاهر بالإيمان كما تشير إليه الآية الثانية.

﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً﴾وإنّما استعمل كلمة هنالك مع أنّها يشارُ بها إلى البعيد لأنّ الآية نزلت بعد جلاء المعركة وأشار بها إلى زمان مجيء الجنود المتأخّر عن نزولها.

---

(١) السيرة النبويّة لإبن هشام ج٢ ص٢١٩، لاحظ محادثة النبي لسلمان عند حفر الخندق.

٢ـ حياكة الدسائس لفتح الثغرات :

لم يكن عمل المنافقين منحصراً بإثارة القلاقل والارهاصات النفسية على مامرّ بيانه في كلماتهم بل كان دورهم أوسع من ذلك،فقد كانوا يقومون بشن حرب نفسيّة تهدف إلى تفريق المسلمين عن الدفاع عن الخندق وكانوا يقولون للمسلمين لاوجه لإقامتكم هاهنا قبال جنود المشركين فالغلبة لهم لا محالة ولا مناص من الفرار.

وكان لفيف منهم يتذرّعون بقولهم ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ أي لا يؤمن عليها من السارق وزحف العدو عليها، حتّى يتملّصون ويتخلّصون من الخطر الذي يحدق بهم في ساحة المعركة، وكان هذا الكلام واجهة للفرار، وإليه يشير قوله سبحانه :

﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لاَ مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَاراً﴾ .

٣ـ المشارفة على أعتاب الردّة :

ولقد بلغ الحال بالمنافقين والذين في قلوبهم مرض في تهاونهم بأمر التمسّك بالدين انّه لو رجع إليهم العدو مرّة ثانية ودخل المدينة من أقطارها وأطرافها ونواحيها ثم سألوهم الرجوع إلى الشرك لأجابوا مسرعين ولم يتوانوا ولم يلبثوا في الاجابة إلاّ زماناً يسيراً بمقدار الطلب والسؤال منهم، فالمنافقون ومن تبعهم من مرضى القلوب يتظاهرون بالإسلام مادام الرخاء سائداً والأمن حالاً فإذا خيّمت الشدّة وحاق بهم البأس لم يلبثوا إلاّ قليلاً دون الرجوع والردّة.

وهذا يعطي لنا درساً ضافياً بأنّ النظام الإسلامي يجب أن يرتكز في دعوته وكافّة أُموره السياسية والإجتماعية والروحية على المؤمنين الصادقين، والمعتنقين لمبادئه وأحكامه بصدق ويقين وتفان وإخلاص، يتحاشىٰ عن الركون والإعتماد على المنافقين بل يحذر منهم دائماً، ويطلب نبذهم من الحياة فإنّهم يَعِدون ولا يوفون، يبايعون وينقضون، ويحالفون ويغدرون، وهذه سجيّتهم وديدنهم، وإليه يشير

قوله سبحانه:

﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَايُوَلُّونَ الأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولاً﴾

وأمّا أنّهم في أي مكان وزمان بايعوا النبي فغير معلوم، ولعلّ إيمانهم بالله ورسوله وبما جاء به من الجهاد وحرمة الفرار منه، نوع عهد لله ورسوله أن لا يولّوا الأدبار، وعلى كل تقدير فهؤلاء لا يتحمّلون المسؤولية وإن تحمّلوها بادئ بدء، رفضوها في خاتمة المطاف.

٤ـ عدم جدوىٰ الفرار:

هؤلاء يتركون ساحة القتال وأطراف الخندق، لأجل الفرار من خطر الموت والقتل، غير أنهم قد جهلوا سنّة الله الحكيمة القاضية بأنّه: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَايَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾(الأعراف/ ٣٤).

وقد ردّت هذه النظرية(الفرار سبيل النجاة) في غير واحد من الآيات، قال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ اَنْ تَمُوتَ اِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾(آل عمران/ ١٤٥).

وقال سبحانه: ﴿قُلْ لَوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ القَتْلُ اِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾(آل عمران/ ١٥٤).

ويقول في شأن أُولئك الذين نكصوا على أعقابهم في معركة الخندق من المسلمين: ﴿قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الفِرَارُ اِنْ فَرَرْتُم مِنَ المَوْتِ اَوِ القَتْلِ وَاِذاً لَا تُمَتَّعُونَ اِلَّا قَلِيلاً﴾ وما ذلك إلاّ لأنّ لكل نفس أجلاً، مقضياً ومحتوماً لا يتأخر عنه ساعة ولايتقدّم عنه، فالفرار على فرض التأثير لا يؤثر إلاّ قليلاً، وإليه يشير قوله سبحانه: ﴿وَاِذاً لَاتُمَتَّعُونَ اِلَّا قَلِيلاً﴾.

كيف وانّ الخير والشر تابعان لإرادته سبحانه، ولا يحول دون نفوذ إرادته شيء، فإذاً الأولى إيكال الأمر إلى إرادته والتوكّل عليه، قال سبحانه: ﴿قُلْ مَنْ ذَا الَّذِى يَعْصِمُكُم مِنَ اللَّهِ اِنْ اَرَادَبِكُمْ سُوءاً اَوْ اَرَادَبِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ

﴿وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً﴾.

٥ـ سعة علمه:

إنّ المنافقين ومن في قلبه مرض من المسلمين، ما عرفوا الله حقّ قدره، وماعرفوا أسماءه وصفاته، وإنّه عالم بكل شيء، ما تكنّه صدورهم وتضمره قلوبهم وتوحيه نفوسهم، فكيف كلامهم وأعمالهم العلنية،فقد كانوا يعيقون غيرهم من جنود المسلمين عن الجهاد مع رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) ويثبّطونهم ويشغلونهم ليعرضوا عن نصرته وينصرفوا عن القتال، وكانت اليهود تساندهم في هذا الأمر ويقولون مع نظرائهم من المنافقين: لا تحاربوا وخلّوا محمداً فإنّا نخاف عليكم الهلاك، ولأجل ذلك ما كانوا يحضرون القتال إلاّ رياءً أو سمعة قدر ما يوهمون أنّهم مع المسلمين ولكنّهم كانوا كارهين لكون قلوبهم مع المشركين، وإليه يشير قوله سبحانه:

﴿قَدْ يَعْلَمُ اللّهُ المُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالقَائِلِينَ لِاخْوَانِهِمْ هَلُمَّ اِلَيْنَاوَلاَ يَأْتُونَ البَأْسَ اِلاَّ قَلِيلاً﴾(الأحزاب/ ١٨).

٦ـ جبناء حين البأس، شجعان حين الأمن

عجيب أمر هؤلاء ومن حذىٰ حذوهم:

فهم حين البأس جبناء، تدور أعينهم في رؤوسهم وجلاً وخوفاً، كدوران عين الذي قرب من الموت وغشيته أسبابه، فعند ذاك يعذّب لبّه ويشخص بصره فلايتحرّك طرفة.

وحين اقتسام الغنيمة أشحّاء إذا ظفر بها المؤمنون لا يريدون أن يفوتهم شيء ممّا وصل إلى أيديهم، وكان الشاعر يشير إليهم:

وفي السلم أعيار جفاءً وغلظة وفي الحرب أمثال النساء العواتك

ولهم مع ذلك كذب في القول ومراء في الكلام، فإذا كان الأمن والرخاء مخيّماً فخروا بمقاماتهم المصطنعة من النجدة والشجاعة والبأس، وإلى هذه الحالات الثلاثه يشير قوله تعالى:

﴿اَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ المَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً﴾ .

إلى الحالة الأولى ـ أي جبنهم في الحرب ـ يشير قوله: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾ أي بخلاء عليكم بالنفقة والنصرة، فهم لا يودّون مساعدتكم ولا نصرتكم لا بنفس ولانفيس.

وإلى الحاله الثانية يشير قوله: ﴿أَشِحَّةً عَلَى الخَيْرِ﴾ أي الغنائم.

وإلى الحالة الثالثة يشير قوله: ﴿فَإِذَا ذَهَبَ الخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ .

وفي النهاية كتب على أعمالهم الضئيلة بالإحباط كما في قوله: ﴿أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُم﴾ .

وفي نهاية المطاف يتناول سبحانه هؤلاء ما هو مفاده: إنّ مقدار الجبن والهلع الذي لحق بهم، وعظيم الدهشة والحيرة التي أحاطت بهم، بلغ إلى حدٍ أنّهم يظنّون انّ الأحزاب ما زالت مرابطة في ثكنات معسكرهم في الوقت الذي رحلوا فيه.

والذي يعرب عن عظم ما انتابهم من الوجل، أنّه لو رجعت الأحزاب تمنّوا أن لو كانوا مقيمين في البادية بعيدين عن المدينة حتّى لا ينالهم أذىً أو مكروه ويكتفون بالسؤال عن أخبار من قاوم من جانب المدينة، وإليه يشير قوله سبحانه:

﴿يَحْسَبُونَ الأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَو أَنَّهُمْ بادونَ فِي الأَعرابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبائِكُمْ وَلَو كَانُوا فِيكُم مَا قاتَلُوا إلاّ قَليلاً﴾ .

إنّه سبحانه بعد أن فصّل أحوالهم، وكشف عمّا كنّته صدورهم وما أضمروه،

أبان لهم طريق الهداية مرّة أُخرى وانّهم لو راموا النجاة والسعادة فليقتدوا برسول الله وليجعلوه أُسوة لهم، قال سبحانه:

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾.

* * *

حال المؤمنين الصادقين في غزوة الأحزاب

ثمّ إنّه سبحانه لمّا بيّن حال المنافقين ومن في قلبه مرض، ذكر حال المؤمنين الواقعيين الذين كانوا في الرعيل الأوّل في سوح الجهاد، وكيف انّهم كانوا على طرفي نقيض من المنافقين، حيث قال سبحانه: ﴿ وَلَمَّا رَأَ الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَازَادَهُمْ إِلاَّ إِيْمَاناً وَتَسْلِيماً* مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَن يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً* لِيَجْزِىَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ اَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً﴾(الأحزاب/ ٢٢ـ٢٤).

إنّ قوله سبحانه ﴿هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ﴾ إشارة إلى ما وعدهم النبي بأنّ الأحزاب ستجتمع شوكتهم عليهم، فلمّا شاهدوهم تبيّن لهم أنّ ذلك هو الذي وعدهم، وربّما يقال بأنّ المراد ما وعده الله ورسوله من الابتلاء والإمتحان في الآيات التي نزلت في غزوة أُحد في قوله سبحانه﴿اَمْ حَسِبْتُمْ اَنْ تَدْخُلُوا الجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوا مِنْ قَبْلِكُم مَسَّتْهُمُ البَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ اَلاَ إِنَّ نَصْرَاللَّهِ قَرِيبٌ﴾(البقرة/ ٢١٤).

فتحقّقوا من ذلك انّه سيصيبهم ما أصاب الأنبياء والمؤمنين بهم من الشدّة والمحنة التي تزلزل القلوب، وتدهش النفوس،فلمّا رأوا الأحزاب أيقنوا أنّه من الوعد الموعود وانّ الله سينصرهم على عدوّهم.

ثمّ إنّه سبحانه وصف الكاملين من المؤمنين الذين ثبتوا عند اللقاء، واحتملوا

البأساء والضرّاء في هذه الغزوة وما قبلها من الغزوات، بأنّ بعضهم استشهد يوم بدر ويوم أُحد، وبعض منهم يترقّب أجله، وإليه يشير قوله سبحانه: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَن يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾.

والنحب: النذر المحكوم بوجوبه، يقال قضىٰ فلان نحبه، أي وفى بنذره، ويعبّر به عمّا انقضىٰ أجله، ثم إنّه سبحانه يقول: إنّ كلاً من المؤمن والمنافق مجزى بأعماله، قال سبحانه: ﴿ليجزى الله الصادقين بصدقهم ويعذّب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم إنّ الله كان غفوراً رحيماً﴾.

وهو سبحانه استعرض جزاء عمل الصادقين بنحو القطع والجزم بقوله: ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ﴾ في الوقت الذي نجد فيه أنّه تناول جزاء المنافقين بقوله: ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ﴾ بالتعليق على المشيئة، وما ذلك إلاّ لبيان سعة رحمته وفضله، وانّه فسح المجال لتوبة من عصاه، وعلى ذلك يكون معنىٰ الآية يعذّب المنافقين لو شاء تعذيبهم، فيما لم يتوبوا أو يتوب الله عليهم إن تابوا.

خاتمة المطاف:

وفي ختام الآيات يقول انّه سبحانه: قد صدق وعده، ونصر عبده، وأعزّ جنده، وهزم الأحزاب وحده، وردّ المشركين على أدبارهم، خائبين مخذولين تختنقهم الغصّة وتؤلمهم الحسرة، وإليه يشير قوله سبحانه: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِم لَمْ يَنَالُوا خَيْراً وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيّاً عَزِيزاً﴾.

النتائج التي تمخّض عنها هذا البحث فهي:

أ ـ إنّ في هذه الغزوة تحالفت الوثنية مع اليهود على أن يكون تحمّل أعباء نفقات الحرب على عاتق اليهود وكاهلهم، ويكون القتال والاصطكاك في ساحة المعركة من نصيب المشركين، وليس هذا التآمر المشترك هو الأوّل من نوعه بل له

نظائر متعدّدة على امتداد التاريخ الإسلامي، فقد تحالفت الوثنية مع النصرانية في القرن السادس والسابع الهجريين، فشنّوا الغارات الشرسة على العالم الإسلامي، ومزّقوه شر ممزّق، فقد جاء التتار وهم الوثنية من الجهة الشرقية، بينما جاءت النصرانية من جانب الغرب فهجموا على البلاد، وفتكوا بأهلها فتكاً ذريعاً لم يذكر التاريخ له مثيلاً.

ب ـ إنّ الإنتصار رهن عاملين قويين: أحدها بشري والآخر غيبي.

فأمّا الأوّل وهو القيام بالتخطيط العسكري، وحفر الخندق، وحشد القوىٰ بتمام طاقاتها، وبذل كل ما كانوا يملكونه لصدّ هجوم العدو،ولم يكن التخطيط العسكري الذي انتخبه الرسول(صلّى الله عليه و آله و سلّم) منحصراً بحفر الخندق، بل الرسول(صلّى الله عليه و آله و سلّم) في كسر جبهة الأعداء استعان بالجواسيس وبث العيون وقد كان لنعيم بن مسعود في الفتك بوحدتهم دور هام، على ما مرّ بيانه وربّما يوازي عمله عمل أدهىٰ أجهزة الإستخبارات العالمية.

وأمّا الثاني وهو الغيبي فقد سلّط الله عليهم الريح والبرد القارس، حتى سلبت عنهم الراحة والاستقرار والقدرة على البقاء، فهذا حذيفة بن اليمان الذي أرسله الرسول جاسوساً إلى القوم حيث قال له: اذهب فادخل في القوم، فانظر ماذا يصنعون ولا تحدثن شيئاً، حتىٰ تأتينا، قال:فذهبت فدخلت في القوم، والريح وجنود الله تفعل بهم ما تفعل، لا تقرّ لهم قدراً ولا ناراً ولا بناءً، فقام أبوسفيان فقال: احذروا الجواسيس والعيون ولينظر كل رجل جليسه، قال حذيفة فالتفتّ إلى عمرو ابن العاص فقلت: من أنت، وهو عن يميني فقال: عمرو بن العاص، والتفتّ إلى معاوية بن أبي سفيان فقلت: من أنت فقال: معاوية بن أبي سفيان، ثم قال أبوسفيان: إنّكم والله لستم بدار مقام، لقد هلك الخف والكراع(إلى أن قال حذيفة) فقام أبوسفيان وجلس على بعيره، وهو معقول ثم ضربه فوثب على ثلاث قوائمه فما اطلق عقاله إلّا بعد ما قام[1].

---

(١) المغازي ج٢ ص٤٨٩و٤٩٠، و السيرة النبويّة لابن هشام ج٢ ص٢٣٢.

٤ ـ غزوة بني المصطلق

بلـغ رسول اللـه أنّ بني المصطلـق يجمعون لـه ، وقـائدهم «الحـارث بن أبـي ضرار» . فلمّا سمع بهم خرج إليهم ، حتّى لقيهم على ماء لهم ، يقال له : (المُرَيسيع) فتزاحف الناس ، واقتتلـوا ، فهزم الله بني المصطلق ، وقتل من قتـل منهم ، وسبي من سبي ، وقد قتـل من أصحاب رسول الله رجل اسمـه «هشام بن صبابة» قتلـه رجل من الأنصار خطأً .

فبينا رسول اللـه على ذلك الماء ، وردت واردة الناس ، ومع عمـر بن الخطاب أجير له من بني غفار ، يقال له جَهْجاه بن مسعود يقود فرسه ، فازدحم جَهْجاه مع رجل مـن الأنصار علـى الماء ، فـاقتتلا ، فصـرخ الأنصـاري : يا معشـر الأنصار ، وصـرخ جهجاه : يا معشر المهاجرين . فلمّا سمع رسول الله صرختهما قال : دعوها فإنّهامنتنة ـ يعني انّهـا كلمة خبيثة ـ لأنّهـا من دعوى الجاهليـة ، فإنّ الله جعل المـؤمنين أُخوة وحزباً واحداً ، فمن دعا في الإسلام بدعوة الجاهليّة يعزّر .

ثمّ لمّا بلغ الأمر إلـى عبدالله بن أُبيّ بن سلول ، وعنده رهـط من قومه ، فيهم : زيد بن أرقم ، وهو غلام حدث ، فقال ابن أُبيّ : أوَ قد فعلوها ، وقد نافرونا وكاثرونا في بلادنا ، والله ما أعـدّنا و جلابيب قريش إلاّ كما قال الأوّل : سَمِّـن كلبك يأكلك ! أما والله لئن رجعنا إلـى المدينة ليخرجنّ الأعـزّ منها الأذل . ثمّ أقبل على مـن حضره من قـومه فقـال لهم : هـذا مـا فعلتم بـأنفسكـم ، أحللتموهـم بلادكـم ، وقـاسمتموهـم أموالكم ، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيـديكم لتحوّلوا إلى غير داركم . فسمع ذلك

زيد بن أرقم، فمشى به إلى رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) و ذلك عند فراغ رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) من عدوّه، فأخبره الخبر، و عنده عمر بن الخطاب فقال: مُرْ به عبّاد بن بشر فليقتله. فقال له رسول الله(صلّى الله عليه و آله وسلّم): فكيف يا عمر إذا تحدّث الناس أنّ محمداً يقتل أصحابه!

وقد مشى عبدالله بن أُبيّ بن سلول إلى رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) حين بلغه انّ زيد بن أرقم قد بلّغه ما سمع منه، فحلف بالله: ما قلت ما قال ولاتكلّمت به ــ وكان في قومه شريفاً عظيماً ـ فقال من حضر رسول الله(صلّى الله عليه وآله وسلّم) من الأنصار من أصحابه: يا رسول الله عسىٰ أن يكون الغلام قدأوهم في حديثه، ولم يحفظ ما قال الرجل،حَدَباً على ابن أُبيّ بن سلول ودفعاً عنه.

ولكنّه(صلّى الله عليه و آله و سلّم) وقف على أنّه إن لم يتّخذ خطّة حازمة فقد يستفحل الأمر، لذلك أمر أن يؤذّن بين الناس بالرحيل في ساعة لم يكن يرتحل المسلمون فيها، وعند ذلك جاء أسيد بن حضير وقال: يا نبي الله لقد رحلت في ساعة منكرة ما كنت تروح في مثلها. فقال رسول الله (صلّى الله عليه و آله و سلّم): أو ما بلغك ما قال صاحبكم؟ قال: وأي صاحب يا رسول الله؟ قال: عبدالله بن أُبيّ قال: وما قال؟ قال: زعم أنّه إن رجع إلى المدينة ليخرجنّ الأعزّ منها الأذل، قال: فأنت يا رسول الله والله تخرجه منها إن شئت، هو والله الذليل وأنت العزيز. ثمّ قال: يا رسول الله، ارفق به، فوالله فقد جاء نا الله بك، و إنّ قومه لينظمون له الخَرز ليتوّجوه، فإنّه ليرى أنّك قد أستلبته مُلكاً.

ثمّ مشى رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) بالناس يومهم ذلك حتّى أمسى، وليلتهم حتى أصبح، وصدر يومهم ذلك حتّى آذتهم الشمس، ثمّ نزل بالناس، فلم يلبثوا أن وجدوا مسّ الأرض فوقعوا نياماً، وإنّما فعل ذلك رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) ليشغل الناس عن الحديث الذي كان بالأمس من حديث عبدالله بن أُبيّ.

حطّ المسلمون رحالهم بالمدينة، وفي تلك الأثناء نزلت آيات تصدّق زيداً،

وتكذّب عبدالله بن أبي، حيث قال سبحانه:

﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ* يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾(المنافقون/ ٧و٨).

فلمّا نزلت هذه الآيات حسب قوم أنّ النبي(صلّى الله عليه و آله و سلّم) آمر بقتله لا محالة، فعند ذلك ذهب ابنه عبدالله ـ وكان مسلماً حسن الإسلام ـ فقال: يا رسول الله إنّه بلغني أنّك تريد قتل أبي فيما بلغك عنه، فإن كنت لابد فاعلاً فمرْني به، فأنا أحمِلُ إليك رأسه، فوالله لقد علمتْ الخزرجُ ما كان لها من رجل أبرّبوالده منّي، وإني أخشىٰ أن تأمر به غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أنْظُر إلى قاتل عبد الله ابن أُبي يمشي في الناس فأقتله، فأقتل رجلاً مؤمناً بكافر، فأدخل النار. فقال رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم): بل نترفّق به ونحسن صحبته ما بقي معنا.

تولّي قوم ابنُ أُبيّ مجازاته:

وبعد ذلك كان قومه هم الذين يعاتبونه ويأخذونه ويعنّفونه. فقال رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) لعمر بن الخطاب حين بلغه ذلك من شأنهم: كيف ترىٰ يا عمر، أما والله لو قتلته يوم قُلتَ لي اقتله، لأُرعِدت له آنف، لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته. قال: قال عمر: قد والله علمت لأمر رسول الله(صلّى الله عليه و آله وسلّم) أعظم بركة من أمري[1].

وقال الطبرسي: وكان عبد الله بن أُبيّ بقرب المدينة، فلمّا أراد أن يدخلها جاء ابنه عبد الله بن عبد الله حتّى أناخ على مجامع طرق المدينة. فقال: مالك ويلك؟ قال: والله لا تدخلها إلاّ بإذن رسول الله (صلّى الله عليه و آله و سلّم) ولتعلمنّ اليوم

---

(١) السيرة النبويّة لإبن هشام ج٢ ص٢٨٩ـ٢٩٣.

مَنْ الأعزّ ومن الأذلّ، فشكا عبد الله ابنه إلى رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) فأرسل إليه رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) أن خلّ عنه يدخل، فقال: أمّا إذا جاء أمر رسول الله فنعم[1].

ولمّا نزلت الآيات المتقدّمة وبان كذب عبد الله قيل له: إنّه نزل فيك آي شداد، فاذهب إلى رسول الله يستغفر لك، فلوى رأسه ثمّ قال: آمرتموني أن أؤمن فقد آمنت، وآمرتموني أن أُعطي زكاة مالي فقد أعطيت، فما بقي إلاّ أن أسجد لمحمد، فعند ذلك نزلت الآيتان التالية:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرِ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَ رَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ* سَوَاءٌ عَلَيْهِم اَسْتَغْفَرْتَ لَهُم اَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُم لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ اِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِى القَوْمَ الفَاسِقِينَ﴾(المنافقون/ ٥و٦).

هذه قصة غزوة بني المصطلق، وقد رواها أهل السير والمغازي والمفسّرون[2].

والذي يهمّنا من استعراض تلك الغزوة هو الدروس والعظات التي يمكننا أن نستخلصها، ونستفيدها منها من خلال سيرة النبي الأكرم(صلّى الله عليه و آله و سلّم)، وإليك عرض تلك النتائج:

١ـ التخطيط للإجلاء والمقاطعة الاقتصادية:

لم يكن التخطيط لإجلاء المسلمين عن أوطانهم و أماكنهم والمقاطعة الاقتصادية شيئاً حديث النشأة في القرن العشرين، وإنّما له جذور تمتد على مرّ التاريخ، فهذا عبد الله بن أُبيّ رئيس المنافقين يعد العدّة للتآمر على المسلمين، ويسعى جاهداً لإجلائهم، وفرض مقاطعة إقتصادية عليهم، فلو شاهدنا ما يفعل بنا

---

(١) مجمع البيان ج١٠ ص٤٤٤ (طبع بيروت).

(٢) لاحظ تفسير الطبري ج٢٨ ص٧٠ـ٧٥، و الدر المنثور ج٥ ص٢٢٢ـ٢٢٦، إلى غير ذلك من المصادر.

نحن معاشر المسلمين على أيدى المستعمرين في بيت المقدس، وسائر بقاع المسلمين الأُخرى في أيّامنا هذه، فليس هناك محلاًّ للإستغراب والدهشة والتعجّب، ولكنّ الله سبحانه وتعالى أدحض تآمرهم وأبطل احدوثتهم وردّ كيدهم إلى نحورهم فانقلبوا خاسئين.

قال سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمٰوَاتِ وَ الأَرْضِ﴾(المنافقون/ ٧) وقال سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ العِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾(المنافقون/ ٨).

ولكنّ ذلك مشروط بالتمسّك بعرىٰ الإيمان، والإنقطاع الكامل لله عزّ وجل، والإنقياد المطلق لأوامره ونواهيه.

قال سبحانه: ﴿وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُم مُؤْمِنِينَ﴾(آل عمران/ ١٣٩) وقال عزّ اسمه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ المَلاَئِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾(فصّلت/ ٣٠).

٢ـ تشتيت الشمل وبثّ التفرقة بين المسلمين:

إنّ عبد الله بن أُبيّ ذلك العدو اللدود للمسلمين، أراد تشتيت شمل المسلمين، بإثارة ظغائن طائفة من المسلمين على طائفة أُخرى، حتّى يشتعل فتيل الفتنة، ويحرق المسلمون بعضهم دمَ بعض بأيديهم، وتكون الخاتمة لصالح أعدائهم، حيث قال: هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم....

غير أنّ هذا النهج التآمري لا زال معمولاً به إلىٰ يومنا هذا، ومانفكّ عنه أعداء الإسلام طرفة عين أبداً، ومن الصور الجليّة الواضحة لهذا النهج العدائي في يومنا هذا، بثّ السموم الفكرية في أذهان أبناء الشعوب الإسلامية، وتأليب بعضهم علىٰ بعض، تحت شعارات قومية ووطنية وعرقية، فيحفّزون الجذور القومية للترك في قبال الجذور القومية العرقية العربية، وهكذا بالنسبة لسائر القوميات المتعدّدة التي تدين

بالإسلام علىٰ امتداد رقعته الشاسعة .

وبذلك تمكّنوا من الفتك والإجهاز علىٰ الإمبراطورية العثمانية المترامية الأطراف، والتي تمكّنت من الظهور بالمسلمين كدولة عظمىٰ في العالم لها سيادتها، وثقلها في تقرير الأوضاع السياسية في العالم .

٣ـ حنكة النبي ﷺ في اجتياز الأزمة :

في خضمّ ذلك الموقف الحرِج، أمر النبي(صلّى الله عليه و آله و سلّم) أن يؤذّن في الناس بالرحيل في ساعة لم يألفوا الرحيل فيها، مع أنّ ابن أُبيّ أسرع بالمثول أمام يديه، والتنكّر ممّا بدر منه ونسب إليه، ولكن ذلك لم يؤثّر على قرار النبي(صلّى الله عليه و آله و سلّم) بالرحيل شيئاً، بل انطلق بالناس يجوب الفيافي والقفار، طيلة يومهم حتّى أمسوا، وطيلة ليلتهم حتّى أصبحوا، وصدر يومهم الثاني حتّى آذتهم الشمس، فلمّا نزل الناس لم يلبثوا حتّى غلبهم النعاس، ونسوا حديث ابن أُبيّ، وهذا يعطي لكل قائد محنّك درساً من لزوم امتصاص ما انتاب نفوسهم من أفكار خاطئة، و اجتثاث جذورها بصرفها إلىٰ أُمور أُخرى، تستولي علىٰ منافذ فكرهم فتشذّ أذهانهم عنهم إلىٰ التشاغل بأُمور أُخرىٰ، ولو لم يقم بذلك لبقيت آثار تلك الرواسب الفكرية في أذهانهم، ولأثّرت على مستقبل الدعوة، ووحدة صف المسلمين .

٤ـ سعة صدر النبي وتريّثه وتلبّثه :

لمّا أطلع زيد بن أرقم النبي(صلّى الله عليه و آله و سلّم) ما قاله عبد الله بن أُبيّ، صدّقه في نقله، ولمّا مثل ابن أُبيّ بين يديه، وأنكر ما أبلغه زيد بن أرقم، فلم يكذّبه، وربّما كانت هذه الظاهرة التي تمثّل بها النبي في ذلك الموقف، أمراً مثيراً للتساؤل، ولأجل ذلك انتهز المنافقون الفرصة لانتقاد النبي، واتهامه بالتساهل والتواني في القضاء علىٰ خصومه، ولكنّ المنافقين قد غفلوا عن أصل رصين، وأُسّ مكين تبتني عليه الحنكة القياديّة، وقد قال أميرالمؤمنين(عليه السلام) بهذا

الصدد : «آلة الرئاسة سعة الصدر»[1].

وإنّ التسرّع في الحكم والقضاء، وإن أصاب الواقع لا يخلو من نتائج غير محمودة، خصوصاً إذا لم يتّضح الأمر بعد لعموم المسلمين، فقد اختار النبي(صلّى الله عليه و آله و سلّم) التريّث حتّى تنكشف حقيقة المسألة للجميع، فيكون النبي معذوراً ومحقّاً إذا أخذ في حق ابن أُبيّ حكماً حاسماً.

٥ـ مقابلة الإساءة بالإحسان :

لمّا أخبر زيد بن أرقم النبي(صلّى الله عليه و آله و سلّم) بما تقوّل به عبد الله ابن أُبيّ، اقترح عمر بن الخطاب على النبي(صلّى الله عليه و آله و سلّم) أن يقتله ولكنّ النبي(صلّى الله عليه و آله و سلّم) أجابه بقوله : «فكيف يا عمر، إذا تحدّث الناس انّ محمداً يقتل أصحابه»، فقد أبدىٰ النبي(صلّى الله عليه و آله و سلّم) في جوابه هذا حنكة وسياسة رصينة أدحض بذلك المقولة التي تنص علىٰ «انّ كل ثورة ستجتث جذور أبطالها». وعدوّ الله عبد الله بن أُبيّ وإن لم يكن في واقع أمره مسلماً واقعياً، ولكنّه كان معدوداً منهم، ومن أشرافهم، فلو قتله النبي لتسرّب الريب إلى سائر نفوس المسلمين.

وقد جازىٰ النبي(صلّى الله عليه و آله و سلّم) الإساءة بالإحسان، عندما جاء ابنه إلى النبي، وقال : «إنّه بلغني انّك تريد قتل عبد الله بن أُبيّ، فإن كنت لا بدّ فاعلاً فامرني به ...».

ولكنّ النبي(صلّى الله عليه و آله و سلّم) أجابه بقوله : بل نترفّق به، ونحسن صحبته ما بقي معنا.

أُنظر إلى هذه السماحة النبويّة، وروعة عفوها وجلالها، فهو يترفّق بمن ناصبه العداء، وألّب قلوب أهل المدينة عليه، فيكون رفقه وعفوه أبعد أثراً عن عقوبته، لو أنّه

---

(١) نهج البلاغة قسم الحكم برقم١٧٦.

عاقبها به، وعند ذلك توجّه النبي إلى عمر بن الخطاب: كيف ترى يا عمر، أما والله لو قتلته يوم قلت لي: اقتله،لأرعِدت له آنف، لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته.

قال عمر: والله علمت لأمر رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) أعظم بركة من أمري.

وفي الختام انظر إلى كلام ابن عبدالله، فهو على ايجازه يعبّر عن حالة نفسية اصطدمت فيها روح الإنشداد إلى الدين، والذوبان في كيانه العظيم، مع وشائج الارتباط العاطفي بوالده، فلا يمكن له الجمع بينهما، ولكنّه يعلم أنّ النبي(صلّى الله عليه و آله و سلّم) لا يصدر إلاّ عن الوحي، ولا يأمر إلاّ بالحق، وعند ذلك طلب من النبي أن يقوم بنفسه بقتله لو استحقّ القتل، ولا يفوّض القيام به إلى الغير، خوفاً من أن تحمله العواطف والوشائج إلى قتل قاتل أبيه، وفي قتل المسلم دخول النار والعذاب المقيم.

٦ـ العزّة لله ولرسوله:

إنّ عبد الله بن أُبيّ أوهم الناس بأنّ العزّة للمشركين والمنافقين، والذل والهوان للمسلمين والمؤمنين، ولكنّ الوحي أبطل أوهامه تلك، بقوله:

﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾.

فصدق الخبر المخبر، حتّى وقف ابن عبد الله بن أُبيّ على باب المدينة، فقال لأبيه: والله لا تدخلها إلاّ بإذن رسول الله ولتعلمنّ اليوم من الأعزّ، ومن الأذلّ، فشكى عبد الله ابنه إلى رسول الله، فأرسل إليه رسول الله: أن خلّي عنه يدخل فقال: أمّا إذا جاء أمر رسول الله فنعم.

هذه هي الدروس التي نتلقّاها من وحي سيرة الرسول على ضوء ما ورد في القرآن الكريم.

خاتمة المطاف :

ثمّ إنّ بنـي المصطلق أسلمـوا ، فبعث إليهـم رسول اللـه(صلّى الله عليـه و آله وسلّم) بعـد إسلامهم الوليـد بن عقبة بـن أبي معيط ، حتّـى يأخذ الصدقـات منهم ، فلمّا سمعوا به ركبوا إليـه ، فلمّا سمع بهم هابهم ، فرجع إلـىٰ رسول الله ، فأخبره : انّ القوم قد همّوا بقتله ، ومنعوه ما قبلهم من صدقتهم . فأكثر المسلمون في ذكر غزوهم حتّى همَّ رسـول الله بأن يغزوهم ، فبينماهـم علىٰ ذلك قدم وفدهم علـىٰ رسول الله ، فقالوا : يا رسول الله سمعنا برسولك حين بعثته إلينا ، فخرجنا إليه لنكرمه ، ونؤدّي إليه ما قبلنا من الصدقـة ، فانشمر راجعاً ، فبلغنا انّه زعم لرسـول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّـم) انّـا خرجنـا إليـه لنقتلـه ، ووالله مـا جئنـا لـذلك ، فـأنـزل اللـه تعالـى فيـه وفيهم : ﴿ **يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا اَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَـادِمِينَ* وَاعْلَمُـوا اَنَّ فِيكُمْ رَسُـولَ اللَّهِ لَـوْ يُطِيعُكُمْ فِـى كَثِيرٍ مِـنَ الاَمْرِ لَعَنِتُّمْ** ... ﴾(الحجرات/ ٦و ٧)[١].

(١) السيرة النبويّـة لابن هشام ج٢ ص٢٩٦ ، و تفسير الطبـري : ج٢٦ ص٧٩ ، و الدر المنثور: ج٧ ص٥٥٦ـ٥٥٨ . .

٥ ـ صلح الحديبيّة

إنّ الله تعالى أرى نبيّه في المنام بالمدينة أنّ المسلمين دخلوا المسجد الحرام، فأخبر بذلك أصحابه، ففرحوا و حسبوا أنّهم داخلوا مكّة عامهم ذلك، و هي السنة السادسة من الهجرة. ثمّ استنفر العرب و من حوله من أهل البوادي ليخرجوا معهم لإداء فريضة العمرة، لزيارة بيت الله، و تعظيماً له، لا لقتال أو جهاد، فساق معه الهدي و أحرم بالعمرة ليأمن الناس من حربه، و كانت الهدي سبعين بدنة، و كان الناس سبعمائة رجل، فكانت كل بدنة عن عشرة نفرات.

خرج رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) حتّى إذا كان بعسفان[١] لقيه «بشر ابن سفيان الكعبي» فقال: يا رسول الله هذه قريش قد سمعت بمسيرك، و لقد لبسوا جلود النمور، و نزلوا بذي طوى[٢] يعاهدون الله لاتدخلها عليهم أبداً، و هذا «خالد ابن الوليد» في خيلهم قد قدّموها إلى كراع الغميم[٣]، فقال رسول الله(صلّى الله عليه وآله و سلّم): يا ويح قريش! لقد أكلتهم الحرب ماذا عليهم لو خلّوا بيني وبين سائر العرب، فإن هم أصابوني كان الذي أرادوا، و إن اظهر نبي الله عليهم دخلوا في الإسلام و افرين، و إن لم يفعلوا قاتلوا و بهم قوّة، فما تظن قريش؟ فو الله لاأزال أُجاهد على الذي بعثني الله به، حتّى يظهره الله، أو تنفرد هذه السالفة[٤].

ثمّ قال: مَنْ رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم التي هم بها؟

---

(١) عسفان، منهلة من مناهل الطريق بين الجحفة و مكّة، و هي من مكّة على مرحلتين.

(٢) موضع قرب مكّة.

(٣) واد أمام عسفان بثمانية أميال.

(٤) صفحة العنق، و كنّى بإنفرادها عن الموت.

فعندئذ قال رجـل من «أسلم» : أنا يا رسـول الله . فسلك بهم طريقـاً وعراً كثير الحجارة بين شعاب ، فلمّا خرجوا منه ، و قد شقّ ذلك على المسلمين ، و أفضوا إلى أرض سهلة عنـد منقطع الوادي . أمر رسـول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّـم) فقال : اسلكوا ذات اليمين في طريق ، و قد أدّى بهم ذلك الطريق إلى مهبط الحديبيّة . فلما رأت خيل قريـش غبار جيش الإسلام ، قد خـالفوا عن طريقهم ، رجعـوا راكضين إلى قريـش . و خرج رسول الله(صلّى الله عليـه و آله و سلّم) و سلـك حتّى بركت نـاقته ، فقالت الناس : خلأت الناقة . قال(صلّـى الله عليه و آله و سلّم) : ما خلأت و ما هو لها بخلق ، و لكـن حبسها حابس الفيل عن مكّـة ، لا تدعوني قريش اليـوم إلى خطة يسألوني فيهـا صلة الرحم إلاّ أعطيتهم إيّاهـا ، ثـمّ أمر الناس بالإنزال . قيـل : يا رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) ما بالوادي ماء ننـزل عليه . فأخرج سهماً من كنانته ، فأعطاه رجلاً من أصحـابه ، فنزل به في قليب من تلك القلب ، فغـرزه في جوفه حتّى ارتفع بالرواء .

١ ـ رجال خزاعة بين الرسول ﷺ و قريش

نزل رسول الله أرض الحديبيّة ، و بينما هو فيها إذ أتاه «بديل بن ورقاء الخزاعي» في رجال من خـزاعة ، فكلّموا النبي و سألوه . فقـال : إنّه لم يأت يريد حـرباً ، و إنّما جاء زائراً للبيـت ، و معظّماً لحـرمته ، ثـمّ قال لهم نحـواً ممّا قـال لبشر بـن سفيان ، فرجعوا إلى قريش فقالوا : يا معشر قريش ، إنّكم تعجلون على محمد ، إنّ محمداً لم يأت لقتال ، و إنّمـا جاء زائراً لهذا البيت ، فاتهمـوهم و أهانوهم . و قـالوا : وإن كان جاء و لايريد قتالاً ، فو الله لايدخلها علينا عنوة أبداً ، و لاتحدّث بذلك عنّا العرب .

٢ ـ مكرز رسول قريش إلى الرسول ﷺ

ثـمّ بعثت قريش إلى رسول الله(صلّـى الله عليه و آله و سلّم) مكرز بن حفص ، فلمّا رآه رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّـم) قال : هذا رجل غادر ، فلمّا انتهى إلى

رسول الله و كلّمه. قال له رسول الله مثل ما قاله لرجال خزاعة، فرجع إلى قريش فأخبرهم بما قال.

٣ ـ الحليس رسول ثالث لقريش

ثمّ بعثت قريش رسولاً ثالثاً، و هو الحليس، و كان يومئذ سيد الأحابيش، فلما رآه رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) قال: إنّ هذا من قوم يتألّهون[1]، فابعثوا الهدي في وجهه حتّى يراه، فلمّا رأى الهدي، و قد أكل أوباره من طول الحبس، رجع إلى قريش، و لم يصل إلى رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) اعظاماً لما رأى، فقال لهم ذلك. فقالوا له: اجلس فإنّما أنت أعرابي لا علم لك.

فقال الحليس مغضباً: يا معشر قريش، و الله ما على هذا حالفناكم، ولا على هذا عاقدناكم، أيصد عن بيت الله من جاء معظّماً له؟ و الذي نفس الحليس بيده لتخلن بين محمد و بين ما جاء له، أو لأُنفرنّ بالأحابيش نفرة رجل واحد. فقالوا له: مه، كف عنّا يا حليس حتّى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به.

٤ ـ عروة بن مسعود رسول قريش

و في المرة الرابعة بعثت قريش عروة بن مسعود الثقفي، فخرج حتّى أتى رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم)، فجلس بين يديه ثمّ قال: يا محمد، أجمعت أوباش الناس، ثمّ جئت بهم إلى بيضتك لتفضّها بهم، إنّها قريش قد لبسوا جلود النمور، يعاهدون الله لاتدخلها عليهم عنوة أبداً.

و كلّمه رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) بنحو ممّا كلّم به الآخرين، وأخبره انّه لم يأت يريد حرباً. فقام من عند رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم)

(١) يتعبّدون و يعظّمون أمر الإله.

وقد رأى ما يصنع به أصحابه، لايتوضّـأ إلاّ ابتدروا وضوءه، و لايسقط من شعره شيء إلاّ أخذوه. فرجـع إلى قريش فقال: يا معشـر قريش إنّي قد رأيت كسـرى في ملكه، و قيصر في ملكه، و النجاشي في ملكه، و إنّي و الله مـا رأيت ملكاً في قومه قط مثل محمد في أصحابه، و لقد رأيت قوماً لايسلّمونه بشيء أبداً، فَروا رأيكم.

٥ ـ رسول النبي إلى قريش

إنّ رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) دعا خراش بن أُميّة الخزاعي، فبعثه إلى قـريش، و حمله علـى بعير له ليبلّـغ أشرافهـم عنه ما جـاء له، فعقروا بـه جمل رسول الله(صلّـى الله عليه و آله و سلّم)، و أرادوا قتلـه، فمنعتهم الأحابيـش، فخلّوا سبيله حتّى أتى رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم).

ثمّ إنّ قريشاً بعثوا أربعين أو خمسين رجـلاً، و أمروهم أن يطيفوا بعسكر رسول الله(صلّى الله عليـه و آله و سلّـم)، ليصيبوا لهم مـن أصحابه أحـداً، فبينما هم بهذا الصدد، أُخـذوا أخذاً، فـأتى بهـم رسول الله(صلّـى الله عليه و آلـه و سلّم)، فعفـى عنهم، و خلّى سبيلهـم، و قدكانوا رمـوا في عسكر رسول الله(صلّـى الله عليه و آله و سلّم) بالحجارة و النبل.

٦ ـ عثمان رسول النبيﷺ إلى قريش

إنّ النبي دعا عمر بن الخطاب ليبعثه إلى قريـش حتّى يبلّغ عنه أشرافها ما جاء له، فامتنـع من قبوله خـوفاً على نفسه، واقتـرح على رسول الله(صلّـى الله عليه و آله وسلّم) عثمان بن عفان، وهو رجل أعزّ بين قريش. فبعثه رسـول الله(صلّى الله عليه وآله و سلّم) إلى أبي سفيان، وأشراف قريش يخبـرهم انّه لم يأت لحرب، وإنّما جاء زائراً لهذا البيـت ومعظّماً لحـرمته، فـانطلق عثمان حتّـى أتاهـم، فبلّغهم عـن رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) ما أرسله به. فقالوا لعثمان حين فرغ من الرسالة: إن

شئت أن تطوف بالبيت فطف. فقال: ما كنت لأفعل حتّى يطوف به رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) واحتبسته قريش عندهـا، فبلغ رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) والمسلمين أنّ عثمان قد قتل.

بيعة الرضوان

لمّا بلغـه خبر قتـل عثمان، قـال رسول اللـه(صلّى الله عليـه و آله و سلّـم): لانبرح حتّى ننـاجز القوم، فدعى رسـول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّـم) إلى البيعة فكانـت بيعة الرضـوان تحت الشجرة، ولقد اختلفـوا فمن قائل: بـأنّهم بايعـوا رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) على الموت، وآخر: على أن لا يفرّوا.

سهيل بن عمرو رسول قريش إلى الرسول ﷺ

بعثت قريـش سهيل بن عمرو إلـى رسول الله(صلّى الله عليـه و آله و سلّم)، وقالـوا له: ائت محمداً فصـالحه، ولا يكن فـي صلحه إلاّ أن يرجـع عنّا عامـه هذا، فوالله لا تحدّث العرب عنّـا أنّه دخلها(مكة) علينا عنوة أبداً. فأتـاه سهيل بن عمرو، فلمّا رآه رسـول الله(صلّى الله عليـه و آله و سلّم)مقبـلاً، قال: قد أراد القـوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل، فلمّا انتهى سهيل بن عمرو إلى رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) تكلّم، فأطال الكلام، وتراجع ثمّ جرى بينهما الصلح.

عمر ينكر على رسول الله ﷺ الصلح

فلمّا التأم الأمر، ولـم يبق إلاّ الكتاب، وثب عمر بن الخطاب، فـأتى أبابكر، فقال: يا أبابكر، أليس برسول الله؟ قال: بلى. قال: أولسنا بالمسلمين؟ قال: بلى. قال: أوليسوا بـالمشركين؟ قال: بلى. قال: فعـلام نعطي الدنيّة في ديننـا؟ فلمّا بلغ

كلامه رسـول الله قال(صلّى الله عليه و آله و سلّـم) : أنا عبد الله ورسوله لـن أُخالف أمره، ولن يضيّعني! قال: فكان عمر يقول: ما زلت أتصدّق وأصوم وأُصلّي و أعتق، من الذي صنعت يومئذ مخافة كلامي الذي تكلّمت به حتّى رجوت أن يكون خيراً.

بنود الصلح

دعى رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) علي بن أبي طالب(رض) فقال: أُكتب بسم الله الـرحمن الرحيم. فقال سهيل: لا أعرف هذا، ولكـن أُكتب«باسمك اللّهمّ». فقـال رسول اللـه(صلّى الله عليـه و آله و سلّـم) : أُكتب«باسمك اللّهمّ»، فكتبها.

ثمّ قال: هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو.

فقال سهيل: لو شهدت انّك رسول الله لم أُقاتلك، ولكن أُكتب اسمك واسم أبيك. فقال رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) لعلي: اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو.

فقال علي: ما اَمحُو اسمك من النبوّة أبداً. فمحاه رسول الله بيده.

ثمّ كتب علي بنود الصلح، وتمّ الإتفاق على أُمور:

١ـ وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيها الناس، ويكف بعضهم عن بعض.

٢ـ من أتى محمـداً من قريش ولجأ إليه بغير إذن ردّه عليهم، ومـن جاء قريشاً ممّن كان مع محمد لم يردّوه عليه.

٣ـ تخييـر الناس كافّة، فمـن أحبّ أن يدخـل في عقد محمد وعهـده دخل، ومن أحبّ أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه.

٤ـ أن يكون الإسلام ظاهراً في مكّة، لايكره أحد على دينه، ولا يؤذىٰ ولا يعيّر.

٥ـ إنّ محمداً وأصحابه يرجع عنهم عامه هذا، ثمّ يدخل عليهم في العام القابل مكة، فيقيم فيها ثلاثة أيام، ولا يدخل عليهم بسلاح إلاّ سلاح المسافر، السيوف في القرب.

التاريخ يعيد نفسه:

إنّ رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) قال لعلي(عليه السلام) ــ بعد ما كتب الكتاب وشهد عليه المهاجرون والأنصار ــ: «يا علي إنّك أبيت أن تمحو النبوّة من اسمي، فو الذي بعثني بالحق نبيّاً، لتجيبنّ أبناءهم إلى مثلها، وأنت مضيض مضطهد» فلمّا كان يوم صفين، ورضوا بالحكمين كُتِبَ: «هذا ما اصطلح عليه أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان» فقال عمرو بن العاص: لو علمنا أنّك أميرالمؤمنين ما حاربناك، ولكن اكتب هذا ما اصطلح عليه علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان. فقال أميرالمؤمنين(عليه السلام): «صدق الله ورسوله(صلّى الله عليه و آله و سلّم)، أخبرني رسول الله(صلّى الله عليه و آله وسلّم) بذلك» ثمّ كتب الكتاب[1].

قال ابن الأثير في وقعة صفّين:

حضر عمرو بن العاص عند علي ليكتب الكتاب، فكتبوا بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما تقاضى عليه أميرالمؤمنين، فقال عمرو: أُكتب اسمه و اسم أبيه هو أميركم، وأمّا أميرنا فلا، فقال الأحنف: لا تمح اسم أميرالمؤمنين، فإنّي أخاف إن محوتها أن لا ترجع إليك أبداً لا تمحها و إن قتل الناس بعضهم بعضاً، فأبى ذلك علي ملياً من النهار.

ثمّ إنّ الأشعث قال: امح هذا الإسم، فمحاه. فقال علي: الله أكبر سنّة بسنّة، والله إنّي لكاتب رسول الله يوم الحديبيّة، فكتبت رسول الله، فقالوا: لست

(١) تفسير القمي ج٢ ص٣١٣و٣١٤.

برسـول الله، ولكن أُكتب اسمَـك و اسم أبيك، فأمـرني رسول الله بمحـوه. فقلت: لاأستطيع.

فقال: أرنيه،فأريته، فمحاه بيده، وقال: إنّك ستدعىٰ إلى مثلها فتجيب. فقال عمرو: سبحان الله أنشبّه بالكفّار ونحن مؤمنون.

فقال علي: يـا ابن النابغة، و متى لـم تكن للفاسقين وليّاً، وللمـؤمنين عدوّاً؟ فقال عمرو: والله لا يجمـع بيني وبينك مجلس بعد هذا اليوم أبـداً. فقال علي: إنّي لأرجو أن يطهّر الله مجلسي منك، ومن أشباهك. فكتب هذا ماتقاضى عليه علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان[1].

* * *

فبينما رسـول الله يكتـب الكتاب هو وسهيـل بن عمرو، جـاء «أبوجنـدل» ابن سهيل بن عمرو، يرسـف في الحديد، قد انفلت إلى رسول اللـه(صلّى الله عليه و آله وسلّـم) وقد كـان أصحاب رسـول اللـه(صلّى الله عليـه و آلـه و سلّم) خـرجوا وهـم لايشكّون في الفتح لرؤيا رآها رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّـم) ، فلمّا رأوْا مارأوْا من الصلـح والرجوع، وما تحمـل عليه رسول اللـه(صلّى الله عليه و آله و سلّـم) في نفسه، دخل على النـاس من ذلك أمر عظيم، حتّى كـادوا يهلكون، فلمّا رأى سهيل أبا جندل قام إليه فضرب وجهه، وأخذ بتلبيبه ثمّ قال: يا محمد قد لجّت القضية بيني وبينك قبـل أن يأتيك هذا. قـال: صدقت. فجعـل ينتره بتلبيبه، ويجرّه ليـرده إلى قريش، وجعل أبوجندل يصرخ بأعلى صوته: يا معشر المسلمين أأُرد إلى المشركين، يفتنوني في ديني؟ فزاد ذلك الناس إلى مـا بهم، فقال رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّـم): يـا أباجنـدل اصبـر واحتسـب، فإنّ اللـه جـاعـل لـك ولمن معـك مـن المستضعفين فرجاً ومخرجـاً، إنّا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحـاً، وأعطيناهم على

---

(١) الكامل لابن الأثير ج٣ ص١٦٢.

ذلك، وأعطونا عهد الله، وإنّا لا نغدربهم[1].

فلمّا فرغ رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) من الكتاب أشهد على الصلح رجالاً من المسلمين ورجالاً من المشركين وهم: أبوبكر، وعمر بن الخطاب، وعبد الرحمان بن عوف، وعبد الله بن سهيل بن عمرو، وسعد بن أبي وقاص، ومحمود بن مسلمة، ومكرزبن حفص وهو يومئذ مشرك،وعلي بن أبي طالب وكتب، وكان هو كاتب الصحيفة.

نحر الرسول وحلقه:

فلمّا فرغ رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) من الصلح قدم إلى هَـدْيِهِ فنحره، ثمّ جلس فحلق رأسه، فلمّا رأى الناس أنّ رسول الله قد نحر وحلق، تواثبوا ينحرون ويحلقون، غير أنّ بعض الصحابة، تخلّف عن الحلق والتقصير، ولأجل الإيعاز إلى أنّ عملهم إنّما هو بمثابة تجاسر على مقام النبوّة، قال رسول الله: رحم الله المحلقين. مومياً بذلك على نحو الازدراء بالمتخلّفين.

ثم إنّ رسول الله رجع إلى المدينة فقال الناس: ألم تقل أنّك تدخل مكّة آمناً؟ قال: بلى،أفقلت من عامي هذا؟ قالوا: لا. قال: فهو كما قال لي جبرئيل(عليه السلام)[2].

دروس وعبر:

١ـ كانت سفرة النبي سفرة سياسيّة هادفة تطمح بالدرجة الأُولى إلى قلب الرأي العام المتأجج ناراً ضد النبي(صلّى الله عليه و آله و سلّم) واتباعه، ودعوته في نفوس مشركي قريش، ومن ناحية أُخرى كانت تهدف لإ زاحة الستار الذي وضعه رؤوس

---

(١) و سنوافيك الخاتمة التي آل إليها أمر أبي جندل في آخر الفصل فترقّب.

(٢)السيرة النبويّة ج٢ ص٣١٨ـ٣١٩.

المشركين على بصائر النـاس، والذي صوّر النبي، وأتباعه مَردَة على شـريعة إبراهيم الحنيفية، وأعداء القبلة التي بناها للعبادة.

٢ـ إنّ النبي أثبت في عقد الصلح مع قريش براعته السياسيّة، وحنكته القياديّة الفـذّة، حيث أظهـر مرونـةً لا نظير لهـا، حتّـى أنّه قبـل أن يكتب«بـاسمك اللّهـمّ» مكان«بسم الله الرحمن الرحيم»، وأن يحذف مقـام الرسالة والنبوّة عن اسمه، وذلك يُنبئ عن أنّـه كان مهتمّاً على حفظ الـدماء والأنفس، و اقرار مبـادئ الصلح والسلام على ربـوع المنطقة، وإشاعـة الأمن في السبـل والقفار، حتّـى يتمكّن في ظـل تلك الأُمور من بث الدعـوة الإسلامية، فإنّه في ظل تحكيم مبـادئ السلام يكون أكثر قدرة وفاعلية لنشر المبادئ السامية.

٣ـ إعطاء صـورة بديعة رائعة لمبدأ الحريـة في الإسلام للبرهنة على أنّـه لم يقم على أسـاس الجبر و الإلزام، بشهـادة أنّه قبل بـالبند الذي ينـص على أنّ من فـرّ من المسلمين إلى جانب مكّة، وارتدّعن الإسلام أن لا يستردّه.

٤ـ إنّ المستقبـل أثبت أنّ المرونة التـي أظهرها في القبـول بأحد البنود النـاصّة على لزوم ردّ من فرّ من مكّة إلى المدينة، ولو اعتنق الإسلام كانت صائبة، وإن أثارت حفائظ بعـض الصحابـة، ودفعهـم إلى القـول بأنّـه من قبيـل تقبّل الدنيّـة في طـريق الدين[1]، ولكن المستقبل أثبـت خلاف ما خطر في أذهانهـم من تصوّرات، وإليك نص ما صرّح به أهل السير والتاريخ في ذلك:

«لمّا قدم رسول الله المدينة فرّ أبو بصيـرمن مكة إلى المدينة. فقال رسول الله: يا أبابصير، إنّا قـد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمتَ، ولا يصلح لنـا في ديننا الغدر، وانّ الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فـرجاً ومخرجاً، فانطلق إلى قومك. قال: يارسول الله أتردّني إلى المشركين يفتنوني في ديني؟ قال: ياأبابصير انطلق، فإنّ الله تعالى سيجعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً.

---

(١) تعرّفت على قائله.

وقد بعثت قريش أزهربن عبد عوف، والأخنس إلى رسول الله، وبعثا رجلاً من بني عامر، ومعه مولى لهم ليردّا أبابصير إلى مكّة.

فانطلق أبوبصير معهما حتّى إذا كان بذي الحليفة[1] جلس إلى جدار، وجلس معه صاحباه، فقال أبوبصير: أصارم سيفك هذا يا أخا بني عامر؟ فقال: نعم. قال: أنظر إليه؟ قال: انظر إن شئت. قال:فاستلّه أبوبصير ثم علاه به حتّى قتله، وخرج المولى سريعاً حتّى أتى رسول الله قال: ويحك ما لك؟ قال: قتل صاحبكم صاحبي، فو الله ما برح حتّى طلع أبوبصير متوشّحاً بالسيف، حتّى وقف على رسول الله. فقال: يا رسول الله وفت ذمّتك وأدّى الله عنك، أسلمتني بيد القوم، وقد امتنعت بديني أن أفتن فيه، أو يُعبث بي، ثمّ خرج أبوبصير حتّى نزل العيس على ساحل البحر بطريق قريش، التي كانوا يسلكونها إلى الشام، فبلغ المسلمين الذين كانوا أحتبسوا بمكّة عمل أبي بصير وموقفه، فخرجوا إلى أبي بصير، فاجتمعوا إليه منهم قريب من سبعين رجلاً، وكانوا قد ضيّقوا على قريش لا يظفرون بأحد منهم إلاّ قتلوه، ولا تمرّ بهم عير إلاّ أقتطعوها، حتّى كتبت قريش إلى رسول الله تسأل بأرحامها إلاّ آواهم، فلا حاجة لهم بهم، فآواهم رسول الله، فقدموا على المدينة، فأُلغي ذلك البند.

٥ـ كشف مخالفة بعض الصحابة أمر الرسول في الحلق والتقصير، عن أنّ أُناساً منهم كانوا يتوانون عن امتثال أمر النبي ويقدّمون آراءهم على التشريع الإلهي الذي كان ينطق به النبي الأكرم.

٦ـ إنّ عقد الصلح بين النبي وقريش، أتاح لهم فرصة ثمينة لنشر الإسلام في الجزيرة العربية، وإرسال الرسل إلى الملوك، والسلاطين في أطراف العالم، كدولة الروم والفرس و غيرهما من رؤساء القبائل والبلدان، حتّى بلغت رسائلهم التبليغيّة إلى تسع وعشرين رسالة أثبتها التاريخ.

---

(١) ذو الحليفة قرية، بينها و بين المدينة أميال قليلة، و منها ميقات أهل المدينة و فيها مسجد الشجرة.

٧ـ لمّا عقد الرسول الصلح، اطمأنّ من جانب المشركين في الجهة الجنوبيّة، وبذلـك تمكّن من التفـرّغ للجبهة الشمـاليّة، فأمـر بمحاصرة خيبـر، فاجتـث اليهود القاطنين فيها عن بكرة أبيهم.

كل تلك الثمرات التي اجتناها النبي الأكرم(صلّى الله عليه و آله و سلّم) كانت نتيجة عقد الصلح مع المشركين، وقد أشار الإمام الصادق إلى ذلك بقوله:

«ما كان قضية أعظم بركة منها».

هذه بعض الدروس والعبـر التي نستفيدها من سيرة النبـي الأكرم، وإليك نص ما يتحفنا به كتاب الله عزّ وجل بشأن تلـك الحادثة التاريخيّة المهمّة حيث صرّح بما نصّه في سورة الفتح[1] ولأجل سهولة التفسير نأتي بالآيات نجوما.

وقعة الحديبيّة في الذكر الحكيم

﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا اَمْوَالُنَا وَاَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِاَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً اِنْ اَرَادَ بِكُمْ ضَرّاً أَوْ أَرَادَبِكُمْ نَفْعاً بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً* بَلْ ظَنَنْتُمْ اَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ اِلى اَهْلِيهِمْ اَبَداً وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْماً بُوراً* وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَاِنَّا اَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيراً* وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالاَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً* سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ اِذَا انْطَلَقْتُمْ اِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ اَنْ يُبَدِّلُوا كَلاَمَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لاَ يَفْقَهُونَ اِلاَّ قَلِيلاً* قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الاَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ اِلَى قَوْمٍ أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْيُسْلِمُونَ فَاِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ اَجْراً حَسَناً وَاِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذاباً أَلِيماً* لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ وَلاَ عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلاَ عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ

(١) أكثر المفسرين على أنّ سورة الفتح نزلت حين منصرفه من الحديبية، و نحن نفسّر ما يمت بهذه الوقعة على وجه الصراحة، و لأجل ذلك شرعنا بالتفسير من الآية ١١ فلاحظ.

﴿تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَاباً اَلِيماً﴾(الفتح/ ١١ـ١٧) .

نزلت هذه السورة الكريمة حين منصرفه(صلّى الله عليه و آله و سلّم) من الحديبيّة في ذي القعدة من سنة ست من الهجرة، لمّا صدّه المشركون عن الوصول إلى المسجد الحرام، وحالوا بينه وبين قضاء عمرته، ثمّ مالوا إلى المصالحة و المهادنة، وأن يرجع عامه هذا ثمّ يأتي من قابل، فأجابهم إلى ذلك على كراهة جماعة من الصحابة، فلمّا نحر هَدْيه حيث احصر ورجع، أنزل الله تعالى هذه السورة فيما كان من أمره وأمرهم، وجعل هذا الصلح فتحاً لما فيه من المصلحة، كما سيجئ التصريح في قوله سبحانه : ﴿فعجّل لكم هذه﴾ .

وقد تخلّف عن هذه الغزوة، المنافقون، ولمّا عاد المسلمون إلى المدينة، أخذوا يعتذرون و إليك تحليل معذرتهم .

إعتذار المنافقين عن عدم الحضور

إنّ هذه الآيات تتعرّض لحال الأعراب الذين قعدوا عن المشاركة ولم ينفروا إذ استنفرهم الرسول، وهم أعراب نواحي المدينة، وما قعدوا عن المشاركة إلاّ لأنّهم كان يخالون أنّ محمداً وأصحابه لا يرجعون أدراجهم في هذه السفرة، لأنّهم يذهبون لغزو قريش الذين قتلوا المسلمين قتلاًذريعاً، ونكّلوا بهم في عقر دارهم«غزوة أُحد» ولمّا رجع رسول الله وأصحابه سالمين، أخذوا باختلاق المعاذير بقولهم :

﴿شَغَلَتْنَا اَمْوَالُنَا وَاَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِاَلْسِنَتِهِم مَا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِم﴾ .

إنّه سبحانه يردّ عليهم، بأنّ الضر والنفع بيد الله سبحانه، حيث ظنّوا انّ التخلّف عن النبي يدفع عنهم الضر أو يعجّل لهم النفع، والسلامة في الأنفس والأموال، فقال سبحانه : ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللّهِ شَيْئاً اِنْ اَرَادَ بِكُمْ ضَرّاً اَوْ اَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً بَلْ كَانَ اللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴾ .

ثم إنّه سبحانه صرّح بالسبب الواقعي لتخلّفهم فقال: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ اَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالمُـؤْمِنُونَ اِلَىٰ اَهْلِيهِمْ أَبَدَاً وَزُيِّنَ ذَلِـكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَـنَّ السَّوْءِ فَكُنتُمْ قَوْماً بُوْراً﴾ ولأجل أنّهم قوم غير مؤمنين، فسوف يعذّبون في السعير لقاء ما يرتكبونه في دنياهم، فقال سبحانه ﴿وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا اَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيراً* وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالاَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾ .

إنّ النبـي لمّا عقـد الصلح مـع قريـش، وعـد المؤمنيـن بالغنـائم الكثيرة فـي المستقبل(غنـائم خيبر) ولمّـا وصل خبـر ذلك إلى المنـافقين، طلبـوا من المـؤمنين المشاركـة لهم فـي هذه السفـرة كما ينـص عليه قـوله سبحانه: ﴿سَيَقُولُ المُخَلَّفُونَ اِذَا انْطَلَقْتُمْ اِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ﴾ .

والباعـث لهم إلـى الإصرار بالمشاركـة ، هو أنّ النبـي الأكرم عنـدما وعـد المؤمنين بـالغنائم الكثيرة أخبر بعـدم مشاركة غيرهم فيهـا، فهؤلاء حاولوا بـإصرارهم إبطال كلام الله ونبيّه كمـا يقول سبحانه: ﴿يُرِيدُوْنَ أَنْ يُبَـدِّلُوا كَلاَمَ اللهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذالِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾ .

ثم إنّهم لمّا سمعوا ذلك الجواب اتّهموا المؤمنين بأنهم يحسدونهم كما يحكي ذلك قوله سبحانه: ﴿فسيقولون بل تحسدوننا﴾ ولكنّ الحق انّ اتّهام المؤمنين والنبي بهذه التهمـة كلام مـن لا يعي مـا يقول، والرسـول أجلّ مـن أن يستشعر حسـداً تجاه أحد، كما يقول سبحانه: ﴿بَلْ كَانُوا لاَ يَفْقَهُونَ اِلاَّ قَلِيلاً﴾ .

إنّه سبحـانه و إن حـرمهم مـن غنائم خيبر ولكنّـه لسعة رحمتـه، وعَدَهُـم بأنّ المسلمين سيواجهون قوماً أُولي بأس شديـد، فإن شارك القاعدون منهم، فإنّه سيكون لهم ما للمسلمين كما يقول:

﴿قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِـنَ الاَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ اِلَى قَـوْمٍ أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَـاتِلُونَهُمْ اَوْ يُسْلِمُونَ(أي يقرّون بالإسلام) فَاِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ اَجْراً حَسَناً وَاِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً اَلِيماً﴾ .

وهذا أيضاً من عظيم فضل اللّه سبحانه وجزيل كرمه، فما سدّ عليهم باباً حتّى فتح لهم باباً لأخذ الغنائم وكسب رضاه سبحانه.

وهو أنّهم لو رجعوا عن تخلّفهم، فإنه سبحانه سيغفر لهم.

وهذه الآيات تشتمل على تنبّؤات غيبيّة نشير إليها:

١ـ **سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ ...**

٢ـ **يُرِيدُونَ اَنْ يُبَدِّلُوا كَلاَمَ اللَّهِ**

٣ـ **قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا ...**

٤ـ **فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا**

٥ـ **سَتُدْعَوْنَ اِلَى ...**

وستجيء تنبّوآت غيبيّة أُخرى نشير إليها في محلها.

بيعة الرضوان

إنّه سبحانه يشير إلى حادثة بيعة الرضوان التي عرفت تفصيلها في أثناء ذكر قصة صلح الحديبيّة ويقول سبحانه: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ اِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ اَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَاِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ اَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً**﴾(الفتح/ ١٠).

ويقول سبحانه: ﴿**لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ اِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَاَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَاَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً**﴾(الفتح/ ١٨).

نعم رضيُ اللّه عن المؤمنين عند المبايعة، ولكن الرضيُ إنّما ينتج ويثمر إذا لم يحيدوا عن نهج الصراط السوي، فثواب كل ما يقوم به المسلم من أعمال حسنة

مشروط بحسن العاقبة، فلو ارتدّ أو اقترف ما يوجب سخط الله عزّ وجل فلا ينفعه عمله.

الوعد بفتحين

إنّه سبحانه وعد المؤمنين بفتحين: فتح قريب، وفتح مبين.

أمّا الأوّل: فهو ما ذكره في الآية المتقدّمة أعني قوله: ﴿**فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ اللَّهُ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً**﴾ (الفتح/ ١٨). و قال: ﴿**فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً**﴾ (الفتح/ ٢٧).

وأمّا الثاني: فقد أشار إليه في صدر الآية بقوله: ﴿**إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً**﴾.

والظاهر أنّ المراد من الأوّل هو فتح خيبر لأنّه كان أقرب الفتوحات بعد الحديبيّة.

وأمّا الثاني فالمراد منه هو فتح مكّة، والظاهر من سياق الآيات، وكلمات المفسّرين أنّ ما يرجع إلى الفتح القريب من الآيات نزل بعد صلح الحديبيّة.

الوعد بمغانم ثلاث:

إنّه سبحانه قد وعد المؤمنين بمغانم ثلاث وإليك الآيات الواردة في هذا الشأن:

١ـ ﴿**وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً**﴾ (الفتح/ ١٩).

﴿**وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً**﴾

٢ـ ﴿**فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً**﴾ (الفتح/ ٢٠).

٣ـ ﴿**وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً**﴾ (الفتح/ ٢١).

أمّا المغانم الأُولى : فالمراد منها فتح خيبر بقرينة إتّصاله بقوله : ﴿وَأَثَابَهُم فَتْحاً قَرِيباً﴾ .

وأمّا قوله : ﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً﴾ فأيضاً انّه تأكيد لما تقدّم أعني قوله سبحانه : ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً﴾ و إنّما ذكره مقدّمة لقوله : ﴿فَعَجَّلَ لَكُم هَذِهِ﴾ .

وأمّا الثانية : أعني ما أشار إليه بقوله سبحانه : ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾ ، فالمراد منه نفس صلح الحديبيّة ، فعدّها سبحانه غنيمة للمسلمين لما ترتّب عليه من الفوائد .

وهذا ظاهر على القول بأنّ الآية نزلت في أثناء عودة النبي(صلّى الله عليه و آله و سلّم) من الحديبيّة إلى المدينة ، والمسلمون و إن لم يستولوا فيها على غنائم مادّية ، لكنّ اكتسبوا غنائم معنويّة أشرنا إليها ولأجله جعل صلح الحديبيّة في عداد الغنائم .

وأمّا قوله : ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ﴾ فالمراد الجماعة التي بعثوا ليطيفوا بعسكر رسول الله ليصيبوا لقريش من أصحابه أحداً ، فأُخذوا فأُوتي بهم رسول الله ، فعفىٰ عنهم ، وخلّى سبيلهم ، وقد كانو رموا في عسكر رسول الله الحجارة والنبل[1] .

وأمّا الثالثة : فهي ما أشار إليه بقوله : ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ اَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً﴾(الفتح/ ٢١) .

فالظاهر أنّ : ﴿أُخْرَىٰ﴾ صفة لموصوف محذوف وهو﴿مَغَانِم﴾ والجملة منصوبة على المحل لكونها مفعولة للفعل المتقدّم(وعدكم الله) ، والتقدير«وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ أُخرَى لَمْ تَقدِرُوا عَلَيْهَا بَعْدَ وَلَكِن اللَّه اَحَاطَ بِهَا» فما هو المراد من هذه الغنائم ، فلعلّ المراد غنائم قبيلة هوازن ، أو كل الغنائم التي يغنمها المسلمون طيلة جهادهم في حياة النبي أو بعدها .

---

(١) السيرة النبويّة لابن هشام : ج٢ ص٣١٤ ، و ستجيء الإشارة إليه في الآية٢٤ أعني قوله : ﴿و هو الذي كف أيديهم عنكم ... ﴾ .

نبوءة غيبيّة :

﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الأَدْبَارَ ثُمَّ لاَيَجِدُونَ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً* سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً *

وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً﴾(الفتح/ ٢٢ـ٢٤).

إنّ سورة الفتح اشتملت على أنباء غيبيّة مضى ذكر أكثرها، والآية الأولى تتضمّن الإشارة إلى واقعة غيبيّة، فالله سبحانه يبشّر عباده المؤمنين بأنّه لو ناجزهم المشركون لولّوا فراراً مهزومين على أعقابهم لايجدون وليّاً يأخذ بأيديهم، ويذود عنهم.

ثمّ الآية الثانية تشير إلى سنّة الله سبحانه في حق أنبيائه وأوليائه، وهي أنّ نصرتهم هي سنّة الله تبارك وتعالى في أنبيائه والمؤمنين بهم إذا صدقوا وأخلصوا نيّاتهم، فيظهرهم على أعدائهم، قال سبحانه: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾(المجادلة/ ٢١).

ولأجل أنّ سنّة الله سبحانه تقتضي اظهار الأنبياء بمظهر القوّة والغلبة، فقد كفّ أيدي المشركين عن المؤمنين في معسكر الحديبية قبل انعقاد الصلح، كما كفّ أيدي المؤمنين عنهم بعد أن أظفرهم بهم، ولعلّ الآية الثالثة تتضمّن الإشارة إلى أنّ قريشاً كانوا بعثوا أربعين رجلاً منهم أو خمسين رجلاً، وأمروهم أن يطيفوا بعسكر رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) ليصيبوا لهم من أصحابه أحداً، فأُخذوا أخذاً، فأتي بهم رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) فعفا عنهم، وخلّى سبيلهم، وقد كانوا رموا في عسكر رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) بالحجارة والنبل [1].

---

(١) السيرة النبويّة لابن هشام: ج٢ ص٣١٤، مضت هذه الرواية في تفسير الآية: ﴿وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجّل لكم هذه وكفّ أيدي الناس عنكم﴾ والفرق بين الآيتين، انّه يذكر هناك كف أيدي الكفار عن المؤمنين، و في المقام يذكر كف كلّاً من الطائفتين عن الأُخرى.

الأخذ بالحائطة للحفاظ على دماء المؤمنين:

﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفاً أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلاَ رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِنْهُم مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً *

إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾(الفتح/ ٢٥ـ٢٦).

الآية الأُولى تشير إلى أمرين:

١ـ شدّة قساوة قلوب الكافرين على المؤمنين، حيث منعوا النبي وأصحابه من المؤمنين عن الدخول إلى المسجد الحرام، والطواف بالبيت، ومنع الهَدْيَ أن يبلغ محلّه، وقد عرفت أنّ النبي(صلّى الله عليه و آله و سلّم) ساق بدنة وكذا المؤمنون حتى بلغ هديهم سبعين بدناً، ولمّا بلغوا «ذا الحليفة»، قلّدوا البدنة التي ساقوها واشعروها، وأحرموا بالعمرة حتى نزلوا بالحديبية، ومنعهم المشركون، فلمّا تمّ الصلح نحروا البدن فيها، مكان نحره في مكّة لأنّ هَدْيَ العمرة لا يذبح إلاّ بمكة كما أنّ هَدْيَ الحج لا يذبح إلاّ بمنى، وإلى هذا المعنى أشار قوله سبحانه بقوله: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكوفاً أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ﴾.

والمراد من قوله﴿مَعْكُوفاً﴾ كونه محبوساً من أن يبلغ مَنحره بالقرب من مكّة.

٢ـ الإشارة إلى أحد أسباب الصلح مضافاً إلى ما عرفت، وهو أنّه كان بين الكفّار رجال مؤمنون ونساء مؤمنات كانوا يخفون أمرهم، وما كان جيش المؤمنين يعرفونهم، فلو اشتبكت الأسنّة لقتلوا بأيدي المسلمين لمحلّ الجهالة بحالهم،

وبذلك تصيب المسلمين معرّة ومكروه، وهو قتل المسلم بيد المسلم، وبالتالي يعيب المشركون المسلمين بأنّهم قتلوا أهل دينهم، مضافاً إلى أنّه كان يجب عليهم الكفّارة والديّة، ولأجل هذه الأُمور مجتمعة، كفّ أيدي المؤمنين عن المشركين، وانتهى الأمر بالصلح، لولا ذلك لأمركم بالجهاد، وإليه الإشارة في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلاَ رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ اَنْ تَطَئُوهُم فَتُصِيبَكُم مِنْهُم مَعَرَّةٌ بِغَيرِ عِلْمٍ﴾.

نعم قضت حكمته بذلك ليدخل في رحمته أُولئك المؤمنين غير المتميّزين، وينجوبهم من القتل، ويحفظ جيش المسلمين من لحوق المعرّة والندامة بهم.

ولو كان المؤمنون مميّزين عن الكفّار، لعذّب الذين كفروا من أهل مكة، ولكن لم يعذّبهم(بأيديكم) رعاية لحرمة من اختلط بهم من المؤمنين وإليه يشير قوله: ﴿لِيُدْخِلَ اللّهُ فِى رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَاباً اَلِيماً﴾(الفتح/ ٢٥). ثمّ إنّه سبحانه يشير إلى جهة استحقاقهم العذاب، وهي رسوخ حميّة الجاهلية، وأنَفَتِها وعاداتها في قلوبهم، والمراد منها التشبّث، والتمسّك بما كان عليه آباؤهم، فقد كانت عادة آبائهم في الجاهلية أن لا يذعنوا لأحد ولا ينقادوا له، وعلى ذلك أصبحوا بعد ظهور الإسلام، فكانوا يقولون:

«قد قتل محمد وأصحابه آباءنا وإخواننا، فلو دخل علينا في منازلنا لتحدّثت العرب انّهم دخلوا علينا على رغم أنفنا»، وهذا هو الذي سمّاه تعالى الحميّة الجاهلية، أي أنفتهم من الإقرار لمحمد بالرسالة، وحتى الاستفتاح ببسم الله الرحمن الرحيم، وإليه يشير قوله سبحانه: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِى قُلُوبِهِمُ الحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الجاهِلِيَّةِ﴾.

ولكنّه سبحانه لا يترك المؤمنين وأنفسهم ﴿فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ...﴾.

استفسارهم عن علّة عدم تحقّق الرؤيا :

قد حدّث رسـول الله قومه عندما عـزم الرحيل لأداء فرض العمرة بـأنّه رأى رؤيا انّهم دخلوا المسجد الحرام وحلّقوا روؤسهم، ولكنّهـم لمّا رجعوا من الحديبية بعد أن منعوا من زيـارة البيت والإطافة بـه، قال بعض أصحابـه: ألم تقل يا رسـول الله انّك تدخل مكّـة آمنا؟ قال: بلى، اَفَقلت لكم مـن عامي هذا؟ قالوا: لا. قـال: فهو كما قال لي جبرئيل، وإليه أشار سبحانه بقوله:

﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ المَسْجِدَ الحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لاَ تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً﴾(الفتح/ ٢٧).

والآية تشير إلى عمرة القضاء التي أتى بها رسول الله في السنة التالية للحديبية، وهـي سنة سبـع مـن الهجرة فـي ذي القعـدة الحـرام، وهو الشهـر الـذي صدّه فيـه المشركون عـن المسجد الحرام، فخرج النبي، ودخـل مكّة مع أصحابـه معتمرين، فأقـاموا بمكّـة ثلاثـة أيام، ثـم رجعوا إلـى المدينـة، فلمّا قـدم رسول اللـه مكة أمـر أصحابه، فقال: اكشفـوا عن المناكب واسعوا في الطواف، ليرى المشـركون جلدهم وقوّتهم، وكـان أهل مكّة من النساء والصبيـان ينظرون إليهم، وهـم يطوفـون بالبيت، وكان عبد الله بن رواحة يرتجز بين يدي رسول الله متوشّحاً سيفه، ويقول:

خلـوا بنـي الكفّـار عـن سبيلـه ... قـد أنـزل الـرحمن فـي تنـزيلـه
في صحـف تتلى علـى رسولـه ... اليـوم نضـربكـم علـى تـأويلـه
كمـا ضـربنـاكم علـى تنـزيلـه ... ضـربـاً يـزيـل الهـام عن مقيلـه
ويـذهـل الخليـل عـن خليلـه ... يـا رب إنّـي مـؤمـن لقيلـه

إنّي رأيت الحق في قبوله[1]

---

(١) السيرة النبويّة لابن هشام: ج٢ ص٣٧٠ـ٣٧٢، ومجمع البيان: ج٩ ص١٩١ (طبع بيروت).

والمراد من قوله: ﴿فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً﴾ هو فتح خيبر، وتقدمت الإشارة إليه في قوله: ﴿فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً﴾.

التنبّوء بظهور الإسلام على الدين كلّه:

ثم إنّه سبحانه توطيداً لقلوب المسلمين وطمأنتهم، تنبّأ لهم بأنّ رسالة الرسول(صلّى الله عليه و آله و سلّم) ستنتشر في أرجاء العالم وستظهر على الدين كلّه قال سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً﴾(الفتح/ ٢٨).

وقد جاء هذا التنبؤ في غير موضع من القرآن[١] وهل المراد من ظهوره، هو ظهوره بالحجّة والبرهان، وسطوع الدليل، أو المراد ظهوره بالقهر والغلبة والقوّة، أو الأعم منهما، ولعلّ الثالث أوفق، وذلك كلّما ازدادت المدنيّة، وتطورت وسائل الإرتباط العالمي بين الشعوب بعضها ببعض، تجلّت تلك الحقيقة بنحو أكثر وضوحاً، وهذا يؤيّد دعوى ظهوره بالحجّة والبرهان.

وأمّا ظهوره بالقوّة والقهر مضافاً إلى ذلك، فهو مرهون بظهور طلائع وتباشير الدولة الحقّة العالمية، التي وعدت بها رسالة السماء الخاتمة، وأسمتها بالدولة المهدية، وقال الإمام الصادق(عليه السلام) في تفسير الآية: «والله ما نزل تأويلها بعد ولا ينزل تأويلها حتى يخرج القائم فإذا خرج القائم لم يبق كافر بالله العظيم»[٢].

---

(١) لاحظ سورة التوبة الآية ـ ٣٣، و الصف الآية ـ٩.

(٢) نور الثقلين: ج٢ ص٢١٢.

٦ ـ غزوة ذات السلاسل

إنّ غزوة ذات السلاسل بالنحو الذي سيمر عليك ذكره في هذا الفصل انفردت بنقله جملة من أعلام الإمامية و مفاده:

إنّ أعرابياً جاء إلى النبيّ(صلّى الله عليه و آله و سلّم) فجثا بين يديه، و قال له: جئتك لأنصح لك. قال: و ما نصيحتك؟ قال: قوم من العرب قد اجتمعوا بوادي الرمل، و عملوا على أن يبيتوك بالمدينة. و وصفهم له، فأمر النبيّ(صلّى الله عليه و آله و سلّم) أن ينادى بالصلاة جامعة، فاجتمع المسلمون، و صعد المنبر فحمد الله و أثنى عليه، ثمّ قال: أيّها الناس إنّ هذا عدوّ الله و عدوّكم قد عمل على أن يبيتكم فمن لهم، فقام جماعة من أهل الصفة، فقالوا: نحن نخرج إليهم يا رسول الله فولّ علينا من شئت، فأقرع بينهم، فخرجت القرعة على ثمانين رجلاً منهم و من غيرهم، فاستدعى أبابكر، فقال له: خذ اللواء و امض إلى بني سليم، فانّهم قريب من الحرة، فمضى و معه القوم حتى قارب أرضهم، و كانت كثيرة الحجارة و الشجر، و هم ببطن الوادي و المنحدر إليه صعب، فلمّا صار أبوبكر إلى الوادي، و أراد الانحدار، خرجوا إليه فهزموه و قتلوا من المسلمين جمعاً كثيراً، و انهزم أبوبكر من القوم، فلمّا قدموا على النبي(صلّى الله عليه و آله و سلّم) عقده لعمر بن الخطاب وبعثه إليهم، فكمنوا له تحت الحجارة و الشجر، فلمّا ذهب ليهبط خرجوا إليه فهزموه، فساء رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) ذلك، فقال له عمرو بن العاص: ابعثني يا رسول الله إليهم، فإنّ الحرب خدعة، فلعلّي أخدعهم، فأنفذه مع جماعة و وصّاه، فلمّا صار إلى الوادي خرجوا إليه فهزموه و قتلوا من أصحابه جماعة.

و مكث رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) أيّاماً يدعو عليهم ثمّ دعى أمير المؤمنين(عليه السلام) فعقد له ثمّ قال: أرسلته كرّاراً غير فرار، ثمّ رفع يديه إلى السماء و قال: «اللّهمّ إن كنت تعلم أنّي رسولك فاحفظني فيه و افعل به و افعل ...» فدعا له ما شاء و خرج علي بن أبي طالب(عليه السلام) و خرج رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) لتشييعه، و بلغ معه إلى مسجد الأحزاب، و علي(عليه السلام) على فرس أشقر، مهلوب عليه بردان يمانيّان، و في يده قناة خطّية، فشيّعه رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) و دعا له، و أنفذ معه فيمن أنفذ أبابكر و عمر وعمرو بن العاص، فسار بهم نحو العراق متنكّباً للطريق، حتى ظنّوا أنّه يريد بهم غير ذلك الوجه، ثمّ أخذ بهم على محجّة غامضة، فسار بهم حتى استقبل الوادي من فمه، و كان يسير الليل و يكمن النهار، فلمّا قرب من الوادي أمر أصحابه أن يعلموا الخيل[1] و وقفهم مكاناً، و قال: لاتبرحوا و انتبذ أمامهم، فأقام ناحية منهم.

فلمّا رأى عمرو بن العاص ما صنع لم يشك أنّ الفتح يكون له، فقال لأبي بكر: أنا أعلم بهذه البلاد من علي(عليه السلام)، و فيها ما هو أشد علينا من بني سليم، وهي الضباع و الذئاب، فإن خرجت علينا خفت أن تقطّعنا، فكلّمه يخل عنّا نعلوا الوادي، قال: فانطلق أبوبكر فكلّمه فأطال، فلم يجبه أمير المؤمنين(عليه السلام) حرفاً واحداً، فرجع إليهم فقال: لا و الله ما أجابني حرفاً واحداً، فقال عمرو بن العاص لعمر بن الخطاب: أنت أقوى عليه، فانطلق عمر فخاطبه، فصنع به مثل ما صنع بأبي بكر، فرجع إليهم فأخبرهم انّه لم يجبه، فقال عمرو بن العاص: إنّه لاينبغي أن نضيع أنفسنا انطلقوا بنا نعلوا الوادي. فقال له المسلمون: لا والله ما نفعل، أمرنا رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) أن نسمع لعلي(عليه السلام) ونطيع فنترك أمره و نطيع لك و نسمع، فلم يزالوا كذلك حتى أحسّ أمير المؤمنين(عليه السلام) بالفجر، فكبس القوم و هم غارون، فأمكنه الله تعالى منهم، و نزلت على النبي(صلّى الله عليه و آله و سلّم) ﴿وَ العَادِيَاتِ ضَبْحاً ... إلى

---

(١) يعلموا الخيل: يعلّقون عليها صوفاً ملوناً في الحرب.

آخرها﴾ فبشّر النبيّ(صلّى الله عليه وآله وسلّم) أصحـابه بالفتح، و أمرهم أن يستقبلوا أمير المؤمنين(عليه السلام)، فاستقبلوه و النبي(صلّى الله عليه و آله و سلّم) يتقدّمهم فقاموا له صفين، فلمّا أبصر بالنبي(صلّى الله عليـه و آله و سلّم) ترجّل له عن فرسه، فقال له النبـيّ(صلّى الله عليه و آله و سلّـم): اركب فإنّ الله و رسولـه عنك راضيان، فبكى أمير المؤمنين(عليه السلام) فرحاً، فقال له النبيّ(صلّى الله عليه و آله و سلّم): يا عليّ لولا أنّني اشفـق أن تقول فيك طوائف من أُمّتي ما قالـت النصارى في المسيح عيسى بن مـريم، لقلت فيك اليوم مقـالاً لاتمر بملأ من الناس إلاّ أخـذوا التراب من تحت قدميك[1].

و قال أمين الإسلام الطبرسي:

قيـل نزلـت السورة لمّـا بعث النبـيّ(صلّى الله عليـه و آله و سلّـم) علياً(عليـه السلام) إلـى ذات السلاسل فـأوقع بهم، و ذلـك بعد أن بعـث عليهم مراراً غيـره من الصحابة، فرجع كل منهم إلى رسـول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم)، و هو المروي عن أبـي عبد الله(عليه السلام) فـي حديث طـويل قال: و سمّيت هـذه الغزوة ذات السلاسل لأنّـه أسر منهم و قتل وسبى وشدّ أسـراهم في الحبال، مكتّفين كـأنّهم في السـلاسل، و لمّـا نزلـت السورة خـرج رسول الله(صلّـى الله عليه و آلـه و سلّم) إلـى النـاس، فصلّى بهـم الغـداة و قرأ فيهـا و العاديـات، فلمّـا فرغ مـن صـلاته. قـال أصحابـه: هذه سـورة لم نعـرفها. فقـال رسول الله: نعـم إنّ علياً ظفـر بأعـداء الله، و بشّرني بذلك جبرئيل(عليه السلام) في هذه الليلة، فقدم عليّ(عليه السلام) بعد أيام بالغنائم و الأسارى[2].

* * *

---

(١) الإرشاد للشيخ المفيـد: ص٨٦ـ٨٨ و تفسير فرات: ص٢٢٢ إلـى ٢٢٦، و تفسير القمي: ج٢ ص٤٣٤ـ٤٣٩ مـع زيادات في الأخيـر، و قد نقل مـا جاء فيـه من الفضائل فـي الشرح الحديدي: ج ٩ ص١٦٨ و مناقب المغازي: ص٢٣٧و٢٣٨ و غيرهما.

(٢) مجمع البيان: ج١٠ ص٨٠٢ـ٨٠٣ ط بيروت.

هذا ما رواه جمع من أعلام الشيعة الإماميّة إلاّ أنّ ما يذكره أصحاب السير والمغازي[1] من أهل السنّة يغاير ما حكيناه لك، و هؤلاء لايتعرّضون بالذكر بتاتاً إلى دور شخصية الإمام علي بن أبي طالب(عليه السلام) كما لايذكرون نزول الآيات في تلك المناسبة، و مع ذلك يختلفون في تحديد موضع الغزوة و القبيلة المحاربة فيه، فيسمّيه ابن هشام بأرض بني عذرة، بينما نجد الواقدي في مغازية يشير إليهم بقوله: إنّ جمعاً من بَلِيّ وقضاعة قد تجمّعوا يريدون أن يدنوا إلى أطراف رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم)، و من أراد الوقوف على مضانّها، فليرجع إلى محالها.

السر في انتصار عليّ(عليه السلام) دون من عداه:

إنّ الحنكة و البراعة الحربيّة التي انتهجها أمير المؤمنين(عليه السلام) هي التي كفلت له الانتصار حيث تكمن في الأساليب الحربية التي نستعرضها لك فيما يلي:

١ ـ تغيير مسير الجيش لإيهام العدو بعدم القصد للمباغتة و المهاجمة، وحتى لايصل خبرهم إليهم عن طريق أعراب البادية و القبائل المجاورة.

٢ ـ اتّخاذ الليل ستراً و حجاباً عن أعين الجواسيس، و طلائع المقاتلين، فقد سار ليلاً و اختبأ نهاراً.

٣ ـ المهاجمة ليلاً و المباغتة لهم في عقر دارهم، و هم غاطّون في سبات الغفلة و النوم.

٤ ـ البأس و الحميّة و الشجاعة التي أبداها عند الهجوم على مواقعهم حيث لم يترك لهم أيّة فرصة للمقابلة والدفاع عن أنفسهم، فلم يكد ينادي المنادي منهم بالاستنفار، إلاّ وقد كبس القوم برمّتهم، و سقطوا في أيدي المسلمين.

---

(١) السيرة النبوية: ج٢ ص٦٢٣ـ٦٢٥، و المغازي للواقدي: ج٢ ص٧٦٩ـ٧٧٤.

وأمّا الآيات النازلة في هذه الواقعة، فعلى حسب ما نقلناه هي سورة العاديات بأكملها بمناسبة تلك الواقعة و إليك تفسير ما تضمّنته.

﴿وَالعَادِيَاتِ ضَبْحاً* فَالمُورِيَاتِ قَدْحاً* فَالمُغِيرَاتِ صُبْحاً* فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً* فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً* إِنَّ الإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ* وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ* وَإِنَّهُ لِحُبِّ الخَيْرِ لَشَدِيدٌ* أَفَلاَ يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي القُبُورِ* وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ* إِنَّ رَبَّهُم بِهِم يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ﴾.

إنّ السياق العام الذي تضمّنته الآيات الشريفة يوحي بأنّ السورة مكّية لكون فواصلها متقاربة، ولكن المضمون يدل على أنها من السور المدينة، حيث تتناول الحكاية عن خيل الغزاة، وقد شرع الجهاد في المدينة.

﴿وَالعَادِيَاتِ﴾: من العدو وهو الجري بسرعة.

﴿ضبحاً﴾: و الضبح صوت أنفاس الخيل عند عدوها، والمعنى لأُقسم بالخيل التي تعدو وهي تضبح.

﴿فَالمُورِيَاتِ قَدْحاً﴾«الايراء»: إخراج، «القدح»: الضرب. يقال: قَدَحَ فأورى: إذا أخرج النار بالقدح، والمراد الشرر المتطاير الذي ينتج من اصطكاك حوافر الخيل إذا عدت فوق الحجارة والأرض المحصبة.

﴿فَالمُغِيرَاتِ صُبْحاً﴾ الإغارة: الهجوم على العدو بغتة بالخيل، فأقسم بالخيل الهاجمة على العدو بغتة في وقت الصبح.

﴿فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً﴾ الإثارة: هو تهييج الغبار ونحوه، والنقع: الغبار، والمعنى إطارة الغبار من على وجه الأرض.

﴿فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً﴾ الوسط والتوسّط :بمعنى واحد، والضمير المجرور يرجع إلى الصبح، أو إلى النقع، والمعنى فصرن في وقت الصبح في وسط الجمع، والمراد منه كتيبة العدو.

﴿إِنَّ الإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ الكنود: الكفور، والآية كقوله: ﴿إِنَّ الإِنْسَانَ

﴿لَكَفُورٌ﴾(الحج/ ٦٦) وهو إخبار عمّا في طبع الإنسان من اتّباع الهوى والإنكباب على عرض الدنيا، وفيه تعريض للقوم المغار عليهم.

﴿وَإِنَّهُ عَلَى ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ : أي انّ الإنسان على كفرانه بأنعم ربّه شاهد فانّ «الإنسان على نفسه بصيرة».

﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ : أي إنّ الإنسان لأجل حبّ المال لبخيل شحيح.

﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ * وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ * إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ﴾: أي أفلا يعلم الإنسان أنَّ لكفرانه بنعمة ربّه، تبعة ستلحقه وسيجازى بها إذا أُخرج ما في القبور من الأبدان، وحصّل ما في الصدور من سرائرها، وانّ ربهم خبير بسرائرهم، فيجازيهم بما فيها.

بقي في تفسير الآيات بيان نكتتين:

١ـ ما هو سر الحلف بالعاديات، فالموريات، فالمغيرات.

٢ـ ما هي الصلة بين الحلف بها والجواب عن القسم بقوله:

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ * وَإِنَّهُ عَلَى ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ * وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾

إنّ كثيراً من التفاسير تتضمّن سرّ الحلف بها، ولم يذكر سرّ الصلة بينهما بل أهمله في جميع الأقسام الواردة في القرآن، وهو أمر عجيب.

أمّا علّة القسم بالأُمور المذكورة، فلأنّ الخيل أقوى وسيلة للمقاتل المجاهد في سبيل الله، فتضفي له طابع القداسة، لقداسة غايته، فإنّ كرامة الوسيلة بكرامة ذيها، وأمّا القسم بضبحها، والموريات التي تتطاير من حوافر أرجلها، فلأنّ هذه الحالات المجتمعة في الخيل عند العدو تبعث الرعب والهلع والخوف في نفوس الأعداء، فتكون بمجموعها من مقوّمات النصر والغلبة، والظهور على الكفر، وهنا يكمن السر في تشريفها وتعظيمها، واستحقاقها لتكون محلاً للقسم.

قال رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) : «الخير كلّه في السيف، وتحت

ظلّ السيف، ولا يقيم الناس إلاّ السيف، والسيوف مقاليد الجنّة والنار»[1].

وعنه(صلّى الله عليه و آله و سلّم) أيضاً قال: «إنّ أفضل عمل المؤمنين الجهاد في سبيل الله»[2].

إلى غير ذلك من الروايات الواردة في شرف الجهاد مضافاً إلى قوله سبحانه: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُم مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾(الأنفال/ ٦٠).

هذا برمّته حول سرّ الحلف بهذه الأشياء، بقي الحديث عن بيان المناسبة بين القسم بهذه الأشياء والجواب عنها بجملة﴿إِنَّ الإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ فنقول: إنّ قوله سبحانه: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ* ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ* إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾(التين/ ٤ـ٦).

يشهد بأنّ للإنسان قدرة على السمو إلى أعلى درجات الكمال، وكذلك له قابلية على الإنحطاط إلى أدنى المستويات كما يشهد بهذين الأمرين قوله: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاه ...﴾ وقوله: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ ...﴾، وعلى ضوء ذلك، فالإنسان ربّما يصل عند اتصافه بجملة تلك الملكات السامية إلى درجة يستحق أن يحلف لا به فقط، بل بخيله و ما يطرأ عليه من العوارض المذكورة.

وربّما ينحط عن تلك الرتبة إلى حد يكون فيه جاحداً بكل أنعُم ربّه وفضله عليه كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ الإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ وفي آية أُخرى: ﴿إِنَّ الإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَفُورٌ﴾(الحج/ ٦٦) وفي آية ثالثة: ﴿إِنَّ الإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾(إبراهيم/ ٣٤) وفي آية رابعة: ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾(الأحزاب/ ٧٢) وفي نفس تلك السورة: ﴿وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ﴾[3].

---

(١) وسائل الشيعة: ج٦ ص٤٥.

(٢) نهج الفصاحة: ص١٢٠.

(٣) إنّ دراسة الأقسام الواردة في القرآن البالغ عددها قرابة أربعين حلفاً، من الأبحاث والدراسات الجديرة بالإهتمام، و قد كتب ابن القيم كتاباً حولها و أسماه «الأقسام في القرآن» ⇐

٧ ـ فتح مكّة
أو
الفتـــح المبيـــن

إنّ أوّل بيت وضع لعبادة الله وتوحيده وتقـديسه، هو الكعبة بيت الله الحرام، وقد انـدرست آثـاره وعفيت رسومـه في حادثـة الطوفـان في زمن نبـي الله نـوح(عليه السلام)، ثم بقـي على تلك الحال إلى زمن إبـراهيم(عليه السلام) ، فأمـره عزّ وجلّ بإقامة قواعده وتشييد أركانه ليكون مثابة للناس وأمناً، قال سبحانه: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّـاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيـمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيـمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾(البقره/ ١٢٥).

وقد ظلّ البيت الحرام على تلك الوتيرة مدة مديدة من الزمن حتّى تمكّن الشرك من النفوذ إلى نفوس القاطنين في ضـواحيه، وذلك في زمن قصي بن كلاب[١] وعندما بعث النبي الأكرم كانت الأصنام منصوبة وتحيط بالبيت الحرام، وتعلوها أعلام الكفر والشرك.

⇦ ولكنّه أهمل الجـانب المهم منها و هـو بيان الصلة بين المقسـم به و جوابه. نعـم قام ولدي الفاضل المجاهد الشهيـد الشيخ أبو القاسم الرزاقي «قدس الله سره» بهذه المهمـة و أفرده بالتأليف باللغة الفـارسية و إنّي أرجو أن يقـوم أحد البارعين فـي اللغتين، بنقله إلى اللغـة العربية، فإنّـه خير كتاب في هذا الموضوع و قـد طبع بتقديم منّا أيام حياته، و لقد لقي ربّه مضـرّجاً بدمه أثناء الحرب المفروضـة على الشعب المسلـم في إيران، و قـد أُسقطت طـائرته، فاستشهـد هو و قرابـة أربعين شخصاً، بين عـالم و كاتب و سيـاسي محنّك، حشرهـم الله مع النبي(صلّى الله عليـه و آله وسلّم) والأئمة المعصومين(عليهم السلام) و قد أحرق الحادث قلبي و اراق دموعي.

(١) لاحظ السيرة النبويّة: ج١ ص١٣٠ ط بيروت.

ولما وقع إبرام الصلح بين النبي الأكرم، وقريش عبدة الأوثان وسدنة الكعبة، واتّفقوا على أن يتجنّبوا كل ما من شأنه إثارة الحرب بينهما طيلة عشرة أعوام، لم يكن يتبادر في خلد أحد انّ النبي الأكرم سوف تسنح له الفرصة لفتح ذلك الحصن المنيع للشرك، ويوقعه في شراك الأسر و الذلّة والمسكنة.

لكنّه سبحانه عندما رجع رسوله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) من صلح الحديبية عازماً الدخول إلى المدينة وعده بفتحين:

١ـ الفتح القريب.

٢ـ الفتح المبين.

أمّا الأوّل فقد أشار إليه بقوله: ﴿وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً﴾(الفتح/ ١٨) وقال: ﴿فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً﴾(الفتح/ ٢٧).

وأمّا الثاني فهو الذي ورد في صدر هذه السورة وقال: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً﴾.

أمّا الفتح القريب فقد سلف أن ذكرنا انّه فتح خيبر.

أمّا الفتح المبين فهو فتح مكّة، ولم يكن يعلم أحد من الصحابة المراد من ذلك الفتح المبين، الذي تنبّأ به الوحي قبل مجيئه، غير أنّه لم تشارف السنتان على الانقضاء بعد نزول تلك الآية إلاّ وقد ظهرت الخيانة من قريش لبنود ذلك الصلح، وعندها سنحت الفرصة للنبي(صلّى الله عليه و آله و سلّم) بعد أنْ تمكّن من بناء جيش قوي له،أن ينقض أركان الشرك ويهاجمهم في عقر دارهم.

بيـــانـه

قد كان من بنود الصلح: إنّ من أحبّ أن يدخل في عقد قريش وعهدهم فليدخل فيه. فدخلت بنوبكر في عقد قريش وعهدهم، و دخلت خزاعة في عقد رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) وعهده.

فلمّا كانت الهدنة اغتنمها طائفة من بني بكر، فخرج نوفل بن معاوية في جمع حتى باغت خزاعة وهم على الوتير، ماء لهم، فأصابوا منهم رجلاً واقتتلوا وأعانت قريش بني بكر بالسلاح، وقاتل معهم من قريش مَنْ قاتل، بالليل مستخفياً حتى ساقوا خزاعة إلى الحرم. فلمّا دخلت خزاعة مكّة لجأوا إلى دار«بديل بن ورقاء»، ودار مولى لهم يقال له«رافع»، فلمّا تظاهرت بنوبكر وقريش على خزاعة، وأصابوا منهم ما أصابوا، ونقضوا ما كان بينهم وبين رسول الله من العهد والميثاق، وما استحلّوا من خزاعة، خرج«عمرو بن سالم» الخزاعي حتى قدم على رسول الله المدينة، فدخل المسجد فانتصب قائماً وقال:

يارب إنّي ناشد محمدا	حلف أبينا و أبيه الأتلدا
كنت لنا أباً و كنا ولْدا	ثمت أسلمنا فلم ننزع يدا
فانصر هداك الله نصراً أبدا	وادع عباد الله يأتوا مددا
هم بيتونا بالوتير هجّدا	وقتلونا ركّعاً وسجّدا

ولمّا سمع رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) شعره، ووقف على صدق مقاله، قال: نصرتَ يا عمرو بن سالم.

ثم خرج «بديل بن ورقاء» في نفر من خزاعة حتى قدموا على رسول الله المدينة، فأخبروه بما أُصيب منهم وبمظاهرة قريش بني بكر عليهم، ومضى «بديل ابن ورقاء»، وأصحابه حتى لقوا أباسفيان بن حرب بعسفان قد بعثته قريش إلى رسول الله ليشد العقد، ويزيد في المدّة، فدخل أبوسفيان المدينة، فدخل على ابنته أُمّ حبيبة بنت أبي سفيان، فلمّا ذهب ليجلس على فراش رسول الله طوته عنه، فقال: يا بنيّة ما أدري أرغبت بي عن هذا الفراش، أم رغبت به عنّي؟ فقالت: بل هو فراش رسول الله، وأنت رجل مشرك نجس، ولم أحب أن تجلس على فراش رسول الله، ثم خرج حتى أتى رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) فكلّمه، فلم يرد عليه شيئاً، فتوسّل بجمع من الصحابة أن يشفعوا له عند النبي(صلّى الله عليه و آله و سلّم)، فلم يجيبوه فآيس منهم، فركب بعيره وأقفل راجعاً، فلمّا قدم على قريش قالوا له:

ماوراءك؟ قال: جئت محمداً، فكلّمته فو الله ماردّ عليّ شيئاً.

ثم إنّ رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) أعلم الناس بعزمه على المسير لفتح مكة، ودعاهم لإعداد العدّة لذلك وقال: «اللّهمّ خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها».

كتاب صحابي الى قريش:

لمّا أجمع رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) على المسير إلى مكة، كتب حاطب بن أبي بلتعة كتاباً إلى قريش، يخبرهم بالذي أجمع عليه أمر رسول الله، من السير إليهم، ثم أعطاه امرأة تدعى سارة[1] وجعل لها أجراً على أن تبلّغه قريشاً، فجعلته في رأسها، ثم فتلت عليها قرونها، ثم خرجت به، وأتى رسول الله الخبر من السماء بما صنع حاطب، فبعث علي بن أبي طالب، والزبيربن العوّام ـ رضي الله عنهما ـ فقال: أدركا امرأة، قد حملت رسالة حاطب إلى قريش يبلغهم ما أجمعنا عليه، فخرجا حتى أدركاها بذي الحليفة، فاستنزلاها، ففتّشا رحلها، فلم يجدا شيئاً، فقال لها علي بن أبي طالب: إنّي أحلف بالله، ما كذب رسول الله، وما كذبنا ولتخرجنّ هذا الكتاب أو لنكشفنّك[2].

---

(١) و سارة مولاة لأبي عمرو بن صيفي بن هشام أتت رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) من مكة إلى المدينة بعد بدر بسنتين فقال لها رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم): أمسلمة جئت؟ قالت: لا. قال: أمهاجرة جئت؟ قالت: لا. قال: فما جاء بك؟ قالت: كنتم الأصل و العشيرة و الموالي و قد ذهب موالي و احتجت حاجة شديدة، فقدمت عليكم لتعطوني و تكسوني و تحملوني. قال: فأين أنت من شبان مكّة، و كانت مغنّية نائحة قالت: ما طلب منّي بعد وقعة بدر، فحثّ رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) عليها بني عبد المطلب، فكسوها و حملوها و أعطوها نفقة. لاحظ مجمع البيان: ج٥ ص٢٦٩.

(٢) و في مجمع البيان: قال لها: اخرجي الكتاب و إلاّ و الله لاضربنّ عنقك. (مجمع البيان: ج٥ ص٢٦٩) و هذا هو الأوفق بمقام العصمة.

فلمّا رأت الجد منه قالت : أعرض، فأعرض، فحلّت قرون رأسها، فاستخرجت الكتاب منها، فدفعته إليه، فأُتي به رسول الله، فدعى رسول الله حاطباً فقال : يا حاطب ما حملك على هذا؟ فقال : يا رسول الله : إنّي لمؤمن بالله ورسوله ما غيّرت ولا بدّلت، ولكنّي كنت امرءاً ليس لي في القوم من أصل ولا عشيرة، وكان لي بين أظهرهم ولد و أهل، فصانعتهم عليهم .

فأنزل الله تعالى في حاطب :

١ـ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ .

٢ـ ﴿إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ .

٣ـ ﴿لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُم وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ .

٤ـ ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءآؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلاَّ قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ .

٥ـ ﴿رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ .

٦ـ ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرجُواْ اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ .

٧ـ ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَجعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ

غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(الممتحنة/ ١ـ٧).

المستفاد من الآيات :

إنّ الآية الأُولى تمنع المسلمين عن اتّخاذ الكافرين أولياء لهم، وتشدّد النكير على التقرب إليهم بالمودّة والمحبّة والاخاء، إلاّ أنّها لم تعن بذلك أن لا تكون هناك صلة على الإطلاق بأي نحو كان مع الكافرين، بل لا تمنع من عقد علاقات تجارية أوسياسية بشرط أن لا تصل إلى حدّ المودّة الممنوعة.

نعم لو أصبحت تلك العقود والاتفاقات السياسية والتجارية بشقّيها، سبباً للاضرار بالمصلحة الخاصة أو العامة للمسلمين، فلا شك في حرمتهما، وقضية الأندلس خير شاهد لنا في المقام، وما ترتّب ونجم عن أخطاء حكّامها من مصائب وويلات، قضت على الدولة الإسلامية برمّتها هناك.

ثم إنّ الآية الثانية تلقي بمزيد من الضوء على ذلك الأمر، فتوضح لنا انّ الكافرين لو سنحت الفرصة لهم للظفر بالمسلمين، لأصبحوا لكم أعداءً، ولامتدت سطوتهم إليكم ولأوقعوا فيكم الإيذاء، وساموكم سوء العذاب، ولنتاولوكم بألسنتهم بالشتم والسب، ولودّوا لكم الرجوع عن دينكم.

والآية الثالثة تفيد انّ الوشائج العرقية إنّما تنفعكم يوم القيامة إذا كان صاحبها موحّد العقيدة والمبدأ كما يشير إليه قوله سبحانه: ﴿لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ ...﴾.

ولمّا كان هناك احتياج وافتقار إلى أُسوة تكون مثالاً يقتدي به المسلمون في مجالي التولّي والتبرّي ممّن كانوا يعيشون معه، تناول الوحي هذا الأمر بذكر قضية نبي الله إبراهيم(عليه السلام) ومن معه فقد تبرّأوا من الكافرين، على الرغم من الصلات العرقية والقبلية التي كانت تربطهم بهم، قال سبحانه: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَاؤُا مِنكُم وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ العَدَاوَةُ وَالبَغْضَاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾.

ثم إنّه سبحانه يستثني في هذه الآية شيئاً وهو: ﴿إِلاَّ قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾.

وعند ئذٍ يجري الكلام في التنبيه على ما هو المراد بالمستثنى منه فنقول: قد ورد قبل الاستثناء جملتان والاستثناء يرجع الى واحد منهما وهما عبارة عن.

١ـ ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ﴾.

٢ـ ﴿إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَآؤُا مِنكُمْ﴾.

وارجاع الاستثناء إلى الجملة الأُولى بعيد عن السياق لأنّ معناه حينئذ: إنّ إبراهيم أُسوة في كل شيء إلاّ في هذا المورد، وهذا لا يتناسب مع مقام نبوّته، ومع قوله سبحانه في حقّه: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾(آل عمران/ ٦٨).

فإذا كان إبراهيم أولى بأن يتبعه النبي الأكرم، فكيف لا يكون أُسوة على الاطلاق.

على أنّ الآيات الكريمة الواردة في استغفار إبراهيم تعرب عن أنّ عدته بالاستغفار لأبيه كان عملاً حسناً وواقعاً في محلّه، وذلك لأنّه وعده عندما يحتمل انه سيعود إلى فطرته السليمة، ويقطع أواصره بالوثنية قال سبحانه:

﴿وَما كانَ استِغْفَارُ إبْراهِيمَ لِأَبِيهِ إلاّ عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَها إيّاهُ فَلَمّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إنّ إبْراهِيمَ لَأَوّاهٌ حَلِيم﴾(التوبة/ ١١٤).

وهذا يعرب عن أنّ الوعد إنّما كان في زمن كان يؤمل فيه منه الصلاح والرشد، ولذلك لمّا استولى اليأس، وفقد الأمل بتحقّق ذلك الأمر، تبرّأ منه،وعلى ذلك يتعيّن القول برجوع الاستثناء إلى الجملة التالية لأنّ مفادها انّ إبراهيم ومن كان معه تبرّأوا من جميع من كان يمت إليهم بصلة في قومهم، مع انّ إبراهيم لم يتبرّأ من أبيه، ولأجل ذلك جاء بالاستثناء ومعناه: إنّ إبراهيم وأتباعه قالوا لقومهم: إنّا برءآؤا منكم، إلاّ إبراهيم، فلم يتبرّأ من أبيه وهذا هو المستفاد من الآيات.

ثم إنّه سبحانه أعاد حديث الأُسوة لأهمّيته، وانّه إنّما ينتفع بها المؤمنون أي الذين يرجون ثواب الإيمان بالله سبحانه، وما وعد الله به المؤمنين في الآخرة، غير أنّ من رفض حديث الأُسوة، وتولّى أعداء الله، فإنّما يضر نفسه والله سبحانه هو الغني، وقال: ﴿لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كانَ يَرجُوا اللهَ وَاليَوْمَ الآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فِإنَّ اللَّهَ هُوَ الغَنِيُّ الحَمِيد﴾.

ولمّا نهاهم عن موالاة الكفّار وإلقاء المودّة، وكان ذلك عزيزاً على نفوسهم لوجود الوشائج القومية بينهم، وكانوا يتمنّون أن يجدوا المخلص منه، أردف ذلك سبحانه انّه عسى أن يجعل بينهم، وبين الذين عادوهم مودّة، وقد أنجز سبحانه ذلك بفتح مكّة، فأسلم كثير منهم، وتم لهم ما كانوا يريدون من التحابّ والتواد.

وإليه يشير قوله سبحانه: ﴿عَسَى اللّهُ اَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللّهُ قَدِيرٌ وَاللّهُ غَفُورٌ رَحِيم﴾.

* * *

المعيار في إبرام المعاهدات مع الكفّار:

لمّا كان المستفاد من قوله سبحانه في صدر السورة: ﴿يَا اَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ اَوْلِيَاءَ﴾ هو قطع جميع العلائق والأواصر بالكفار، أعقبها بما يخصّص مضمون الآية بالقسم المحارب دون مطلق الكافر بقوله عزّ من قائل:

﴿لاَ يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِى الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ اَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا اِلَيْهِمْ اِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ المُقْسِطِينَ﴾(الممتحنة / ٨).

﴿اِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِى الدِّينِ وَاَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى اِخْرَاجِكُمْ اَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُم فَاُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾(الممتحنة ـ ٩).

وهاتان الآيتان تتضمّنان الإلفات إلى ما هو الأصل الرصين، والمحور الرئيسي

في حدود مشروعية العلاقة مع الدول الخارجية عن إطار دائرة الدولة الإسلامية، وحصيلة ما يستفاد منهما: إنّ في الكافر أرضية تمهّد السبيل دائماً إليه، للغدر والخداع والخيانة لعدم وجود رادع نفسي يحول بينه وبين اقتراف ذلك، والآية الأُولى انطلاقاً من ذلك تحضّ على تجنّب اتّخاذ الكافر وليّاً وحليفاً.

ولكن ربّما يتّصف بعض الكفار بخصائص، وفضائل إنسانية محدودة تتخلّف معها تلك الظاهرة الغالبة عليهم، والمتأصّلة في نفوسهم، وانطلاقاً من ذلك سوّغ الإسلام في حدود معينة عقد روابط وأواصر شكلية معهم سواء كانت سياسية أم اقتصادية، ولكن كل ذلك مرهون بتوفّر شرطين:

١ـ عدم دخولهم أو مشاركتهم في قتال المسلمين.

٢ـ عدم إخراجهم المسلمين من ديارهم.

وعند ذلك تتوفّر الأرضية الكفيلة بعقد وشائج البر وأواصر القسط وحفظ الحقوق.

وأمّا إذا أظهروا العداء للمسلمين عن طريق مقاتلتهم، ومحاربتهم وإخراجهم من أوطانهم، مصرّين على ذلك، فعندئذ تحرم موالاتهم، وإسداء البرّ إليهم بأيّ نحو من الأنحاء.

قال سيد قطب:

نهى سبحانه أشدّ النهي عن الولاء لمن قاتلوهم في الدين، وأخرجوهم من ديارهم، وساعدوهم على إخراجهم، وحكم على الذين يتولّونهم بأنّهم هم الظالمون، وهو تهديد يجزع منه المؤمن، ويتّقي أن يدخل في مدلوله المخيف،وتلك القاعدة في معاملة غير المسلمين هي أعدل القواعد التي تتّفق مع طبيعة هذا الدين ووجهته ونظرته إلى الحياة الإنسانية، وهي أساس شريعته الدولية التي تجعل حالة السلم بينه وبين الناس جميعاً هي الحالة الثانية لا بغيرها، إلاّ وقوع الاعتداء الحربي

وضرورة ردّه، أو خوف الخيانة بعد المعاهدة، وهي تهديد بالاعتداء والوقوف بالقوّة في وجه حرية الدعوة وحرية الاعتقاد، وهو كذلك اعتداء، وفيما عدا هذا، فهي السلم والمودة والبر و العدل للناس[1].

وعلى ضوء ذلك يستفاد أُمور:

١ـ إنّ الآيتين الثامنة والتاسعة مقيّدتان لإطلاق الآية الأُولى الواردة في صدر السورة حيث تلفت إلى وجود قسمين من الكفّار بين محارب ومهادن موادع، فالأُولى تحرم موالاته مطلقاً، والثانية تجوّز بشروط حدّدت ذلك في إطار البرّ و إبداء القسط وبعبارة أُخرى يجب أن ينحصر التولّي في الملامح الظاهرية والوشائج الشكلية، كالتجارة والروابط السياسية، ولا يسوغ موآخاتهم في السرّاء والضرّاء، وعدّهم إخواناً وأحلافاً، ولا يباح إليهم بالأسرار، ولا يكاشفونهم بما يضمرونه، فإنّ ذلك ممّا لا يليق إلاّ بإبدائه للمؤمنين خاصة.

٢ـ إنّ بعض المفسّرين زعم أنّ قوله سبحانه: ﴿**فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَ خُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ**﴾(التوبة/ ٥) ناسخ لمضمون الآية الثامنة المتقدّم ذكرها لأنّه يحكم بقتل المشركين بلاهوادة لايمكن التوفيق بينه وبين ما دلّ على جواز إبرام العقود معهم:

ولكنّه زعم لا محصّل وراءه لأنّ ماورد في سورة التوبة يختصّ بالمشرك المحارب بشهادة قوله سبحانه: ﴿**أَلاَ تُقَاتِلُونَ قَوْماً نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ**﴾(التوبة/ ١٣).

وعلى ذلك فلا تنافي بين الآيتين في المضمون لاختلاف موضوعهما.

٣ـ إنّ لسان قوله سبحانه: ﴿**لاَ يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُم**﴾.

---

(١) في ظلال القرآن ج٢٨ ص٦٦.

وإن كان لسان رفع الحظر، ولكنّه لا يدل على أنّ البر و القسط بهم بعقد الأواصر معهم مباح بالمعنى المصطلح أي ما يقابل الواجب والمستحب وغيرهما، بل المراد هو كون ذلك جائزاً بالمعنى الأعم، ولا ينافي كونه واجباً في ظروف خاصة، ومستحبّاً في ظروف أُخرى وهكذا، وعلى الحاكم الإسلامي أن يتناول أوضاع المسلمين بالدراسة المتفحّصة، وينتخب ما هو الأوفق بمصلحة الأُمّة الإسلامية حتى لا يفوت عليهم ما هو الأصلح لحالهم، والأنسب بوضعهم.

وفي خاتمة المطاف نسترعي التفات القارئ الكريم إلى أنّ عمل بعض الدول الإسلامية التي قامت بعقد اتفاقية صلح مع الكيان الصهيوني الغاصب للقدس، يضاد ما صرّح القرآن الكريم به في الآيتين المتقدّمتين، والذي يهوّن الخطب انّ هذه الدول إنّما ترفع شعار الإسلام بالاسم فقط دون امتلاك أي رصيد مضموني منه.

* * *

عود على بدء:

ذكرنا أنّ رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) كان قد أعدّ العدّة لغزو قريش في عقر دارها، والانتقام منها بوازع القصاص منها، لخيانتها ونقضها لبنود الميثاق الذي أبرمته مع رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم)، فخرج رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم)، واستخلف على المدينة وذلك لعشر مضين من شهر رمضان، فصام رسول الله وصام الناس معه، ولمّا بلغ حدّ الترخّص أفطر، وأفطر أغلب من كان معه[1].

---

(١) و قد روى سماعة عن الإمام الصادق انّه سأله عن الصيام في السفر، قال: لاصيام في السفر قد صام ناس على عهد رسول الله فسمّاهم العصاة فلاصيام في السفر إلاّ الثلاثة أيام التي قال الله عزّ و جلّ في الحج.

و في حديث آخر: إنّ رسول الله خرج من المدينة إلى مكّة في شهر رمضان، و معه الناس ⟸

ثم مضى حتى نزل (مَرّ الظهران) في عشرة آلاف من المسلمين وقد عميت الأخبار عن قريش، فلم يأتهم خبر عن رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) ، ولايدرون ما هو فاعل، وخرج في تلك الليالي أبوسفيان بن حرب، وحكيم بن حزام، وبديل بن ورقاء يتحسّسون الأخبار، وينظرون هل يجدون خبراً أو يسمعون به، وقد كان العباس بن عبد المطلب قد غادر مكة متوجّهاً إلى المدينة و لقىٰ رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) ببعض الطريق(الجحفة) فاصطحبه.

فلمّا نزل رسول الله(مرّ الظهران)، قال العباس بن عبد المطلب:فقلت: واصباحَ قريش، والله لئن دخل رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) مكة عنوة قبل أن يأتوه فيستأمنوه، انّه لهلاك قريش إلى آخر الدهر. قال: فركبت بغلة رسول الله البيضاء حتى جئت الأراك فقلت: لعلّي أجد من يخبر قريش بمكان رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) ليخرجوا إليه، فيستأمنوه قبل أن يدخلها عليهم عنوة، وآنذاك طرق سمعي كلام أبي سفيان وبديل بن ورقاء وهما يتراجعان، وأبوسفيان يقول: ما رأيت كالليلة نيراناً قط، ولا عسكراً، قال: يقول«بديل»:هذه والله خزاعة حمشها[1] الحرب، قال: يقول أبوسفيان: خزاعة أذلّ وأقل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها، قال: فعرفت صوته، فقلت: يا أبا حنظلة، فعرف صوتي، فقال: أبوالفضل؟! قال: قلت نعم. قال: مالك؟ فداك أبي وأُمّي قال: ويحك يا أباسفيان هذا رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) في الناس واصباح قريش.

قال: فما الحيلة؟ قال:قلت: لئنْ ظفر بك ليضربنّ عنقك، فاركب في عجز هذه البغلة حتى آتي بك رسول الله فأستامنه لك.

⇦ وفيهم المشاة، فلمّا انتهى إلى كراع الغميم دعا بقدح من ماء فيما بين الظهر و العصر فشربه و أفطر، ثمّ أفطر الناس معه و تمّ ناس على صومهم فسمّاهم العصاة، و إنّما يؤخذ بآخر أمر رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم). لاحظ الوسائل: ج٧، الباب ١ و ١١ من أبواب من يصح فيه الصوم الحديث١ و ٧.

(١) حمشها أي أحرقتها.

قال: فدخلت على رسول الله، وقلت: يا رسول الله(صلّى الله عليه و آله وسلّم) إنّي قد آجرته. فقال رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم): اذهب به إلى رحلك، فاذا أصبحت ائتني به، فلمّا جاء به إلى رسول الله مصبحاً، قال له رسول الله: ويحك أباسفيان ألم يأن لك أن تعلم أنّه لا إله إلاّ اللّه. قال: بأبي أنت وأُمّي يا رسول الله ما أحلمك وأكرمك وأوصلك.

ثم قال العباس بعد كلام دار بين رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) وبين أبي سفيان: يا رسول الله إنّ أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئاً،قال: نعم، من دخل دار أبي سفيان كان آمناً، ومن أغلق بابه كان آمناً، ومن دخل المسجد فهو آمن، فلمّا أراد أن ينصرف أبوسفيان، قال رسول الله: أجلسه بمضيق الوادي حتى تمرّ به جنود الله ويراها.

ثم إنّ أصحاب السيرة ذكروا استعراض جيش رسول الله أمام أبي سفيان[1].

قال الواقدي: وعبّأ رسول الله أصحابه ومرّت قبائل على قادتها، والكتائب على راياتها، فكان أوّل من قدم رسول الله خالدبن الوليد في بني سليم وهم ألف، ثم مرّ على إثره الزبير ابن العوام في خمسمائة، ومرّ بنو غفار في ثلاثمائة يحمل رايتهم أبوذر الغفاري، ثم مضت أسلم في أربعمائة، ثم مرّت بنو عمرو بن كعب في خمسمائة، ثم مرّت مزينة في ألف، ثم مرّت جهينة في ثمانمائة، ثمّ مرّت بنوليث وهم مائتان وخمسون، ثم مرّت أشجع وهم آخر من مرّ في ثلاثمائة.

وكلّما مرّت قبيلة كبروا ثلاثاً عندما حاذوا رسول الله(صلّى الله عليه و آله وسلّم).

فلمّا مرّ سعد براية النبي(صلّى الله عليه و آله و سلّم) نادى: يا أباسفيان اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الحرمة، اليوم أذلّ الله قريشاً.

---

(١) السيرة النبوية: ج٢ ص٤٠٠ـ٤٠٢.

فأقبل رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) حتى إذا حاذى رسول الله ناداه : يـا رسـول اللـه أُمـرت بقتـل قـومـك؟ زعـم سعـد ومـن معـه حيـن مـرّبنـا قـال : يا أباسفيان : «اليـوم يوم الملحمة ، اليوم تستحل الحرمة ، اليوم أذلّ اللـه قريشاً» وإنّي انشـدك الله فـي قـومـك فأنـت أبـرّ الناس ، وأرحـم النـاس ، وأوصـل الناس . قـال عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان : يا رسـول الله ما نأمن سعداً إن يكون منه في قريـش صولة . فقال رسـول الله(صلّى الله عليه و آلـه و سلّم) : اليوم يوم المـرحمة ، اليوم أعزّ الله فيه قريشـاً ، ثـمّ أمر بدفع الراية إلى علي بن أبي طـالب فأخذ عليّ اللواء وذهب بها حتى دخل بها مكة فغرزها عند الـركن . وقال أبوسفيان : ما رأيت مثل هذه الكتيبة ، ثم قـال : لقد أصبح يا أبـالفضل ملك ابـن أخيك عظيماً . فقـال العباس : ليس بملك ولكنّها نبوّة[1].

ثم إنّ رسول الله لما نزل مكّة واطمأنّ الناس خرج حتى جاء البيت ، فطاف ربّه سبعـاً على راحلتـه . قال الـواقدي : «طـاف رسـول الله بـالبيت علـى راحلته ، آخـذ بزمامها ، محمد بن مسلمة ، وحول الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً مرصّصة بالرصاص ، وكان هبـل أعظمها ، وهـو وُجاه الكعبـة على بابهـا ، وإيساف ونـائلة حيـث ينحرون ويذبحـون الذبائح ، فجعل رسـول الله(صلّى الله عليـه و آله و سلّم) كلّما مـرّ بصنم منها ، يشير بقضيب في يده ويقول :

«جاء الحق وزهق الباطل إنّ الباطل كان زهوقا» فيقع الصنم لوجهه[2].

فلمّا قضى طـوافه وقف على باب الكعبـة ، وقد اجتمع له النـاس في المسجد فقال : «لااله إلاّ الله وحـده لا شريك لـه ، صدق وعده ، ونصـر عبده ، وهزم الأحزاب

---

(١) المغازي للواقدي : ج٢ ص٨١٩ــ٨٢٢ ، يعرب ذلك أنّه ما أسلم و إنّما تفوّه بمـا تفوّه خوفاً على نفسه و حربه و بقى على هذه الحالة إلى أن لفظت نفسه و هو ابن ثمانية و ثمانين و له كلام عند مـا أخذ عثمان بيده زمام الحكم . يعـرب عن كفره المستتر. لاحظ تـاريخ الخلفاء للسيوطي ، و شرح النهج لابن ابي الحديد .

(٢) المغازي : ج٢ ص٨٣٢ .

وحده، ألا كلّ مأثرة، أو دمٍ، أو مالٍ يدعى، فهو تحت قدميّ هاتين إلاّ سدانة البيت وسقاية الحاج، ألا وفي قتيل الخطأ شبه العمد، بالسوط والعصا، ففيه الديّة مغلّظة، مائة من الإبل، أربعون منها في بطونها أولادها. يا معشر قريش إنّ الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية. و تعظّمها بالآباء، الناس من آدم، وآدم من تراب، ثم تلا هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ... ﴾(الحجرات/ ١٣)، ثم قال: يا معشر قريش ما ترون إنّي فاعل فيكم؟قالوا: خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم. قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء.

ثمّ جلس رسول الله في المسجد فقال: أين عثمان بن طلحة، فدعى له، فقال: هاك مفتاحك يا عثمان اليوم يوم برّ و وفاء، ثمّ دخل البيت فرأى فيه صور الملائكة وغيرهم فرأى إبراهيم(عليه السلام) مصوّراً في يده الأزلام يستقسم بها، فقال: قاتلهم الله جعلوا شيخنا يستقسم بالأزلام، ما شأن إبراهيم و الأزلام: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلاَنَصْرَانِيّاً وَلٰكِنْ كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾(آل عمران/ ٦٧)، ثمّ أمر بتلك السور كلّها فطمست[1].

مبايعة النساء للنبي ﷺ:

صالح رسول الله بالحديبية مشركي مكّة على أنّ من أتاه من أهل مكّة ردّه عليهم، فجاءت (سبيعة) بنت الحرث، مسلمة بعد الفراغ من الكتاب، و النبي بالحديبية.

فأقبل زوجها مسافر من بني مخزوم، و كان كافراً: يا محمد أُردد عليّ امرأتي، فإنّك قد شرطت أن ترد علينا من أتاك، و هذه طينة الكتاب لم تجف، فنزل قوله سبحانه:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللهُ أَعْلَمُ

---

(١) السيرة النبوية: ج٢ ص٤١٣، و المغازي: ج٢ ص٨٣٥. و في الأخير أورد صلة للخطبة.

بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلاَتَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لاَهُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَ لاَهُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَ آتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا وَ لاَجُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَ لاَتُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَ اسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ذٰلِكُمْ حُكْمُ اللهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَ اللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾(الممتحنة/ ١٠).

و يستفاد من الآية عدّة أحكام:

١ ـ حرمة إرجاع المؤمنات إلى أزواجهنّ الكافرين كما هو صريح الآية.

٢ ـ لزوم إعطاء مهورهنّ لأزواجهنّ كما هو مفاد قوله: ﴿وَ آتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا﴾ أي ما أنفقوا عليهنّ من المهر.

٣ ـ حرمة العقد على الكافرة كما هو مفاد قوله: ﴿وَ لاَتُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾ و القدر المتيقّن كما هو مورد الآية كونها عابدة الوثن.

٤ ـ جواز طلب المهور من الكفار إذا ارتدّت امرأة و رجعت إلى الكفّار، كما هو مفاده من قوله: ﴿وَ اسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ﴾ أي إذا لحقت امرأة منكم بأهل العهد من الكفّار مرتدّة، فاسألوهم ما أنفقتم من المهر كما يسألونكم مهور نسائهم إذا هاجرن إليكم.

ثمّ إنّ النبي الأكرم(صلّى الله عليه و آله و سلّم) لمّا فرغ من بيعة الرجال و هو على الصفا جاءته النساء يبايعنه، فنزلت عليه الآية، فشرط الله تعالى في مبايعتهنّ أن يأخذ عليهنّ الشروط الستة المذكورة في الآية، قال سبحانه:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ:

١ ـ عَلَى أَنْ لاَيُشْرِكْنَ بِاللهِ شَيْئاً.

٢ ـ وَ لاَيَسْرِقْنَ.

٣ ـ وَ لاَيَزْنِينَ.

٤ ـ وَ لاَيَقْتُلْنَ أَوْلاَدَهُنَّ.

٥ـ وَ لَايَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَ أَرْجُلِهِنَّ.

٦ـ وَ لَايَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ.

٧ـ فَبَايِعْهُنَّ وَ اسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(الممتحنة/ ١٢).

روى المفسّرون: إنّ النبي(صلّى الله عليه و آله و سلّم) بايعهنّ و كان على الصفا، و كان عمر أسفل منه، و هند بنت عتبة متنقّبة متنكّرة مع النساء خوفاً أن يعرفها رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم)، فقال: أُبايعكنّ على أن لاتشركن بالله شيئاً. فقالت هند: إنّك لتأخذ علينا أمراً ما رأيناك أخذته على الرجال، و ذلك انّه بايع الرجال يومئذٍ على الإسلام و الجهاد فقط، فقال(صلّى الله عليه و آله و سلّم): و لاتسرقن. فقالت هند: إنّ أباسفيان رجل ممسك و إنّي أصبت من ماله هنات فلاأدري أيحلّ لي أم لا؟ فقال أبو سفيان: ما أصبت من مالي فيما مضى و فيما غبر فهو لك حلال، فضحك رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) و عرفها فقال لها: وإنّك لهند بنت عتبة. قالت: نعم فاعف عمّا سلف يا نبي الله عفا الله عنك. فقال(صلّى الله عليه و آله و سلّم): و لاتزنين. فقالت هند: أوتزني الحرّة؟. فتبسّم عمر لما جرى بينه و بينها في الجاهلية، فقال(صلّى الله عليه و آله و سلّم): و لاتقتلن أولادكنّ. فقالت هند: ربيناهم صغاراً، و قتلتموهم كباراً، و أنتم و هم أعلم، و كان ابنها حنظلة بن أبي سفيان قتله علي بن أبي طالب(عليه السلام) يوم بدر، فضحك عمر حتى استلقى و تبسّم النبي(صلّى الله عليه و آله و سلّم) ولمّا قال: و لاتأتين ببهتان. فقالت هند: و الله إنّ البهتان قبيح، و ما تأمرنا إلاّ بالرشد و مكارم الأخلاق، و لمّا قال: ولايعصينك في معروف. فقالت هند: ماجلسنا مجلسنا هذا و في أنفسنا أن نعصيك في شيء[1].

---

(١) مجمع البيان: ج٥ ص٢٧٦.

٨ ـ غـــزوة حنيـــن

لمّـا فتح رسـول الله مكّة سـارت أشراف هـوازن بعضها إلـى بعض، و ثقيـف بعضها إلـى بعض، و قالـوا: و الله ما لاقى محمـد قومـاً يحسنون القتال، فـاجمعوا أمركم، فسيروا إليه قبل أن يسير إليكم، فأجمعـت هوازن أمرها و تولّى قيادة حشودها «مالك بن عوف النصـرى» و هو يومئذ ابن ثلاثين سنة، فلمّـا أجمع «مالك» المسير بالناس إلـى رسول الله، أمر الناس أن يجيئوا بأمـوالهم و نسائهم و أبنائهم حتـى نزلوا باوطاس، و اجتمع الناس به، فعسكروا و أقاموا بها، و الإمداد تأتيهم من كل ناحية.

فلمّا سمـع بهم رسول الله(صلّـى الله عليه و آلـه و سلّم) بعث إليهـم «عبدالله الأسلمي»، و أمره أن يدخل في الناس، فيقيم فيهم حتى يأتيه بخبرهم، فجاء الرجل بخبر اجتماعهم على حرب رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم)، فأجمع رسول الله السير إلـى هوازن ليلقـاهم، و ذكر لـه أنّ عند صفـوان ابن أُميّة أدراعـاً له و سـلاحاً، فأرسل إليه و هو يومئذ مشرك، فاستعار منه مائة درع ليتقـوّى بها على حرب الكفّار، فأجابه إلى ذلك.

ثمّ خرج رسول الله معـه ألفان من أهل مكّة مع عشرة آلاف من أصحـابه الذين خرجوا معه، و فتح الله بهم مكّة فكانوا اثنى عشر ألفاً، و استعمل رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) عتّاب بن اسيد على مكّة أميراً على من تخلّف عنه من الناس، ثمّ مضى رسول الله يـريد لقاء هوازن، و صـادف في الطريق شجـرة عظيمة خضراء ذات أنواط يأتيها النـاس كل سنة فيعلّقون أسلحتهم عليها، و يذبحـون و يعكفون عندها، قال الـرواي: فتنادينا من جنبـات الطريق يا رسـول الله اجعل لنا ذات أنواط كمـا لهم ذات أنواط قال رسـول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم): الله أكبر قلتـم و الذي نفس

محمد بيده كما قال قوم موسى لموسى: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ إنّها السنن لتركبن سنن من كان قبلكم.

يقول الواقدي: «خرج رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) في اثني عشر ألفاً من المسلمين عشرة آلاف من أهل المدينة، و ألفين من أهل مكّة، فلمّا ابتعد عن مكّة، قال رجل من أصحابه: «لو لقينا بني شيبان ما بالينا و لايغلبنا اليوم أحد من قلّة» و لكن لم تغن هذه الكثرة شيئاً، و هزم المسلمون و فرّوا عن ساحة المعركة، كما يوافيك ذكره عمّا قريب.

بعث مالك بن عوف عيوناً من هوازن إلى معسكر رسول الله، فأتوا بخبر كثرة جيش رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم)، فأراد اصطناع خديعة تمكّنه منهم، فعبّأ أصحابه في وادي حنين، و هو واد أجوف ذو شعب و مضائق، و فرّق الناس فيه و أوعز إليهم أن يحملوا على محمد(صلّى الله عليه و آله و سلّم) و أصحابه حملة واحدة عند ما ينحدرون من مضيق الوادي.

يقول جابر بن عبد الله لمّا استقبلنا وادي حنين، انحدرنا في واد من أودية تهامة في عماية الصبح، و كان القوم قد سبقونا إلى الوادي، فكمنوا لنا في شعابه و مضائقه، و قد أجمعوا و تهيّئوا فماعدوا فو الله ما راعنا و نحن إلاّ الكتائب قدشدّوا علينا شدّة رجل واحد و انهزم الناس راجعين لايلوي أحد على أحد، و انطلق الناس و قد بقي مع النبيّ نفر من المهاجرين و الأنصار و أهل بيته.

بقى رسول الله على دابّته لم ينزل، إلاّ أنّه جرّد سيفه، و قد ذكر التاريخ أسماء الذين صمدوا مع رسول الله، أمثال علي و العباس و الفضل بن العباس و أبي سفيان ابن الحارث، و ربيعة بن الحارث و أيمن بن عبيد الخزرجي، و أُسامة بن زيد.

قال البرّاء بن عازب: و الله الذي لا إله إلاّ هو ماولّى رسول الله و لكنّه وقف و استنصر ثمّ نزل و هو يقول:

أنا النبي لاكذب   أنا ابن عبد المطلب

و كان رجل من هوازن على جمل أحمر بيده راية سوداء فيها رأس رمح له طويل أمام الناس إذا أدرك طعن، قد أكثر في المسلمين القتل، فشدّ عليه عليّ و أبو دجانة فقطع عليّ يده اليمنى، و أبو دجانة يده الأُخرى، و أقبلا يضربانه بسيفيهما فسقط صريعاً.

و زاد الهول مصيبة شماتة أبي سفيان و غيره بالمسلمين، فقد تكلّم رجال منهم بما في أنفسهم من الضغائن، فقال أبو سفيان بن حرب: لاتنتهي هزيمتهم دون البحر، و انّ الأزلام لمعه في كنانته.

و صرخ في تلك الاثناء جبلة بن حنبل: ألا بطل السحر اليوم.

الانتصار بعد الهزيمة:

أمر رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) في تلك الآونة عمّه العباس أن يصرخ و يقول: يا معشر الانصار يا معشر أصحاب السمرة[1] فصار ذلك سبباً لرجوع الفارين من أصحاب الرسول إليه و القتال بين يديه، فاجتمع جمع غفير حوله، حاموا رسول الله و قاتلوا العدو بضراوة، فنظر رسول الله إلى ساحة المعركة، و أصحابه يقاتلون، فقال: الآن حمى الوطيس، و صارت الحرب طاحنة حتى رأى العدو جمعاً غفيراً من الأسرى مكتّفين عند رسول الله، فعند ذلك انقلبت كفّة النصر لصالح المسلمين.

و من لطيف ما قيل في تلك الفترة ما أنشدته امرأة مسلمة بقولها:

غلبت خيل الله خيل اللات   و خيله أحق بالثبات

ثمّ إنّه(صلّى الله عليه و آله و سلّم) طلب من العباس، ليناوله حفنة من الحصى، فألقى بها في وجوه العدو قائلاً: شاهت الوجوه، و قد استنهض بذلك

---

(١) السمرة: شجرة الرضوان.

عزائم أصحابه إلى حد ما لبث هوازن و لاثقيف حتى فرّوا منهزمين لايلوون على شيء تاركين وراءهم نساءهم و أبناءهم غنيمة للمسلمين، و قد ذكر أصحاب السير احصاء الغنائم وعدّتها التي استولى عليها المسلمون، فمن الإبل اثنان و عشرون ألف بعير، و من الشياء أربعون الفاً، و من الفضة أربعة آلاف أُوقية، و قد بلغ عدد الأسرى ستة آلاف، وقد أمر رسول الله أن تنقل إلى وادي الجعرانة حتى يأمن المسلمون من مطاردة العدو لهم[1].

نظرة تحليلية على انهزام المسلمين بادئ بدء :

إنّ انهزام المسلمين في بادئ الأمر كان ناجماً عن غرور المسلمين بكثرتهم أوّلاً، و إصطحاب ألفين من المسلمين الجدد الذين أسلموا في فتح مكّة ولم يرسخ إيمانهم بعد، فانّ فرارهم عن ساحة الحرب ثبّط عزائم المسلمين القدامى.

أضف إلى ذلك انّهم لم يتّبعوا الخطط العسكرية من إرسال الطلائع والعيون مقدمة الزحف لا ستطلاع أحوال العدو ومواقعه، كيف وهم دخلوا في مضيق حنين في غلس الصباح، والعدو ترصّد في ثكنات خاصة، ففاجأوهم بالهجوم عليهم من مكامنهم، وهم على غفلة من أمرهم، فلو كانوا قد استعانوا بالعيون والجواسيس لما وقعوا فيما وقعوا فيه، وكان ذلك ناتجاً عن تقصير من أُمراء السرايا، وحمَلَة اللواء، وقصور منهم في أداء وظائفهم التي أو كلها النبي(صلّى الله عليه و آله و سلّم) إليهم الذي كان يرقب الأُمور عن كثب في مؤخّرة الجند، وإلى ما أشرنا لك يشير قوله سبحانه: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ * ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ

(١) المغازي: ج٣ ص٨٨٩ـ٨٩٩، البداية و النهاية: ج٤ ص٣٥٢.

رَحِيمٌ﴾(التوبة/ ٢٥ـ٢٧).

محاصرة الطائف:

لمّا انهزم العدو بعد انتصار مؤقّت، التجأ البقية الباقية من جماعة مالك بن عوف إلى حصن لبني ثقيف بالطائف، وكان حصناً منيعاً يصعب اختراقه، فتعقّبهم النبي(صلّى الله عليه و آله و سلّم) حتى ذلك الحصن، وأحاط بهم غير أنّ رجال ثقيف المتحصّنين كانوا من مهرة الرماة، فتمكّنوا من إصابة جمع من المسلمين بلغ عددهم ثمانية عشر رجلاً، فأمر النبي قوّاته بالتراجع عن مرمى النبل، فحاصرهم بضعاً وعشرين ليلة، وقد أجهد النبي نفسه في خلال تلك المدة في اعمال فنون الحرب المختلفة لاختراق الحصن بالنحو التالي:

١ـ أمر أصحابه نقب جدار الطائف بالاحتماء بالدبابات المصنوعةً من جلود البقر، لكن تلك المحاولة لم تتكلّل بالنجاح، لأنّ ثقيف ألقت بحمم من الحديد على تلك الدبابات فأحرقتها، ففرّ من كان تحتها من المسلمين، فرشقتهم ثقيف بالنبل، فقتلوا منهم رجالاً.

٢ـ نصب النبي(صلّى الله عليه و آله و سلّم) المنجنيق بإشارة من سلمان الفارسي بقوله: يا رسول الله أرى أن تنصب المنجنيق على حصنهم، وقد عمل المنجنيق بيده، فنصبه النبي تجاه حصن الطائف، أو قدّم المنجنيق يزيد بن زمعة إلى النبي بعد مضي أربعة أيام من قبيلة بني دوس، إحدى القبائل المقيمة بأسفل مكّة، فرماهم من دون جدوى لأنّهم قد أعدّوا حصونهم إعداداً يقاوم كل أمثال تلك الأسلحة.

٣ـ أمر رسول الله بقطع شجر الكروم(العنب)، وقد كانت قبيلة ثقيف تفتخر بكروم أرضها على جميع العرب، فانّها جعلت الطائف واحة كأنّها الجنة وسط هذه الصحارى، كل ذلك رجاء أن يستسلموا ويتركوا التحصّن في حصونهم، فلمّا رأى ذلك رجال ثقيف نادوا: يا محمد لِمَ تقطع أموالنا، فأمّا أن تأخذها إن ظهرت علينا،

وأمّا أن تدعها لله وللرحم، فتركها(صلّى الله عليه و آله و سلّم) .

٤ـ نادى منادى رسول الله أيّما عبد نزل من الحصن وخرج إلينا فهو حرّ، فخرج من الحصن بضعة عشر رجلاً، وعلم منهم انّ بالحصون من الذخيرة والمؤنة ما يكفل أمداً طويلاً، فاستشار النبي(صلّى الله عليه و آله و سلّم) نوفل بن معاوية الديلي في المقام عليهم فقال: يا رسول الله: ثعلب في حجر، إنْ أقمت عليه أخذته، وإن تركته لم يضرّك، فأذن الرسول بالرحيل، وقيل: إنّ الرسول(صلّى الله عليه و آله وسلّم) رأى أنّ الحصار سيطول أمده وانّ الجيوش تودّ الرجوع لا قتسام الفيء الذي كسبوه والذي تركوه في الجعرانة، والأشهر الحرم قد أذنت ولا يجوز فيها قتال، لذلك آثر أن يرفع الحصار بعد شهر من وقعه، وكان ذو القعدة قد هلّ، فرجع بجيشه معتمِراً وذكر انّه متجهّز إلى الطائف إذا انتهت الأشهر الحرم.

وفد هوازن في ا لجَعرّانة

وأقفل راجعاً إلى مكة حتى نزل هو والمسلمون الجَعرّانة لاقتسام الغنائم، وفي تلك الأثناء أتتهم وفد من هوازن وقد أسلموا فقالوا: إنّا أصل وعشيرة وقد أصابنا ما لم يخف عليك، فامنن علينا منّ الله عليك، وقال زهير: يا رسول الله إنّ بين الأُسارى عمّاتك وخالاتك وحواضنك اللاتي كنّ يكفلنك، ولو إنّا أرضعنا الحرث بن أبي شمر الغساني، أو النعمان بن المنذر ليرجونا عطفه وأنت خير المكفولين، فخيّرهم رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) بين نسائهم وأبنائهم، وبين أموالهم، فاختاروا نساءهم وأبناءهم.

فقال: أمّا ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم، فإذا أنا صلّيت بالناس، فقولوا: إنّا نستشفع برسول الله إلى المسلمين وبالمسلمين إلى رسول الله، في أبنائنا ونسائنا، فسأعطيكم وأسأل فيكم، فلمّا صلّى الظهر فعلوا ما أمرهم به، فقال رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم): ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم، و قال المهاجرون و الأنصار: ما كان لنا فهو لرسول الله،و قال الأقرع بن حابس: ما كان لي

ولبني تميم فلا، وقال عيينة بن حصن: ما كان لي ولفزارة فلا، وقال عباس بن مرداس: ما كان لي ولسليم فلا، فقالت بنو سليم: ما كان لنا فهو لرسول الله فقال: وهّنتموني.

فقال رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم): من تمسّك بحقّه من السبي فله بكل إنسان ستّ فرائض من أوّل شيء نصيبه، فردّوا على الناس أبناءهم ونساءهم.

وسأل رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) عن مالك بن عوف فقيل: إنّه بالطائف. فقال: أخبِروه إن أتاني مسلماً رددت عليه أهله وماله وأعطيته مائة بعير، فأُخبر مالك بذلك، فخرج من الطائف سرّاً ولحق برسول الله(صلّى الله عليه و آله وسلّم)، فأسلم وحسن إسلامه واستعمله رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) على قومه وعلى من أسلم من تلك القبائل التي حول الطائف، فأعطاه أهله وماله ومائة بعير، وكان يقاتل بمن أسلم معه من«ثمالة» و«فهم» و«سلمة»، فكان يقابل بهم ثقيفاً لا يخرج لهم سرح إلاّ أغار عليه حتى ضيّق عليهم[1].

لمّا فرغ رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) من رد سبايا حنين إلى أهلها، ركب جواده واتّبعه الناس يقولون: يا رسول الله قسّم علينا فيأنا من الإبل والغنم، فقام رسول الله إلى جنب بعير، فاجتزّ وبرة من سنامه، فجعلها بين اصبعيه ثم رفعها قائلاً: والله مالي من فيئكم ولا هذه الوبرة إلا الخمس، والخمس مردود عليكم، فأدّوا الخياط والمخيط، فانّ الغلول يكون على أهله عاراً وناراً وشناراً يوم القيامة.

ثم إنّه أعطى المؤلّفة قلوبهم شيئاً كثيراً من الخمس المتعلّق به، فأعطى أباسفيان ابن حرب وابنه معاوية لكلّ مائة بعير، وأعطى حكيم بن حزام مائة بعير، وهكذا وعندما فرغ من القسمة بينهم، جاء رجل من بني تميم يقال له ذوالخويصرة، فوقف عليه، فقال: يا محمد قد رأيت ما صنعت في هذا اليوم. فقال رسول الله:

---

(١) السيرة النبويّة: ج٢ ص٤٨٩و٤٩٠.

أجل فكيف رأيت؟ فقال: لم أرك عدلت. فغضب النبي(صلّى الله عليه و آله وسلّم) ثم قال: ويحك إذا لم يكن العدل عندي فعند من يكون؟ فقال عمر بن الخطاب: يا رسول اللـه ألا أقتله؟ فقال: لا، دعه فـانّه سيكون له شيعـة يتعمّقون في الديـن حتى يخرجوا منه كما يخرج السهم من الرمية[1].

وقد نزل بهذا الصدد عدة آيات منها:

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِـزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَـإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَـمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ* وَلَوْ أَنَّهُم رَضُـوا مَا آتاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّـهُ سَيُؤْتِينا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ* إِنَّمَا الصَّـدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالمَسَاكِينِ وَالعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الـرِّقَابِ وَالغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْـنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِـنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾(التوبة/ ٥٨ـ٦٠).

وقد اختلـف المفسّرون فـي سبب نـزولها فمـن قائل بـأنّها نـزلت فـي حقّ ذي الخويصرة وأمثاله، إلى قائل من أنّها نزلت في حقّ المؤلّفة قلوبهم.

مشادة الأنصار مع النبي

ولمّا أعطى رسـول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّـم) ما أعطى من تلـك العطايا لقريش ولقبـائل العرب ولم يحظ الأنصار بمثـل عطيّتهم وجد جمع مـن الأنصار في أنفسهم شيئاً، فـأرسلوا منهم سعد بن عبـادة إلى النبي(صلّى الله عليـه و آله و سلّم) يستطلع صدق الأمر، فقال: قسّمت في قومك وأعطيت عطايا عظاماً في قبائل العرب ولم يك فـي هذا الحي من الأنصـار منها شيء. قال: فـأين أنت من ذلـك يا سعد؟

---

(١) السيرة النبويّـة: ج٢ ص٤٩٦، البداية و النهايـة: ج٤ ص٣٣٦ و فيه: دعه فإنّ لـه أصحاباً يحقّر أحدكم صلاته مع صلاتهم و صيامه مع صيامهم يقرأون القرآن لايجاوز تراقيهم يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية.

قال: يـا رسول الله ما أنا إلاّ مـن قومي، قـال: فأجمع لـي قومك في هـذه الحظيرة، قـال: فخـرج سعـد فجمـع الأنصـار في تلـك الحظيـرة، قـال: فجـاء رجـال مـن المهاجريـن فتركهم فدخلـوا، وجاء آخرون فردّهـم فلمّا اجتمعوا له أتـاه سعد فقال: قد اجتمع لك هذا الحي من الأنصار، فأتاهم رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) فحمد الله و أثنـىٰ عليه بما هـو أهله ثم قـال: يا معشر الأنصـار مقالة بلغتنـي عنكم وجدة وجدتموهـا عليّ في أنفسكم؟ ألم آتكم ضلالاً فهداكم الله؟ وعـالة فأغناكم الله؟ وأعداء فألّف الله بين قلوبكم؟

قالوا: بلى، الله ورسوله أمنّ وأفضل، ثمّ قال: ألاتجيبونني يا معشر الأنصار؟ قالوا: بماذا نجيبك يا رسول الله؟ لله ولرسوله المنّ والفضل.

قـال(صلّـى الله عليه و آلـه و سلّـم): أمـا واللـه لـوشئتم لقلتـم فلصَـدَقتـم ولصـدّقتم: أتيتنـا مكذّبـاً فصـدّقناك ومخـذولاً فنصرنـاك وطـريداً فـآويناك وعـائلاً فآسينـاك، أوجدتم يـا معشر الأنصار فـي أنفسكم لعاعة مـن الدنيا تـألّفت بها قـوماً ليسلموا ووكلتكم إلى إسـلامكم ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهـب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم؟ فو الذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأ مـن الأنصار، ولـو سلك النـاس شعباً وسلكـت الأنصار شعبـاً لسلكت شعـب الأنصار. اللّهمّ ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار.

قال: فبكى القوم حتّـى أخضلوا لحاهم وقالوا: رضينا بـرسول الله قسماً وحظّاً ثم انصرف رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) وتفرّقوا[1].

إلى هنا تمّ الحديث عن فتح مكّة وما أعقبه مـن الأحداث وقد وصفه سبحانه هكذا:

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَـكَ فَتْحاً مُبِيناً* لِيَغْفِرَ لَـكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِـنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّـرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْـكَ وَيَهْدِيَكَ صِـرَاطاً مُسْتَقِيماً* وَيَنْصُـرَكَ اللَّهُ نَصْراً عَـزِيزاً* هُوَ الَّـذِى انْزَلَ

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج٢ ص٥٠٠، البداية و النهاية ج٤ ص٣٥٨.

السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَعَ إِيمَانِهِم وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾(الفتح/ ١ـ٤).

وفي الآيات سؤال يستحثّ الجواب عنه وهو أنّه سبحانه جعل فتح مكّة علّة لغفران ما تقدّم من ذنوب النبي وما تأخّر منها، فيقال:

١ـ ماهي المناسبة بين العلّة والمعلول: فتح مكّة وغفران الذنوب، مع أنّه يجب أن يكون بينهما مناسبة ذاتية أو اعتبارية؟

٢ـ إنّ النبي الأكرم معصوم من اجتراح الذنوب فما المراد من هذا الذنب؟

ويجاب عنه: بأنّ النبي الأكرم(صلّى الله عليه و آله و سلّم) كان متّهماً عند رجال قريش وحلفائها منذ سابق عهدهم به بالكهانة والسحر والجنون والألقاب المزرية المشينة الأُخرى، وقد سبق أن قلنا بأنّ هذه التهم كانت بمثابة الحرب النفسية لإظهار العداء المقيت بالرسول الأكرم(صلّى الله عليه و آله و سلّم) وكان يصعب على النبي(صلّى الله عليه و آله و سلّم) مجابهتها والقضاء عليها وكفّ ألسنة الناس عن التفوّه بها بأي نحو من أنحاء الإعلام المضادّ إلاّ لمن عايشه عن قرب واختبره عن كثب.

ولكنّه(صلّى الله عليه و آله و سلّم) قد منحه الله سبحانه ببركة هذا الفتح المبين حيث تمكّن بعد هدم حصون الشرك والوثنية وتطهير الكعبة من آلهة المشركين والاستيلاء علىٰ مراكز قوّتهم من الظهور بمظهر العظمة إلى أن تلاشت معه جميع قلاع الشرك وخضعت له الرقاب التي تنصب غروراً وكبرياءً في وجهه.

فأثبت بذلك أنّه منزّه عن الكهانة والسحر والجنون لأنّ المنتسب إلى أحد تلك الأصناف أعجز من أن يقوىٰ على تدبير أُمور نفسه الخاصّة. فكيف يقوم بقيادة جيش جرّار عرمرم يخترق الفيافي والصحارى والقفار على الرغم من كثرة العيون والجواسيس المترصّدة في أنحاء الطرق والمعابر، ثمّ يباغت العدو في عقر داره وهو في غفلة من أمره فما يلبثوا إلاّ يسيراً حتّى يسلّموا له وتذلّل له أعناق رؤسائهم، ويبلغ به الأمر إلى

أكثر من ذلك فيواصل زحفه إلى ماوراء مكّة على ثبات من أمره وقوّة و شكيمة.

فالمتصدّي لقيادة تلك الجيوش والتسلّط على ما تمكّن منه بالنحو المتقدّم لابدّ وأن يعد من الرعيل الأوّل من قوّاد الجيوش في العالم وأشدّهم حنكة وحكمة، فكيف يتبادر إلى الأذهان أمثال تلك الأراجيف إذا كان حاله على ما شاهده الناس به من العظمة والبسالة والحكمة؟

وتمكّن من خلال هذا الفتح من إزالة كل فرية وتهمة مشينة ألصقها كفّار قريش به أو يمكن أن توصف شخصيته بها في المستقبل، ولذلك وردت الإشارة إلى ذلك بقوله: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾.

وبذلك يندفع ما تمّ إيراده في السؤالين، وفي ذلك غنى عن المزيد من الإطالة حيث تبيّن وجود الصلة بين الفتح ومغفرة الذنوب، كما تبيّن عدم منافاة المغفرة مع العصمة، فلاحظ.

وفي الختام نقول: إنّه سبحانه قد بشّر النبي الأكرم بالنصر والفتح قبل وقوع الأمر بإنزال سورة النصر. قال سبحانه: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً﴾(النصر/ ١ـ٣).

لمّا فتح رسول الله مكّة قالت العرب: اما اذا أظفر محمد بأهل الحرم وقد أجارهم الله من أصحاب الفيل فليس لكم به طاقة، فكان يدخلون في دين الله أفواجاً واحداً واحداً، اثنين اثنين وربّما تدخل القبيلة بأسرها في الإسلام[1].

(١) مجمع البيان، ج٥ ص٥٥٣ـ٥٥٤.

٩ ـ غـــــزوة تبـــوك

كانت بلاد الشام فـي عصر الرسالة من المناطق التي تخضـع لنفوذ إمبراطورية الروم، وكان شيوخ القبائل تـدين بالمذهب المسيحي، وكانوا أداة طيّعـة في أيديها، ولمّا بلغ أسمـاع أباطرة الروم خبر استيـلاء المسلمين على مكّة ودخول المشـركين في الدين الإسلامي أفواجاً، استشاطوا غضباً وعزموا على حربهم واطفاء نائرتهم، فأرسلوا إلى رؤساء قبائل«لخم» و«عامله» و«غسّان» و«جذام» يحثّونهم على تكثيف حشودهم و إعداد العدّة لحرب محمد(صلّى الله عليه و آله و سلّم) ومباغتته في عقر داره ليسهل عليهم إخماد أنفاس تلك الدولة الفتيّة، ولمّا وصـل الخبر إلى النبي الأكرم عن طريق القوافل التجارية عزم على حربهم قبل أن يهـاجموه، وكانت تلك الفترة فترة شاع فيها الفقر والشدّة والفاقة.

وقد أمر النبي(صلّى الله عليـه و آله و سلّم) بـالرحيل فـي الفصل الذي كـانت الثمار فيه على وشك الإيناع.

قال ابن هشام: إنّ رسول الله أمر أصحابه بالتهيّؤ وغزو الروم وذلك في زمان من عسرة الناس وشـدّة من الحر وجدب من البـلاد، وحين طابت الثمـار والناس يحبّون المقام في ثمارهم وظلالهم ويكرهون الشخوص على الحال من الزمان الذي هم عليه وكان رسول الله قلّما يخرج لغزوة إلاّ كنّى عنها وأخبر أنّـه يريد غير الوجه الذي يقصده إلاّ ما كـان من غزوة تبـوك، فإنّه بيّنها للنـاس لبعد الشقّة وشـدّة الزمان، وكثـرة العدو الذي يقصده ليتأهّب النـاس لذلك اُهبتهم، فأمر الناس بالجهاز، وأخبـرهم أنّه يريد الروم.

ولمّا تفرّدت به تلك الغزوة عن سائر الغـزوات ببعد الطريق، والاعتياز إلى مؤن

تكفل حاجة الجند ذهـاباً وإيّاباً، فقد صدرت الأوامر من النبـي الأكرم بحشد جميع الإمكانات المتوفـرة لديهم بلا فرق بين الغنـي والفقير، ولأجل ذلك ساهم فـي تدعيم ذلك المجهود الحربـي جميع الطبقات والفئات من الرجـال والنساء وأصحاب الثروة والعمّال.

وممّن ساهم في تدعيم أمر الجيش عبد الرحمان بن عوف حيث جاء بصرّة من دراهم تملأ الكف، وفي قبال ذلك أتى من الضعفـاء عتبة بن زيد الحارثي بصاع من تمر وقال:يا رسول الله: عملت في النخل بصاعين فصاعاً تركته لأهلي وصاعاً أقرضته ربّي، وجاء زيـد به أسلم بصدقة، فقـال بعض الناس: إنّ عبد الرحمـان رجل يحبّ الرياء، ويبتغي الذكر بذلك وإنّ الله غني عن الصاع من التمر، فعابوا كلتا الطائفتن: المكثر بالرياء والمقل بالإقلال، فنزل قوله سبحانه:

﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّـوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِى الصَّدَقَـاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُم فَيَسْخَرُونَ مِنْهُـمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ* اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِـكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَايَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾(التوبة/ ٧٩و٨٠).

والحقّ إنّه يوجد في جميع المجتمعـات رجال، لا يحبّون الخير ولا يساهمون فيه، بل لا يحبّون أن يسـاهم فيه أحد ويعيبونهم في المساهمـة بأي شكل تحقّقت، فإن ساهم إنسـان بالمال الكثير، يتّهمونه بـأنّه يحب الرياء والذكـر، وإن ساهم بمال قليل حقّروه وأهانوه، هذه شأن تلك الطبقة التي لا يريدون الخير ولا يطلبونه بتاتاً.

تخاذل بعض المؤمنين عن المناصرة

ـ ومع أنّ الظروف لم تكن مساعدة لحشد الناس بما يقتدر به على حرب العدو الشرس ـ فقـد تمكّن النبي من حشد ثلاثيـن ألف مقاتل، ولم يكن لهـذا النجاح(في استنهاض عـزائم العرب وجمع قـواهم بهذه المثـابة) مثيل فـي تاريخ العـرب، على

الرغم من الجهود المكثّفة التي كانت يبـذلها المنافقون في تثبيط العزائم و إخماد روح الشهادة والفداء في نفوس المسلمين.

وقد ألمح الذكر الحكيم إلى تثاقل جمـع من الصحابة(المؤمنين) عن الإسهام والمشاركة. قال سبحانه:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالحَيْوةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ * إِلاَّ تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّوهُ شَيْئاً وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(التوبة/ ٣٨ و ٣٩).

وما هو المـراد من قوله سبحـانه: ﴿وَيَسْتَبْدِل قَوْماً غَيْرَكُم﴾ وقد جـاءت تلك الجملة في آيات أُخرى أيضاً؟

قال سبحانه: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى المُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ...﴾(المائدة/ ٥٤) وقال تعالى: ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾(محمد/ ٣٨).

وقد فسّرت الآيـة بأبناء فارس تـارة وبأهل اليمن أُخـرى وبالذين أسلمـوا ثالثة، والحق إنّ الآيـة تتمتّع عـن سعة وعمـوم تعمّ الطوائف الـذين جـاءوا بعد نـزول الآية، واتّسموا بما فيها من الصفات﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ...﴾.

نكوص المنافقين عن القتال

كانت وقعة تبوك محكّاً لتمحيص المسلمين، و ثباتهم على الحق و مفاداتهم الرسول بأنفسهم و أمـوالهم. كيف و قد كانت المسافة بين المـدينة و تبوك تقرب من ستمائة كيلـومتراً، و كانت الـركائب المعدّة للمسيـر تغطّي معشارهم، و كـان زادهم الشعيـر المسوّس، و الإهـالـة السخنة و التمـر الـزهيد، ففـي خضـمّ تلك الظـروف

العصبية، سعى المنافقون لإخماد همم المسلمين، و كسر شوكتهم، فكشف الله عنهم لقاء تآمرهم على الإسلام، ما كانوا يبطنونه و يخفونه من ضغائن و أحقاد، و قد كرّست سورة التوبة ثقلها الأكبر على بيان تآمر أُولئك، وقد كانوا يتذرّعون بأعذار و ترّهات خاوية، ويستأذنون من النبي للبقاء في المدينة وعدم المساهمة في الجهاد. نعم ما كانوا يعتذرون به لم يكن سبباً حقيقياً لتثاقلهم، و إنّما السبب فيه هو:

١ ـ علمهم بأنّ النبي لايصيب غنيمة.

٢ ـ بعد الطريق.

٣ ـ شدّة الحر و حمّارة القيظ.

و قد كشف الوحي عن سرّ تثبّطهم و تثاقلهم و ألمع إلى الوجهين الأوّلين بقوله:

﴿لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً وَ سَفَراً قَاصِداً لاَتَّبَعُوكَ وَ لَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَ اللهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾(التوبة/ ٤٢).

و في هذه الآية إلماع إلى السببين الأوّلين اللّذين عاقاهم عن المساهمة:

١ ـ يريد أنّه لو كان في ما دعوتهم إليه منفعة قريبة المنال لم يكن في الوصول إليها عناء كبير لاتّبعوك كما يقول: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً﴾.

٢ ـ لو كان السفر سفراً هيّناً لاتعب فيه لأسرعوا بالنفر إليه إذ حبّ المال أمر طبيعي خصوصاً إذا كانت سهلة المأخذ قريبة المنال كما يقول: ﴿سَفَراً قَاصِداً﴾.

و لمّا بعدت عليهم الشقّة أوّلاً و لم يكونوا مطمئنّين بالوصول إلى المال ثانياً انصرفوا عن المساهمة، و لكنّهم لحفظ مكانتهم بين المسلمين كانوا يحلفون للرسول بعدم استطاعتهم للخروج، و هم كاذبون في حلفهم كما يقول سبحانه: ﴿وَ يَحْلِفُونَ بِاللهِ لَوِاسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَ اللهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

و قد ألمع إلى السبب الثالث بقوله: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللهِ وَ كَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَ قَالُوا لَاتَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّاً لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾(التوبة/ ٨١).

كان المنافقون يقولون لإخوانهم لاتنفروا في حرّ الصيف و الله سبحانه فنّد آراءهم و سفّه أحلامهم بأنّ نار جهنّم المعدّة للعصاة أشدّ حرّاً من تلك الأيام، لأنّ ذلك الحرّ تحتمله الأجسام و أمّا نار جهنّم فتلفح الوجوه و تنضج الجلود، و على ذلك ينبغي عليهم أن يضحكوا قليلاً و بيكوا كثيراً.

هذه سيرة المنافقين و ضعفاء الإيمان في كل عصر يعتذرون في الصيف بشدّة الحرّ، و في الشتاء بشدّة البرد، و لكنّها أعذار ظاهريّة اتّخذوها واجهة لستر ما هو السبب الحقيقي لترك المساهمة.

و التاريخ يعيد نفسه. كان علي(عليه السلام) يأمر أصحابه بالجهاد ضد العدو و هم يتثاقلون إلى الأرض، يعتذرون بمثل تلك الأعذار، يقول الإمام: «فإذا أمرتكم بالسير إليهم في أيام الصيف، قلتم: هذه حمارة القيظ أمهلنا يُسَبَّخ عنّا الحرّ، و إذا أمرتكم بالسير إليهم في الشتاء، قلتم: هذه صبارّة القرّ أمهلنا ينسلخ عنّا البرد، أكلّ هذا فراراً من الحرّ و القرّ، فإذا كنتم من الحرّ و القرّ تفرّون فأنتم و الله من السيف أفر، يا أشباه الرجال و لارجال! ...»[1].

إلى هنا وقفنا على الأسباب الواقعيّة التي ثبّطت عزائم المنافقين عن المساهمة في الجهاد، ثمّ إنّهم كانوا ينتحلون الأعذار الواهية، ليستأذنوا النبي في القعود و التخلّف، و كان النبي يأذن لهم، فنزل الوحي و قال: ﴿عَفَا اللهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَ تَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾(التوبة/ ٤٣).

و هل الآية تدلّ على أنّ إذنه(صلّى الله عليه و آله و سلّم) كان على خلاف

---

(١) نهج البلاغة: الخطبة٢٧.

المصلحة و ناجماً عن سوء تدبيره، و بالتـالي كان ذنباً و معصية، أو أنّ الآية خرجت لبيان أمر آخر؟ و الصحيح هو الثاني و إليك البيان:

إنّ دراسة الموضوع توقفنا على أنّ إذن رسـول الله كان مقروناً بالمصلحة إذ لولاه فلايخلوا حالهم بين أن يكونوا مطيعين أو عـاصين، فلو أطاعوه و ساهموا المسلمين لكان ضررهم أكثر من نفعهـم لقوله سبحانه: ﴿**لَوْ خَرَجُوا فِيكُـمْ مَا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً وَ لأَوْضَعُـوا خِـلاَلَكُـمْ يَبْغُـونَكُـمُ الفِتْنَـةَ وَ فِيكُـمْ سَمَّـاعُـونَ لَهُـمْ وَ اللهُ عَلِيـمٌ بِالظَّالِمِينَ**﴾(التوبة/ ٤٧).

و لأجل أنّ ضررهم كان أكثر من نفعهم، أذن النبي(صلّى الله عليه و آله وسلّم) أن لايشاركوهم في الجهاد و لو طلبـوا منه، قال سبحانه: ﴿**فَإِنْ رَجَعَكَ اللهُ إِلى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَـاسْتَئْذَنُوكَ لِلْخُـرُوجِ فَقَلْ لَنْ تَخْـرُجُوا مَعِـىَ أَبَدَاً وَ لَنْ تُقَـاتِلُوا مَعِىَ عَـدُوّاً إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الخَالِفِينَ**﴾(التوبة/ ٨٣).

ولو خـالفوا و اثّاقلـوا إلى الأرض لكان الفساد أعظـم، لأنّ المخالفة الـواضحة توجب تهبيط عظمة النبي(صلّى الله عليه و آلـه و سلّم) عن الأعين وربّما تتّخذ خطة عادية للمنافقين في مجالات اُخر.

ولأجل هذا لمّا استأذنوا أذن لهم وما هذا إلاّ دفعاً للفاسد أو الأفسد.

وبعبارة اُخرى: انّهم كانوا عازمين على عدم الخروج مع المؤمنين لغزو الروم، بل كـان لهم فـي غياب النبـي(صلّى الله عليه و آلـه و سلّم) تخطيـط ومؤآمـرة أبطله النبي(صلّى الله عليه و آله و سلّم) بتخليف عليّ(عليه السلام) مكانه كما هو مذكور في السيرة، قال سبحانه: ﴿**وَلَوْ اَرَادُوا الخُرُوجَ لأَعُدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِـنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ القَاعِدِينَ**﴾(التوبة/ ٤٦).

والآية صـريحة في أنّهـم كانوا عـازمين على تـرك الخروج وكان الإستئـذان نوع تغطية لقبح عملهم فما كانوا يخرجون إلى الجهاد سواء أذن النبي(صلّى الله عليه و آله

و سلّم) أم لم يأذن، لكن(صلّى الله عليه و آله و سلّم) بـإذنه حفظ مكانته ومنزلته بين المسلمين.

نعم، إنّه(صلّى الله عليـه و آله و سلّم) بإذنه فوّت مصلحـة أُخرىٰ وهو التعرّف على المـؤمن وتمييزه عـن المنافق، وتمحيـص المطيع عـن المتمرّد ولولاه لـم يعرف الصديق من العدو عاجلاً.

وليس لحن الآية فـي مجال تفويت هذه المصلحة لحـن العتاب والإعتراض، بل أُسلـوبه أُسلـوب عطف وحنـان، وأشبه بـإعتراض الـولي الحميـم على الصـديق الوفي، إذا عامل عدوّه الغاشم بمرونـة ولينة، فيقول بلسان الإعتراض: «لماذا أذنت له ولـم تقابله بخشونـة حتّى تعرف عدوّك من صديقك ومن وفي لـك ممّن خانك. على أنّه و إن فات النبـي(صلّى الله عليه وآله وسلّـم) معرفة المنافـق من هذا الطريـق لكنّه لـم تفته معـرفته مـن طـريق آخـر، صرّح بـه القرآن فـي غيـر هذا المـورد، فإنّ النبـي الأكرم(صلّى الله عليه وآله) كان يعرف المنافق وغيره من المؤمن من طريقين آخرين.

١ـ كيفيّة الكـلام، ويعبّر عنه القرآن بلحـن القول وذلك إنّ الخائن مهمـا أصرّ علـى كتمان خيـانتـه، تظهـر بوادرهـا فـي ثنايـا كـلامه، قـال أميـرالمـؤمنين(عليـه السلام): «ما أضمر أحد شيئاً إلاّ ظهر فـي فلتات لسانه وصفحات وجهـه» وفي ذلك يقول سبحانه: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُـمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُـمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾(محمد/ ٣٠).

٢ـ التعرّف عليهم بتعليم منه سبحانه، قال: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾(آل عمران/ ١٧٩) والدقّة في الآية تفيـد بأنّ الله سبحـانه يجتبي مـن رسله من يشـاء ويطلعه على الغيب، ويعـرف من هذا الطريـق الخبيث ويميّزه عن الطيّب.

وعلى ذلك فلم يفـت النبي الأكرم(صلّى الله عليه وآله وسلّـم) شيء وإن فاتته

معرفة المنافق من هذا الطريق ولكنّه وقف عليها من الطريقين الآخرين.

وعلى كل تقدير فاستئذان أُولـوا الطول منهم لترك الخروج آيـة النفاق، كما أنّ مساهمتهم آية الإيمان، يقول سبحانه: ﴿وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ القَاعِدِينَ* رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَيَفْقَهُونَ* لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِم وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الخَيْرَاتُ وَأُوْلَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ* أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الفَوْزُ العَظِيمُ﴾(التوبة/ ٨٦ـ٨٩).

نعم استثنىٰ سبحانه ذوي الأعذار وهم الضعفاء، والمرضىٰ والفقراء، فإنّ هذه الأصناف الثلاثة لا حرج عليهم ولا إثم في قعودهم عن الجهاد الواجب، قال سبحانه: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلاَ عَلَى المَرْضَى وَلاَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى المُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ* وَلاَ عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ* إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾(التوبة/ ٩١ـ٩٣).

الاعتذار بالخوف من نساء الروم

ثمّ إنّ بعضهم اعتذر بأنّه يخشىٰ من نساء بني الأصفر فقال: يا رسول الله: «إئذن لي ولا تفتني فو الله لقد عرف قومي أنّه ما من رجل بأشدّ عجباً بالنساء منّي وإنّي أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر أن لا أصبر» فأعرض عنه رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) وقال: لقد أذنت لك، فنزلت في حقّه هذه الآية: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلاَ تَفْتِنِّي أَلاَ فِي الفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالكَافِرِينَ﴾(التوبة/ ٤٩).

والمراد أنّـه انّما خشـي الفتنة من نسـائهم ولكـن ما سقط فيـه من الفتنـة أكبر لتخلّفه عن رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) وجزاؤه جهنّم[١].

ثمّ خرج رسـول الله(صلّى الله عليه و آلـه و سلّم) عن المدينـة وضرب عسكره على ثنية الوداع وخلّف علي بن أبي طالـب(رضوان الله عليه) على أهله وأمره بالإقامة فيهم فأرجف به المنافقون وقالوا: مـا خلّفه إلاّ إستثقالاً له وتخفّفاً منه، فلمّا قال ذلك المنافقون أخذ علي بـن أبي طالب(رضوان الله عليه) سلاحه ثـمّ خرج حتّى أتى رسول اللـه(صلّى الله عليـه و آله و سلّـم) وهو نـازل بـالجرف، فقـال: يا نبـي الله، زعـم المنافقون أنّـك إنّما خلّفتني لأنّك استثقلتنـي وتخفّفت منّي، فقال: كـذّبوا، ولكنّي خلّفتك لما تـركت ورائي، فارجع فاخلفني فـي أهلي وأهلك، أفلا ترضـى يا علي أن تكون منّي بمنـزلة هارون من موسى؟ إلاّ انّـه لا نبي بعدي، فرجع علي إلـى المدينة، ومضى رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) على سفره[٢].

حديث تخلّف الثلاثة

ثمّ إنّه تخلّف بعضهم لا عن نفاق بل عن توان وهم: كعب بن مالك ومرارة بن ربيع وهلال بن أُميّة. فلمّا قدم النبي(صلّـى الله عليه و آله و سلّم) المدينة جاءوا إليه واعتذروا فلم يكلّمهم النبـي(صلّى الله عليه و آله و سلّم) و تقدّم إلـى المسلمين بأن لايكلّمهم أحد منهـم، فهجرهم الناس حتـى الصبيان، و جاءت نساؤهـم إلى رسول الله(صلّى الله عليـه و آله و سلّـم) فقلن له: يـا رسول الله نعتـزلهم؟ فقـال: لا ولكن لايقربوكنّ، فضاقت عليهم المدينة فخرجوا إلى رؤوس الجبال، وكان أهاليهم يجيئون لهم بالطعام ولا يكلّمـونهم، فقال بعضهم لبعض: قد هجرنـا الناس ولا يكلّمنا أحد فهلمّ فلنتهاجر نحن أيضاً، فتفرّقوا ولم يجتمع منهم اثنان وبقوا على ذلك خمسين

(١) السيرة النبوية ج٣ ص٥١٦.

(٢) السيرة النبوية ص٥٢٠.

يوماً يتضرّعون إلى الله تعالى، فقبل الله توبتهم وأنزل فيهم هذه الآية[1]:

﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾(التوبة/ ١١٨).

والذي يستفاد من هذا القرار الحاسم الذي أصدره النبي(صلّى الله عليه و آله وسلّم) في شأن أُولئك، إنّ الدواء الناجع لعلاج كل تصدّع يطرأ على الجبهة الإسلامية يتمثّل في فرض الحصار وتضييق الخناق على العدوّ ليستأصل كلّياً قبل استفحال أواره، ، واشتداد شوكته.

وبعبارة أُخرى: نستخلص درساً هامّاً لحياتنا في مستقبلها المصيري من موقف النبي الأكرم(صلّى الله عليه و آله و سلّم) هذا وهو أنّه كلّما شعرت القيادة الإسلامية بخطر يترقّب من أقلّية تسكن داخل البلاد الإسلامية، فإنّه يجب عليها أن تفرض عليها الحصار الإقتصادي وتستنهض عزائم المسلمين للمجابهة الصارمة مع أُولئك ليرتدعوا عن بكرة أبيهم عمّا كانوا عليه من شطط و إيذاء للمسلمين.

نرى في البلاد الإسلامية أقلّيات مذهبية من غير المسلمين وقد بلغوا الذروة في الثروة وجمع المال وامتصّوا دماء المسلمين في عقردارهم، واستنفدوا قواهم وسخّروهم لصالح منافعهم الخاصّة على غفلة من أمرهم، وما هذه الظاهرة إلاّ لأنّ الأكثرية صارت دمية بيد أُولئك لتشتّت المسلمين و إنقسامهم على أمرهم، فلو قام المسلمون بأعمال السياسة التي قام بها النبي الأكرم(صلّى الله عليه و آله و سلّم) في العام التاسع من الهجرة وضربوا الحصار على تلك الأقلّية بأن يقطعوا الأواصر الإقتصادية مع هؤلاء، لدحضت مخطّطاتهم ولردّ كيدهم إلى نحورهم.

---

(١) و نقله القمّي في تفسيره بصورة مفصلّة، ومن أراد فليرجع إلى ج٢ ص٢٧٨ـ٢٨٠، لاحظ مجمع البيان ج٣ ص٧٩.

هذا ما يرجع إلى الأقلّيات المذهبية في داخل البلاد الإسلامية وأمّا القوى الكافرة الخارجة عنها فيجب كبح جماحهم بشكل آخر وهو:

إنّ المسلمين اليوم يملكون زمام الطاقة الحياتية المتمثّلة في النفط والتي تمثّل عصب الحضارة الحديثة، فلو أنّهم امتنعوا عن إعطاء ثروتهم النفطية للقوى الكبرى، لتوقّفت وأُصيبت الحياة الصناعية والإقتصادية بشكل رهيب. واضطرّت على أثرها للرضوخ للواقع والإعتراف بحقوق المسلمين المشروعة.

﴿إِنَّ فِى ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَىٰ السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيد﴾ والتفصيل موكول إلى محل آخر.

مسجد ضرار

كان النبي(صلّى الله عليه و آله و سلّم) على جناح السفر إلى تبوك إذ وفد جماعة من بني غنم ابن عوف وطلبوا منه أن يأتيهم ويصلّي في مسجدهم الذي بنوه في حيّهم وقالوا: إنّا بنينا مسجداً لذي العلّة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية وإنّا نحب أن تأتينا فتصلّي فيه لنا وتدعوا بالبركة، فقال لهم: إنّي على جناح سفر ولو قدمنا أتيناكم إن شاءالله.

فلمّا انصرف رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) من تبوك وأراد الصلاة فيه نزلت عليه آية في شأن المسجد وهي:

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِرَاراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَاداً لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُم لَكَاذِبُونَ* لاَ تَقُمْ فِيهِ أَبَداً لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ* أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِى نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ

الظَّالِمِينَ* لاَ يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِى بَنَوْا رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلاَّ أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾(التوبة/ ١٠٧ـ ١١٠).

وفي حقيقة الأمر كان إنشاء هذا البناء لأجل غاية خبيثة وأهداف مستبطنة منها بثّ الفرقة والشقاق بين صفوف المسلمين، ومنها جعل هذا المكان ملجأً لأبي عامر الراهب وهو من أشد محاربي الله ورسوله وكان من قصّته أنّه قد ترهّب في الجاهلية ولبس المسوح، فلمّا قدم النبي(صلّى الله عليه و آله و سلّم) المدينة حسده وحزّب عليه الأحزاب ثم هرب بعد فتح مكّة إلى الطائف فلمّا أسلم أهل الطائف لحق بالشام وخرج إلى الروم وتنصّر وهو أبوحنظلة غسيل الملائكة الذي قتل مع النبي(صلّى الله عليه و آله و سلّم) في واقعة أُحد وكان جنباً فغسّلته الملائكة.

وسمّى رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) أبا عامر: «الفاسق»، وقد كان أرسل إلى المنافقين أن استعدّوا و ابنوا مسجداً فإنّي أذهب إلى قيصر وآتي من عنده بجنود واخرج محمداً(صلّى الله عليه و آله و سلّم) من المدينة، فكان المنافقون يتوقّعون أن يجيئهم أبو عامر، فبنوا هذا المسجد لتلك الغاية.

فلمّا نزلت الآية أمر رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) عاصم بن عوف العجلاني ومالك بن الأخشم بهدم المسجد وتحريقه، وروي أنّه بعث عمّار بن ياسر ووحشي أن يحرقاه وأمر بأن يتّخذ كناسة يلقىٰ فيها الجيف.

وهذه المؤامرة لم تكن الأُولى في تاريخ النبي(صلّى الله عليه و آله و سلّم) فإنّ القوى الكافرة ما برحت تبذل جهودها في البلاد الإسلامية من خلال إنشاء المشاريع الخيرية كالكنائس والمستشفيات وملاجيء الأيتام ومعاهد التربية والتعليم لتأصيل بذور عوامل الإختلاف بين المسلمين، وتضعيف عقائدهم وافسادهم إلى حد تبلغ بهم فيه إلى مسخ شخصيتهم الإسلامية.

وهذا إن دلّ على شيء فإنّه يدل على أنّ المشاريع الخيرية أفضل وسيلة للنفوذ إلى أوساط المسلمين وتنفيذ مآربهم العدائية المحاكة ضدّهم.

وفي الواقع أنّ الخطّة التي تنتهجها القوىٰ الكافرة غالباً للقضاء على الإسلام والمسلمين تكمن في إستغلال الصبغة الدينية التي تدين بها الشعوب الإسلامية لضرب الإسلام والإنسانية باسم الإسلام نفسه وتحت شعارات دينية تنبع من أهدافه في ظاهر أمرها.

وقعة تبوك:

فلمّا انتهى رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) إلى تبوك أتاه صاحب أيله[1] وأهل جرباء وأذرح فأعطوه الجزية، فكتب رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) لهم كتاباً، فأ قام رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) في تبوك بضعة عشر ليلة ولم يجد من العدو فيها أثراً فرجع إلى المدينة قافلاً.

تآمر المنافقين على النبي ﷺ:

روى المفسّرون أنّ اثني عشر رجلاً من المنافقين وقفوا على العقبة ليفتكوا برسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) عند رجوعه من تبوك فأخبر جبرئيل رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) بذلك وأمره أن يرسل إليهم ويضرب وجوه رواحلهم، وعمّار كان يقود دابّة رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) وحذيفة يسوقها، فقال: حذيفة اضرب وجوه رواحلهم فضربها حتى نحّاهم، فلمّا نزل قال لحذيفة:من عرفت من القوم؟ قال: لم أعرف منهم أحداً، فقال رسول الله(صلّى الله عليه و آله وسلّم): إنّه فلان وفلان حتى عدّهم كلّهم ، فقال حذيفة: ألاتبعث إليهم فتقتلهم؟ فقال: أكره أن تقول العرب لمّا ظفر بأصحابه أقبل يقتلهم[2].

روى الواقدي: لمّا كان رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) في بعض

---

(١) مدينة في فلسطين.

(٢) مجمع البيان ج٣ ص٤٦.

الطريق مكر به أُناس من المنافقين وائتمروا أن يطرحوه من عقبة في الطريق، فلمّا بلغ رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) تلك العقبة أرادوا أن يسلكوها معه، فأخبر رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) خبرهم.

فقال للناس: اسلكوا بطن الوادي فإنّه أسهل لكم وأوسع، فسلك الناس بطن الوادي وسلك رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) العقبة وأمر عمّار بن ياسر أن يأخذ بزمام الناقة يقودها وأمر حذيفة بن اليمان يسوق من خلفه، فبينا رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) يسير في العقبة إذ سمع حسيس القوم قد غشّوه، فغضب رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) وأمر حذيفة أن يردّهم، فرجع حذيفة إليهم وقد رأوا غضب رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) فجعل يضرب وجوه رواحلهم بمحجن في يده، وظنّ القوم انّ رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) قد اطّلع على مكرهم فانحطّوا من العقبة مسرعين حتّى خالطوا الناس.

وأقبل حذيفة حتّى أتى رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) فساق به، فلمّا خرج رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) من العقبة نزل الناس فقال النبي(صلّى الله عليه و آله و سلّم): يا حذيفة هل عرفت أحداً من الركب الذين رددتهم؟ قال: يا رسول الله عرفت راحلة فلان وفلان وكان القوم متلثّمين فلم أبصرهم من أجل ظلمة الليل، فنزلت في حقّهم هذه الآية:

﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ اَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِءُوا اِنَّ اللّٰهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ* وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ اِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللّٰهِ وَ آيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُم تَسْتَهْزِؤُنَ﴾(التوبة/ ٦٤ـ٦٥)[1].

(١) المغازي للواقدي ج٣ ص١٠٤٢ـ١٠٤٣.

(١١)

البــراءة من المشركيـن

كان رسول اللـه(صلّى الله عليه و آله و سلّم) لمّـا فتح مكّة لم يمنـع المشركين الحج في تلك السنة، وكانت سنّة العرب في الحج أنّه من دخل مكّة وطاف البيت في ثيابه لم يحـلّ له امساكها، وكانوا يتصـدّقون بها ولا يلبسونها بعد الطـواف، فكان من وافىٰ مكّة يستعير ثوباً ويطوف فيه ثم يردّه، ومـن لم يجد عارية و لاكراءً و لم يكن له إلاّ ثوب واحد طاف بالبيت عرياناً.

فجاءت امرأة من العـرب حسناء جميلة فطلبت ثوباً عاريـة أو كراءً فلم تجده، فقالـوا لها: إن طفت فـي ثيابك احتجـت أن تتصدّقي بهـا، فقالت: كيـف أتصدّق وليس لي غيرها؟ فطـافت بالبيت عريانة، وأشرف لها الناس، فـوضعت احدى يديها على قبلها والأُخرى على دبرها، وقالت شعراً:

اليوم يبدو بعضه أو كلّه   فمـا بـدا منـه فـلا أحـلّه

فلما فرغت من الطواف، خطبها جماعـة، فقالت: إنّ لي زوجاً. وكانت سيرة رسول اللـه(صلّى الله عليـه و آله و سلّـم) قبل نـزول سورة البـراءة أن لا يقاتـل إلاّ من قاتله، ولا يحارب إلاّ من حاربه وأراده، فكان رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) لايقاتل أحداً قد تنحّىٰ عنه واعتزله حتى نزلت عليه سورة البراءة، وأمره بقتل المشركين من اعتزله ومن لم يعتزله إلاّ الذين قد عاهدهم رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) يـوم فتح مكّـة إلـى مدة، منهـم: صفوان بـن أُميّـة وسهيل بـن عمـرو، فقال الله عـزّ وجلّ: ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّـهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَـاهَدتُّم مِنَ الْمُشْرِكِيـنَ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ ثمّ يقتلون حيثما وجدوا بعد.

هذه أشهر السياحـة: عشرون من ذي الحجة ومحرّم وصفـر وشهر ربيع الأوّل وعشراً من ربيع الآخر.

فلمّا نزلت الآيات من سورة البراءة دفعها رسول الله(صلّى الله عليه و آله وسلّم) إلى أبي بكر وأمره أن يخرج إلى مكّة ويقرأهـا على الناس بمنى يوم النحر، فلمّا خرج أبوبكر نزل جبـرئيل على رسول اللـه(صلّى الله عليـه و آله و سلّـم) فقال: يـا محمّد لايؤدّي عنك إلاّ أنت أو رجل منك.

فبعث رسول الله(صلّـى الله عليه و آله و سلّم) أميرالمؤمنيـن(عليه السلام) في طلب أبي بكر، فلحقه بـالروحاء وأخذ منه الآيات فرجع أبوبكـر إلى رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) فقال: يا رسول الله أنزل الله فيّ شيئاً؟ فقال: لا إنّ الله أمرني أن لا يؤدّي عني إلاّ أنا أو رجل منّي[1].

هذا مجمل مـاروته الشيعة حول حادثـة نزول السورة وهو بنفسه جـاء في كتب أهل السنّة في مصادر جمّة من حديث وتفسير، و من أراد التفصيل فليرجع إلى تفسير الطبري والسيوطي في تفسير الآية، ولكن لإلقاء المزيد من الضوء على تلك الحادثة نبحث عن أُمور:

١ـ لما ذا لم يحجّ النبي ﷺ بنفسه في هذا العام؟

روى المفسّرون أنّه أقبل رسول الله(صلّى الله عليـه و آله و سلّم) من تبوك فأراد الحج، فقيل له: إنّه يحضر المشركون فيطوفون عـراة، فقال: لا أحبّ أن أحجّ حتّى لا يكون ذلك[2].

ويؤيّد ذلك قصة المرأة التي طافت بالبيت الحرام عريانة كما عرفت.

(١) تفسير القمي: ج١ ص٢٨١ـ٢٨٢.

(٢) تفسير الطبري، ج١١ ص٤٤.

٢ـ اختلفت الرواية في عدد الآيات التي بعث النبي(صلّى الله عليه وآله وسلّم) عليّاً(عليه السلام) بها ليقرأها يوم الحجّ الأكبر على المشركين ويرفع الأمان عنهم.

فقد روىٰ الطبري عن محمد بن كعب القرظي وغيره قالوا:

بعث رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) أبابكر أميراً على الموسم سنة تسع وبعث علي بن أبي طالب(رضي الله عنه) بثلاثين أو أربعين آية من سورة براءة فقرأها على الناس يؤجّل المشركين أربعة أشهر يسيحون في الأرض، فقرأ عليهم براءة يوم عرفة أجّل المشركين عشرين من ذى الحجة والمحرّم وصفر وشهر ربيع الأوّل وعشراً من ربيع الآخر[1].

وروى السيوطي في الدر المنثور قال: أخرج عبدالله بن أحمد بن حنبل في زوائد السند وأبو الشيخ وابن مردويه عن علي(رضي الله عنه) قال: لمّا نزلت عشر آيات من براءة على النبي(صلّى الله عليه و آله و سلّم) دعا أبابكر ليقرأها على أهل مكّة ثمّ دعاني فقال لي: أدرك أبابكر فحيث ما لقيته فخذ الكتاب منه[2].

روى البحراني في تفسيره عن مصادر وثيقة، روايات تنتهي إلى أبي هريرة وأنس وأبي رافع وزيد بن نفيع وابن عمر و ابن عباس ـ واللّفظ للأخير: إنّه لمّا نزل ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ إلى تسع آيات أنفذ النبي أبابكر إلى مكّة لأدائها، فنزل جبرئيل وقال: إنّه لا يؤدّيها إلاّ أنت أو رجل منك، فقال النبي لعلي: إركب ناقتي العضباء و إلحق أبابكر وخذ براءة منه[3].

والرواية الثانية والثالثة أوفق بمضمون الآيات وما يمس بالقضية لا يتجاوز الآية العاشرة وربّما تزيد قليلاً، مضافاً إلى أنّ الرواية الأُولى فيها من الشذوذ ما لا يخفى، وسيوافيك أنّ عليّاً(عليه السلام) قد قرأ يوم النحر لا يوم عرفة وأنّه رفع الأمان عن

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) الدر المنثور: ج١٠ ص١٢٢.

(٣) تفسير البرهان ج٢ ص١٠٥.

المشركين منذ يوم التلاوة وكان يوم العاشر من ذي الحجة لا العشرين منه.

وإليك الآيات العشر الواردة في شأن تلك القصة نسوقها إليك لتقف عن كثب على مضمونها وما ورد فيها حول تلك الحادثة:

قال عزّ من قائل: ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ* فَسِيحُوا فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ* وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ* إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ* فَإِذَا انْسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ* وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَعْلَمُونَ* كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ* كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لاَيَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلاًّ وَلاَذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ* اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ* لاَيَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلاَذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾(براءة/ ١ـ١٠).

٣ـ لماذا عزل النبيﷺ أبابكر عن مهمّة التبليغ:

قد تضافرت النصوص على أنّه لمّا نزلت عشر آيات من أوّل سورة براءة دعا النبي(صلّى الله عليه و آله و سلّم) أبابكر ليقرأها على أهل مكّة ثم دعا عليّاً(عليه السلام) فقال له: أدرك أبابكر فحيثما لقيته فخذ الكتاب منه فا ذهب به إلى أهل مكّة فاقرأه عليهم، فخرج علي(عليه السلام) من المدينة فلحق أبابكر في الجحفة وأخذ

الكتاب منه، ورجع أبوبكر إلى المدينة مستاءً فقال للنبي(صلّى الله عليه و آله و سلّم): أنزل فيّ شيء؟ قال: لا، ولكن جبرئيل جاءني فقال: لن يؤدّي عنك إلاّ أنت أو رجل منك[1].

وهناك صور أُخرى للحديث يقرب بعضها من بعض ويتّحد الكل في إفادة معنى واحد لمضمون القصّة.

قال البغوي في تفسيره: لمّا كانت سنة تسع وأراد رسول الله(صلّى الله عليه وآله و سلّم) أن يحج قيل له: إنّه يحضر المشركون فيطوفون عراة، فبعث أبابكر تلك السنة أميراً على الموسم ليقيم للناس الحج وبعث معه أربعين آية من صدر براءة ليقرأها على أهل الموسم، ثم بعث بعده علياً(كرم الله وجهه) على ناقته العضباء ليقرأ على الناس صدر براءة وأمره أن يؤذّن بمكّة ومنىٰ وعرفة: أن قد برئت ذمة الله وذمّة رسوله من كلّ مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان. فرجع أبوبكر فقال: يا رسول الله بأبي أنت وأُمّي أنزل في شأني شيء؟ قال: لا، ولكن لا ينبغي لأحد أن يبلّغ هذا إلاّ رجل من أهلي[2].

وعند الرجوع إلى طرق وأسانيد هذه القصة في المجامع الحديثية والتفسيرية المهمّة يظهر بجلاء وجود تواتر معنوي أو إجمالي لوقوع القصة أعني استرداد الآيات من أبي بكر وتشريف أميرالمؤمنين بتبليغها ونزول الوحي المبيّن بأنه لا يبلّغ عنه إلاّ هو أو رجل من أهل بيته وإن اشتملت القصة على بعض الخصوصيّات التي تفرّد بها بعض الطرق والمتون[3].

---

(١) الدر المنثور ج٣، ص٢٠٩، كنز العمال ج١ ص٢٤٧، تاريخ ابن كثير ج٥ ص٣٨.

(٢) تفسير البغوي: ج٢ ص٢٦٧.

(٣) و قد جمع العلاّمة الأميني كافة صور الحديث بطرقه المختلفة المسندة منها و المرسلة في موسوعته الثمينة الغدير و نقله عن ثلاثة و سبعين محدّثاً و مفسّراً و مؤرّخاً لاحظ ج٦ ص٣٣٨ـ٣٥٠.

وإلى تلك الفضيلة يشير شمس الدين المالكي(ت٧٨٠هـ) في قصيدته:

وإنّ عليّاً كان سيف رسوله وصاحبه السامي لمجد مشيّد

إلى أن قال:

وأرسله عنه الرسول مبلّغاً وخصّ بهذا الأمر تخصيص مفرد

وقال هل التبليغ عنّي ينبغي لمن ليس عن بيتي من القوم فاقتد[1]

وحينئذ يأتي الكلام على الوازع الذي دفع الوحي الإلهي إلى عزل أبي بكر وتنصيب عليّ(عليه السلام) مكانه فقد ذكرت في المقام وجوه نشير إليها:

١ـ ما ذكره الآلوسي في روح المعاني بقوله: ليس في شيء من الروايات ما يدلّ على أنّ عليّاً(عليه السلام) هو الخليفة بعد رسول الله دون أبي بكر، وقوله: «لا يبلّغ عنّي غيري أو رجل منّي» سواء كان بوحي أو جار على عادة العرب أن لا يتولّى تقرير العهد ونقضه إلاّ رجل من الأقارب لتنقطع الحجّة بالكلّية[2].

ويؤاخذ عليه:

أوّلاً: بأنّ النبي الأكرم(صلّى الله عليه و آله و سلّم) برّر عزل أبي بكر بأنّه نزل جبرئيل على «أنّه لا يؤدّي عنك إلاّ أنت أو رجل منك» ولو كانت لما ذكره القائل مسحة من الحق لكان على النبي(صلّى الله عليه و آله و سلّم) أن يقول السنّة الجارية عند العرب هي أن لا ينقض العهد إلاّ عاقده أو رجل من أهل بيته، مع إنّا نرى أنّ النبي(صلّى الله عليه و آله و سلّم) لم يذكره أبداً.

وثانياً: إنّ ابن كثير لم يذكر لتلك السنّة العربية مصدراً ولا خبراً عنها في أيّامهم ومغازيهم، ولو صحّت السنّة لكانت سنّة عربيّة جاهليّة فما وزنها في الإسلام؟ وما

---

(١) نفح الطيب ج٤ ص٦٠٣.

(٢) روح المعاني: ج١٠ ص٤٥، و قد أخذه عن تفسير ابن كثير، ج٢، ص٣٣١.

هي قيمتها عند النبي؟ وهو(صلّى الله عليه و آله و سلّم) كان ينسخ كل يوم سنّة جاهليّة وينقض كل حين عادة قوميّة، وقد قال يوم فتح مكّة: «ألا إنّ كلّ مأثرة أو دم أو مال يدّعى فهو تحت قدمي هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحاج»[1].

وثالثاً: لو افترضنا أنّ هذه السنّة كانت سنّة عربيّة محمودة فهل كان رسول الله ذاهلاً عنها وناسياً لها حين سلّم الآيات بيد أبي بكر وأرسله وخرج إلى طريق مكّة؟ فعند ما كان في بعض الطريق ذكر النبي(صلّى الله عليه و آله و سلّم) ما نسيه أو ذكّره بعض من كان عنده بما أهمله وذهل عن أمر كان الواجب مراعاته، مع أنّ هذه السنّة لو كانت رائجة لما كان للنبي ولمن حوله أن يغفلوا عنها ثم يتذكّروها، فهل الذهول عنها إلاّ كذهول المقاتل عن سلاحه والحارس عن حربته؟

ورابعاً: إنّ عليّاً(عليه السلام) لم يبعث لمجرّد نقض العهد وحده، وإنّما بلّغ أحكاماً لم تكن داخلة في ضمن العهد، فقال: «يا أيّها الناس لا يحجّ بعد هذا العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان ومن كان له عند رسول الله عهد فهو له إلى مدّته ... الخ»[2].

وبالجملة فلم تكن رسالة الإمام علي(عليه السلام) مقصورة على مجرّد تلاوة طائفة من سورة براءة بل تعدّت إلى تبليغ أحكام قرآنية أُخرى نزل بها جبرئيل عن الله سبحانه على رسوله حيث اخبر فيها بأنّه«لا يؤدّي عنك إلاّ أنت أو رجل منك».

هذا هو التبرير الذي إرتآه ابن كثير وجنح إليه الآلوسي في تفسيره.

وهناك زمزمة أُخرى تفوّه بها صاحب المنار واستحسنها شلتوت في تفسيره حيث قال الأوّل: «إنّ الصدّيق كان مظهراً لصفة الرحمة والجمال وكان عليّ أسد الله ومظهر جلاله، ولأجل ذلك فوّض إليه نقض عهد الكافرين الذي هو من آثار الجلال وصفات القهر، فكان هناك عينين فوّارتين يفور من أحدهما صفة الجمال ومن

---

(1) السيرة النبوية لابن هشام ج٢ ص٤١٢.

(2) السيرة النبوية لابن هشام ج٢ ص٥٤٦.

الأُخرى صفـة الجلال في ذلك المجمـع العظيم الذي كـان انموذجاً للحشـر وموردا للمسلم والكافر»[1].

وصـاحـب المنـار عنـدمـا ينقلـه عـن بعـض أهـل السنّـة يعـود فينتقـده بقولـه: «ولايخفى حسنه لـو لم يكن فـي البين تعليـل النبي فإنّـه علّل تبليغ علـي نبذ العهود عنه بكونه مـن أهل بيته وهو ينافي أن تكون النكتة المذكـورة علّة، فهو لا يأبىٰ أن تكون حكمة».

وصاحب المنـار وإن أتى ببعض الحق ولكـن غفل عن البعض الآخـر وهو إنّ أهل بيت النبي(صلّى الله عليه و آله و سلّم) لم يكونوا منحصرين في عليّ وحده، بل كانـوا عدّة كثيـرة كعمّه العبـاس وأبناء أبي طـالب كطـالب وعقيـل وغيرهـم، فلماذا ـ ياترى ـ اختار عليّاً وحده من دونهم؟

والحق أن يقال: إنّ عـزل أبابكر ونصب عليّ مكـانه لم يكن إلاّ لأمـر سياسى وديني يتلخّص في الأمر التالي:

وهـو إنّ نقض وإبـرام المواثيـق والعهود مـن الأُمور الحكـومية التـي يمارسهـا الحاكم المدني أو الشرعي ولا يحق لغيره التـدخّل فيها، فالنبي الأكرم نوّه بعمله هذا إلى أنّ الإنسـان اللائق بهذه المهام فـي حياته ـ وبطـريق أولى بعـد وفاته ـ هـو علي بلا منازع، الذي هو منه[2]فهو الـلائق والمسؤول بحكم النيـابة عن النبـي(صلّى الله عليه و آله و سلّم) للتصـدّي لشؤون الخلافة والحكومة و لايختصّ شـأن علي بالأُمور السياسيـة وحده بـل هو المبلّغ لأحكـام شرعيّـة لم يبلّغه النبـي(صلّى الله عليـه و آله و سلّم) لأجل ظروف قاسية فهو الزعيم للأُمة في الأُمور السياسية و الشرعية.

ومن العجـب العجاب مـايرى مـن تساهـل الرواة والمـؤرّخون فـي نقل هـذه الفضيلة، ونسوق إليك بعض الصور المختلفة لهذه القصّة في كتب الحديث:

---

(١) تفسير المنار ج١٠ ص١٩٣، تفسير القرآن المجيد للشيخ محمود شلتوت ص٦١٥.

(٢) نظير ذلك ما ورد في آية المباهلة حيث قال سبحانه: ﴿تَعَالَوا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَ أَبْنَاءَكُمْ وَ نِسَاءَنَا وَ نِسَاءَكُمْ وَ أَنفُسَنَا وَ أَنفُسَكُمْ... ﴾(آل عمران/ ٦١).

١ ـ ما يحكى انّ عليّاً اختصّ بتأدية براءة و أُخرى تدلّ على أنّ أبابكر شاركه فيه، و أُخرى تدلّ على أنّ أبا هريرة شاركه في التأدية، و رجال آخرون لم يسمّوا في الروايات.

٢ ـ ما يدل على أنّ الآيات كانت تسع آيات، و أُخرى عشراً، و أُخرى ستّة عشر، و أُخرى ثلاثين، و أُخرى ثلاثاً و ثلاثين، و أُخرى سبعاً و ثلاثين، و أُخرى أربعين، و أُخرى سورة براءة.

٣ ـ ما يدلّ على أنّ أبابكر ذهب لوجهه أميراً على الحاج، و أُخرى على أنّه رجع و أوّله بعضهم كابن كثير إنّه رجع بعد إتمام الحج، و آخرون انّه رجع ليسأل النبي(صلّى الله عليه و آله و سلّم) عن سبب عزله، و في رواية أنس انّه(صلّى الله عليه و آله و سلّم) بعث أبابكر ببراءة ثمّ دعاه فأخذها منه.

٤ ـ ما يدل على أنّ الحجّة وقعت في ذي الحجّة و إنّ يوم الحجّ الأكبر تمام أيّام تلك الحجّة أو يوم عرفة أو يوم النحر أو اليوم التالي ليوم النحر أو غير ذلك، و أُخرى إنّ أبابكر حجّ في تلك السنة في ذي القعدة.

٥ ـ ما يدل على أنّ أشهر السياحة تأخذ من شوال، و أُخرى من ذي القعدة و أُخرى من عاشر ذي الحجّة، و أُخرى من الحادي عشر من ذي الحجّة وغير ذلك.

٦ ـ ما يدل على أنّ الأشهر الحرم هي ذو القعدة و ذو الحجّة و المحرّم من تلك السنة، و أُخرى على أنّها أشهر السياحة تبتدئ من يوم التبليغ أو يوم النزول[٢].

٤ـ مبدأ أمد الهدنة:

إنّ الله سبحانه و رسوله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) قد رفعا الأمان عن المشركين الناقضين للعهود إلاّ إنّه تمّ إمهالهم مدّة أربعة أشهر و حيث قال سبحانه:

---

(١) الميزان: ج٩ ص١٧٥، و لاحظ تفسير الطبري ج٩ ص٤٢.

﴿فَسِيحُوا فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَ اعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللهِ وَ أَنَّ اللهَ مُخْزِي الكَافِرِينَ* وَ أَذَانٌ مِنَ اللهِ وَ رَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللهَ بَرِيءٌ مِنَ المُشْرِكِينَ وَ رَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾(براءة/ ٢و٣).

و أمّا مبدأ هذه الهدنة هو يوم الحجّ الأكبر الذي هو يوم الإبلاغ و الإنذار.

و الأوفق بسماحة الإسلام أن يبتدأ أمدها من حين الإعلان و الإنذار لا من حين إنشاء الحكم الذي ربّما يتقدّم على إعلامه.

فإذا فرضنا أنّ يوم الحجّ الأكبر هو يوم النحر العاشر من ذى الحجّة كان آخر الأمد هو العاشر من ربيع الآخر.

وأمّا من جعل مبدأ الإنذار يوم العشرين من ذى القعدة فعليه تنتهي الهدنة بمرور عشرين يوماً من ربيع الأول يتوقف.

وعند ذلك يتوجّه سؤال وهو: أنّه إذا كان نهاية الأمد هو العاشر أو العشرين من ربيع الآخر فكان يجب على المسلمين الصبر حتّى ينتهي ذلك الأمر مع أنّه سبحانه يأمر بقتلهم عند انسلاخ الأشهر الحرم أي في نهاية محرّم الحرام و إطلالة شهر صفر، قال سبحانه:

﴿فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الحُرُمُ فَاقْتُلُوا المُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (براءة/ ٥).

والجواب عن ذلك: إنّ المراد من الأشهر الحرم هي الأشهر الأربعة الواردة في الآية المتقدّمة التي حرّم الله سبحانه قتال المشركين فيها وتبتدئ من يوم النحر وتنتهي في يوم العاشر من ربيع الآخر، واللام في الأشهر الحرم للعهد الذكري إشارة إلى الأربعة المذكورة في الآية المتقدّمة، وليس المراد منه الأشهر الحرم المعروفة التي حرّم فيها الحرب في الإسلام وما قبله بل تمتد جذوره إلى عهد الأنبياء السالفين لأنّه

سبحانه يعد التمسّك بحرمة الحرب فيها جزءاً من الدين القيّم ويقول:

﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلاَ تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾(التوبة/ ٣٦).

وبذلك يظهر ضعف سائر الأجوبة التي ذكرت في المقام فلا نطيل بذكرها.

٥ـ ما هي الوثيقة التي بلّغها أميرالمؤمنين(عليه السلام) بعد تلاوة الآيات:

لقد اختلفت الروايات في بيان صورة النصّ الذي تضمّن الإنذار السماوي في هذه الحادثة وإليك صوره المختلفة:

أ ـ أن لا يدخل مكّة مشرك بعد عامه هذا، ولا يطوف بالكعبة عريان ولا تدخل الجنّة إلاّ نفس مسلمة، ومن كان بينه وبين رسول الله عهد فعهده إلى مدّته، وفي بعض النصوص مكان مكّة لا يقرب المسجد الحرام مشرك.

ب ـ لاتدخل الجنّة إلاّ نفس مسلمة، ولا يحجّ بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان بينه... الخ.

ج ـ لايقرب البيت بعد العام مشرك، ولايطوف بالبيت عريان، ولاتدخل الجنّة إلاّنفس مسلمة، وأن يتم كل ذي عهد عهده[1] ولكن بيان حصر استحقاق الجنّة في المسلم لم يكن شيئاً جديداً لم يعهد في صدر الرسالة، فعدّ ذلك في سياق الوثيقة لايخلو من غرابة وغموض.

٦ـ لماذا دفع الله سبحانه الأمان عن المشركين؟

هذا هو السؤال الأكثر أهمّية في تفسير آيات هذه السورة وذلك إنّ الدعوة

---

(١) لاحظ تفسير الطبري ج٩ ص٤٦ـ٤٧.

المحمدية كانت مبنيّة على أساس البراهين العقليّة والعلميّة كما كانت مبنيّة على رفع الإكراه في الدين.

قال سبحانه: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِى الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَيِّ﴾(البقرة/ ٢٥٦).

مع إنّا نجد في هذه الآيات ما يعلن صريحاً مجابهة المشركين بلاهوادة ويخيّرهم بين طريقين لا ثالث لهما إمّا العزوف عن الشرك والدخول تحت لواء التوحيد وإمّا ترقّب الحرب بعد انقضاء أربعة أشهر من تاريخ بدء إعلان البراءة في قوله سبحانه: ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِنَ المُشْرِكِينَ﴾.

وهذا هو الذي أثار تساؤل الكثير من المحقّقين والباحثين في العصور المتأخّرة ويمكن الجواب عنه بأحد وجهين:

١ـ إنّ البراءة كانت مختصّة بالمشركين الذين كان لهم مع رسول الله عهد، ولكنّهم غدروا وخانوا ونقضوه. فلأجل ذلك لم يكن بد من رفض العهد المنقوض من جانبهم، وكانوا في كل زمن على أهبة الهجوم على المسلمين فلا يصحّ لقائد الإسلام السكوت وتركهم حتى يتآمروا على الإسلام والمسلمين وإليك تفصيل ذلك:

إنّ هذه الآيات ترفع الأمان عن الذين عاهدوهم من المشركين لأجل أنّهم لاوثوق بعهدهم بشهادة أنّهم لم يراعوا حرمة العهد ونقضوا ميثاقهم وقد أباح سبحانه في تلك الفتره إبطال العهد بالمقابل نقضاً بنقض قال سبحانه:

﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الخَائِنِينَ﴾(الأنفال/ ٥٨).

فأباح إبطال العهد عند مخافة الخيانة ولم يرض مع ذلك إلاّ إبلاغ النقض إليهم لئلاّ يؤخذوا عن غفلة من أمرهم فيكون ذلك من الخيانة.

والدليل على أنّ ذلك الرفع لم يكن جزافاً هو أنّ الآيات استثنت المتثبين على العهد وقالت: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ مِنَ المُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ المُتَّقِينَ﴾(التوبة/ ٤).

وقال أيضاً: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾(التوبة/ ٧).

والآيات تصرّح بأنّ استسلامهم أمام قدرة المسلمين إنّما كان لما يعانونه من ضعف وذلّة، فلو سنحت لهم الأقدار وامتلكوا العدد والعدّة لعاودوا الهجوم على المسلمين وأبادوهم عن بكرة أبيهم وفي ذلك يقول سبحانه: ﴿كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لاَيَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلاًّ وَلاذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾(التوبة/ ٨).

وقال سبحانه في موضع آخر: ﴿أَلاَ تُقَاتِلُونَ قَوْماً نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَؤُكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾(التوبة/ ١٣).

فكل هذه الآيات التي تلوناها عليك وما لم نتلوه صريح في أنّ رفع الأمان كان مختصّاً بلفيف من المشركين الذين كان بينهم وبين الرسول عهد وميثاق ولكنّهم قد نقضوا تلك العهود والمواثيق فحقّت عليهم كلمة العذاب وباءوا بغضب من الله تعالى على غضب.

وأمّا الذين التزموا بمواثيقهم أو لم يكن بينهم وبين الرسول أي ميثاق وعهد وما كان يخشى منهم الخيانةوالغدر والقتال للمسلمين فهؤلاء لاتشملهم هذه الآيات.

وأمّا ما هو واجب القائد الإسلامي أمام الطائفة الأُولى بعد انتهاء عهدهم أو ماهي وظيفته أمام الطائفة الثانية منهما ـ أعني من ليس له عهد بينه وبين القيادة الإسلامية ولا يتوقّع منه أيّة خيانة ـ فتفصيله وبيانه موكول إلى القسم السياسي من الفقه الإسلامي. وسنبيّن حكمه في البحث الآتي.

ثمّ إنّ في هذه الآيات دلالة صريحة على أنّ الإسلام كان يكنّ للمشركين بما فيهم الناقضون للعهود،الشفقة والرحمة بأبعادهما المختلفة، نسوق إليك نموذجين منها:

أ ـ إنّه إذا استجار المشرك لينظر فيما تندب إليه الدعوة الحقّة ويتبعها أن اتضحت له، كان من الواجب إجارته حتّى يسمع كلام الله ويرفع عن بصيرته غشاوة الجهل، وفي ذلك يقول سبحانه: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (براءة/ ٦).

وما ذلك إلاّ لأنّ صرح الدعوة الإسلامية يعتمد على ركيزة تهدف إلى انتشال الناس عن الغي والضلال والانحراف والفساد، ولازم ذلك بذل العناية المكثّفة في سبيل الوصول إلى هذه الغاية المنشودة و إن ضعف احتمال التأثير وقلّة نسبته.

ب ـ إنّ المشرك المتحرّف عن العهود والمواثيق لو أظهر التوبة والندامة وشهد على توبته قيامه بالفرائض الدينية كالصلاة والزكاة تقبل توبته ويعد في عداد المسلمين فيشمله من الحقوق ماللمسلمين، قال سبحانه: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾(التوبة/ ١١).

هذا ما يرجع إلى توضيح هذه الآيات و بيان الأسرار التي تضمّنتها.

٢ـ نحن نفترض انّ البراءة كانت عامّة لجميع المشركين الذين يعيشون في ظل الحكومة الإسلامية وانّها لا تعترف بعد نزول هذه الآيات بدين الشرك أبداً، وإنّما تعترف بالشرائع الإلهية الإبراهيمية. وتصوّر أنّ ذلك لا يجتمع مع حريّة الإنسان في عقيدته وفكره، فكر خاطئ يظهر من البحث الآتي الذي عقدناه لبيان الجهاد الإبتدائي، جهاد دفاعي في الحقيقة وهو مع صلته بالموضوع بحث قرآني مستقل.

الجهاد الإبتدائي، جهاد دفاعي في الحقيقة

إنّ البحث عن آيات الجهاد وإن كان يحتاج إلى تأليف رسالة مفصّلة تبحث عن هذه الآيات، وتبيّن خصوصيّاتها ونكاتها غير اننّا إستكمالاً لما ذكرناه نقف عندها وقفة قصيرة حتّى يتّضح هدف الآيات، فنقول:

إنّ الآيات الواردة حول الجهاد وما يرتبط بها من قريب أو بعيد تنقسم إلى

طوائف خمس لابدّ لكل مفسّر أن يلاحظ مجموعها قبل إتّخاذ الموقف، وتفسيرها، وإظهار الرأى فيها.

وإليك هذه الطوائف:

الأُولى: الآيات المطلقة التي تدعو إلى مطلق النضال والقتال، دون أن تقيّد ذلك بقيد، كقوله سبحانه:

﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلاَ بِاليَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ﴾(التوبة/ ٢٩).

وقوله سبحانه:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الكُفَّارَ وَالمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ المَصِيرُ﴾(التوبة/ ٧٣).

فالآية الأُولى تدعو إلى مطلق النضال مع أهل الكتاب، والثانية تدعو إلى مطلق النضال مع الكفّار والمنافقين دون أن تقيّد مقاتلة هذه الطوائف والجماعات بقيد، وتعلّق الأمر بشيء مطلق يوجب مقاتلتهم كذلك. سواء كانوا مقاتلين للمسلمين أم لا، وسواء عارضوا الإسلام أم لا.

الثانية: الآيات التي تقيّد مقاتلة المشركين بقيد وهو قتال المسلمين والعدوان عليهم، كقوله سبحانه:

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُم وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ المُعْتَدِينَ﴾(البقرة/ ١٩٠).

فالقتال ـ حسب هذه الآية ـ يجب إذا تعرّض المسلمون لعدوان الكفّار والمشركين، ولا يجب قتالهم إذا لم يكونوا مقاتلين.

وربّما قيّد القتال بقيد آخر وهو تهيّؤ العدو لنقض العهد، وهو بمعنى التعرّض لقتال المسلمين وبمثابة العدوان، فلأجل ذلك يجب على المسلمين مقاتلتهم ومحاربتهم. يقول سبحانه ـ بعد أمره بقتال المشركين في مطلع سورة التوبة ـ:

﴿كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لاَ يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلاًّ وَلاذِمَّةً﴾(التوبة/ ٨).

ويقول سبحانه:

﴿لاَ يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾(التوبة/ ١٠).

ويقول سبحانه:

﴿وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِى دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الكُفْرِ إِنَّهُمْ لاَ أَيْمَانَ لَهُمْ﴾(التوبة/ ١٢).

إلى غير ذلك من الآيات التي توجب مقاتلة المشركين لنقضهم العهود المعقودة بينهم و بين المسلمين لأنّ نقض العهد بمثابة إعلان الحرب، و إرادة العدوان.

إنّ ملاحظة هذه الآيات تفيد أنّ القتال لم يشرع على الإطلاق بل لأجل سبب، و هو إرادة قتال المسلمين و العدوان عليهم، أمّا بصورة مباشرة و أمّا عن طريق نقض عهود المسالمة، و الصلح الذي لايعني إلاّ إرادة القتال فيكون القتال هنا من باب الدفاع عن النفس.

و من هنا تكون هذه الآيات مقيّدة لإطلاق الطائفة الأُولى.

و من المعلوم أنّ المطلق يحمل على المقيّد و يؤخذ بكليهما حسب ما هو المقرّر في علم«أُصول الفقه».

الثالثة: الآيات التي تدعو إلى إنقاذ المستضعفين و نجدة المظلومين و إخراجهم من ظلم الحكّام الجائرين، و دفع الضيم عنهم.

و هذا هو أيضاً نوع آخر من الدفاع ... إذ هو دفاع عن الغير...

و المعتدى عليه ليس الإنسان نفسه، أو شعبه، بل هو شعب آخر مضطهد و لايلزم أن يكون الاعتداء متوجّهاً إلى الإنسان: شخصه أو شخصيّته، أو قومه بل يكفي أن يكون الإعتداء على الإنسان بما هو إنسان، فعندئذٍ يجب في منطق العقل الدفاع عن حقوق الإنسان، لاعن حقوق الشخص و ما يرتبط به فقط، بل يكون

الدفاع عن حقوق الإنسان غير المرتبط بالمقاتل من أفضل أنواع الجهاد و الدفاع، فإنّ ذلك إيثار و بذل للدم في سبيل حياة الآخرين، و أيّ عمل أقدس من هذا.
و لأجل ذلك نرى أنّ الله سبحانه يفرض على المسلمين إغاثة المضطهدين و يقول:

﴿وَ مَا لَكُمْ لاَتُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَ النِّسَاءِ وَالوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخرِجْنَا مِنْ هـذِهِ القَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَ اجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً وَ اجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيراً﴾(النساء/ ٧٥).

الرابعة: الآيات التي تدلّ على عدم الإكراه في الدين، لأنّ الدين عقيدة والعقيدة لاتوجد بالإكراه كقوله سبحانه:

﴿لاَإِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾(البقرة/ ٢٥٦).

قيل إنّها نزلت في رجل من الأنصار يدعى أبا الحصين كان له ابنان فقدم تجّار الشام إلى المدينة يحملون الزيت، فلمّا أرادوا الرجوع من المدينة أتاهم ابنا أبي الحصين فدعوهما إلى النصرانية فتنصّرا و مضيا إلى الشام، فأخبر أبو الحصين رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) فأنزل الله تعالى: ﴿لاإكراه في الدين﴾ فقال رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم): أبعدهما الله هما أوّل من كفر، فوجد أبو الحصين في نفسه على النبي(صلّى الله عليه و آله و سلّم) حين لم يبعث في طلبهما، فأنزل الله: ﴿فَلاَ وَ رَبِّكَ لاَيُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ...﴾(النساء/ ٦٥).

و قيل: كانت امرأة من الأنصار تكون مقلاتاً[١] فترضع أولاد اليهود، فجاء الإسلام و فيهم جماعة منهم فلمّا أُجليت بنو النضير إذا فيهم أُناس من الأنصار فقالوا: يا رسول الله، أبنائنا و اخواننا فنزلت: ﴿لا إكراه في الدين﴾ فقال:

«خيّروا أصحابكم فإن اختاروكم فهم منكم و إن اختاروهم فأجّلوهم»[٢].

---

(١) المقلات: التي لايعيش لها ولد.

(٢) مجمع البيان ج٢ ص٣٦٣_٣٦٤.

و كقوله سبحانه:

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَ الْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَ جَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾(النحل/ ١٢٥).

و قوله سبحانه:

﴿وَ قُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَ مَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾(الكهف/ ٢٩).

و قوله سبحانه:

﴿وَ لَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَنْ فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾(يونس/ ٩٩).

و قوله سبحانه:

﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ* إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾(الشعراء/ ٣و٤).

إلى غير ذلك من الآيات الكاشفة عن حرّيةالإعتقاد.

الخامسة: الآيات الداعية إلى الصلح و التعايش السلمي كقوله سبحانه:

﴿وَ الصُّلْحُ خَيْرٌ﴾(النساء/ ١٢٨).

و قوله سبحانه:

﴿وَ إِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾(الأنفال/ ٦١).

و قوله سبحانه:

﴿فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَ أَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً﴾(النساء/ ٩٠).

و من المعلوم أنّ الصلح المذكور في الآية الأُولى هو التعايش السلمي و ليس الإستسلام و التسليم للظلم و العدوان.

إنّ للملاحظ و المتتبّع لهذه الآيات التي تدور حول الجهاد و القتال من قريب

أو بعيد أن يتساءل:

إذا كان الإسلام ينشد الصلح و التعايش السلمي مع الطوائف و أهل الملل الأُخرى، كما تشهد بذلك الطائفة الخامسة، و إذا كان الإسلام يحترم العقيدة الأُخرى، و يمنع من إكراه أحد على تقبّل الإسلام و اعتناقه كما تشهد على ذلك الطائفة الرابعة ... فكيف يمكن تفسير الآيات الحاثّة على القتال و المحاربة؟

إنّ ملاحظة مجموع الآيات من الطوائف الخمسة تهدينا إلى الجواب الصحيح.

فإنّ القتال ـ بملاحظة الطائفة الثانية و الثالثة ـ إنّما شرع لأجل الدفاع، و هذا الدفاع ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

١ ـ الدفاع عن النفس فرداً أو شعباً.

٢ ـ الدفاع عن الغير (أي المستضعفين و المضطهدين) فرداً أو شعباً أيضاً.

٣ ـ الدفاع عن القيم الإنسانيّة، و هو يتحقّق بالجهاد ضد الحاكم المستبد المانع عن نفوذ الدعوة الإسلامية.

توضيحه: إذا كان الحاكم مستبدّاً مانعاً عن نفوذ دعوة الأنبياء و الأولياء و ملهيّاً لشعبه عن التوجّه إلى القيم الرفيعة التي جاء بها الأنبياء، و دافعاً لهم نحو العقائد الخرافية التي تعتبر سدّاً أمام السعادة الإنسانية، فعند ذلك يجب النضال ضد هذا الحاكم و نظامه لأمرين:

١ ـ إنّ الحاكم المستبد ظالم في نظامه، و معتد على حقوق الشعب حيث سلب عنهم الحقوق الطبيعية و هي الحرّية في الدعوة و الاستماع إليها، فعند ذلك يكون القتال معه قتالاً مع الظالم المعتدي.

٢ ـ إنّ الدفاع عن النفس و المال و الشعب و ما يرتبط به يعدّ جميلاً عند شعوب العالم. غير أنّ الملاك في كونه جميلاً إنّما هو لأجل كونه دفاعاً عن الحق والحقيقة، و الدفاع عن الحرّية دفاع عن الحق، فالحاكم المستبد السالب للحريّة

عن الأنبياء و الشعوب يضـاد عمله الحق و الحقيقة فيحسن قتالـه، و محاربته لأجل تحكيم الحق و نصرته.

و من هنا يكون الجهاد التحريري فـي حقيقته جهاداً دفاعياً. لأنّ ذلك الجهاد إنّما هـو لأجل إنقاذ المستضعفين الـذين تعرّضـوا لعدوان و ظلم الظالميـن أو لأجل إنقاذ القيـم و الحقوق و المثل الإنسانيـة التي وقعت عـرضة لمزاحمة المستكبـرين و الحكام المستبـدّين، فـأقامـوا العراقيل فـي وجه الـدعوة الإسـلامية و سلبـوا الناس حريتهم في اختيار العقيدة التي يريدونها.

و بهذا تبيّـن أنّ الجهاد بـأقسامـه المختلفة جهـاد دفاعـي جوهـراً، و إن كان ينقسم حسب الإصطلاح الفقهي إلى الدفاعي و الإبتدائي.

و هاهنا نكتة نلفت إليها نظر القارئ الكريم و هي أنّ الآيات الأُولى التي نزلت في تشريع الجهاد تدلّ بأوضح الوجوه إلى أنّ الدافع إلى تشريع الجهاد هو الدفاع عن المسلمين و حقـوقهم و لـم يشرّع لأجل التجـاوز و الاعتداء علـى حقوق الآخـرين، و إليك الآيات:

﴿ إِنَّ اللهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّـذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللهَ لاَيُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُـورٍ * أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِـأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَ إِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِـمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِـنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَنْ يَقُولُـوا رَبُّنَا اللهُ وَ لَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُـمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَـوَامِعُ وَ بِيَعٌ وَ صَلَوَاتٌ وَ مَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيراً وَ لَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَ آتَوُا الزَّكَاةَ وَ أَمَرُوا بِالمَعْرُوفِ وَ نَهَوْا عَنِ المُنْكَرِ وَ للهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾(الحج/ ٣٨ـ٤١).

و إليك هذه الدلالات:

١ ـ قولـه سبحانه: ﴿لاَيُحِبُّ كُلَّ خَـوَّانٍ كَفُورٍ﴾ يدلّ بـوضوح إلى أنّ الكـافر المقاتل خائن، و كل خائن معتد يجب محاربته.

٢ ـ قوله سبحانه: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ﴾ يدلّ على أنّ المأذون في القتال مقاتَل (بالفتح) لامقاتِل (بالكسر) فليس المسلم هو البادئ بالقتال بل الكافر هو البادئ، فعند ذلك يعدّ قتال المسلم دفاعاً.

٣ ـ قوله سبحانه: ﴿بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا﴾ يدلّ بوضوح على أنّ القتال لأجل رفع الظلم.

٤ ـ قوله سبحانه: ﴿أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ يدلّ على كونهم مشرّدين من ديارهم بغير سبب و أي ظلم أعظم من إبعاد الإنسان عن موطنه؟!

٥ ـ قوله سبحانه: ﴿وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ ...﴾ يدلّ على أنّ الكافر لو ترك بحاله لهدّم البيوت المقدّسة و أماكن العبادة التي بنيت لعبادة الله سبحانه و تربية الناس و تزكيتهم، فيجب قتاله حتى لايرتكب تلك الجريمة الأثيمة.

٦ ـ قوله سبحانه: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ ...﴾ يشير إلى أنّ الغاية من تمكين المسلمين في الأرض هو إحياء المثل الإنسانية و هي عبارة عن إقامة الصلاة التي هي رمز لصلة الإنسان بالله سبحانه، و إيتاء الزكاة التي هي رمز للتعاون الإنساني، و الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر و هما كناية عن إقامة النظام الصحيح و النضال ضد كل نظام فاسد.

* * *

و قد تجلّت في ضوء هذا البحث حقيقة ناصعة هي من احدى الحقائق القرآنية و هي أنّ تشريع الجهاد الإبتدائي أو التحريري لم يكن لأجل الاعتداء على حقوق الإنسان، بل كان لأجل الدفاع عن حقوق المستضعفين، و غيرهم.

و لمّا بلغ الكلام إلى هنا، نرى أن نخوض في فلسفة الجهاد الإسلامي بصورتيه: الدفاعي و الإبتدائي و الدوافع إلى تشريعه و ما يجب على المجاهد من رعاية اُصول و قيم في الجهاد. و هذا بحث مستقل أتينا به لمناسبة خاصّة.

(١٢)

الجهـــــاد فـــي الإســـــلام

دفاعيّاً أو تحريريّاً

يعتبر الجهاد في منطق الدين الإسلامي و سيلة إلى بقاء الدين، و إستمرار وجوده، بل و بقاء الأُمّة الإسلاميّة و صيانة كيانها من السقوط و الانهيار و لابد للوقوف على هذه الحقيقة من تقديم مقدمة ضرورية، فنقول:

الجهاد ضرورة حياتية

عندما نطالع حياة الموجودات الحيّة نجد أنّها تقوم بثلاثة نشاطات تضمن بقاءها و حياتها.

و هذه النشاطات هي:

أوّلاً: التنفّس وجذب الغذاء المناسب.

ثانياً: التوالد و التكاثر، وهي صفة كلّ خليّة من خلايا الكائنات الحيّة.

ثالثاً: دفع الموانع، ودفع المزاحم وطرد المواد الزائدة، والمضرّة.

إنّ حياة كل كائن حي ملازمة لهذه النشاطات الثلاثة، بل ومدينة لها، فلا تخلو عنها ولا تفارقها.

و لمّا كان الإسلام ظاهرة حياتية ـ وإن لم تكن ظاهرة ماديّة بل ظاهرة إلهية ـ فإنّه لا يخلو بدوره عن هذه النشاطات والفعاليّات الثلاث ولا يستغني عنها.

فالدين الإسلامي بحاجة ـ في بقائه، واستمرار حياته ووجوده ـ إلى هذه الأُمور الثلاثة، وأخصّ بالذكر الأمر الثالث.

فإنّ الإسلام، لكونه رسالة إلهية منزلة لهداية البشريّة، يسعى إلى تغيير العادات والتقاليد البالية، والأوضاع الفاسدة والنظم الباطلة... ولذلك من الطبيعي أن يواجه معارضة من يخالف هذا التغيير مصالحهم، ويتعارض مع أهدافهم ومطامعهم... وعند ئذٍ يجب على هذا الدين أن يقوم بدفع هذه الموانع ويكتسح تلكم الحواجز، ليمضي قدماً في اداء رسالته، وتحقيق أهدافه.

إنّ هناك فرقاً واضحاً بين(المذهب الفلسفي) و(الدين الإلهي).

فالفيلسوف، يكتفي ببحث الأُمور الفلسفية لمجرّد التوضيح، أو النقد وينشر أفكاره وتحليلاته بين الناس ليقفوا عليها ويعرفوها دون أن يرىٰ إلزامهم بشيء منها.

فهو لا يهمّه سوىٰ طرح أفكاره والدفاع عنها بقاطع البرهان، وواضح الدليل.

وأمّا(الدين الإلهي) فليس مذهباً فلسفياً ليكتفي بمجرّد البيان والتوضيح ويحصر همّته في النقد والإشكال إنّما هو ثورة إصلاحية، وعملية تغييريّة تهدف إلى إقامة نظام صالح عادل فوق رُكام الأنظمة الفاسدة، والأوضاع المنحطّة.

وبديهي أنّه لا يتحقّق ذلك دون مواجهة الموانع، وقيام الصراعات والحروب، مع الجهات والقوى المعارضة لهذا التغيير.

فهل في العالم حركة تغييريّة إستطاعت تحقيق أهدافها دون خوض الصراعات الحامية، ودون نشوب الحروب وسقوط الضحايا، أو إراقة محجمة دم؟

فهل إستطاعت(الثورة الفرنسية) أن تتجنّب إراقة الدماء؟

وهل نجحت(الثورة الروسية) إلاّ بعد سقوط الملايين من القتلى؟

وهل حقّقت(الثورة الهندية) أهدافها إلاّ عبر المئات من القرابين البشرية؟

نعم إنّ ما يفترق به(الجهاد الإسلامي) عن الحروب الأُخرى التي تفرضها

الحركـات التغييريّـة الأُخرى هو: تجنّـب الإسلام عـن الحروب، وإراقه الدمـاء قدر الإمكان، والقيام بذلك من باب الضرورة وفي حدود الإنسانية والرحمة.

هذا مضافـاً إلى بقيّة الفوارق التي تتجسّـد في أحكام(الجهاد الإسـلامي) كما سيأتي تفصيلها.

وصفوة القول: إنّ أيّة ثـورة إصلاحية وحركة تغييريّة تتطلّـب ـ بحكم الضرورة ـ هذه المواجهات الساخنـة، دفعاً للمزاحم ودفعاً للموانع والحواجـز، وإلاّ ماتت هذه الثورة في المهد، كما تموت الخليّة الحيّة إذا تركت ذلك.

ولهذا وصفه القرآن بأنّه وسيلة للحياة والبقاء والإستمرار إذ قال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾(الأنفال/ ٢٤).

وبعبارة واضحة، إنّ الإسـلام نظام إجتماعي ثـوري، لم ير العالـم نظيره قط، فهو بما أنّه رسالة إلهية، تضمن سعادة البشر، يرى لنفسه حق التوسعة و التعميم.

ولأجل ذلك يسعى لرفع الموانع والحواجز بأسهل الطرق وأعدلها.

فيبتدئ بالتبليـغ والتعليم والبحث والمجادلة والتوجيـه والإرشاد، فإذا رأى أنّ المانـع لا يرتفـع إلاّ بقوة قـاهرة يسعـى لرفع المـوانع بتلـك القوّة، وإليـه يشير قـوله سبحانه:

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾(البقرة/ ١٩٠).

وليس هذا يختصّ بالـدين الإسلامي بل كان هذا هو طـريق الأنبياء ومنهاجهم في الدعوة إلى طريق الحق. و في ذلك يقول سبحانه:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾(الحديد/ ٢٥).

والكتاب والميزان إشارة إلى أنّهم كانوا يتوسّلون في بدء الأمر بأسهل الطرق، وهو تنوير الأفكار وإقناعها بمنطق العقل.

وأمّا إذا رأوا أنّ ذلك المنطق لا يجدي في رفع الموانع يتوسّلون بمنطق القوّة، فالحديد في الآية كناية عن ذلك المنطق، وحياة الأنبياء وتاريخهم خير شاهد على ذلك.

وها هنا نقطة أُخرى نلفت نظر القارئ الكريم إليها، وهي: إنّ الإسلام يريد أن يعمّم العدالة الإجتماعية في جميع مناحي الحياة.

ومن الطبيعي أنّ كل ثورة ـ من هذا القبيل ـ لا تضمن منافع جميع الطبقات بل ربّما تكون مضرّة بمصالح البعض كالطغاة والمستثمرين والمترفين، ولأجل ذلك كان المترفون يعارضون كل حركة إصلاحية إلهية ويصدّون عن وجه الحق. كما قال القرآن:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾(سبأ/ ٣٤).

ولأجل ذلك يجب على صاحب الرسالة التوسّل بمنطق القوّة(حين لا تجدي قوّة المنطق) في رفع الحواجز والموانع، والتخلّص ممّن يسد طريق الحق والعدالة.

هذا وأشباهه تمثّل فلسفة الجهاد الإسلامي وتشريعه لنوعين من الجهاد(الدفاعي والتحريري)، وخصائصهما، وأحكامهما: على نحو الإيجاز والإجمال.

الجهاد الدفاعي

والمراد من هذا الجهاد هو مقاتلة الأعداء المعتدين، دفاعاً عن النفس، والمال، و ذبّاً عن الوطن والحرية، وذوداً عن الشرف والإستقلال.

إنّ الدفاع المذكور على قسمين:

أوّلاً: الدفاع عن حوزة الإسلام.

ثانياً: الدفاع عن النفس والمال وماشابههما وأمّا البحث عن القسم الثاني فموكول إلى الكتب الفقهية المعدّة لتفصيل ذلك. (راجع شرائع الإسلام الباب السادس في حدود المحارب من كتاب الحدود والتعزيرات، تجد فيه فروع وتفاصيل هذا المبحث).

وأمّا القسم الأوّل فمنه ما إذا غشى بلاد المسلمين أو ثغورها عدوّ يخشى منه على بيضة الإسلام ومجتمع المسلمين، فيجب عليهم الدفاع بأيّة وسيلة ممكنة من بذل الأموال والنفوس.

ولو خيف من زيادة الإستيلاء على بلاد المسلمين وتوسعة ذلك، وأخذ بلادهم، أو أسرهم، وجب الدفاع بأيّة وسيلة ممكنة، كما لو خيف على حوزة الإسلام من الإستيلاء السياسي، والإقتصادي المنجرّ إلى أسرهم السياسي والإقتصادي، ووهن الإسلام والمسلمين وضعفهم يجب الدفاع بالوسائل المشابهة والمقاومة السلبية المتنوّعة، فرض الحصار الإقتصادي على أمتعتهم وبضائعهم وترك استعمالها وترك المعاملة والمراودة معهم مطلقاً، إلى غير ذلك من أنواع المقاومة التي تختلف مع إختلاف نوع الإستيلاء، وإختلاف الظروف والمقتضيات.

هذا وقد وردت حول الدفاع عن النفس روايات وأحاديث منها:

قال رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم): «من قتل دون ماله فهو شهيد».

وقال(صلّى الله عليه و آله و سلّم): «يبغض الله تعالى رجلاً يدخل عليه في بيته فلا يقاتل».

وقال(صلّى الله عليه و آله و سلّم): «من قتل دون مظلمته فهو شهيد»[1].

وعلى كل تقدير فالجهاد الدفاعي جهاد شرّعه الإسلام عندما تتعرّض الأمّة

---

(١) راجع وسائل الشيعة ج١١ ص٩١ـ٩٢، و قد وردت روايات مماثلة في المقام عن أهل البيت تركناها اختصاراً.

الإسلامية لمهاجمة الأعداء، وعدوانهم وتصبح غرضاً لأطماعهم ومؤامراتهم.

وهذا ممّا تقتضيه طبيعة الحياة، وتحكم به الفطرة، ويحكم بحسنه وضرورته العقل السليم، كما تؤيّده كافّة المدارس والمذاهب الحقوقية والسياسية والإجتماعية.

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الجهة الموجبة للجهاد والقتال بقوله:

﴿وَقَاتِلُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُم﴾(البقرة/ ١٩٠).

وقوله سبحانه:

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ* الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾(الحج/ ٣٩ـ٤٠).

وعلى هذا الأساس كانت أغلب الحروب والغزوات التي قام بها النبي(صلّى الله عليه و آله و سلّم) ووقعت في حياته.

فهي كانت حروباً دفاعية قام بها المسلمون بقيادة النبي(صلّى الله عليه و آله و سلّم) وأمره، دفاعاً عن حوزة الدين، وحياة المسلمين.

فإنّ غزوات بدر وأُحد والأحزاب، إلى آخر الغزوات والحروب كانت لدفع الحملات التي كان يقوم بها الأعداء ضد المسلمين.

كما أنّ(السرايا) التي بعثها النبي(صلّى الله عليه و آله و سلّم) كانت لأجل إطفاء نيران الفتن وإحباط المؤامرات التي كان يشعلها ويحيكها أعداء الإسلام في أنحاء الجزيرة العربية للقضاء على الدين الجديد، واستئصال جذوره وهدم بنيانه.

* * *

خصائص الجهاد الدفاعي

إنّ للجهاد الدفاعـي في الإسلام حدوداً وأحكاماً تميّزه عـن الحروب التي يقوم بها الآخرون في عالمنا المعاصر.

ولقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الخصائص ـ فى آية واحدة ـ إذ قال سبحانه:

﴿وَقَاتِلُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لاَيُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾(البقرة/ ١٩٠).

والخصائص التي ذكرتها هذه الآية هي باختصار:

أ ـ كون الجهاد في سبيل الله (الهدف)

إنّ الجهاد والقتال يجب أن يكون لله تعالى، ولكسب رضاه سبحانه، لالتوسيع السيطرة، ونَشر النفوذ، وضم بلد إلى بلد.

وهذا هو أهم خصائص الجهاد الإسلامي.

نظراً لأهميّتها القصوى أكّد عليها القرآن الكريم في آيات متعدّدة، واعتبره الفرق الجوهري بين الحرب الإسلامية والحرب غير الإسلامية، وبين الجهاد الذي يقوم به المسلمون، والقتال الذي تمارسه دول العالم، والجماعات غير المسلمة المؤمنة، إذ يقول:

﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ الطَّاغُوتِ﴾(النساء/ ٧٦).

ولأجل ذلك يذمّ الله سبحانه كل قتال أو قيام يراد به التسلّط على حطام الدنيا ومتاعها ويقول سبحانه:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُم فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلاَ تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلاَمَ لَسْتَ مُؤْمِناً تَبْتَغُونَ عَرَضَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾(النساء/ ٩٤).

ويقول سبحانه :

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(الأنفال/ ٦٧).

ويقول سبحانه :

﴿لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً وَسَفَراً قَاصِداً لاَ تَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾(التوبة/ ٤٢).

ب ـ القتال ضدّ المعتدي

إنّ القتال لا يجوز إلاّ ضدّ الذين يقاتلون المسلمين، ويبدأونهم بعدوان.

وهو شرط في هذا النوع من الجهاد دون الجهاد التحريري، الذي سيوافيك تفصيله.

فالقتال أساساً شرع لصد العدوان ورد المعتدي، وإيقاف المتجاوز عند حدّه، ولهذا يأمر الإسلام أتباعه أن يكفّوا عن القتال إذا فعل العدو ذلك :

قال سبحانه :

﴿ ... فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً﴾(النساء/ ٩٠).

ويقول في آية لاحقة :

﴿ ... فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾(النساء/ ٩١).

على أنّ الجهاد الدفاعي ربّما يشرع أيضاً عندما يقوم العدو بنكث المواثيق، ونقض المعاهدات، وتعريض السلام المتّفق عليه للخطر، أو يقوم بطرد الشخصيات الإسلامية من مواطنهم، وتشريدهم ظلماً وعدواناً.

فمن الأوّل يقول سبحانه :

﴿وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ﴾(التوبة/ ١٢).

وفي آية لاحقة يشير سبحانه إلى الأمر الثاني إذ يقول :

﴿أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْماً نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَؤُكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾(التوبة/ ١٣).

كما ويندرج تحت هذا مكافحة الإستعمار بكلّ أشكاله وألوانه ... التي يتوقّف تفصيل الكلام فيها على بيان السياسة الخارجية للحكومة الإسلامية .

ج ـ حد الجهاد و إطاره

إنّ القتال يجب أن يكون في إطار الحق والعدل ولا يتجاوز حدودهما . و هو شرط مشترك بين الدفاعي والتحريري ولمّا كان الإسلام دين الحق والعدل فإنّه أكّد على هذا الشرط أشد وأبلغ تأكيد ، وصرّح ـ مثلاً ـ بأنّ القتال والعدوان يجب أن يماثل العدوان الواقع على المسلمين ولا يتجاوز مقداره ، وإلاّ عاد انتقاماً وخروجاً عن سنّة العدل فقال ـ في نفس الآية ـ :

﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾(البقرة/ ١٩٤).

والجدير بالذكر أنّ إرداف الأمر بالجهاد بالحثّ على التقوى يوحي بضرورة وجود صفة التقوى ، وتقارنه مع الجهاد منعاً من تجاوز الحق والعدل .

فإنّ المقاتل غالباً تدفعه سورة الغضب إلى ارتكاب الجرائم والتعدّي عن الحق إلاّ من خاف الله تعالى .

وقد أشار القرآن إلى ضرورة رعاية العدل والتقوى في جميع الأحوال بصورة

عامّة فقال سبحانه:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَنْ لاَ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾(المائدة/ ٨).

هذا وقد دلّت ـ على تشريع هذا الجهاد ـ مضافاً إلى ما ذكر من الآيات، أحاديث وروايات متضافرة نأتي ببعضها:

قال الإمام علي(عليه السلام):

«الجهاد باب من أبواب الجنّة فتحه الله لخاصّة أوليائه...

هو لباس التقوى ودرع الله الحصينة، وجنّته الوثيقة»[١].

وقال الإمام أبوجعفر الباقر(عليه السلام):

«الجهاد الذي فضّله الله على الأعمال وفضّل عامله على العمال تفضيلاً في الدرجات والمغفرة لأنّه ظهر به الدين، وبه يدفع عن الدين»[٢].

إلى غير ذلك من الأحاديث المذكورة في المصادر المعتبرة.

ثمّ إنّ من يجب جهادهم على نحو الدفاع ثلاث طوائف:

١ـ البغاة على الإمام من المسلمين، كالخوارج الذين خرجوا على الإمام علي(عليه السلام) مثلاً.

٢ـ أهل الذمّة، وهم اليهود والنصارى والمجوس إذا أخلّوا بشرائط الذمّة.

٣ـ من ليس لهم كتاب إذا قاموا بمؤامرة ضد المسلمين.

---

(١) نهج البلاغة الخطبة ٢٧.

(٢) في هذا الحديث إشارة إلى كلا النوعين من الجهاد(الدفاعي و التحريري) فقوله(عليه السلام): لأنّه ظهر به الدين، إشارة إلى الثاني، و قوله(عليه السلام): و به يدفع عن الدين، إشارة إلى الأوّل.

هذه هي لمحة خاطفة عن حقيقة الجهاد الدفاعي ودوافعه وخصائصه، وأمّا معرفة مسائله وفروعه وأحكامه التفصيليّة فمتروكة إلى الكتب الفقهية المفصّلة[1].

* * *

الجهاد التحريري (الإبتدائي)

لقد شرع الإسلام ـ إلى جانب الجهاد الدفاعي ـ نوعاً آخر من الجهاد، هو الجهاد الإبتدائي الذي يجدر أن يسمّى بالجهاد التحريري.

وتتلخّص دوافع هذا النوع من الجهاد في أُمور عديدة نشير إلى ثلاثة منها، تاركين للقارئ الكريم مراجعة الكتب الفقهية المطوّلة المفصّلة لمعرفة بقيّة هذه الدوافع، والأسباب.

١ـ تحرير البشريه من الشرك

إنّ أهم دوافع الجهاد التحريري هو محاربة الوثنيّة والشرك، وتحرير البشريّة من إتّخاذ أي معبوْد سوى الله.

فالإسلام يأمر بعبادة الله وحده، وينهي عن اتّخاذ أي معبود سواه.

يقول الله سبحانه:

﴿وَلاَتَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلٰهاً آخَرَ لاَإِلٰهَ إِلاَّ هُوَ﴾(القصص/ ٨٨).

وهي حقيقة تدركها الفطرة البشرية السليمة ولكن هذه الفطرة قد تنحرف وتحيد عن مسيرها الصحيح بفعل المؤثّرات والدعايات وتضليل المضلّلين.

وهنا يفرض الدين على أتباعه أن يجاهدوا لتحرير العقول من قيودها، وتخليص الفطرة الإنسانية المنحرفة من براثن الوثنيّة بكل وسيلة ممكنة.

---

(١) شرائع الإسلام، كتاب الجهاد، الركن الثاني ـ مع شروحه ـ.

وليس هـذا ممّا يخـالف حـرية الإنسان فـي اتّخاذ المعتقـد الذي يـريد، لأنّ الحرية ليست مطلوبة على إطلاقها.

ثمّ إنّ تخليص البشـرية من براثن الوثنيـة إنّما هو خدمة للبشريـة و إحياء لها، و إنقاذ لشخصيّتها من ذلّ الخضوع تجاه الموجودات الحقيرة.

و هذا أمر ضـروري حتّى إذا لم يدرك البشر أهمّيته، أو امتنع مـن قبوله تمشّياً مع هواه.

فلو أنّ وزارة الصحّة ـ مثلاً ـ أرادت تلقيح النـاس باللقاح الصحّي ضـد مرض داهم، أو وباء قـادم، لزم على الجميع قبول هـذا الأمر، و لم يكن لأحـد الامتناع عن ذلك بحجّة أنّه حرّ لايجوز إكراهه على شيء.

فلاتسمـع منه هذه الحجّة، و لايقبـل منه هذا الـرفض، حفاظاً علـى الصحّة العامّة وصيانة للمجتمع من العدوى.

و يعتبر هذا الإكراه و الإلزام بهذا الأمـر العقلائي رحمة له، و لطفـاً به لاظلماً وعدواناً.

إنّ عبادة الـوثن تجعل عابـد الوثن أذل من الصنـم الذي نحته بيديـه... و إلى ذلك يشير سبحانه ـ مستنكراً ـ: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾؟(الصافّات/ ٩٥).

ثمّ إنّ الخضوع للـوثن يوجب إنحطاط الفكـر الإنساني و وقوعه فـي الخرافات التي هي بمثابة القيود و الأغلال للفكر البشري، تمنعه عن الانطلاق في مدارج الرقي و التكامل، و تحجز النفس الإنسانية من نموّ الفضائل و السجايا الخلقية الكريمة.

هذا مضافاً إلـى أنّ عبادة الأوثان و الأصنام توجد اختلافاً و تحـزّباً بين البشر، وتفرّق وحـدته، و تمزّق صفّه إذ كـل جماعة تتّخذ وثنـاً خاصّاً تعبده و تتمسّـك به، وتنفي سـواه، و في ذلك ضـرر عظيم على حيـاة البشرية لايقـل عن خطر الطـاعون والوباء، و في ذلك يقول الله حاكياً عن لسان يوسف:

﴿يَاصَاحِبَيِ السِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الوَاحِدُ القَهَّارُ﴾(يوسف/ ٣٩).

و لهذا يرى الإسلام محاربة هذا الوباء الفكري، و اقتلاعه من الجذور.

و من هنا أقدم الرسول الأكرم(صلّى الله عليه و آله و سلّم) عند فتحه «مكّة» على كسر الأصنام الموضوعة في البيت الحرام، و أمر كل صاحب وثن أن يحطّم وثنه، و كان(صلّى الله عليه و آله و سلّم) يفعل ذلك كلّما فتح منطقة من مناطق الجزيرة[1].

نعم صحيح انّ للتبليغ و الدعوة أثراً لاينكر في إيقاظ الأفكار، و فكّها من أسارها، بيد أنّه أثر محدود لايعرفه إلاّ الزمر الواعية، المثقّفة، القادرة على إستيعاب التوجيهات و المواعظ.

و لأجل ذلك يجب على إمام المسلمين قبل نشوب الحرب بين المسلمين و أعدائهم أن يدعو الكفّار و الأعداء إلى الإسلام بالحكمة و الموعظة الحسنة، و يبالغ في إيقاظهم و توعيتهم و دعوتهم و إتمام الحجّة عليهم.

قال صاحب شرائع الإسلام:

«و لايبدأون إلاّ بعد الدعاء إلى محاسن الإسلام و يكون الداعي الإمام أو من نصّبه»[2].

و قد دلّت على ذلك من السنّة روايات متضافرة منها ما ورد عن السكوني عن أبي عبد الله الصادق(عليه السلام): قال: قال أمير المؤمنين(عليه السلام):

بعثني رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) إلى اليمن فقال: يا علي لاتقاتلنّ أحداً حتّى تدعوه إلى الإسلام، والله لئن يهدينّ الله على يديك رجلاً خير لك ممّا طلعت عليه الشمس و غربت، و لك ولاؤه يا علي»[3].

و عن علي(عليه السلام) أنّه قال:

---

(1) سيرة ابن هشام ج٢ ص١٤٣.

(2) شرائع الإسلام، كتاب الجهاد، الركن الثاني.

(3) مستدرك الوسائل ج١١ الباب٩ من أبواب جهاد العدو الحديث ١.

«لايغزَ قوم حتّى يدعوا»[1].

و عن النبي(صلّى الله عليه و آله و سلّم) أيضاً أنّه قال:

«لاتقاتل الكفّار إلاّ بعد الدعاء»[2].

و قد سئل الإمام زين العابدين علي بن الحسين(عليهما السلام) عن كيفيّة الدعوة إلى الدين:

فقال: تقول: «بسم الله الرحمن الرحيم ـ أدعوك إلى الله عزّ و جلّ و إلى دينه و جماعه أمران: أحدهما: معرفة الله عزّ و جلّ و الآخر: العمل برضوانه، و إنّ معرفة الله عزّ و جلّ أن يعرف بالوحدانية و الرأفة و الرحمة و العزّة، و العلم و القدرة و العلوّ على كل شيء، و انّه النافع الضار القاهر لكل شيء الذي لاتدركه الأبصار، و هو يدرك الأبصار و هو اللطيف الخبير، و انّ محمداً عبده و رسوله، و إنّ ما جاء به هو الحق من عند الله عزّو جلّ و ما سواه هو الباطل».

فإذا أجابوا إلى ذلك فلهم ما للمسلمين، و عليهم ما على المسلمين[3].

و عن الإمام الباقر(عليه السلام) أنّه قال:

«أوّل حدود الجهاد الدعاء إلى طاعة الله من طاعة العباد، و إلى عبادة الله من عبادة العباد و إلى ولاية الله من ولاية العباد»[4].

بل ولو أنّ أحداً من المشركين إستأمن و أراد أن يسمع كلام الله أُعطي الأمان، ثمّ أُعيد إلى مأمنه، سواء كان قبل نشوب الحرب أو في أثنائه.

قال الله سبحانه:

﴿وَ إِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ

---

(١)و(٢) مستدرك الوسائل ج١١ الباب٩ من أبواب جهاد العدو الحديث ٢، ٣.

(٣) وسائل الشيعة ج١١ ص٣١، باب كيفية الدعاء إلى الإسلام من أبواب الجهاد.

(٤) وسائل الشيعة ج١١ ص٧.

﴿ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لايَعْلَمُونَ﴾(التوبة/ ٦).

غير أنّ الدعوة و التبليغ ربّما تؤثّر في بعض الأشخاص و لاتؤثّر في آخرين، خصوصاً إذا كان الدين يهدّد مصالحهم و مطامعهم و لذلك وجبت محاربتهم... إذ لايكون الخير و الإصلاح حينئذٍ إلاّ بالسيف، و منطق القوّة:

و إلى هذا أشار النبي(صلّى الله عليه و آله و سلّم) بقوله:

«الخير كلّه في السيف، وتحت ظلال السيف، ولايقيم الناس إلاّ السيف»[1].

فرض العقيدة ممنوع

قد يتوهّم الجاهل بمعالم الدين الإسلامي و أحكامه انّ الهدف من الجهاد التحريري إنّما هو فرض العقيدة الإسلامية على الناس فرضاً.

و لكن هذا ظنّ واضح البطلان معلوم الضعف لمن له معرفة بطبيعة الدعوة الإسلامية.

فإنّ الإسلام الذي يشجب و يستنكر على بعض الناس اتّباعهم لعقائد آبائهم و أجدادهم الباطلة، كيف يجوّز لأتباعه أن يحملوا الناس على العقيدة الإسلامية دون أن يسمحوا لهم بأن يفكّروا و يحقّقوا و يفتّشوا عن المعتقد الحق، ليعتنقوه بالبرهان و الدليل؟

إنّ اعتناق العقيدة أي عقيدة يجب أن يكون حسب نظر الإسلام قائماً على أساس البحث و الفحص و التحقيق و مرتكزاً على البرهان و الدليل، و لذلك فهو يقبح اتّباع السلف دون مراجعة لعقائدهم، و تحقيق في صحّتها أو بطلانها إذ قال سبحانه:

﴿وَ كَذٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا

(١) وسائل الشيعة ج١١ ص٥.

عَلَى أُمَّةٍ(أي طريقة) وَ إِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُقْتَدُونَ * قَالَ أَوَ لَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ * فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾(الزخرف/ ٢٣ـ٢٥).

و قال سبحانه:

﴿وَ إِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَايَعْقِلُونَ شَيْئاً وَ لَايَهْتَدُونَ﴾(البقرة/ ١٧٠).

و بتعبير آخر: إنّ الإسلام ذمّ التقليد في الأُصول و العقائد و الجري على سنن الآباء و الأجداد بلاتأمّل و لاتدبّر، و طالب بالتفكّر و التعقّل فكيف يأمر أتباعه بأن يفرضوا العقيدة الإسلامية على الآخرين بقوّة النار و الحديد.

كيف وقد صرّح بحرية الإعتقاد بقوله سبحانه:

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾(البقرة/ ٢٥٦).

إنّ القرآن الكريم يصرّح بأنّ الإختلاف الفكري، والتنافس الأيديولوجي أمر غريزي طبيعي، ولذلك فهو باق إلى يوم القيامة ولا يمكن إزالته من رأس، ولا يصحّ إلغاؤه بالمرّة.

قال سبحانه:

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾(هود/ ١١٨).

إنّ القرآن الكريم ينهي الرسول الأكرم(صلّى الله عليه و آله و سلّم) عن فرض العقيدة الإسلامية على الناس لأنّ الله شاء لهم أن يكونوا أحراراً في ذلك وهو في الوقت نفسه يعطينا درساً في مجال التبليغ والدعوة يجب أن نسير على ضوئه، فيقول:

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾(يونس/ ٩٩).

إذن فلم يكن الجهاد التحـريري في مجال(تحرير البشريـة من الشرك) بفرض العقيدة على الناس أو حملهم على الخضـوع لمنهج الدين دون اختيار منهم أو إرادة حرّة، بل هناك دواعٍ وعللٍ للجهاد التحريري وهي التي نتلوها عليك.

٢ـ كسر الموانع المفروضة على الشعوب

إنّ هنـاك داعياً آخـر لتشـريع عنـوان الجهـاد التحريـري وهـو وضع الاغـلاق المفروضـة على الشعـوب، وإسقاط الحكومـات التي تمنع مـن وصول الإسـلام إلى الناس وتقيـم سدوداً بينهم وبيـن العقيدة الحقّة وتسلـب حريّـاتهم، وتكرههـم على اتّخاذ عقيدة خاصّة، والمشي على حسب منهج خاص وإن كانوا لا يرتضونه.

وبهذا يكـون الجهاد التحـريري لرفـع الموانـع والحواجز المـانعة عـن وصول العقيدة الحقّـة إلى الناس، و تحريـرهم من تلك القيـود حتى يمكنهم اختيار الـدين الإسلامي بعد الاطّلاع على محاسنه، وتبليغ معالمه إليهم.

٣ـ تخليص المستضعفين من الظالمين:

إنّ الهدف الثالث من أهداف الجهاد التحريري هو إنقاذ الشعوب من اضطهاد الحكّام الجائرين، واستبدادهم وظلمهم.

فهو إذن شُرّع لتحرير المستضعفين وتخليصهـم من عسف الحكّام، وكبتهم، وحيث إنّ هذا الهدف لا يتحقّـق إلاّ باستخدام القوّة وحمل السلاح والمقـاتلة والغزو إتّخذ الإسلام طريق الجهاد، فقال القرآن الكريم:

﴿وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالوِلْدَانِ الَّذِيـنَ يَقُولُونَ رَبَّنَـا اَخْرِجْنَا مِـنْ هَذِهِ القَرْيَـةِ الظَّالِمِ اَهْلُهَا وَاجْعَـلْ لَنَا مِنْ لَدُنْـكَ وَلِيّاً وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيراً﴾(النساء/ ٧٥).

وقدوردت الإشارة إلى هذا الهدف في تصريحات بعض المسلمين الذين خرجوا لفتح البلاد و إنقاذ المستضعفين من حكّامهم الجائرين قال:إنّ سعد بن أبي وقاص أرسل ربعي بن عامر ليكلّم قائد القوات الفارسية فلمّا دنا من «رستم» جلس على الارض وركّز رمحه على البسط فقال له : ما حملك على هذا؟ قال : إنّا لانستحب القعود على زينتكم ، فقال له ترجمان رستم واسمه «عبود» من أهل الحيرة : ما جاء بكم؟ قال : الله جاء بنا وهو بعثنا لنخرج من يشاء من عباده من ضيق الدنيا الى سعتها ، ومن جور الأديان الى عدل الاسلام فأرسلنا بدينه الى خلقه ، فمن قبله قبلنا منه ورجعنا عنه وتركناه وأرضه دوننا ، ومن أبىٰ قاتلناه حتى نفضي إلى الجنّة أو الظفر [1].

إذن لم يكن تشريع هذا الجهاد لفرض الاستيلاء على الأراضي ، أو بهدف السيطرة على منابع الثروة ، أو استعمار الشعوب كما هو هدف الحروب غير الإسلامية في الماضي والحاضر.

كما أنّ الإسلام ينهي عن العدوان لبعض الأسباب التي تعود إلى المسائل الشخصية ، والقضايا الفردية ، التي لا تنطوي على مصلحة الإسلام والمسلمين الكلّية ... ، وفي هذا الصدد يقول القرآن الكريم :

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا﴾(المائدة/ ٢) .

وبما أنّ الجهاد التحريري ينطوي على أحكام دقيقة ، وظرفية ، لا يعرفها إلاّ الإمام العادل العارف بالدين ، والعالم بالظروف لم يجز أن يقوم المسلمون بهذا الجهاد إلاّ بقيادة(إمام معصوم) أو من ينوب منابه في السلطة الدينية والزمنية ، نعم في مشروعية الجهاد التحريري في غياب الإمام المعصوم بحث مفصّل ، فلاحظ الكتب الفقهية .

---

(١) الكامل لابن الأثير ج٢ ص٣٢٠ حوادث عام ١٤ من الهجرة النبوية .

وإلى هذا أشار الإمام الصادق(عليه السلام) بقوله:

«والجهاد واجب مع إمام عادل»[1].

نعم هناك كلمة أخيرة على هامش كلا الجهادين وهي:

إنّه يجب على الدولة الإسلامية ـ قبل نشوب أيّة حرب ـ إعداد المسلمين وتجهيزهم بكل ما تستطيع من أنواع القوّة الحربية في كل زمان بحسبه، على أن يكون القصد الأوّل من ذلك هو إرهاب العدو، وإخافته من عاقبة التعدّي على بلاد الأُمّة الإسلامية أو مصالحها، أو على أفراد منها، أو متاع لها حتى في غير بلادها، لأجل أن تكون آمنة في عقر دارها مطمئنّة على أهلها و مصالحها وأموالها، ولكي تحظىٰ بالإحترام اللائق بها في الساحة الدولية، إذ يقول القرآن الكريم:

﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُم مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾(الأنفال/ ٦٠).

ويبقى أن نقول: إنّ القتال والنضال بما هو هو ليس أمراً قبيحاً وإنّما يصطبغ بالحسن أو القبح بالغايات المحدّدة للقتال والنضال.

فلو كان القتال والنضال بهدف الاعتداء والتجاوز على النفوس والأعراض والأموال والحرمات فيكون القتال أمراً منكراً، ويعد وحشيّة همجيّة، ويكون المباشر له حيواناً ضارياً تلبّس بالإنسانية.

وإذا كان القتال لحفظ الشرف والإنسانية ومنع المعتدين عن الإعتداء، وغير ذلك من الأهداف المشروعة المذكورة سلفاً، فلايكون قبيحاً بل يعتبر وظيفة إنسانية.

هذه دراسة عابرة عن الجهاد التحريري حقيقة وأهدافاً وفلسفة، والتفصيل موكول إلى محلّه في الكتب الفقهية المفصّلة. وأمّا الأدب فإليك البيان.

---

(١) وسائل الشيعة ج ١١ ص٣٥.

رعاية الأخلاق في الحرب

إنّ وقائع الحروب تشهد بأنّ الجبابرة والطواغيت ينسون ـ عند نشوب الحروب ـ كل القيم الإنسانية، والأُصول الأخلاقية، فيرتكبون كل جريمة، ويقترفون كل جناية دون أن يردعهم عن ذلك رادع، أو يتقيّدوا في القتال بقانون.

وليس هذا أمر يتّصل بالماضي، فساحات المعارك اليوم، وما تشهده من فظائع،خير دليل على ما ذكرناه.

صحيح انّ هناك أعرافاً دولية، وقوانين عالمية للحروب، ولكن من الصحيح أيضاً انّ رعاية هذه القوانين والأعراف ضئيلة، أوكادت أن تكون مفقودة أصلاً.

هذا مضافاً إلى أنّ هذه القوانين والأعراف لا تكون ـ في الأغلب ـ شاملة، أو كافية.

غير أنّ الإسلام سنّ للحرب والقتال حدوداً دقيقة من شأنها أن تجعل الحرب في إطار الأخلاق والقواعد الإنسانية ولم يكتف بمجرّد تشريعها ووضعها، بل عمل بها في كافة حروبه ووقائعه.

من هنا يجب علينا أن نقف على هذه الحدود، لنتعرّف على مدى رحمة الإسلام وإنسانيّته، وعدالته، حتى في الحروب حيث يفقد المقاتلون توازنهم عادة، فلا يتورّعون عن ارتكاب كل كبيرة وصغيرة، وتشهد على ذلك الحروب العالمية وخاصّة(الأُولى والثانية)، وكذا الحروب التي شنّها الغرب على الشرق في مختلف المناطق في القرن الحاضر، ونخصّ بالذكر المعارك الدامية بين الإستعمار الفرنسي، والشعب الجزائري البطل، والإستعمار الأمريكي والشعب الفيتنامي، والإستعمار الإسرائيلي والشعب الفلسطيني، وماجرى في هذه الحروب من الممارسات الوحشية المروّعة على يد هذه القوى الإستعمارية.

١ـ الآمنون في الحرب

لمّا كانت العدالة الإجتماعية هي المطلب الأقصى للإسلام، ولم تكن للحرب أصالـة في منطقة، ولم تكـن بنفسها هدفاً بـل شرعت لـدفع المعتدين و إزالتهـم عن طريق الدعوة الحقّة، اقتضى ذلك كلّه أن لا يهاجم إلاّ على الظالمين ولذا قال القرآن الكريم:

﴿فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾(البقرة/ ١٩٣).

ولأجل ذلـك نهى الإسـلام عن قتل طـائفة مـن الناس إذا لم يكـونوا يسـاندون الأعداء الظالمين ولا يقاتلون، وهؤلاء هم:

١ـ النساء.

٢ـ الولدان.

٣ـ المجانين.

٤ـ الأعمى.

٥ـ الشيخ الفاني.

٦ـ المقعد.

وقد دلّت على ذلك أحاديث متضافرة منها ما عن الإمام الصادق(عليه السلام) أنّه قال:

«نهى رسول الله عن قتل المقعد و الأعمى والشيـخ الفاني والمرأة والولدان في دارالحرب»[1].

٢ـ تمالك النفس

لا ريـب أنّ الحرب سبـب قوي لغليـان المشاعـر وارتفاع سـورة الغضب إلـى

(١) فروع الكافي ج٥ ص٢٨ ح٦.

أقصاه ولهذا ربّما يؤدّي إلى ارتكاب أقسى ألوان الجريمة في حقّ الخصم.

ومن هنا يجب أن يعطى زمام الحرب للعقل لا للمشاعر الملتهبة، والأحاسيس المشتعلة.

ولقد أعطى النبي(صلّى الله عليه و آله و سلّم) تعاليم كلّية في الحرب، كان يوصي يها كل جيش يبعثه، وكل سرية يرسلها.

وإليك فيما يأتي نموذجاً من الأحاديث التي أدّب فيها النبي(صلّى الله عليه وآله و سلّم) أو الإمام المجاهدين والمقاتلين بآداب، وتعاليم خاصة، تكفل إنسانية الحروب وعدالتها.

عن الإمام أبي عبد الله الصادق(عليه السلام) أنّه قال:

«كان رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) إذا أراد أن يبعث سرية دعاهم فأجلسهم بين يديه، ثم يقول:

سيروا بسم الله وبالله وفي سبيل الله وعلى ملّة رسول الله، لا تغلوا، ولاتغدروا ولا تقتلوا شيخاً فانياً ولا صبيّاً ولا امرأة، ولا تقطعوا شجراً إلاّ أن تضطرّوا إليها.

وأيّما رجل من أدنى المسلمين أو أفضلهم نظر إلى أحد من المشركين فهو جار، حتّى يسمع كلام الله فإن تبعكم، فأخوكم في الدين، وإن أبىٰ فابلغوه مأمنه، واستعينوا بالله»[1].

و عنه (عليه السلام) أيضاً أنّه قال:

إنّ النبي(صلّى الله عليه و آله و سلّم) كان إذا بعث أميراً له على سرية أمره بتقوى الله عزّ وجل في خاصّة نفسه، ثمّ في أصحابه عامّة، ثم يقول:

أُغز باسم الله، وفي سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، لا تغدروا، ولا تغلوا، ولاتمثّلوا، ولا تقتلوا وليداً، ولا متبتّلاً في شاهق، ولا تحرقوا النخل ولا تغرقوه بالماء،

---

(١) وسائل الشيعة ج١١ ص٤٣.

ولا تقطعوا شجـرة مثمرة، ولا تحـرقوا زرعاً لأنكـم لا تدرون لعلّكـم تحتاجـون إليه. ولاتعقـروا من البهـائم ما يـؤكل لحمـه إلاّ مـا لابدّ لكـم من أكلـه، وإذا لقيتم عـدوّاً للمسلمين فادعوهم... الخ الحديث»[1].

بل ونصّ بعض الفقهـاء على أنّ المرأة لا تقتل حتّى لو كـانت تعاون الأعداء، لأنّ النساء مستضعفات غالباً، وهنّ يرغمن على القيام بمثل هذا التعاون إرغاماً.

قال المحقّق الحلّي في المختصر النافع:

«ولا تقتل نساؤهم ولو عاونّ إلاّ مع الإضطرار»[2].

وهذا يجسّد منتهى الرحمة والإنسانية التي يتحلّى بها الدين الإسلامي.

وقد جاء في غزوة بدر انّ عمر بن الخطاب قال لرسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم):

يا رسـول الله دعنـي أنزع(أقلع) ثنيّتـي سهيل بـن عمرو، ويدلـع لسانـه(وكان سهيل خطيباً يهرّج ضد النبي) فلا يقوم عليك خطيباً في موطن أبداً.

فقال رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم):

«لا أُمثّل به فيمثّل الله بي وإن كنت نبيّاً»[3].

إنّ المقارنة بين هذه التعاليم والمواقف الإسلامية والجنايات والجرائم الوحشية التي ارتكبتهـا الدول الكبرى في مستعمـراتها كالجزائر وفيتنـام وغيرهما، توقفنـا على إنسانيّة الدين الإسلامي ورحمته في الحرب.

---

(١) وسائل الشيعة ج١١ ص٤٣.

(٢) المختصر النافع، كتاب الجهاد ص١١٢ طبع القاهرة.

(٣) سيرة ابن هشام ج٢ ص٦٤٢.

٣ـ منع ممارسة الأساليب الوحشية

إنّ الإسلام يحرّم إهلاك العدو بالطرق غير الإنسانية مثل إلقاء السم في الماء أو قطعه عنهم، أو إرساله على مُخيّمهم لغرقهم، أو حرقهم بالنار.

وفي ذلك يقول المحقّق الحلّي في المختصر النافع:

«ويجوز المحاربة بكل ما يرجى به الفتح ...»[١].

ثمّ قال:

«ويكره بإلقاء النار، ويحرم بإلقاء السم»[٢].

وقال العلاّمة الحلّي في تبصرة المتعلّمين:

«ويجوز المحاربة بسائر أنواع الحرب، إلاّ إلقاء السم في بلادهم»[٣].

ثمّ ها هو الإمام علي(عليه السلام) في صفّين بعد الإستيلاء على الشريعة لايمنع جيش معاوية عن الماء، وإن كان معاوية قد فعل ذلك من قبل[٤].

إلى هذه الدرجة الرفيعة من الرحمة والشفقة تبلغ رحمة الإسلام، بينما لا تتورّع الدول الكبرى عن قصف الشعوب المقهورة بقنابل النابالم، وغيرها من الوسائل والأدوات الحربية الفتّاكة المروّعة.

ومن الذي لايمكن أن ينسىٰ ما فعلته الولايات المتحدة في الحرب العالمية الثانية حينما قصفت هيروشيما، وناكازاكي بالقنابل الذرية، فأبادت ما يقارب نصف مليون، وحذف ذينك البلدين من الخريطة الجغرافية بحجّة التعجيل في إنهاء الحرب، كما قال ترومن رئيس الجمهورية الأمريكي الأسبق عام ١٩٤٥م؟

---

(١)و(٢) المختصر النافع، كتاب الجهاد: ص١١٢.

(٣) تبصرة المتعلّمين: كتاب الجهاد ص٨١.

(٤) راجع وقعة صفين لابن مزاحم: ص١٦٦ـ١٦٧ (طبعة مصر).

٤ـ أمان الكفّار

إنّ الإسلام ـ بحكم كونـه رسالة إلهية ودعوة سماويّة لهدايـة الإنسان ـ يحرص على دخول الأفراد في صفوف أتباعه، والإنضواء تحت لوائه عن رغبة و إرادة.

ولتحقيق هـذا الهدف الأسمـى نجد الإسـلام يسمح بـإعطاء الأمـان لكلّ مـن يطلب ذلك من الكفّار لكي يسمع منطق الإسـلام، ويتعرّف على تعاليمه، سواء كان ذلك عند نشوب الحرب، أو في غير الحرب.

بل إنّ الإسلام يعطي الحق لكلّ مسلم أن يمنح الأمان لمن شاء، ولو كان لغير الهدف المذكور.

قال المحقّق الحلّي في الشرائع:

«و يجوز أن يذم الواحد من المسلمين لآحاد من أهل الحرب»[1].

و قال في المختصر النافع:

«و يذم الواحد من المسلمين للواحد، و يمضي ذمامه على الجماعة و لو كان أدونهم»[2].

ثمّ إنّ ما يدلّ على مدى عناية الإسلام و حـرصه على الدماء أنّه يجير حتّى من دخل في حوزة المسلميـن بشبهة الأمان و ظنّه فهو مأمون حتّى يـرد إلى مأمنه دون أن يصيبه أذى.

قال المحقّق في الشرائع:

«و كذا كلّ حربي دخل في دار الإسـلام بشبهة الأمان كان يسمع لفظاً فيعتقده أماناً، أو يصحب رفقة فيتوهّمها أماناً»[3].

---

(١) شرائع الإسلام، كتاب الجهاد في الذمام، و راجع الجواهر ج٢١ ص٩٦.

(٢) المختصر النافع، كتاب الجهاد: ص١١٢.

(٣) الشرائع، كتاب الجهاد ج١ ص٣١٣ـ٣١٤.

و قال في المختصر النافع :

«و من دخل بشبهة الأمان فهو آمن حتّى يردّ إلى مأمنه»[1].

و تدلّ على هذا أحاديث منها عن الإمام الصادق(عليه السلام) أنّه قال :

«لو أنّ قوماً حاصروا مدينة فسألوهم الأمان، فقالوا : لا، فظنّوا انّهم قالوا : نعم، فنزلوا إليهم كانوا آمنين»[2].

ومن مظاهر العدل والمساواة انّ الإسلام يجيز أمان العبد المسلم كما يجيز أمان الحر المسلم سواء بسواء.

ويدلّ على هذا الحكم الإسلامي العظيم روايات عديدة منها ما روي عن الإمام الصادق(عليه السلام) لمّا سأله السكوني عن معنى قول النبي(صلّى الله عليه و آله و سلّم) : «يسعى بذمّتهم أدناهم» قال(عليه السلام) :

«لو أنّ جيشاً من المسلمين حاصروا قوماً من المشركين فأشرف رجل، فقال : اعطوني الأمان حتّى ألقى صاحبكم وأُناظره فأعطاه أدناهم الأمان وجب على أفضلهم الوفاء به»[3].

وعن الصادق(عليه السلام) أيضاً أنّه قال :

إنّ عليّاً(عليه السلام) أجاز أمان عبد مملوك لأهل حصن من الحصون وقال :

«هو من المؤمنين»[4].

ولقد روى الجزري في تاريخه الكامل : «إنّ المسلمين نزلوا بجنديسابور فأقاموا عليها يقاتلونهم، فرمي إلى من بها من عسكر المسلمين بالأمان. فلم يفجأ المسلمين إلاّ وقد فتحت أبوابها، وأخرجوا أسواقهم، وخرج أهلها، فسألهم المسلمون، فقالوا : رميتم بالأمان، فقبلناه، وأقررنا بالجزية على أن تمنعونا.

---

(١) المختصر النافع، كتاب الجهاد : ص١١٢.

(٢) وسائل الشيعة ج١٥ ص٥٠.

(٣) و(٤) وسائل الشيعة ج١٥ ص٤٩و٥٠.

فقال المسلمون : ما فعلنا ... .

وسـأل المسلمون فيمـا بينهـم ، فإذا عبـد يـدعىٰ «مكثفـاً» كـان أصله منهـا ، فعل هذا .

فقالوا : هو عبد .

فقال أهلها : لا نعرف العبد من الحر ، وقد قبلنـا الجزية ، وما بدّلنا ، فان شئتم فاغدروا . فكتبوا لعمر فأجاز أمانهم ، فأمّنوهم وانصرفوا عنهم»[1] .

وهذا هو نموذج واحد من سلوك المسلمين في هذا المجال يجد نظائره كل من راجع التاريخ الإسلامي .

---

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير الجزري ج٢ ص٣٨٧ـ٣٨٨ .

(١٣)

واقعـة الغديـــر

لا شك في انّ الدين الإسلامي دين عالمـي، وشريعة خاتمة، وقد كانت قيادة الأمّة الإسـلامية من شؤون النبـي الأكرم(صلّى الله عليـه و آله و سلّم) مادام علـى قيد الحياة،وطبع الحال يقتضي أن يوكل مقام القيادة بعده إلى أفضل أفراد الأمّة وأكملهم.

إنّ في هـذه المسألـة وهي أنّ منصب القيـادة بعد النبـي(صلّى الله عليـه و آله وسلّم) هل هو منصب تنصيصي تعييني أو أنّه منصب انتخابي؟ اتّجاهين:

فالشيعـة ترى أنّ مقام القيـادة منصب تنصيصـي، ولابد أن ينصّ علـى خليفة النبي من السماء، بينمـا يرى أهل السنّة أنّ هذا المنصب انتخـابي جمهوري، أي أنّ على الأمّة أن تقوم بعد النبي باختيار فرد من أفرادها لإدارة البلاد.

إنّ لكـل من الاتّجـاهين المـذكوريـن دلائل، ذكرهـا أصحابهمـا في الكتـب العقائدية، إلاّ أنّ ما يمكن طرحه هنا هو تقييـم ودراسة المسألة في ضوء دراسة وتقييم الظروف السـائدة في عصـر الرسـالة، فانّ هـذه الدراسـة كفيلة بـاثبات صحّـة أحد الاتّجاهين.

إنّ تقييم الأوضاع السياسية داخل المنطقة الاسلامية وخارجها في عصر الرسالة يقضي بأنّ خليفة النبي لابد أن يعيَّن من جانب الله تعالى، ولا يصحّ أن يوكل هذا إلى الأمّة، فانّ المجتمع الإسلامي كان مهدّداً على الدوام بالخطر الثلاثي(الروم ـ الفرس ـ المنافقين) بشنّ الهجوم الكاسح، وإلقاء بذور الفساد والاختلاف بين المسلمين.

كما أنّ مصـالح الأمّة كـانت توجـب أن يوحّد صفـوف المسلمين في مـواجهة الخطر الخارجـي، وذلك بتعيين قائد سيـاسي من بعده، وبـذلك يسد الطريـق على

نفوذ العدو في جسم الأُمّة الإسلامية والسيطرة عليها، وعلى مصيرها.

وإليك بيان وتوضيح هذا المطلب:

لقد كانت الامبراطورية الرومانية أحد أضلاع الخطر المثلث الذى يحيط بالكيان الإسلامي، ويهدّده من الخارج والداخل.

وكانت هذه القوة الرهيبة تتمركز فى شمال الجزيرة العربية، وكانت تشغل بال النبي القائد على الدوام، حتى أنّ التفكير فى أمر الروم لم يغادر ذهنه وفكره حتى لحظة الوفاة، والالتحاق بالرفيق الأعلى.

وكانت أول مواجهة عسكرية بين المسلمين، والجيش المسيحي الرومي وقعت في السنة الثامنة من الهجرة في أرض فلسطين، وقد أدّت هذه المواجهة إلى مقتل القادة العسكريين البارزين الثلاثة وهم«جعفر الطيار» و«زيد بن حارثة» و«عبد الله بن حارثة».

ولقد تسبّب انسحاب الجيش الإسلامي بعد مقتل القادة المذكورين إلى تزايد جرأة الجيش القيصري المسيحي، فكان يخشى بصورة متزايدة أن تتعرّض عاصمة الإسلام للهجوم الكاسح من قبل هذا الجيش.

من هنا خرج رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) في السنة التاسعة للهجرة على رأس جيش كبير جداً إلى حدود الشام ليقود بنفسه أيّة مواجهة عسكرية، وقد استطاع الجيش في هذه الرحلة الصعبة المضنية أن يستعيد هيبته الغابرة، ويجدد حياته السياسية.

غير انّ هذا الانتصار المحدود لم يقنع رسول الله(صلّى الله عليه و آله وسلّم)، فأعدّ قُبيل مرضه جيشاً كبيراً من المسلمين، وأمّر عليهم «أُسامة بن زيد»، وكلّفهم بالتوجّه إلى حدود الشام، والحضور في تلك الجبهة.

أمّا الضلع الثاني من المثلث الخطير الذي كان يهدد الكيان الإسلامي، فكان

الامبراطورية الايرانيـة(الفارسية) وقـد بلغ مـن غضب هذه الامبـراطورية علـى رسول الله(صلّى الله عليـه و آله و سلّم) ومعاداتها لـدعوته، أن أقدم امبراطـور ايران«خسرو بـرويـز» على تمزيق رسـالة النبي، و تـوجيه الإهانـة إلى سفيره باخـراجه من بـلاطه، والكتـابة إلـى واليه وعميلـه بـاليمن بـأن يوجّـه إلـى المدينـة من يقبـض على رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم)، أو يقتله إن امتنع.

و«خسرو» هذا وإن قتل في زمن رسـول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) إلاّ أنّ استقلال اليمن ــ التي رزحت تحت استعمـار الامبراطورية الايـرانية ردحاً طويـلاً من الزمـان ـ لم يغـب عن نظـر ملوك ايران آنـذاك، وكان غرور أُولئـك الملوك وتجبّـرهم وكبرياءهم لا يسمح بتحمّل منافسة القوة الجديدة(القوة الاسلامية) لهم.

والخطـر الثالـث كان هـو خطر حـزب النفاق الـذي كان يعمـل بين صفـوف المسلمين كالطابور الخامس وعلى تقويـض دعائم الكيان الاسلامي من الداخل إلى درجة أنّهم قصدوا اغتيال رسول الله، في طريق العودة من تبوك الى المدينة.

فقد كان بعض عناصر هذا الحزب الخطر يقول في نفسه: إنّ الحركة الاسلامية سينتهي أمرها بموت رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) ورحيله، وبذلك يستريح الجميع[1].

ولقد قام أبـوسفيان بن حرب بعد وفـاة رسول الله(صلّى الله عليـه و آله و سلّم) بمكيدة مشـؤومة لتوجيه ضـربة إلى الأُمّة الاسـلامية من الـداخل، وذلك عندمـا أتى علياً(عليه السلام) وعرض عليه أن يبايعه ضدّ من عيّنه رجال السقيفة، ليستطيع بذلك تشطير الأُمّة الاسلامية الواحدة إلى شطريـن متحاربين متقاتلين، فيتمكّن من التصيّد في الماء العكر.

ولكنّ الإمـام علياً(عليه السلام) أدرك بـذكائه البالـغ نوايا أبي سفيـان الخبيثة، فرفض مطلبه وقال له كاشفاً عن دوافعه ونواياه الشريرة:

---

(١) الطور/ ٣٠.

«والله ما أردت بهذا إلاّ الفتنة، و إنّك والله طالما بغيت للإسلام شراً. لا حاجة لنا في نصيحتك»[1].

ولقد بلغ دور المنافقين التخريبي من الشدّة بحيث تعرّض القرآن لـذكرهم في سور عديدة هي: سورة آل عمران، والنساء، والمائدة، والأنفال، والتوبة، والعنكبوت، والأحزاب، ومحمد، والفتح، والمجادلة، والحديد، والمنافقين، والحشر.

فهل مع وجود مثل هؤلاء الأعداء الخطرين والأقوياء الذين كانوا يتربّصون بالاسلام الدوائر، ويتحيّنون الفرص للقضاء عليه، يصح أن يترك رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) أُمّته الحديثة العهد بالإسلام، الجديدة التأسيس من دون أن يعيّن لهم قائداً دينياً سياسيا؟

إنّ المحاسبات الاجتماعية تقول: إنّه كان من الواجب أن يمنع رسول الاسلام بتعيين قائد للأُمّة، . . من ظهور أيّ اختلاف وانشقاق فيها من بعده، وأن يضمن استمرار وبقاء الوحدة الاسلامية بايجاد حصن قوي وسياج دفاعي متين حول تلك الأمّة.

إنّ تحصين الأُمّة، وصيانتها من الحوادث المشؤومة، والحيلولة دون مطالبة كل فريق«الزعامة» لنفسه دون غيره، وبالتالي التنازع على مسألة الخلافة والزعامة، لم يكن ليتحقق، إلاّ بتعيين قائد للأُمّة، وعدم ترك الأُمور للاقدار.

إنّ هذه المحاسبة الاجتماعية تهدينا إلى صحة نظرية«التنصيص على القائد بعد رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم)» ولعلّ لهذه الجهة، ولجهات أُخرى طرح رسول الإسلام مسألة الخلافة في الأيام الأُولى من ميلاد الرسالة الأسلامية، وظلّ يواصل طرحها والتذكير بها طوال حياته حتى الساعات الأخيرة منها، حيث عيّن خليفته ونصّ عليه بالنصّ القاطع الواضح الصريح في بدء دعوته، وفي نهايتها أيضاً.

و إليك بيان كلاهذين المقامين:

---

(١) الكامل في التاريخ ج٢ ص٢٢٢، العقد الفريد ج٢ ص٢٤٩.

١ـ النبوّة والامامة توأمان

بغضّ النظـر عن الأدلّة العقلية والفلسفيـة التي تثبت صحّة الـرأي الأول بصورة قطعية، هناك أخبار وروايات وردت في المصادر المعتبرة تثبت صحة الموقف والرأي الذي ذهب إليه علماء الشيعة وتصدّقه، فقـد نصّ النبي(صلّى الله عليه و آله و سلّم) على خليفته من بعده في الفترة النبوية من حياته مراراً وتكراراً، وأخرج موضوع الإمامة من مجال الانتخاب الشعبي والرأي العام.

فهو لـم يعيّن(ولـم ينص على) خليفتـه ووصيه مـن بعده في أُخـريات حيـاته فحسب، بل بادر إلى التعريف بخليفته ووصيه في بدء الدعوة يوم لم ينضو تحت راية رسالته بعـد، سوى بضع عشرة من الأشخاص، وذلـك يوم أُمر من جانـب الله العلي القدير أن ينذر عشيرتـه الأقربين من العذاب الإلهي الأليم. وأن يدعـوهم إلى عقيدة التوحيد قبل أن يصدع رسالته للجميع ويبدأ دعوته العامة للناس كافة.

فجمع أربعين رجـلاً من زعمـاء بني هـاشم وبنـي المطلب، ثـم وقف فيهـم خطيباً، فقال:

«أيّكم يؤازرني على هذا الأمر على أن يكون أخي ووصيي وخليفتي فيكم؟»

فأحجم القوم، وقام عليّ(عليه السلام) وأعلن مـؤازرته وتأييده له، فأخذ رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) برقبته، والتفت الى الحاضرين، وقال:

«إنّ هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم»[1].

وقد عـرف هذا الحديـث عند المفسريـن والمحدثين: بـ «حديث يـوم الدار» و«حديث بدء الدعوة».

على أنّ رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّـم) لم يكتف بالنص على خليفته فـي بـدء رسـالته، بـل صـرّح فـي منـاسبـات شتّـى فـي السفر والحضـر، بخـلافـة

(١) تاريخ الطبري ج٢ ص٢١٦، الكامل في التاريخ ج٢ ص٦٢و٦٣، و قد مرّ مفصّلاً في هذه الدراسة فراجع.

علي(عليه السلام) من بعده، ولكن لايبلغ شيء من ذلك في الأهمية والظهور والصراحة والحسم ما بلغه حديث الغدير.

٢ـ قصة الغدير

لمّا انتهت مراسيم الحج، وتعلّم المسلمون مناسك الحجّ من رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) قرر رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) الرحيل عن مكة، والعودة إلى المدينة، فأصدر أمراً بذلك، ولمّا بلغ موكب الحجيج العظيم إلى منطقة«رابغ»[1] التي تبعد عن«الجحفة»[2] بثلاثة أميال، نزل أمين الوحي جبرئيل على رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) بمنطقة تدعى«غدير خم»، وخاطبه بالآية التالية:

﴿**يا أيُّها الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وإنْ لَمْ تَفْعَلْ فما بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ وَاللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النّاس**﴾(المائدة/ ٦٧).

إنّ لسان الآية وظاهرها يكشف عن أنّ الله تعالى ألقى على عاتق النبي(صلّى الله عليه و آله و سلّم) مسؤولية القيام بمهمة خطيرة، وأي أمر أكثر خطورة من أن ينصّب علياً(عليه السلام) لمقام الخلافة من بعده على مرأى ومسمع من مائة ألف شاهد؟!

من هنا أصدر رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) أمره بالتوقّف، فتوقّفت طلائع ذلك الموكب العظيم، والتحق بهم من تأخر.

لقد كان الوقت وقت الظهيرة، وكان المناخ حاراً إلى درجة كبيرة جداً، وكان الشخص يضع قسماً من عباءته فوق رأسه والقسم الآخر منها تحت قدميه، وصنع للنبي(صلّى الله عليه و آله و سلّم) مظلّة وكانت عبارة عن عباءة أُلقيت على أغصان

---

(١) رابغ تقع الآن على الطريق بين مكّة و المدينة.

(٢) من مواقيت الاحرام و تنشعب منها طرق المدنيين و المصريين و العراقيين.

شجرة(سمـرة)، وصلّى رسول الله(صلّـى الله عليه و آله و سلّـم) بالحاضريـن الظهر جماعة، وفيما كان الناس قد أحاطوا بـه صعد(صلّى الله عليه و آله و سلّم) على منبر أُعدّ من أحداج الإبل وأقتابها، وخطب في الناس رافعاً صوته، وهو يقول:

«الحمدلله ونستعينـه ونؤمن به ونتوكـل عليه، ونعوذ به من شـرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنـا الذي لا هادي لمن أضـلّ، ولا مضلّ لمن هدى، وأشهـد أنّ لاإله إلاّ هو، وأنّ محمداً عبده ورسوله.

أمـا بعـد: أيّهـا النـاس إنّـي أوشك أن أُدعـى فـأُجيـب، وأنّـي مسـؤول وأنتـم مسؤولون، فماذا أنتم قائلون؟»

قالوا: «نشهد أنّك قد بلّغت ونصحت وجهدت، فجزاك الله خيراً».

قـال(صلّى الله عليـه و آله و سلّـم): «ألستم تشهـدون أن لا إله إلاّ اللـه، وأنّ محمداً عبده ورسوله، وأنّ جنّته حق، وأنّ الساعة آتية لا ريب فيها، وأنّ الله يبعث من في القبور؟»

قالوا: بلى نشهد بذلك.

قال(صلّى الله عليه و آله و سلّم): «اللّهمّ اشهد».

ثم قال(صلّى الله عليه و آله و سلّم): «وإنّـي تارك فيكم الثقلين ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا أبدا».

فنادى مناد: «بأبي أنت وأُمّي يا رسول الله وما الثقلان؟»

قال(صلّـى الله عليه و آله و سلّـم): «كتاب الله سبـب طرف بيد اللـه، وطرف بأيديكم، فتمسّكوا به، والآخر عترتي، وانّ اللطيـف الخبير نبّأني انّهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض، فلا تقدموهما فتهلكوا، ولا تقصروا عنهما فتهلكوا».

وهنا أخذ بيد«عليّ»(عليه السلام) ورفعها، حتى رؤي بياض اباطهما، وعرفه الناس أجمعون ثم قال:

«أيّها الناس من أولى الناس بالمؤمنين من أنفسهم؟»

قالوا: «الله ورسوله أعلم».

فقال(صلّى الله عليه و آله و سلّم):

«إنّ الله مولاي وأنا مولى المؤمنين وأنا أولى بهم من أنفسهم، فمن كنت مولاه فعليّ مولاه[1].

اللّهمّ وال من والاه، وعاد من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله، وأحب من أحبّه، وابغض من أبغضه، وأدر الحق معه حيث دار»[2].

فلمّا نزل من المنبر، استجاز حسان بن ثابت شاعر عهد الرسالة في أن يفرغ ما نزل به الوحي في قالب الشعر، فأجازه الرسول، فقام وأنشد:

يناديهم يوم الغدير نبيهم	بخمّ وأكرم بالنبي مناديا
يقول فمن مولاكمُ ووليّكم	فقالوا ولم يبدو هناك التعاميا
إلهك مولانا وأنت وليّنا	ولم تَرَ منّا في الولاية عاصيا
فقال له قم يا عليّ فانّني	رضيتك من بعدي إماماً وهاديا
فمن كنت مولاه فهذا وليّه	فكونوا له أنصار صدقٍ مواليا
هناك دعا: اللّهمّ! وال وليّه	وكن للذي عادا علياً معاديا

مصادر الواقعة

هذه هي واقعة الغدير استعرضناها لك على وجه الإجمال، وهي بحق واقعة لا يسوغ لأحد انكارها بأدنى مراتب التشكيك والقدح، فقد تناولها بالذكر أئمّة المؤرّخين أمثال: البلاذري، وابن قتيبة، والطبري، والخطيب البغدادي، وابن عبد البر، وابن عساكر، وياقوت الحموي، وابن الأثير، وابن أبي الحديد، وابن خلكان، واليافعي، وابن كثير، وابن خلدون، والذهبي، وابن حجر العسقلاني، وابن صباغ المالكي،

---

(١) لقد كرّر النبي(صلّى الله عليه وآله وسلّم) هذه العبارة ثلاث مرات دفعاً لأيّ التباس أو اشتباه.

(٢) راجع للوقوف على مصادر هذا الحديث المتواتر موسوعة الغدير للعلاّمة الأميني(ره).

والمقريزي، وجلال الدين السيوطي، ونورالـدين الحلبي الى غير ذلك من المؤرخين الذين جادت بهم القرون والأجيال.

كما ذكره أيضاً أئمة الحديث أمثال: الإمام الشافعي، و أحمد بن حنبل، وابن ماجة، والترمذي، والنسائي، وأبو يعلى الموصلي، والبغوي، والطحاوي، والحاكم النيسابـوري، وابن المغـازلي، والخطيـب الخوارزمـي، والكنجي، ومحـب الديـن الطبري، والحمويني، والهيثمي، والجزري، والقسطـلاني، والمتقي الهندي، وتاج الدين المناوي، وأبو عبد الله الزرقاني، وابـن حمزة الدمشقي الى غير ذلك من أعلام المحدّثين الذين يقصر المقال عن عدّهم وحصرهم.

كما تعرض له كبار المفسرين، فقـد ذكره: الطبري، والثعلبي، والواحدي في أسباب النـزول، . والقرطبـي، وأبو السعـود، والفخر الـرازي، وابن كثيـر الشامـي، والنيسابوري، وجلال الدين السيوطي، والآلوسي، والبغدادي.

وذكره من المتكلمين طائفـة جمّة في خاتمة مباحث الإمامـة وإن ناقشوا نقضاً وابرامـاً في دلالته كالقـاضي أبي بكر البـاقلاني في تمهيـده، والقاضي عبد الـرحمن الايجي في مواقفه، والسيد الشريف الجرجانـي في شرحه، وشمس الدين الاصفهاني في مطالع الأنوار، والتفتـازاني في شرح المقاصد، والقوشجي فـي شرح التجريد إلى غير ذلـك من المتكلمين الـذين تعرضـوا لحديث الغديـر وبحثوا حول دلالتـه ووجه الحجّة فيه.

واقعة الغدير ورمز الخلود:

أراد المولـى عزّ وجـلّ أن يبقى حـديث الغـدير غضّـاً طريـاً على مـر الأجيال لم يُكـدّر صفاء حقيقته النـاصعة تطاول الأحقـاب، وكرّ الأزمان، وانصـرام الأعوام، ويرجع ذلك إلى أُمور ثلاثة:

١ـ إنّ النبي (صلّى الله عليه و آله و سلّم) قد هتف به في مزدحم غفير يربو على

عشرات الآلاف عند منصرفه من الحج الأكبر، فنهض بالدعوة والاعلان، وحوله جموع من وجوه الصحابه وأعيان الأمة، وأمر بتبليغ الشاهد الغائب ليكونوا كافّة على علم وخبر بما تم ابلاغه.

٢ ـ إنّ الله سبحانه قد أنزل في تلك المناسبة آيات تلفت نظر القارئ إلى الواقعة عندما يتلوها و إليك الآيات:

أ ـ ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَ اللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾(المائدة/ ٦٧).

و قد ذكر نزولها في واقعة الغدير لفيف من المفسّرين يربو عددهم على الثلاثين، و قد ذكر العلاّمة البحّاثة المحقق الأميني في كتاب الغدير نصوص عبارات هؤلاء، فمن أراد الاطّلاع عليها، فليرجع إليه.

ب ـ ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَ رَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً﴾(المائدة/ ٣).

و قد نقل نزول الآية جماعة منهم يزيدون على ستة عشر.

ج ـ ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ * لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ * مِنَ اللهِ ذِى الْمَعَارِجِ﴾(المعارج/ ١ـ٣).

و قد ذكر أيضاً نزول هذه الآية جماعة من المفسرين ينوف على الثلاثين أضف إلى ذلك انّ الشيعة عن بكرة أبيهم متّفقون على نزول هذه الآيات الثلاث في شأن هذه الواقعة[١].

٣ ـ إنّ الحديث منذ صدوره من منبع الوحي تسابقت الشعراء و الأُدباء على نظمه، و انشاده في أبيات و قصائد امتدّت وقعتها منذ عصر انبثاق ذلك النص في تلك المناسبة إلى عصرنا هذا، و بمختلف اللغات و الثقافات، و قد تمكّن البحّاثة المتضلّع العلاّمة الأميني من استقصاء و جمع كل ما نظم باللغة العربية حول تلك

---

(١) راجع كتاب الغدير في شأن نزول هذه الآيات ج١ ص٢١٤ و ٢١٧.

الحادثة، و المؤمّل و المنتظر من كافّة المحققين على اختلاف ألسنتهم و لغاتهم استنهاض هممهم لجمع ما نظم و أُنشد في أدبهم الخاص.

و حصيلة الكلام: قلّما نجد حادثة تاريخية حظيت في العالم البشري عامّة، و في التاريخ الإسلامي و الأُمة الإسلامية خاصة بمثل ما حظيت به واقعة الغدير، و قلّما استقطبت اهتمام الفئات المختلفة من المحدثين و المفسرين و الكلاميين و الفلاسفة و الأُدباء و الكتّاب و الخطباء و أرباب السير و المؤرخين كما استقطبت هذه الحادثة، و قلّما اعتنوا بشيء مثلما اعتنوا به.

هذا و يستفاد من مراجعة التاريخ انّ يوم الثامن عشر من شهر ذى الحجة الحرام كان معروفاً بين المسلمين بيوم عيد الغدير، و كانت هذه التسمية تحظى بشهرة كبيرة إلى درجة انّ ابن خلكان يقول حول «المستعلى بن المستنصر»:

«فبويع في يوم غدير خم، و هو الثامن عشر من شهر ذى الحجة سنة ٤٨٧هـ»[١].

و قال في ترجمة المستنصر بالله العبيدي: «و توفي ليلة الخميس لاثنتي عشرة ليلة بقيت من ذى الحجة سنة سبع و ثمانين و اربعمائة، قلت:و هذه هي ليلة عيد الغدير أعني ليلة الثامن عشر من شهر ذى الحجة، و هو غدير خم»[٢].

و قد عدّه أبو ريحان البيروني في كتابه الآثار الباقية «ممّا استعمله أهل الإسلام من الأعياد»[٣].

و ليس ابن خلكان، و أبوريحان البيروني، هما الوحيدان اللذان صرّحا بكون هذا اليوم هو عيد من الأعياد، بل هذا الثعالبي قد اعتبر هو الآخر ليلة الغدير من الليالي المعروفة بين المسلمين[٤].

---

(١) و (٢) وفيات الأعيان ج١ ص٦٠.

(٣) ترجمة الآثار الباقية: ص٣٩٥، الغدير ج١ ص٢٦٧.

(٤) ثمار القلوب: ص٥١١.

إنّ عهـد هذا العيـد الإسلامـي، و جذوره تـرجع إلـى نفس يـوم«الغديـر» لأنّ النبي(صلّى الله عليه و آله و سلّم) أمر المهاجرين و الأنصار، بل أمر زوجاته و نساءه في ذلك اليوم بالدخول على «عليّ»(عليه السلام)، و تهنئته بهذه الفضيلة الكبرى.

يقول زيـد بن أرقـم: كان أوّل من صـافح النبي(صلّـى الله عليه و آلـه و سلّم) وعليّاً: أبوبكر، و عمر، و عثمان، وطلحة، و الزبير، و باقي المهاجرين و الأنصار، و باقي الناس[1].

الحمـد لله الـذي جعلنـا من المتمسّكيـن بولايـة علي بـن أبي طالب ــ عليه السلام ــ.

خاتمة المطاف

ما قدّمنـاه إليك في الفصول السابقـة حول حياة النبي و شخصيتـه كان مقتبساً من الـذكر الحكيم ومـدعماً بـالتاريخ والأحـاديث الصحيحة، وكـان الجديـر بنا أن نجعجع بالقلم عن الإفاضة ونترك ما بقي من خصوصيات حياته وشخصيته إلى كتب السيرة لمن أراد التوسّع.

غير انّا نحب أن نركّز في الخاتمة على أسـاليب دعوته في عصر الرسالة ليكون قدوة لنا في هذا السبيل، ونكتفي من الكثير بالقليل.

(١) راجع مصدره في الغدير ج١ ص٢٧٠.

(١٤)

الإعلام وأساليبه في عصر الرسالة

إنّ انتشار أي دين أو أيديـولوجية ورسوخها في العقول والنفوس يتـوقّف مضافاً إلى اتقان ذلك الدين في محتواه ومضامينه على الدعوة الصحيحة إليه، وعرضه عرضاً واسعاً وشاملاً.

وقد توفّر في الإسلام هذان الجانبان:

أمّا الأوّل: فإنّ الإسلام ذو أُصول، ومفاهيم تنطبـق على الفطرة الإنسانية، فهو يدعـو إلى العـدل والإحسان، واجتنـاب البغي والعـدوان، وإلى النظـر في ملكـوت السماوات والأرض، وإلـى العلم والقراءة والكتـابة، وإلـى التعاون والتعاضـد، وغير ذلك مـن الأُصول الاجتمـاعية والأخلاقيـة التي تـوافق فطرة البشـر وتعضدهـا العقول بلااستثناء.

كما أنّ الإسلام لا يشتمل علـى أيّة عقيدة رمزية أو أُصول معقّـدة لا تقدر على حلّها الأفكار، ولا تستطيع على دركها العقول، كما هو الحـال في «تثليث» البراهمة والمسيحيين.

وأمّا الثاني: فإنّ القرآن الكريم يسعى بكل قوّة ووسيلة ممكنة إلى نشر الاسلام، فيخاطـب النبي(صلّـى الله عليه و آلـه و سلّم) ويأمـره بالإنـذار و التبشير، والـدعوة والتبليغ، والصدع والموعظة، والتذكير، والبيـان، والتعليم، والانباء، إلى غير ذلك من الأساليب التي تعرب عن لزوم قيام النبي بتبليغ الرسالة الاسلامية إلى الناس، بكل صورة ممكنة، وإليك نماذج من تلك الخطابات.

ففي مجال الانذار يقول تعالى : ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾(الشعراء/ ٢١٤) .

وفي مجال التبشير يقول تعالى : ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ اَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ﴾(البقرة/ ٢٥) .

ويقول تعالى : ﴿إِنَّا اَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾(الفتح/ ٨) .

وفي مجال الدعوة يقول سبحانه : ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالحِكْمَةِ وَالمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ﴾(النحل/ ١٢٥) .

وفي مجال الابلاغ يقول سبحانه : ﴿فَإِنْ اَعْرَضُوا فَمَا اَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ البَلاَغُ﴾(الشورى/ ٤٨) .

وفي مجال الصدع يقول سبحانه : ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾(الحجر/ ٩٤) .

وفي مجال الموعظة يقول تعالى : ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُم﴾(النساء/ ٦٣) .

وفي مجال التذكير يقول تعالى : ﴿فَذَكِّرْ بِالقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيد﴾(ق/ ٤٥) .

وفي مجال البيان يقول سبحانه : ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾(النحل/ ٤٤) .

وفي مجال التعليم يقول سبحانه : ﴿يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ﴾(البقرة/ ١٥١) .

وفي مجال التنبّؤ قال سبحانه :﴿نَبِّئْ عِبَادِي اَنِّي اَنَا الغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾(الحجر/ ٤٩) .

وقد قام النبي(صلّى الله عليه وآله) بهذا الأمر، وعرض الاسلام عرضاً كاملاً قويّاً، فدعا أهله وأقرباءه أوّلاً، ثم دعا قومه وأبناء جلدته ثانياً، ولمّا استتبّ له الأمر، واستقرّ به المقام في المدينة المنوّرة، وجّه دعاته إلى شتّى أقطار الأرض وكلّفهم بابلاغ دينه ومنهاجه إلى الملوك والأُمراء والشعوب والقبائل، وتحقّق هذا العمل بشكل واسع حتى لم يلبث أن بلغ نداء الاسلام إلى مسامع جميع المجتمعات البشرية، دانيها وقاصيها في مدة لا تتجاوز قرناً واحداً من الزمان.

نماذج من الإعلام في العهد النبوي

وقد تمثّل الإعلام الإسلامي في العهد النبوي، في أُمور قام بها رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) في مجال تبليغ الإسلام، و إيصال نداءه إلى مسامع البشرية في مختلف الأقطار والأصقاع وهذه الأُمور هي:

١ـ البعثات الإعلامية

قد قام النبي الأكرم بارسال مبعوثين ومندوبين للدعوة والتبليغ، ونذكر على سبيل المثال مصعب بن عمير، الذي بعثه رسول الله(صلّى الله عليه وآله وسلّم) إلى المدينة ليعلّم الناس القرآن، ويفقّههم في الدين، وكان شابّاً ذكياً أسلم عن رغبة وتفهّم وتعلّم من القرآن كثيراً، فأمره رسول الله(صلّى الله عليه وآله وسلّم) بالخروج إلى المدينة مع بعض من آمن من أهلها برسول الله(صلّى الله عليه وآله وسلّم)، ليدعو أهل المدينة من الأوس والخزرج إلى الإسلام، فاستطاع بحسن تدبيره، وفضل حكمته في التبليغ والإرشاد أن يستقطب عدداً كبيراً من أهل المدينة شيباً و شباباً ورجالاً و نساءً إلى الإسلام حتى لم يلبث أن جعل من يثرب مدينة إسلامية تهيّأت لاستقبال رسول الله أكبر استقبال، وهو لم يملك إلاّ إيماناً صادقاً و إخلاصاً في العمل[1].

وبعد ما هاجر إلى المدينة بعث مجموعات تبليغية لنشر الإسلام ودعوة الناس إليه، وأخصّ بالذكر مجموعتين تبليغيتين أرسلهما رسول الإسلام إلى بعض القبائل لتعليمها القرآن الكريم وأحكام الاسلام، وهاتان المجموعتان هما:

المجموعة الأُولى: التي بعثها رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) إلى قبيلتي عضل وقارة.

فقد طلبت القبيلتان من النبي(صلّى الله عليه و آله و سلّم) أن يبعث إليهم من

---

(١) أعلام الورى ص٢٧.

يعلّمهم القرآن، ويفقّههم في الاسلام.

فاستجاب النبي لهذا الطلب، وأرسل ستة أشخاص، وأمر عليهم مرثد بن أبي مرثد الغنوي، ولكن القوم غدروا بأُولئك المبلغين الأبرياء، فقتلوا من قتلوا منهم، وأسروا رجلين منهم باعوهما لقريش، فصلبوهما انتقاماً لقتلى بدر من المشركين والقصة مفصّلة[1].

المجموعة الثانية: وهي المجموعة التبليغية التي أرسلها رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) إلى قبيلة«بني عامر» لطلب أحد زعمائها الكبار، وذلك قبل أن يبلغه غدر عضل وقارة بالمجموعة الأُولى، وقد أرسلهم بعد أخذ مواثيق وضمانات من الطالب، ولكن هذه المجموعة التي كانت تتألّف من أربعين شخصاً من خيرة القرّاء قد واجهت نفس ما واجهت المجموعة التبليغية الأُولى، ولكن لا على أيدي القبيلة المبعوثين إليها، بل على يد آخرين من القبائل المشركة المعادية للإسلام، وقد وقع الغدر والفتك بهم في منطقة تدعى بئر معونة[2].

وقد أحزنت هاتان الفاجعتان رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) إلاّ أنّهما لم يثنيا عزمه الشريف عن مواصلة التبليغ، بل واصل ارسال المبلّغين والرسل إلى مناطق أُخرى كما أرسل طائفة كبيرة إلى الملوك والأُمراء والقبائل وزعماء الجماعات داخل الجزيرة العربية وخارجها.

٢ـ الرسائل الإعلامية

و إليك فيما يلي طائفة من الرسائل التي بعثها النبي(صلّى الله عليه و آله و سلّم) يدعو فيها رؤساء القبائل إلى الاسلام، ونخص بالذكر كتبه الاعلامية فقط:

(١) المغازي ج١ ص٣٥٤ـ٣٦٢، و السيرة النبوية لابن هشام ج٢ ص١٦٩.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ج٢ ص١٨٣ـ١٨٧.

١ ـ كتابه إلى سمعان بن عمرو الكلابي .

٢ ـ كتابه إلى ورد بن مرداس أحد بني سعد هذيم .

٣ـ كتابه إلى الاقيال من حضرموت .

٤و٥ـ كتابان إلى أهل قريتين .

٦ـ كتابه إلى بني حارثة بن عمرو بن قريط .

٧ـ كتابه إلى عبد العزيز بن سيف بن ذي يزن .

٨ـ كتابه إلى عمرو بن مالك بن عمير الأرحبي .

٩ـ كتابه إلى عريب والحارث ابني عبد كلال .

١٠ ـ ١٦ـ سبعة كتب إلى فهد وزرعة وبس وغيرهم من ملوك حمير.

١٧ـ كتابه إلى جفينة النهدي .

١٨ـ كتابه إلى ملك الروم .

١٩ـ كتابه إلى عبد الله بن الحارث الأعرج الأزدي الغامدي .

٢٠ـ كتابه إلى خراش بن جحش العبسي .

٢١ـ كتابه إلى سرباتك ملك الهند .

٢٢ـ كتابه إلى قيس بن عمر الهمداني .

٢٣ـ كتابه إلى جبلّة بن الأيهم الغساني .

٢٤ـ كتابه إلى بني معاوية من كندة .

٢٥ـ كتابه إلى نفاثة بن فروة ملك السماوة .

٢٦ـ كتابه إلى عذرة .

٢٧ـ كتابه إلى ذي عمرو.

٢٨ـ كتابه إلى ذي الكلاع .

٢٩ـ كتابه إلى اسيخب .

٣٠ـ كتابه إلى حوشب ذي ظليم .

٣١ـ كتابه إلى رعية السحيمي .

٣٢ـ كتابه إلى قيس بن مالك[١].

هذه كتاباته التبليغية التي وردت أسماؤها في الكتب، وإن ذهبت ألفاظها وعبارتها فلم يبق منها إلاّ الإسم .

وهناك كتب تبليغية له(صلّى الله عليه و آله و سلّم) موجودة بأعيانها وخصوصيّاتها في كتب السير والتاريخ والحديث، والكلّ يدلّ على أنّ الإسلام انتشر في العالم بفضل الدعوة الصحيحة وبعث الدعاة والرسل، ولو كان هناك سل السيف وسفك الدم، فإنّما كان لرفع الحواجز بين الرسول وتبليغه .

و إليك أسماء كتبه الموجودة التبليغيّة التي أرسلها إلى الملوك والأُمراء والشيوخ والقبائل على نحو الإيجاز والإيعاز والتفصيل يطلب من مظانّه[٢].

مراسلة الملوك والأُمراء ورؤساء القبائل

إنّ أبرز كتبه في الدعوة إلى الاسلام هي :

١ـ كتابه إلى كسرى ملك الفرس .

٢ـ كتابه إلى قيصر عظيم الروم .

٣ـ كتابه إلى النجاشي ملك الحبشة .

٤ـ كتابه إلى المقوقس ملك مصر .

---

(١) لاحظ مكاتيب الرسول للعلاّمة الأحمدي ص٣٥ـ٤٠ .

(٢) راجع الوثائق السياسية و مكاتيب الرسول .

٥ـ كتابه إلى ملوك الشام واليمامة .

٦ـ كتابه إلى الحارث بن أبي شمر.

٧ـ كتابه إلى هوذة بن علي الحنفي ملك اليمامة .

٨ـ كتابه إلى المنذر بن ساوي .

٩ـ كتابه لرفاعة بن زيد الجزامي .

١٠ـ كتابه إلى جيفر وعبد ابني الجلندي .

١١ـ كتابه إلى فروة بن عمرو الجذابي .

١٢ـ كتابه إلى أكثم بن صيفي .

١٣ـ كتابه إلى اسيخب بن عبد الله .

١٤ـ كتابه إلى يحنه بن رؤبة وسروات أهل أيلة .

١٥ـ كتابه إلى زيادبن جهور.

١٦ـ كتابه إلى بكر بن وائل .

١٧ـ كتابه إلى مسيلمة الكذّاب .

١٨ـ كتابه إلى ضغاطر الأسقف .

١٩ـ كتابه إلى اليهود .

٢٠ـ كتابه إلى يهود خيبر.

٢١ـ كتابه إلى أسقف نجران .

٢٢ـ كتابه إلى هرمزان عامل كسرى .

وقد دعا رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) في هذه الكتب التي سجّلها التاريخ وأثبت نصوصها كاملة ، الملوك والأُمراء إلى الدين الإسلامي وشرح أهدافه وغاياته السامية .

وقد حمل هذه الكتب رجالاً من أصحابه اتّسموا بالنباهة والذكاء، والشجاعة والحكمة.

ويذكر التاريخ انّ بعضهم كان يعرف لغة القوم الذين أُرسل إليهم مع كتاب النبي(صلّى الله عليه و آله و سلّم).

وكان هؤلاء الرسل يتمتّعون بإيمان قوي، وينطلقون من عقيدة راسخة بالدين وشجاعة، وهي الصفات التي يجب أن يتحلّىٰ بها المبلّغ، ولهذا كانوا في الأغلب يؤثرون في نفوس المرسل إليهم حتّىٰ انّهم كانوا يقبلون دعوة النبي ولو آل إلى التضحية بحياتهم كما حدث لضغاطر الأسقف فإنّه لمّا جاءه كتاب النبي(صلّى الله عليه و آله و سلّم) فقرأه أخذ بمجامع قلبه واهتدى إلى الحق واعتنق الإسلام راغباً وقال لقومه من الروم:

«يا معشر الروم... إنّي أشهد أن لا إلٰه إلاّ الله وانّ أحمد عبده ورسوله» فوثبوا عليه وثبة رجل واحد وقتلوه [1].

٣ـ التبليغ عن طريق الأدب والنظم

ولم يكتف رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) في تبليغ رسالته بالرسائل والكتب بل استعان بالشعر أيضاً ولهذا كان حسّان يخلّد الحوادث، بأبيات من الشعر، ويشجّعه النبي(صلّى الله عليه و آله و سلّم) وربّما دافع حسّان وغيره عن حوزة الإسلام ونبيّه بهجاء من يعادونه أو يتعرّضون له أو يهجونه، وإليك نماذج من هذا الأمر.

١ـ عندما هجا ابن الزبعري المسلمين يوم أُحد، قائلاً:

ياغراب البين أسمعت فقل   إنّما تنطق شيئاً قد فعل

---

(١) الطبري ج٢ ص١٣٦

إلى أن قال :

ليت أشياخي ببدر شهدوا جزع الخزرج من وقع الأسل
فقتلنا الضِّعف من أشرافهم وعدلنا ميل بدر فاعتدل

قال حسّان في الرد عليه :

ذهبت يا بن الزبعري وقعة كان منّا الفضل فيها لوعدل
ولقد نلتم ونلنا منكم وكذاك الحرب أحياناً دول

الى آخره ... .

٢ـ لمّا قال عمرو بن العاص في هجاء المسلمين يوم أُحد :

خرجنا من الفيفا عليهم كأنّنا مع الصبح من رضوىٰ الحبيك المُنَطّق
أرادوا لكيما يستبيحوا قبابنا ودون القباب اليوم ضرب محَرّق

قال كعب بن مالك في الردّ عليه :

ألا أبلغا فهراً على نأي دارها وعند هم من علمنا اليوم مصدق

إلى أن قال :

لنا حومة لا تستطاع يقودها نبيّ أتىٰ بالحقّ عف مصدّق

٣ـ ما قاله هبيرة يوم أُحد أيضاً في هجاء المسلمين إذ قال فيما قال من الشعر :

كان هامهم عند الوغى فلق من قيض رُبْدٍ نفته عن أداحيها

فأجاب حسّان بقوله :

ألا اعتبرتم بخيل الله إذ قتلت أهل القليب ومن ألقينه فيها

كم مـن أسير فككنـاه بلا ثمـن وجـزّ نـاصيـة كنّـا مـواليهـا[1]

وغير ذلـك من الموارد التـي قابـل فيها حسّان وغيـره من شعـراء الإسلام الأول هجاء بهجاء، قارع قاصع.

۴ـ إعلان البراءة من المشركين

وكان من أبـرز مصاديق التبليغ والإعلام مـا كلّف به رسول اللـه(صلّى الله عليه وآله و سلّم) بأمر مـن الله تعالى، أميرالمؤمنين علي ابن أبي طـالب بتلاوة آيات من صدر سورة التـوبة على مسامع المشركيـن وغيرهم في يوم الحج الأكبـر والتي أعلن الله فيها براءته وبـراءة نبيّه من الشرك والمشركين، وضرب لهم أجـلاً ليبيّنوا موقف من الاسلام وأعلن انّ المشركين لا يجوز لهم دخول مكّة بعد ذلك الوقت والأجل.

وقد كـان لهذا الإعلان العـام القوي أثر كبيـر في إسـلام مجموعات كبيـرة من القبائل المشركة، وتوافدها على رسول اللـه(صلّى الله عليه و آلـه و سلّم) فـي العام المسمّى بعام الوفود.

۵ـ شعار المسلمين في الهجمات العسكرية

ومن جملـة أساليـب التبليغ التي كـان يتبعها رسول اللـه(صلّى الله عليـه و آله و سلّم) إطلاق الشعارات المناسبة في المعارك فمثـلاً لمّا صاح أبوسفيان بعد إلحاق الهزيمة بالمسلمين: اعل هبل اعل هبل. أمر النبي(صلّى الله عليه و آله و سلّم) بأن يقابلوه بشعار:

اللّه أعلى وأجل.

---

(١) السيرة النبوية ج٢ ص٢ و ١٣١ـ١٣٢.

ولمّا صاح : نحن لنا العزى ولا عزّى لكم .

قال النبي(صلّى الله عليه و آله و سلّم) قولوا :

الله مولانا ولا مولى لكم .

كما أنّ المسلمين كانوا عند الهجوم على الأعداء ينادون بشعار خاص مثل : امت ... امت[1].

كانت هذه لمحة سريعة عن أساليب رسول الإسلام(صلّى الله عليه و آله وسلّم) في التبليغ والدعوة إلى الإسلام، وهي تكفي لمعرفة إهتمام الإسلام بهذا الأمر.

وفي هذا العصر حيث أُتيحت للبشرية أجهزة ووسائل أوسع للتبليغ يتعيّن على المسلمين الإستفادة منها بشكل أفضل وبمنتهىٰ الشجاعة والعزم ليصدق في شأنهم قوله تعالى : ﴿الَّذِيـنَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاَتِ اللَّـهِ وَيَخْشَوْنَـهُ وَلاَيَخْشَوْنَ أَحَداً إِلاَّ اللَّـهَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيباً﴾(الأحزاب/ ٣٩).

ما هي وظائفنا اليوم في مجال التبليغ والدعوة؟

هذا بعض ما كان يقوم به رسول الإسلام(صلّى الله عليه و آله و سلّم) في مجال التبليغ والدعوة إلى الإسلام، وقد كان عملاً عظيماً جبّاراً بالقياس إلى وسائل ذلك العصر، فما هو واجب المسلمين في هذا الزمن وهم يملكون أعظم الأجهزة للتبليغ والدعوة.

فماذا يجب أن يفعله المسلمون اليوم؟

هذا هو ما يجب أن نشير إليه في هذا المقام.

والذي نراه هي الأُمور التالية :

١ ـ رصد التبشير المسيحي والدعايات الماركسية : إنّ العالم الإسلامي يحاصره

---

(١) السيرة النبويّة ج٢ ص٦٨ .

اليوم معسكران قويّـان مزوّدان بكلّ القوىٰ والإمكانات، وهما المعسكـر الغربي الذي يروّج المسيحية، والمعسكر الشرقي الذي يروّج الماركسية والإلحاد.

و يعمـل هذان المعسكـران ليل نهـار على بـثّ سمومهمـا في أقطـار العالـم الإسلامي بمختلف الأساليب و السبل.

و من أسـاليبهم النيل مـن كرامة النبي العظيـم(صلّى الله عليه و آلـه و سلّم)، فهذا هـو كتاب يصـدر في لنـدن باسـم «الآيات الشيطـانية» يشكّـك في نبـوّة رسول الله(صلّى الله عليه و آلـه و سلّم)، و تتحدّث عنه إذاعة لندن لإلقـاء الضوء عليه، و حثّ الناس على قراءته تحت غطاء نقل الأخبار.

و هو مع الأسـف يستند إلى بعض المصـادر الإسلامية التي تحتـاج إلى نظارة التنقيـب جدّاً مثـل تاريـخ الطبري و السيـرة الحلبيـة، فكم فيهمـا من مـوضوعـات و منحولات و إسرائيليّات و مسيحيّـات بثّها أبناء الديانتين مـن كعب الأحبار و وهب ابن منبه و تميم الداري، وأخذها السذّج من المسلمين، و زعموا أنّها حقائق راهنة.

فلابـدّ أن تنهض جماعـة من العلماء و المفكّـرين و الخطباء للتصـدّي لهذه الهجمة الظالمة على الإسلام بالوسائل المتاحة و المفيدة.

٢ ـ رصد الدعايات المفرّقة لصفوف المسلمين و تبديد وحدتهم التي هي أقوى قلعة فـي وجه العـدوّين المـذكوريـن آنفاً، فـلابدّ أن تجـدّد فكرة دار التقـريب بيـن المذاهـب الإسلاميـة، و لابدّ أن يتصدّى مـركز إسـلامي قوي للكتـب المفرّقـة التي لايقصد من كتابتها و بثّها إلاّ إيجاد الفرقة بين الطوائف الإسلامية في عصر هي أحوج ما فيـه إلى التعـاضد و التعـاون و التعاطـف، خاصّـة أنّ هذه الكتـب تحتوي علـى سفاسف و ترّهات و قضايا لاقيمة لها و لاأساس. ضع يدك على كثير ممّا ينتشر في أشهر الحج ضد الشيعة الإمامية.

نعم لايعنـي من هـذا أن لايعرض أحد عقيـدته بصورة مـوضوعيـة علميّة أو أن يتجرّد أحد من عقائده من دون دليل، بل المطلوب هو تجنّب التهجّم على الآخرين،

و بثّ بذور الفرقة و التشتّت، و إلاّ فعرض المذاهب مستنداً إلى أوثق المصادر لغاية التعرّف من وسائل التقريب و أدواته.

٣ ـ تأسيس وحدة إعلامية واحدة للمسلمين: إنّ الأعداء على اختلاف مشاربهم و مطامعهم يؤلّفون وحدة إعلامية واحدة، فلابد أن يقوم المسلمون بتأسيس وحدة إعلامية واحدة، و يستفيدون من جميع وسائل الإعلام و التبليغ و الدعوة من إذاعة و تلفزيون و سينما و مسرح، لعرض الحقائق الدينية للناس بعيداً عن أجواء السياسات الداخلية و الظروف الخاصة.

٤ ـ اصلاح الكتب الدراسية: ينبغي أن يقوم علماء الإسلام باصلاح الكتب الدراسية التي تدرّس في المدارس و الجامعات و يجرّدوها عمّا يشوّش أفكار الناشئة و يدفعه عن اساءة الظن بتاريخه و دينه.

هذا هو بعض ما يجب أن يقوم به المسلمون في مجال التبليغ و الدعوة إلى الإسلام و هو فرض عليهم و واجب من واجباتهم كيف لا، و مهمة الإعلام و الإبلاغ لم تنحصر برسول الإسلام فقط، بل اعتبرها القرآن من وظيفة الأُمّة الإسلامية أيضاً. و سمّاها الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر. و جعل هذا العمل من وظائف المسلمين على اختلاف مستوياتهم و مؤهّلاتهم فقال:

﴿وَ لْتَكُنْ مِنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الخَيْرِ وَ يَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ وَ أُولٰئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ﴾(آل عمران/ ١٠٤).

و قال سبحانه:

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَ تَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ وَ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾(آل عمران/ ١١٠).

و ليس الأمر بالمعروف مقصوراً على تنبيه العصاة من المسلمين، بل هو أصل عام يعم كل دعوة فيها و صلاح للمجتمع الإنساني من ابلاغ دينه سبحانه، و نشر أُصوله و فروعه أوّلاً و الحث على الطاعة و الانذار على المخالفة ثانياً.

و اعتبر الإسلام القيام بهذه الوظيفة سبباً لازدهار الحياة، في شتّى مجالاتها إذ قال الإمام الباقر(عليه السلام):

«إنّ الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر سبيل الأنبياء و منهاج الصلحاء، بها تقام الفرائض و تأمن المذاهب، و تحل المكاسب، و ترد المظالم، و تعمّر الأرض وينتصف من الأعداء و يستقيم الأمر»[1].

إنّ القرآن الكريم عدّ ترك هاتين الوظيفتين سبباً لهلاك الناس إذ قال:

﴿وَ سْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَ يَوْمَ لاَيَسْبِتُونَ لاَتَأْتِيهِمْ كَذٰلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ* وَ إِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ* فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَ أَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾(الأعراف/ ١٦٣ـ١٦٥).

فقد أهلك الله الذين كانوا يتقاعسون عن أداء وظيفة الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر، بل يعترضون على من يقوم بهذه الوظيفة، أهلكهم كما أهلك الفاسقين الذين كانوا يتجاوزون حدود الله و حرمة الصيد يوم السبت.

و قد ورد عن رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) في هذا الصدد أنّه قال:

«لايزال الناس بخير ما أمروا بالمعروف و نهوا عن المنكر، و تعارفوا على البرّ، فإذا لم يفعلوا ذلك نزعت منهم البركات وسلّط بعضهم على بعض، و لم يكن لهم ناصر في الأرض و لا في السماء»[2].

إنّ النبي الأكرم(صلّى الله عليه و آله و سلّم) حذّر من مغبّة ترك هاتين الفريضتين، و انّ ذلك يؤدي إلى أن تنقلب القيم لدى الأمّة الإسلامية عند ترك الأمر

---

(١) الوسائل: ج١١ ص٣٩٥.

(٢) البحار: ج٩٤ ص٩٧.

بالمعروف و النهي عن المنكر، فيصير المنكر معروفاً و المعروف منكراً، إذ قال(صلّى الله عليه و آلـه و سلّم) : **كيف بكم إذ أفسـدت نساؤكم و فسق شبابكم، و لـم تأمروا بالمعروف و لم تنهوا عن المنكر؟**

فقيل له : و يكون ذلك يا رسول الله؟

قال : نعم، وشرّ من ذلك، كيف بكم إذا أمرتم بالمنكر و نهيتم عن المعروف؟

قالوا : يا رسول الله و يكون ذلك؟

قال : نعم، و شـرّ من ذلك، كيف بكـم إذا رأيتم المعروف منكـراً، و المنكر معروفاً[1].

النظر إلى الإنسانية برحابة صدر

و من أسـاليب دعوتـه أنّه كان ينظـر إلى الإنسـانية برحـابة صدر و لايـرى ميزاً لانسان أو تفـوّقاً لـه على انسـان إلاّ بالتقـوى، وكانـت القوميـة عنده أبغـض شيء، والدعـوة إليها عنده دعوة خبيثـة مفرّقة لـلأُمّة ومشتّتة لهـا، وبما أنّ القومية بمفهـومها الواسع صارت شعـاراً لأكثر المسلمين المعاصرين على اختـلاف ألسنتهم ولغاتهم، فالعربي يدعو إلـى القومية العربية، والتركي الى القومية التـركية وهكذا، فوجب علينا البحث عن القومية من منظار الكتاب والسنّة وبـذلك نختم البحث حتى يكون ختامه مسكاً فنقول :

---

(١) البحار: ج٩٧ ص٧٤ .

(١٥)

القوميّة في الإسلام

وقبل أن ندخل في صلب الموضوع نأتي بعناوين البحث فنقول: إنّ البحث يدور على نقاط عشر وهي:

١ـ ما هي القومية في مصطلح السياسيين وأصحاب هذه الفكرة؟

٢ـ تعيين تاريخ تكوّن هذه الفكرة في هذه العصور الأخيرة.

٣ـ هزيمة هذه الفكرة في مولدها وموطنها.

٤ـ اشتعال هذه الفكرة ونموّها في البلاد الاسلامية مؤخّراً.

٥ـ دعاة هذه الفكرة في الشرق الاسلامي جماعة ينتسبون إلى البيوت المسيحية وهل يمكن عدّ هذا الأمر أمراً اتّفاقياً وصدفيا؟.

٦ـ ما هي الغاية من زرع هذه الفكرة وترويجها في الأوساط الاسلامية؟

٧ـ رسالة الاسلام رسالة عامة عالمية لا تختصّ بقوم دون قوم.

٨ـ تفسير قوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَ أُنْثَىٰ ...﴾ وبيان النكات الست فيه.

٩ـ كلمات مضيئة للرسول الأعظم في تحطيم القومية.

١٠ـ الخسارة التي تفرضها القومية على البشرية أولاً والاسلام والمسلمين ثانياً. فهذه جهات البحث ونقاطها الحساسة التي نبحث عن الكل موجزاً فنقول:

١ـ ما هي القومية؟

القومية حسب ما يستفاد من المعاجم السياسية: هي الاعتقاد بارتقاء شعب

خاص على سائر الشعوب من حيث الخِلقة والخلق والعقيدة والمثل ويراد فيها باللغة الاوربية(ناسيوناليزم)، وبعبارة أُخرى هي الاعتقاد بتفوّق شعب خاص والنظر إلى سائر الشعوب بالحقد والضغينة وكأنّ حامل تلك الفكرة يحب نفسه ويبغض غيره ويخاصمه.

وهذا المورد من الموارد التي تنتزع الايديولوجية من النظرة العامة إلى الكون بمعنى انّ مدّعي القومية ينظر إلى الكون والحياة، فيرى لنفسه حسب خياله تفوّقاً وعلوّاً، فيرتّب على تلك النظرة فكرته القومية ويبني الايديولوجية على ما استنتجه من النظر إلى الكون، ويقول: إذا كنت أنا وقومي متفوّقين في الخلق والخلقة يجب أن نكون متصدّرين في السياسة والسلطة ويكون الغير خادماً ومتعبّداً لنا وتكون لنا السلطة عليه.

وبذلك يعلم أنّ القومية لا تفترق عن العنصرية، فلو لم تكن هناك فكرة التفوّق في الحياة لما كان للقومية تفسير منهجي صحيح، فالقومية قائمة على العنصرية وتكون الثانية أساساً للأُولى، ونشير هنا إلى نكتة وهي انّ دعاة القومية يذمّون العنصرية مع أنّ القومية مبنيّة على أساس العنصرية كما أشرنا فلو لم يكن هناك تفوق عنصري لم يكن لصرح القوميه أساس ولا تفسير صحيح.

٢ـ تعيين تاريخ زرع هذه الفكرة في العصور الأخيرة:

إنّ الباحثين عن القومية يتّفقون على أنّ تلك الفكرة ظاهرة غربية يعود أصلها إلى الفرنسيين في القرن السادس عشر، وذلك لأنّ التفرقة الهدّامة كانت سائدة على ذلك الشعب من حيث المذهب والعقيدة، وكانت كل فرقة متمسّكة بعقيدتها غير عادلة إلى غيرها، ففي تلك الآونة، قام عدة من رجال السياسة الذين يهمّهم كل شيء إلاّ المذهب، بجمع شتات تلك الأُمّة في ظل عامل واحد وهو القومية الفرنسية عسى أن يتوفّقوا في ظلّ هذا العامل بجمع شتاتهم ولمّ شعثهم، وقد نجحوا في ذلك المجال بعض النجاح.

ولم تكـن تلك الكلمة يـوم ذلك مفيدة غير هـذا المعنى، إلاّ أنّها عبـر القرون والعصور أخذت لنفسها معنىً خاصّاً،وتضمّنت تضمير الحقد والتحقير لسائرالأقوام

نعم هـذه جذور القـومية النـامية في القـرون الاخيرة، ولكـن للشعوبيـة بمعنى القـومية جـذوراً تاريخيـة أُخرى، وهـي انّ التعصـب للعربيـة، من جـانب الخلفـاء الامويـين والعباسيين، كوّن تلـك الفكرة في الشعوب الاسـلامية غير العربيـة، ولهذا اجتمعت الأمم على التعلّـق بالقومية في مقابـل التعصبات العربية التي كانـت تثيرها الخلافة الاموية والعباسية، والبحث عن ذلك يحتاج إلى افراد رسالة مستقلة.

٣ـ هزيمة تلك الفكرة في مولدها:

بينما يسعـى بعض المفكريـن السياسيين فـي ترويـج تلك الفكرة فـي الشرق الاسلامي نرى تقهقـر تلك الفكرة في الغرب وانهزامها أمام المشـاكل العظيمة، وهذا لأنّ الغرب جرّب بعد الحـربين العالميتين أنّه لا يقدر على العيـش والحياة إلاّ بتوحيد الشعوب والأقوام، بل الدخول في أحد المعسكريـن الشرقي والغربي، فرفض القومية وطفق يستظل بظـل الاتحاديات الاقتصادية والسيـاسية والثقافية وأحـسّ أنّه لا ينجح في معترك الحياة إلاّ برفض القومية ونسيانها.

ويدلّ علـى تقهقر هـذه الفكرة فـي القرن العشريـن ظهور جـامعة الـدول قبل الحرب العـالمية الأُولى، وتكـوّن الأُمم المتحدة بعـد الحرب العـالمية الثانيـة فيها، والتجاء الدول النامية والمستضعفة إلى عقد مواثيق وتحالفات مع القوى الكبرى.

كل ذلك يسفر عن حقيقة واضحة، وهي انّه قد مضى زمن تلك الفكرة وانّ بناء الدولة والمملكة على ذاك الأساس بناء على شفا جرف هار.

إنّ إنجراف بعض الدول الشرقية في تيّار الاشتـراكية والتحالف مع الماركسية، كتعلّق الـدول الغربيـة بمعسكر الـرأسماليـة، يكشف عـن عدم كفـاءة هذه الظـاهرة المادّية في حل مشاكل الأقوام، ورفع العراقيل النامية في حياتهم.

٤ـ اشتعال هذه الفكرة ونموها في البلاد الإسلامية مؤخّراً :

إنّ هذه الفكرة أخـذت تنهزم في الغرب وتنسحـب عن تلك الجوامـع ، ولكنّنا نرىٰ فـي الشرق دعاة إليهـا ، بجدٍ وحمـاسٍ فنرى هناك دعـوة إلى القوميـة بأشكـالها وألوانها المختلفة ، المتناسبة للظروف والملابسات المحيطـة بالمناطق ، فالقومية في مصر عبـارة عن الـدعوة إلى الفـرعونية ، وفـي العراق إلـى البابلية ، وفـي سوريـا إلى الآشورية ، وفي الأُردن إلى الرومانية ، وفي إيران إلى الجمشيديـة وفي ماوراء النهر إلى جنكيزخان وزملائه العصاة الطغاة .

ما هذه الـدمدمة والهمهمة في الأوسـاط الإسلامية ، وما هو الحـافز والمحرك والدافع إلى إحيـاء تلك الفكرة فيها ، بعد ما تقهقـرت في موطنها وقُبرت في مـولدها؟ فياليتهـم يدعـون إلى القـومية البسيطـة التي دعـا إليها الســاسة الفـرنسيون فـي القرن السادس عشر، ولكنّهم أخذوا يدعون إلى القومية البغيضة الإلحادية حتى تصبح هذه الفكرة ذات مكانة خاصّة ، تغني حاملها عـن الإيمان بالله ، والاعتناق بالإسلام ، وها نحن ننقل إليكم ـ يا أصحاب الفضيلة ـ كلمـات من دعاة القومية في خصوص البلاد العربية ، فهـا هو ناصرالدين علـي يقول في كتابه«قضية العـرب» ص ٢٨ : إنّ العربية هو الدين الواقعي لكل عربي سليم مسلماً كان أو مسيحيّاً ، لأنّ القومية العربية كانت سائدة على تلك الأُمّة قبل أن تولد المسيحية والإسلام ، وقد أتت بأمثل الخلق وأعلاها في مجال الحياة .

نرى أنّ وسائل الاعـلام العامّة تروّج هذه الفكـرة ، فها هي مجلّة العالـم العربي تكتب في عدد ١٩٥٩ :ـ يجب أن تحل الوحدة العربية المكان الذي حلّ فية الإيمان بالله الواحد .

ونقـل أبوالحســن الندوي عـن الكاتـب القومـي عمرو فـاخوري : إنّ العـرب لايكـونون قـادرين علـى الثورة والتقـدّم ، إلاّ إذا عدّوا العـربية دينـاً ، ويتمسّكوا بهـا كتمسّك المسلم بالقرآن ، والمسيحي بالإنجيل إلى غير ذلك .

٥ـ دعاة هذه الفكـرة في الشرق الإسلامي جماعـة ينتسبون إلى المسيحية وهل يمكن عد هذا الأمر أمراً اتفاقياًوصدفياً:

والعجب أنّ منتحلي هذه الفكـرة في مركز الخلافة الإسـلامية«بغداد ودمشق» لا يمتّون إلى الإسلام بصلة نظراء: ميشل عفلـق وانطوان سعادة وجورج حبش، هؤلاء لا يمتّون بـالإسلام كما لا تمـتّ بيوتهم التي نشـأوا فيها بهذا الـدين، ومع ذلـك فهم يدّعون أنّهم يريدون إعادة المجد إلى البلاد الإسـلامية وأبناء القرآن الكريم عن طريق تحكيم القوميـة فيهم، فهل يمكن تفسير ذلك بـالإتفاق والصدفة؟ وكيف تـريد أبناء النصارى إعادة المجد إلى البلاد الإسلامية والمسلمين وهم ليسوا منهم؟

إذا ما فصلت عليّا قريش   فلا في العير أنت ولا النفير

٦ـ ماهي الغاية من زرع هذه الفكرة وترويجها في الأوساط الإسلامية؟

كانـت الغاية مـن زرع بذور القومية فـي الأوساط الإسلاميـة، تبديد الحكـومة الإسلامية الموحّدة الحـاكمة باسم الإسلام، وكانت البلاد الإسـلامية إلاّ ماشذ تعيش فـي ظل حكـومة إسـلامية لهـا طـابع الإسـلام، وأراد المستعمرون بـزرع تلك البـذرة وتنميتها بيد عمـلائهم، تقسيم الحكومة الواحـدة إلى حكومات، والبلد الـواحد إلى بلاد، والحاكم الواحد إلى حكّام، حتـى يسهل السيطرة عليهم، والعجب أنّ جماعة كثيرة من الشبـاب والمثقّفين اغترّوا بهذه الفكرة وحسبـوا أنّ الدعوة إلى القـومية دعوة ناجحة مطبّقة بالإسلام والقرآن، و كأنّهم نسوا قول الباري عزّ وجلّ: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾(المؤمنون/ ٥٢).

وقـال سبحـانـه: ﴿إِنَّ هَـذِهِ أُمَّتُكُـمْ أُمَّـةً وَاحِـدَةً وَأَنَـا رَبُّكُـمْ فَاعْبُدُونِ﴾(الأنبياء/ ٩٢).

فصاروا يتخـاصمون مكان أن يتحابّـوا، يشتم بعضهم بعضاً ويبغـض بعضهم

بعضاً، فكأنهم لم يسمعوا قول الله عزّ وجلّ: ﴿فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوانا﴾(آل عمران/ ١٠٣) أو قوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾(الحجرات/ ١٠) أو قول نبيّهم الأعظم: «إنّما المؤمنون في تراحمهم وتوادّهم كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى»[1].

ترى أنّ كل قطر من الأقطار الإسلامية أصبح لقمة صغيرة قابلة للأكل والبلع لحماة الإستعمار أوّلاً والمستعمرين ثانياً، فحاق بالمسلمين ألوان العذاب وأصناف العقاب.

٧ـ رسالة الإسلام رسالة عامة عالمية لا تختص بقوم دون قوم وبيان دلائله من القرآن الكريم:

إنّ رسالة النبي الأكرم رسالة عالمية غير مختصّة بشعب دون شعب، وإن أصرّ الدعاة المسيحيون بتخصيص رسالتها بالأُمّة القاطنة في الجزيرة العربية، غير أنّ تلك الفكرة فكرة خاطئة يكذّبها القرآن بخطاباته العامّة وهتافاته المطلقة، فالقرآن يخاطب جميع العالم بلفظ: «يا أيها الناس» ويقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً﴾(الأعراف/ ١٥٨).

كما أنّه يعرّف النبيّ رحمة للعالمين بقوله سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾(الأنبياء/ ١٠٧).

ويعد القرآن النبي الأكرم نذيراً للعالمين، ويقول ﴿تَبَارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً﴾(الفرقان/ ١).

كما أنّه يأمر النبي أن ينذر بالقرآن كل بشر يصل إليه ذلك الكتاب، ويقول: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾(الأنعام/ ١٩).

---

(١) مسند أحمد ج٤ ص٢٧٠.

نعم هناك آية أُخرىٰ ربّما تقع ذريعة لمن يريد الخدعة وتحريف الفكرة الصحيحة، وهي قوله سبحانه: ﴿لِتُنْذِرَ أُمَّ القُرىَ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ ولكن الآية واضحة ببركة الآية المتقدّمة عليها، وذلك لأنّ المراد بأُمّ القرى هي مكّة كما أنّ المراد بـ «من حولها» العالم كلّه فمكّة أُمّ القرىٰ وقلب العالم التوحيدي فإذا أنذر مكّة وأنذر ما حولها فقد أنذر جميع العالم.

فهذه الآيات ونظائرها أوضح دليل على عالميّة رسالته وانّها تشمل جميع أبناء البشر، كيف والنبي الأكرم حسب قوله سبحانه: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ القُرْآنُ هُدىً لِلنَّاسِ وَبيِّنَاتٍ مِنَ الهُدَى وَالفُرْقَانِ﴾(البقرة/ ١٨٥). يهدي كل الناس ببركة القرآن، أفبعد هذه التصاريح القاطعة يمكن احتمال إختصاص رسالة النبي الأكرم بقوم دون قوم؟

وهذه الآيات ونظائرها الكثيرة الواردة في القرآن تصرّح بعموميّة رسالته و إطلاق نبوّته.

٨ـ تفسير قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾(الحجرات/ ١٣).

والآية تشتمل على نكات ستّ نشير إليها بإيجاز.

١ـ إنّ الآية تقسّم الإنسان إلى قسمين الذكر والأُنثى ويستند في التفسير بأُمور ذاتية داخلة في جوهر ذاته وحقيقة وجوده وهي الذكورية والأُنوثية ولا يعتني بالأُمور الطارئة عليه حسب ظروفه وشرائط حياته.

٢ـ تعترف بالشعوب والقبائل وتصرّح بأنّ هناك قوميّات ولا تنفيها أبداً.

٣ـ تصرّح بأنّ اختلاف البشر من جهة الشعوب والقبائل كاختلافهم من حيث الذكورة والأُنوثة و إنّ كلا الاختلافين داخلان في جوهر وجوده وواقع شخصيّته.

٤ـ يسند تكوّن الاختلاف في كلتا الجهتين إلى نفسه ﴿إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ... وَجَعَلْنَاكُم﴾.

٥ـ إنّ الغاية من تكوين ذلك الاختلاف وجعل البشر شعوباً وقبائل ليست هي التفاخر والتناكر بل التعارف والتحابب.

٦ـ إنّ الاعتراف بالقوميّات ليست بمعنى انّها الملاك في التفوّق والاعتلاء بل ملاك التعالي والكرامة في التقوى والتجنّب عن اقتراف المعاصي.

هذه نكات ست جئنا بها على وجه الإيجاز والكل يحتاج إلى توضيح أكثر من هذا نتركه لآونة أُخرى.

٩ـ كلمات مضيئة للرسول الأعظم في تحطيم القومية:

إنّ الرسول الأعظم جاء يحطّم القومية المبدّدة لكيان الإسلام ووحدة المسلمين وألقى جوامع الكلم في هذا المجال نأتي ببعضها.

أـ قال(صلّى الله عليه و آله و سلّم) في خطبة حجّة الوداع: «يا أيّها الناس إنّ الله تعالى أذهب عنكم نخوة الجاهلية و فخرها بالآباء، كلّكم من آدم و آدم من تراب، ليس لعربي على أعجمي فضل إلاّ بالتقوى»[١].

ب ـ و قال(صلّى الله عليه و آله و سلّم): «الناس كلّهم سواء كأسنان المشط»[٢].

ج ـ و قال(صلّى الله عليه و آله و سلّم): «الناس كلّهم أحرار إلاّ من أقرّ على نفسه بالعبودية»[٣].

د ـ و قال(صلّى الله عليه و آله و سلّم): «ليس منّا من دعا إلى عصبية».

---

(١) سيرة ابن هشام ج٢ ص٤١٧.

(٢) كنوز الحقائق في حديث خير الخلائق: ص١٢٢.

(٣) وسائل الشيعة ج٣ ص٢٤٢.

هـ ـ روى المحدّثون أنّـه جلس سلمان إلى جنـب سائر الصحابة مـن قريش فانتهى الكلام إلى الأنساب و الأحساب، فعرّف كل واحد أصله و نسبه، و لمّا وصل الكلام إلى سلمان فقال: هو أنا سلمان ابـن عبد الله كنت ضالّاً فهداني الله بمحمد، وكنت عائلاً فـأغناني الله بمحمد، و كنت مملـوكاً فأعتقني الله بمحمـد، فلمّا وقف النبي على محـاضرتهم أقبل إليهم و قال: «يـا معشر قريش إنّ حسب الـرجل دينه، و مروءتـه خلقه، و أصله عقلـه. قال الله عـزّ و جلّ: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَ أُنْثَى وَ جَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَ قَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ قال النبي لسلمان: ليس لأحـد من هؤلاء عليك فضل إلاّ بتقوى الله عزّ و جلّ، و إن كانت تقوى لك فأنت أفضل[1].

و ـ قال (صلّى الله عليه و آلـه و سلّم): «ليدعن رجالاً فخرهم بـأقوام إنّما هم فحـم من فحـم جهنّـم أو ليكونـنّ أهـون على الله مـن الجعـلان التي تـدفـع بأنفهـا النتن»[2].

و قد نقـل انّه اشترك فـي بعض المغازي شـابّ إيرانـي، فلمّا وجّه إلـى العدو فقال: خذ هذه الضربة من شاب إيرانـي، فاعترض عليه النبي(صلّى الله عليه و آله و سلّم) و قال: لماذا لم تقل من رجل أنصاري[3].

ز ـ كـان النبي واقفـاً على أنّ العـرب تفتخر بلسـانها العـربي و قـال في هـذا الصدد: «ألا انّ العربية ليست باب والد و لكنّها لسان ناطق فمن قصر عمله لم يبلغ به حسبه»[4].

ح ـ إنّ النبي أسّـس مجتمع إسـلامي عظيم مـن قوميّـات مختلفة فضـمّ عليّاً العربـي إلى صهيب الرومـي و ضمّ بلال الحبشي إلـى سلمان الفارسي و ضـمّ إليهم خبّاب النبطي من دون أن يزعج واحد منهم الآخـر و هم من قوميّات متشتّتة، و لأجل

---

(١) روضة الكافي ص١٨١، بحار الأنوار ج٢٢ ص٢٨٢.

(٢) سنن أبي داود ج٢ ص٦٢٤.

(٣) سنن أبي داود ج٢ ص٦٢٥.

(٤) الكافي ج٨ ص٢٤٦.

ذلك قام علي(عليه السلام) يقول: «السباق خمسة فأنا سابق العرب و سلمان سابق فارس و صهيب سابق الروم و بلال سابق الحبشة و خبّاب سابق النبط»[1].

ط ـ روي انّ عبد الرحمن بن عوف قال لعبده: يا ابن الأسود، فوقف عليه النبي و قال: «ليس لابن الأبيض على ابن الأسود فضل إلاّ بالتقوى و اقتفاء الحق»[2].

ي ـ روى المحدّثون أنّ عقيلاً أخا علي اعترض على أمير المؤمنين بأنّه ساوى بينه و بين رقّ أسود، و قال: و الله لتجعلني و أسود بالمدينة سواء، فقال علي: و ما فضلك عليه إلاّ بسابقة أو بتقوى[3].

ك ـ روي انّ سلمان كان جالساً في مجلس كانت فيه شخصيات قريش الذين هاجروا إلى المدينة و آمنوا بالنبي، فاعترض واحد منهم و قال: من هذا العجمي المتصدّر فيما بين العرب، فلمّا سمع النبي ذلك الكلام اللائح منه القوميّة البغيضة صعد المنبر و قال: إنّ الناس من عهد آدم إلى يومنا هذا مثل أسنان المشط لافضل للعربي على العجمي و لا للأحمر على الأسود إلاّ بالتقوى»[4].

هذه كلمات مضيئة من النبي حول القومية و كل واحدة منها تكفي في تحطيم القومية و تضادّها مع مبادئ الإسلام.

١٠ ـ الخسارة التي تفرضها القومية على البشرية أوّلاً والإسلام والمسلمين ثانياً.

القومية تنمّي روح التوسّعية و السيطرة على أقوام أُخر باعتقاد أنّ حاملها أفضل

(١) الخصال للشيخ الصدوق: ص٢١٢.

(٢) الحديث منقول بالمعنى، رواه باقر شريف القرشي في كتابه «الحكمة و الحكومة»: ص١٥٢.

(٣) روضة الكافي ج٨ ص٢٦٢.

(٤) الإختصاص للشيخ المفيد: ص٢٢٧.

الأقوام و أمثلها، و لأجل ذلك نرى أنّ رئيس ألمانيا (هتلر) في وقته دعى إلى القومية و انّ شعبه من أفضل الشعوب عقلاً و أطهرها دماً، فأوجد في قومه نخوة كبيرة و حقداً و بغضاً لسائر الشعوب، فنمت فيهم روح الطغيان و التوسّعية فأشعل فتيلة الحرب العالمية الثانية، و دامت الحرب حوالي خمس سنين و تكبّد العالم البشري خسائر فادحة، و أعطت لاطفاء نيرانها النفس و النفيس قرابة مائة مليون بين قتيل و جريح و مفقود.

و أمّا الخسائر التي تفرضها القومية على الإسلام فهي تحطّم الوحدة الإسلامية و تبدّد المجتمع الواحد إلى مجتمعات، و تبدّل الأُخوّة إلى البغضاء فيصير المجتمع الإسلامي أُمماً متفرّقة و أشلاء مبعثرة تقع فريسة للقوى الكبرى.

ولو كان شعار القومية: نحن العرب، نحن الفرس، نحن الترك، فشعار المسلم نحن حزب الله و دعاته تجمعنا عقيدة واحدة، و هي الإعتقاد بربّ واحد و رسول خاتم و كتاب نازل و أحكام و أُصول و فروع خالدة.

نحن كما يقول شاعر الاهرام حسن عبد الغني حسن:

إنّا لتجمعنا العقيدة أُمّة ... و يضمّنا دين الهدى أتباعاً
و يُؤلِّف الإسلام بين قلوبنا ... مهما ذهبنا بالهوى أشياعاً

و في الختام نلفت نظر القارئ الكريم إلى أنّ الدعوة إلى القومية تختلف عن العلاقة بالأوطان التي نشأ الإنسان فيها كما تختلف عن العلاقة بالثقافات القومية و الآداب و الرسوم الموروثة إذا لم تتعارض مع أُصول الإسلام و تعاليمه، و هذا هو رمز تقدّم الإسلام بين الشعوب و الأقوام المختلفة، فالإسلام في مفهومه يتحمّل جميع القوميات و الثقافات المحلّية و لايفنّدها بل يعترف بالجميع شريطة أن لاتخالف المبادئ الإسلامية، و لو كان نبيّ الإسلام(صلّى الله عليه و آله و سلّم) معارضاً لهذه الثقافات و الرسوم و الآداب لما نجح في نشر الإسلام و تربية الناس، نعم الإعتراف بهذه الآداب و الرسوم يختلف من جعلها محوراً للتفوّق و ملاكاً للتصاغر.

و قد روي أنّ النبي عندما وصل في هجرته من مكّة إلى المدينة إلى أرض الجحفة اشتاقت نفسه إلى موطنه فنزلت الآية: ﴿إِنَّ الَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ﴾(القصص/ ٨٥) و المعاد هو الوطن.

تمّ الجزء السابع من هذه الموسوعة القرآنية الموضوعية التي استعرضت الجوانب المتعدّدة للشخصيّة المحمدية، و يسعدنا أنّا استعرضنا تلك الشخصيّة الكبرى في ضوء أتقن و أصحّ مصادر الإسلام و هو القرآن الكريم، فهي صورة معبّرة لأبعاد الشخصيّة المحمديّة و ما يدور حولها من منظار الوحي الإلهي.

و هذه الصورة و إن لم تكن الصورة الكاملة الشاملة لتلك الشخصية الطاهرة السامية إلاّ أنّها تمثّل أبرز ملامحها المباركة.

و ليس لنا هنا إلاّ أن نعتذر إلى رسول الله(صلّى الله عليه و آله و سلّم) لعجزنا عن أداء هذه المهمّة الجسيمة رغم السعي الكبير.

و نرجو من الله سبحانه التوفيق لإتمام بقية هذه الموسوعة إنّه سميع الدعاء.

تمّ عشيّة ليلة الأحد الخامس من شهر جمادي الآخرة من شهور عام١٤١٢هـ.

والحمد لله ربّ العالمين

قم مؤسسة الإمام الصادق(عليه السلام)

جعفر السبحاني

غفر الله له ولوالديه

فهرس
أُمّهات المصادر

فهرس أُمّهات المصادر

حرف الألف

١ ـ الاتحاف بحب الأشراف : الشبراوي : عبد الله بن محمد ، المطبعة الأدبية ـ مصر.

٢ ـ الطبرسي : أحمد بن علي بن أبي طالب(من علماء القرن السادس) مؤسسة الأعلمي ، بيروت ـ ١٤٠٣ هـ.

٣ ـ الأحكام السلطانية : الماوردي : أبو الحسن علي بن محمد(ت ٤٥٠ هـ) دار الكتب العلمية ـ بيروت .

٤ ـ الإختصاص : المفيد : أبو عبدالله محمد بن محمد بن النعمان(٣٣٦ـ٤١٣هـ) منشورات جماعة المدرسين ـ قم .

٥ ـ الإرشاد : له أيضاً ـ قدس الله سرّه ـ منشورات مكتبة بصيرتي ـ قم .

٦ ـ إرشاد الساري : القسطلاني : أبو العباس شهاب الدين أحمد بن محمد (٨٥١ ـ ٩٢٣هـ) دار إحياء التراث العربي ـ بيروت .

٧ ـ أُسد الغابة : ابن الأثير: أبو الحسن علي بن أبي الكرم(ت ٦٣٠هـ) دار إحياء التراث العربي ـ بيروت .

٨ ـ إظهار الحقّ : رحمة الله بن خليل الرحمان الهندي (من علماء القرن الثالث عشر) مطبعة الرسالة ـ مراكش .

٩ ـ إعلام النساء : خير الدين الزركلي(ت ١٣٩٦ هـ) دار العلم للملايين ، بيروت ١٤٠٤هـ الطبعة السادسة .

١٠ ـ إعلام الورى : الطبرسي : امين الإسلام الفضل بن حسن(٤٧١ ـ ٥٤٨هـ) ط ايران .

١١ ـ أعمال الرسل : من الكتب المقدّسة .

١٢ـ آلاء الرحمن في تفسير القرآن : البلاغي النجفي : محمد جواد(ت١٣٥٢ هـ) مكتبة الوجداني ـ قم .

١٣ـ امتاع الأسماع : المقريزي:نقي الدين أحمد بن علي(ت ٨٤٥ هـ) طبع مصر.
١٤ـ أنيس الأعلام في نصرة الإسلام : الطبعة الحديثة ـ المكتبة المرتضوية ـ طهران .

حرف الباء

١٥ـ بحار الأنوار: المجلسي : محمد باقر بن محمد تقي(١٠٣٧ـ ١١١٠هـ) مؤسسة الوفاء، بيروت ١٤٠٣هـ.
١٦ـ البداية و النهاية : ابن كثير: الحافظ أبو الفداء(ت ٧٧٤هـ) دار الفكر، بيروت ١٤٠٢هـ.
١٧ـ بلاغة الحسين : الموسوي الحائري : مصطفى محسن، طبع طهران ـ ١٣٦٩هـ.
١٨ـ بلوغ الارب : الآلوسي : محمود شكري البغدادي(ت ١٢٧٠هـ) مطبعة دار الكتاب العربي ـ مصر.

حرف التاء

١٩ـ تاريخ الخميس : الدياربكري : الشيخ حسين بن محمد ـ مؤسسة شعبان ـ بيروت .
٢٠ـ تاريخ الطبري : الطبري : أبو جعفر محمد بن جرير(ت٣١٠هـ) مؤسسة عز الدين،بيروت ـ ١٤٠٧ هـ.
٢١ـ تاريخ القرآن : أبو عبد الله الزنجاني(١٣٠٩ ـ ١٣٦٠هـ) مكتبة الصدر، طهران ١٣٨٧هـ.
٢٢ـ تاريخ اليعقوبي : اليعقوبي : أحمد بن أبي يعقوب(من علماء القرن الثالث) دار صادر ـ بيروت .
٢٣ـ تبصرة المتعلّمين : العلاّمة الحلي : الحسن بن يوسف بن المطهر(٦٤٨ ـ ٧٢٦هـ) ط ايران .
٢٤ـ التبيان في تفسير القرآن : الطوسي : أبو جعفر محمد بن الحسن(٣٨٥ ـ ٤٦٠هـ) دار إحياء التراث العربي ـ بيروت .
٢٥ـ تصحيح الإعتقاد : الشيخ المفيد (٣٣٦ـ ٤١٣هـ) ط تبريز.
٢٦ـ تفسير البرهان : البحراني : السيد هاشم التوبلي(ت ١١٠٧هـ) قم ـ ١٣٧٥هـ.

٢٧ ـــ تفسير البغوي: البغوي: أبو محمد الحسين بن مسعود الغراء الشافعي(ت٥١٦هـ)، دار المعرفة ـ بيروت ـ ١٤٠٧هـ.

٢٨ـ تفسير الرازي (مفاتيح الغيب): الفخر الرازي: أبو عبد الله محمد بن عمر بن حسين الطبرستاني(٥٤٣ ـ ٦٠٦هـ) دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.

٢٩ـ تفسير الطبري: الطبري: أبو جعفر محمد بن جرير(ت ٣١٠هـ)، دار المعرفة ـ بيروت أُفسيت ـ ١٤٠٠هـ.

٣٠ـ تفسير فرات: الكوفي: أبو القاسم فرات بن إبراهيم بن فرات (من أعلام الغيبة الصغرىٰ) طهران ـ إيران ـ ١٤١٠ هـ.

٣١ـ تفسير القرآن المجيد: الشيخ محمود شلتوت(ت١٣٨٣هـ).

٣٢ـ تفسير القرطبي: القرطبي: أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري(ت٦٧١هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت ـ ١٤٠٥ هـ

٣٣ـ تفسير القمي: القمي: علي بن إبراهيم (من أعلام القرن الثالث و الرابع الهجري)، مطبعة النجف ـ ١٣٨٧هـ.

٣٤ ـ تفسير المراغي: المراغي: أحمد مصطفى،دار إحياء التراث العربي، بيروت ـ ١٤٠٦ هـ الطبعة الثانية.

٣٥ ـ تفسير المنار: محمد رشيد رضا(ت ١٣٥٤)، دار المنار، مصر ـ ١٣٧٣ هـ.

٣٦ ـ تقريب التهذيب: العسقلاني: أحمد بن علي بن حجر(٧٧٣ ـ ٨٥٢ هـ) دار المعرفة، بيروت ـ ١٣٩٥ هـ.

٣٧ ـ تنزيه الأنبياء: الشريف المرتضى (٣٥٥ ـ ٤٣٦ هـ) طبع ايران.

٣٨ ـ تهذيب التهذيب: العسقلاني: شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر(ت٥٨٢ هـ) دار الفكر، بيروت ـ ١٤٠٤ هـ.

حرف الجيم

٣٩ ـ جامع الأُصول: ابن الاثير الجزري: مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد (٥٤٤ ـ ٦٠٦ هـ) دار الفكر، بيروت ـ ١٤٠٣هـ.

٤٠ ــ الجواهر:النجفي : محمد حسن(ت ١٢٦٦هـ) دار إحياء التراث العربي ، بيروت ـ ١٩٨١م .

حرف الحاء

٤١ ـ حلية الأولياء : أبو نعيم : أحمد بن عبد الله الأصبهاني(ت ٤٣٠هـ) دار الكتاب العربي، بيروت ـ ١٣٨٧هـ .

٤٢ ـ حياة محمدﷺ : محمد حسين هيكل ، مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة .

حرف الخاء

٤٣ ـ الخصال : الصدوق : أبو جعفر محمد بن علي بن بابويه القمي(ت ٣٨١هـ) منشورات جماعة المدرسين ، قم ـ ١٤٠٣هـ .

حرف الدال

٤٤ ـ الدر المنثور: السيوطي : جلال الدين(٨٤٩ـ٩١١هـ) بيروت ـ أُفسيت من طبعة مصر.

٤٥ ـ دلائل النبوة : البيهقي : أحمد بن حسين(ت ٤٥٨هـ) ط مصر.

٤٦ ــ ديوان أبي طالب : الجامع علي بن حمزة البصري التميمي المكنى بأبي نعيم(ت ٣٧٥هـ) .

حرف الذال

٤٧ ــ ذكر أخبار اصبهان : أبو نعيم : أحمد بن عبد الله (٣٣٤ ــ ٤٠٢هـ) طبع ليدن ـ١٩٣١م .

حرف الراء

٤٨ ــ روح المعاني : الآلوسي : أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود البغدادي(ت١٢٧٠هـ) دار إحياء التراث العربي ، بيروت ـ لبنان .

حرف السين

٤٩ ــ سنن أبي داود : أبو داود الحافظ سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي(٢٠٢ـ٢٧٥هـ) مكتبة مصطفى البابي الحلبي ، مصر ـ ١٣٧١هـ .

٥٠ ـ السنن الكبرى : البيهقي : أبوبكر أحمد بن الحسين(ت٤٥٨هـ)، دار المعرفة بيروت ـ ١٤٠٦هـ .
٥١ ـ سنن النسائي : النسائي : أبو عبد الرحمن بن شعيب(٢١٤ ـ ٣٠٣هـ) دار إحياء التراث العربي ـ بيروت .
٥٢ ـ السيرة الحلبية : الحلبي : برهان الدين علي بن إبراهيم(ت١٠٤٤هـ) المكتبة الإسلامية ـ بيروت .
٥٣ ـ السيرة النبويّة : ابن هشام : أبو محمد عبد الملك بن أيوب الحميري(ت ٢١٣ أو ٢١٨هـ) دار التراث العربي، بيروت ـ لبنان .

حرف الشين

٥٤ ـ شرائع الإسلام : المحقق الحلي : أبو القاسم نجم الدين جعفر بن الحسن(٦٠٢ ـ ٦٧٦هـ) دار الأضواء، بيروت ـ ١٤٠٣ هـ .
٥٥ ـ شرح ابن عقيل : قاضي القضاة بهاء الدين عبد الله بن عقيل الهمداني(٦٩٨ ـ ٧٦٩هـ) مطبعة السعادة، القاهرة ـ ١٣٧٥ هـ .
٥٦ ـ شرح نهج البلاغة : ابن أبي الحديد، عز الدين عبد الحميد البغدادي المدائني(ت٦٥٥هـ) دار احياء الكتب العربية، القاهرة ـ ١٣٧٨ هـ .

حرف الصاد

٥٧ ـ صحيح البخاري : البخاري : أبو عبدالله محمد بن إسماعيل(ت٢٥٦هـ) مكتبة عبد الحميد أحمد حنفي، مصر ـ ١٣١٤هـ .
٥٨ ـ صحيح مسلم : أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري(ت٢٦١هـ) دار إحياء التراث العربي ـ بيروت .
٥٩ ـ الصحيح من سيرة النبي : جعفر مرتضى العاملي، قم ـ ١٤٠٣هـ .

حرف العين

٦٠ ـ علل الشرائع : الصدوق : أبو جعفر محمد بن علي بن بابويه القمي(ت٣٨١ هـ) مؤسسة الأعلمي، بيروت ـ ١٤٠٨هـ .

٦١ ـ عيون أخبار الرضا : له أيضاً ـ قدّس الله سرّه ـ مؤسسة الأعلمي ، بيروت ـ ١٤٠٤هـ .

حرف الغين

٦٢ ـ الغدير: الأميني : عبد الحسين أحمد النجفي(١٣٢٠ ـ ١٣٩٠هـ) دار الكتاب العربي ، بيروت ـ ١٣٨٧هـ .

حرف الفاء

٦٣ ـ فتح الباري : ابن حجر: أحمد بن علي العسقلاني(٧٧٣ ـ ٨٥٢هـ) دار المعرفة ـ بيروت .

٦٤ ـ فتوح البلدان : البلاذري : أبو الحسن(ت ٢٧٩هـ) المكتبة التجارية ـ مصر ١٩٥٩م .

٦٥ ـ في ظلال القرآن : سيد قطب ـ دار احياء التراث العربي ، بيروت ـ ١٣٨٦هـ الطبعة الخامسة .

حرف الكاف

٦٦ ـ الكافي : الكليني : أبو جعفر محمد بن يعقوب الرازي(ت ٣٢٩هـ) دار الكتب الإسلامية ، طهران ـ ١٣٨٨هـ .

٦٧ ـ الكامل في التاريخ : ابن الأثير: محمد بن محمد الجزري(ت٦٣٠هـ) دار الكتاب العربي ـ بيروت .

٦٨ ـ الكشاف : الزمخشري : محمود بن عمر بن محمود(ت ٥٣٨ هـ) ط القاهرة ١٣٦٧هـ ـ ١٩٤٨ م .

٦٩ـ كنز الفوائد : الكراجكي : محمد بن علي بن عثمان(ت٤٤٩) .

٧٠ ـ كنوز الحقائق في حديث خير الخلائق:المناوي : عبد الرؤوف (ت ١٠٣١هـ) طبع مصر.

حرف اللام

٧١ ـ لسان العرب : ابن منظور: محمد بن مكرّم (٦٣٠ ـ ٧١١هـ) دار إحياء التراث العربي ، بيروت ـ ١٤٠٨هـ .

حرف الميم

٧٢ ـ مجمع البيان: الطبرسي: أبو علي الفضل بن الحسن(٤٧١ ـ ٥٤٨هـ) مطبعة العرفاني، صيدا ـ ١٣٥٤هـ.

٧٣ ـ المختصر النافع: أبو القاسم المحقق جعفر بن الحسن(٦٠٢ ـ ٦٧٦هـ ط مصر.

٧٤ ـ المراجعات: السيد عبد الحسين شرف الدين(١٢٩٠ ـ ١٣٧٧هـ) طبع مصر.

٧٥ ـ مستدرك الحاكم: الحاكم النيسابوري: أبو عبد الله محمد بن عبد الله (ت٤٠٥هـ) ـ دار الفكر، بيروت ـ ١٣٩٨ هـ.

٧٦ ـ مستدرك الوسائل: النوري الطبرسي: الحسين بن محمد تقي بن محمد (١٢٥٤ ـ ١٣٢٠هـ)، مؤسسة آل البيت، قم ـ ١٤٠٧ هـ.

٧٧ ـ مسند أحمد: أحمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ) دار الفكر ـ بيروت.

٧٨ ـ المغازي: الواقدي: محمد بن عمر بن واقد(١٣٠ ـ ٢٠٧هـ) مؤسسة الأعلمي، بيروت ـ لبنان.

٧٩ ـ مفاهيم القرآن: السبحاني: جعفر بن محمد حسين (١٣٤٧هـ) مؤلف هذا الكتاب، قم ـ ١٤٠٤ هـ.

٨٠ ـ مقاييس اللغة: ابن فارس: أبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا (ت٣٩٥هـ)، دار احياء الكتب العربية، القاهرة ـ ١٣٦٦ هـ.

٨١ ـ مكاتيب الرسول: علي بن حسين علي الأحمدي(المعاصر) المطبعة العلمية، قم ـ ١٣٧٩ هـ.

٨٢ ـ مناقب علي بن أبي طالب: ابن المغازلي: أبو الحسن علي بن محمد الشافعي(ت٤٨٣هـ) المكتبة الإسلامية، طهران ـ ١٤٠٣ هـ.

٨٣ ـ مناقب آل أبي طالب: ابن شهر آشوب: أبو جعفر رشيد الدين محمد بن علي السروي المازندراني(٤٨٨ ـ ٥٨٨ هـ) المطبعة العلمية، قم ـ إيران.

٨٤ ـ من لايحضره الفقيه: الصدوق: أبو جعفر محمد بن علي بن بابويه القمي(ت٣٨١هـ)، دار الكتب الإسلامية، طهران ـ ١٣٩٠ هـ.

٨٥ ـ منهاج السنّة : ابن تيمية : أحمد بن تيمية(ت ٦٦١ ـ ٧٢٨هـ)طبع مصر.

٨٦ ـ ميزان الإعتدال : محمد بن أحمد الذهبي(ت ٧٤٨ هـ) نشر دار المعرفة ـ بيروت .

٨٧ ـ الميزان في تفسير القرآن : الطباطبائي : السيد محمد حسين (١٣٢١ ـ ١٤٠٢هـ) مؤسسة الأعلمي ، بيروت ـ ١٣٩٣ هـ .

حرف النون

٨٨ ـ ناسخ التواريخ : لسان الملك : محمد تقي بن محمد علي(ت ١٢٩٧هـ) ط طهران .

٨٩ ـ نفح الطيب : شمس الدين المالكي(ت ٧٨٠ هـ) .

٩٠ ـ نهج البلاغة : جمع الشريف الرضي : أبو الحسن محمد بن الحسن(٣٥٩ ـ ٤٠٦هـ) بيروت ـ ١٣٨٧هـ .

٩١ ـ نهج الفصاحة : أبو القاسم پاينده ، المطبعة الإسلامية ، طهران ـ ١٣٨٩ هـ .

٩٢ ـ نور الثقلين : العروسي الحويزي : عبد علي بن جمعة (ت ١١١٢هـ) مطبعة الحكمة ، قم ـ إيران .

حرف الهاء

٩٣ ـ الهدى إلى دين المصطفى : شيخ جواد البلاغي(١٢٨٢ ـ ١٣٥٢هـ) ط صيدا لبنان .

حرف الواو

٩٤ ـ الوحي المحمدي :السيد محمد رشيد منشئ المنار(ت١٣٥٤هـ)ط مصر .

٩٥ ـ وسائل الشيعة : الحر العاملي : محمد بن الحسن(ت١١٠٤هـ) دار إحياء التراث العربي ، بيروت ـ ١٤٠٣هـ .

٩٦ ـ وفيات الأعيان : ابن خلّكان : أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد(٦٠٨ ـ ٦٨١هـ) منشورات الرضي ، قم ـ إيران ـ ١٣٦٤ هـ .

فهرس

المواضيع المهمّة

فهرس المواضيع المهمّة

الموضوع	رقم الصفحة

(۳)

ميلاد النبيّ الأكرم أو تبلّج النور في الظلام الحالك

الموضوع رقم الصفحة

(٤)

الوحي في القرآن الكريم

(٥)

بعثته و نزول الوحى إليه

الموضوع رقم الصفحة

(٦)

الإيجابيات و السلبيات تجاه الدعوة المحمّدية

الموضوع	رقم الصفحة

(٧)

إسراؤه و معراجه

(٨)

في رحاب الهجرة إلى يثرب

الموضوع	رقم الصفحة

الموضوع	رقم الصفحة

(٩)

الاشتباك المسلح مع اليهود بالمدينة

(١٠)

غزوات النبي الأكرم صلى الله عليه وآله

الموضوع	رقم الصفحة

٢ ـ غزوة أُحد

الموضوع	رقم الصفحة

٣ ـ غزوة الخندق

٤ ـ غزوة بني المصطلق

الموضوع	رقم الصفحة

٥ ـ صلح الحديبية

الموضوع	رقم الصفحة

الموضوع | رقم الصفحة

(١١)
البراءة من المشركين

(١٢)
الجهاد في الإسلام دفاعياً أو تحريرياً

الموضوع | رقم الصفحة

(١٣)

واقعة الغدير

(١٤)

الإعلام و أساليبه في عصر الرسالة

الموضوع	رقم الصفحة

(١٥)

القوميّة في الإسلام